

إِمْدَادُ الْكَلِمِ

فِي

تَفْسِيرَيْنِ خَيْرِ الْكَلِمِ

لِلْعَلَّامَةِ الشَّيْخِ
مُحَمَّدِ إِمْدَادِ حُسَيْنِ بَيْرَزَادَه



دار الفتح
للدراسات والنشر

إِمْدَادُ الْكَلِمِ

فِي

تَفْسِيرِ خَيْرِ الْكَلِمِ

لِلْعَلَّامَةِ الشَّيْخِ

مُحَمَّدِ إِمْدَادِ حُسَيْنِ بَيْرَزَادَه

إمداد الكرم في تفسير خير الكلام
للعلامة الشيخ محمد إمداد حسين بيرزاده
نقله عن الأردنية أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد
الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©

قياس القطع: 17 × 24

الرقم المعياري الدولي: 978-9957-23-4218-8

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (١٧٥٧/٤/٢٠١٧)



دارالفتح للدراسات والنشر



هاتف: 6 4646199 (00962)

جوال: 777925467 (00962)

ص.ب: 183479 عمان 11118 الأردن

البريد الإلكتروني: info@daralfath.com

الموقع على الشبكة الإلكترونية: www.daralfath.com

الناشر بالمملكة المتحدة:

Al-Karam Publications

Eaton Hall

Retford

Nottinghamshire

DN22 0PR

England, United Kingdom

Tel: +44 (0) 1777 702555

Email: info@alkarampublications.com

Website: www.alkarampublications.com



AL-KARAM
PUBLICATIONS

الدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي سابق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing from the publisher.

إِمْدَادُ الْكَلِمِ
فِي
تَفْسِيرِ خَيْرِ الْكَلِمِ

لِلْعَلَّامَةِ الشَّيْخِ
مُحَمَّدِ إِمْدَادِ حُسَيْنِ بَيْرِزَادَه

نَقَلَهُ عَنِ الْأُرْدِيَّةِ
أ. د. إِبْرَاهِيمَ مُحَمَّدَ إِبْرَاهِيمَ السَّيِّدِ

الْجُزْءُ الثَّالِثُ



دارالفتح
للدراسات والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فهرس مضامين المجلد الثالث

مسلسل	المضمون	رقم الصفحة
١	فهرس مطالب المجلد الثالث	٧
٢	سورة يوسف (١٢)	١١
٣	سورة الرعد (١٣)	٧٧
٤	سورة إبراهيم (١٤)	١١٥
٥	سورة الحجر (١٥)	١٤٣
٦	سورة النحل (١٦)	١٦٧
٧	سورة الإسراء (١٧)	٢٣١
٨	سورة الكهف (١٨)	٣٠١
٩	سورة مريم (١٩)	٣٥٧
١٠	سورة طه (٢٠)	٣٩٥
١١	سورة الأنبياء (٢١)	٤٤٩
١٢	سورة الحج (٢٢)	٥٠٧
١٣	فهرس المطالب التفصيلي للمجلد الثالث	٥٥٥
١٤	المصادر والمراجع	٥٩٧

فهرس مطالب

المجلد الثالث

الصفحة	المضامين	الصفحة	المضامين
٥٥٥	الخلق	٥٥٥	الله تعالى
٥٥٦	المحبة	٥٥٦	الذِّكْرُ والشُّكْرُ
٥٥٧	متفرقات	٥٥٦	الرحمة
٥٥٧	النبوة والرسالة	٥٥٧	محمد رسول الله ﷺ
٥٥٨	روضة الرسول ﷺ	٥٥٨	طاعة النبي ﷺ
٥٥٩	الحديث والسُّنَّةُ	٥٥٨	علم النبي ﷺ
٥٥٩	الشفاعة	٥٥٩	اختيار النبي ﷺ
٥٦٠	شأن النبي ﷺ وعظمته	٥٦٠	تعظيم النبي ﷺ وتكريمه
٥٦١	مِزَاجُ النبي ﷺ وأخلاقه	٥٦٠	الآثار المباركة والتوسل

الصفحة	المضامين	الصفحة	المضامين
٥٦١	النبي الرحيم والكريم ﷺ	٥٦١	بشرية النبي ﷺ ونورانيته
٥٦٢	المعجزات	٥٦٢	رحمة النبي ﷺ
٥٦٣	معراج النبي ﷺ	٥٦٢	هجرة النبي ﷺ
٥٦٣	الأنبياء الكرام عليهم السلام	٥٦٣	متفرقات
٥٦٤	سيدنا آدم عليه السلام	٥٦٣	النبوة والرسالة
٥٦٥	سيدنا موسى عليه السلام	٥٦٤	سيدنا إبراهيم عليه السلام
٥٦٦	الأنبياء الكرام الآخرون عليهم السلام	٥٦٦	سيدنا عيسى عليه السلام
٥٦٩	الأمة المسلمة	٥٦٨	دين الإسلام
٥٧٠	أهل بيت النبي رضي الله عنهم	٥٦٩	الأمم السابقة
٥٧١	بنو إسرائيل	٥٧٠	الصحابة الكرام رضي الله عنهم
٥٧٢	الإنسان وعظمة الإنسان	٥٧٢	الجبرُّ والقَدَرُ

الصفحة	المضامين	الصفحة	المضامين
٥٧٣	الدعاء	٥٧٢	الجهاد والشهادة
٥٧٤	الشیطان	٥٧٣	المساجد
٥٧٥	السیاسة	٥٧٤	الشباب
٥٧٥	حدُّ المرتد	٥٧٥	الكفر والكفار
٥٧٦	العبادة والعابدون	٥٧٦	الشرك والمشركون
٥٧٧	التقوى وأهل التقوى	٥٧٦	العلم وأهل العلم
٥٨٠	الجنة والنار	٥٧٨	الإيمان وأهل الإيمان - أولياء الله
٥٨٢	القیامة	٥٨١	الحسنة والذنب
٥٨٥	القرآن المجید	٥٨٤	التوبة والموت والقبر
٥٨٧	الرزق الحلال	٥٨٦	مكانة المرأة وحقوق وواجبات الزوجین
٥٨٧	الصلاة	٥٨٧	حقوق وواجبات كل من الوالدين والأولاد

الصفحة	المضامين	الصفحة	المضامين
٥٨٩	الزكوات والصدقات	٥٨٨	الحج والصوم
٥٨٩	الصدق والكذب	٥٨٩	السلام
٥٩٠	السحر	٥٩٠	الملائكة
٥٩١	اليتيم	٥٩٠	الوالدان والأولاد والأقارب الآخرون
٥٩١	زيارة القبور وإيصال الثواب	٥٩١	التوكل
٥٩٢	القياس والاجتهاد والإجماع	٥٩١	الدنيا ومالها ومتاعها
٥٩٢	العهد والأمانة	٥٩٢	التقليد
٥٩٣	الظلم والعدوان	٥٩٢	الحيوان والحيوان الأخرس
٥٩٣	مكة المكرمة والمدينة المنورة	٥٩٣	الصبر والشكر
		٥٩٣	متفرقات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢) سُورَةُ يُوسُفَ

هذه السُورَةُ مَكِّيَّةٌ، واسمُها «يوسف»؛ لأنَّ فيها بيانًا لأحوالِ سَيِّدِنَا يوسُفَ عليه السَّلامِ الحَيَاتِيَّةِ، ولم يأتِ بيانٌ لقِصَّةِ أَحَدٍ مِنَ الأنبياءِ في القرآنِ الكريمِ بالتفصيلِ الذي جاءت به قِصَّةُ سَيِّدِنَا يوسُفَ عليه السَّلامِ في «سُورَةِ يوسُفَ»، وقد ذَكَرَها اللهُ تعالى بَلَقِبِ ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.

وقد سَرَى اللهُ تعالى بقِصَّةِ سَيِّدِنَا يوسُفَ عليه السَّلامُ عن نَفْسِ نَبِيِّنَا الكريمِ ﷺ بأنَّ لا يُبالي بمخالفةِ أهلِ مَكَّةَ له، وسوف تَفْشُلُ خُطَطُهُم المُغْرِضَةُ مِثْلَمَا فَشِلَتْ خُطَطُ إِخْوَةِ يوسُفَ عليه السَّلامِ مِنْ قَبْلُ، وسوف يُضْطَرُّونَ فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ إِلَى الخُضُوعِ لَكَ والتسليمِ بِكَ، هذا مِنْ جَانِبٍ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرٍ دَعَا اللهُ تَعَالَى أَهْلَ مَكَّةَ إِلَى التَّفَكُّرِ والتدبُّرِ؛ بِأَنكُمْ - بسببِ حَسَدِكُمْ - تَفْعَلُونَ اليَوْمَ مَعَ أَخِيكُمْ مِثْلَمَا كَانَ إِخْوَةُ سَيِّدِنَا يوسُفَ عليه السَّلامِ يَفْعَلُونَ مَعَهُ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى - فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ - جَاءَ بِهِؤَلَاءِ الإِخْوَةَ عِنْدَ أَقْدَامِ سَيِّدِنَا يوسُفَ عليه السَّلامِ، وَهُمْ الَّذِينَ أَلْقَوْا بِهِ فِي البُئْرِ بِلا رَحْمَةٍ، وَبَنَفْسِ الطَّرِيقَةِ سَيَّئِي عَلَيْكُمْ يَوْمَ تَسْتَجِدُّونَ فِيهِ الرِّحْمَةَ مِنْ أَخِيكُمْ هَذَا الَّذِي تَحَاوَلُونَ الْقِضَاءَ عَلَيْهِ.

وهناك جوانبٌ عديدةٌ مِنْ حَيَاةِ سَيِّدِنَا يوسُفَ عليه السَّلامِ وَحَيَاةِ النَبِيِّ الكريمِ ﷺ مُتَشَابِهَةٌ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ:

* حاول إخوة سيدنا يوسف عليه السلام قتله بإلقائه في البئر، وخططت قريش لقتل النبي ﷺ ليلة الهجرة من مكة.

* حاولت زليخا إغواء سيدنا يوسف عليه السلام بإغرائه بالمُغريات الدنيوية، ولكنه رَفَضَ، مما نَتَجَ عنه دخوله السَّجَنَ، وبنفس الطريقة حاول الكُفَّارُ إغراء النبي صلى الله عليه وآله بالمُغريات الدنيوية ليتخلى عن مخالفة الأصنام، ولكنه رَفَضَ، مما نَتَجَ عنه محاصرته ﷺ في شعب أبي طالب.

* أنعم الله تعالى على سيدنا يوسف عليه السلام بحُكم مصر، وفي نهاية المطاف جاءه إخوته وخَضَعُوا لَهُ، وعفا سيدنا يوسف عليه السلام عن إخوته، وبنفس الطريقة أنعم الله تعالى على سيدنا محمد ﷺ بحُكم مكة، وعفا ﷺ عن أعدائه اللدودين قائلاً: أقول لكم ما قاله يوسف عليه السلام لإخوته: لا تريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

حياة سيدنا يوسف عليه السلام باختصار:

كان سيدنا يعقوب عليه السلام يُقيمُ في مدينة الخليل (حبرون) بفلسطين، وكان له اثنا عشر ولداً، من بينهم اثنان - يعني: سيدنا يوسف عليه السلام وأخاه الصغير بنيامين - من زوجته (راحيل)، والعشرة الباقون من زوجات أخريات، وقد ماتت (راحيل) بعد ولادة ابنها بنيامين بعدة أيام، وهكذا حُرِمَ سيدنا يوسف عليه السلام وأخوه بنيامين من حنان الأم منذ طفولتهما.

يقول العلامة فخر الدين الرازي: إن سيدنا يوسف عليه السلام رأى - في المنام «وهو ابنُ ثنتي عشرة سنة - الشمس والقمر والكواكب تسجدُ له، فقَصَّها على أبيه فقال: لا تذكرها لهم فيكيدوا لك كيِّداً»^(١)؛ لأنَّ تفسيرَ هذا الحلم

(١) التفسير الكبير، سورة يوسف (١٢): الآية ٤.

واضحٌ تمامًا، فيه بيانٌ لعظمتِكَ، وإخوتُكَ يحسُدونَكَ منذُ البداية، فإذا عَرَفُوا بهذا الحُلم سيزدادُ حسدُهم لك، والشَّيْطانُ هو العدوُّ المُبِينُ لِلإنسان، وسوف يُغري إخوتَكَ، وقد يؤذونَكَ بتحريضه.

يقولُ العَلَّامةُ القُرْطُبِيُّ: «الكواكبُ: إخوتُهُ، والشمسُ: أمُّه والقمرُ: أبوه... وقال قتادةٌ أيضًا: الشمسُ: خالته؛ لأنَّ أمَّهُ كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت أبيه»^(١)، والخالَةُ - على آيةٍ حال - تُعتَبَرُ بمثابة الأمِّ، وخصوصًا عندما يتزوَّجها الأبُّ، وعندئذٍ من الطبيعي أن يُسمِّيها «الأمَّ».

كان سيِّدنا يوسفُ عليه السَّلامُ - باعتبارِ الصُّورة والسَّيرة - لا مثيلَ له بين إخوته، وكان سيِّدنا يعقوبُ عليه السَّلامُ يحبه كثيرًا، وهو ما زرع الحسدَ في قلوبِ إخوته، فتشاوروا فيما بينهم بأنَّ يُلْقُوا بسيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامُ في البئرِ ليتخلَّصوا منه، وبالفعل استأذَنَ الإخوةُ من أبيهم في اضطحابِ سيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامَ معهم بحُجَّةِ الذهابِ إلى الصَّيْدِ والتنزُّه، وبالفعل أَلْقُوا بسيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامُ في البئرِ، وصَبَّغُوا قميصَه باللَّونِ الأحمرِ بدماءٍ شاةٍ، وجاءوا أباهم وقالوا له: كُنَّا نتسابقُ في الجري، وتركنا يوسفَ عندَ متاعنا، وفي تلك الأثناء جاء الذُّئْبُ وأكلَ يوسفَ عليه السَّلامَ، ونحن في غايةِ الأسفِ، ونعتذِرُ إليك كثيرًا.

وكان في قَعْرِ البئرِ حَجَرٌ كبيرٌ يعلو على مستوى سَطْحِ الماءِ فيه، مكثَ سيِّدنا يوسفُ عليه السَّلامُ فوقَه لثلاثةِ أيامٍ، إلى أنْ جاءت قافلةٌ من الشام متَّجِهَةً إلى مصرَ بمَحْضِ الصُّدفةِ، وجاء أحدهم ليستخرجَ الماءَ من البئرِ، وأخرجوا سيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامَ، واضطَحَبُوهُ معهم إلى مصرَ، وباعوه هناك غلامًا.

واشْتَرَى «عزيرُ مصرَ» وزيرُ الخزانةِ في مصرَ إذ ذاك سيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامَ،

(١) تفسير القرطبي، الموضع السابق نفسه.

واحْتَفَظَ به في بَيْتِهِ، وحاولتْ زَلِيخا زَوْجَهُ عَزِيزَ مِصْرَ وصديقاتُها استمالَةَ سَيِّدنا يوسُفَ عليه السَّلام إلى الفاحشة، ولكنَّه رَفَضَ، وعندئذٍ اتَّهموه كَذِبًا وزُورًا وبُهْتانًا، وأدْخَلوه السَّجْنَ، وكان السُّجْناءُ جميعًا، بل والسَّجَّانُ أيضًا، يحترمون سَيِّدنا يوسُفَ عليه السَّلام ويُجِلُّونَه في السَّجْنِ بسببِ خُلُقِهِ العظيم وسلوكِهِ الرفيع، كما اشتهر سَيِّدنا يوسُفُ عليه السَّلام في السَّجْنِ كثيرًا بتفسيرِهِ للأحلام.

وفي تلك الأثناء رأى مَلِكُ مِصْرَ حُلْمًا فَحَواه: أَنَّ سَبْعَ بَقَرَاتٍ ضِعَافٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ، وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ، وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ يَابِسَاتٍ. سألَ المَلِكُ رجالَ بِلادِهِ عن تفسِيرِ الحُلْمِ، فأجابوه بأنَّه حُلْمٌ غَيْرُ واضحٍ المعالِمِ! وليس أكثرَ من أَفكارٍ متناثرة، ولهذا لا نستطيعُ تفسِيرَه، فقال واحدٌ من رجالِ البِلادِ - وكان قد مكثَ في السَّجْنِ مع سَيِّدنا يوسُفَ عليه السَّلام لفترة - هناك شابٌّ صالحٌ في السَّجْنِ يُدعى يوسُفَ، وهو الذي يستطيعُ تفسِيرَ هذا الحُلْمِ، فإذا أَذِنْتَ لي أَذهبُ إليه وأُسالُه عن تفسِيرِ الحُلْمِ وأعودُ إليكم، وقال سَيِّدنا يوسُفُ عليه السَّلام في تفسِيرِ الحُلْمِ: المرادُ بالبقراتِ السَّبعِ السَّمانِ والسَّبعِ سُنبُلَاتِ الخُضْرِ: أَنَّ السَّبعَ سنواتٍ القادمة ستكوُنُ سنواتٍ رَفاةٍ ورَغَدٍ في العَيْشِ بالنَّسبةِ لكم، حيث ستُنتِجُ الأرضُ محصولًا وفيرًا، والمرادُ بالسَّبعِ بَقَرَاتِ العِجَافِ والسَّبعِ سُنبُلَاتِ اليابِسَاتِ: أَنَّ السَّبعَ سنواتٍ التَّالية ستكوُنُ سنواتٍ قَحْطٍ شديدٍ، حيث لن تُنتِجُ الأرضُ محصولًا بالمرَّة، وحُلُّ هذه المِصيبة أن تجتهدوا في زِراعةِ الأرضِ في السَّناتِ السَّبعِ الأولى غايةَ الاجتهاد، وقوموا بتخزينِ الغِلالِ استعدادًا لسنواتِ القَحْطِ التَّالية.

ولما سَمِعَ المَلِكُ هذا التفسيرَ لحُلْمِهِ أعجَبَهُ كثيرًا عِلْمُ سَيِّدنا يوسُفَ عليه السَّلام وحِكمَتِهِ، واعترفَ بعَظَمَتِهِ، فأصدرَ أوامِرَه أن أحضروا يوسُفَ إلَيَّ هنا، ولما ذَهَبَ المبعوثُ المَلِكِيُّ إلى السَّجْنِ حاملاً الأَمَرَ بالإفراجِ عن سَيِّدنا يوسُفَ عليه السَّلام، رَفَضَ سَيِّدنا يوسُفُ عليه السَّلام الخروجَ قائلاً: ارجعْ إلى المَلِكِ وقلْ له:

إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْرُجَ وَأَنَا مَتَّهَمٌ هَكَذَا، لَا بَدَّ مِنَ التَّحْقِيقِ فِي التَّهْمَةِ الْمَوْجَّهَةِ إِلَيَّ، وَالتِّي دَخَلْتُ السَّجْنَ بِسَبَبِهَا مِنْذُ اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا^(١). فَلَمَّا اسْتَدْعَى الْمَلِكُ زَلِيخَا وَالنِّسَاءَ الْأُخْرَيَاتِ مُحَلِّ التَّحْقِيقِ وَسَأَلَهُنَّ عَنِ الْأَمْرِ، شَهِدْنَ كُلُّهُنَّ بِعَقَّةِ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى أَنْ زَلِيخَا نَفْسَهَا اعْتَرَفَتْ وَأَقَرَّتْ بِأَنَّ الدَّنْبَ ذَنْبُهَا هِيَ، وَأَنَّ سَيِّدَنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَادِقٌ تَمَامَ الصَّدَقِ. وَبَعْدَ هَذَا التَّحْقِيقِ أَزْدَادَ تَقْدِيرُ الْمَلِكِ لِسَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ فِي أَشَدِّ الشُّوقِ لِرُؤْيَا هَذَا الْإِنْسَانِ ذِي الصِّفَاتِ الْمَلَائِكِيَّةِ، وَكَانَ عُمُرُ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ثَلَاثِينَ عَامًا^(٢).

وَحِينَ أُفْرِجَ عَنْ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأُخْرِجَ مِنَ السَّجْنِ، وَجِيَءَ بِهِ إِلَى الْمَلِكِ، نَزَلَ الْمَلِكُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ، وَسَجَدَ لِسَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ أَجْلَسَهُ بِجَانِبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَسَأَلَهُ: مَاذَا عَلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ الْآنَ بِخُصُوصِ الْحُلْمِ الَّذِي رَأَيْتَهُ؟

قَالَ سَيِّدُنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَرَى أَنْ تَجْمَعَ الطَّعَامَ، وَتَزْرَعَ زَرْعًا كَثِيرًا فِي هَذِهِ السَّنِينَ الْمُخَصَّصَةِ، فَإِنَّكَ لَوْ زَرَعْتَ عَلَى حَجَرٍ أَوْ مَدَرٍ لَنَبَتَ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ فِيهِ النِّمَاءَ وَالْبَرَكَهَ، ثُمَّ تَرَفَّعَ الزَّرْعُ فِي قَصَبِهِ وَسُنْبُلِهِ تَبْنِي لِهَ الْمَخَازِنِ الْعِظَامِ، فَيَكُونُ الْقَصَبُ وَالسُّنْبُلُ عَلَاقًا لِلدَّوَابِّ، وَحُبًّا لِلنَّاسِ، وَتَأْمُرُ النَّاسَ فَيَرْفَعُونَ مِنْ طَعَامِهِمْ إِلَى أُمَرَائِكَ الْخُمْسَ، فَيَكْفِيكَ مِنَ الطَّعَامِ الَّذِي جَمَعْتَهُ لِأَهْلِ مِصْرَ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَيَأْتِيكَ الْخَلْقُ مِنَ التَّوَاخِي يَمْتَارُونَ مِنْكَ، وَيَجْتَمِعُ عِنْدَكَ مِنَ الْكُنُوزِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ، فَقَالَ الْمَلِكُ: وَمَنْ لِي بِتَدْبِيرِ هَذِهِ الْأُمُورِ؟ وَلَوْ جَمَعْتُ أَهْلَ مِصْرَ

(١) «لَمَّا رَجَعَ الشَّرَابِيُّ إِلَى الْمَلِكِ وَعَرَضَ عَلَيْهِ التَّعْبِيرَ الَّذِي ذَكَرَهُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَحْسَنَهُ الْمَلِكُ فَقَالَ: ائْتُونِي بِهِ، فَعَادَ الشَّرَابِيُّ إِلَى يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: أَجِبَ الْمَلِكُ، فَأَبَى يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ السَّجْنِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَنْكَشِفَ أَمْرُهُ وَتَزُولَ التَّهْمَةُ بِالْكَلْبِيَّةِ عَنْهُ». التفسير الكبير، سورة يوسف (١٢): الآية ٥٠.

(٢) «وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ابْنُ ثَلَاثِينَ سَنَةً». التفسير الكبير، سورة يوسف (١٢): الآية ٥.

١٦ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (الجزء الثالث)
جميعاً ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أُمَنَاء، فقال يوسف عليه السَّلام: اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ أَرْضِكَ، إِنِّي حَاسِبٌ كَاتِبٌ»^(١).

لم يَقُمْ سَيِّدُنَا يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِخْبَارِهِمْ عَنْ مَصِيبَةِ الْقَحْطِ فَقَطُ وَاكْتَفَى بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَهُمْ عَنْ طَرِيقَةِ التَّعَامُلِ مَعَهُ وَالتَّخَلُّصِ مِنْهُ أَيْضًا، وَحِينَ لَمْ يَجِدْ الْمَلِكُ الشَّخْصَ الْمُنَاسِبَ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةِ، عَرَضَ سَيِّدُنَا يَوْسُفُ أَنْ يَقُومَ هُوَ بِهَا، لِيُنْقِذَ النَّاسَ مِنَ الْمَشَاكِلِ وَيَحْمِيَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ.

وَقَدْ تَأَثَّرَ الْمَلِكُ كَثِيرًا بِعِلْمِ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبشَخْصِيَّتِهِ وَإِخْلَاصِهِ إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّهُ عَهْدَ إِلَيْهِ بِكُلِّ السُّلْطَاتِ فِي الْحُكُومَةِ الْمِصْرِيَّةِ^(٢)، وَبَعْدَ تَوَلَّى مَسْئُولِيَّةِ الْبِلَادِ أَقَامَ سَيِّدُنَا يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جُورًا مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ فِي الْبِلَادِ بَحِثَ أَحَبَّهُ أَهْلُهَا جَمِيعًا، إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّ الْمَلِكَ أَسْلَمَ عَلَى يَدِ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣)، وَأَسْلَمَ بَعْدَهُ مِصْرِيُّونَ آخَرُونَ^(٤).

يَقُولُ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ رَقْم ٥٥ مِنْ سُورَةِ يَوْسُفَ: «فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يُبَيِّحُ لِلرَّجُلِ الْفَاضِلِ (فِي الْإِسْلَامِ) أَنْ يَعْمَلَ لِلرَّجُلِ الْفَاجِرِ، وَالسُّلْطَانِ الْكَافِرِ، بِشَرْطِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يُفَوِّضُ إِلَيْهِ فِي فِعْلٍ لَا يُعَارِضُهُ فِيهِ فَيُصْلِحَ مِنْهُ مَا شَاءَ»^(٥).

(١) التفسير الكبير وتفسير القرطبي، الآية ٥٤.

(٢) «فلما سمع الملك منه تعبير رؤياه، أعجب به وبعلمه وحسن أدبه، وأعزّه وأنزله لديه مكانة عالية، وآمنه على نفسه، واثمنه على كل شيء، وسلّمه مقاليد الحكم والسلطة، وفوّض إليه تصريف وإدارة الأمور السياسيّة والماليّة في جميع أنحاء مصر». التفسير المنير، سورة يوسف (١٢): الآية ٥٥.

(٣) «وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام». التفسير المنير، سورة يوسف (١٢): الآية ٥٦.

(٤) «لما فوّض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطف بالناس وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به وأقام فيهم العدل فأحبّه الرجال والنساء». تفسير القرطبي، الآية ٥٦.

(٥) تفسير القرطبي، الآية ٥٥.

وهكذا عهد الملك بتسيير حكم مصر كله إلى سيدنا يوسف عليه السلام، فأخذ يحثُ الفلاحين على زيادة المساحة المزروعة وزيادة المحاصيل، وقام بتخزين كميات كبيرة من الغلال في الصوامع المُعدّة لذلك، وطبقًا لتفسير الحلم فإنه حين بدأت السنوات السبع العجاف، ولم يعد لدى الناس غلال، تمّ توزيع المخزون من الغلال على الناس حسب الحاجة، وبهذا نجا أهل مصر من مخاطر القحط، أما البلاد المحيطة بمصر فلم يكن بها غلال على الإطلاق، وحين عرف أهل تلك البلاد أنّ مصر لديها مخزون من الغلال، توجهوا إليها للشراء، وكان سيدنا يوسف عليه السلام قد قرّر إعطاء كل أجنبي من الغلال وزنًا محددًا بما يمكن أن يقوم به جمل واحد، وكبقيّة الناس أرسل سيدنا يعقوب عليه السلام أبناءه لشراء الغلال من مصر، فلما وصلوها عرفهم سيدنا يوسف عليه السلام وهم إخوته، لكنهم لم يعرفوه؛ لأنه كان قد مضى أربعون عامًا منذ أن ألقوا به في البئر، وكان سيدنا يوسف عليه السلام في ذلك الوقت طفلًا صغيرًا، والآن تعيّرت ملامحه كثيرًا بوجود اللحية على وجهه، كما أنه لم يكن أحد منهم يتصوّر أنّ الأخ الذي ألقوا به في البئر سيكون هو اليوم حاكم مصر. على أية حال أحسن سيدنا يوسف عليه السلام ضيافتهم، وأعطاهم الغلال، ودعاهم للمجيء مرة أخرى ومعهم أخوهم الصغير، وفي نهاية الأمر وفي المرة الثالثة عرف سيدنا يوسف عليه السلام نفسه بإخوته، وعفا عن أخطائهم، واستدعى العائلة كلها لتأتي إلى مصر وتستقرّ بها.

وهكذا، حين هاجر والدا سيدنا يوسف عليه السلام وإخوته من فلسطين، ووصلوا إلى بلاط سيدنا يوسف عليه السلام في مصر، «سجد له أبواه وإخوته الباقون، وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم؛ إذا سلّموا على الكبير يسجدون له»^(١)،

(١) تفسير ابن كثير، الآية ١٠٠.

١٨ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (الجزء الثالث)

وحينئذ قال سيدنا يوسف عليه السلام لوالده: هذا تأويل رؤياي التي أخبرتك بها في طفولتي، وقد حققها الله اليوم بعد أربعين سنة^(١).

وبعد ذلك «أقام يعقوب عليه السلام عند ابنه يوسف عليه السلام أربعاً وعشرين سنة، وحضره الموت، فوصى يوسف عليه السلام أن يحمله ويدفنه عند أبيه، فمضى بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر، وأقام بعده ثلاثاً وعشرين سنة^(٢)».

الفقيه إلى الله:
محمد إمداد حسين بيبرزاده

الأربعاء ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٦م،
الموافق ٢٨ من ذي القعدة ١٤٢٧هـ.



(١) «كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة». تفسير ابن كثير، الآية ١٠٠.

(٢) التفسير المنير، الآية ١٠٠.

سُورَةُ يُوسُفَ (١٢)،

مكية (٥٣)، آياتها (١١١)، ركوعاتها (١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِينَ الْغَفْلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَنْتَ مَعَهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

﴿الر﴾

١- هذه حروف مقطعة، وهي سرٌّ بين الله تعالى وحيبيه المكرَّم سيِّدنا محمد ﷺ، ولمزيدٍ من التوضيح راجع الحاشية رقم ١ من سورة البقرة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

٢- يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: «أُنزل القرآن المجيد باللغة العربية، وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها»^(١). قال أبو جعفر: «يقولُ

(١) تفسير ابن كثير.

تعالى ذكره: إِنَّا أَنْزَلْنَا هَذَا الْكِتَابَ الْمُبِينِ، قرآنًا عربيًّا على العرب؛ لأنَّ لسانهم وكلامهم عربيٌّ، فَأَنْزَلْنَا هَذَا الْكِتَابَ بِلِسَانِهِمْ لِيَعْقِلُوهُ وَيَفْقَهُوا منه^(١)، ويقال «العرب» لأولاد إسماعيل عليه السَّلام، وكانت لغته العربيَّة^(٢).

ويقول سيِّدنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم: «أَحِبُّوا الْعَرَبَ لثَلَاثٍ؛ لِأَنِّي عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ، وَكَلَامُ (لِسَانِ) أَهْلِ الْجَنَّةِ عَرَبِيٌّ»^(٣).

كلُّ لغةٍ من لغاتِ العالمِ يحدثُ فيها تغييرٌ بشكلٍ أو بآخرَ بمرورِ قرنٍ من الزَّمنِ عليها، لكنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ لا تزالُ على حالِها الأُصْلِيَّةِ، رَغْمَ مرورِ أكثرَ من أربعةَ عَشَرَ قرنًا عليها، وستبقى دائمًا على نفسِ الحالة؛ لأنها لغةُ القرآنِ الكريمِ، وسيبقى القرآنُ الكريمُ دائمًا على حالِته الأُصْلِيَّةِ.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ ﴾

٣- يقول سيِّدنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: إِنَّ الصَّحَابَةَ الْكَرَامَ رضي الله عنهم قالوا: «يا رسولَ الله، لو قَصَصْتَ علينا، قال: فنزلت: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾»^(٤)، يعني: أَنَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ مِمَّا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهُ مِنْ قَبْلُ.

وهناك أسبابٌ عدَّةٌ لتسميةِ قصَّةِ سيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامُ بأحسنِ القصصِ، على سبيلِ المثال: لم تُذكرْ قصَّةُ أيِّ نبيٍّ في القرآنِ الكريمِ بهذا التفصيلِ الذي ذُكرتْ

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

(٢) «العرب كلها ولد اسماعيل». تفسير روح المعاني.

(٣) المستدرک، ٤: ٩٨، كنز العمال، برقم ٣٣٩٢٢.

(٤) تفسير القرطبي.

٢١ به قصّة سيّدنا يوسف عليه السّلام، وفيها أحداثٌ كثيرةٌ للتّعلّم والاعتبار، وتعدُّ بمثابة معلّم الطريق لهداية بني الإنسان، كما أنّ الأحداث التي وقعت بين سيّدنا يوسف عليه السّلام وإخوته تُشبه تلك الأحداث التي حدثت فيما بعد بين النّبي ﷺ وقريش، وفيها تسريّة عن النّبي ﷺ، وفي نفس الوقت دعوة لقريش من أجل التّفكّر والتدبّر، ويمكن معرفة تفصيل ذلك بالرجوع إلى التّقديم لهذه السّورة والتعريف بها.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (٤) قَالَ يَبْنَئُ لَكَ نَقْصُصٌ رَأَيْكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴿٥﴾

٤- رأى سيّدنا يوسف عليه السّلام منامًا في عمُرِ الثّانية عشرة، وهو: أنّ الشمس والقمر والنّجوم تسجد له، فقصّ ما رأى على أبيه سيّدنا يعقوب عليه السّلام، فقال سيّدنا يعقوب عليه السّلام: لا تقصّ رؤياك على إخوتك، وإلا تأمروا ضدّك؛ لأنّ تفسير هذا الحلم واضح تمام الوضوح، ففيه بيان لعظمتك، وإخوتك يحسدونك أصلاً، فإذا ما عرّفوا بأمر هذا الحلم ازداد حسدُهم لك، والشّيطان عدوٌّ مبينٌ للإنسان، ويمكن أن يُوسوس لإخوتك فيؤذوك بتحريضٍ منه، ولمعرفة المزيد عن هذا الحلم راجع تقديم السّورة في الصّفحات السابقة.

الحلم الجيد والحلم السيئ:

قال النّبي ﷺ: «إذا رأى أحدكم رؤيا يُحبّها فإنّما هي من الله، فليحمد الله عليها، وليحدّث بها، وإذا رأى غير ذلك ممّا يكرهه، فإنّما هي من الشّيطان، فليستعذ من شرّها، ولا يذكرها لأحدٍ، فإنّها لا تضرّه»^(١).

رؤية النبي ﷺ في المنام:

قال رسول الله ﷺ:

١- «مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَخَيَّلُ بِي»^(١).

٢- «مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَسِيرَانِي فِي الْيَقَظَةِ، وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي»^(٢).

ويقول الإمام الشُّيُوطِيُّ رحمه الله «قيل: كم رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يَقَظَةً؟ فقال: بضْعًا وسبعين مرة»^(٣).

﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

٥- كما أن الله تعالى أراك هذه الرؤيا العظيمة، كذلك سيختارُكَ للأعمالِ العظيمة، وسينعمُ عليك بِمَلَكَةِ تَفْسِيرِ الْأَحْلَامِ وفَهْمِ الْأُمُورِ، وكما أتمَّ الله تعالى نِعَمَهُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ عَلَى آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ: سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَسَيِّدِنَا إِسْحَاقَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَتَوَجَّهْهُم بِتَاجِ النُّبُوَّةِ، سَيِّمُ نِعَمَهُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ أَيْضًا عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَكَذَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالنُّبُوَّةِ، وَحَقَّقَ رُؤْيَاهُ عَمَلِيًّا بِأَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِحُكْمِ مِصْرَ أَيْضًا.

والله تعالى يَعْلَمُ حَقِيقَةَ مَنَامِ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَيُفِيضُ عَلَيْهِ طَبَقًا لِامْكَاتِيَّاتِهِ، وَلَا يَخْلُو عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ.

(١) البخاري، كتاب التعبير، باب ١٠ برقم ٦٩٩٤.

(٢) البخاري، كتاب التعبير، باب ١٠ برقم ٦٩٩٣.

(٣) الكواكب السائرة، ١: ٢٢٩.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَتَابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَا غَدَا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمَا عَشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَيَتْرَكُنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكْلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبْشُرْ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً وَلِلَّهِ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾

٦- حين وصل خبر الإسلام إلى المدينة المنورة، أرسل يهود المدينة بعض رجالهم لكي يتعاونوا مع أهل مكة في اختبار النبي ﷺ، ويسألوه: إن كنت نبيًا حقًا فأخبرنا عن النبي الذي أخذ ابنه من الشام إلى مصر، وفقد أبوه البصر من كثرة بكائه عليه. وكان يهود المدينة يعرفون أن سيدنا محمدًا لا يقرأ ولا يكتب، كما أنه لا يوجد في مكة عالمٌ بالتوراة، ولهذا لن يكون سيدنا محمد ﷺ على علم بهذا الأمر.

وردًا على هذا السؤال أنزل الله تعالى سورة يوسف، وبين فيها قصة سيدنا يوسف عليه السلام بقدر من التفصيل لا يوجد حتى في التوراة كتاب اليهود المقدس

أيضاً، كما أنّ هذا يُعتبر بمثابة الدليل الواضح على أنّ هذا كلام الله تعالى، وأنّ سيّدنا محمّداً ﷺ نبيّ حقّاً، وبعد مجيء الإجابة عن السؤال بهذا الشكل المُقنع، إذا لم يؤمن السائلون به ﷺ، فإنّهم - في النهاية - سيَندُمون أشدّ الندم مثل إخوة سيّدنا يوسف عليه السّلام.

وفي هذه الآية آيات كثيرة من العبرة والهداية ليهود المدينة وكُفّار مَكّة، بمعنى: أنّ سيّدنا محمّداً ﷺ نبيّ حقّاً، كما أنّ الإنسان الذي يَثْبُت في خِصَمِ تقلبات الحياة، ويصبر على المصائب، ويغفو عن الأعداء بعد المقدرة عليهم، سينجح بالضرورة في نهاية الأمر.

﴿ إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

٧- كان سيّدنا يعقوب عليه السّلام يُحِبُّ ولديه سيّدنا يوسف عليه السّلام وأخاه بنيامين كثيراً؛ لأنّهما كانا أصغر إخوتيها، وكانت والدتهما قد تُوفيت من قبل، كما أنّ الاثنين، وخاصّة سيّدنا يوسف عليه السّلام، كانا يتّصفان بجمال الصّورة وحسن السّيرة بين باقي الإخوة، وليس لهما نظير بينهم، ولكن تولّد الحسد في قلوب الإخوة العشر بسبب طريقة تعامل والدهم، وتشاوروا فيما بينهم على أنّهم الأكثر عدداً، وهم شبابٌ وأقوياء، وهم الذين يتحمّلون نفقات البيت كاملةً، ولهذا هم الأكثر استحقاقاً للمحبّة، وحبّ والدهم لأخويهم الصّغيرين أكثر منهم خطأً صريحاً وظلماً واضحاً، وليس المراد هنا خطأ العقيدة، وإنما قلّة فهم المعاملات الدنيويّة.

تعريف الحسد والغبطة:

الغِبطَةُ هي: أن ترى شخصاً في حال جيّد، فتفرّح له، وتتمنّى أن تكون مثله، وتحاول العمل على ذلك، والغِبطَةُ أمرٌ محبّب.

بينما الحسدُ هو: أن ترى شخصاً في حالٍ جيّدٍ، فتحقّدَ عليه، وتتمنّى أن يتحوّلَ من الحالِ الجيّدِ إلى الحالِ السيّئِ، وتحاولَ العملَ على ذلك، والحسدُ أمرٌ في غايةِ الشُّوءِ، مثلما قال النبي ﷺ فيما رواه سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «إياكم والحسدَ، فإنّ الحسدَ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النَّارُ الحطبَ، أو قال: العُشبُ»^(١).

﴿أَقْنُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾

٨- حينَ زاد حسدُ إخوةِ سيّدنا يوسفَ عليه السّلامُ له، تشاوروا فيما بينهم على أنه في وجودِ سيّدنا يوسفَ عليه السّلام لا يمكنُ أن يُفوزوا بحبِّ أبيهم الشّيخ، ولا أن يحفظوا باهتمامه، ولهذا ينبغي أن يقتلوا سيّدنا يوسفَ عليه السّلام، أو يلقّوا به في منطقةٍ بعيدةٍ مجهولة، بحيث لا يستطيعُ أن يعودَ إلى البيتِ ثانيةً، وبعدَ ذلك يتوبونَ من هذا الذّنب، ويصبحونَ صالحين، وبهذه الطريقة تنتهي حالةُ القلقِ والانزعاجِ وعَدَمِ الراحة التي يعيشونها، ويهتمُّ بهم أبوهم.

ولم يكنْ أمرُ بنيامينَ يهْمُهُمْ كثيراً، فربّما كانوا يعتقدونَ أنّ المحوَر الأساسَ لمحبةِ الأبِ الزائدة هو سيّدنا يوسفُ عليه السّلام، وأنّ محبةَ سيّدنا يعقوبَ لابنهِ بنيامينَ إنّما هي تابعةٌ لمحبةِ سيّدنا يوسفَ عليه السّلام.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا نَقْنُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾

٩- قال أحدُ إخوةِ سيّدنا يوسفَ عليه السّلام: لو أنّكم قرّرتم إزاحةَ سيّدنا يوسفَ عليه السّلام من المشهدِ تماماً، فلا تقتلوه، وإنّما ألْقُوا به في بئرٍ عميقٍ في منطقةٍ بعيدةٍ عن المدينة، فربّما مرّت قافلةٌ به تبحثُ عن الماء، فتعثّرُ عليه، وتصلّطُ به معها إلى بلادهم، وبهذه الطريقة يتحقّقُ ما نَصَبُوا إليه من جانب، ومن جانبٍ آخرَ

٢٦ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (الجزء الثالث)
لَا نُلَوِّثُ يَدَنَا بدماءٍ أًخِينَا بِغَيْرِ حَقٍّ، وَهَكَذَا افْتَنَعَ الْجَمِيعُ بِهَذَا الرَّأْيِ وَاتَّفَقُوا عَلَى
تَنْفِيذِهِ.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا عَلَى يَوْسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾

١٠- يُعْلَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ حَافِلُوا اصْطِحَابَ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
مَعَهُمْ خَارِجَ الْبَيْتِ قَبْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ، وَأَنَّ الْأَبَّ قَدْ رَفَضَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا فَهَمَ فِي هَذِهِ
الْمَرَّةِ يَقُولُونَ لِأَبِيهِمْ بِتَأْكِيدٍ أَكْبَرَ: يَا أَبَانَا، نَرْجُو أَنْ تَتَّقَ فِينَا، إِنَّا نَحِبُّ يَوْسُفَ وَنَتَمَنَّى
لَهُ الْخَيْرَ، ائْذَنْ لَنَا أَنْ نَصْطَحِبَ يَوْسُفَ مَعَنَا فِي الْغَدِ خَارِجَ الْبَيْتِ لِنُذْهَبَ لِلنُّزْهَةِ
وَالصَّيْدِ مَعًا فِي الْغَابَةِ، حَتَّى يَأْكَلَ وَيَشْرَبَ وَيَلْعَبَ جَيِّدًا، وَلَا تَخْشَ مِنْ حَدُوثِ
مَكْرُوهِ لَهُ، فَإِنَّا سَنَحَافِظُ عَلَيْهِ بِكُلِّ مَا نَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾

١١- ذَكَرَ سَيِّدُنَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَحْقُظَيْنِ هُمَا: أَوَّلًا: أَنَّ فِرَاقَ سَيِّدِنَا
يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيَحْزُنُهُ، وَثَانِيًا: أَنَّكُمْ إِذَا ذَهَبْتُمْ بِهِ لِلنُّزْهَةِ وَالصَّيْدِ، وَابْتَعَدْتُمْ
عَنْهُ لِسَبَبٍ أَوْ لآخرَ، وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ، فَأَخْشَى أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ عِنْدَئِذٍ. وَهَكَذَا
رَغِمَ أَنَّ سَيِّدَنَا يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَخْشَى عَلَى سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
مِنْ إِخْوَتِهِ، وَلَكِنَّهُ تَعَلَّلَ هُنَا بِالذِّئْبِ.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ﴾

١٢- قَالَ الْإِخْوَةُ: لَوْ أَكَلَ الذِّئْبُ سَيِّدَنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي وَجُودِنَا،
فَنَحْنُ إِذَا لَا قِيَمَةَ لَنَا، وَلِذَا لَا تَحْزَنُ وَلَا تَغْتَمُّ، فَنَحْنُ جَمَاعَةٌ مِنْ عَشْرَةِ إِخْوَةٍ،
وَنَمْلِكُ مِنَ الْقُوَّةِ مَا نَسْتَطِيعُ بِهَا الْحِفَافَ عَلَيْهِ وَحِمَايَتَهُ.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

١٣- أَذِنَ سَيِّدُنَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ - فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ - عَلَى مَضَضٍ، وَهَكَذَا اضْطَحَبُوا سَيِّدَنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَهُمْ، وَطَبَقًا لِلخُطَّةِ الْمَتَّقِ عَلَيْهَا مَسْبَقًا فِيمَا بَيْنَهُمُ الْقَوَاهِ فِي بَرٍّ مُظْلَمٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْوَحْيَ عَلَى سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَسْرِيَةً عَنْهُ أَنْ لَا تَخَفَ، فَنَحْنُ سَنَحْفَظُكَ، وَسَنُنْعِمُ عَلَيْكَ بِمَقَامٍ رَفِيعٍ، وَسَيَأْتِيكَ إِخْوَتُكَ ذَاتَ يَوْمٍ مَتَسَوِّلِينَ عَلَى بَابِكَ، وَسَتُخْبِرُهُمْ بِأَنْكُمْ قَدْ أَلْقَيْتُمْ بِأَخِيكُمْ فِي الْبُئْرِ، وَلَنْ يَخْطُرَ بِبَالِهِمْ مَطْلَقًا أَنَّكَ أَنْتَ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَتَقُولُ جَمَاعَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ وَالْبَاحِثِينَ: إِنَّ الْوَحْيَ الَّذِي جَاءَ ذِكْرُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُرَادُ مِنْهُ النُّبُوَّةُ وَالرَّسَالَةُ^(١)، «ثُمَّ الْقَائِلُونَ بِهَذَا الْقَوْلِ اخْتَلَفُوا فِي أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَلْ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِالْغَا أَوْ كَانَ صَبِيًّا؟ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِالْغَا وَكَانَ سِنُهُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّهُ كَانَ صَغِيرًا إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْمَلَ عَقْلَهُ وَجَعَلَهُ صَالِحًا لِقَبُولِ الْوَحْيِ وَالنُّبُوَّةِ كَمَا فِي حَقِّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٢).

وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

١٤- جَاءَ إِخْوَةُ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى آبِيهِمْ وَقْتَ الْعِشَاءِ وَهُمْ يَبْكُونَ بِكَاءٍ مُصْطَنَعًا قَائِلِينَ: يَا أَبَانَا الْعَزِيزُ، لَمْ تَكُنْ تَتَّقُ فِينَا مِنْ قَبْلُ فِيمَا يَخْصُ أَمْرَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْآنَ إِنْ صَدَّقْنَاكَ الْقَوْلَ فَلَنْ تُصَدِّقَ مَا سَنَقُولُ، لَكِنَّ

(١) «أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ الْوَحْيَ وَالنُّبُوَّةَ وَالرَّسَالَةَ، وَهَذَا قَوْلُ طَائِفَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ». التفسير الكبير.

(٢) التفسير الكبير.

الحقيقة هي أننا ذهبنا نتسابق جرياً، وتركنا يوسف عند متاعنا، وفي تلك الأثناء جاء ذئب وأكل يوسف عليه السلام.

كانت هذه هي القصة الكاذبة التي اختلقوها بغرض إخفاء جريمتهم.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾

١٥- خلع الإخوة قميص أخيهم سيدنا يوسف عليه السلام عنه وقت أن ألقوه في البئر، وذبحوا شاة، ووضعوا من دمائها على القميص، ونسوا أن يمزقوا القميص! وأروا أباهم هذا الدم الكاذب، مؤكدين له على أن الذئب أكل سيدنا يوسف عليه السلام، فلما رأى سيدنا يعقوب عليه السلام القميص قال: ما أعجب هذا الذئب الذي مزق الطفل وأكله، ولكن لم يمزق قميصه! إن الحقيقة هي أن هذه القصة كاذبة ومن اختراعكم أنتم، ولكني سأصبر، وأدعو الله تعالى أن يظهر حقيقة ما تقولون.

وهناك ثلاثة أحداثٍ مرتبطة بقميص سيدنا يوسف عليه السلام:

١- حاول الإخوة خداع أبيهم بوضع الدم على قميصه عليه السلام.

٢- قدم قميص سيدنا يوسف عليه السلام دليلاً في واقعة زليخا، بمعنى: أنه لو كان القميص ممزقاً من الأمام فإن سيدنا يوسف عليه السلام مجرم، وإن كان ممزقاً من الخلف فإن زليخا هي المجرمة، وكان القميص ممزقاً من الخلف بالفعل، ولهذا ثبتت براءة سيدنا يوسف عليه السلام.

٣- كان قميص سيدنا يوسف عليه السلام السبب في عودة الإبصار إلى سيدنا يعقوب عليه السلام.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ. قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ﴾

١٦- ظلَّ سيِّدنا يوسفُ عليه السَّلامُ ثلاثةَ أيَّامٍ في البئر^(١)، وكان في البئرِ حجرٌ كبيرٌ يعلو مستوى سطح الماءِ بالبئر، وهو الذي مكَّث عليه سيِّدنا يوسفُ عليه السَّلامُ ثلاثةَ أيَّامٍ، وفي تلك الأثناء مرَّت قافلةٌ من هناك متَّجهةً إلى مصرَ، فأرسلوا واحدًا منهم ليجلب الماءَ لهم من البئر، وحين ألقيَ دَلْوُهُ في البئرِ أمسَكَ سيِّدنا يوسفُ عليه السَّلامُ بالدَلْوِ، وهنا رأى هذا الرجلُ الذي كان يأتي بالماءِ طفلًا صغيرًا جميلًا في البئر، فأخرجَه منه، وبشَّرَ مَنْ مَعَهُ بالقافلة بعثورِهِ على طفل، فاعتبرَهُ أصحابُ القافلةِ بضاعةً يمكنُ بيعُها، وأخفوه حتى لا يراه أحدٌ من أهله حسبما ظنُّوا، وعقدوا عزمَهُم على بيعه في مصرَ حين يَصِلُونَ إليها.

﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

١٧- الله تعالى يَعْلَمُ تمامَ العِلْمِ أنَّ إخوةَ سيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامِ لم يقدِّروه حقَّ قدرِهِ منذُ البداية، والآن أَخَذَهُ أصحابُ القافلةِ باعتباره غلامًا وعبداً، ولكنَّهُم لم يكونوا يَعْلَمُونَ أنَّ هذا الطِّفْلَ سيكونُ في المستقبلِ حاكمَ مصرَ، وفي هذا تسريَةٌ عن قلبِ سيِّدنا النبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، بأنَّنا نَعْلَمُ تمامَ العِلْمِ أنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ الذين لا يقدِّرونَكَ حقَّ قدرِكَ اليومَ، ولو شئنا لدمرناهم في لمحَّةٍ واحدة، لكنَّ حِكمتنا تقتضي أن ندعهم يختبرون قوتَهُم، وفي النِّهاية سيكونُ النِّصرُ لك كما كان لسيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامِ.

﴿وَأَسْرُوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾

١٨- باعَ أصحابُ القافلةِ سيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامُ في مصرَ بثمانٍ زَهِيدٍ للغاية، ولم يكونوا راغبينَ في الاحتفاظ به أصلاً؛ لأنَّهُم كانوا يخافونَ من أن

(١) «مكَّث يوسف في البئر ثلاثة أيام». التفسير المنير.

يراهم أحدٌ من أهله ويُمسِكُ بهم، ولهذا حاولوا التخلُّصَ منه سريعاً، كما أنَّهم قد عَثَرُوا على الطِّفْلِ بغير جُهدٍ منهم أو تعبٍ أو حتى ثمن، والشيءُ الذي يأتي مَجَانًّا بهذا الشكل لا يكونُ مقدَّراً بالشكل الذي يَسْتَحِقُّه.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا
وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ
أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَوَدَتْهُ الْمَرْءُ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ
هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ
هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ؕ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا
سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ
هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ
وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا
رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا
وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ
أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

١٩- كان وزيرُ الخِزَانَةِ المصريِّ، والمعروفُ باسم عزيزِ مِصْرَ، هو الذي اشْتَرَى سَيِّدَنَا يوسُفَ عليه السَّلَام، وقال لزوجته زليخا: أَكْرِمِي مَثْوَاهُ، وأحسني معاملته، فهذا الطِّفْلُ يبدو ذا طالع سعيد، وسوف يُفِيدُنَا، أي: سوف يُسَاعِدُنَا في أمورِ الحُكْم، أو أن نَتَّخِذَ منه وَلَدًا لنا؛ لأنَّهم لم يكنْ يولِّدُ لهم، وهكذا مثلما نَجَّى اللهُ

تعالى سَيِّدَنَا يَوْسُفَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبُئْرِ وَاسْتِعْبَادِ أَصْحَابِ الْقَافِلَةِ، مَنْحَهُ إِقَامَةً كَرِيمَةً وَمَحْتَرَمَةً فِي بَيْتِ وَزِيرِ الْخِزَانَةِ الْمِصْرِيِّ، وَلِهَذَا مَهْمَا تَبَدُّ الْأُمُورُ فِي الظَّاهِرِ سَيِّئَةً وَغَيْرَ مُنَاسِبَةٍ، فَإِنَّ اللَّهَ غَالِبٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَعْتَمِدُونَ عَلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرِيَّةِ فَقَطْ، وَلَا يَفْهَمُونَ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى حَقِيقَتِهَا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

٢٠- حين أصبح سَيِّدَنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رِيعَانِ الشَّبَابِ، أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ وَالشَّرِيعَةِ وَعِلْمِ تَفْسِيرِ الْأَحْلَامِ، وَبِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْزِي الصَّالِحِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ.

﴿وَرَزَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۚ وَعَلَّقَتْ الْأَتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

٢١- ذَاتَ يَوْمٍ أَغْلَقَتْ زَلِيخَا الْبَابَ، وَدَعَتْ سَيِّدَنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى نَفْسِهَا، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ فِعْلِ الشُّوْءِ، إِنَّ اللَّهَ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِذْ نَجَّانِي مِنَ الْجُبِّ، وَأَقَامَنِي فِي أَحْسَنِ مَقَامٍ»^(١)، وَلَئِنْ دَعَوْتُكَ هَذِهِ ذَنْبٌ عَظِيمٌ وَظُلْمٌ أَعْظَمُ، وَلَا يُفْلِحُ الظَّالِمُ أَبَدًا.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْءَ ۚ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

٢٢- لَقَدْ عَزَمَتْ زَلِيخَا عَلَى فِعْلِ الْفَاحِشَةِ مَعَ سَيِّدَنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِلَّا أَنَّ سَيِّدَنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَدْ رَأَى الْبُرْهَانَ الْوَاضِحَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ قَبْلُ، لَذَا لَمْ يَكُنْ يَتَوَيَّ ارْتِكَابَ الْفَاحِشَةِ أَصْلًا، فَمَاذَا كَانَ ذَلِكَ الْبُرْهَانُ الْوَاضِحُ؟ يَقُولُ سَيِّدُنَا جَعْفَرُ الصَّادِقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْبُرْهَانُ: النَّبُوَّةُ الَّتِي

أودع الله في صدره حالت بينه وبين ما يُسخطُ الله عزَّ وجلَّ ... وهذا أصوب الأقوال عندي»^(١)؛ لأنَّ النبيَّ معصومٌ من ارتكاب الذُّنوب، سواءً قبل بعثته أم بعدها، ويعرِفُ - بفطرته - حقيقة أنَّ الزَّنا حرام، ولهذا ما أن دَعَتْه زليخا إلى نفسها حتى قال من فوره بناءً على هذا العلم الفطريِّ والفِراسة النَّبويَّة: أعودُ بالله، لا يمكنُ أن أفعلَ هذا، فهذا حرامٌ قطعاً.

وكان لهذه العمليَّة هدفٌ آخرٌ، وهو أن تعرِفَ الدُّنيا كُلُّها أنَّ تقوى النبيِّ تكونُ على درجةٍ عالية، بحيثُ تُجنِّبه ارتكاب الفاحشة وأفعالِ الشُّوء، حتَّى في أكثر المواضع حرَجًا، إذ كانت هذه مجردَ امرأة، لكنَّ الشَّيطانَ استسلمَ أمامَ تقوى النبيِّ، واعترفَ بفشله أمامَ الله تعالى قائلاً: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٣]، بمعنى: أنِّي لا سلطانَ لي على عبادِكَ الذين اختَرْتَهُم أنت وأخلصتَهُم لنفسِكَ، وسيُدنَّا يوسفُ عليه السَّلامُ من عبادِ الله المختارينَ أولئك، فكيف يمكنُ أن يكونَ لزليخا سلطانٌ عليه إذا؟!!

﴿وَأَسْتَيْقَ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ، مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٢٣- حينَ أصرَّت زليخا على فعلِ الفاحشة، هزَّولَ سيِّدنا يوسفُ عليه السَّلامُ إلى البابِ محاولاً الخروجَ، وهزَّولَتْ من خَلْفِهِ زليخا، وجَذَبَتْه من قميصِهِ من الخلفِ محاولةً إيقافَهُ، وحينَ لم يتوقَّفَ سيِّدنا يوسفُ عليه السَّلام، تمزَّقَ القميصُ من الخلفِ، وحينَ خرَجَ الاثنانِ من البابِ في خِصَمِّ هذا الصُّراع، وجَدَا رُوجَ زليخا واقفاً أمامَهما، عندئذٍ حاولتْ زليخا إخفاءَ جُرمِها، فاتَّهمت سيِّدنا يوسفَ بأنه هو الذي أرادَ فعلَ الشُّوءِ معها، ولذا ينبغي أن تسجِّنوه أو تعذِّبوه عذاباً شديداً.

﴿ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

٢٤- لم يُردِّ سَيِّدُنَا يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - بدافع من شَرَفِهِ وَعِفَّتِهِ الْفِطْرِيَّةِ فِي الْغَالِبِ - أَنْ يَفْضَحَ سِرَّ زَلِيخَا، وَلَكِنْ عِنْدَمَا اتَّهَمَتْ زَلِيخَا سَيِّدَنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَذِبًا، حِينَئِذٍ أَظْهَرَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، إِبْطَالًا لِلتُّهْمَةِ وَإِبْعَادًا لِسُوءِ ظَنِّ عَزِيزٍ مِصْرَ بِهِ، قَائِلًا: إِنَّهَا تَكْذِبُ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي حَاوَلَتْ دَعْوَتِي إِلَى نَفْسِهَا، وَأَنَا الَّذِي رَفَضْتُ، وَلِهَذَا هَزَوَلَتْ وَرَائِي مِنَ الْخَلْفِ، وَمَزَّقَتْ قَمِيصِي أَيْضًا. وَبَيْنَمَا كَانَ هَذَا النِّقَاشُ عَلَى أَشَدِّهِ، إِذْ جَاءَ أَحَدُ أَقَارِبِ زَلِيخَا بِمَخْضِ الصُّدْفَةِ، فَاسْتَشَارَهُ عَزِيزُ مِصْرَ؛ كَيْفَ يَفْصِلُ فِي هَذَا الْأَمْرِ؟ فَقَالَ: أَوَّلًا لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يَشْهَدُ عَلَى مَا حَدَّثَ، وَلِهَذَا فَإِنَّ الْقَرَائِنَ يُمْكِنُ أَنْ تَدُلَّنَا عَلَى أَنَّهُ؛ إِنْ كَانَ قَمِيصُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَمَزَّقًا مِنَ الْأَمَامِ، فَالْمَرْأَةُ صَادِقَةٌ، إِذْ لَا بَدَّ أَنَّهَا حَاوَلَتْ الدَّفَاعَ عَنْ نَفْسِهَا، مِمَّا نَتَجَّ عَنْهُ تَمَزُّقُ قَمِيصِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ، وَإِنْ كَانَ الْقَمِيصُ مَمَزَّقًا مِنَ الْخَلْفِ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ صَادِقٌ، إِذْ لَا بَدَّ أَنَّهُ حَاوَلَ أَنْ يَهْرُبَ مِنْهَا، لَكِنْ زَلِيخَا جَذَبَتْهُ مِنَ الْخَلْفِ مُحَاوَلَةً إِيقَافِهِ، فَتَمَزَّقَ قَمِيصُهُ.

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَاذِبِينَ إِنَّ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ ﴾

٢٥- حِينَ رَأَى عَزِيزُ مِصْرَ قَمِيصَ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَمَزَّقًا مِنَ الْخَلْفِ، تَأَكَّدَ لَهُ أَنَّ زَلِيخَا كَاذِبَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ لَزَلِيخَا: مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ هَذَا مِنْ مَكْرِ النِّسَاءِ وَكَيْدِهِنَّ، وَمَكْرِ النِّسَاءِ وَكَيْدِهِنَّ عَظِيمٌ.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ حَكَمَ عَزِيزُ مِصْرَ عَلَى النِّسَاءِ جَمِيعًا أَنَّهِنَّ مَآكَرَاتُ، بَعْدَمَا رَأَى مَا فَعَلَتْهُ زَوْجَتُهُ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا هُوَ رَأْيُ عَزِيزٍ مِصْرَ نَفْسِهِ، وَبِالتَّالِي لَيْسَ صَحِيحًا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أُسَاسًا لِنَحْكُمَ عَلَى النِّسَاءِ بِأَنَّهُنَّ كُلُّهُنَّ مَآكَرَاتُ، إِذْ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النِّسَاءِ لَهُنَّ شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى عَظَمَتَهُنَّ فِي

القرآن الكريم، صحيح أن النساء إذا مكرن كان مكرهن أخطر من مكر الشيطان نفسه، ولكن ليس النساء كلهن ماكرات على أي حال.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾

٢٦- قال عزيز مصر لسيدنا يوسف عليه السلام: لقد أخطأت زليخا، ولتعتف عنها، ولا تذكر ما حدث لأحد. ثم قال لزليخا: لقد أخطأت أنت، وتتهمين يوسف عليه السلام كذباً، فاطلبي العفو من يوسف عليه السلام.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَفْعَلَنَّهُ لِيَتَّخِذَنَّهُ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُذُنُهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

٢٧- رغم أن عزيز مصر حاول أن يخفي الواقعة، لكنها اشتهرت في المدينة بشكل أو بآخر، وانتقدت النساء ما فعلته زليخا بأن زوجة وزير الخزانة تهيم عشقاً بغيلاً لها! وتدعوه إلى نفسها، وهذه حماقة صريحة منها وخطأ فادح ارتكبه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾

٢٨- عندما سمعت زليخا ما تقوله نساء المدينة عنها من كلام جارح، دعتهن إلى بيتها، ووضعت أمامهن الفاكهة والسكاكين، ثم قالت لسيدنا يوسف

عليه السّلام: تعالَ أُمَامَ هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ! وحين رأتِ النِّسَاءُ سَيِّدَنَا يَؤُسُفَ عليه السّلامُ أَخَذَهُنَّ جَمَالُهُ، إلى درجَةٍ أَتَهُنَّ جَرَحْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِالسَّكَاكِينِ، وَقُلْنَ بِغَيْرِ إِرَادَةٍ مِنْهُنَّ: إِنَّ هَذَا لَيْسَ بَشَرًا، إِنَّمَا هُوَ مَلَكٌ كَرِيمٌ.

ولا يعني هذا أَنَّ المَلَكَ يَكُونُ أَجْمَلَ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ أَجْمَلَ المَخْلُوقَاتِ شَكْلًا هُوَ الْإِنْسَانُ، وَلَكِنْ لِأَنَّ تِلْكَ النِّسْوَةَ لَمْ يَرَيْنَ إِنْسَانًا جَمِيلًا إِلَى ذَلِكَ الْحَدِّ قَبْلَ ذَلِكَ، لِهَذَا قَالُوا عَنْهُ: إِنَّهُ مَلَكَ، كَمَا أَنَّهُ لَا شَهْوَةَ لِلْمَلَائِكَةِ، وَحِينَ رَأَتْ تِلْكَ النِّسْوَةُ أَنَّ سَيِّدَنَا يَؤُسُفَ عليه السّلامُ لَمْ يَرْفَعْ بَصَرَهُ إِلَى أَيِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ، عِنْدَئِذٍ قُلْنَ فِي الْبَدِيهِةِ تَأَثُّرًا مِنْ شَرَفِهِ وَعِقَّةٍ: إِنَّهُ مَلَكٌ عَظِيمٌ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ.

رَوَى الْإِمَامُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدِهِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مَتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا، قَالَ: قَالَتْ لِلْقَيِّمِ: أَدْخِلْهُ عَلَيْهِنَّ وَالْبِسْهُ ثِيَابًا بِيضًا، فَإِنَّ الْجَمِيلَ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِي الْبِياضِ، قَالَ: فَأَدْخَلَهُ عَلَيْهِنَّ وَهِنَّ يَحْزُنْنَ مَا فِي أَيْدِيَهُنَّ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُ حَزُنَّ أَيْدِيَهُنَّ وَهِنَّ لَا يَشْعُرْنَ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، فَنَظَرْنَ إِلَيْهِ مُقْبِلًا، ثُمَّ أَوْمَأَتْ إِلَيْهِ أَنْ أَرْجِعْ، فَنَظَرْنَ إِلَيْهِ مُدْبِرًا وَهِنَّ يَحْزُنْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِالسَّكَاكِينِ، لَا يَشْعُرْنَ بِالْوَجْعِ مِنْ نَظَرِهِنَّ إِلَيْهِ، فَلَمَّا خَرَجَ نَظَرْنَ إِلَى أَيْدِيَهُنَّ، وَجَاءَ الْوَجْعُ فَجَعَلْنَ يُؤَلِّلْنَ، وَقَالَتْ لَهُنَّ: أَنْتُنَّ مِنْ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ هَكَذَا صَنَعْتُنَّ، فَكَيْفَ أَصْنَعُ أَنَا؟ قُلْنَ: ﴿حَشَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾^(١).

وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لِلْإِمَامِ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ: «فَلَمَّا وَلَّى عَنْهُنَّ قَالَتْ: هَذَا الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُكَ تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُنَّ وَمَا تَشْعُرْنَ، قَالَ: فَنَظَرْنَ إِلَى أَيْدِيَهُنَّ فَجَعَلْنَ يَصْحَنَ وَيَبْكِينَ، قَالَتْ: فَكَيْفَ أَصْنَعُ أَنَا؟ فَقُلْنَ: حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ، وَمَا نَرَى عَلَيْكَ مِنْ لَوْمٍ بَعْدَ الَّذِي رَأَيْنَا»^(٢).

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ٧: ٢١٣٥.

(٢) المرجع السابق، ٧: ٢١٣٧.

ويقول الإمام جلال الدين السيوطي عليه الرحمة في تفسير هذه الآية: «ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان وجه يوسف عليه السلام مثل البرق، وكانت المرأة إذا أتت لحاجة ستر وجهه مخافة أن تُفتن به»^(١).
﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زَادْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَةٍ لَسَجَنَ وَلَيْكُونَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾

٢٩- قالت زليخا لأولئك النسوة: هذا هو الشخص الذي لُمْتُنَنِي بسببه، لقد هممتُ به بنظرة واحدة إليه، لدرجة أنك قطعاً أيدى كن، أخبرني الآن إذا: كيف يكون حال هيام تلك التي تعيش معه ليل نهار؟ وبالإضافة إلى هذا اعترفت زليخا قائلة: إنني أنا التي حاولت كثيراً دعوة يوسف عليه السلام إلى نفسي، لكنه لم يُبال بي، واسمعني جيداً يا يوسف، لئن لم تُنقذ رغباتي، فسوف أُرسلُك إلى السجن ذليلاً مُهاناً، وقد حاولت النساء الموجودات في المجلس استمالة قلب سيدنا يوسف عليه السلام إلى زليخا، قائلات له: أطعها فيما تريد، إنها ذات فضل عليك. ويُعلم من كلام زليخا أن سيدنا يوسف عليه السلام ظلّ عفيفاً طاهراً، هذا من جانب، ومن جانب آخر أن الفاحشة لم تكن شيئاً يعاب في المجتمع المصريّ إذ ذاك، وإنما كان أمراً عادياً مثل المجتمعات الغربية الآن، ولهذا نجد زليخا تدعو سيدنا يوسف عليه السلام إلى نفسها مرة ثانية في مجلس مليء بالنساء، بل وتهدده بالسجن في حالة الرّفص والإنكار.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾

٣٠- حين تشفعت النساء لدى سيدنا يوسف عليه السلام بعد تهديد زليخا له، رفع سيدنا يوسف عليه السلام يده إلى الحضرة الإلهية قائلاً: إلهي، إن السجن

أَحِبُّ إِلَيَّ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي تَدْعُونِي إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ النِّسَاءُ، إِذْ بِالسَّجْنِ أَنْجُو مِنْ عَصِيَانِكَ، لَذَا نَجِّنِي يَا إِلَهِي مِنْ مَكْرِهِنَّ وَكَيْدِهِنَّ؛ لِأَنَّكَ إِنْ لَمْ تُنَجِّنِي مِنْ مَكْرِهِنَّ وَكَيْدِهِنَّ، فَسَأَمِيلُ إِلَيْهِنَّ، وَسَأَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّتَا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عِينَاهُ»^(١).

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

٣١- استجاب الله تعالى دعاء سيدنا يوسف عليه السلام، وثبت قدمه على الحق، بحيث لم يستطع كيد النساء ومكرهن أن يزلزل أقدامه.

﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُتُّهُ حَتَّى حِينٍ﴾

٣٢- ظهرت علامات عفة وطهارة سيدنا يوسف عليه السلام، على سبيل المثال: القميص الممزق من الخلف، واعتراف زليخا نفسها بأن سيدنا يوسف عليه السلام ظل عفيفاً طاهراً برغم محاولتها المستميتة، وعدم رفع بصره عليه السلام إلى النساء في المجلس الذي اجتمعن فيه بدعوة زليخا وغير ذلك، وقد تأكد الجميع بعد رؤية كل هذه العلامات أن سيدنا يوسف عليه السلام طاهرٌ وبريء، واستمر النقْدُ موجّهاً في المدينة كلها إلى وزير الخزانة وزوجته، وللتخلص من هذا الخزي رأى الوزراء في الحكومة أن من المناسب أن يدخل سيدنا يوسف عليه السلام السجن لفترة، حتى يعلم الناس أن سيدنا يوسف عليه السلام كان مذبذباً، ولذا أدخل السجن.

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعِصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي
 أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾
 قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي
 إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي
 إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا
 وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْصَجِي السَّجْنَ ءَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ
 خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
 وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِي
 أَلْقَيْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْصَجِي السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ
 خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾
 وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ
 رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعِصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي
 أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

٣٣- عندما أُرسِلَ سيِّدنا يوسفُ عليه السَّلامُ إلى السَّجن، دَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ
 فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَبِمَخْضِ الصُّدْفَةِ شَابَانِ، أَحَدُهُمَا خَبَّازُ مِطْبَخِ الْمَلِكِ، وَالْآخَرُ
 سَاقِي الْحَانَةِ، وَأَلْقَى الْقَبْضُ عَلَيْهِمَا بِتُهْمَةِ التَّامُرِ بِدَسِّ الشَّمِّ لِلْمَلِكِ، وَهَكَذَا كَانَا
 يَقْضِيَانِ عَقُوبَةَ السَّجَنِ، وَذَاتَ لَيْلَةٍ رَأَى الْاِثْنَانِ مَنَامًا، فَذَهَبَا إِلَى سَيِّدِنَا يُوسُفَ عَلَيْهِ
 السَّلامُ يَسْأَلَانِهِ تَفْسِيرَهُ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ السَّجَنَاءِ، بَلِ وَالسَّجَّانَ أَيْضًا، كَانُوا يُقَدِّرُونَ
 سَيِّدَنَا يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ وَيَحْتَرِمُونَهُ نَظَرًا لِأَخْلَاقِهِ الْعَالِيَةِ وَشَخْصِيَّتِهِ الطَّيِّبَةِ، وَبَنَاءً
 عَلَى هَذِهِ السَّمْعَةِ الطَّيِّبَةِ ذَهَبَ الْاِثْنَانِ إِلَيْهِ لِيُفَسِّرَ لَهُمَا مَنَامَهُمَا.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ۚ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ۖ ابْتَرَاهِيْمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

٣٤- رأى سيدنا يوسف عليه السلام من المناسب قبل أن يفسر لهما منامهما أن يدعوهما إلى التوحيد، وهكذا طمأنهما قائلاً: سأخبركما بتفسير منامكما قبل أن يأتكما طعامكما، ولكن يجب أن أبلغكما أنني لست كاهناً ولا منجماً محترفاً للتنجيم والكهانة، ولهذا فإن التفسير الذي سأخبركما به لن يكون بأسلوب الكهان ولا المنجمين، والذي يحتمل الخطأ والصواب كليهما، لكن هذا التفسير جزء من تلك العلوم الصادقة التي علّمني إياها ربي، فأنا على وجه التأكيد تارك لدين أولئك الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومتبع دين آبائي، يعني: دين سيدنا إبراهيم وسيدنا يعقوب عليهما السلام، ولا يجوز لنا نحن بني الإنسان أن نشرك بالله شيئاً، وعقيدة التوحيد هذه فضل من الله تعالى وإحسان على بني الإنسان، لكن أكثر الناس لا يشكرون، بمعنى: لا يؤمنون بالتوحيد.

وهنا أمرٌ لطيف يستحق التمعّن، وهو: أن سيدنا يوسف عليه السلام واجه مشاكل عديدة، على سبيل المثال: إخراج القافلة له من البئر واتخاذهُ عبداً، وبيعهُ في مصر، وشراء عزيز مصر له، ثم دخوله السجن بعد واقعة زليخا سابقة الذكر، وقد صبر سيدنا يوسف عليه السلام على كل هذه الابتلاءات، ولم يُخبر أحداً أنه من بيت عائلة النبوة، عائلة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ونور عيونها، مع أنه لو كان قد أخبر بأنه من أولاد سيدنا إبراهيم عليه السلام، لكان من الممكن أن لا تسلك معه القافلة سلوك العبيد، لكنّه - عليه السلام - لم يعتمد على شرف عائلته لكي يحصل على الراحة والاحترام الدنيوي، وإنما أثبت رفعة أخلاقه وعلو منزلته،

٤٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (الجزء الثالث)

ورَوْعَةً شَخْصِيَّتِهِ فِي السَّجْنِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَحَدَّثَ عَنْ عَائِلَتِهِ الْعَظِيمَةِ، بِأَنَّهُ مِنْ أَوْلَادِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَسَيِّدِنَا إِسْحَاقَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وَيُعَلِّمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُثَبِّتَ أَوَّلًا عَظَمَتَهُ وَرَفِعَةَ أَخْلَاقِهِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي شَرَفِهِ وَعَظَمَتِهِ بِذِكْرِ عَظَمَةِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ، لَكِنَّ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى الْإِحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ لِمَجَرَّدِ سُمْعَةِ آبَائِهِ الطَّيِّبَةِ، وَلَمْ يَكُنْ سَلُوكُهُ مُوَافِقًا لَهُمْ، فَإِنَّ هَذَا يُعَدُّ بِمَثَابَةِ الطَّعْنِ فِي آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ وَالْإِسَاءَةِ إِلَيْهِمْ.

فِي لِقَاءٍ لِي مَعَهُ فِي (بَلَاكِ بَرْن) بَلَنْدَنْ، أَخْبَرَنِي السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ شُعَيْبُ شَاهِ ابْنِ شَيْخِ الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ يَعْقُوبَ شَاهٍ مِنْ كِيرَانَوَالِهَ بِإَقْلِيمِ الْكَجَرَاتِ بِبَاكِسْتَانِ، أَنَّ وَالِدَهُ الْعَزِيزَ قَدْ تَلَقَّى تَعْلِيمَهُ فِي مُخْتَلَفِ الْمَدَارِسِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ لِأَحَدٍ أَبَدًا فِي أَيِّ مَكَانٍ بَأَنَّهُ مِنْ نَسْلِ الْأَشْرَافِ، وَكَانَ دَائِمًا يَقُولُ: نَحْنُ مِنَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِالزَّرَاعَةِ، وَكَانَ هَدْفُهُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ أَنْ يَصِلَ هُوَ أَوَّلًا فِي عِلْمِهِ وَسُلُوكِهِ إِلَى الْمَقَامِ الَّذِي يَلِيقُ بِكَوْنِهِ مِنْ عَائِلَاتِ الْأَشْرَافِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُظَهِّرُ انْتِسَابَهُ إِلَى عَائِلَتِهِ الْعَظِيمَةِ بِفَخْرٍ وَاعْتِرَازٍ.

﴿يَصَدِّحِي السَّجْنُ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

٣٥- اتَّخَذَ النَّاسُ آلِهَةً كَثِيرَةً يَرْغُمُهُمْ يَعْبُدُونَهَا، فَمِنْهُمْ مَنْ صَنَعَهَا مِنَ الذَّهَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَنَعَهَا مِنَ الْفِضَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَنَعَهَا مِنَ الْخَشَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَنَعَهَا مِنَ الْحَجَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَ لِلْمَطَرِ إِلَهًا، وَلِلشَّفَاءِ إِلَهًا، وَلِلرِّيحِ إِلَهًا، وَلِلزَّرْقِ إِلَهًا.

يَا صَاحِبِي فِي السَّجْنِ، فَكِّرُوا بِالْعَقْلِ قَلِيلًا وَأَخْبِرُونِي؛ هَلْ هَذِهِ الْأَرْبَابُ الْمُتَفَرِّقَةُ الَّتِي صُنِعَتْ لِأَهْدَافٍ مُحَدَدَةٍ، أَفْضَلُ أَمْ اللَّهُ تَعَالَى الْوَاحِدُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي يُنْزِلُ الْمَطَرَ، وَيَمُنُّ بِالشِّفَاءِ، وَيَنْفَعُ، وَيَرْزُقُ؟ بِالطَّبَعِ الْأَفْضَلُ أَنْ تَتَّجِهَ إِلَى بَابٍ وَاحِدٍ تَجِدُ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدُورَ عَلَى أَبْوَابٍ كَثِيرَةٍ لِتَحْصُلَ عَلَى أَشْيَاءَ مُخْتَلَفَةٍ.

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

٣٦- الأشياء التي تعبدونها من دون الله لا تستحق أن تعبد، فقد أطلقتم أنتم عليها أسماء مختلفة، وجعلتموها آلهة، وليس لديكم دليل عقلي على هذا، كما أن الله تعالى لم ينزل دليلاً يصدق ما تفعلون، في حين أن الحق الأصلي في تقرير الجائز من غير الجائز هو لله تعالى فقط، وهو لم يأمر أبداً بعبادة غير الله تعالى، وإنما كان أمره دائماً هو أن تعبدوا الله تعالى فقط، وهذا هو الصراط المستقيم، لكن أكثر الناس لا يحاولون فهم هذا الأمر.

﴿ يَصْحَجِي السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلِبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

٣٧- بعد أن دعاهما سيّدنا يوسف عليه السلام إلى التوحيد، قال مُفسِّراً مناهما: إنّ الساقى سيقى سيده خمرًا، بينما سيُصلب الخباز، وستبقى جثته معلقة مصلوبة، وسوف تنهشها الطيور، وهذا التفسير صادق تمامًا، وهذا قرار قد صدر بالفعل في التقدير الإلهي، وهذا - بالفعل - ما حدث، وبعد ثلاثة أيام أُعيد الساقى إلى عمله الأول من جديد، وصُلب الخباز.

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ ﴾

٣٨- قال سيّدنا يوسف عليه السلام للساقى: عندما تتم إعادتك إلى وظيفتك مرّة ثانية، اذكرني عند سيّدك، وقل له: إنّ هناك مسجونًا آخر سُجن بغير حق.

لَكِنَّ الشَّيْطَانَ أَنْسَى السَّاقِيَّ مَا قَالَهُ لَهُ سَيِّدُنَا يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَكَثَ سَيِّدُنَا يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سَنِينَ أُخْرَى.

وَيُعَلِّمُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْبَحْثَ عَنِ الْأَسْبَابِ الْمَشْرُوعَةِ لِلخُرُوجِ مِنْ مَصِيبَةٍ مَا، وَالِاسْتِعَانَةَ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِ، لَا يَتَنَافَى مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَثْتَ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يَوْسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَثْتَ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ ﴾

٣٩- ذَاتَ لَيْلَةٍ رَأَى مَلِكُ مِصْرَ حُلُمًا، وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ، فَسَأَلَ رِجَالَ بَلَاطِهِ عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرًا لِلْحُلُمِ، فَقَالُوا: إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ لَهُ تَفْسِيرًا؛ لِأَنَّهُ حُلْمٌ غَيْرُ وَاضِحٍ الْمَعَالِمِ، وَأَفْكَارٌ مَتَنَاطِرَةٌ لَا أَكْثَرَ، وَلِهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ تَفْسِيرٌ.

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾

٤٠- عِنْدَئِذٍ تَذَكَّرَ السَّاقِي الَّذِي خَرَجَ مِنَ السَّجْنِ سَيِّدَنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: يَوْجَدُ فِي السَّجْنِ رَجُلٌ يُمْكِنُهُ تَفْسِيرُ هَذَا الْحُلُمِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ فَسَّرَ حُلُمِي تَفْسِيرًا صَادِقًا، لِهَذَا اسْمَحْ لِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْهِ فِي السَّجْنِ، وَأَسْأَلَهُ، ثُمَّ أَعُودَ إِلَيْكُمْ.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُكٍ خُضِرٍ وَأُخْرَىٰ يَاسِنَةٍ لِّعَلِّيٰ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

٤١- ذَهَبَ السَّاقِي إِلَى السَّجْنِ وَسَأَلَ سَيِّدَنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّكَ صَادِقٌ، وَقَدْ فَسَّرْتَ حُلْمِي مِنْ قَبْلُ تَفْسِيرًا صَادِقًا، وَالآنَ رَأَى مَلِكُنَا حُلْمًا، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْ رِجَالِ الْبَلَاطِ تَفْسِيرَهُ، فَأَخْبِرْنَا عَنْ تَفْسِيرِهِ، حَتَّى يَعْرِفَ الْمَلِكُ وَرِجَالُ الْبَلَاطِ هَذَا التَّفْسِيرَ، وَيَعْرِفُوا عُلُوَّ مَرْتَبَتِكَ، وَعَظَمَةَ عِلْمِكَ.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ۖ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾

٤٢- لَمْ يَشْكُ سَيِّدُنَا يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكَرَمِ أَخْلَاقِهِ الرَّفِيعَةِ فِي عَدَمِ وِفَاءِ السَّاقِي بِالْوَعْدِ، وَإِنَّمَا فَسَّرَ الْحُلْمَ، وَأَخْبَرَ بِالْمَشْكَلَاتِ الْقَادِمَةِ وَكَيْفِيَّةِ التَّغْلِبِ عَلَيْهَا، وَفِي النِّهَايَةِ بَيَّنَّ لَهُمُ الْبُشْرَى، يَعْنِي: أَنَّ الْمَرَادَ بِالسَّبْعِ بَقَرَاتِ السَّمَانِ وَالسَّبْعِ سَنَابِلَ الْخُضْرِ هُوَ أَنَّ السَّبْعَ سَنَوَاتِ الْقَادِمَةِ مِنْ حَيَاتِكُمْ سَتُمُرُّ فِي رِفَاهِيَّةٍ وَرَعْدٍ مِنَ الْعَيْشِ، حَيْثُ سَتُتَجُّ الْأَرْضُ مُحَاصِيلَ وَفِيرَةً، وَالْمَرَادُ بِالسَّنَوَاتِ السَّبْعِ الْعِجَافِ: سَنَوَاتِ الْقَحْطِ الَّتِي سَتَلِي السَّنَوَاتِ السَّبْعَ الْأُولَى، وَالَّتِي لَنْ تُتَجَّ الْأَرْضُ فِيهَا مُحْصُولًا، وَلِهَذَا عَلَيْكُمْ أَنْ تُكْثِرُوا مِنَ الزَّرْعَةِ وَإِنْتَاجِ الْمُحَاصِيلِ فِي السَّنَوَاتِ السَّبْعِ الْأُولَى، وَبَعْدَ حَصَادِ الْمُحَاصِيلِ لَا تُسْرِفُوا فِي اسْتِهْلَاكِهَا فِي الطَّعَامِ، وَدَعُوا الْبَاقِي فِي سَنَابِلِهِ، وَبِهَذَا يُمْكِنُ حِفْظُ الْغَلَالِ لِمَدَّةٍ أَطْوَلَ، وَتَسْتَعِينُونَ بِهَا فِي سَنَوَاتِ الْقَحْطِ وَالْمَجَاعَةِ، وَبِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ، عَلَيْكُمْ الْإِقْلَالُ مِنَ الاسْتِهْلَاكِ فِي سَنَوَاتِ الْمَجَاعَةِ أَيْضًا، حَتَّى تَوْفَّرُوا قَلِيلًا مِنَ الْغَلَالِ يُمْكِنُ اسْتِخْدَامُهُ (تَقَاوِي)

في الزراعة مستقبلاً، وبعد سنوات المجاعة السبع تأتي سنة تنزل فيها الأمطار بغزارة، وتنتج المحاصيل والفواكه بوفرة، وسيعصر الناس هذه الفواكه.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدْتَنَ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۚ قُلْتُ خَشِيَ اللَّهُ مَا عُلِّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۚ قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ ۖ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۚ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ۚ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُفِصِلُ بَرَحْمَتِنَا مِنْ شَاءٍ ۚ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا نُجْزِيَ إِلَّا خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾

٤٣- حين سَمِعَ الْمَلِكُ تفسير منامه من سيدنا يوسف عليه السلام، أعجب بعلمه وحكمته وعظمته وانبهر به، ولهذا أمر بإحضار سيدنا يوسف عليه السلام على الفور، ولما ذهب مبعوث الملك إلى السجن رَفَضَ سيدنا يوسف عليه السلام الخروج من السجن، وكان قد أمضى في السجن اثني عشر عاماً بلا ذنب أو جريرة^(١). ولو كان أحد آخر مكانه لخرج من السجن على الفور، لكن صبره - عليه السلام - لا نظير له، فقد قال للمبعوث: ارجع إلى الملك وقل له: إنني لن أخرج

(١) «لما رجع الشرايبي إلى الملك وعرض عليه التعبير الذي ذكره يوسف عليه السلام استحسنة الملك فقال: اتوني به، فعاد الشرايبي إلى يوسف عليه السلام قال: أجب الملك، فأبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن إلا بعد أن ينكشف أمره وتزول التهمة بالكلية عنه». التفسير الكبير.

من السَّجَنَ وأنا مَتَّهَمٌ هَكَذَا، فَلْتُحَقِّقْ في مَكْرِ النِّسَاءِ وَكَيْدِهِنَّ أَوَّلًا، وَهُوَ الَّذِي دَخَلْتُ بِسَبَبِهِ السَّجَنَ، وَرَبِّي يَعْلَمُ مَكْرَ هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ وَكَيْدِهِنَّ، وَلَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَظْهَرَ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ أَمَامَ عَزِيزِ مِصْرَ وَأَهْلِ مِصْرَ كُلِّهِمْ بِأَنْ يُوسِفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ بَرِيءٌ، وَيَجِبُ أَنْ يَجْتَهِدَ الْإِنْسَانُ فِي إِبْعَادِ التُّهَمِ عَنْ نَفْسِهِ وَتَجَنُّبِهَا بِكُلِّ طَرِيقَةٍ مُمَكِّنَةٍ، مَثَلَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اتَّقُوا مَوَاضِعَ التُّهَمِ»^(١).

عن عليِّ بنِ الحُسَيْنِ - رضي الله عنهما - أَنَّ صَفِيَّةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ مَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِهَمَا النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رِسَالِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ». فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَبَّرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْدِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا»^(٢).

﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ حَشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوْءٍ قَالَتْ أَمَرْتُ الْعَزِيزَ الْأَعْنَى حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾

٤٤- استدعى المَلِكُ زَلِيخًا وَالنِّسَاءَ الْأَخْرِيَاتِ اللَّائِي لَهُنَّ عِلَاقَةٌ بِالْمَوْضُوعِ وَسَأَلَهُنَّ: مَاذَا حَدَّثَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ حِينَ حَاوَلْتُنَّ دَعْوَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْفَاحِشَةِ؟ فَقُلْنَ: لَمْ نَجِدْ فِي يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِيًّا، وَبَعْدَ هَذَا الْإِجْمَاعِ فِي الشَّهَادَةِ مِنْ قَبْلِ النِّسَاءِ، اعْتَرَفَتْ زَلِيخَا أَيْضًا - وَبِوُضُوحٍ - بِأَنَّ الْحَقَّ قَدْ ظَهَرَ تَمَامَ الظُّهُورِ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ أَنَا عَنْ نَفْسِهِ، لَكِنَّهُ رَفَضَ الِاسْتِجَابَةَ لِمُرَاوَدَتِي، وَأَنَا الْمُذْنِبَةُ، وَهُوَ صَادِقٌ تَمَامًا وَبَرِيءٌ مِنْ هَذِهِ التُّهْمَةِ.

(١) الفوائد المجموعة للشوكاني، ٢٥١.

(٢) البخاري، كتاب الاعتكاف، باب ٨ برقم ٢٠٣٥.

وبعد هذه الشَّهادة التي أَجْمَعَتْ عليها النَّسوةُ جميعًا ازدادتْ ثَقَّةُ الْمَلِكِ في سَيِّدنا يوسُفَ عليه السَّلام، ورَغِبَ بِشِدَّةٍ في رُؤيةِ هذا الإنسانِ ذي الصِّفاتِ الملائكيَّةِ، فأرْسَلَ مبعوثه أنْ قُلْ لِيوسُفَ عليه السَّلام: إِنَّ النَّساءَ جميعًا قد اعترفْنَ بِعَفْوِكَ وطهارَتِكَ، ولهذا تفضَّلْ بالحضورِ إلينا، وسوف نستقبلُكَ بكلِّ احترامٍ وتقديرٍ، وسوف نعملُ بكلِّ إرشاداتِكَ.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَفَى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾

٤٥- قال سَيِّدنا يوسُفُ عليه السَّلام: لقد طَلَبْتُ التحقيقَ في الأمرِ حتَّى يتأكَّدَ عزيزُ مِصرَ ويطمئنَّ على أنَّي لستُ جاحداً للفضلِ، وأنِّي لم أخُنْهُ، وحتَّى تعرفَ الدُّنيا كُلُّها أنَّ كَيْدَ الخائنينِ لا يُفلحُ، وأنَّ الحقيقةَ لا بدَّ أنْ تظهرَ في يومٍ من الأيامِ.

﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

٤٦- في الآيةِ السَّابقةِ جاء قولُ سَيِّدنا يوسُفَ عليه السَّلام بما معناه: «إنِّي لم أخُنْ عزيزَ مِصرَ»، ثم خَشِيَ سَيِّدنا يوسُفُ عليه السَّلام أنْ يُفْهَمَ قوله هذا على أنَّه من بابِ الغرورِ وحبِّ الذاتِ، ولهذا أَظْهَرَ تواضُعاً وانكساراً من جانبهِ بقوله: إنِّي لا أدَّعي أنَّ نفسي بريئةٌ؛ لأنَّ النفسَ تأمُرُ بالسُّوءِ، لكنْ كان من فَضْلِ رَبِّي ورحمته أنه أنقَذني من كَيْدِ نساءِ مِصرَ.

ويعَلِّمُ من هذا أنَّ أولياءَ الله لا يَغْتَرُّونَ بنسبةِ الأعمالِ الصَّالحةِ إلى أنفُسِهِم، وإنَّما يَعتَبِرونَ هذه الأعمالَ الصَّالحةَ إحساناً من الله تعالى عليه، ويؤدُّونَ شُكْرَهُ.

والنفسُ ثلاثةُ أقسامٍ:

١- النفسُ الأَمَّارةُ ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. والمرادُ بها تلكَ النفسُ التي تأمُرُ صاحبَها بالسُّوءِ دائماً، ومن يُطِيعُ نفسَه الأَمَّارةَ بالسُّوءِ سيكونُ عاصياً وظالماً.

٢- النفس اللّوامة ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ﴾ [القيامة: ٢]. والمرادُ بها: التي تَلُومُ نفسها باستمرارٍ على تقصيرِها وغفلتِها، والإنسانُ الذي يتدبّرُ تنبيهَ النفسِ اللّوامةِ يُتوبُ توبةً صادقةً، ويصبحُ من الصّالحين.

٣- النفسُ المطمئنّة ﴿يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، والمرادُ بها: تلك النفسُ التي تجدُ السّكينةَ والطّمانينةَ في ذكرِ الله تعالى، ومَن تَصَبَّغَهُ النفسُ المطمئنّةُ بصِبْغَتِها يرضى عنه الله تعالى.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

٤٧- حينَ أُخرجَ سيّدنا يوسفُ عليه السّلامُ من السّجنِ وجيءَ به إلى المَلِكِ، نَزَلَ المَلِكُ من فوقِ عرشِه، وسَجَدَ لسيّدنا يوسفَ عليه السّلامُ، ثم أجلسَه بجانبِه على العرشِ، وسأله: ماذا عَلَيَّ أن أفعلَ الآنَ بخصوصِ ذلك الحُلمِ؟

قال سيّدنا يوسفُ عليه السّلامُ: «أرى أن تَجْمَعَ الطّعامَ، وتزْرَعَ زرعًا كثيرًا في هذه السّنينِ المُخصِبةِ، فإنّك لو زَرَعْتَ على حَجَرٍ أو مَدَرٍ لَنَبَتَ، وأظْهَرَ اللهُ فيه النّماءَ والبركةَ، ثم تَرَفَعَ الزَّرْعُ في قَصَبِهِ وسُنْبُلِهِ تَبَنِي له المَخازِنُ العِظامُ، فيكونُ القَصَبُ والسُّنْبُلُ عِلْفًا للدّوابِّ، وَحَبٌّ للنّاسِ، وتأْمُرُ النّاسَ فيرفَعُونَ من طعامِهِم إلى أُمَرَائِكَ الحُمُسَ، فيكفِيكَ من الطّعامِ الَّذي جَمَعْتَهُ لأهلِ مِصرَ وَمَن حولَها، ويأتِيكَ الخَلْقُ من التّواحي يمتارونَ مِنكَ، ويجتمعُ عندَكَ من الكنوزِ ما لم يجتمعُ لأحدٍ قبْلَكَ، فقال المَلِكُ: وَمَن لي بتدبيرِ هذه الأمورِ، ولو جَمَعْتُ أَهْلَ مِصرَ جميعًا ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أُمْناءُ؟ فقال يوسفُ عليه السّلامُ: اجْعَلْنِي على خَزائِنِ أرضِكَ، إِنِّي حاسِبٌ كاتِبٌ»^(١).

(١) التفسير الكبير وتفسير القرطبي.

لم يكتفِ سيِّدنا يوسفُ عليه السَّلامُ بإخباره بمصيبة القحط فقط، وإنما أخبره بطريقة التعامل معه أيضاً، وحينَ لم يعثر المَلِكُ على الشخصِ المناسبِ لتحملِ هذه المسؤولية، عَرَضَ سيِّدنا يوسفُ عليه السَّلامُ استعدادَه لتحملِها من أجل إنقاذِ الناس من المصائبِ والهلاك.

تأثَّرَ المَلِكُ كثيراً بعِلْمِ سيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامُ وسلوكِه وإخلاصِه، إلى درجةٍ أنه أَسَنَدَ إليه كُلَّ السُّلْطَاتِ في مِصْرَ^(١)، وبعدَ تولِّي سيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامُ مسئولِيَّةَ السُّلْطَةِ في مِصْرَ أَقامَ جَوْاً من العَدْلِ والإنصافِ، بحيث أحَبَّه الناسُ جميعاً، إلى درجةٍ أنَّ المَلِكَ نفْسَه أَسْلَمَ على يَدَيْهِ^(٢)، ثم بعدَ ذلك أَسْلَمَ أهلَ مِصْرَ الآخرونَ^(٣).

قبول منصب من حاكم كافر:

يقولُ أهلُ العِلْمِ في تفسيرِ الآية رقم ٥٥ من سُورَةِ يوسفَ: «في هذه الآية ما يُبيحُ للرَّجُلِ الفاضِلِ (في الإسلام) أن يعملَ للرَّجُلِ الفاجر، والسُّلْطَانِ الكافر، بشرطٍ أن يَعْلَمَ أَنَّهُ يَفُوضُ إليه في فعلٍ لا يُعارضُه فيه فيُصلِحُ منه ما شاء»^(٤).

رَغْمَ أنَّ المطالبةَ بمنصبٍ طمعاً في تحقيقِ مصالحِ دُنْيَوِيَّةٍ، وحديثَ الشَّخصِ عن مميَّزَاتِهِ بَعَرَضٍ مدحِ نَفْسِهِ أَمْرٌ غَيْرُ صحيحٍ في الإسلام، ولكنَّ إنَّ كانَ مِنَ الممكنِ

(١) «فلما سمع الملك منه تعبير رؤياه، أعجب به ويعلمه وحسن أدبه، وأعزّه وأنزله لديه مكانة عالية، وآمنه على نفسه، وائتمنه على كلِّ شيء، وسلّمه مقاليد الحكم والسلطة، وفوض إليه تصريف وإدارة الأمور السياسيّة والماليّة في جميع أنحاء مصر». التفسير المنير.

(٢) «وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام». تفسير ابن جرير الطبري، الآية ٥٦.

(٣) «لما فوض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطف بالناس وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به وأقام فيهم العدل فأحبّه الرجال والنساء». تفسير القرطبي، الآية ٥٦.

(٤) تفسير القرطبي.

الحُصُولُ على منصبٍ من أَجْلِ إنقاذِ الناسِ من المظالم، وتحقيقِ مزيدٍ من الراحة للناس، فيجبُ العملُ على الحُصُولِ على هذا المنصب، وإن كانت هناك حاجةٌ إلى الحديثِ عن كفاءَتِكَ للمنصبِ وأهلِيَّتِكَ له، فافعلْ ولا حَرَجَ في ذلك.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

٤٨- مَنْ اللهُ تعالى على سَيِّدِنَا يوسُفَ عليه السَّلَامُ بالارتقاءِ في مِصرَ ومحبَّةِ الناسِ له هناك بسببِ صبرِهِ وعِفَّتِهِ وطهارَتِهِ، بحيثِ أَتْنَى عليه الجميعُ، ولقيَ ترحيباً كبيراً حيثُما ذَهَبَ، حتَّى أن المَلِكَ نفسَهُ كان يَطْلُبُ نصيحَتَهُ وإرشادَهُ، وقد أعطى اللهُ تعالى سَيِّدَنَا يوسُفَ عليه السَّلَامُ هذا الأجرَ في الدنيا، وفي الآخِرَةِ بالنِّسبةِ للصَّالحينَ أَفْضَلَ من هذا.

جاء في الرِّواية أَن «يوسُفَ عليه السَّلَامُ كان لا يَشْبَعُ من طعامٍ في تلكِ السَّنينِ، فقليلٌ له: أَتَجوعُ وبِيدِكَ خَزَائِنُ الأرضِ؟ فقال: إِنِّي أَخافُ إن شَبِعْتُ أَن أنسى الجائعَ، وأمرَ يوسُفَ طَبَّاحُ المَلِكِ أن يجعلَ غذاءَهُ نصفَ النَّهارِ، حتَّى يذوقَ المَلِكُ طَعْمَ الجوعِ، فلا ينسى الجائعينَ»^(١).

وَجَاءَ إِخْوَةُ يوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ اللَّاتِرُونَ أَنِّي أُوْفِي الْكِيلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَرُدُّ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكِيلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ عَمِنْتُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ

حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَأْسًا مَا نَبِغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴾

٤٩- لَمَّا عَهِدَ الْمَلِكُ بِكُلِّ أُمُورِ الْحُكُومَةِ وَتَسْيِيرِهَا إِلَى سَيِّدِنَا يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَخَذَ يُحْتُ الْفَلَاحِينَ عَلَى زِيَادَةِ الْمَسَاحَةِ الْمَزْرُوعَةِ وَزِيَادَةِ الْمَحَاصِيلِ، وَقَامَ بِتَخْزِينِ كَمِّيَّاتٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْغِلَالِ فِي الصُّوَامِعِ الْمُعَدَّةِ لَذَلِكَ، وَطَبَقًا لِتَفْسِيرِ الْحُلُمِ فَإِنَّهُ حِينَ بَدَأَتِ السَّنَوَاتُ السَّبْعُ الْعِجَافُ، وَلَمْ يُعَدِّ لَدَى النَّاسِ غِلَالٌ، تَمَّ تَوْزِيعُ الْمَخْزُونِ مِنَ الْغِلَالِ عَلَى النَّاسِ حَسَبِ الْحَاجَةِ، وَبِهَذَا نَجَا أَهْلُ مِصْرَ مِنْ مَخَاطِرِ الْقَحْطِ، أَمَّا الْبِلَادُ الْمَحِيطَةُ بِمِصْرَ فَلَمْ يَكُنْ بِهَا غِلَالٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَحِينَ عَرَفَ أَهْلُ تِلْكَ الْبِلَادِ أَنَّ مِصْرَ لَدَيْهَا مَخْزُونٌ مِنَ الْغِلَالِ، تَوَجَّهُوا إِلَيْهَا لِلشَّرَاءِ، وَكَانَ سَيِّدُنَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ قَرَّرَ إعْطَاءَ كُلِّ أَجْنَبِيٍّ مِنَ الْغِلَالِ وَزَنًا مُحَدَّدًا بِمَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ بِهِ جَمَلٌ وَاحِدٌ.

وَكَبَقِيَّةِ النَّاسِ أَرْسَلَ سَيِّدُنَا يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبْنَاءَهُ لَشُرَاءِ الْغِلَالِ مِنْ مِصْرَ، فَلَمَّا وَصَلُوهَا عَرَفَهُمْ سَيِّدُنَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُمْ إِخْوَتُهُ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوهُ؛ لِأَنَّهُ

كان قد مضى أربعون عامًا منذ أن ألقوا به في البئر، وكان سيّدنا يوسف عليه السّلام في ذلك الوقت طفلًا صغيرًا، والآن تغيّرت ملامحه كثيرًا بوجود اللّحية على وجهه، كما أنّه لم يكن أحدٌ منهم يتصوّر أنّ الأخ الذي ألقوا به في البئر سيكون هو اليوم حاكم مصر، وهكذا سألهم سيّدنا يوسف عليه السّلام عن أحوالهم، فأخبروه قائلين: نحن عشرة إخوة موجودون هنا، ولنا أخوان آخران من الأمّ، أحدهما هلك في الغابة، والآخر، وهو أخوه الصّغير، بنيامين، احتفظ به أبوه ليُسريّ به عن نفسه، ولم يُرسله معنا. على أيّة حالٍ عندما أعدّ سيّدنا يوسف عليه السّلام المتاع لهم قال: أحضروا معكم أحاكم الصّغير في المرّة القادمة، فلقد رأيتم الآن أنّي أتحرّى العدل مع الجميع، وأحسّن ضيافة الجميع أيضًا، ولذا سوف أخدمكم أنتم وبنيامين أيضًا، ثم هدّدهم في نهاية الأمر بأنكم إن لم تُحضروا بنيامين معكم في المرّة القادمة فلن أعطيكم الغلال، ولن تستطيعوا اللّقاء.

﴿قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾

٥٠- قال إخوة سيّدنا يوسف عليه السّلام: رَغِمَ أنّ من الصّعوبة بمكان أن نأخذ بنيامين من أبينا، لكننا سنحاول - قدرَ طاقتنا - أن نجعله يوافق على إرسال بنيامين إلى مصر، ونأمل أن ننجح في ذلك.

﴿وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ اجْعَلُوا بَضْعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

٥١- رأى سيّدنا يوسف عليه السّلام أنّ من المناسب أن لا يأخذ ثمن الغلال من إخوته، ولهذا أمرَ غلمانَه أن يضعوا النقود خفية في أمتعتهم، حتى إذا ما وصلوا إلى بيّتهم وفتحوا أمتعتهم وجدوا النقود، وبهذا يؤثّر فيهم موقفنا هذا، فيحرصون على المجيء إلى مصر، ويصطحبون معهم بنيامين أيضًا، ومن

٥٢ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (الجزء الثالث)

الممكن ألا يكون لديهم نقودٌ لشراء مزيدٍ من الغلال، فيستطيعون بهذه النقودِ
المجيء، وشراء الغلال ثانيةً.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَابَنَّا مُنْعَ مِنَّا الْكِيلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلْ
وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴾

٥٢- عندما وصل إخوة يوسفَ بيتهِم عائدِينَ من مصرَ مع الغلال التي
اشتروها، قالوا لأبيهم سيِّدنا يعقوبُ عليه السَّلام قبل أن يفتحوا أمتعتهم: إِنَّ مَلِكَ
مِصرَ رجلٌ على خُلُقٍ طَيِّبٍ ومتعاطفٌ ومُضيف، وقد أَحَسَّنَ السلوكَ معنا كثيرًا،
وأكثرُ من هذا أنه قال لنا أن نصطحبَ بنيامينَ معنا إليه المرةَ القادمة، وسوف يُعْطِيهِ
نصيبه من الغلالِ أيضًا، وإن لم نأخذَ بنيامينَ معنا لن يُعْطِيَ أَحَدًا مِنَّا من الغلالِ
شيئًا، ولهذا نرجو أن تُرسلَ معنا بنيامينَ، ونحن سنُحافظُ عليه يقينًا.

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّحِيمِينَ ﴾

٥٣- قال سيِّدنا يعقوبُ عليه السَّلام: كيف أثقُ فيكم فيما يتعلَّقُ ببنيامينَ
وأنتُم الذين أفقدتُموني الثقةَ فيكم فيما يتعلَّقُ بيوسفَ عليه السَّلام.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَنَّا مَا نَبْغِي هَذِهِ
بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴾

٥٤- عندما فتح إخوة سيِّدنا يوسفَ عليه السَّلام أجوَّلةَ الغلال بعدَ الجِوارِ
الذي دارَ بينهم وبينَ أبيهم، أصابَتْهم دهشةٌ عظيمةٌ، إذ وَجَدُوا النقودَ التي كانوا قد
دَفَعُوهَا ثَمَنًا لِلْغِلَالِ محفوظةً بالكامل داخلَ الأجوَّلةِ، وهكذا أسرعوا إلى أبيهم
وبشَّروه بأنَّ مَلِكَ مِصرَ قد تعطَّفَ علينا كثيرًا، إذ أعاد إلينا ما دَفَعْنَاهُ، ولهذا نرجو أن

تُرْسَلْ مَعَنَا بِنْيَامِينَ الْمَرْءَ الْقَادِمَةَ، وَنَحْنُ سُنْحَافُظُ عَلَيْهِ وَنَحْمِيهِ، وَبِهَذَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَ بِحِمْلٍ بَعِيرٍ مِنَ الْغِلَالِ زِيَادَةً عَلَى مَا أَتَيْنَا بِهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ، فَمَا أَتَيْنَا بِهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ مِنَ الْغِلَالِ قَدْ لَا يَكْفِي حَاجَتَنَا، وَلَا نَدْرِي مَتَى تَنْتَهِي الْمَجَاعَةُ الَّتِي حَلَّتْ بَنَا، وَبِالتَّالِي مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ نَذْهَبَ هُنَاكَ ثَانِيَةً لَجَلْبِ مُزِيدٍ مِنَ الْغِلَالِ، وَلِنَحْضِرَ الْمَقَرَّرَ مِنْهَا لَنَا جَمِيعًا.

﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

٥٥- قال سيّدنا يعقوبُ عليه السّلام: لن أُرسلَ بنيامينَ معكم حتى تحلفوا بالله يمينًا راسخًا، وتعدوني وعدًا مؤكّدًا أنكم ستعودون به إليّ، ولكن إذا حلّ بكم خطبٌ لا تستطيعون الخلاصَ منه، فلن تكونَ لي شكايَةٌ منكم.

وَحِينَ تَعْهَدَ الْإِخْوَةُ جَمِيعًا لِأَبِيهِمْ بِهَذَا، أَذِنَ لَهُمْ سَيِّدُنَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاصْطِحَابِ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَهُمْ، بَعْدَ أَنْ أَطْمَأَنَّ إِلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرِيَّةِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْهَدْتُمْ لِي بِهِ، فَهُوَ الْحَافِظُ الْحَقِيقِيُّ، وَلَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْفَظَ أَحَدًا إِلَّا بِتَوْفِيقٍ مِنْهُ تَعَالَى.

﴿ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

٥٦- كَانَ إِخْوَةُ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَمَتَّعُونَ بِصَحَّةٍ جَيِّدَةٍ، وَبِجَمَالٍ فَائِقٍ، وَلِهَذَا نَصَحَهُمْ أَبُوهُمْ أَنْ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ إِذَا مَا وَصَلْتُمْ مِصْرَ؛ لِأَنَّكُمْ إِنْ دَخَلْتُمْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ مُجْتَمِعِينَ، فَقَدْ يَحْسُدُكُمْ أَحَدٌ؛ وَأَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْجِيَكُمْ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ أَمْرُهُ نَافِذٌ لَا مُحَالَءَ، وَلِهَذَا فَإِنَّ عَلَى الْجَمِيعِ أَنْ يَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ فَقَطْ، وَأَنَا أَنْصَحُكُمْ بِاتِّخَاذِ التَّدَابِيرِ الْإِحْتِيَاطِيَّةِ لَا أَكْثَرَ، لِأَنَّ الْحَسَدَ، وَإِيذَاءَ

الآخرين الناتج عنه أمرٌ صحيحٌ وحقٌ، مثلما قال النبي ﷺ: «العينُ حقٌ»^(١)، كما أنه للعلاج من أثرِ النظرة السيئة «كان رسولُ الله ﷺ يتعوذُ من الجانِّ وعَيْنِ الإنسانِ حَتَّى نَزَلَتِ المَعْوِذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلْنَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا»^(٢).

التوازن بين التدبير والقدر:

يقول الإمام الرازي: «فاعلم أن الإنسانَ مأمورٌ بأن يُراعيَ الأسبابَ المعتبرةَ في هذا العالمِ، ومأمورٌ أيضًا بأن يعتقدَ ويجزِمَ بأنَّه لا يصلُ إليه إلَّا ما قدَّره اللهُ تعالى وأنَّ الحَذَرَ لا يُنْجِي مِنَ الْقَدَرِ»^(٣)، بمعنى: أن على كلِّ شخصٍ أن يستعملَ عقله وفكره وكلَّ التدابيرِ الممكنة، ثم بعد ذلك يتوكَّل على الله، وسوف يكون ما أَرَادَهُ اللهُ تعالى، لكنَّ الذين يعتمدون على الأسبابِ الماديةِ فقط، ويُنكرون القَدْرَ، والذين يعتمدون على القَدْرِ فقط - مُهمِّلين الأسبابَ الماديةَ تمامًا - كلاهما جاهلٌ.

وفي هذه الآية الكريمة أدَّى سَيِّدُنَا يعقوبُ عليه السَّلامُ ما عليه من الأخذِ بالتدبير، من خلال نُصَحِهِ لأبنائه أن يَدْخُلُوا من أبوابٍ متفرِّقة، وفي نفسِ الوقت أعلنَ يقينه أنه لو أَرَادَ اللهُ تعالى شيئًا آخَرَ، فإنَّ تدبيري لن يستطيعَ أن يُنْجِيَكُم من قَدْرِ اللهِ تعالى.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٥٧- طَبَقًا لِإِرْشَادَاتِ الْأَبِ دَخَلَ إِخْوَةُ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِصْرَ مِنْ أَبْوَابٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَكَانَ هَذَا تَدْبِيرًا احْتِيَاظِيًّا مِنْ سَيِّدِنَا يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَرَادَ بِهِ أَنْ

(١) البخاري، كتاب الطب، باب ٣٦ برقم ٥٧٤٠.

(٢) الترمذي، أبواب الطب، باب ١٦ برقم ٢٠٥٨.

(٣) التفسير الكبير.

يُنَجِّيْ أَبْنَاءَهُ مِنَ الْعَيْنِ الْحَاسِدَةِ، لَكِنْ لَأَنْ سَيِّدَنَا يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَدَيْهِ عِلْمٌ إِلَهِيٌّ، لِهَذَا أَعْلَنَ حَقِيقَةً أَنَّ تَدْبِيرَهُ هَذَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَجِّيَكُم مِّن قَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقَدُ صُورَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَبْنَئُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا ظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

٥٨- عندما وَصَلَ إِخْوَةُ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِصْرَ، أُنْزِلَ سَيِّدُنَا يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُلِّ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ فِي حُجْرَةٍ مُنْفَصِلَةٍ، وَبَقِيَ بَنِيَامِينَ وَحِيدًا، فَأَنْزَلَهُ مَعَهُ ^(١)، وَحِينَ أَصْبَحَ سَيِّدُنَا يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُنْفَرِدًا مَعَ أَخِيهِ بَنِيَامِينَ قَالَ لَهُ: أَنَا أَخُوكَ يَوْسُفُ، وَلَا تُخْبِرْ إِخْوَتَكَ بِهَذَا السِّرِّ الْآنَ. وَحِينَ سَمِعَ بَنِيَامِينَ

(١) «أمر أن ينزل كل اثنين في منزل، فبقي أخوه منفردًا فضمَّه إليه». تفسير القرطبي.

ما قاله سيّدنا يوسف عليه السّلام لم يتمالك نفسه من فَرْط السّعادة وقال: لن أترُكك بعد الآن أبداً، فقال سيّدنا يوسف عليه السّلام: لا بأس، وسوف يتمّ احتجازك هنا بحُجّة أنك سرّقت المِكيال. ومن الممكن أن يكون سيّدنا يوسف عليه السّلام قد قصّ على أخيه بنيامين قصّته مع إخوته، حين ألْقُوا به في البئر، لكنّه مع ذلك قال: إنه لا داعي لأنّ أزعجك بإخبارك بأحداثٍ قد مضت وانتهت؛ لأنّ الله تعالى قد أحسن إلينا، وجمعنا معاً بخيرٍ وسلام.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسِرْقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُوتَ﴾

٥٩- عندما تمّ إعدادُ أمتعة الإخوة، أخفى سيّدنا يوسف عليه السّلام المِكيال في أمتعة أخيه بنيامين، وحين تحرّكت القافلة للعودة من حيث جاءت، فتشّ الحُرّاس عن المِكيال، وشكّوا في أنّ القافلة التي جاءت من فلسطين هي التي سرّقت المِكيال، وبالتالي تعقّبهم جماعةٌ من الحُرّاس، وصاحت فيهم: انتظروا، فأنتم لصوص! وحينئذٍ توقّف إخوة سيّدنا يوسف عليه السّلام مندهشين وهم يسألون الحُرّاس: ما الذي فقدتموه؟

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧١﴾ قَالُوا تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾

٦٠- قال قائد الحُرّاس: لقد فقد مِكيال الملك، ومن يُسلم إلينا المِكيال قبل التفتيش أضمنّ له حِمْلَ بعيرٍ من الغلال على سبيل المكافأة، وهنا صمّت بنيامين، لكنّ لأنّ الإخوة الآخرين لم يكونوا على علم بالأمر، لهذا أقسموا قائلين: لقد أتينا إلى هذا البلد مرّتين، ولم نُسْأَلْ إلى أحدٍ، ولذا ينبغي أن تعلّموا أنّنا لم نأت إلى هذا البلد لننشر الفساد فيها، وأننا لسنا لصوصاً.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ
كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾

٦١- قالت كتيبة الحُرَّاس: لو كنتم كاذبين، وعُثِر على المِكيالِ داخلِ أمتعةِ أحديكم، فقولوا أنتم: ماذا يكونُ جزاؤه؟ ولأنهم كانوا واثقينَ تمامًا أنهم لم يسرقوا شيئاً، لهذا قالوا بكل ثقة: من يُعثَرُ على المِكيالِ في أمتعتهِ يكونُ هو المتحمِّلُ للمسئوليَّةِ، وجزاءٌ مثل هذا عندنا أن يصبحَ الذي سَرَقَ: عبداً لمدةِ عامٍ عند مَنْ سُرِقَ منه.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾

٦٢- أَخَذَت كتيبة الحُرَّاسِ إخوةَ سيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامُ إليه، ففتَّش سيِّدنا يوسفُ عليه السَّلامُ أمتعةَ إخوتهِ غيرِ بنيامينَ أولاً، حتى لا يشكُّوا في أنَّ هناك خُطَّةً مرسومةً لأمرٍ ما، وفي النهايةِ استخرجَ المِكيالَ من متاع أخيه بنيامينَ، وطبقاً لما قرَّره أصحابُ القافلة أنفُسهم، ثم احتجازُ بنيامينَ، وإلا فإنه طبقاً للقانونِ المصريِّ آنذاك لا يحقُّ له احتجازُ أخيه؛ لأنَّ حكمَ القانونِ المصريِّ آنذاك فيما يتعلَّقُ باللِّصِّ هو أن يُضْرَبَ اللِّصُّ، ثم تؤخَذَ منه الفديةُ ويُطلَقَ سراحه. على أيِّ حال، كان كلُّ ذلك وفقاً للتدبيرِ الذي أوْحَى به اللهُ تعالى إلى سيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامُ، ولهذا فإنَّ توجيهَ النَّقدِ إلى أيِّ جزءٍ من هذه الإجراءاتِ كُلِّها إنما هو بمثابة توجيهِ النَّقدِ إلى اللهِ تعالى.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ شَأْنٍ﴾

٦٣- كان إخوةَ سيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامُ أيضاً علماء، لكنَّ الله تعالى مَنْ على سيِّدنا يوسفَ عليه السَّلامُ بعِلْمٍ يُفوقُ عِلْمَهُم بمراحلٍ، وقد اتَّبَعَ سيِّدنا يوسفُ عليه السَّلامُ طريقةً أجبرتهم على تَرْكِ أخيهام بنيامينَ في مصرَ.

﴿وَقَوْكَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾

٦٤- في هذه الدنيا يوجد فوق كل عالم من هو أعلم منه، وتستمر هذه السلسلة إلى أن تنتهي بالله تعالى؛ لأنه الأعلَم على الإطلاق^(١)، لهذا لا ينبغي لأحد أن يُسيء الفهم بأنه أكبر علماء زمانه.

﴿فَالْوَا إِن يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾

٦٥- قالوا: بنيامين ليس أخاً شقيقاً لنا، فهو من أمٍ أخرى، ولا عجب إن سرق، فقد سرق أخوه يوسف من قبل.

سمع سيدنا يوسف عليه السلام كلام إخوته الجارح، لكن لأن الله لم يكن قد أمره أن يُفشي هذا السر، لهذا احتفظ بالجواب عن كلامهم هذا في قلبه، ولم يظهر لهم شيئاً، وقال في نفسه: إنَّ حالكم غاية في السوء، والله تعالى يعلم كذبكم هذا تمام العلم.

﴿فَالْوَا يَتَأَيَّمَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

٦٦- قالوا: يا عزيز مصر، إنَّ أبانا شيخٌ كبير، وإذا لم يُعذ بنيامين معنا فلن نستطيع تحمّل الصدمة، ولهذا يمكنك أن تحتجز أحداً مكانه وتطلق سراحه، فلقد أحسنت إلينا من قبل، ونأمل أن تُحسن إلينا هذه المرة أيضاً. قال سيدنا يوسف عليه السلام: أعوذ بالله، لا يمكن أن أرتكب مثل هذا الظلم بأن تترك من وجدنا متاعنا عنده، ونمسك بسواه.

فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي

(١) «عن ابن عباس قال: يكون ذا أعلم من ذا وذا أعلم من ذا، والله فوق كل عالم». تفسير القرطبي.

أَيُّ أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَأَلَّهْ تَفْتَوُا تَذَكَّرْ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرَجَحَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَأَنْتَ يَا يَاسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيعِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقِمِيمِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُوفَىٰ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

﴿ فَلَمَّا اسْتَمْسَكُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

٦٧- وحين يسأوا من إقناع سيدنا يوسف عليه السلام بما يريدون، ولم يكن

عليه السلام مستعداً لأن يترك بنيامين، اختلى بهم أخوهم الأكبر وقال لهم: إنكم

تَعْلَمُونَ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْنَا عَهْدًا وَمَوْثِقًا أَنْ نُحَافِظَ عَلَى بَنِيَامِينَ، وَقَدْ ظَلَمْتُمْ أَبَاكُمْ مِنْ قَبْلُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَبَأَيِّ وَجْهِ نَلْقَى أَبَانَا الشَّيْخَ الْآنَ؟ لِهَذَا لَنْ أَغَادِرَ هَذَا الْبَلَدَ أَبَدًا حَتَّى يَسْتَدْعِيَنِي أَبِي بِنَفْسِهِ، أَوْ أَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ فِي أَمْرِي، بِمَعْنَى: أَنْ يُوَفَّقَنِي إِلَى إِطْلَاقِ سَرَّاحِ أَخِي بَنِيَامِينَ بِأَيِّ طَرِيقَةٍ وَأَعُودَ بِهِ إِلَى أَبِي، لَكِنْ يُمَكِّنُكُمْ أَنْتُمْ الْعُودَةَ، وَأَخْبِرُوا أَبَاكُمْ بِمَا حَدَّثَ مِنْ أَنَّ بَنِيَامِينَ قَدْ سَرَقَ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ الْحَقِيقَةَ، وَلَكِنْ الظَّاهِرُ أَمَامُنَا أَنَّ الْمِكْيَالَ عَثَرَ عَلَيْهِ فِي أَمْتَعَتِهِ أَمَامَ أَعْيُنِنَا، وَلِهَذَا تَمَّ احْتِجَازُهُ.

وبالتالي، عاد الإخوة التسعة إلى أبيهم بدون أخيهما الأكبر، واعتذروا له فيما يخص بنيامين قائلين: إِنَّ الْعَهْدَ الَّذِي قَطَعْنَاهُ عَلَى أَنْفُسِنَا مَعَكَ بَأَنْ نُحَافِظَ عَلَى بَنِيَامِينَ، كَانَ طَبَقًا لِمَا نَعْلَمُ نَحْنُ وَنَمْلِكُ، لَكِنَّا لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ الْغَيْبَ بَأَنَّ الْمِكْيَالَ سَيَعَثُرُ عَلَيْهِ بَيْنَ أَمْتَعَتِهِ، وَأَنَّا سَنُضْطَرُّ إِلَى تَرْكِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ وَاثِقًا مِمَّا نَقُولُ، فَادْهَبْ إِلَى مِصْرَ وَتَحَقَّقْ بِنَفْسِكَ مِنْ صَحَّتِهِ، أَوْ اسْأَلِ الْقَافِلَةَ الَّتِي كُنَّا مَعَهَا، وَتَأْكُدْ مِنْهُمْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِنَا هَذَا.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

٦٨- لَمَّا سَمِعَ سَيِّدُنَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْقِصَّةَ قَالَ لِأَبْنَائِهِ: كَيْفَ سَلَّمْتُمْ بَأَنَّ أَخَاكُمْ بَنِيَامِينَ لَصْرٍ؟ كَانَ عَلَيْكُمْ حِينَئِذٍ أَنْ تَقُولُوا: إِنَّ أَخَانَا لَا يَسْرِقُ، وَمِنْ الْمَوْكِدِ أَنَّ أَحَدًا قَدْ وَضَعَ الْمِكْيَالَ فِي أَمْتَعَتِهِ خُفِيَّةً، لَكِنَّا لَمْ تَفْعَلُوا شَيْئًا سِوَى التَّسْلِيمِ الْفَوْرِيِّ بِالثَّهْمَةِ، وَالْأَكْثَرُ مِنْ هَذَا أَنَّكُمْ قُلْتُمْ عَنْ أَخِيهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ لَصْرٌ أَيْضًا، وَأَكْذَبْتُمْ عَلَى ارْتِكَابِ بَنِيَامِينَ لِلسَّرِقَةِ بِشَكْلِ أَكْبَرٍ، مَعَ أَنَّ بَنِيَامِينَ لَمْ يَسْرِقْ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ لِي مَزِيدًا مِنَ الْإِبْتِلَاءِ، وَسَأَصْبِرُ صَبْرًا جَمِيلًا^(١).

(١) «وإنما ذلك لأمر يريد به الله». تفسير القرطبي.

بالطَّبع لم يكن سيِّدنا يوسف عليه السَّلام يريد أن يزيد في ابتلاء أبيه، لكنَّ سيِّدنا يوسف عليه السَّلام كان ينتظر - في صَمْتٍ - الوقت الذي حدَّده الله تعالى للقائه بأبيه سيِّدنا يعقوب عليه السَّلام، ولم يكن يستطيع إفشاء السرِّ قبل أن يحين موعده، بمعنى: أن كلَّ هذا كان يجري تنفيذًا لحُكم الله تعالى^(١)، وقال سيِّدنا يعقوب عليه السَّلام في انتظار ذلك الوقت: سوف يَجْمَعُنِي اللهُ تعالى قريبًا بيوسف عليه السَّلام، وبينيامين وأخيهما الأكبر.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفَى عَلَى يَوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾

٦٩- تجددت ذكرى سيِّدنا يوسف عليه السَّلام من جديد لدى سيِّدنا يعقوب عليه السَّلام بفراق بنيامين، فاعتزل أهل بيته أسفًا على فراق سيِّدنا يوسف عليه السَّلام، وينقل العلامة الألوسي في تفسير هذه الآية قول بعض العارفين: «أن تأسفَه على رؤية جمال الله تعالى من مرآة وجه يوسف عليه السَّلام وقد تمتع بذلك برهه من الزَّمان حتَّى حالت بينه وبينه طوارقُ الحداث فتأسفَ عليه السَّلام لذلك»^(٢)، وبكى كثيرًا لدرجة أنه فقد بصره وابيضَّت عيناه، لكنَّه لم يفصح بلسانه عن اضطرابه بداخله. يقول اللَّيث بن أبي سُلَيْم: إنَّ «جبريلَ دَخَلَ على يوسف في السَّجن فعرفه، فقال له: أيُّها المَلِكُ الكريمُ على ربِّه هل لكَ عِلْمٌ بـيعقوب؟ قال: نعم، قال: ما فعل؟ قال: ابيضَّت عيناه من الحُزن عليك، قال: فما بلغ من حُزنه؟ قال: حُزنَ سبعين، قال: هل له على ذلك من أجرٍ؟ قال: نعم، أجرُ مائةٍ شهيد»^(٣).

(١) «والصحيح أنه عمل ذلك بأمر الله تعالى، أمره ليزيد في بلاء يعقوب عليه السَّلام فيضاعف له الأجر» التفسير المظهرى.

(٢) تفسير روح المعاني.

(٣) ابن أبي حاتم، برقم ١١٨٨٤.

ولا يجوزُ في الإسلام التعبيرُ عن الاضطرابِ وعَدَم الصَّبْرِ من أثرِ صدمةٍ ما بالصُّراخِ والَعويلِ باللسانِ، لكنَّ حُزنَ القلبِ وبكاءَ العينِ أمرٌ فطري، وهو أمرٌ جائزٌ، مثلما وَرَدَ في الأحاديثِ التالية:

١- وإبراهيمُ يَجُودُ بنفسِه، فجَعَلت عينا رسول الله ﷺ تذرِفانِ. فقال له عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوْفٍ - رضيَ اللهُ عنه -: وأنت يا رسولَ الله؟ فقال: «يا ابنَ عوفٍ، إنَّها رحمةٌ». ثم أَتَبَعها بأخرى فقال ﷺ: «إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، والقلبُ يَحْزَنُ، ولا نَقولُ إلَّا ما يُرضي رَبَّنَا، وإنا بِفراقِكَ يا إبراهيمُ لَمَحْزُونون»^(١).

٢- عن عبدِ الله بنِ عُمَرَ - رضيَ اللهُ عنهما - قال: اشتكى سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ شَكوى له، فَأَتاه النبي ﷺ يُعَوِّدُه معَ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوْفٍ وَسَعِدِ بنِ أَبِي وَقَاصٍ وعبدِ الله بنِ مسعودٍ - رضيَ اللهُ عنهم - فَلَمَّا دَخَلَ عليه فَوَجَدَه في غَاشِيَةٍ أَهْلِه فقال: «قد قَضَى». قالوا: لا يا رسولَ الله. فبَكَى النبي ﷺ، فَلَمَّا رَأى القومُ بكاءَ النبي ﷺ بَكَوا، فقال: «أَلَا تَسْمَعونَ؟ إِنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العينِ، ولا بِحُزَنِ القلبِ، ولكنَّ يُعَذِّبُ بهذا»، وأشارَ إلى لسانِه^(٢).

٣- قال رسولُ الله ﷺ: «ليسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخدودَ، وشَقَّ الجُيوبَ، ودَعَا بدَعوى الجاهليَّة»^(٣).

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى نَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾

٧٠- قال الإخوةُ لأبيهم سيِّدنا يعقوبَ عليه السَّلام: إِنَّكَ تَذَكَّرُ يوسُفَ عليه السَّلامُ دائِماً ولا تَتَوَقَّفُ عن البكاءِ، ونخشى أن تتدهورَ صحتُكَ من كثرةِ البكاءِ

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٤٤ برقم ١٣٠٣.

(٢) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٤٥ برقم ١٣٠٤.

(٣) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٣٦ برقم ١٢٩٤.

والتَّحِيْب، بل ومنَ الممكنِ أن تتعرَّض للموتِ أيضًا.

إذا أحبَّ الله تعالى قومًا ابتلاهم، وكلَّما عَظُمَ البلاءُ عَظُمَ الجزاء. قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ عَظْمَ الجزاءِ مَعَ عَظْمِ البلاءِ، وَإِنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ قومًا ابتلاهم، فَمَنْ رَضِيَ فَله الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَله السُّخْطُ»^(١)، ولأنَّ أَجَرَ الأنبياءِ الكرامِ عليهمُ السَّلامُ هو الأعظمُ، لهذا فإنَّ ابتلاءهم يكونُ هو الأعظمُ أيضًا، سُئِلَ النبي ﷺ: يا رسولَ الله، أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، فَيُبتَلَى الرجلُ على حَسَبِ دينه، فإنَّ كان دينه ضَلْبًا اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رِقَّةٌ ابتُلِيَ على حَسَبِ دينه، فما يبرِّحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»^(٢).

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

٧١- قال سيِّدنا يعقوبُ عليه السَّلامُ: إنني لا أشكو حُزني واضطرابي لمخلوقٍ، وإنَّما أبْتُ خالقي الحقيقيَّ حُزني، وأعرضُ عليه أمري، «وَأَعْلَمُ مِنْ جِهَتِهِ تعالى ما لا تَعْلَمُونَ مِنْ حَيَاةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ»^(٣). ذاتَ مرَّةٍ «قال يعقوبُ لَمَلِكِ الموتِ: هل قَبَضْتَ رُوحَ يَوْسُفَ؟ قال: لا»^(٤).

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

٧٢- قال سيِّدنا يعقوبُ عليه السَّلامُ: إنَّ اليأسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ مِنْ سِمَاتِ الْكُفَّارِ، وهو أمرٌ لا يليقُ بالمسلمِ مهما كانتِ الظُّروفُ تَبَعُثُ على اليأسِ، إذ إنه

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٥٦ برقم ٢٣٩٦.

(٢) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٥٦ برقم ٢٣٩٨.

(٣) تفسير روح المعاني.

(٤) ابن أبي حاتم، برقم ١١٩٠٩.

على يقينٍ من أنَّ الله تعالى قادرٌ مطلقٌ، يستطيعُ أن يُخرجه من يأسِه إذا شاء، ولذا فهو يأملُ في رحمةِ الله دائماً، ويواصلُ بذلَ كلِّ ما يستطيعُ من جهدٍ، وبالتالي يا أبنائي، لا تيأسوا من رحمةِ الله تعالى، واذهبوا لتبحثوا عن يوسفَ عليه السَّلام، ولتُطْلِقُوا سراحَ أخيه بنيامينَ.

ويعلمُ من هذا أنَّ سيدنا يعقوبَ عليه السَّلام كان على يقينٍ من أنَّ سيدنا يوسفَ عليه السَّلام لا يزالُ على قيد الحياة، وأنَّ منامه لا بدَّ أن يتحقَّق، وأنَّ شملهم جميعاً سيلتئم بعد انتهاء وقتِ الابتلاء.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَوَصِّدْقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾

٧٣- عندما وصل الإخوةُ إلى مصرَ بأمرٍ من أبيهم قرَّروا أن يحلُّوا مشكلةَ الغلالِ بالنسبةِ لأهل بيتهم أولاً، ثم بعد ذلك يبذلون محاولاتهم من أجل سيدنا يوسفَ عليه السَّلام وأخيه بنيامينَ، وهكذا ذهبوا إلى عزيزِ مصرَ مباشرةً، واشتكَوا إليه مُرَّ الشكوى من المجاعةِ التي ألَّمت بهم، وبأنهم في ضيقٍ شديدٍ من العيش، وبأنهم - فوق هذا - لا يملكون هذه المرة ثمنًا يدفعونه للغلال، وقالوا: نأملُ أن تعطفَ علينا، وتقبلَ مِنَّا ثمنًا قليلاً ندفعه، وأن تُعطينا مقداراً أكبرَ من الغلال، والله تعالى يجزي المحسنينَ خيرَ الجزاء.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٨١) ﴿قَالُوا أَيْ نَكَ لَا نَتَّ يَوْسُفَ قَالَ أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصِيرَ فَإِنَّكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

٧٤- عندما قصَّ إخوةُ سيدنا يوسفَ عليه السَّلام أحوالَ المجاعةِ وضيقِ ذاتِ يدهم، ذرَّفت عيناهُ عليه السَّلامُ الدُّموعَ، وعندئذٍ حان وقتُ انكشافِ السرِّ

أيضاً، ولهذا سأل سيّدنا يوسف عليه السّلام إخوته بغرض تعريفهم بنفسه قائلاً: أَتَذْكُرُونَ ماذا فعلتُم بيوسفَ وأخيه؟ وفي نفس الوقت قال محاولاً التقليل من ندِمهم: إنَّكم لم تكونوا تعلمون في ذلك الوقت سوءَ هذا الفعل وعاقبته، ولهذا وَقَعَ منكم هذا الخطأ.

وما أن سَمِعَ إخوةُ سيّدنا يوسف عليه السّلام هذا السؤالَ حتى شَعَرُوا أنَّ الأرضَ كادت تنشقُّ وتبلغهم خَجَلًا، ولَمَّا نَظَرُوا إلى سيّدنا يوسف عليه السّلام وتمعنوا فيه جيّدًا، عَرَفُوا ملامحَ أخيهم يوسفَ عليه السّلام في وجهٍ عزيزٍ مصرَ، فسألوه في حيرةٍ ودهشةٍ: أَلَسْتَ أنتَ يوسفَ عليه السّلام؟ قال: نَعَمْ أنا يوسفُ، وهذا أخي بنيامين، ولا فَضْلَ لي في ذلك، وإنَّما الفَضْلُ من الله تعالى الذي نَجَّاني، ثُمَّ جَعَلَنِي على حُكْمِ مِصْرَ، والآنَ جَمَعَنِي بإخوتي، والله تعالى لا يضيعُ أجرَ المصلحين.

﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴾

٧٥- وفي نهاية الأمر خجل الإخوة كثيرًا، واعترفوا بالحقيقة قائلين: لا شكَّ أنَّ الله تعالى قد فَضَّلَكَ علينا، ونحن يقيّنًا مخطئون، لهذا سامحنا واغفُ عنا.

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

٧٦- قال سيّدنا يوسف عليه السّلام لإخوته: أنا لا ألوّمكم اليومَ على شيءٍ، وإنَّما أعفو عنكم، وأدعو الله تعالى أن يغفرَ لكم أيضًا.

وبعدَ ذلك سأل سيّدنا يوسف عليه السّلام إخوته عن أحوالِ والدِه سيّدنا يعقوبَ عليه السّلام، فقالوا له: إنَّ والدَكَ قد فَقَدَ بَصَرَه من كثرةِ بكائه حُزنًا على فراقِكَ. فقال سيّدنا يوسف عليه السّلام: خُذُوا قميصي هذا، واذهبوا به إلى أبي، وألقوه على وَجْهِه، وسيعودُ إليه بَصَرُه، ثم اتّوني بكلِّ أَهْلِكُمْ في مِصْرَ هنا، حتى نَجْتَمِعَ سوِيًّا، ونستفيدَ بِنِعَمِ الله تعالى، ونشكّره عليها.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾
 قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ
 بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا بَنَا أَسْتَعْفِرَ لَنَا
 ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾
 فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ
 ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِيَنَّ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ
 قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رَأْيِي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ
 أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾
 ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ
 وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ
 نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ
 حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾
 قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾

٧٧- عندما أخذ إخوة سيدنا يوسف عليه السلام قميصه وغادروا مصر،
 قال سيدنا يعقوب عليه السلام لأهل بيته: لولا أن تظنوا بي خرف الشيخوخة
 لقلت لكم: إنني اليوم أشم رائحة يوسف عليه السلام! فقال أهل بيته: أنك تحلم
 بيوسف عليه السلام دائماً في منامك، مع أنه قد مات منذ فترة طويلة، ولا ندري
 متى تخرج خيال يوسف عليه السلام من قلبك.

كان سيدنا يوسف عليه السلام في بئر قريب من البيت، ثم استقر به المقام
 في مصر، ولم يشم سيدنا يعقوب عليه السلام رائحة سيدنا يوسف عليه السلام

حينذاك؛ لأنَّ الصَّبْرَ على الأَزْمَاتِ هو أَفْضَلُ سلاح، وحينَ أَوْشَكَتْ سَاعَةُ الْإِبْتِلَاءِ على الْإِنْتِهَاءِ، وَأَخَذَ أَبْنَاؤُهُ قَمِيصَ أَخِيهِمْ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَوَجَّهُوا إِلَى مِصْرَ، حِينَئِذٍ شَمَّ سَيِّدُنَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَائِحَةَ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

٧٨- عِنْدَمَا وَصَلَتْ قَافِلَةُ الْأَبْنَاءِ إِلَى الْبَيْتِ، وَبَشَّرُوا سَيِّدَنَا يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبُشْرَى سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَلْقُوا قَمِيصَهُ عَلَى وَجْهِ أَبِيهِمْ، عَادَ إِلَيْهِ بَصَرُهُ عَلَى الْقَوْرِ، فَسَأَلَهُمْ سَيِّدُنَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَيْفَ حَالُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فَقَالَ الْأَبْنَاءُ: إِنَّهُ مَلِكُ مِصْرَ! فَقَالَ: مَاذَا أَفْعَلُ إِنْ كَانَ مَلِكُ مِصْرَ؟ أَخْبِرُونِي: عَلَى أَيِّ دِينٍ هُوَ؟ (كَانَ الْهَدَفُ هُوَ إِخْبَارُ الْأَبْنَاءِ أَنَّ السُّلْطَةَ لَا تَسَاوِي شَيْئًا فِي مَقَابِلِ الْإِسْلَامِ)، فَقَالَ الْأَبْنَاءُ: هُوَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ سَيِّدُنَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْآنَ تَمَّتِ النِّعْمَةُ^(١)، وَعَلَيْهِ شُكْرُ سَيِّدِنَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَالَ لِأَبْنَائِهِ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَزَالُ حَيًّا فَابْحَثُوا عَنْهُ؟ لَكِنَّكُمْ لَمْ تَكُونُوا تُصَدِّقُونَ مَا أَقُولُ. فَقَالَ الْأَبْنَاءُ: يَا أَبَانَا الْعَزِيزُ، لَقَدْ كُنْتَ عَلَى حَقٍّ تَمَامًا، وَكُنَّا نَحْنُ الْمَخْطِئِينَ، وَنَحْنُ نَادِمُونَ عَلَى مَا فَعَلْنَا، وَنَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْتَ أَيْضًا أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رُبَّنَا. وَهَكَذَا قَالَ سَيِّدُنَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبْنَائِهِ: إِنَّهُ سَيَدْعُو اللَّهَ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَقَدْ السَّحَرِ مِنْ لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ^(٢)؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ الدُّعَاءَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ.

(١) «لَمَّا جَاءَ الْبَشِيرُ وَأَلْقَى قَمِيصَ يَوْسُفَ عَلَى وَجْهِ يَعْقُوبَ، فَعَادَ بَصِيرًا بَعْدَ مَا كَانَ أَعْمَى، وَقَالَ لِلْبَشِيرِ: كَيْفَ يَوْسُفُ؟ قَالَ: إِنَّهُ مَلِكُ مِصْرَ، فَقَالَ يَعْقُوبُ: مَا أَصْنَعُ بِالْمَلِكِ، عَلَى أَيِّ دِينٍ تَرَكْتَهُ؟ قَالَ: عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: الْآنَ تَمَّتِ النِّعْمَةُ». التفسير المظهر، وتفسير ابن أبي حاتم، برقم ١١٩٧٩.

(٢) «أَخَّرَ دُعَاءَهُ إِلَى سَحَرِ لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ». القرطبي.

وهكذا، بعد أن فرغ سيّدنا يعقوب عليه السّلام من صلاته عند السّحر، رفع يديه إلى عنان السّماء داعياً الله تعالى بقوله: يا إلهي، لقد كنت مضطرباً وقليل الصّبر في أمر يوسف عليه السّلام، فاغفر لي ذلك، واغفر لأبنائي سوء سلوكهم معي ومع يوسف عليه السّلام، فأرسل الله تعالى إليه الوحي أن قد غفرت لك ولأبنائك^(١).

ويعلم من هذا أن الاستفادة من تبرّكات المشايخ في طلب الشّفاء للمرضى، أو طلب الدّعاء بالمغفرة منهم، أمر جائز، ولو لم يكن طلب الدّعاء بهذا الشّكل جائزاً لما قبل الله تعالى دعاء سيّدنا يعقوب عليه السّلام في حقّ أبنائه.

الدعاء بالمغفرة:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله - ﷺ - «إِنَّ الرَّجُلَ لَتَرْفَعُ دَرَجَتَهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: أَنَّى هَذَا؟ فَيَقَالُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ»^(٢).

٢- قال رسول الله ﷺ فيما رواه سيّدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «ما من أربعين من مؤمن يشفعون لمؤمنٍ إلّا شفّعهم الله»^(٣).

٣- عن أنس بن مالك يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أُمِّي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، مُتَابٌ عَلَيْهَا، تَدْخُلُ قُبُورَهَا بِذُنُوبِهَا، وَتَخْرُجُ مِنْ قُبُورِهَا لَا ذُنُوبَ عَلَيْهَا، تَمَحَّصُ عَنْهَا ذُنُوبُهَا بِاسْتِغْفَارِ الْمُؤْمِنِينَ لَهَا»^(٤).

(١) «فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسحر، فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عز وجل ثم قال: اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيه يوسف، فأوحى الله إليه أني قد غفرت لك ولهم أجمعين». التفسير المظهر.

(٢) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ١ برقم ٣٦٦٠.

(٣) ابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ١٩ برقم ١٤٨٥.

(٤) المعجم الأوسط للطبراني، ٣: ٥٢٣ برقم ١٩٠٠، ومجمع الزوائد، ١٠: ٦٩.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾

٧٩- أعطى سيّدنا يوسف عليه السّلام إخوته مائتي جَمَل منه، وقال لهم أن قولوا لسيّدنا يعقوب عليه السّلام أن يَحْمِلَ على هذه الجِمال أبناءه وأحفاده وكلّ أفراد عائلته ويأتي إلى مِصر^(١)، وحين عِلِمَ سيّدنا يوسف عليه السّلام باقتراب قافلة عائلته من مِصر، خَرَجَ لاستقبالهم بجيش كبير خارج المدينة، وقَرَّبَ والدَيه (أباه وزوجته أبيه) إليه وعانقهما قائلاً: ادخلوا معنا مِصرَ، وإن شاء الله تقيمُ هنا في أَمِنٍ وسلام؛ لأنّ عهدَ الفِراقِ وزمنَ المجاعة قد انتهى الآن، وحين «خَرَجَ يعقوبُ إلى يوسف بمِصرَ في اثنين وسبعين من وَلَدِهِ وولَدِ وَلَدِهِ فخرّجوا منها مع موسى وهم ستمائة ألف^(٢)».

﴿وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِيَكُمُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُكُمْ قُلُوبًا فَاعْلَمُوا أَنِّي أَخْرَجْتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِأَمْرٍ مِنْ رَبِّي وَأَنْتُمْ كَارِهِونَ﴾

٨٠- اضْطَحَبَ سيّدنا يوسف عليه السّلام أفرادَ عائلته ودخلَ بهم مِصرَ، فأجلسَ والدَيه على العرش، وحيثُ سجدَ الوالدان والإخوة لسيّدنا يوسف عليه السّلام سجدةً عظيم، وقد كانت جائزةً في الشرائع السابقة^(٣)، فقال سيّدنا يوسف عليه السّلام لوالده: هذا هو تفسيرُ تلك الرؤيا التي أخبرْتُك بها في طفولتي، وقد حقّقها الله تعالى صدّقاً بعدَ أربعين عاماً^(٤)، وهذا فضلٌ من الله تعالى أن نَجاني

(١) «إن يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة وجهازاً وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده جميعاً». القرطبي.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، برقم ١١٩٨٨.

(٣) «سجد له أبواه وإخوته الباقون، وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له». تفسير ابن كثير، سورة يوسف (١٢): الآية ١٠٠.

(٤) «كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة». تفسير ابن كثير، سورة يوسف (١٢): الآية ١٠٠.

من السّجن، وأتى بكم من فلسطين إلى مصر، مع أنّ الشيطان كان قد زرع الفرقة بيني وبين إخوتي، لكنّ الله تعالى يتفضّل على من يشاء.

هذا، وقد «أقام يعقوب عليه السّلام عند ابنه يوسف عليه السّلام أربعاً وعشرين سنة، وحضره الموت، فوصّى يوسف عليه السّلام أن يحمله ويدفنه عند أبيه، فمضى بنفسه ودّفنه ثمّة، ثم عاد إلى مصر، وأقام بعده ثلاثاً وعشرين سنة»^(١).

بعد وفاة سيّدنا يوسف عليه السّلام اختلف أهل مصر فيما بينهم اختلافاً شديداً على مكان دفنه، وكلّ قبيلة أرادت أن يدفن سيّدنا يوسف عليه السّلام في حيّها، لكي يتبرّكوا بقبره، وفي النهاية اتّفقوا على أن يدفن سيّدنا يوسف عليه السّلام في نهر النيل، حتى تلامس المياه قبره في جريانها، فتحلّ البركة بهذا الشّكل على الناس جميعاً، وهكذا وُضِعوا جثمانه في صندوق من حجر المزمّر، ودفنوه في نهر النيل، وظلّ مدفوناً هناك إلى أن خرج سيّدنا موسى عليه السّلام ببني إسرائيل من مصر، فأخرج الصندوق من نهر النيل واضطّح به معه إلى فلسطين، ودّفنه بالقرب من والده سيّدنا يعقوب عليه السّلام^(٢).

وبعد وفاة سيّدنا يوسف عليه السّلام استولت قبيلة العمالقة على حكم مصر، ولُقب كلٌّ من اعتلى العرش بعد ذلك بلقب فرعون، وقد استعبد فرعون بني إسرائيل في مصر باعتبارهم أجانب من خارج البلاد، وأنزل بهم ظملاً كبيراً ومتنوّعاً، وفي نهاية الأمر نجّى الله تعالى بني إسرائيل من فرعون على يد سيّدنا موسى عليه السّلام.

(١) التفسير المنير، سورة يوسف (١٢): الآية ١٠٠.

(٢) «فلما احتضر يوسف، أوصى إلى يهوذا، ومات، فتشاحّ الناس في دفنه، كل يحبّ أن يدفن في محلّته رجاء البركة، فاجتمعوا على دفنه في النيل ليمر الماء عليه ويصل إلى الجميع، فدفنوه في صندوق من رخام، فكان هنالك إلى أن حمله موسى حين خرج من مصر ودفنه بأرض كنعان». تفسير زاد المسير.

كان لقب سيدنا يعقوب عليه السّلام هو إسرائيل (عبد الله)، ولهذا فإنّ أول أنبياء بني إسرائيل هو سيدنا يوسف عليه السّلام، وآخر أنبيائهم هو سيدنا عيسى عليه السّلام.

وقد زار هذا العبد الفقير إلى الله تعالى ضريح كلّ من سيدنا إبراهيم عليه السّلام، وضريح سيدنا إسحاق عليه السّلام، وضريح سيدنا يعقوب عليه السّلام، وضريح سيدنا يوسف عليه السّلام بمدينة الخليل بأرض فلسطين يوم السبت ٢٧ يناير عام ٢٠٠١م.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مَا تَأْوِيلَ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ الْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

٨١ - هذه هي آخر آية في هذه السّورة تتعلّق بقصة سيدنا يوسف عليه السّلام، وهي التي دعا فيها سيدنا يوسف عليه السّلام الله تعالى بدعاء يستحقّ التأمل والتدبر، فتعالوا بنا نتعلّم طريقة الدّعاء من هذا النّبي العظيم، فماذا طلب سيدنا يوسف عليه السّلام من الله تعالى بعد أن جلس على عرش مصر، وكيف طلبه؟

بادئ ذي بدء اعترف سيدنا يوسف عليه السّلام بأفضال الله عليه أن يا الله، لقد أعطيتني عرش مصر، وعلمتني تأويل الأحلام. ثم بعد ذلك أظهر عجزه وتواضعه قائلاً: إنك أنت وليّ، ولو لم تفضل عليّ لكنت قد فقدت حياتي في البر، يا إلهي، مثلما أحسنت إليّ من قبل، وثبتت قدمي على الإسلام، أدعوك اليوم بأن تقيمني دائماً على الإسلام، وتحفظ استقامتي عليه ما بقيت حياً، وارزقني معيّة الصّالحين بعد الموت، واجمعني بأبائي وأجدادي.

يا إلهي، هذا الفقير إليك، محمّد إمداد حسين بيرزاده، يعترف باديّ ذي بدء بفضلك وإحسانك، فأنت الذي خلقتني من بني الإنسان، ولو شئت لخلقتني حيواناً

من الحيوانات، ثم إنك خلقتني في بيتٍ وأسرةٍ مسلمة، حيث سَعِدْتُ بالإسلام وشرُفْتُ به منذ طفولتي، ثم إنك أنعمت عليّ بالصّحة والثروة والأولاد وعلم دينك الحبيب، ورغم أنني لم أستطع أن أوّدي حقَّ شكرِ هذه النعم كلها كما ينبغي، لكنك مع ذلك لم تقطع عني سلسلة رحمتك وفضلِك وكرمك، فأنت - باليقين - أكرم الأكرمين، وأنت وليّ، ولا وليّ لي غيرك، وأعظمُّ أمنيّاتي ودُعائي هو أن تحفظَ عبدك المسكينَ هذا مستقيمًا على دينك الحبيب الإسلام طالما بقي حيًّا، وأن تُنعمَ عليّ بعد الموتِ بصُحبة نبيِّك الكريم ﷺ وآله الأطهار وأوليائك الكرام رحمة الله عليهم جميعًا، وأن تجمعَ أولادي وأهلي وأقاربي وأصدقائي وأحبابي وأساتذتي وطلّابي والقائمين على أمرِ جامعة الكرم، والهيئة الخيرية الإسلامية وكلَّ مَنْ يُحبُّني رجالًا ونساءً مع الصالحين يا ربَّ العالمين، آمين، ثم آمين.

لا ينبغي أن يفهم أحدٌ من هذه الآية على سبيل الخطأ أن سيّدنا يوسف عليه السّلام يدعو بالموتِ أبدًا، فالدعاء بالموت ليس جائزًا في الإسلام، مثلما قال النبي ﷺ فيما رواه سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «لا يتمنى أحدكم الموتَ إمّا مُحسنًا فلعله يزداد، وإمّا مُسيئًا فلعله يستعيب»^(١).

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾

٨٢ - أيها النبي الحبيب ﷺ، حين كان إخوة يوسف عليه السّلام يَمْكُرُونَ بأبيهم، ويتآمرون ضدَّ يوسف عليه السّلام، لم تكن أنت معهم في ذلك الوقت، ولهذا فإنَّ هذه القصّة من أخبار الغيبِ الذي نوحيه نحن إليك، ويثبتُ من هذا أنَّ الوحي قد نزل من الله تعالى عليك، وأنت نبيُّ الله، وأنَّ الله يُطلِّعك على الغيب.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

٨٣ استفسرت قريش واليهود من النبي ﷺ عن قصة سيدنا يوسف عليه السلام وإخوته؛ لأن أهل قريش كانوا يعلمون أن سيدنا محمداً ﷺ لم يطالع كتاباً، ولم يتعلم على يد أحد أبداً، ولهذا من المؤكد أنه لا يعرف هذه القصة، ولكن حين أخبرهم النبي ﷺ بالقصة تفصيلاً إلى الحد الذي لا يوجد في التوراة أيضاً، كان ينبغي لهم عدلاً وإنصافاً أن يؤمنوا به ﷺ، ولكن حين لم يؤمنوا به، وأحزن ذلك النبي ﷺ، أنزل الله تعالى هذه الآية تسرياً عن قلبه^(١)، يعني: أن أكثرهم لن يؤمن بسبب التعصب والعناد، ولهذا لا تحزن ولا تغتم بسببهم.

﴿وَمَا نَسَأُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

٨٤ - القرآن الكريم نصيحة وخير لكل الناس، وما أدعوكم إليه بالقرآن بكل جدّ ونشاط، لا أتقاضى منكم أجراً عليه، وإنما أمنيته هي أن تأخذوا النصيحة من القرآن الكريم.

وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا

(١) «إن قريشاً واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته، فشرحها شرحاً شافياً، وهو يؤمل أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم فخالفوا ظنه، فحزن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فعزاه الله تعالى بهذه الآية». تفسير زاد المسير.

أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾
لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ
الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾

٨٥ - يعني: أَنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ لَا يَسْمَعُونَ لِدَعْوَتِكَ الْمُحِبَّةِ، لَيْسَ هَذَا فَقَطُّ، وَإِنَّمَا
حَالُهُمْ هُوَ أَنَّهُمْ يَشَاهِدُونَ كُلَّ يَوْمٍ آيَاتٍ لَا حَصَرَ لَهَا عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ فِيهَا، وَيَمُرُّونَ عَلَيْهَا مُعْرِضِينَ عَنْهَا، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ
فِي أَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَإِنْ آمَنُوا بِهِ أَشْرَكُوا مَعَهُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ.

﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

٨٦ - يعني: أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَعْمَهُونَ فِي شِرْكِهِمْ،
لَا يَخَافُونَ يَوْمًا يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فِيهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ أَنَّ تَقَوْمَ السَّاعَةِ بَغْتَةً، وَحِينَئِذٍ
مَاذَا سَيَفْعَلُونَ؟ وَكَيْفَ سَيَنْجُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى؟

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

٨٧ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِكُفَّارِ مَكَّةَ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى: سَوَاءٌ اعْتَرَفْتُمْ بِالتَّوْحِيدِ
أَمْ لَا، فَإِنْ إِيْمَانِي بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى رَاسِخٌ تَمَامَ الرُّسُوحِ، وَهَدَفَ حَيَاتِي هُوَ الدَّعْوَةُ
إِلَى تَوْحِيدِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي نَوْْمٌ بِاللَّهِ تَعَالَى بِكُلِّ بَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ، وَهُوَ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنْزَعٌ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

٨٨ - كَانَ كُفَّارُ مَكَّةَ كَثِيرًا مَا يَعْتَرِضُونَ قَائِلِينَ بِأَنَّهُ إِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى مُرْسِلًا

رسولاً بالفعل، لكان قد أَرْسَلَ ملاكاً من عنده، ومحمّداً ﷺ هذا بشرٌ مثلنا، فكيف يكون نبياً؟ فقال الله تعالى ردّاً على هذا: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلُ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْنِهِمْ مَلَكٌ وَاحِدٌ، وإنّما كانوا جميعاً رجالاً يسكنون القرى والبلاد.

ألم يسافر أولئك الناس في الأرض أبداً؟ لأنّهم إن رأوا أطلال قوم عاد وثمود وغيرهما، لعلموا أنّ الأمم التي كَفَرَتْ بالأنبياء عليهم السّلام من قبل، كيف كانت عاقبتهم أليمةً، وعندئذٍ يعتبرون منهم، ويتّقون الله تعالى، ومن المؤكّد أنّ مَنْ يتّقى الله تعالى له أفضل عاقبة في الآخرة، أليس لدى هؤلاء عقلٌ يُدرك أنّ هذه الحياة الدّنيا ليست سوى بضعة أيام من الراحة، فكيف يفضّلونها على النّعيم الدائم في الآخرة؟

ويعلم من هذه الآية أنّ المرأة لا يمكن أن تكون نبياً، ولمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى الحاشية رقم ٢١ والآية رقم ٤٢ من سورة آل عمران (٣).

﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾

٨٩ - حين أصرّ الكفّار على كُفْرِهِمْ رَغِمَ دَعْوَتُهُمْ إلى الحقّ سنين طوالاً، يسّ الأنبياء الكرام عليهم السّلام من أن يؤمنوا، وظنّ الكفّار أيضاً من جانبهم أنّ العذاب الذي يتوعّدنا به هؤلاء فيما لو لم نؤمن بهم سيحلّ بنا، ليس صحيحاً، وها نحن لم نؤمن، ولم ينزل بنا العذاب، ولهذا فإنّ كلّ هذه التهديدات كاذبة، ولن ينزل علينا العذاب أبداً.

والحقيقة أنّهم فهموا هذا الفهم الخاطيء بسبب تأخير نزول العذاب عليهم، ولكن في تلك الأثناء انتهت المهلة التي أعطاه الله لهم، وتحقّق ما قاله الأنبياء

الكرامُ عليهمُ السَّلام، وسلَّطَ اللهُ العذابَ على القومِ المجرمين، ونَجَّى اللهُ تعالى أنبياءه الكرامَ عليهمُ السَّلامُ ومن اتَّبعوهم.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

٩٠- في قصّة سيّدنا يوسف عليه السَّلام والأحداث التي حدّثت له مع والدَيْه وإخوته عبرةٌ ونصائحٌ كثيرةٌ لأهل العقول، كما أنّ الأسلوبَ الرائعَ الذي قصَّ به القرآن الكريمُ هذه القصّة، لم ترُدْ في أيِّ كتابٍ من قبل، وهذا دليلٌ بيّنٌ على أنّ القرآن الكريمَ ليس من تأليفِ إنسان، وإنّما هو كلامُ اللهِ تعالى، ويصدّقُ ما جاء في الكتبِ السابقة، ويفضّلُ كلَّ أمرٍ ضروريٍّ، وهو هدايةٌ ورحمةٌ للناسِ جميعاً، لكنّ يستفيدُ به فقط أولئك الذين يؤمنون به.

الفقيهُ إلى الله:

محَمَّدُ إمدادُ حُسَيْنِ بيززاده

بدأ تفسيرُ سورةِ يوسفَ يومَ الأربعاء ٢٠ ديسمبر عام ٢٠٠٦م، الموافق ٢٨

ذي القعدة عام ١٤٢٧هـ، واكتمل في ثلاثين يوماً بعد صلاةِ عشاءِ اليوم

الخميس ١٨ يناير عام ٢٠٠٧م، الموافق ٢٨ ذي الحجة عام ١٤٢٧هـ

والحمدُ لله ربِّ العالمين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣) سُورَةُ الرَّعْدِ

هذه السُّورة مَكِّيَّة، ونَزَلَتْ بعضُ آياتها بعدَ الهجرة، ولهذا يَعتَبَرُها البعضُ سُورَةً مَدَنِيَّةً، واسمُها «الرَّعْدُ» لأنَّ لفظَ «الرَّعْدِ» قد استُعْمِلَ فيها.

في هذه السُّورة جاء إثباتُ التوحيدِ والثبوتِ والآخرَةِ بطُرُقٍ مختلفة، وجاء فيها كذلك إبطالُ لكلِّ الشُّبهاتِ فيما يَتعلَّقُ بهذه الأمورِ كُلِّها.

وفي الآية رقم ١١ بيَّنَ اللهُ تعالى المبدأَ الرئيسَ في تقدُّمِ الأُممِ وانحطاطِها وزوالِها، وهو: أنَّ الأُممَ التي تُحاسبُ نفسَها، وتبتعدُ عن الشرِّ، وتسيرُ على طريقِ الخيرِ، هي الأُممُ التي تحقِّقُ النَّجاحَ، ثم جاء في الآية رقم ١٧ أنَّ البقاءَ والاستحكامَ يكونُ من نصيبِ تلكِ الأُمَّةِ التي تنفَعُ الناسَ، وعندما تُحرِّمُ أُمَّةٌ من هذه الصِّفةِ يُطلُّ الاختلافُ والإحساسُ بالحِرمانِ برأسِهِ بينَ الناسِ، وبهذا يبدأ زوالُ هذه الأُمَّة.

لقد جَعَلَ العِلْمُ والتكنولوجيا حياةَ الإنسانِ في أيَّامنا هذه سهلةً ومُريحةً بحيث لم يكنْ أحدٌ قبلَ مائةِ عامٍ يتصوَّرُ كلَّ هذا التطوُّرِ، ولكنَّ الإنسانَ - بالرَّغمِ من هذا - قلقٌ مُضطربٌ، ويلجأُ إلى الخمرِ والمخدَّراتِ لتحقيقِ الاطمئنانِ الذهني، وقد جاء في الآية رقم ٢٨ من هذه السُّورة أنَّ الاطمئنانَ الأبديَّ للقلوبِ والسَّكينةَ الدائمةَ لها تكونُ في ذِكرِ اللهِ تعالى.

وفي الآية الأولى من هذه السُّورة قال اللهُ تعالى لِنبيِّهِ الكريمِ ﷺ: إِنَّ هَذَا

٧٨ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (الجزء الثالث)

القرآن حقّ، أنزله الله عليك، وفي الآية الأخيرة من السّورة قال له: لا تحزن ولا تغتم
إذا جحدك كفّار مكة وأنكروك، إذ تكفيك شهادتي على صدقك يا رسول الله ﷺ.

الفقير إلى الله:

محَمَّد إمداد حُسين بَيْرَزاده

الثلاثاء ٢٣ يناير ٢٠٠٧م

الموافق ٣ محرّم الحرام عام ١٤٢٨هـ



سُورَةُ الرَّعْدِ (١٣)،

مدنية (٩٦)، آياتها (٤٣)، ركوعاتها (٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾
 اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
 لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ
 وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْيَلِيلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجِئَتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ
 وَنَخِيلٌ صُنُونٌ وَغَيْرُ صُنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبَّهَا عَلَى بَعْضِ الْأَكْضَلِ إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءَاكُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْتِي
 لِفَی خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ
 أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَیَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ
 قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾
 وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

﴿المر﴾

١- هذه حروف مقطعة، وهي سرٌّ بين الله تعالى وحبيبه النبي الكريم سيدنا محمد ﷺ، ولمزيد من التفصيل راجع الحاشية رقم ١ من سورة البقرة.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

٢- هذه آيات ذلك الكتاب الذي أنزله الله تعالى، وهذا الكتاب حق، ولا مجال للشك فيه، لكن أكثر أهل مكة لن يؤمنوا بأنه من الله تعالى^(١)، فهم لا يؤمنون أصلاً بالله تعالى، فكيف يؤمنون بالقرآن؟ ولهذا جاء في الآيات التالية التعريف بالله تعالى حتى يؤمنوا به.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾

٣- رفع الله تعالى السماوات بغير عمد، وجعل للشمس والقمر نظاماً لا يتعديان، ويسيران وفقاً له، والله تعالى مستو على العرش بما يليق بشأنه، وهو ما لا نعلم حقيقته، إلا أن القصد هو أن المالك الحقيقي والحاكم الأوحد لهذه الكائنات هو الله تعالى، ونظام الكائنات كلها يسير بتدبيره هو، وهذه كلها آيات بينات على توحيده وقدرته، حتى تتيقنوا من وجود الآخرة، بمعنى: أنه كما أن الله تعالى خلق هذه الكائنات غير المحدودة، ويُسَيِّرُ نظامها العجيب، سيُفني هذه الكائنات أيضاً، ويحييها من جديد، حيث سنمثل جميعاً في حضرته سبحانه وتعالى، ويحاسبنا على أعمالنا.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَارًا﴾

٤- هنا بيان للأدلة الأرضية بعد أن بين الأدلة السماوية، يعني: أن الله تعالى مدَّ الأرض حتى تسيروا فيها، وتقيموا عليها، وخلق الجبال حتى تحصلوا منها على المعادن، وجعل الأنهار لكي ترووا مزارعكم بالماء، وأخفى ضوء النهار

(١) ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾: إما أهل مكة، أو على العموم. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: بأنه من عند الله. التفسير المنير.

بالليل حتى تستريحوا. على أي حال، الآيات على وحدانية الله تعالى وقدرته موجودة في كل هذه الأشياء، ومن يتدبّر فيها ويتأملها يؤمن بالله تعالى.

وليس معنى مد الأرض أن الأرض مُفْلَطْحَةٌ، وإنما الأرض مستديرة كالكرة، وقد قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى في هذا الأمر قبل ٨٢٨ عامًا من اليوم^(١)، - أي: عام ٦٠٠ هـ - «إنه ثبت بالدلائل أن الأرض كُرَّةٌ»^(٢)، وحين تكون الكرة كبيرة يبدو سطحها مُفْلَطْحًا^(٣)، ولأن الكرة الأرضية كبيرة جدًا، ويبدو سطحها مُفْلَطْحًا من كل اتجاه، لهذا استعمل الله تعالى لفظ ﴿مَدَّ﴾ باعتبار الشكل الظاهري لا أكثر.

﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾

٥- في الفواكه أيضًا زوجان، أي: الذكر والأنثى^(٤)، وهذه حقيقة لم يكن أحدٌ يعرفها قبل ألف وأربعمئة عام، ولهذا من الضروري شرحها هنا، ولمزيد من التفصيل راجع دائرة المعارف البريطانية.

الخلية الذكرية والخلية الأنثوية:

يوجد الذكر والأنثى في الإنسان وفي الحيوانات الأخرى، ويولد الصغار من الفعل الجنسي باجتماع الذكر والأنثى، وقد أثبت العلماء الألمان والإيطاليون في القرن التاسع عشر أنه يوجد في النباتات ذكر وأنثى مثلما هو موجود في الإنسان، وطالما لم تلتق الخلية الذكرية بالخلية الأنثوية لا تتكوّن البذرة ولا الثمرة.

(١) المقصود باليوم: اليوم الذي كان يكتب فيه تفسير هذه الآية، ولا اليوم الذي ترجمت فيه. (المترجم)

(٢) التفسير الكبير.

(٣) «والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح». التفسير الكبير.

(٤) «جعل فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين اثنين ذكرًا وأنثى». صفوة التفاسير.

عملية التلقيح:

حين تكبرُ النبتةُ تزهَر، وفي أزهارها تكونُ الخلايا الذُكوريَّة والخَلايا الأنثويَّة مثلَ ذرَّاتٍ صغيرةٍ دقيقة، وفي الأزهارِ توجَدُ الخلايا الذُكوريَّة فقط، حيث تبيسُ بعدَ فترةٍ وتتساقط، ولا يَنْتُجُ عنها ثمار، بينما في بعضِ الأزهارِ توجَدُ الخلايا الأنثويَّة فقط، وفي البعضِ الثالثِ توجَدُ الخَلايا الذُكوريَّة والأنثويَّة معًا، ويقالُ للخَليَّة الذُكوريَّة (اللُّقاح: Pollen)، ويطلقُ على عمليَّة انتقال اللُّقاح إلى الخَليَّة الأنثويَّة هذه في اللُّغة العربيَّة (التلقيح: Pollination)، فإذا كان التلقيحُ في زهرةٍ واحدة، أو في أزهارِ شجرةٍ واحدة، أُطلقَ على هذه العمليَّة (التلقيحُ الذاتي)، وإن كان في أزهارِ شجرتينِ أُطلقَ عليها (التلَاقُح).

للتلقيح طريقتان:

١- عن طريقِ الطُّيورِ والنَّحل: حين تَحُطُّ الطُّيورُ والنَّحلُ على الأزهارِ، تَعَلَقُ اللُّقَاحاتُ بِرِيشِها وأجسادِها، ثم حين تَحُطُّ هذه الطُّيورُ نَفْسُها بعدَ ذلك فوقَ أزهارٍ من نفسِ النُّوع، تلتقطُ الخلايا الأنثويَّة اللُّقَاحاتِ من ريشِها وأجسادِها.

٢- عن طريقِ الهِواء: تبيسُ اللُّقَاحاتُ وتتطايرُ في الهِواءِ في شكلِ ذرَّاتٍ صغيرة، وحين يَمُرُّ الهِواءُ على أزهارِ، تلتقطُ الخَلايا الأنثويَّة فيها من هذه اللُّقَاحاتِ ما هو من نفسِ نوعِها.

وكلُّ نباتٍ يُنتِجُ مِئاتِ الآلافِ من اللُّقَاحاتِ، وعلى سَبيلِ المِثال: تُنتِجُ نبتةُ الدُّرةِ عِشرينَ مليونًا من اللُّقَاحاتِ، بِمعنى: أنَّ نبتةً واحدةً من الدُّرةِ الذُكوريَّة تكفي لتلقيحِ حقولِ الدُّرةِ في مِدينةٍ بِأَسْرِها.

ويتطايرُ في الهواءِ مئآتُ الألوْفِ من هذه اللُّقاحاتِ، والتي تكونُ في بعض الأحيانِ سببًا في انتشارِ الأمراضِ الوَبائيَّةِ مثلَ: (حُمَّى القَشِّ)، وكلُّ زهرةٍ تلتقطُ اللُّقاحاتِ التي من نوعها فقط، مثلما يلتقطُ المِغناطيسُ الحديديُّ كلَّ ما هو حديديُّ مثله، لكنَّه لا يلتقطُ الخشبَ، وبنفسِ الطريقةِ فإنَّ موجاتِ البثِّ التلفزيونيِّ كُلِّها تكونُ في الأثيرِ، لكنَّ جهازَكَ التلفزيونيَّ يلتقطُ موجاتِ بثِّ القناةِ التي تضغطُ زرَّها فقط، ويَعرِضُها على الشاشة.

نَخلُصُ من هذا التفصيلِ إلى نتيجَتَيْنِ:

١- الذُّكوريَّةُ والأنثويَّةُ موجودتانِ في النَّباتِ، ويَتَبَّجُ عن فعلِهما الجِنسيِّ البذورُ والثمارُ.

٢- الهواءُ إحدى وسائلِ هذا الفعلِ الجِنسيِّ، وقد اكتُشِفَت هذه النَّظريَّةُ في القرنِ التاسعَ عَشَرَ الميلاديِّ، ولم يكنْ أحدٌ قبلَ ذلك يتصوَّرُ أنَّ في النَّباتاتِ أيضًا ذكورةً وأنوثةً، لكنَّ القرآنَ المَجديدَ قالَ عن النَّباتاتِ قبلَ أربعةَ عَشَرَ قرنًا من الزمانِ:

١- ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

٢- ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣].

٣- ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

٤- ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوْفِحٍ﴾ [الحجر: ٢٢]: «ثم يبعثُ اللُّوَاحُ الشَّجَرَ»^(١).

وهكذا، فإنَّ النتيجةَ التي وَصَلَ إليها العِلْمُ بعدَ آلافِ التجاربِ، أعلنها القرآنُ الكريمُ قبلَ ألفٍ وأربعمائةِ عامٍ، فأثبتَ - بذلك - أنه ليس من كلامِ البشرِ،

وإنما هو كلامُ الله تعالى الخالقِ الحقيقيِّ للسمَّاءِ والأرضِ والكائناتِ جميعاً؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقتِ أيُّ عالمٍ تجريبيٍّ على وجهِ الأرض يَعْلَمُ أنَّ الهواءَ يكونُ سبباً في التلقيح في النباتات.

التلقيح في النخيل ومشورة النبي ﷺ:

يقولُ سيّدنا رافعُ بن خديج رضي الله عنه: قَدِمَ نبيُّ الله ﷺ المدينةَ وهم يَأْتِرُونَ النَّخْلَ، يقولون: يُلْقِحُونَ النَّخْلَ (أي: يُلْقِحُونَ النَّخْلَ الْأُنْثَوِيَّ بِالنَّخْلِ الذَّكَرِيِّ) فقال: «ما تصنعون؟». قالوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً»، - فتركوه، فنَفِضَتْ أو فَفَقَصَتْ - قال - فذَكَّرُوا ذلك له فقال: «إنما أنا بشرٌ (أي: لستُ إلهاً)، إذا أمرتكم بشيءٍ من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيءٍ من رأيٍ فإنما أنا بشرٌ»^(١)، وفي حديثٍ آخرَ قال ﷺ «أنتم أعلمُ بأمرِ دُنياكم»^(٢).

كان النبي ﷺ يَعْلَمُ أنه إذا كانت الرِّياحُ تقوِّمُ بمهمّةِ التلقيح هذه، فلم يَشُقُّ أهلُ المدينةَ فقط على أنفسهم؟ ولكن كان سببُ نَقْصِ الثمارِ في ذلك العام هو أنَّ أشجارَ النخيل كانت قد اعتادتْ على التلقيح اليدويِّ الذي يقومُ به أهلُ المدينة منذُ سنينَ عديدة، وكان لا بدَّ من مرورِ وقتٍ تعودُ فيه الأشجارُ إلى الحالةِ الطبيعيّة، وتُثمِرُ بشكلٍ أكبر^(٣)، ولكن حين رأى النبي ﷺ أنَّهم مطمئنون إلى تجاربهم السابقة، وأنَّ من السابقِ لأوانه إفهامهم هذه النُّقطةَ العلميّة الدَّقيقة، قال لهم: «أنتم أعلمُ بشئونِ دُنياكم»، كما أنَّ هذا الأمرَ لا يَتعلّقُ بالأحكام الشرعيّة، ولهذا تَرَكَ أمرَ العملِ به أو عَدَمَ العملِ به إلى ما يُحِبُّون.

(١) مسلم، كتاب الفضائل، باب ٣٨ برقم ٢٣٦٢.

(٢) مسلم، برقم ٢٣٦٣.

(٣) «فلو صبروا على نقصان سنة أو سنتين لرجع النخيل إلى حاله الأول». نسيم الرياض: شرح

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابٍ وَزَرَعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

٦- للأرض أجزاء مختلفة، كلُّ منها قريب من الآخر، لكنها مختلفة تمامًا من حيث الخصائص، فبعضها خصب، يُنبَت محصولًا جيدًا، والبعض الآخر بور يُفسد حتى البذور التي تُنثر فيها، مع أنَّ طبيعة الأرض واحدة، وكان يجب أن يكون إنتاجها واحدًا أيضًا، ولكن شاءت إرادة الله تعالى وحكمته أن تكون هذه الأجزاء مختلفة، ثم إنَّ في الأرض حقائق العنب، والمحاصيل الزراعية، وبعض أشجار النخيل مجتمعة، والبعض منفصل، وكلُّها تُسقى بماء واحد، ولكن طعم كلِّ منها مختلف، وبنفس الطريقة فإنَّ الناس جميعًا من نسل سيدنا آدم عليه السلام، ولكن مزاج أولاده وألوانهم وخصائصهم مختلفة بعضها عن بعض.

﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ نَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

٧- إنَّ إنكار يوم القيامة بعد رؤية الآيات الواضحة على وحدانيته تعالى وقدرته، والقول بأننا حين نموت لن نُبعث من جديد، أمرٌ في غاية العجب فعلاً؛ لأنَّ الله تعالى خلق الكائنات كلها لأول مرة بدون مادة، وإنما بقوله: «كن»، فأبى صعوبة تكتنف خلقها من طين ثانية؟ ولكن إنكارهم للآخرة - في الحقيقة - بمثابة إنكار لقدرة الله تعالى وحكمته، ولهذا ستوضع أغلال كُفْرهم بالله تعالى في أعناقهم يوم القيامة، ثم يُلقى بهم في نار جهنم.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

٨- كلُّ نبيٍّ من أنبياء الله تعالى عليهم السلام قال للمُنكرين: إنكم لو لم

تؤمنوا بالله تعالى، فسيأتىكم العذاب في الوقت المحدد له، وحين طالب المنكرون بنزول العذاب، أهلك الله بعضهم على الفور، مثل: قوم عاد وثمود وقراهم التي دمرها الله تعالى كما نعرف، وبالرغم من هذه الأمثلة طالب كفار مكة بنفس الأمر، بمعنى: قولهم: إن كنت نبياً صادقاً يا محمد ﷺ، فأتنا بعذاب من عند الله سريعاً؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون بك نبياً، ورداً على هذا قال القرآن الكريم: إنه بالرغم من الظلم والذنوب التي يرتكبها الناس، إلا أن الله تعالى لا يتعجل بالعذاب، وإنما يمهّل الناس لعلهم يتوبون إليه، وفي بعض الأحيان يمدّ حبال الصبر طويلاً، بحيث يترك الأمر إلى يوم القيامة، ولكن إن أراد الله تعالى أن يؤاخذهم على ما يرتكبون فوراً، فلن يترك على ظهر الأرض إنساناً، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَبَكَ اللَّهُ كَانَ بَعَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥]؛ لأن الإنسان يخطئ، فإذا ما نزل العذاب فور الوقوع في الذنب، فسوف يهلك الناس جميعاً.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

٩- رأى المنكرون العديد من المعجزات، على سبيل المثال: سيرته النبوية الطاهرة، وكل آية من آيات القرآن الكريم، والذي تُعتبر ألفاظه ومعانيه معجزة لا مثيل لها، ولكن بالرغم من ذلك كانوا يطالبون بمعجزات جديدة، وعليه قال النبي ﷺ بأمر من الله تعالى: إنني لم أبعث لكي أريكم المعجزات التي تطلبونها، وعليه أيضاً قال النبي ﷺ بأمر من الله تعالى: إنما بُعثت لكي أريكم طريق الهداية والاستقامة، وأخوفكم من الأمور التي تُغضب الله تعالى.

بعض المعجزات المشهورة للنبي ﷺ:

١- عن علي بن أبي طالب، قال: كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجن في بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السّلام عليك يا رسول الله^(١).

٢- يقول سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: بم أعرف أنك نبي؟ قال: «إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة، أتشهد أنني رسول الله؟». فدعاه رسول الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم قال: «ارجع». فعاد، فأسلم الأعرابي^(٢).

٣- يقول سيّدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: عطش الناس يوم الحديبية، والنبي ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ، فجهش الناس نحوه، فقال: «ما لكم؟». قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنّا مائة ألف لكانا، كنّا خمس عشرة مائة^(٣).

٤- يقول سيّدنا أنس رضي الله عنه: أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله ﷺ، فبينما هو يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال: يا رسول الله، هلكت الكراع، هلكت الشاء، فادع الله يسقينا، فمد يديه ودعا. قال أنس: وإن السماء لمثل الزجاجة، فهاجت ريح أنشأت سحاباً ثم اجتمع، ثم أرسلت السماء عزاليها، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا، فلم نزل نمطر إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل - أو غيره - فقال: يا رسول الله، تهدمت البيوت،

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٦ برقم ٣٦٢٦.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٦ برقم ٣٦٢٨.

(٣) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٥٧٦.

فادَّعُ اللهَ يَحْبِسُهُ. فَتَبَسَّسَ ثُمَّ قَالَ: «حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا». فَنَظَرْتُ إِلَى السَّحَابِ تَصَدَّعَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ كَأَنَّهُ إِكْلِيلٌ^(١).

٥- يَقُولُ سَيِّدُنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - أَوْ رَجُلٌ -: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَجْعَلُ لَكَ مَنَبْرًا؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتُمْ». فَجَعَلُوا لَهُ مَنَبْرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ دَفَعَ إِلَى الْمَنَبْرِ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صَبَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ تَتْنُ أَنْيْنَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكِّنُ، قَالَ: «كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا»^(٢).

٦- يَقُولُ سَيِّدُنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمْصًا شَدِيدًا، فَاذْكُفْتُ إِلَى امْرَأَتِي فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمْصًا شَدِيدًا. فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جَرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بِهِمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنْتِ الشَّعِيرَ فَفَرَّغْتُ إِلَى فَرَاعِي، وَقَطَعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: لَا تَفْضَخْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ. فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَبَحْنَا بِهِمَةً لَنَا وَطَحْنَا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ. فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا فَحَيِّ هَلَّا بِكُمْ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ، وَلَا تَخْبِرُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ». فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقَالَتْ: بَكَ وَبَكَ. فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتَ. فَأَخْرَجْتُ لَهُ عَجِينًا، فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ ثُمَّ قَالَ: «ادْعُ خَابِزَةً فَلْتُخَبِرْ مَعِيَ، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوها»، وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ، لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكَوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغُطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنا لَيُخْبِرُ كَمَا هُوَ^(٣).

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٥٨٢.

(٢) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٥٨٤.

(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب ٢٩ برقم ٤١٠٢.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

١٠- معنى هذا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هو نبيُّ كُلِّ أُمَّةٍ وقائدها حتَّى يوم القيامة، وقد أَرْسَلَ اللهُ تعالى قَبْلَ النَّبِيِّ ﷺ نبيًّا إلى كُلِّ أُمَّةٍ، أو هاديًّا ينشُرُ دعوته، ولهذا فَإِنَّ كُلَّ أُمَّةٍ قد جاءها - بالفعل - نبيٌّ أو هادٍ يُنَوِّبُ عنه، أمَّا أَنَّ هذه الأُمَمَ قد تَبَيَّنَتْ على هداية نبيِّها أم لم تَبَيَّنْ، فهذا أمرٌ آخر.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدُّواْ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾
 عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمَتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْخِرُ الرِّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْتَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِيغٍ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾
 لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْاْ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ ﴿١٨﴾

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾

١١- حين يبدأ تخليق الجنين في بطن أمه، فإن الله تعالى يعلم تمام العلم أحوال صحته، والزيادة أو النقصان في مدة الحمل، وقد حدد لكل كيفية من هذه الكيفيات مدة بعينها، وتظهر هذه الكيفية إلى حيز الوجود طبقاً لهذا التحديد الذي قرره الله تعالى، كما أنه تعالى يعلم تمام العلم مستقبل هذا الطفل؛ كم سيعيش في هذه الدنيا، وكم سيكون رزقه، وأي عمل صالح سيعمله، وأي عمل سيئ سيقوم به.

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَيْلٍ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ ﴾

١٢- سواء تحدث أحدكم بصوت خافت أو بصوت مرتفع، وسواء كان في ظلمات الليل أو في ضوء النهار، كل هذا سواء بالنسبة لله تعالى، فهو لا يخفى عليه شيء؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن تمام العلم.

﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

١٣- جعل الله تعالى ملائكة مع كل إنسان «يتعاقبون بالليل والنهار؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار، إن مع كل رجل ملكين يحفظانه ما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبين قدر الله»^(١)، وبعض هؤلاء الملائكة يكتب أفعال العبد، والبعض الآخر يكون وسيلة ليرفع عنه ذلك البلاء الذي يريد الله تعالى أن ينجي منه، لكن هؤلاء الملائكة يتزكون الإنسان عندما يحين وقت البلاء الذي يقدره الله تعالى على العبد لحكمة عنده^(٢)، أما لماذا تنزل المصائب

(١) تفسير القرطبي.

(٢) المرجع السابق.

على الإنسان؟ فإنها تكون في بعض الأحيان لمجرد الابتلاء، وفي بعض الأحيان تكون نتيجة لتقصير الإنسان نفسه، وسيأتي مثال ذلك في الحاشية القادمة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

١٤- الله تعالى عدلٌ مطلق، ولا مجال لأن يقع منه ظلم لأحد، وحين ترتفع أمة من الأمم على قمة الاجتهاد، فإن الله تعالى لا يذل هذه الأمة بلا داع، وإنما يبدأ انحدارها حين تغفل عن الاجتهاد العملي، وحين يريد الله تعالى معاقبتها على هذه الغفلة، لا يستطيع أحد أن يؤخر هذا العقاب، كما لا يستطيع أحد أن يمدد لها يد العون:

* هذا هو حكم قاضي القدر منذ الأزل، أن موت الفجاءة عقاب لجريمة الضعف.

ولهذا فإن تقدم الأمم المتراجعة ثانية ممكن في صورة واحدة، هي أن تتوب من غفلتها توبة صادقة، وأن تصل ليلها بنهارها في الاجتهاد والعمل؛ لأن الله تعالى يهدي إلى سبيله كل أمة تجاهد في سبيل الحق، مثلما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]:

* لم يغير الله تعالى حتى اليوم حال أمة لم تنتبه إلى تغيير حالها بنفسها.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾

١٥- جاء في هذه الآية ذكر لايتين من آيات قدرة الله تعالى، تخلقان بداخل الإنسان حالة من الخوف وحالة من الرجاء في نفس الوقت، يعني: أنه حين تُرعد السماء يتولد الأمل في نزول المطر، وفي نفس الوقت ينتاب المرء الخوف من أن يصبح هذا الرعد صاعقة تكون سبباً في الهلاك والدمار، وبنفس الطريقة عندما

يرى الإنسان السحاب الممتلئ ماءً يمتلئ أملًا في نزول الغيث وأمطار الرحمة، وفي نفس الوقت يخاف من أن تؤدي غزارة الأمطار إلى حدوث السيول، وفي هذا إشارة أيضًا إلى أن على الإنسان أن يكون أملًا في رحمة الله تعالى خائفًا من عذابه.

﴿وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾

١٦- سواء كان رعد الصواعق أم ملائكة النور، كلها تخشى الله تعالى، وتحمده وتثني عليه، مع أنها مبرأة من ارتكاب الذنب والعصيان، وفيه درس عبرة لبني الإنسان، حتى يكون أكثر خشية لله تعالى، ويكثر من حمده والثناء عليه وتسبيحه.

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾

١٧- الله تعالى يمهّل منكبيه حتى يصلحوا أنفسهم، لكن إن أراد أن يعاقب أحدًا في هذه الدنيا، فإن قبضته تكون محكمة بحيث يرسل الصواعق على هؤلاء المنكرين بغتة ويهلكهم في الوقت الذي يسيئون فيه إلى الله تعالى، وتأمل الواقعة التالية في هذا الخصوص:

«سئل الحسن عن قوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية، فقال: كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ نفرًا من أصحابه يدعونه إلى الله وإلى رسوله، فقال لهم: أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني إليه، هل هو من ذهب أم فضة أم حديد أم نحاس؟ فاستعظم القوم كلامه فانصرفوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا رجلًا أكفر قلبًا ولا أعتى على الله منه. فقال: «ارجعوا إليه»، فرجعوا فلم يزيدهم على مقالته الأولى شيئًا بل قال: أجيئ محمدًا إلى رب لا أراه ولا أعرفه؟ فانصرفوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ما زادنا على مقالته الأولى شيئًا بل أخبث. فقال: «ارجعوا إليه»، فرجعوا إليه، فبينما هم عنده يدعونه وينازعونه، وهو لا يزيدهم على مقالته شيئًا، إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم،

فَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ وَرَمَتْ بِصَاعِقَةٍ فَأَخْرَقَتِ الْكَافِرَ وَهُمْ جُلُوسٌ عِنْدَهُ، فَرَجَعُوا لِيُخْبِرُوا النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا رَجَعُوا اسْتَقْبَلَهُمْ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا لَهُمْ: «احْتَرَقَ صَاحِبُكُمْ»، قَالُوا: مَنْ أَيْنَ عَلِمْتُمْ ذَلِكَ؟ قَالُوا: قَدْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ^(١).

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

١٨- الدُّعَاءُ الْحَقِيقِيُّ هو: عبادةُ الله تعالى والاستغاثةُ به، والذين يَتَرَكُونَ الله تعالى ويعبدون آلهةً أخرى، أو يستغيثون بها: ضالُّون؛ لأنَّ هذه الآلهة لا تستطيع أن تجيب دعاءهم، ومثالهم كمثل ذلك الشخصِ الظَّمانِ الذي يقفُ على حافةِ بئرٍ، ويمدُّ يده إلى الماءِ بغيرِ دلوٍ وحبلٍ، متوسِّلاً إليه بمداينةٍ قائلاً: إنَّني ظمآنٌ، من فَضْلِكَ اصعدْ إلى فمي حتى أطفئَ ظمأي! مع أنَّ الماءَ ليس لديه القُدرةُ على أن يرى أحداً، أو يسمعَ استغاثةَ أحدٍ، أو يساعدَ أحداً، ولهذا لن يستطيعَ الماءُ إغاثته، حتى وإن ظلَّ يتوسَّلُ إليه طيلةَ عمره، وبنفسِ الطريقة ليس لدى تلك الآلهةِ القُدرةُ أصلاً على أن تهبَّ لنجدةِ أحدٍ، لكنَّ يجوزَ التوسُّلُ بعبادِ الله الصَّالحينَ بشرطِ أن يكونَ المتوسِّلُ على عِلْمٍ بأنَّ هؤلاءِ غيرُ دائمين، وأنهم يساعدون الآخرينَ بإذنِ الله تعالى وبالقدرة التي مَنَحَهَا إياهم، مثلما قال النبي ﷺ: «إذا أَضَلَّ أَحَدُكُمْ شَيْئاً أَوْ أَرَادَ أَحَدُكُمْ عَوْناً وَهُوَ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا أُنَيْسٌ، فَلْيَقُلْ: يَا عِبَادَ اللَّهِ أَغِيثُونِي، يَا عِبَادَ اللَّهِ أَغِيثُونِي، فَإِنَّ اللَّهَ عِبَاداً لَا نَرَاهُمْ»^(٢).

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظُلُمَاتُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾

١٩- المرادُ بالسَّجدة: الخضوعُ في الطاعةِ والتسليمُ بها، وقد جَعَلَ الله تعالى

(١) تفسير الخازن.

(٢) المعجم الكبير، الطبراني، ١٧: ١١٨.

لهذه الكائنات نظامًا من الفطرة تسير عليه، والسَّماء والأرض وظلها جميعًا تسير وفقًا لهذا النظام، والبعض يخضع راضيًا لنظام الفطرة هذا، بينما يضطر البعض الآخر إلى الخضوع إليه، مثلما يقبل عبادة الله الصالحون الموت برضا حين يأتيهم، أما من لا يحبون الموت فإنهم يضطرون إلى قبوله أيضًا؛ لأنّ نظام فطرة الله تعالى قائم بهذه الصورة.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾

٢٠- سأل النبي ﷺ كفار مكة بأمر من الله تعالى: من هو رب السماوات والأرض؟ ثم قال لهم بنفسه: إنه الله تعالى، ولم يكن كفار مكة يستطيعون الإنكار؛ لأنهم أيضًا كانوا يعتقدون أنّ الله تعالى هو رب السماوات والأرض، ولهذا قال لهم النبي ﷺ: إنكم إن كنتم تعترفون بأنّ الله تعالى هو رب السماوات والأرض، فلماذا اتَّخذتم من كلّ هذه الآلهة الباطلة أولياء لكم وهي لا تملك نفعًا ولا ضرًا، فكيف تنفعكم أو تضرّكم؟ وهذا دليل واضح وضوح الشمس لا ينكره إلا الأعمى الذي لا يرى ضوء النهار، والآن أخبروني أنتم؛ هل يستوي الأعمى والمبصر، أم هل تستوي ظلمات الكفر ونور الهداية؟

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

٢١- يعني: لماذا تتخذون من هذه الآلهة الباطلة العاجزة شركاء لله تعالى؟ هل خلقت هذه الآلهة خلقًا مثل خلق الله تعالى، جعلكم - عند رؤيته - تظنون أنها ربما تكون آلهة؟ مع أنّ هذه الآلهة جميعًا لا تستطيع أن تخلق بعوضة حتى وإن اجتمعت لها، فإذا كان هذا هو حالها من العجز وفقدان الحيلة، فكيف يمكن

أن تكون شُرَكَاءَ لله تعالى؟ وبالتالي فإنَّ الحقيقةَ فقط هي أنَّ الله تعالى هو خالقُ كلِّ شيءٍ، وهو واحدٌ وغالبٌ على الجميع.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾

٢٢- في هذه الآية جاء الله تعالى بمثالٍ لكي يبيِّن الفرقَ بينَ الحقِّ والباطل ويشرِّحه، وهو أنه حينَ ينزلُ المطرُ بغزارةٍ، فإنَّ الجداولَ والأنهارَ تمتلئُ ماءً، كلُّ بحسبِ سَعَتِهِ، وحينَ تُجري الماءَ بقوةٍ في شكلِ السُّيولِ، فإنَّ كلَّ ما يعترضُ طريقَ الماءِ من القَشِّ والعُشْبِ الجافِّ وغيرهما يطفو فوقَ سطحِ الماءِ في صورةِ الزَّبَدِ. وبنفسِ الطريقةِ، عندما يقومُ صانعو الحُلِيِّ وما شابهَ من الأشياءِ بصهرِ الذهبِ والفضَّةِ وغيرهما من المعادنِ، فإنَّ الشوائبَ التي تكونُ بداخلها تطفو على سطحها فيما يُشبهُ الزَّبَدَ أيضًا، وفي بعضِ الأحيان يكونُ هذا الزَّبَدُ كثيرًا بحيثُ يغطِّي على ما تحتهُ من الماءِ أو الذهبِ والفضَّةِ، لكن هذا الزَّبَدُ لا قيمةَ له، ولا هو دائمٌ وباقٍ، بل على العكس، سريعًا ما يزولُ أو يُزالُ، وفي النهايةِ يبقى الماءُ الذي يسقي الأرضَ فيجعلُها يانعةً خضراءَ، كما يبقى الذهبُ الخالصُ والفضَّةُ الخالصةُ التي تُستعملُ في صناعةِ الحُلِيِّ والجواهر.

والمرادُ بالماءِ والمعادنِ في هذا المثال هو الحقُّ، إذ هو الذي يبقى ويدوم، وينفعُ الناسَ أيضًا، والمرادُ بالزَّبَدِ هو الباطلُ، والذي قد يغطِّي سطحَ الماءِ أو المعادنِ، لكن لا ثباتَ له ولا دوامَ، إذ يزولُ في نهايةِ المطافِ.

ويعلمُ من هذا أنَّ من الممكنِ أن يغطِّي الباطلُ على الحقِّ في بعضِ الأحيان، ولكنَّ الباطلَ يزولُ في نهايةِ الأمرِ، ويبقى الحقُّ فقط.

﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَغَدَبٌ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا بَكَتُ فِي الْأَرْضِ﴾

٢٣- هنا بينَ الله تعالى مبدأً فطرياً، أي: أن الشيء النافع هو الذي يبقى، والشيء الذي لا فائدة منه يزول ويفنى، وقد بين القرآن الكريم قبل ألف وأربعمائة عام قانون «البقاء للأصلح» في نظرية الصراع من أجل البقاء، وهذا المبدأ هو المؤثر كذلك في عملية تقدّم الحكومات والأفراد وزوالهم، فالحكومات التي تنفع الناس تبقى، والتي لا تنفع الناس تفشل في نهاية المطاف.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَهُمْ فِيهَا يُكَلِّمُونَ﴾

٢٤- الذين آمنوا بالله تعالى لهم الحُسنى في الآخرة، والذين كفروا به حسابهم عسير، ومصيرهم جهنم، ولو أرادوا افتداء أنفسهم من العذاب بأضعاف ثروات الأرض لما أمكنهم ذلك، ولمزيد من التوضيح راجع الحاشية رقم ٤٧ والآية رقم ٩١ من سورة آل عمران.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ ۚ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ۚ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۚ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَقِبَى الدَّارِ ۚ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۚ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا ۖ فَنِعْمَ عَقِبَى الدَّارِ ۚ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۚ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يُسَيِّطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفِرْحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ۚ ﴿٢٦﴾﴾

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ أُولَئِكَ لَا بُدَّ لَهُمْ﴾

٢٥- شخصٌ يؤمنُ بأنَّ القرآنَ الكريمَ كلامُ الله تعالى، نزلَ على النبيِّ الكريم ﷺ، ويسيرُ على الطَّريقِ المستقيمِ في ضوءِ تعاليمِ هذا القرآنِ المَجِيدِ، بينما يُنكرُ شخصٌ آخرُ القرآنَ الكريمَ، ويَهيِّمُ على وجهه كالعُميانِ في ظُلُماتِ الضَّلَالِ، طبعيُّ أن لا يكونا متساويين، وَرَغْمَ أن الفَرْقَ بينهما في غايةِ الوضوح، لكن لا يدركُهُ إِلَّا أصحابُ العقولِ السَّليمة، أَمَّا مَنْ تَحَجَّبَ غِشَاوَةُ الغفلةِ والتعصُّبِ عقولَهم، فإنَّهم لا يستطيعون إدراكَ هذا الفَرْقِ.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ أَلِمِثَقَ﴾

٢٦- من هذه الآية وحتى الآية رقم ٢٤ جاء بيان صفات أصحاب العقول السَّليمة، أي: أهل الإيمان.

وأولُ صفةٍ من صفاتهم هي: أنهم يُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ معَ الله تعالى، بمعنى: أنَّهم يحقِّقون وعدَهم لله تعالى بعبادته وطاعته.

والصفةُ الثانية هي: أنهم لا يُخْلِفُونَ عَهْدَهُمْ، أي: سواءً كانت هذه العهود معَ الله سبحانه وتعالى فيما يتعلَّقُ بحقوقِ الله تعالى أم مع بني الإنسان فيما يتعلَّقُ بحقوقِ العباد، أيًا كانت هذه العهود فإنَّهم لا يُخْلِفُونَهَا.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾

٢٧- والصفةُ الثالثة من صفات أهل الإيمان هي: أنهم يُحْسِنُونَ معاملَةَ آبائهم وأُمَّهاتهم وأقاربهم، وقد قال النبي ﷺ: «ليس الواصلُ بالمُكافئ، ولكنَّ الواصلُ: الَّذي إذا قُطِعَتْ رَحْمُهُ وَصَلَهَا»^(١)، ولمزيدٍ من المعرفة عن فضلِ صلة الرِّحِمِ والمَنعِ من قطعها راجع الحاشية رقم ٣، ٥١، ٥٢ من سورة النساء (٤).

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾

٢٨- الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ من صفاتِ أهلِ الإيمانِ هي: أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ عِظَمَةَ اللَّهِ تعالى وَجَلَالَهُ، فَلَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مَا يُغْضِبُهُ.

وَالصِّفَةُ الْخَامِسَةُ هي: أَنَّهُمْ يَخَافُونَ مِنْ يَوْمِ الْحِسَابِ، وَيَعْمَلُونَ جَاهِدِينَ عَلَى إِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حَتَّى لَا يَنْدَمُوا يَوْمَ الْحِسَابِ.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾

٢٩- الصِّفَةُ السَّادِسَةُ من صفاتِ أهلِ الإيمانِ: أَنَّهُمْ يَصْبِرُونَ مِنْ أَجْلِ نَيْلِ رِضَا اللَّهِ تعالى، بِمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَتَحَمَّلُونَ كُلَّ الْعَقَبَاتِ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى كُلِّ الْمَصَائِبِ وَالْإِبْتِلَاءَاتِ الَّتِي تَوَاجَّهُهُمْ فِي طَرِيقِ طَاعَةِ اللَّهِ تعالى وَتَجَنُّبِ عَصْيَانِهِ، سِوَاءَ كَانَتْ مَرْضًا أَمْ أَلَمًا أَمْ أَيْ إِبْتِلَاءٍ آخَرَ، بِقَصْدِ الْحَصُولِ عَلَى رِضَا اللَّهِ تعالى فَقَطْ.

وَالْمَرَادُ بِالصَّبْرِ: الَّذِي يَكُونُ مَعَ بَدَايَةِ الصَّدْمَةِ، وَلَا يَكُونُ اضْطِرَارِيًّا؛ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَأْتِيهِ الصَّبْرُ بِشَكْلِ تَلْقَائِيٍّ بَعْدَ فِتْرَةٍ مِنَ الْأَزْمَةِ الَّتِي يَوَاجْهُهَا، وَمِثْلُ هَذَا الصَّبْرِ لَا فَضْلَ لَهُ.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾

٣٠- الصِّفَةُ السَّابِعَةُ من صفاتِ أهلِ الإيمانِ هي: أَنَّهُمْ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ.

وَالصِّفَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ تعالى فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَطَبَقًا لِلظُّرُوفِ تَجِدُهُمْ - أَحْيَانًا - يُنْفِقُونَ سِرًّا، حَتَّى لَا يَجْرَحُوا كِرَامَةً مَنْ يَتَصَدَّقُونَ عَلَيْهِ، وَأَحْيَانًا أُخْرَى يُنْفِقُونَ عَلَانِيَةً، حَتَّى يُرَغَّبُوا الْآخَرِينَ فِي التَّصَدُّقِ، وَلِمَزِيدٍ مِنَ الشَّرْحِ وَالتَّوْضِيحِ رَاجِعِ الْحَاشِيَّةَ رَقْمَ ٦، ٢٣٢ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢).

﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾

٣١- الصِّفَةُ التَّاسِعَةُ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ هِيَ: أَنَّهُمْ يَقْضُونَ عَلَى السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ؛ لِأَنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ مِثْلَمَا جَاءَ فِي الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ:

١- عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(١).

٢- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ الَّذِي يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ، ثُمَّ يَعْمَلُ الْحَسَنَاتِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ عَلَيْهِ دَرْعٌ ضَيِّقَةٌ قَدْ خَنَقَتْهُ، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً، فَاَنْفَكَتْ حَلَقَةً، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً أُخْرَى، فَاَنْفَكَتْ حَلَقَةً أُخْرَى، حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْأَرْضِ»^(٢).

٣- عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي. قَالَ: «إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاتَّبِعْهَا حَسَنَةً تَمَحُّهَا». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ الْحَسَنَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ قَالَ: «هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ»^(٣)، وَلَمْزِيدٍ مِنَ الشَّرْحِ وَالتَّوْضِيحِ رَاجِعِ الْحَاشِيَّةِ رَقْمَ ١٤١ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ (٦)، وَالْحَاشِيَّةِ رَقْمَ ٩٤ مِنْ سُورَةِ هُودٍ (١١).

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أَيْضًا: أَنَّهُمْ يَتَعَامَلُونَ بِبَشَاشَةٍ وَسَخَاءٍ وَحُسْنِ السُّلُوكِ مَعَ مَنْ يُعَامِلُهُمْ بِغِلْظَةٍ وَبُخْلِ وَجَوْرِ، وَيَعْفُونَ عَنْهُ أَيْضًا، مِثْلَمَا عَفَا سَيِّدُنَا يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ إِخْوَتِهِ، وَعَفَا سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَقَدْ قَالَ سَيِّدُنَا الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا حُرِّمُوا أَعْطَوْا، وَإِذَا ظَلِمُوا عَفَوْا، وَإِذَا قُطِعُوا وَصَلُوا»^(٤).

(١) الترمذي، أبواب البر، باب ٥٥ برقم ٩٨٧.

(٢) مسند أحمد، ٤: ١٤٥.

(٣) مسند أحمد، ٥: ١٦٩.

(٤) تفسير روح المعاني.

وفي هذا الخصوص ينقل الإمام الرازي واقعة تقول: «يُروى أن شقيق بن إبراهيم البلخي دخل على عبد الله بن المبارك متنكراً، فقال: من أين أنت؟ فقال: من بلخ، فقال: وهل تعرف شقيقاً؟ قال: نعم، فقال: كيف طريقة أصحابه؟ فقال: إذا مُنعوا صَبَرُوا، وإن أعطوا شَكَرُوا، فقال عبد الله: طريقة كلابنا هكذا، فقال: وكيف ينبغي أن يكون؟ فقال: الكاملون هم الذين إذا مُنعوا شَكَرُوا، وإذا أعطوا آثَرُوا»^(١).

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾

٣٢- أهل الإيمان الكامل الذين جاء ذكرهم في الآيات السابقة، يبين الله تعالى هنا أجرهم العظيم، فالله تعالى سيدخلهم جنات خالدين فيها، وسيدخل الصالحين من آبائهم وأجدادهم وأزواجهم وذرياتهم أيضاً في جنات خالدين فيها. يقول العلامة ثناء الله باني بتي: سَيُنْعِمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى آبَاءِ كَامِلِي الْإِيمَانِ هَؤُلَاءِ وَعَلَى أَجْدَادِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ بِدَرَجَاتِ الْكَامِلِينَ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، حَتَّى وَإِنْ كَانُوا - مِنْ حَيْثُ الْأَعْمَالُ - لَيْسُوا أَهْلًا لِتِلْكَ الدَّرَجَاتِ، وَلَكِنْ سَيَجْمَعُهُمُ اللهُ تَعَالَى مَعًا تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ وَتَكْرِيمًا لَهُمْ^(٢)، مثلما قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، بمعنى: أَنَّ الْوَالِدَيْنِ اللَّذَيْنِ سَيَكُونَانِ فِي أَعْلَى مَقَامٍ فِي الْجَنَّةِ، سَنَرَفَعُ دَرَجَاتِ ذُرِّيَّاتِهِمُ الصَّالِحَةِ الْمُؤْمِنَةِ، وَنُلْحِقُهُمْ بِهِمْ.

وَيُعْلَمُ مِنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ أَنَّ عِلَاقَةَ النَّسَبِ وَالْقَرَابَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ سَتَكُونُ مُفِيدَةً

(١) التفسير الكبير.

(٢) «فهذه الآية تدل على أن الله تعالى يعطي درجات الكاملين من لم يبلغ درجاتهم ولم يعمل

مثل أعمالهم من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم تطييباً لقلوبهم وتعظيماً لشأنهم بشرط إيمانهم».

التفسير المظهر.

لهم، مع أن النبي ﷺ قال: «كُلُّ نَسَبٍ وَسَبَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا نَسَبِي وَسَبِي»^(١).

يقول العلامة ثناء الله باني بتي مجيباً عن هذا، بأن علاقات الكفار وصدقائهم ستنتقطع يوم القيامة، مثلما قال الله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، و«أن المؤمنين كلهم أبناء لرسول الله ﷺ»، قال الله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، بينما ستبقى علاقات وقرابات وصدقات أهل الإيمان دائمة بسبب النبي ﷺ، والنبي ﷺ هو الأب الروحي لأهل الإيمان جميعاً، وأزواجه المطهرات هن الأمهات الروحيات لأهل الإيمان جميعاً أيضاً^(٢).

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾

٣٣- أهل الإيمان الكامل، الذين صبروا على كل المشاكل التي تواجههم في طريق الدين، حين يدخلون جنة الخلد، تدخل عليهم الملائكة من كل باب، وتسلم عليهم، وتُعظم من شأنهم.

عن عبد الله بن سلام وعلي بن الحسين رضي الله عنهما، قالوا: إذا كان يوم القيامة يُنادي منادٍ: لِيَقُمْ أَهْلُ الصَّبْرِ، فيقوم ناسٌ من الناس فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة، فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، قالوا: قبل الحساب؟ قالوا: نعم! فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صَبَرْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَصَبَرْنَا عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَصَبَرْنَا عَلَى الْبَلَاءِ وَالْمِحْنِ فِي الدُّنْيَا. قال علي بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنة فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ.

(١) كنز العمال، برقم ٣٢٦٤٨ و ٣٧٥٧٨، والمستدرک للحاکم، ٣: ١٥٣.

(٢) التفسير المظهری.

وقال ابن سلام: فتقول لهم الملائكة: ﴿سَلِّمُ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (١).

يقول العلامة ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: «كان النبي ﷺ يأتي قبور شهداء أُحُدٍ على رأسِ كلِّ حَوْلٍ، فيقول: السَّلَامُ عليكم بما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ، وكان أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم يفعلون ذلك» (٢).

ويثبت من هذا جواز زيارة قبور الشهداء والأولياء والكاملين، وحضور الاحتفالات بمولدِهِم، كما أن النبي ﷺ قال: «يُسْفَعُ الشَّهِيدُ في سبعين من أهل بيته» (٣).
ويعلم منه أن العلاقة مع المشايخ والصالحين، سواء كانت علاقة قرابة أم علاقة نسب أم صداقة، تنفع في الآخرة بشرط الإيمان (٤).

حياة الشهيد:

منع القرآن الكريم من القول عن الشهداء: إِنَّهُمْ مَوْتَى، بل منع أيضاً من تصوّر كونهم مَوْتَى ولو في القلب؛ لأن الله تعالى يُنِعِمُ عليهم في البرزخ بحياة خاصة طاهرة، يفوق إدراكها شعورنا، مثلما قال النبي ﷺ فيما يتعلق بسيّدنا جعفر الطيّار رضي الله عنه: «رَأَيْتُ جَعْفَرًا يَطِيرُ فِي الْجَنَّةِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ» (٥).

ويقول سيّدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كنّا مع رسول الله ﷺ فرفع رأسه إلى السماء فقال: «وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ»، فقال الناس: يا رسول الله، ما كنت تصنع هذا؟ قال: «مَرَّ بِي جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ» (٦).

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير جامع البيان، مصنف عبد الرزاق، ٣: ٥٧٣ برقم ٦٧١٦.

(٣) أبو داود، كتاب الجهاد، باب ٢٦ برقم ٢٥٢٢.

(٤) تفسير معارف القرآن، مفتي محمد شفيع الديوبندي.

(٥) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٢٩ برقم ٣٧٦٣.

(٦) السيرة الحلبية، ٣: ١٠٠.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

٣٤- الذين ينقضون عهد الله، ويقطعون العلاقة فيما بينهم، هم - في الحقيقة - يعيشون في الأرض فساداً باغتصابهم حقوق الله وحقوق العباد، أمثال هؤلاء المفسدين سيبعدون من رحمة الله تعالى يوم القيامة، ومصيرهم في غاية السوء.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾

٣٥- كان أكثر المسلمين في مكة فقراء، وكانت الأموال والثروات وفيرة لدى الكفار، وكان كفار مكة يفرحون بهذا كثيراً، ويُعَيِّرون المسلمين بأن الله تعالى راضٍ عنهم هم، ولهذا أنعم عليهم بوفرة في الأموال، فنزلت هذه الآية ردّاً عليهم، بأن وفرة الرزق الدنيوي ليست - بالضرورة - دليلاً على أن الله تعالى راضٍ عنهم؛ لأن كثيراً من المنكرين كانت لديهم وفرة في الرزق في الدنيا مثل: قارون وفرعون، وكذلك قلة الرزق في الدنيا ليست بالضرورة دليلاً على أن الله تعالى غاضبٌ عليهم؛ لأن كثيراً من الأنبياء الكرام عليهم السلام وكذا عباد الله الصالحين كان رزقهم الدنيوي الظاهر قليلاً، وقد أحب النبي ﷺ الفقر لنفسه:

١- عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ، قال: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، قُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، أَوْ قَالَ: ثَلَاثًا، أَوْ نَحْوَ هَذَا، إِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ»^(١).

٢- عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَسْكِينًا وَأَمْتِنِي مَسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فقالت عائشة: لم يا رسول الله؟ قال:

«إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيائِهِمْ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا، يَا عَائِشَةُ، لَا تَرُدِّي الْمَسْكِينَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، يَا عَائِشَةُ، أَحَبِّي الْمَسَاكِينَ وَقَرِّبِيهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُقَرِّبُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وباختصار: فَإِنَّ كَثْرَةَ الْمَالِ أَوْ قَلَّتَهُ تَكُونُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِحِكْمَةٍ أَوْ ابْتِلَاءٍ أحيانًا، وأحيانًا أخرى تَكُونُ نَتِيجَةً تَقْصِيرِ الْأُمَمِ فِي الْجَدِّ وَالْاجْتِهَادِ، مِثْلَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ولمزيد من التوضيح فيما يتعلّق بالحياة الدُّنْيَا ومتاعِها راجع الحاشية رقم ١٣٢، ١٤٠ من سورة آل عمران (٣)، وكذا الحاشية رقم ٨٦ من سورة النساء (٤).

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصْلُحُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلَوُنَّ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِيَ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَلَمْ يَأْتِصِلْ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾

٣٦- لتفسير هذه الآية راجع الحاشية رقم ٩ من هذه السورة، والحاشية

رقم ٢١ من سورة يونس (١٠).

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصْلُحُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾

٣٧- الإنسان الذي يرجع إلى الله تعالى بإخلاص، يفتحُ الله عليه أبواب الهداية،

والذي يُعرضُ عن الله تعالى، ويختارُ لنفسه البقاءَ في الضلال، يتركُه الله تعالى في ضلاله.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

٣٨- عندما يتذكَّرُ الإنسانُ غضبَ الله عليه بعد ارتكاب الذنب، يعتريه الخوفُ والقلق، ويأخذُ هذا الخوفُ بيده إلى التوبة، وإلى رحمة الله تعالى، وحين يتوب الإنسانُ وينشغلُ بذكرِ رحمة الله تعالى، يحصلُ قلبه على السكينة والطمأنينة، على أية حال سواء كان الخوفُ من غضبِ الله تعالى أم الأملُ في رحمته، كلاهما يكونُ سبباً في طمأنينة القلب والنَّجاة في الآخرة، مثلما روى سيّدنا أنسُ رضي الله عنه، أن النَّبِيَّ - ﷺ - دَخَلَ على شابٍّ وهو في الموتِ فقال: «كَيْفَ تَحْدُكُ؟». قال: أَرْجُو الله يا رسولَ الله وأخافُ ذنوبي. فقال رسولُ الله - ﷺ -: «لا يَجْتَمِعَانِ في قلبِ عبدٍ في مثلِ هذا الموطِنِ إلَّا أعطاهُ الله ما يَرجو وأَمَنَهُ ممَّا يَخافُ»^(١).

بعضُ الأحاديثِ النَّبَوِيَّةِ فيما يتعلَّقُ بذكرِ الله تعالى:

- ١- قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِیاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا»، قالوا: يا رسولَ الله، وما رِیاضُ الْجَنَّةِ؟ قال: «حِلَقُ الذِّكْرِ»^(٢).
- ٢- قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَقَالَةً (جلاءً)، وَإِنَّ سَقَالََةَ (جلاءً) الْقُلُوبِ: ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣).
- ٣- قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ حَتَّى يَقُولُوا: مَجْنُونٌ»^(٤).

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ١٣ برقم ٤٢٦١.

(٢) شعب الإيمان، البيهقي، ١: ٣٩٨.

(٣) شعب الإيمان، البيهقي، ١: ٣٩٦.

(٤) مسند أحمد، ٣: ٦٨.

٤- قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ حَتَّى يَقُولَ الْمُنَافِقُونَ: إِنَّكُمْ مُرَاءُونَ»^(١).

٥- قال أبو سعيد: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا عَلَى حَلَقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «مَا أَجَلَسَكُمْ؟»، فَقَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، قَالَ: «اللَّهُ مَا أَجَلَسَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ؟» - قَوْلُهُ: اللَّهُ، بِالْجَرِّ وَالْمَدِّ عَلَى الْقَسَمِ، أَيْ: بِاللَّهِ مَا أَجَلَسَكُمْ - قَالُوا: بِاللَّهِ مَا أَجَلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ. قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً، وَلَكِنْ أَتَانِي جِبْرَائِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ»^(٢)، وَلَمْزِيدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ عَنِ الذِّكْرِ رَاجِعِ الْحَاشِيَّةَ رَقْمَ ١٠٩ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَتَى﴾

٣٩- الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمُ الْبُشْرَى بِالْجَنَّةِ، وَهِيَ مَصِيرٌ رَائِعٌ، وَفِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ كَبِيرَةٌ لِلْغَايَةِ اسْمُهَا طُوبَى، سَيَسْعِدُ أَهْلُ الْجَنَّةِ كَثِيرًا عِنْدَ رَوْيَتِهَا. ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبَتُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾

٤٠- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﷺ، لَقَدْ جَعَلْنَاكَ نَبِيًّا مِثْلَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَى أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَقَدْ سَبَقَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ أُمَمٌ أُخْرَى، حَتَّى تَتَلَوْا عَلَيْهِمْ كَلَامِي، وَحِينَ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ قُرَيْشًا إِلَى الْإِسْلَامِ قَائِلًا لَهُمْ أَنْ يَسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ، فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: مِنْ ذَلِكَ الرَّحْمَنُ؟ إِنَّا لَا نُؤْمِنُ بِهِ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّهُ رَبِّي، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةُ غَيْرُهُ، وَهُوَ وَاحِدٌ أَحَدٌ، وَلَكِنْ صِفَاتُهُ

(١) شعب الإيمان، البيهقي، ١: ٣٩٧.

(٢) تفسير روح البيان.

كثيرة، وقد توكلت عليه هو، وهو الذي سَنَرَجُعُ إليه جميعاً^(١).

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ اللَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾

٤١- كان كفارُ مَكَّةَ يطالبونَ إن كان القرآنُ المَجِيدُ صادقًا، أن يُزيحَ اللهُ الجبالَ من مكانِها، وينظفَ الأرضَ منها، وأن يجعلنَا نكلُمُ الموتى، فنزلت هذه الآيةُ بأنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على كلِّ شيءٍ، ولو أراهم اللهُ تعالى هذه المعجزاتِ عن طريقِ القرآنِ الكريمِ لما آمنوا؛ لأنَّهم قد رأوا معجزاتٍ عديدةً من قبل، لكنَّهم لم يؤمنوا بسببِ تعصُّبِهِم، وقد مرَّ مثلُ هذا المفهومِ في الآية رقم ١١١ من سورة الأنعام (٦) فراجعهُ.

﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

٤٢- ألا يَعْلَمُ أهلُ الإيمانِ - أي: إنَّهم يَعْلَمُونَ فعلاً - أنَّ اللهَ تعالى لو أرادَ لَهْدَى النَّاسَ جميعًا عَنُوَّةً، ولكنَّ هذا ينافي حِكْمَتَهُ، فهو يريدُ أن يَقْبَلَ الإنسانُ الهدايةَ بنفسِهِ وبرضاه، وإذا أَصَرَ أَهْلُ مَكَّةَ على مخالفةِ الإسلامِ هكذا، فسوف تنزلُ بهم المصائبُ دائماً، وسوف يظلُّ الإسلامُ ينتشرُ دائماً، وسوف يَنْهَزمُ هؤلاءُ دائماً، إلى أن يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ، أي: تُفْتَحَ مَكَّةُ، أو حتى قيام الساعة.

وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾
أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ
فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظُهُرٍ مِّنَ الْأَفْوَءِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن

(١) «وقال ابن عباس: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٠] قالوا: وما الرحمن؟ فنزلت. (قل) لهم يا محمد: الذي أنكرتم. (هو ربي لا إله إلا هو) ولا معبود سواه، هو واحد بذاته، وإن اختلفت أسماء صفاته. (عليه توكلت) واعتدت ووثقت. (وإليه متاب) أي: مرجعي غداً، واليوم أيضاً عليه توكلت ووثقت، رضاً بقضائه، وتسليماً لأمره». القرطبي.

يُضِلِّلُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٢﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٣﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

٤٣- يا أيها النبي الحبيب ﷺ، لا تحزن ولا تغتم بسبب مخالفة الكفار لك، فقد استهزأت الأمم السابقة أيضاً برُسُلِهِمْ، فأمهلتهم لكي يصلحوا أنفسهم، ولكن حين لم يرجعوا عن عنادهم وتعتتتهم، لهذا فقد أخذتهم، وعذبتهُم عذاباً جعل قُراهم ومساكنهم آية عبرة حتى اليوم، وكُفَّارُ مَكَّةَ الآن يَمُرُّونَ بهذه المرحلة، فإن لم يرجعوا عن عنادهم، فسوف يلقون سوء المصير، وبالفعل، حدث ذلك، فقد محَا اللهُ تعالى كل أثر للكفر والشرك من مَكَّةَ بعد فتحها، بحيث أنه قد مضى على هذا الأمر أكثر من ألف وأربعمئة عام، ولا يمكن أن يدخل مُشْرِكٌ هناك.

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَهَرُ مِنْ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٢﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾

٤٤- إنه الله تعالى، الذي يعلم كل شيء، وهذه الأصنام التي لا تعلم شيئاً عن نفسها، كيف يمكن أن تكون هذه الأصنام شركاء لله تعالى؟ إن الله تعالى لم يصنع اللات ومناة هذين، ولو صنعهما هو لَعَلِمَ بشركائه هؤلاء، ولهذا فإن هذه أسماء وُضِعَتْ أَبَاؤُكُمْ وَأَجْدَادُكُمْ، أو أنها أوهام من قولكم، ولا علاقة لها بالحقيقة من

قريبٍ أو بعيد، والحقيقة أنَّ هذا عنادٌ منهم، زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لَهُمْ، وهو الذي يَمْنَعُهُمْ من سلوكِ الطريقِ المستقيم، والآنَ قد وَصَلُوا إِلَى قَمَةِ الضَّلَالِ، بحيثُ لا يمكنُ أن يَهْدِيَهُمْ هَادٍ، ولهذا سَيَذُوقُونَ فِي الدُّنْيَا عَذَابَ الْهَزِيمَةِ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ، وَلَكِنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ أَكْثَرُ شِدَّةً وَقَسْوَةً، وَلَنْ يَكُونَ لَدَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ مَنْ يُنْقِذُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبٌ﴾

٤٥- الذين آمنوا بالقرآنِ المَجِيدِ، يَفْرَحُونَ بِمَا يَنْزِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَحْكَامِهِ، لَكِنَّ بَعْضَ الْمُنْكَرِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ كُلِّهِ، وَبَعْضُهُمْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ فَقَطْ مِمَّا لَا يَتَّفِقُ مَعَ رِغَابَتِهِمْ، فَيَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، أَعْلِنْ عَلَيْهِمْ أَنَّكُمْ سَوَاءٌ آمَنْتُمْ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَمْ لَمْ تَوْفَعُوا بِهِ، فَقَدْ أُمِرْتُ عَلَى أَيِّ حَالٍ أَنْ أَعْمَلَ بِالْقُرْآنِ، وَلِهَذَا فَإِنِّي عَامِلٌ بِهِ وَمَتَّبِعُهُ، وَسَوْفَ أَظِلُّ أَدْعُو إِلَيْهِ.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾

٤٦- مثَلَمَا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَى الرُّسُلِ السَّابِقِينَ بِلُغَاتِهِمِ الْمَحَلِّيَّةِ، أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ كَذَلِكَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ؛ لِأَنَّ الْمَخَاطِبِينَ الْأَوَّلَ لَكَ هُمُ الْعَرَبُ، حَتَّى يُمَكِّنَهُمْ فَهْمُ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِسَهُولَةٍ وَيُسْرٍ، وَكُلُّ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَاضِحَةٌ وَأَبْدِيَّةٌ، وَمَنْ يَتَّبِعْ رِغَابَاتِ الْكُفَّارِ بَعْدَ مَجِيئِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ الْوَاضِحَةِ، لَنْ يَجِدَ مَنْ يُنْقِذُهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾
 أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلَهُ
 الْكَفَرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ
 شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا
 بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾

٤٧- من بين الاعتراضات العجيبة التي كان المشركون يثيرونها: أن النبي ليس
 في حاجة إلى الزوجة والأولاد؛ لأنه يجب أن ينشغل دائماً بالدعوة، أما الاعتراض
 الثاني فكان: لو أنك نبي حقاً، لماذا لا تُرينا المعجزات التي نطلبها منك؟

وقد جاء الرد على هذين الاعتراضين في هذه الآية بأن الأنبياء الكرام السابقين
 لم يكونوا ملائكة كذلك، وإنما كانوا بشرًا، وكانت لهم زوجات وأولاد، كما أن
 الأنبياء السابقين عليهم السلام أيضًا لم يكونوا يأتون بمعجزة إلا بإذن الله تعالى،
 وإنما كان الله تعالى يأذن لهم فيأتون بالمعجزة، والله تعالى قد كتب عنده الأوان
 المناسب لكل عمل طبقاً لحكمته، وسيقع هذا الأمر طبقاً للوقت المحدد له.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾

٤٨- كتب الله تعالى رزق كل إنسان وعمره وأعماله عنده في اللوح المحفوظ،
 ويمحو ما يشاء طبقاً لحكمته، ويثبت ما يشاء، مثلما جاء في القرآن الكريم
 ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، وتؤيد الأحاديث النبوية التالية هذا المعنى:

١- عن عليٍّ - رضي الله عنه - أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقال له:
 «لَأُقَرَّنَ عَيْنُكَ بِتَفْسِيرِهَا وَلَأُقَرَّنَ عَيْنُ أُمَّتِي بِعَدْيِ تَفْسِيرِهَا: الصَّدَقَةُ عَلَى وَجْهِهَا

وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ وَاصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ يُحَوِّلُ الشَّقَاءَ سَعَادَةً وَيُزِيدُ فِي الْعُمْرِ وَيَقِي مَصَارِعَ الشُّوْءِ»^(١).

٢- قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(٢).

٣- قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحَرِّمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يَصِيبُهُ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدَّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ»^(٣).

وَيَعْلَمُ مِنَ الْأَحَادِيثِ السَّابِقَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَيِّرُ قَدَرَ الْإِنْسَانِ بِسَبَبِ الدَّعَاءِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَلِهَذَا قَالَ سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ بَاكِيًا، فِيمَا رَوَاهُ أَبُو عُمَثَانَ النَّهْدِيُّ: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ فَأَثْبِتْنِي فِيهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي أَهْلِ الشَّقَاوَةِ وَالذَّنْبِ فَامْحُنِي وَأَثْبِتْنِي فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالْمَغْفَرَةِ، فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثَبِّتُ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ»^(٤)، وَهَذَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ يَرُدُّ مَا قَالَه سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اقْتِدَاءً بِهِ: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ فَأَثْبِتْنِي فِيهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي أَهْلِ الشَّقَاوَةِ وَالذَّنْبِ فَامْحُنِي وَأَثْبِتْنِي فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالْمَغْفَرَةِ، فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثَبِّتُ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ»، اللَّهُمَّ آمِينَ بِجَاهِ حَبِيبِكَ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ التَّحِيَّةُ وَالتَّسْلِيمُ.

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾

٤٩- أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، سَيَتَشَرُّ نُورُ الْإِسْلَامِ، وَسَوْفَ يُوَاجِهُ هَؤُلَاءِ

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ١٢ برقم ٥٩٨٥.

(٣) مسند أحمد، ٥، ٢٧٧، والمستدرک للحاکم، ١: ٦٧٠.

(٤) تفسير القرطبي.

الْكُفَّارُ عَذَابُ الهزيمة، وسوف ترى بعضَ مظاهرِ هزيمتهم هذه في حياتك الدُّنيويَّةِ الظاهريَّةِ، وبعضُها سيَتَحَقَّقُ بعدَ ذلك، على أيِّ حال لا تحزنْ ولا تغتمَّ بسببِ مؤامراتِ الكُفَّارِ؛ لأنَّ واجبَكَ هو توصيلُ الرسالة، أمَّا حسابُهم فعلينا نحن، وسوف نأخذُهم في الوقتِ المناسبِ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

٥٠- رَغْمَ أَنَّ هذه السُّورةَ مكِّيَّة، لكنَّ هذه الآيةُ تبدو مدنيَّة، بمعنى: أنَّ الإسلامَ كانَ يتشرَّبُ بينَ العربِ، وعددُ المشركينَ يتناقصُ يوماً بعدَ يومٍ، فهل هناك عذابٌ في الدُّنيا أشدُّ على المشركينَ من أنَّ الأرضَ تضيقُ بهم من كلِّ جانبٍ؟ وحُكْمُ الله ينفذُ لا محالة، وعندما يحينُ وقته، لا يمكنُ لأحدٍ أن يؤجِّلَه أو يؤخِّره أو يمنعَه.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلْعِلْمُ الْكُفْرِ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ﴾

٥١- هذا ليس بالأمرِ الجديد، فالْمُنْكَرُونَ قَبْلَ مشركي مَكَّةَ أيضاً كانوا يتآمرونَ على أنبيائهم، واللهُ تعالى يَعْلَمُ تمامَ العِلْمِ عَمَلُ كلِّ إنسانٍ، وَيَجْزِيهِ بما يستحقُّه طبقاً لعمَلِه، وسوف يلقى هؤلاء المشركونَ أيضاً جزاءَ أعمالِهِم قريباً، ومصيرُهم في الآخرةِ في غايةِ السُّوءِ.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾

٥٢- يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، الكُفَّارُ لا يؤمنونَ بك نبياً، فقلْ لهم: سواءٌ

آمَنْتُمْ بِي نَبِيًّا أَمْ لَمْ تَوْمِنُوا، تَكْفِينِي شَهَادَةُ رَبِّي عَلَى أَنِّي نَبِيٌّ، وَهُوَ الَّذِي أُيِّدُ صِدْقِي
بِالْمُعْجَزَاتِ مِنْ عِنْدِهِ، وَتَكْفِينِي كَذَلِكَ شَهَادَةُ كُلِّ شَخْصٍ لَدَيْهِ عِلْمُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

الفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ:

مُحَمَّدٌ إِفْدَادُ حُسَيْنٍ بَيْرَزَادَه

جَامِعَةُ الْكَرَمِ

بَعْدَ صَلَاةِ ظَهْرِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ السَّابِعِ مِنْ فَبْرَايِرِ عَامِ ٢٠٠٧م، الْمَوَافِقِ الثَّامِنِ

عَشَرَ مِنْ شَهْرِ مُحَرَّمِ الْحَرَامِ عَامِ ١٤٢٨هـ

وَقَدْ اكْتَمَلَ تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّعْدِ فِي نَحْوِ سِتَّةَ عَشَرَ يَوْمًا

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤) سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

هذه السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، وبعضُ آياتِها مَدَنِيَّةٌ؛ لأنَّها نَزَلَتْ بعدَ الهجرة، وفي الآية رقم ٣٥ منها جاء ذِكْرُ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَامُ، ولهذا سُمِّيَتْ سُورَةُ «إِبْرَاهِيمَ».

في بداية هذه السُّورَةِ قال اللهُ تعالى للنَّبِيِّ الكَرِيمِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ: لقد أَنزَلْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ لِكِي تُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهَدَايَةِ، وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا كُلَّ رَسُولٍ إِلَى قَوْمِهِ بِلُغَتِهِمْ، حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى بوضوح، وَيُسَهِّلَ عَلَى النَّاسِ فَهْمَ رِسَالَةِ رَبِّهِمْ.

وقد أَنزَلَ اللهُ تَعَالَى التَّوْرَةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا، وَأَرْسَلَهُ نَبِيًّا لِكِي يُخْرِجَ قَوْمَهُ مِنْ ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهَدَايَةِ، وَيُشْعِرَهُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ أَنْجَاهُمْ مِنْ ظُلْمِ فِرْعَوْنَ لَهُمْ، حَتَّى يَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ، وَإِذَا لَمْ يَرْجِعُوا عَنْ عَصْيَانِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُمْ سَيُصِيبُهُمُ الْعَذَابُ مِثْلَمَا أَصَابَ الْأُمَمَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَالَّذِينَ لَا يَخَافُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَقْعُونَ فَرِيسَةً لِحِبَائِلِ الشَّيْطَانِ، سَيَقُولُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّ الْوَعْدَ الَّذِي وَعَدَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهُ كَانَ وَعْدًا صَادِقًا، أَمَّا الْوَعْدُ الَّذِي وَعَدْتُكُمْ أَنَا فَقَدْ كَانَ كَاذِبًا، وَقَدْ خَلَقْتُهُ، لَكِنِّي لَمْ أُجْبِرْكُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَإِنَّمَا رَغَبْتُكُمْ فَقَطْ إِلَى السَّيِّئَةِ، فَأَطَعْتُمُونِي فَوْرًا، وَلِهَذَا لَا تَلُومُونِي أَنَا، وَلَكِنْ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ بِأَنَّكُمْ لَمْ تَسْتَخْدِمُوا عُقُولَكُمْ، وَتَفَكَّرُوا فِيمَا يَنْفَعُكُمْ وَفِيمَا يَضُرُّكُمْ.

وتبدأ من الآية رقم ٣٥ من السورة سلسلة من الأدعية الإيمانية لسيدنا إبراهيم عليه السلام، والتي يدعو فيها لمكة المكرمة وبيت الله وذريته والناس أجمعين بالخير والبركة، ومن بين هذه الأدعية: ذلك الدعاء المعروف الذي يدعو به المسلمون بصفة عامة في آخر كل صلاة وقبل السلام: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾.

جامعة الكرم، بريطانيا

من بعد صلاة العشاء ليوم الأربعاء السابع من فبراير عام

٢٠٠٧م

الموافق الثامن عشر من شهر محرم الحرام عام ١٤٢٨هـ

الفقيه إلى الله:

محمد إمداد حسين بيرزاده



سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ (١٤)،

مكية (٧٢)، آياتها (٥٢)، ركوعاتها (٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ عَالٍ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِقُونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

﴿الر﴾

١- هذه حروف مقطعة، وهي سرُّ بين الله تعالى وحبِّيه المكرَّم ﷺ، ولمزيد

من الشَّرْح والتوضيح راجع الحاشية رقم ١ من سورة البقرة (٢).

﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

٢- يا أيها النبي الحبيب ﷺ، الغرض من إنزال القرآن المجيد عليك هو: أن تخرج الناس من ظلمات الضلال، وتعرفهم على نور الهداية، والمراد بالنور هنا: ذلك الطريق الذي يأخذ بالإنسان إلى الله تعالى.

﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾

٣- الذين يظنون أن هذه الحياة الدنيا هي كل شيء، وينسون الآخرة، والذين يمنعون الناس من طريق الله تعالى، ويبحثون عن نقائص في الإسلام، بمعنى: أنهم ضالون، ويعملون على إضلال الآخرين أيضاً، هؤلاء جميعاً لهم عذاب عظيم، وهؤلاء هم الذين توغلوا في الضلال إلى الحد الذي يصعب معه عودتهم إلى طريق الهداية ثانية.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾

٤- بما أن المستهدفين الأول لكل نبي هم أولئك الذين أرسله الله تعالى إليهم، لهذا ينزل الله تعالى وحيه على هذا النبي بلغة قومه، حتى يسهل فهمه وتفهمه، ثم إن الذين يتدبرون كلام الله تعالى يفتح الله لهم أبواب الهداية فيؤمنون، والذين يعرضون عنه بسبب تعصّبهم وعنادهم، يتركهم الله تعالى في ضلالهم يعمهون.

والمخاطبون الأول لسيدنا محمد ﷺ هم العرب، ولهذا نزل الوحي باللغة العربية فقط، والحقيقة أن النبي ﷺ نبي للمخلوقات كلها ورحمة لهم، ولهذا كان ﷺ يعرف لغات البشر والجن والحيوانات والأشجار، مثلما ورد في الأحاديث النبوية التالية:

١- عن أنس بن مالك، قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جملٌ يسُنُون عليه، وإنَّ الجمل استصعب عليهم، فمَنَعَهُمْ ظَهْرَهُ، وإنَّ الأنصارَ جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنَّه كان لنا جملٌ نَسْنَى عليه، وإنَّه استصعب علينا، ومَنَعَنَا ظَهْرَهُ، وقد عطش الزرعُ والتخلُّ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا»، فقاموا، فدَخَلَ الحائطُ والجملُ في ناحيته، فمَشَى النَّبِيُّ ﷺ نحوَه، فقالت الأنصار: يا رسول الله، إنَّه قد صار مِثْلَ الكلبِ الكلبِ، وإنا نخافُ عليك صَوْلَتَه، فقال: «ليس عليَّ منه بأسٌ». فلمَّا نَظَرَ الجملُ إلى رسول الله ﷺ أَقْبَلَ نحوَه، حتَّى خَرَّ ساجدًا بين يَدَيْهِ، فأخَذَ رسول الله ﷺ بناصِيَتَه أَذَلَّ ما كانت قُطٌّ، حتَّى أدخَلَه في العَمَلِ. فقال له أصحابه: يا نبيَّ الله، هذه بهيمَةٌ لا تعقل، تسجُدُ لكَ ونحن نَعْقِلُ! فنحن أحقُّ أن نسجُدَ لكَ، فقال: «لا يَصْلُحُ لبشرٍ أن يسجُدَ لبشرٍ، ولو صَلَّحَ لبشرٍ أن يسجُدَ لبشرٍ، لأمرْتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزوجها، من عَظُمَ حقُّه عليها»^(١).

٢- عن عبد الله بن يعلى عن أبيه عن جدِّه، قال: رأيتُ من النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم ثلاثةَ أشياء ما رَأَاهَا أَحَدٌ قَبْلِي: كنتُ مَعَهُ في طريقِ مَكَّةَ فَمَرَّ على امرأةٍ مَعَهَا ابنٌ لها به لَمَمٌ ما رأيتُ لَمَمًا أَشَدَّ منه، فقالت: يا رسول الله، ابني هذا كما ترى، قال: «إن شئتُ دعوتُ له»، فدعا له ثم مضى، فمَرَّ عليه بغيرِ ما دُجِرَ بِهِ يَرْغُو، فقال: «عليَّ بصاحبِ هذا»، فجاء، فقال: «هذا يقول: نَتَجَتُ عندهم واستعملوني حتَّى إذا كَبُرْتُ أرادوا أن ينحروني»، ثم مضى، فرأى شجرتين متفرقتين، فقال لي: «اذْهَبْ فَمُرْهُمَا فلتَجْتَمِعَا»، فاجتَمَعَتَا، فقَضَى حاجَتَهُ وقال: «اذْهَبْ فقلْ لهما يتفرقا»، ثم مضى، فلما انصرفَ مرَّ على الصبيِّ وهو يلعبُ مع الصَّبيان، وقد هيأتُ أُمُّهُ سِتَّةَ أَكْبُشٍ فَأَهْدَتْ له كبشَيْنِ، وقالت: ما عاد إليه شيءٌ من اللَّمَمِ، فقال

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من شيء لا يعلم أني رسول الله إلا كفره أو فسقه الجن والإنس»^(١).

٣- عن أنس بن مالك، قال: مرَّ رسول الله ﷺ على قوم قد أصابوا ظبيَّة فشَدُّوها إلى عمود فسطاط، فقالت: يا رسول الله، إني وضعت ولي خشفان فاستأذن لي أن أرضعهما حتى أعود، فقال رسول الله ﷺ: «خلوا عنها حتى تأتي خشفيها فترضعهما وتأتي إليكم»، قالوا: ومن لنا بذلك يا رسول الله؟ قال: «أنا»، فأطلقوها، فذهبت فأرضعت ثم رجعت إليهم فأوثقوها^(٢)، ويقول سيّدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه: فقال له رسول الله ﷺ: «أتبيعنيها؟» قال: هي لك يا رسول الله، فأطلقها رسول الله ﷺ. قال زيد بن أرقم: فأنا - والله - رأيتها تسيح في البريّة، وتقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله^(٣).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

٥- أعطى الله تعالى سيّدنا موسى عليه السّلام التّوراة والمعجزات، وأرسله نبياً لكي يهدي قومه إلى طريق النّور، ويعلم من الآية رقم ٤٩ من سورة آل عمران (٣) أن الله تعالى قد أعطى سيّدنا عيسى عليه السّلام المعجزات وأرسله إلى قومه، أي: إلى بني إسرائيل، لكنّه لم يقل أبداً فيما يتعلّق بسيّدنا محمد ﷺ: إنه أرسله إلى العرب، أو إلى قومه، بل إنه أعلن في الآية الأولى من هذه السّورة أنه أنزل القرآن الكريم على النبي ﷺ حتى يهدي الناس جميعاً إلى طريق النور. ويعلم منه أن النبي ﷺ لم يبعث إلى منطقة بعينها، أو إلى قوم بعينهم،

(١) المعجم الكبير، ٢٢: ٢٦١.

(٢) الخصائص الكبرى، ٢: ٦١.

(٣) دلائل النبوة، الإمام البيهقي، ٦: ٣٥.

وإنما إلى البشر كافة حتى يوم القيامة، ولمزيد من التفصيل راجع الحاشية رقم ٨٤ من سورة الأعراف (٧).

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَنَّهُمْ إِلَهُ آتٍ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

٦- أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى قَوْمِهِ، حَتَّى يُذَكِّرَهُمْ بِنِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَبِأَحْوَالِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ؛ لِأَنَّ بِهَا عِلَامَاتٍ كَبْرَى لِلصَّابِرِينَ عَلَى الْمَصَائِبِ الْكَبِيرَةِ، وَكَذَا لِلشَّاكِرِينَ عَلَى النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ.

بَعْضُ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ عَنِ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ:

١- قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي شَرْحِ هَذِهِ الْآيَةِ: «الْإِيمَانُ نِصْفَانِ؛ نِصْفُ صَبْرٍ وَنِصْفُ شُكْرٍ»^(١).

٢- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢).

٣- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنِّي بَاعْتُ بِعَدِّكَ أُمَّةً إِنْ أَصَابَهُمْ مَا يُحِبُّونَ حَمْدُوا وَشَكَرُوا، وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ احْتَسَبُوا وَصَبَرُوا، وَلَا حِلْمَ وَلَا عِلْمَ. قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ يَكُونُ لِهَذَا لَهُمْ وَلَا حِلْمَ وَلَا عِلْمَ؟ قَالَ: أُعْطِيَهُمْ مِنْ حِلْمِي وَعِلْمِي»^(٣).

(١) تفسير القرطبي.

(٢) مسلم، كتاب الزهد، باب ١٣ برقم ٢٩٩٩.

(٣) شعب الإيمان، البيهقي، برقم ٤٤٨٢، ٤: ١٥، والمستدرک للحاکم، ١: ٤٩٩ برقم

٤- قال رسول الله ﷺ: «خَصَلْتَانِ مَنْ كَانَتَا فِيهِ كَتَبَهُ اللَّهُ شَاكِرًا صَابِرًا وَمَنْ لَمْ تَكُونَا فِيهِ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ شَاكِرًا وَلَا صَابِرًا: مَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَاقْتَدَى بِهِ، وَنَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ فَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى مَا فَضَّلَهُ بِهِ عَلَيْهِ كَتَبَهُ اللَّهُ شَاكِرًا صَابِرًا، وَمَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَنَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَأَسِيفَ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْهُ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ شَاكِرًا وَلَا صَابِرًا»^(١).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِثُونَ أَسْمَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

٧- أخبر المنجمون فرعون أنه سيولد طفل في بني إسرائيل يقضي على سلطانك، ولهذا أمر فرعون بقتل كل طفل يولد في بني إسرائيل، وذبح الأطفال الصغار أمام أعين آبائهم وأمهاتهم ابتلاء ما بعده ابتلاء، وقد ذكر سيدنا موسى عليه السلام قومه بأن الله تعالى نجاهم من مظالم فرعون، ولهذا ينبغي لهم أن يشكروا الله تعالى.

وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكُمْ لَيْنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيْنِ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ

ءَابَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرِبَ عَلَىٰ مَا أَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

﴿ وَإِذَا تَأَذَّتْ رِبْكُمُ لَيْنَ شَكْرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

- بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَانُونًا عَامًّا، وَهُوَ: أَنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ، يَزِيدُ اللهُ تَعَالَى فِي النِّعَمِ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَرَادُ بِالْإِضَافَةِ أَوْ الزِّيَادَةِ هُنَا فِي النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَرَادُ الزِّيَادَةَ فِي الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ مِثْلَمَا تَقْتَضِي حِكْمَةُ اللهِ تَعَالَى.

بعض الأحاديث النبوية عن الشكر:

- ١- يَقُولُ سَيِّدُنَا الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(١).
- ٢- عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - كَانَ إِذَا أَتَاهُ أَمْرٌ يُسْرُهُ أَوْ يُسْرِبُهُ خَرَّ سَاجِدًا شَاكِرًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى^(٢).
- ٣- قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يُشْكِرِ اللَّهَ»^(٣).
- ٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لِلطَّاعِمِ الشَّاكِرِ مِثْلُ مَا لِلصَّائِمِ الصَّابِرِ»^(٤).

(١) البخاري، تفسير القرآن، سورة الفتح (٤٨) برقم ٤٨٣٦.

(٢) ابن ماجه، ١٣٩٤، إقامة الصلاة، باب ١٩٢.

(٣) مسند أحمد، ٤: ٢٧٨.

(٤) شعب الإيمان، البيهقي، ٤: ١١١ برقم ٤٤٦١.

٥- قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ بِالْيَسِيرِ مِنَ الرِّزْقِ رَضِيَ اللَّهُ مِنْهُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْعَمَلِ»^(١).

٦- عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «انظروا إلى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»^(٢).

٧- قال موسى عليه السلام: كيف لي أن أشكرك وأصغرُ نعمةٍ وَضَعْتَهَا عِنْدِي مِنْ نِعَمِكَ لَا يُجَازِي بِهَا عَمَلِي كُلُّهُ؟ قال: فَأَتَاهُ الْوَحْيُ أَنْ يَا مُوسَى: الْآنَ شَكَرْتَنِي^(٣).

٨- يقولُ سَيِّدُنَا الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَا رَبِّ، هَلْ مِنْ بَيْنِ مَخْلُوقَاتِكَ مَنْ قَضَى لِيْلَةً أَطْوَلَ مِنِّي فِي ذِكْرِكَ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: نَعَمْ، الضُّفْدَةُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿اعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. وَحُكِيَ عَنْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّ رَبِّ، كَيْفَ أَشْكُرُكَ وَشُكْرِي لَكَ نِعْمَةٌ مُجَدَّدَةٌ مِنْكَ عَلَيَّ!»^(٤)، وَقَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا رَبِّ، كَيْفَ أُطِيقُ شُكْرَكَ وَأَنْتَ الَّذِي تُنْعِمُ عَلَيَّ، ثُمَّ تَرْزُقُنِي عَلَى النِّعْمَةِ الشُّكْرَ، ثُمَّ تَزِيدُنِي فِي نِعْمَةٍ بَعْدَ نِعْمَةٍ، فَالنِّعْمَةُ مِنْكَ يَا رَبِّ، وَالشُّكْرُ مِنْكَ، وَكَيْفَ أُطِيقُ شُكْرَكَ؟» قَالَ: الْآنَ عَرَفْتَنِي يَا دَاوُدَ حَقَّ مَعْرِفَتِي^(٥).

٩- عَنْ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «يَا مَعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ». فَقَالَ: «أُوصِيكَ يَا مَعَاذُ، لَا تَدْعَنْ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ

(١) شعب الإيمان، ٤: ١٣٩ برقم ٤٥٨٥.

(٢) الترمذي، أبواب صفة القيامة، باب ٥٨ برقم ٢٥١٣.

(٣) شعب الإيمان، ٤: ١٠١ برقم ٤٤١٥.

(٤) القرطبي.

(٥) شعب الإيمان للبيهقي، ٤: ١٠١ برقم ٤٤١٣.

تَقُولُ: اللَّهُمَّ اعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(١).

﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

٩- الذين يجحدون الله تعالى ينبغي لهم أن يعلموا أنَّ عذاب الله شديد، ويمكن أن يكون هذا العذاب في الدنيا أيضًا، فإذا لم ينزل في هذه الدنيا لحكمة، فلن يكون في الآخرة مَنْ يُنقذكم من عذاب الله تعالى.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

١٠- يعني: لو أنَّ أهل الأرض جميعًا جحدوا نعم الله تعالى، فلن يضروا الله شيئًا؛ لأنَّ الله تعالى مُستغنٍ، وهو مستحقُّ لكلِّ ثناء وفي كل حال، ويمكنك الرجوع إلى الحاشية رقم ١٧٧ من سورة النساء (٤) لمزيد من التفصيل.

﴿الَّذِينَ يَأْتِيَكُم بَبْؤُهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾

١١- ألا تعلمون بهلاك قوم سيدنا نوح عليه السلام وقوم عاد وثمود، حين جاءتهم رسلهم بالذلائل والبراهين الواضحة، فوضعوا أيديهم في أفواههم، وقالوا غاضبين: إننا لا نعترف بدينكم؛ لأننا في غاية الشك فيما يتعلق بهذا الدين.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

١٢- قالت الرُّسل للمُنكرين: أتشكون في ذات الله تعالى وفي توحيدِهِ، مع

أنه خالق السموات والأرض، وهذه الكائنات كلها دليل ظاهر للعامة والخاصة على وجوده، وهو يدعوكم لكي يغفر لكم ذنوبكم، وي مهلكم في الحياة لتتفكروا وتتدبروا وتتوبوا إليه؟ لكن المنكرين في كل زمان لديهم اعتراض من نوع واحد، يعني: أن هذا إنسان مثلنا، فكيف يكون نبيا؟ كما أنه لا يأتينا بالمعجزات التي نطلبها، ولا يريد سوى إبعادنا عن دين آبائنا وأجدادنا، لكننا لسنا بتاركين دين آبائنا وأجدادنا أبداً.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝﴾

١٣- رَغَمَ أَنَّ كُلَّ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْبَشَرِ، لكن الله تعالى يختار لرسالته من يشاء من عباده، وهذه أعلى مرتبة للإنسان، ولا يمكن لنبي أن يأتي بمعجزة إلا بإذن الله تعالى، والله تعالى يهدي الأنبياء جميعاً إلى طريق الحق، والأنبياء جميعاً يتوكلون على الله تعالى، ولا يخافون من إيذاء المنكرين لهم، وإنما يصبرون على هذا الإيذاء.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلَهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الصَّلَٰلُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّٰنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾

١٤- طلب المنكرون من الرُّسل أن يتبعوا دين آبائهم وأجدادهم، وإلا سيُخرجونهم من بلادهم، وعليه أوحى الله تعالى إلى رُسُلِهِ أن اضربوا على إيذاء المنكرين لكم، وفي نهاية الأمر سيهلك المنكرون، وبعد إهلاكهم سيسكن أهل الإيمان هذه البلاد، وهذا وعد لكل شخص يؤمن أنه موقوف بين يدي الله تعالى يوم القيامة للحساب، ولهذا يخاف يوم الحساب هذا، ولا يعصي الله تعالى، وهكذا حدث ما وعد الله به، فبعد عدة سنوات اضطُرَّ المنكرون إلى ترك مكة، ولم يسكنها سوى أهل الإيمان فقط.

﴿ وَأَسْفَقْتُمْ خَوَابَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

١٥- حين تعدى المنكرون كل حد في المخالفة، دعا عليهم الرُّسل الكرام عليهم السَّلام، وقبل الله تعالى دعاءهم، وخاب وفشل كل جبارٍ عاصٍ وعنيد.

﴿ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾

١٦- هنا يعرضُ الله تعالى منظرًا لعذاب الآخرة بعد أن عَرَضَ لعذاب الدنيا، أي: سيُسقى المُنكرُ في جهنم قَيْحًا وصديدًا، وبصعوبة بالغه سيأخذ جرعة واحدة، ولن يستطيع أن يَدْخِلَهَا في حلقه، وستحيط به المصائب من كل مكان، حتى يُفْضَلَ الموت على الحياة، لكنه لن يموت، وإنما سيبقى دائمًا في هذا الألم والابتلاء، فيشعرُ بالعذاب كل لحظة.

وهذه الآية بمثابة اللَّمحة الفِكرية للعصاة والمتجبرين:

- الآن يقولون خائفين: سنموت، وماذا نفعل لو لم نجد الراحة بعد الموت؟

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا شَتَدَتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾

١٧- حين تهبُّ العاصفةُ بريحها الشَّدِيد، فإنَّها تحملُ أكوامًا من الترابِ إلى أعلى وتشرُّه هنا وهناك، بحيثُ لا يبقى له أثر، وبنفسِ الطريقة فإنَّ أعمالَ الذين لا يؤمنون برَّبِّهم تبقى محدودةً في هذه الدنيا بسببِ كُفْرِهِمْ وشِرْكِهِمْ، ولن يكونَ لهذه الأعمالِ أثرٌ يومَ القيامة، وهذا في الحقيقةِ حسرةٌ وضلالٌ شديدان.

﴿الْقُرْآنُ أَنْ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

١٨- يا أهلَ مكَّة، كما أنَّ الأجيالَ الأولى، يعني: آباءكم وأجدادكم، لا وجودَ لهم الآنَ ولا أثر، وأنتم الآنَ تخلفونهم، فإنَّ الله تعالى إذا شاء أفناكم، وجاء بعدكم بمن يخلفكم، وهذا ليس بالأمرِ العسيرِ على الله تعالى؛ لأنَّ الذي يخلُقُ السماواتِ والأرضَ ليس من الصَّعبِ عليه أن يُميتكم ويأتي بخلقٍ آخرين مكانكم.

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾

١٩- حين يجتمعُ الناسُ جميعًا يومَ القيامة، ويرى كلُّ واحدٍ منهم أعماله ومصيره، سيقولُ الضُّعفاءُ لمُضِلِّيهم وزعمائهم في الكُفر: لقد أغلَقْنَا أَعْيُنَنَا وَاتَّبَعْنَاكُمْ طيلةَ العمر، فماذا يمكنُ أن تساعدونا به اليومَ لنتقذونا من عذابِ الله تعالى؟ وعندئذٍ يقولُ هؤلاء الزُّعماءُ الكُفَّارُ بصوتٍ يملأه الحسرة: كيف نُنقذكم ونحن لا نستطيعُ أن نُنقذَ أنفسنا؛ لأننا نحن أيضًا كنا ضالِّين، وأضللناكم، والآنَ نحن جميعًا في الحالَّتَيْنِ سواء، سواءٌ جَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا، إذ ليس هناك أيُّ إمكانيَّةٍ للنَّجاةِ في الحالَّتَيْنِ.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّةٌ لَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٥﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٧﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٨﴾

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

٢٠- نقل أكثر المفسرين في تفسير هذه الآية رواية سيدنا عتبة بن عامر رضي الله عنه، والتي جاء فيها أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَقَضَى بَيْنَهُمْ، فَفَرَّغَ مِنَ الْقَضَاءِ، قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: قَدْ قَضَى بَيْنَنَا رَبُّنَا، فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا؟ فَيَقُولُونَ: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى آدَمَ - وَذَكَرَ نُوحًا، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى - فَيَقُولُ عِيسَى: أَذْلُكُمْ عَلَى النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ: فَيَأْتُونِي، فَيَأْذَنُ اللَّهُ لِي أَنْ أَقُومَ إِلَيْهِ، فَيُثَوِّرُ مِنْ مَجْلِسِي مِنْ أَطْيَبِ رِيحٍ شَمَمَهَا أَحَدٌ قَطُّ، حَتَّى آتِيَ رَبِّي فَيُشَفِّعَنِي، وَيَجْعَلَ لِي نُورًا مِنْ شَعْرِ رَأْسِي إِلَى ضُفْرِ قَدَمِي، ثُمَّ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا: قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ، فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا؟ مَا هُوَ إِلَّا إِبْلِيسُ هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا، فَيَأْتُونَ إِبْلِيسَ فَيَقُولُونَ: قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ، فَقُمْ أَنْتَ فَاشْفَعْ لَنَا، فَإِنَّكَ أَنْتَ أَضَلَلْتَنَا، فَيَقُومُ فَيُثَوِّرُ مِنْ مَجْلِسِهِ مِنْ أَتْنِ رِيحٍ شَمَمَهَا أَحَدٌ قَطُّ، ثُمَّ يَعْظُمُ نَحِيبُهُمْ ﴿ وَقَالَ

الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ ﴿١﴾.

وعد الله تعالى ووعد الشيطان:

سيقولُ الشيطانُ عندئذٍ: إِنَّ اللَّهَ تعالى وَعَدَكُمْ أَنَّ يومَ القيامةِ سيأتي، وأنَّ الجميعَ سيُبعثُونَ من جديد، وسيُحاسَبون على أعمالِهِم، فيدخلُ الصالحونَ الجنةَ، ويدخلُ الأشرارُ النارَ، وأنا وَعَدْتُكُمْ أَنَّ القيامةَ لن تقومَ، وأنَّ الموتى لن يُبعثوا من جديد، وأنه لن يكونَ هناكُ حسابٌ ولا غيرُه، ولهذا اجعلُوا من حياتكم الدُّنيا مُتعةً دونَ النظرِ إلى الحلالِ والحرامِ، فالوعدُ التي وَعَدَكُمْ اللَّهُ تعالى كانت صادقةً كُلُّها، بينما كانت وعودي كُلُّها كاذبةً.

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾

٢١- سيغضبُ المنكرون حينئذٍ، ويقولون للشَّيطان في لَوْمٍ عليه أَنَّ لَعَنَكَ اللَّهُ، لقد منعنا من اتباع دعوة الأنبياء الكرام عليهم السَّلام في ذلك الوقت، والآنَ تنكِّرُ لنا بكلِّ بَجاحة! فيقولُ الشَّيطان: وهل أجبرتكم على أن تتَّبِعُوني؟ إنَّني لم أفعلْ شيئاً سوى أَن رَغَبْتُكُمْ في الشرِّ، فَاتَّبَعْتُمُونِي معتقدين أَنَّ فيه مصلحةً لكم، ولم تفكِّروا أبداً أَنِّي عدُوٌّ لَدُودٌ لكم، ولهذا فلا تلوُمُوني، وإنَّما لوموا أَنفُسَكُمْ، فإذا طَلَبَ منكم أحدٌ أَن تُلْقُوا بِأَنفُسِكُمْ في البحرِ لأنَّ في أعماقه جواهرٌ ولائِيَّ يمكنُكم إخراجُها، وأطعتموه، ثم كان ذلك سبباً في موتكم، فإنَّ المسؤولَ الأوَّلَ عن هلاكِكُمْ ليس ذلك الشخصَ الذي أشارَ عليكم بأن تُلْقُوا بِأَنفُسِكُمْ في البحرِ، وإنَّما المسؤولُ الأوَّلُ عن هذا هو أنتم أَنفُسُكم الذين ارتكبتم هذه الحماقة.

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتَ بِمُصْرِخِي إِيَّيْكَ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٢٢- سيقول الشيطان لأتباعه في ميدان الحشر: إني اليوم لا أستطيع أن أستغيث بكم، ولا تستطيعون أنتم أيضاً أن تستغيثوا بي، وعليكم أن تواجهوا عقاب ذنوبكم، كما سأنال أنا أيضاً عذاب تمرّدي وعصيانِي، كما أنني أوضّح لأولئك الذين اتّخذوا مني شريكاً لله في الدنيا أنني لست شريكاً لله، وأنكم أنتم الذين اتّخذتموني شريكاً لله بحماقتكم لا أكثر.

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾

٢٣- الجنة دار السلام، وهناك سيكون السلام بمثابة التهنئة، يعني: نهئكم أنكم أتيتم إلى دار السلام، أو أنهم يدعون الله تعالى بعضهم لبعض من أجل رفع درجاتهم. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾

٢٤- المراد بالكلمة الطيبة: الإيمان، والمراد بالشجرة الطيبة: شجرة النخيل^(١)، بمعنى: أنه مثلما أنّ جذوع النخل ثابتة في باطن الأرض وقوية، ولا تستطيع العواصف اقتلاعها من جذورها، وأغصانها أكثر ارتفاعاً من أغصان أي شجرة أخرى، ولكنّ رأسها وقممها تكون منحنية إلى أسفل، وثمارها في المتناول دائماً، وسواء كانت هذه الثمار ناضجة أم غير ناضجة، وطازجة أم يابسة، فهي في كلّ حال نعمة.

وبنفس الطريقة فإنّ أساس الإيمان يكون ثابتاً في أعماق القلب متجذراً فيه، ولا تستطيع أي مصيبة من مصائب الدنيا أن تزلزل هذا الأساس، وأخلاق أهل الإيمان

(١) «كلمة طيبة: شهادة أن لا إله إلا الله، وشجرة طيبة: هي النخلة». تفسير ابن أبي حاتم.

وأعمالهم تكون أفضل من عامة الناس، لكن أبصارهم خاشعة دائماً من التواضع، وكل عمل من أعمال أهل الإيمان بمثابة العبادة، سواء كانوا يؤدّون الصلاة، أم ينامون، فهم في حالة الصبر على المصائب وحالة الشكر على النعم، في كل حال رحمة كاملة.

عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنَّ مثلَ المؤمنِ كمثلِ النخلة، إنَّ صاحبته نفعك، وإنَّ شاوَرته نفعك، وإنَّ جالسته نفعك، وكلُّ شأنه منافع، وكذلك النخلة كلُّ شأنها منافع»^(١).

يقول العلامة فخر الدين الرازي: «إنَّما مثلُ الله سبحانه وتعالى الإيمان بالشجرة، لأنَّ الشجرة لا تستحقُّ أن تُسمَّى شجرةً، إلَّا بثلاثة أشياء: عِزٌّ راسخ، وأصل قائم، وأغصان عالية. كذلك الإيمان لا يتمُّ إلَّا بثلاثة أشياء: معرفة في القلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان. والله أعلم»^(٢).

فإذا قُطعت جذورُ الشجرة، يَسَتْ أغصانها وجُدعها، وبنفس الطريقة إذا انتهى تصديق الإيمان من القلب، فإنَّ أقوال الإنسان وأفعاله تفقد قيمتها، ولهذا فإنَّ لتصديق القلب في موضوع الإيمان هذا منزلةً رئيسة.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾

٢٥- المراد بالكلمة الخبيثة: الكفر، وبالشجرة الخبيثة: شجرة الحنظل^(٣)، بمعنى: أنه مثلاً أنَّ شجرة الحنظل تبدو جميلة في شكلها، ولكن بما أنَّ جذورها ليست في أعماق الأرض، وإنَّما فوق سطحها، لهذا يمكن لريح بسيطة أن تقتلعها بسهولة.

(١) شعب الإيمان، ٦: ٥٠٤ برقم ٩٠٧٢.

(٢) التفسير الكبير.

(٣) «كلمة خبيثة: هي الشرك، وشجرة خبيثة: هي الحنظلة». تفسير ابن أبي حاتم.

وبنفس الطريقة، تبدو أعمال الكافر في ظاهرها جميلة، ولكن لأنه ليس وراءها قوة الإيمان، لهذا ما أن يأتي الموت أحداً من هؤلاء، حتى يُزيل أعمالهم.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾

٢٦- الذين يؤمنون بصدق من قلوبهم يُنعم الله عليهم بالاستقامة والثبات في الابتلاءات ببركة هذا الإيمان، ويُهَوِّنُ عليهم مراحل القبر والنشر، أما الذين لا يؤمنون، ولا يتورعون عن ارتكاب المظالم، فإن الله تعالى يتركهم في عيهم يعمهون. وقد نقل العلامة القرطبي في تفسير هذه الآية قول سيدنا سهيل بن عمار رضي الله عنه: «رايتُ يزيد بن هارون في المنام بعد موته، فقلتُ له: ما فعل الله بك؟ فقال: أتاني في قبري ملكانِ فظانِ غليظان، فقالا: ما دينك ومن ربك ومن نبيك؟ فأخذتُ بلحيتي البيضاء وقلت: ألمِثلي يقالُ هذا وقد علّمتُ الناسَ جوابكما ثمانين سنة؟»^(١). ولمزيد من التفصيل عن سؤال القبر راجع الحاشية رقم ٣٠ من سورة الأعراف (٧).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةً وَسَرَاعًا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾

٢٧- أنعم الله تعالى على أهل مكة بنعم متنوعة، فأنعم عليهم بالقرب من بيت الله، وهو ما جعل العرب جميعاً يُجلُّونهم ويحترمونهم، ثم بعث الله تعالى آخر الأنبياء سيدنا محمداً ﷺ فيهم، وكان يجب عليهم بعد كل هذا أن يشكروا الله تعالى، ويؤمنوا بالنبى ﷺ، لكنهم تعدَّوا كلَّ الحدود في جحودهم، فلم يجعلوا من قومهم مستحقين لجهنم فقط، وإنما أشركوا الأصنام مع الله تعالى في العبادة، ووضعوها في بيت الله، وأخذوا يضلُّون كلَّ من يأتيهم من خارج مكة أيضاً، ولهذا أيها النبى الحبيب ﷺ قل لهم: إن لم ترجعوا عن شرككم هذا، فأمامكم هذه الحياة القصيرة الفانية، استفيدوا منها كما تريدون، ولكنكم ستلقون في نار جهنم في الآخرة، وهو مصير في غاية السوء.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

٢٨- لمزيد من التفصيل عن آداب الصلاة وفوائدها راجع الحاشية رقم ٢٠٠ من سورة البقرة (٢)، وكذا الحاشية رقم ٩٤ من سورة هود (١١).

الوساوس أثناء الصلاة:

لو أن أحداً منّا أتى له الذهابُ إلى بيتِ رئيسِ وزراءِ بلده، فإنه يستجمع عقله وقلبه، ويقدم له طلباته بأدبٍ جمٍّ، ولكن ما السببُ في أننا حين نذهبُ إلى بيتِ الله تعالى خالقِ الكائناتِ كلّها، أي: إلى المسجد، ونرفعُ طلباتنا إلى الله تعالى أثناء الصلاة، فإن عقولنا وأذهاننا تطوّفُ بنا هنا وهناك، وهذا - في الحقيقة - ضَعْفٌ في الإيمانِ يستغله الشيطان، ويحاولُ من خلاله تشييت أفكارنا، ولكن إن راعينا

الأمرَ التالية، يمكننا التحكُّم في أفكارنا أثناء الصلاة:

١- الله تعالى يرى كلَّ إنسانٍ في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ مكان، ورغْم أن إحساسنا بهذا - بصفةٍ عامَّة - يكون قليلاً، ولكن ينبغي أن يكونَ يقيننا كاملاً حين نُقدِّم طلباتنا في حضرة الله تعالى أثناء الصَّلَاة، بأنَّ الله تعالى يرانا، حتى نكونَ محتاطينَ بأكبر قدرٍ ممكنٍ في صلاتنا، ونؤدِّيها بفكرٍ غيرٍ مشَّت.

٢- علينا أن نستحضرَ معاني ما نقرأه في الصَّلَاة بلُغتنا الأم^(١)، حتى تتدبَّرَ قلوبنا وعقولنا في معاني الألفاظ العربيَّة حالَ نُطقنا لها بلساننا، وبهذا تنقطعُ سلسلة الوسوسِ والأفكارِ الدَّخيلة.

٣- علينا أن نُؤدِّي كلَّ صلاةٍ باحتياطٍ شديدٍ وكأنَّها آخرُ صلاةٍ لنا في حياتنا؛ لأنَّ من الممكنِ جدًّا أن نموتَ - فعلاً - قبلَ الصَّلَاة التي تليها، وإذا لم نُؤدِّ هذه الصَّلَاة الأخيرة بكلِّ آدابها، فبأيِّ وجهٍ نلقَى الله تعالى؟ وإن قال لنا الله تعالى: إنكم لم تؤدُّوا حقَّ الصَّلَاة بالوقوفِ أمامي في المسجد، فماذا يكونُ جوابنا؟

٤- قال نبيُّنا الكريم ﷺ ما معناه أنَّ أكبرَ لصٍّ هو الذي يسرقُ في الصلاة، ولَمَّا سُئِل: من هو سارقُ الصَّلَاة؟ قال: الذي لا يؤدِّي حقَّ ركوعها وسجودها، وما يستحقُّ التأملَ هنا إنه إذا كان ضيفنا أو أستاذنا يرانا ونحن نُصلي فإننا نُؤدِّي الصَّلَاة بكلِّ اطمئنانٍ وهدوء، أمَّا إذا كان الذي يرانا هو الله تعالى خالقُ الكائناتِ كُلِّها، فإننا لا نُؤدِّي الصَّلَاة بخضوعٍ ولا اهتمامٍ كما ينبغي، وهذا أمرٌ في غاية الخطأ.

٥- عندما نفقُ في الصَّلَاة نوجَّهُ أنظارنا إلى موضعِ سجودنا، وبهذا لا نرى المصليَّ الذي يقفُ في الصَّفِّ أمامنا، وحين نجلسُ في الصَّلَاة نوجَّهُ أنظارنا إلى حُجورنا، وبذا لا نرى من يجلسُ في الصَّفِّ أمامنا، وهكذا عندما تكونُ مساحةُ

(١) المقصود فيما لو كان المصلي من غير أهل اللغة العربية، ولا يفهمها. (المترجم).

النظر محدودة ثقُل الوسائس والأفكار الدخيلة على أذهاننا، والعكس صحيح أيضاً، إذا وجَّهنا أنظارنا ونحن نُصلي إلى الأمام، فسوف نرى المسجد كله، وكذا كلَّ المصلين أمامنا، وتتزاحم الأفكار على أذهاننا باختلاف المناظر التي نراها، وهو ما يقطع تسلسل الخشوع والخضوع في صلاتنا، ويشتت تفكيرنا.

﴿وَيَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾

٢٩- لمزيد من التفصيل عن الإنفاق سراً وعلانية راجع الحاشية رقم ٢٣٢ من سورة البقرة (٢).

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾

٣٠- صداقات أهل الإيمان فيما بينهم تبقى حتى بعد موتهم، ويمكن لك في هذا السياق أن تراجع الحاشية رقم ٢١٧ من سورة البقرة (٢)، والحاشية رقم ٣٢ من سورة الرعد (١٣).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٣٣ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

٣١- أيها الناس، لقد هيأ الله تعالى لكم سبل الحياة وضرورياتها قبل أن يخلقكم، فهذه الأرض، والسما، والثمار، والقمر، والشمس، والأنهار، والبحار، وتعاقب الليل والنهار، كلها لمنافعكم، ثم بعد أن خلقكم، خلق لكم الأسباب التي تحقق لكم رغباتكم وما تقتضيه فطرتكم، وباختصار: فإن أفضاله تعالى عليكم أكثر بكثير من أن تعدوها أو تحصوها، وبالتالي كان ينبغي لكم أن تؤدوا شكره سبحانه

وتعالى على هذه النعم التي لا تُحصى، ولكن للأسف الشديد أكثركم جاحدٌ لنعم الله، ظالمٌ لنفسه، وما أقلُّ الشاكرين منكم: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

نَقَلَ العلامةُ إسماعيلُ حَقِّي في تفسيرِ هذه الآيةِ حكايةَ فحواها أنه «شَكَا بعضُ الفقراءِ إلى واحدٍ من السَّلفِ فقره وأظهرَ شدةَ اهتمامه به، فقال: أيسُرُك أنك أعمى ولكَ عشرةُ آلافِ درهم؟ فقال: لا. فقال: أقطعَ اليدينِ والرجلينِ ولكَ عشرون ألفَ درهم؟ فقال: لا. فقال: أيسُرُك جعلَ الله أنك مجنونٌ ولكَ عشرةُ آلاف؟ قال: لا. فقال: أما تستحيي أنك تشكو مولاك وعندك عروضٌ بأربعين ألفاً؟»^(١).

إنَّ نِعَمَ الله تعالى كثيرةٌ لا تُحصى، بل ولا تَخْطُرُ لنا على بالٍ أبداً، ثم إنَّ كلَّ نعمةٍ منها قِيَمَةٌ لا تُقَدَّرُ بثمن، وأنا هنا أخبرُك بقيمةِ كوبِ الماءِ الذي نشربُه، ومن خلاله تستطيعُ تصوُّرَ النِّعمِ الكبيرةِ الأخرى، فلو أنَّ مَلِكًا خَرَجَ لِلصَّيْدِ في غابة، ولَسَبَّ من الأسبابِ ضَلَّ طريقَه في الغابة، ولم يستطعَ رفاقُه ومُصاحبوه العثورَ عليه، وبعدَ عدَّةِ أيامٍ يراه أحدُ عابري السَّبيلِ وهو مُلقًى على الأرضِ يَصارعُ الموتَ قائلاً: ماء، ماء، وإذا لم يَتيسَّرَ له الماءُ خلالَ اللَّحظَاتِ التالية فارقَ الحياةَ، فقال عابِرُ السَّبيلِ هذا للمَلِكِ الذي يَصارعُ الموتَ: الماءُ عندي، لكنِّي أحتاجُه أنا أيضاً، ولكنَّ إن أعطيتني كلَّ ما تملكُ أعطيتك الماءَ. فَكَتَبَ المَلِكُ على الفورِ كلَّ ما يملكُ لهذا الرَّجلِ، حتى يستطيعَ أن يُنقِذَ حياته.

والآن، تصوِّزُ أنَّ المَلِكَ كلَّه يساوي - بهذا - شربةَ ماء، واللهُ تعالى قد أنعم علينا باليدينِ والرجلينِ والعينينِ وغيرها من عظيمِ النِّعمِ، فكم تكونُ قِيَمَةُ كلِّ هذه النِّعمِ إذا؟ لَيْتَنَّا نشعُرُ بنِعَمِ الله تعالى علينا وننشغلُ بأداءِ الشُّكرِ عليها.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾
 رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلْنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعِنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
 رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ
 فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾
 رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾
 رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي
 وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾
 رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلْنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعِنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

٣٢- من هذه الآية تبدأ سلسلة من دعاء مفصل لسيدنا إبراهيم عليه السلام،
 يعني: يا إلهي، اجعل مكة آمنة مطمئنة، حتى يستطيع الناس زيارة بيتك بأمان،
 وأبعدني أنا وأبنائي عن عبادة الأصنام؛ لأن كثيراً من الناس قد ضلوا بسبب الأصنام،
 ولهذا فإن من يتبعني من أولادي سينال رحمته بعمله بأحكامك، أما من عصاني
 فأنت الغفور الرحيم، إن تاب إليك فأنت تغفر ذنبه.

وفي هذا الدعاء تنبيه لقريش مكة بأن أباكم إبراهيم عليه السلام الذي بنى
 الكعبة، كان مبرراً من عبادة الأصنام، فكيف تعبدون الأصنام وأنتم أولاده؟
 ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ
 فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

٣٣- يا إلهي، لقد أسكنت بعض أولادي، يعني: سيدنا إسماعيل عليه السلام،
 في هذا الوادي القفر الذي لا زرع فيه ولا ماء، عند بيتك المحرم، حتى يقيموا

الصَّلَاةَ، يَا إِلَهِي، اجْعَلِ الْآخَرِينَ يَمِيلُونَ إِلَيْهِمْ، وَيُحِبُّونَهُمْ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ حَتَّى يَشْكُرُوا.

والسعيد الذي تَكْتَبُ له زيارةُ بيتِ الله الحرام في أيامنا هذه يشاهدُ كلَّ هذا بشكلٍ عمليٍّ، حيث يأتي إليه ملايينُ الناسِ من مختلفِ أرجاءِ العالم، وتتوفَّرُ هناك كلُّ أنواعِ الثمارِ والفواكه.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَقَبَلْ دُعَاءَ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾

٣٤- كم هو دعاءٌ جميل! فقد دعا لنفسه أولاً، ولأولاده بالالتزام بالصَّلَاة، ثم دعا لنفسه، ثم لوالديه، ثم لسائرِ أهلِ الإيمانِ بالمغفرة، وقد لَقِيَ هذا الدعاءُ قبولاً كبيراً على ألسنة المسلمين، بحيث أنهم عموماً يدعون لوالديهم بهذا الدعاء وبألفاظه في صلاتهم، ويُعلمُ منه أيضاً أن والدي سيِّدنا إبراهيم عليه السَّلام كانا مسلمين، ولهذا كان يدعو لهما بالمغفرة، ولم يكن أزراً والدّه عليه السَّلام، وإنما كان عمّه، وكان كافراً، ولمزيدٍ من التفصيلِ عن هذا الأمرِ راجع الحاشية رقم ٧٠ من سورة الأنعام (٦).

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفِئْتُهُمْ هَوَاءَ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعَوَتِكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِزَوَالٍ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

ذُو أَنْقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾
وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ تَعْشَى
وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾
هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوهُ بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۖ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
الْأَبْصَارُ ﴾ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾

٣٥- ينبغي للظالمين الذين لا يلقون جزاء ظلمهم في هذه الدنيا أن لا يعتقدوا
أن الله غافل عن ظلمهم، فالحقيقة أن الله تعالى يمهّلهم حتى يوم القيامة لحكمة
عنده، وحين يأتي يوم القيامة، سيهرول هؤلاء حيارى هائمين على وجوههم،
بسبب حالة الخوف والدعر التي تعترهم بمجرد أن يُبعثوا من قبورهم، ويسقط في
أيديهم حيثما نظروا، ولن يستطيعوا حتى مجرد تحريك رموشهم وكأنهم موتى،
وترتعد قلوبهم رعباً، وتكاد أكبادهم تتمزق من الخوف.

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ۖ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ
دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۖ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾
وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ ﴾

٣٦- حين يرى الظالمون العذاب أمامهم سيقولون لله تعالى: أعذنا إلى
الدنيا لفترة بسيطة، وسنقبل رسالتك، ونسبّع رسلك! ويردّ الله تعالى عليهم طلبهم
قائلاً: ألا تذكرون ادّعاءكم حين أقسمتم قائلين: إنكم لن تهلكوا، وأنه لن يكون
هناك قيامة ولا حساب، مع أن رسلنا أخبروكم بالعذاب الذي حاق بالأمم التي

سَبَقْتَكُمْ وكَذَّبْتْ بِهِمْ، وَسَمِعْتُمْ قَصَصَ هَلَاكِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ أَيضًا، فلماذا لم تعتبروا بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ هَذَا؟

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾

٣٧- لقد تآمر مشركو مكة كثيرًا للقضاء على الإسلام والتخلص من النبي الكريم ﷺ، بطريقة تكاد تنشق لها الجبال وتنخلع من مكانها، لكن الله تعالى أفشل كل مؤامراتهم.

وَيُعَلِّمُ مِنْهُ أَنَّ قُوَّةَ الْإِيمَانِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ ﷺ وَعَلَى الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا كَانَتْ أَقْوَى وَأَشَدَّ مِنَ الْجِبَالِ.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾

٣٨- الله تعالى لن يخلف وعده بنبوة نبيه ﷺ ومعاقبة المنكرين، وإن كان الله تعالى لم يُعَاقِبِ الظَّالِمِينَ فِي الدُّنْيَا لِحِكْمَةٍ عِنْدَهُ، فَسَوْفَ تَقُومُ السَّاعَةُ لَا مَحَالَةَ، وَلَنْ يُفْلِتَ ظَالِمٌ مِنَ الْعِقَابِ فِي الْآخِرَةِ يَقِينًا.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

٣٩- حِينَ يَمُثِّلُ النَّاسُ جَمِيعًا فِي حَضْرَةِ الْعَدَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، سَتَكُونُ هُنَاكَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَرْضٌ جَدِيدَةٌ وَسَمَاوَاتٌ أُخْرَى، وَلَنْ تَكُونَ هُنَاكَ نَجُومٌ فِي السَّمَاءِ، كَمَا لَنْ تَكُونَ هُنَاكَ جِبَالٌ عَلَى الْأَرْضِ وَلَا مَرْتَفَعَاتٌ وَتَلَالٌ وَلَا حَتَّى غَارٌ عَمِيقٌ أَوْ مَا شَابَهُ، وَإِنَّمَا سَيَكُونُ الْمَنْظَرُ لِمِيدَانٍ فَسِيحٍ مَمْتَدٍّ كُلَّهُ.

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٥٩ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ٦٠ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

٤٠- سَيَكُونُ الْمُجْرِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْبَلِينَ بِالْأَصْفَادِ، وَسَيَكُونُ لِبَاسُهُمْ

١٤٢ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (الجزء الثالث)

من قَطْرَانٍ وَفَحْمٍ تَشْتَعْلُ فِيهِ النَّيرَانُ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ، وَتَشْتَعْلُ النَّارُ فِي وَجُوهِهِمْ، وَكُلُّ هَذَا حَتَّى يَلْقَى كُلُّ شَخْصٍ جِزَاءَ عَمَلِهِ.

﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوهُ بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴾

٤١- هذا القرآن الكريم دعوة فكر للناس جميعاً، حتى يتدبروا ويتفكروا ويكونوا على يقين من توحيد الله عز وجل.

الفقيه إلى الله:

محمد إمداد حسين بيرزاده،

جامعة الكرم

بعد صلاة الفجر من يوم الأربعاء ١٤ فبراير عام ٢٠٠٧م،

الموافق ٢٥ محرم عام ١٤٢٨هـ

وقد اكتمل تفسير سورة إبراهيم في ثمانية أيام فقط

والحمد لله رب العالمين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥) سُورَةُ الْحَجَرِ

هذه السورة مكية، ولفظ «حجر» مذكور في الآية رقم ٨٠ منها، ولهذا سميت سورة «الحجر»، والمراد بالحجر: منطقة قوم ثمود، والتي تقع بين الحجاز والشام، وفي الآية رقم ٩ من هذه السورة أعلن الله تعالى حفظ القرآن الكريم بشكلٍ أبديٍّ فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.

في هذه السورة جاء التنبيه لمشركي مكة من جانب بأنهم لو ظلوا مستغرقين في ملذاتهم، ولم يتدبروا القرآن الكريم، ولم يقبلوا الإسلام، فسوف يلقون في الآخرة عذاباً عظيماً، ومن جانبٍ آخر جاءت التسيئة عن قلب النبي ﷺ بأن لا تحزن ولا تغتم بسبب المطالبات غير المعقولة التي يطلبها أولئك المشركون منك، ولا تجزع لإيذائهم لك؛ لأن الأمم السابقة عليهم أيضاً كانت تسخر من أنبيائها عليهم السلام، وجاء في السورة أيضاً ذكر هلاك قوم لوط، وقوم شعيب، وقوم ثمود، حتى يعتبر المشركون، ويؤمنوا بالقرآن المجيد.

الفقيه إلى الله:

محمد إمداد حسين بيژاده،
جامعة الكرم

يوم الأربعاء ١٤ من فبراير عام ٢٠٠٧م
الموافق ٢٥ محرم عام ١٤٢٨هـ

سُورَةُ الْحَجَرِ (١٥)،

مكية (٥٤)، آياتها (٩٩)، ركوعاتها (٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

﴿الر﴾

١- هذه حروف مقطعة، وهي سرُّ بين الله تعالى وحبِّيه المكرَّم سيِّدنا محمدٍ ﷺ،

ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشية رقم ١ من سورة البقرة (٢).

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾

٢- هذا هو الكتاب والآيات البينات، والمعنى اللغوي لكلمة «كتاب» هي: «الشيء المكتوب»، والمعنى اللغوي لكلمة «قرآن» هو: «الشيء المقروء»، والكتاب: اسم للقرآن الكريم؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، واسمه القرآن لأنه نزل مقروءًا، ويُعلم منه أن القرآن المجيد باعتبار الكتابة كتاب كامل ومحفوظ، ومن حيث البيان كلام بين وكامل.

﴿زُبَيْرًا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَو كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾

٣- عندما يشعر الكفار بخطأهم في القبر والحشر وفي جهنم، يتمنون كثيرًا لو أنهم كانوا مسلمين، ولكن الندم لا ينفع في ذلك الوقت، يقول سيدنا أبو موسى رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام! فقد صرتم معنا في النار، قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها. فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار، قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا»، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١)﴾ زُبَيْرًا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَو كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿ (١).

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ﴾

٤- يا أيها النبي الحبيب، لا يحزنك من لا يؤمن بك بعد دعوتك له، ودعه يتمتع بالطعام والشراب واللهو والعبث في هذه الحياة القصيرة؛ لأنه - في

الحقيقة - عَقْدَ آمَالًا عَرِيضَةً لِمُسْتَقْبَلِهِ غَافِلًا عَنِ الْمَوْتِ، لَكِنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ وَقْتَ الْمَوْتِ قَدْ اقْتَرَبَ، وَعِنْدَئِذٍ سَيَعْلَمُ أَنَّ مَا قَالَهُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ كَانَ حَقًّا وَصِدْقًا.

يَقُولُ سَيِّدُنَا عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: «إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ اثْنَتَيْنِ: طُولَ الْأَمَلِ وَاتِّبَاعَ الْهَوَى، فَإِنَّ طُولَ الْأَمَلِ يُنْسِي الْآخِرَةَ، وَاتِّبَاعَ الْهَوَى يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ»^(١)، وَلِهَذَا فَالْمُؤْمِنُ الْعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَعْتَبِرُ أَنَّ الْمَوْتَ قَرِيبٌ، وَيَسْتَفِيدُ اسْتِفَادَةً كَامِلَةً مِنْ لَمَحَاتِ الْحَيَاةِ، مِثْلَمَا يَقُولُ سَيِّدُنَا ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا». قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْبَسُ؟ قَالَ: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ»^(٢).

وَلَيْسَ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ يَحْمِلَ الْإِنْسَانُ مِسْبَحَةً، وَيُرَدِّدُ كُلَّ يَوْمٍ وَرَدَ «يَا مَوْتَ، يَا مَوْتَ»! وَإِنَّمَا الْهَدَفُ هُوَ أَنْ يَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ عِنْدَ كُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا، بِمَعْنَى: أَنَّ الْعَمَلَ الَّذِي هُوَ مُقَدِّمٌ عَلَى الْقِيَامِ بِهِ، أَلَا يَكُونُ بِالنِّسْبَةِ لَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ مَصِيبَةً عِنْدَ الْحِسَابِ؟

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ﴾

٥- وَقْتُ نَزُولِ الْعَذَابِ عَلَى كُلِّ قَوْمٍ ظَالِمِينَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَعِنْدَمَا يَحِينُ هَذَا الْوَقْتُ، لَا يُمْكِنُ التَّقْدِيمُ أَوْ التَّأخِيرُ فِيهِ، وَحِينَ يُعْطَى قَوْمٌ ظَالِمُونَ مُهْلَةً طَوِيلَةً، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَنْ يُوَاخَذُوا؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ إِنْ لَمْ يُوَاخَذُوا فِي الدُّنْيَا فَسَوْفَ يُوَاخَذُوا فِي الْآخِرَةِ يَقِينًا، وَلَكِنَّ هُنَاكَ حِكْمًا كَثِيرَةً وَرَاءَ

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣١ برقم ٤٢٥٩.

إمهالهم في هذه الدنيا، والله يعلم هذه الحكمة تمام العلم، ويمكن أن يكون من بينها: أن بعض هؤلاء، أو بعض أولادهم، قدّر لهم أن يؤمنوا مستقبلاً، فلو نزل العذاب فوراً لهلكوا قبل إيمانهم، مثلما لم يدع النبي ﷺ بهلاك أهل الطائف، فربما آمن أولادهم، وقد حدث هذا بالفعل، آمن سكان الطائف، وآمن أولادهم بعد عدة سنوات، ولو أهلكهم الله تعالى فوراً في ذلك الوقت، لما آمنت ذريتهم.

﴿ وَقَالُوا يَتَأْتِيَهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾

٦- كان المنكرون يسخرون من النبي ﷺ قائلين: إنك تتكلم بكلام المجانين، ولو كنت صادقاً اتبنا بالملائكة، مع أن الملائكة لو جاءتهم على صورتها الأصلية لن يتمكنوا من رؤيتهم، وإن جاءوا في صورة الإنسان لأثاروا نفس الاعتراض قائلين: إنهم بشرٌ مثلنا، فكيف يكونون ملائكة؟ ولو أروهم عملاً من أعمال الملائكة لقالوا: إنك سحرت أعيننا. على أي حال، الملائكة لا يرسلون من أجل الاستعراض، أو من أجل تصديق الأنبياء، وإنما يرسلهم الله تعالى إلى الأرض حين يشاء ولحكمة عنده، ومن حكمة هذا أنه حين يبلغ قومٌ في عصيانهم المدى، ويحين موعده إهلاكهم، تنزل الملائكة، وعندئذ لا يمهّل الظالمون، ولكن وقت إهلاك هؤلاء الظالمين لم يحن بعد، ولهذا يكون انتظار نزول الملائكة حتى الوقت المحدد لنزولهم.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

٧- خلق الله تعالى الأسباب لحفظ القرآن الكريم، بحيث أنه لو - لا قدر الله - تلفت كل النسخ المكتوبة للقرآن الكريم أو ضاعت لسبب من الأسباب، فيمكن تدوينه مرة ثانية من مجرد طفل صغير حافظ للقرآن الكريم! ولن يحدث فيه أي

زيادة أو نقصان، ولو في فتحة أو كسرة، ولم يتيسر لأي كتاب في هذه الدنيا هذا التمييز في حفظه، وهذا هو السبب في أن القرآن المجيد موجودٌ بيننا مثلما كان موجودًا في أول أيام نزوله دون أي تغيير.

ولو كان الحِفاظُ على القرآن الكريم موكلاً لنا فقط، لآتلفت بقرة سورة البقرة، ولأكلت نملة سورة النمل، ولكن من فضل الله تعالى أنه تعهد بحفظ القرآن المجيد بنفسه، وهو لهذا محفوظٌ حتى اليوم، وسيبقى محفوظاً أبداً الدهر.

بعض الأحاديث النبوية عن حفظ القرآن الكريم:

١- عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»^(١)، وسورتا الفاتحة والإخلاص سورتان كاملتان من القرآن الكريم يحفظهما عن ظهر قلب كل مسلم تقريباً، ولهذا يمكن القول: إنه لا يوجد في الدنيا مسلم لا يحفظ شيئاً من القرآن.

٢- عن علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن واستظهره فأحلّ حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة وشفّعه في عشرة من أهل بيته كلهم وجبت له النار»^(٢).

٣- عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «يجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يا ربّ، حلّه، فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا ربّ، زده، فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول: يا ربّ ارض عنه، فيرضى عنه، فيقال له: اقرأ وأزق وتزاد بكل آية حسنة»^(٣).

(١) الترمذي، فضائل القرآن باب ١٨ برقم ٢٩١٣.

(٢) الترمذي، فضائل القرآن باب ١٣ برقم ٢٩٠٥.

(٣) الترمذي، فضائل القرآن، باب ١٨ برقم ٢٩١٥.

فضل القرآن الكريم على اللغة:

يَحْدُثُ تَغْيِيرٌ فِي كُلِّ لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ الْعَالَمِ بَعْدَ كُلِّ مِائَةِ عَامٍ، وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مُسْتَحْدَمَةً فِي فِتْرَةِ شِيكْسْبِيرِ قَبْلَ أَرْبَعَةِ قُرُونٍ فَقَطْ، لَا نَجِدُ بَعْضَ أَلْفَاظِهَا فِي الْقَوَامِيسِ وَالْمَعَاجِمِ الْحَدِيثَةِ، بَيْنَمَا اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مُوجُودَةٌ فِي صُورَتِهَا الْأَصْلِيَّةِ كَمَا كَانَتْ قَبْلَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا مِنَ الزَّمَانِ، وَسَبَقَى هَكَذَا دَائِمًا، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا لُغَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ تَحْرِيفٌ أَوْ تَبْدِيلٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَسَيَبْقَى يُقْرَأُ فِي كُلِّ زَمَانٍ كَمَا هُوَ مِنْذُ نَزُولِهِ، لِهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ تَحْرِيفٌ أَوْ تَبْدِيلٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَيْضًا، حَتَّى أَنْهَا سَيُتَحَدَّثُ بِهَا فِي الْجَنَّةِ كَمَا هِيَ بِصُورَتِهَا الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

٨- هنا تسريّة عن قلب النبي ﷺ بأنه ليس مشركو مَكَّةَ فقط الذين يسخرون منك نبياً، فقد كان هذا حال كل أمة سبقتهم مع رسولهم.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾

٩- عندما لم يرجع المجرمون، أي: كُفَّارُ مَكَّةَ، عن ضلالهم، تَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى قُلُوبَهُمْ تَعَمَّهُ فِي ضَلَالِهَا.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾

١٠- لم يؤمن مشركو مَكَّةَ بالقرآن الكريم، وهذا ليس بالأمر الجديد؛ لأنّ الذين سَخَرُوا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ ظَلُّوا مُحْرَمِينَ مِنْ نِعْمَةِ الْإِيمَانِ.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾

١١- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، لَقَدْ وَصَلَ مَشْرُوكُ مَكَّةَ فِي عُنَادِهِمْ وَصَلَفِهِمْ مَرَحَلَةً لَّنْ يُؤْمِنُوا فِيهَا بِكَ أَبَدًا، حَتَّى وَإِنْ جَعَلْنَا لَهُمْ وَسِيلَةً لِلصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ، وَظَلُّوا يَصْعَدُونَ طِيلَةَ النَّهَارِ فِي ارْتِفَاعَاتِ السَّمَاوَاتِ، وَيَسَاهِدُونَ عَوَالِمَهَا، سَيَقُولُونَ: إِنَّ أَبْصَارَهُمْ قَدْ أُعْمِيَتْ، أَوْ إِنَّهُمْ قَدْ سُحِرُوا، مِمَّا جَعَلَهُمْ يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ يَصْعَدُونَ إِلَى السَّمَاءِ، مَعَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ الْحَقِيقَةُ، وَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ الْمُعَانِدِينَ لَّنْ يُؤْمِنُوا أَبَدًا، حَتَّى وَإِنْ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنَ السَّمَاءِ عِنْدَهُمْ تَصْدِيقًا لَّكَ.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَن أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْرُودٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمُ فِيهَا مَعَاشٍ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمُ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخِيرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾

١٢- جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي السَّمَاءِ نَجُومًا زِينَةً لِّهَا، وَإِسْعَادًا لِلنَّاظِرِينَ إِلَيْهَا.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَن أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ﴾

١٣- حَفِظَ اللَّهُ تَعَالَى السَّمَاءَ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَلْعُونٍ، وَلَنْ حَاوَلَ أَيُّ شَيْطَانٍ الصُّعُودَ إِلَى الْعَالَمِ الْأَعْلَى لِيَسْمَعَ مَا يَقَالُ هُنَاكَ، فَإِنَّ الشُّهْبَ الْمَضِيئَةَ فِي السَّمَاءِ، أَيُّ: شُعَلَاتِ النَّارِ، تُجْبِرُهُ عَلَى الْهَرَبِ عَائِدًا إِلَى أَسْفَلَ.

ولكنّ هذا لا يعني أنّ الشيطان يستطيع أن يتخفّى من الله تعالى ويصعد إلى العالم العلوي، فهذا من المستحيل تمامًا، والحقيقة أنّ الله تعالى قد أعطى الشيطان مهلةً طويلة، وقوةً غير عادية، ابتلاءً منه لبني الإنسان، ولهذا يستطيع الشيطان - من خلال القوة التي أعطاها الله له - القيام بأعمال لا يستطيعها الإنسان العادي.

ولو حملنا الشيطان الرجيم على: الأعمال الشيطانية، والشهاب المبين على: الملائكة التي تحرّس السماء، فسيكون المعنى هو: أنّ الله تعالى قد حفظ العالم العلوي من الأعمال الشيطانية، ولهذا فإنّ صعود الأعمال الصالحة فوق السماء بمثابة الدليل على قبولها، مثلما قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقد قال سيّدنا عمر رضي الله عنه: «إنّ الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتّى تُصلي على نبيك ﷺ»^(١).

على العكس من ذلك حين تصعد الأعمال الشيطانية إلى أعلى، فإنّ حُرّاس السماء من الملائكة يوقفونها، ويلقون بها إلى أسفل، والحقيقة أنّ الله تعالى أولاً يسمح بصعود هذه الأعمال، وإيقاف الملائكة لها والرمي بها إلى أسفل يهدف إلى أن يشعر الناس بذلّ الأعمال الشيطانية وعدم قبولها، فينفروا منها.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَّ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ^(١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ^(٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾

١٤- مدّ الله تعالى الأرض، وأنبت فيها كلّ شيء بمقدارٍ مناسب طبقاً للضرورة، كما أنه خلق فيها أسباباً للرّزق لا حصر لها من أجل الإنسان وكذا الحيوانات الأخرى؛ لأنّ مالك كلّ الكنوز والخزائن هو الله تعالى فقط، وهو الذي يُنزل منها بمقدار معيّن عنده، والأرض كروية وليست مُفلطحة، ولمزيد من التفصيل راجع الحاشية رقم ٤ من سورة الرعد (١٣).

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾

١٥- أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى الرِّيحَ الَّتِي تَحْمِلُ اللُّقَاحَ لِلأَشْجَارِ وَالتَّيَاتَاتِ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً تَشْرِبُونَهُ، وَلَوْ أَوْقَفَ اللهُ تَعَالَى أَسْبَابَ الْمَطَرِ فَقَطْ، سَتَكُونُ نَتِيجَةُ ذَلِكَ جَفَافَ الْعَيُونِ وَالْآبَارِ، فَمِنْ أَيْنَ تَأْتُونَ بِالمَاءِ عِنْدَئِذٍ؟ وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَدَبَّرَ وَسَائِلَ الرِّزْقِ هَذِهِ، وَيُؤْمِنَ بِرَازِقِهِ الْحَقِيقِيِّ، أَيِ: اللهُ تَعَالَى.

وَفِي النَّبَاتَاتِ وَالْأَشْجَارِ أَيْضًا ذَكَرٌ وَأُنْثَى، وَتَنْتُجُ الثَّمَارُ مِنَ التَّلْقِيحِ بَيْنَهُمَا، وَلِمَزِيدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ رَاجِعِ الْحَاشِيَةِ رَقْم ٥ مِنْ سُورَةِ الرَّعْدِ (١٣).

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخِيرِينَ﴾ (٢٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

١٦- اللهُ تَعَالَى قَادِرٌ مُطْلَقٌ، وَكَمَا أَنَّ حَيَاةَ وَمَوْتَ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي يَدِهِ هُوَ، فَإِنَّ عِلْمَ كُلِّ شَخْصٍ عِنْدَهُ هُوَ أَيْضًا، وَهُوَ يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ مَنْ سَيَمُوتُ أَوَّلًا، وَمَنْ سَيَمُوتُ فِيمَا بَعْدَ، وَلَكِنَّ اللهُ تَعَالَى سَيَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مِيدَانٍ وَاحِدٍ، وَسَيُثَبِّتُهُمْ وَيُعَاقِبُهُمْ طَبَقًا لِأَعْمَالِهِمْ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٦) ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٨) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٩) ﴿فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٠) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣١) ﴿قَالَ يَتْلِيَ بَلِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣٢) ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ، مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٣٣) ﴿قَالَ فَخُذْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٣٤) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٣٥) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٣٧) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٣٨) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٩) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُحْلَصِينَ﴾ (٤٠) ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤١) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٢) ﴿وَإِنْ جَهَنَّمُ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٣) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (٤٤)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾

١٧- يروي الإمام ابن عساكر، عن سيّدنا ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قد أخذ الطّين من كلّ أطراف الأرض بهدف خلق سيّدنا آدم عليه السّلام، ثم وُضع هذا الطّين في الأرض حتّى أصبح طينًا لازجًا، ثم تُرك حتّى صار أسود ذا رائحة عفنة، ثم أعدّ الله تعالى بيده من هذا الطّين هيكل سيّدنا آدم عليه السّلام في أربعين يومًا، إلى أن أصبح جافًا، وأصبح يابسًا كمثّل الخزف، بحيث يصدر عنه صوتٌ إذا ما لمسّه الأيدي^(١).

ويعلم من هذه الآية أنّ الله تعالى خلق الإنسان من الطّين، ولهذا فهو ليس صورةً متطورةً من القردة، وإنما هو نموذجٌ عظيمٌ من خلق الله تعالى.

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾

١٨- يعلم من هذا أنّ خلق الجنّ كان قبل خلق الإنسان، وأنه خلق من النار، ولمزيد من التفصيل راجع الحاشية رقم ١٠ من سورة الأعراف (٧).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَبْنَئُ بَلِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ، مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾

١٩- أمر الله تعالى الملائكة قائلاً: إنني خلقت الإنسان من طين، وحين أنفخ فيه من رُوحِي عليكم بالسُّجود تعظيمًا له، وهكذا دبّت الحياة في سيّدنا آدم عليه السّلام، وأنعم الله تعالى عليه بعلم خاصٍّ أمر الملائكة أن تسجد له بسببه، وسجدت

الملائكة أَجْمَعُونَ إِلَّا إبليسَ اللَّعِينِ، فسألَ اللهُ تعالى إبليسَ قائلاً: لِمَ لم تسجُدْ؟ فقال الشَّيْطَانُ: أنا لن أسجدَ للإنسانِ المخلوقِ من الطِّينِ، وعليه أخرجَهُ اللهُ تعالى من الجنةِ ولَعَنَهُ. ولمزيدٍ من التفصيل عن سَجْدَةِ التعظيم راجع الحاشية رقم ٩ من سورة الأعراف (٧).

تعظيم النور المحمدي ﷺ:

يقول العلامةُ إسماعيلُ حقي في هذا الخصوص: «هذا - في الحقيقة - تعظيمٌ للنُّورِ المنطبعِ في مِرَاةِ آدَمَ عليه السَّلام، وهو النُّورُ المَحْمَدِيُّ»^(١)، ولهذا قال شاعر:

* كَأَنَّ لِسَانَ حَالِ آدَمَ يَقُولُ: لَسْتُ أَنَا مِنْ سُجْدٍ لَهُ.

الرُّوح:

المرادُ بالرُّوح: النَّفْسُ، والذي يحيا الإنسانُ بدخوله وخروجه، وقد نَفَخَ اللهُ تعالى في الإنسانِ من رُوحِهِ، وليس معنى هذا أن رُوحَ الإنسانِ جزءٌ من ذاتِ اللهِ تعالى، وإنَّما هذه التَّسْبِيَةُ إلى اللهِ تعالى تكريمٌ منه للرُّوحِ وتعظيمٌ لها، مثلما يقالُ للكعبة: «بَيْتُ اللهِ»، بمعنى: أنَّها ذاتُ شأنٍ عظيمٍ واحترامٍ كبيرٍ، وبِنَفْسِ الطريقةِ فإنَّ الرُّوحَ أيضًا نعمةٌ خاصَّةٌ من اللهِ تعالى.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٣٧) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾

٢٠- حين يُبْعَثُ النَّاسُ من قبورِهِم يومَ القيامةِ لن يموتوا بعدها أبدًا، وقد طَلَبَ إبليسُ مُهْلَةً حتى يومَ الحَشْرِ حتى ينجو من الموتِ، ولم يُمهله اللهُ تعالى إلى يومِ الحَشْرِ كما طَلَبَ، وإنَّما إلى وقتٍ معلومٍ، أي: حينَ تَفْنَى الكائناتُ كُلُّها، سيفنَى إبليسُ أيضًا معها، وسيبقى أربعينَ عامًا مَيِّتًا^(٢)، ثم حين يُبْعَثُ النَّاسُ يُبْعَثُ إبليسُ أيضًا معهم.

(١) تفسير روح البيان.

(٢) «عن ابن عباسٍ رضي اللهُ عنهما في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال: أراد إبليس =

ومن الممكن أن يكون من حكمة إمهال الشيطان حياة طويلة هكذا أن يتلي الله تعالى العباد؛ من يكون عبداً لله تعالى، ومن يكون عبداً للشيطان؟

﴿قَالَ رَبِّ مَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾

٢١- قال إبليس: يا ربّي، بما أنك عاقبتني لعدم سجودي لآدم بأن تركتني في الضلال، لهذا سأنتقم من أولاد آدم، وسأزيّن لهم الأعمال السيئة وأجملها لكي أضلّهم يقيناً، إلا عبادك الذين أخلصتهم واخترتهم، لأن هؤلاء لا يقعون في حبائلي.

يقول سيّدنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن إبليس قال لربه: بعزّتك وجلالك، لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال له الله: فبعزّتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»^(١).

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾

٢٢- طريق الإخلاص طريق مستقيم، والذين يعملون بأحكام الله تعالى بإخلاص، ليس للشيطان سلطان عليهم، حتى وإن خدعوا بوسوسة الشيطان ذات مرة على سبيل سوء الفهم، فإنهم ما إن يشعروا بذلك حتى يبادروا بالتوبة إلى الله تعالى ويلوذوا به.

= أن لا يذوق الموت، فقيل: فإنك من المنظرين ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة أربعين سنة. قال: فيموت إبليس أربعين سنة - تفسير ابن أبي حاتم.

﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٤٣ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾

٢٣- الله تعالى لا يُجبرُ أحداً على ارتكاب الذنوب، ولا الشيطان أيضاً يُجبرُ أحداً على ذلك، ولكن الذين يُفَضِّلُونَ اتِّبَاعَ الشَّيْطَانِ بِرَغْبَتِهِمْ لَهُمْ الْوَعْدُ بِجَهَنَّمَ، وفي جهنم سبع طبقات بحسب أعمالهم، ولكل طبقة بابٌ مستقلٌّ، وسيُلقَى بالناس في الطبقات المختلفة لجهنم بحسب فظاعة ذنوبهم.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾ نَبِيٍّ عِبَادِي أَتَىٰ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نَؤْجِلُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبْشُرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِيطِ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُتَّجِفُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتُهُ فَوَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَادِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ٤٥ ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ ٤٦ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ٤٧ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ ٤٨ ﴿٤٩﴾ نَبِيٍّ عِبَادِي أَتَىٰ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

٢٤- سيقال للمتقين: ادخلوا الجنة بسلام، وسيكون لهم في الجنة الاطمئنان والسكينة الباطنية أيضاً، جنباً إلى جنب مع الاطمئنان والسكينة الظاهرية، بمعنى: أنهم لو كانوا في الدنيا على خلافٍ مع بعضهم، فإن قلوبهم في الجنة تصبُح طاهرة من كلِّ عداٍ وحقد، وسيصبحون إخوة متحابين مخلصين لبعضهم. وقد قال سيِّدنا عليٌّ كرم الله وجهه: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان والزبير وطلحة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾^(١)، بمعنى: أن يزول سوء الفهم بينهم يوم القيامة.

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَنِيَ الْكَبَرُ فِيمَ بُشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَنِيطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

٢٥- جاء بعض الملائكة إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام في صورة البشر، وبشروه بمولد ابنه سيدنا إسحاق عليه السلام، فقال لهم: لقد أصبحت شيخاً كبيراً، فأبشروني بهذه التي تبشرونني بها؟ قالت الملائكة: هذه بشرى صادقة فلا تيأس، فقال سيدنا إبراهيم عليه السلام: إنني أبدي حيرتي وتعجبي بسبب شيخوختي، لكنني لست يائساً من رحمة الله تعالى؛ لأن الضالين فقط هم الذين يئأسون من رحمة الله. ولمزيد من التفصيل عن هذه الواقعة راجع الحاشية ٥٤، ٥٥، ٥٦ من سورة هود (١١)، ولمزيد من التفصيل عن أحوال سيدنا إبراهيم عليه السلام راجع تفسير الآيات من ٧٤ إلى ٨٢ من سورة الأنعام (٦).

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾^(٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَآءَ آلِ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَآ أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمِنَ الْغَيْرِيبِ ﴿٦٠﴾

٢٦- سأل سيدنا إبراهيم عليه السلام الملائكة: ما هي الأمور الهامة التي جئتم من أجلها بالإضافة إلى تبشيري بمولد ابني؟ فقالت الملائكة: جئنا لنُدَمِّرَ قومَ لوط، وسوف نخرج سيدنا لوطاً عليه السلام هو وأهل بيته من هناك ونُنقذهم، لكن الحكم فيما يتعلق بزوجه هو أنها ستهلك مع القوم المجرمين؛ لأنها كافرة.

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعُلَمِيَّةِ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَّاكَ إِن تَفِي سَكَرَتُهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَبَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴾

٢٧- جاءت هذه الملائكة التي أرسلها الله تعالى في صورة شباب في غاية الجمال، فقال لهم سيّدنا لوط عليه السّلام: من أنتم، ولماذا أتيتم؟ لأنه يبدو أنكم أجانب عن هذه البلدة، فقالوا: إنّنا ملائكة، وقد جئنا بالعذاب لقومك المنكرين الذي كانوا يشكّون في مجيئه، والآن سيُنزل عليهم العذاب حقاً ولا محالة؛ لأنّ وقته قد أوْشك أن يحين، ولهذا عليك أن تخرج أنت وأهل بيتك بعد مرور جزء من الليل إلى الشام، حيث أمرت بالذهاب إلى هناك، وعليك أن تسير خلف القافلة، حتى لا يخطئ أحدٌ بالعودة، ولا يلتفت منكم أحدٌ إلى الخلف، وإنما عليكم أن تبتعدوا سريعاً عن هذه البلدة.

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾

٢٨- تمّ إعلام سيّدنا لوط عليه السّلام عن طريق الوحي أنه سيتمّ اقتلاع المنكرين من جذورهم، أي: سيهلكون جميعاً، ولمزيد من التفصيل راجع الآيات من ٧٧ إلى ٨٣ من سورة هود (١١).

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

٢٩- كان قومُ سيِّدنا لوطٍ عليه السلام مغرَمينَ بفعل الفاحشة مع الذُّكور من الأولاد، وحين عَلِموا بوجودِ أولادٍ في بيتِ سيِّدنا لوطٍ عليه السَّلام، أَقبلوا إليه فَرَحينَ وهم يقولون: سلَّمنا هؤلاءِ الأولادَ لنقضِي منهم وَطَرنا، فقال لهم سيِّدنا لوطٌ عليه السَّلام: هذا غيرُ ممكن؛ لأنَّهم ضيوفي، فاتَّقوا الله تعالى، ولا تُخزوني في ضيفي.

﴿قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

٣٠- فقالوا: يا لوطُ، ألم نُقلْ لك مرارًا وتكرارًا أن لا تُجيرَ المسافرينَ وعابري السَّبيل جميعًا؟ فقال سيِّدنا لوطٌ عليه السَّلام: لو أنَّكم تريدون قضاءَ رَغباتكم النفسيةِ ففي القومِ بناتٌ لا حصرَ لهنَّ، تزوَّجنَّ واقضوا وَطَرَكُم بطريقةٍ شرعيةٍ؛ لأنَّ هذه الطريقةَ غيرَ الجائزةِ التي تتَّبِعونها ستُنزلُ عليكم العذابَ.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

٣١- يقولُ العلامةُ القرطبيُّ في هذا الخصوص: «قال القاضي أبو بكر ابنُ العربي: قال المفسِّرونَ بأجمَعهم: أقسم الله تعالى ها هنا بحياةِ مُحَمَّدٍ ﷺ تشريعًا له، وهذا نهايةُ التعظيمِ وغايةُ البرِّ والتَّشريفِ. قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله بحياةِ أحدٍ غيرِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّه أكرمُ البريةِ عنده»^(١).

في هذه الآيةِ جاءَ التَّنبيةُ لأهلِ مكَّةَ من جانبٍ بأنكم تُسيئونَ إلى ذاتِ أَقْسَمِ الله تعالى بحياتها المباركة، ومن جانبٍ آخرٍ يُطمئنُ النَّبيَّ ﷺ بأن لا تقصيرَ في دعوتك؛ لأنَّ الحقيقةَ أنَّ هؤلاءِ يعْمَهُونَ في ضلالٍ شرِكهم وتعصَّبهم.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾

٣٢- ومع مشرق الشمس أخذت قوم لوط صيحة عظيمة، ثم دمرت قريتهم، وأمطروا بحجارٍ من سجّيل، وهكذا تمّ تدمير قوم لوط بثلاثة أنواع من العذاب، وكان هؤلاء يسكنون جنوب الشام، وكانت قريتهم تقع على الطريق الذي يصل ما بين الشام والحجاز، وفي هذه الواقعة آياتٌ عبرةٌ كثيرةٌ لأهل الإيمان وأهل الفراسة والفطنة، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشية رقم ٤٩ من سورة الأعراف (٧).

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾

٣٣- كان اسم قرية سيدنا شعيب عليه السلام «الأيكة»، وكانت تقع في منطقة «مدين»، بالقرب من قرية قوم لوط بين الحجاز والشام، وكان أهلها ظالمين للغاية، وكانوا يُطْفَفُونَ في الكيل والميزان، وتمّ تدمير قريتهم بزلزالٍ شديدٍ وصيحةٍ عظيمة، ولمزيدٍ من المعلومات راجع الآيات من ٨٥ إلى ٩٣ من سورة الأعراف (٧)، وكذا الآيات من ٨٤ إلى ٩٥ من سورة هود (١١).

﴿ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

٣٤- المراد بالقريتين هما قرية سيدنا لوط وقرية سيدنا شعيب عليهما السلام، وكانتا تقعان على طريق رئيسٍ ما بين الحجاز والشام، وقد أهلك الله تعالى أهل هاتين القريتين ودمرهما انتقاماً منهم بسبب أعمالهم السيئة.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَعَاقَبْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنْ

الْمَنَافِي وَالْفُرْعَانِ الْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾

٣٥- المراد بأصحابِ الحِجرِ: قومٌ ثمود، الذين كانوا يسكنون ما بين الحجاز والشام، وقد بُعثَ فيهم سيّدنا صالحٌ عليه السّلام.

وكذّب أصحابُ الحِجرِ الرُّسلَ، وأعرَضوا عن آياتِ الله البَيِّنات، وكان يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بَيوتًا قويّةً، ويعيشُونَ فيها آمِنِينَ، لكنْ حينَ جاءهم عذابُ الصَّيْحَةِ الشَّديِدة هَلَكُوا جَمِيعًا، ولم تستطع بيوتُهم المنحوتةُ في الجبالِ حمايتَهم من العذاب. ولمزيدٍ من التفصيل عن هذه الواقعةِ راجع الآياتِ من ٧٣ إلى ٧٩ من سورة الأعراف (٧)، وكذا الآياتِ من ٦١ إلى ٦٨ من سورة هود (١١).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ فَاصِّحٌ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾

٣٦- خَلَقَ اللهُ تَعَالَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لِمَقْصِدٍ صَادِقٍ وَحَقِيقِيٍّ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ لَيْسَتْ خَالِدَةً لِلأَبَدِ، إِذْ سَتَقُومُ السَّاعَةُ ذَاتَ يَوْمٍ، وَلِهَذَا عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ بِمَثَابَةِ سُحْبِ الرَّحْمَةِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْقَصِيرَةِ، وَتُمْطِرْهُمْ بِمَطَرِ الْعَفْوِ وَالتَّسَامُحِ، فَالْمَطَرُ حِينَ يَنْزِلُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَرْضِ الْخَصْبَةِ وَالْأَرْضِ الْبُورِ، وَإِنَّمَا يَرَوِي الْأَرْضَ كُلَّهَا بِالْمَاءِ دُونَ تَفْرِيقٍ، وَبِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ ضَرَبَتْ أَمْطَارُ رَحْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَثَلًا

لا نظيرَ له في العفوِ عَمَّنْ هم من أهله وَمَنْ هم من غيرِ أهله على السَّواءِ، حتى أنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ الذين تَأَمَّرُوا لِقَتْلِهِ ﷺ، وأَجْبَرُوهُ على الهجرة من مكة، وقَتَلُوا عَمَّهُ حمزة رضي الله عنه ومَثَلُوا بِجُثَّتِهِ وَمَضَّغُوا كَبِدَهُ، عندما انتَصَرَ عليهم النبي ﷺ عَفَا عنهم جميعاً، حتى أنه عَفَا عن عُتَاةٍ مُّجْرِمِيهِمْ أيضاً، وظاهرٌ أنه إن لم يُقَدِّم من عَلَّمَهُ اللهُ تعالى بنفسِهِ الأخلاقَ العظيمةَ والعفوَ والتسامحَ، مثلاً للعفوِ والتسامحِ، فمن يقدِّمُهُ إذا؟

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾

٣٧- المرادُ بالسَّبعِ المَثاني: سورةُ الفاتحة، فهي من سَبْعِ آياتٍ يَتِمُّ ترديدُها وتلاوتُها في كلِّ صلاةٍ:

١- عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ «الحمدُ لله (سورةُ الفاتحة) أُمُّ القرآن، وأُمُّ الكتاب، والسَّبعُ المَثاني»^(١).

٢- عن أبي سعيدٍ بن المُعلَّى، قال: كنتُ أصلي في المسجد، فدعاني رسولُ الله ﷺ فلم أجبهُ، فقلت: يا رسولَ الله، إني كنتُ أصلي. فقال: «ألم يقل الله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾؟»، ثم قال لي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سورةً هي أعظمُ السُّورِ في القرآنِ قبلَ أن تَخْرُجَ من المسجد». ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يَخْرُجَ قلتُ له: ألم تقل: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هي أعظمُ سورةٍ في القرآن؟». قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٢)، هي السَّبعُ المَثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتِيَتْهُ»^(٢).

وتسميةُ سورةِ الفاتحة في القرآنِ الكريم والحديثِ النبويِّ الشريفِ باسمِ «القرآنِ العظيم» و«أُمِّ القرآن» يشيرُ إلى عَظَمَةِ هذه السُّورةِ وجامعِيَّتِها؛ لأنَّ سورةَ الفاتحة بمَثَابَةِ المَقْدَمَةِ التي جاء فيها بيانٌ لِحُلَاصَةِ القرآنِ الكريم.

(١) الترمذي، سورة الحجر (١٥) برقم ٣١٢٤.

(٢) البخاري، سورة الحجر (١٥): باب ٣ برقم ٤٤٧٤.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾

٣٨- يقول الدكتور وهبة الزحيلي: «ثم رتب تعالى على هذا العطاء العظيم قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾. أي: لا تطمح أيها الرسول - والخطاب لأُمَّته - إلى ما مَتَّعْنَا به الأغنياء من زينة الحياة الدنيا، فمن وراء ذلك عقابٌ شديد، واستغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية. والمقصود: فاحِز بما أوحى إليك، وقدر عظمه نعمته عليك، ولا تنظر إلى الدنيا وزينتها، وما مَتَّعْنَا به أهلها من الزهرة الفانية، لِنَفْتَنَهُمْ فيه - قال أبو بكر رضي الله عنه: من أُوتِيَ القرآن، فرأى أن أحداً أُوتِيَ من الدنيا أفضل مما أُوتِيَ، فقد صَغُرَ عظيمًا، وعَظُمَ صغيرًا»^(١).

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِّضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

٣٩- يا أيها النبي الحبيب، لا تحزن ولا تغتم بسببِ عَدَمِ إيمانِ أهل مَكَّةَ بك رَغَمَ دعوتك المستمرة لهم؛ لأنهم هم المسئولون عن ضلالهم، أمَّا الذين آمنوا فيستحقون شَفَقَتَكَ ورحمتك، حتى يحصلوا على مزيدٍ من فيضك.

﴿كَمَا أُنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾

٤٠- يا أهل مَكَّةَ، سواءً آمنتم بدعوتي أم لم تؤمنوا، فإنني محذركم من عذابِ الله في كلِّ حال، ذلك العذاب الذي أحاق بأولئك الذين قَسَمُوا كتابهم السماوي من الأمم السابقة، بمعنى: أنهم آمنوا منه بالأحكام التي توافق هواهم، وأنكروا منه الأحكام التي تخالف رغباتهم وأهواءهم.

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَّيْكَ لَسْتَ لَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

٤١- الذين قَسَمُوا القرآن الكريم، أي: آمَنُوا ببعض آياته وأنكروا البعض الآخر، قَسَمًا برَبِّكَ، سنَسأَلُهُم يومَ القيامة ونُحاسِبُهُم، ونُعاقِبُهُم يقينًا على خيانتِهِم وتحريفِهِم بما يستحقُّونَ من عقاب.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾

٤٢- قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، عَلَيْكَ الْآنَ أَنْ تَدْعُو إِلَى الْأَحْكَامِ الْإِسْلَامِيَّةِ جَهْرًا وَعَلَى الْمَلَائِكَةِ وَدُونَ خَوْفٍ، وَلَا تَبَالُ بِأَوْلِيكَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَسْخَرُونَ مِنْكَ، فَاللَّهُ وَحْدَهُ يَحْفَظُكَ مِنْهُمْ وَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ. يَقُولُ الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ: «مَا زَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُسْتَخْفِيًا حَتَّى نَزَلَتْ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فَخَرَجَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ»^(١).

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾

٤٣- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، إِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ قَلْبَكَ يَضِيقُ بِكَلَامِ الْمُنْكَرِينَ، فَسَبِّحْنِي وَاشْغَلْ قَلْبَكَ بِعِبَادَتِي، إِلَى أَنْ يَأْتِيَكَ الْأَجَلُ.

وَيُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّ الْقَلْبَ عِنْدَ الضِّيقِ وَالْقَلْقِ يَجِدُ الطَّمَأْنِينَةَ وَالسَّكِينَةَ فِي تَسْبِيحِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ، مِثْلَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وَكَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «قَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»^(٢).

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

(٢) مسند أحمد، ٥: ٣٨٨.

يا ربَّ العالمين، أَنْعِمْ علينا دائماً بالتوفيقِ إلى ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسنِ عبادَتِكَ إلى أنْ يَأْتِيَنَا الموتُ، آمين.

الفقيه إلى الله:

محمَّد إمداد حُسين بيززاده

بعد صلاةِ العشاءِ من يومِ الأربعاء ٢١ من فبراير عام ٢٠٠٧م

الموافق الثالث من شهر صَفَر عام ١٤٢٨ هـ.

استغرقَ تفسيرُ سورةِ الحِجْرِ ثمانيةَ أيام

والحمدُ لله ربَّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦) سُورَةُ النَّحْلِ

هذه السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، وقد ذُكِرَ لفظُ «النَّحْلِ» في الآية رقم ٦٨ منها، ولهذا سُمِّيَتْ سُورَةُ النَّحْلِ، والنَّحْلُ هو نَحْلُ الْعَسَلِ، وقد قال الله تعالى عن عَسَلِ النَّحْلِ في الآية ٦٩ من هذه السُّورَةِ: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، وقال في الآية رقم ٥٧ من سُورَةِ يُونُسَ (١٠) عن القرآن الكريم: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾، وكأنَّ أحدهما - وهو عَسَلُ النَّحْلِ - شفاءٌ لأمراضِ الأبدان، والآخَرُ - وهو القرآن - شفاءٌ لأمراضِ الرُّوحِ. وأكثرُ ما جاء في هذه السُّورَةِ ترغيبٌ في الإيمانِ بَوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تعالى وعبادته، وَبُنْيُوتِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ ورسالته، وبالقرآنِ الكريم والدارِ الآخِرَةِ.

وفي أولِ السُّورَةِ جاء ذمُّ الشُّرْكِ، وَذَكَرَ اللَّهُ تعالى أحوالَ المُشْرِكِينَ السابقين، مرغَّبًا أهلَ مَكَّةَ في اتِّخَاذِ الْعِبَرَةِ وتعلُّمِ الدَّرْسِ، كما تحدَّثَ - سبحانه - وتعالى - عن أهلِ الإيمانِ من الأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّذِينَ صَبَرُوا على ظُلمِ المُشْرِكِينَ، وَهَاجَرُوا في سبيله، وَبَيَّنَّ أحوالَهُمْ، مُسَرِّيًا عن قلوبِ أهلِ الإيمانِ، بأنَّ هذا الأَلَمَ والإيذاءَ الذي تتحمَّلُونَهُ ليس بالأمرِ الجَدِيدِ، وإنَّما أهلُ الإيمانِ دائِمًا يَواجِهُونِ الابتلاءاتِ والشَّدائِدَ.

كما ذَكَرَ اللَّهُ تعالى - في الآية رقم ١٢٥ من هذه السُّورَةِ - المبدأَ

١٦٨ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (الجزء الثالث)

الأساس الذي قرّره في الدّعوة إلى الإسلام وتبليغه، أي: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُم مَّا يَلْتَقِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

قبل صلاة الفجر من يوم الخميس ٢٢ فبراير

٢٠٠٧م

الموافق الرابع من شهر صفر عام ١٤٢٨هـ

الفقيه إلى الله:

محمّد إمداد حُسين بيّرزاده، جامعة الكرم

* * *

سُورَةُ النَّحْلِ (١٦)،

مكية (٧٠)، آياتها (١٢٨)، وركوعاتها (١٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْأَعَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴿١٠﴾ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١١﴾

١- قال النبي ﷺ للمشركين: إن الله تعالى منزّه عن كلّ تلك الأشياء التي تشركونها معه وأعلى منها، فعليكم أن ترجعوا عن شرككم، وإلا دُقَّتْ عذاب الهزيمة في الدنيا. وكان المشركون يَسْخَرُونَ من النبي ﷺ قائلين: إننا نسمع منذ زمن أن العذاب نازل علينا، فأين هذا العذاب؟ ائْتِنَا به إن كنت صادقاً، وعليه قال لهم النبي ﷺ: إن وقت نصر الله تعالى لنا قريب للغاية، وهكذا بدأت سلسلة من العذاب على المشركين بدايةً من غزوة بدر، بحيث أن مكة فتحت في سنوات

قليلة، وقُضي على كلِّ أثرٍ للمشركين في جزيرة العرب.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾

٢- مَلَكُ الْوَحْيِ واحدٌ، وهو سيِّدنا جبريلُ الأمينُ عليه السَّلام، ولكنَّ بعضَ الملائكةِ الآخرينَ يكونونَ مع سيِّدنا جبريلَ عليه السَّلامُ عند نزوله ببعضِ الآياتِ، على أيِّ حال يُنزلُ اللهُ تعالى مَلَكَ الْوَحْيِ على عبده هذا الذي اختاره للنُّبوةِ.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾

٣- خَلَقَ اللهُ تعالى هذا الإنسانَ العظيمَ والجميلَ من قطرةٍ واحدةٍ من الماء، وهو أَفْضَلُ المخلوقاتِ كُلِّها وأشرفُها، كما أنه يَحْكُمُ المخلوقاتِ جميعًا بعقله وفراسته، فكان يجبُ على هذا الإنسانِ أن يتأمَّلَ في أصله، ويعترفَ بالمُحسِنِ الحقيقيِّ عليه، أي: يعترفَ بفضله، لكنَّ هذا الإنسانَ مخلوقٌ عجيبٌ جاحد، بحيث يجادلُ في المتفَضِّلِ الحقيقيِّ عليه، ويرتكبُ في حقِّه الكُفْرَ والشُّركَ، بدلاً من أن يؤمنَ به.

﴿وَالْأَنعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

٤- كُلُّ ما خَلَقَهُ اللهُ تعالى لفائدةِ الإنسان، فيصنَعُ من أوبارِ الحيواناتِ ملبسه الثَّقِيلَةَ، ومن جلودها يصنَعُ أحذيته، ويأكلُ لحومَ بعضها، وحين تزوِّج هذه المواشي وتجيءُ تكونُ سبباً في سعادةِ مالِكها وزينةً لطُرُقهِ، وتَحْمِلُ أمتعتكم على ظهورها، وتنقلُكم إلى المُدُن، بحيث لو أنكم اضْطُررتم إلى حَمْلِ هذه الأمتعةِ والأثقالِ بأنفسكم، لَشَقَّ عليكم ذلك، وهو تعالى أيضاً الذي خَلَقَ الخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيرَ التي تركبونها، كما أنه تعالى سيَخْلُقُ - مستقبلاً أيضاً - ما تركبونه ممَّا لا تعلمون

عنه شيئاً الآن، ومن ضمن هذه الأشياء: الطائرة، والسيارة، وكل ما يُركب ومُيسَّر لنا في أيامنا هذه، كما يشمل هذا كل ما سیتُم اختراعه مستقبلاً ممّا يُركب، ويصْبَح من الفَرَض على الإنسان أن يذْكَرَ كل هذه الأفضال من الله تعالى عليه، ويؤمن بالله الخالق الرحيم الحقيقي، ولا يعبد أحداً غيره.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايَزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

٥- لقد بيّن الله تعالى الطريقَ المستقيمَ للناس بكلِّ الدلائل والبراهين، وهو الطريق الذي يؤدّي بالناس إلى نيل رضا الله تعالى، لكن الشيطان استخرج من هذا الطريق طُرُقاً مُعَوَّجَةً أيضاً، ومن يقع في حبال الشيطان وخداعه، وتنزلق قدماه إلى طريقٍ مُعَوَّجٍ فإنه يضلُّ، ولو شاء الله تعالى لهدى الناس جميعاً جبراً، ولما ضلَّ أحدٌ منهم، ولكن إكراه أحدٍ على أمرٍ يتنافى مع حكمة الله تعالى.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَكَ مَوَازٍ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ بِالنِّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾

٦- أنزل الله تعالى لكم من السماء ماءً في صورة المطر، وهو الذي تشربونه، وتسقون منه مزروعاتكم وحدائقكم، ولو لم يوجد الماء لحاق الخطر بحياة الإنسان والحيوان والنبات، كما أن خلق أشياء مختلفة الطعم واللون من أرض واحدة وماء واحد، بمثابة الآيات التي يمكن من خلال تدبرها والتفكير فيها إدراك الخالق الحقيقي صاحب الحكمة العظيمة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

٧- جعل الله تعالى نظام هذا الليل وهذا النهار، وهذه الشمس وهذا القمر وهذه النجوم لفائدتنا ومصلحتنا نحن، وهو ليس في حاجة إليها، ولذا يصبغ من الفرض علينا أن نستعمل عقولنا، وأن نكون عباداً شاكرين لله المتفضل الحقيقي. ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

٨- ذكر الله تعالى في هذه الآية ثلاث فوائد للبحر، يعني: تأكلون لحوماً طازجةً في صورة السمك، وتستخرجون من أعماقه اللآلئ لتصنعوا منها الحلي وما تزينون به، وتنقلون بين مختلف البلاد من خلال شحن البضائع التجارية على السفن التي تسير فيه، وهو ما يجعلكم تحصلون على فضل الله تعالى، أي: على الرزق.

﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ وَانْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

٩- نصب الله تعالى الجبال في الأرض لحفظ توازنها، وهذه الجبال لا تمنع الأرض من الدوران، وإنما تجعلها لا تهتز ولا تتزلزل، ويعترف العلماء

المحدثون أَنَّ الجبالَ تمنعُ الزلازلَ إلى حدٍّ كبير^(١).

﴿وَعَلَّمَتِ وَيَالْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾

١٠- جعلَ اللهُ تعالى النُّجُومَ في السَّمَاءِ لكي تُرشدَ المسافرينَ ليلاً إلى تحديدِ الوجهةِ التي يتجهون إليها، وفي هذه الأرضِ وهذه السماءِ آياتٌ وعلاماتٌ لا تُحصَى، تأخذ بيدَ مَنْ يتأملُ فيها ويتدبَّرُها قليلاً إلى معرفةِ خالقه الحقيقيِّ.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

١١- الخالقُ الحقيقيُّ للكائناتِ كُلِّها هو اللهُ تعالى وحده، ولهذا فهو وحده أيضاً الذي يستحقُّ العبادةَ، ولا تليقُ العبادةُ إلا به سبحانه، ولا يمكنُ أن يعدله شيءٌ.

﴿وَأِنْ نَعَدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

١٢- في الآياتِ العشرةِ السابقةِ ذَكَرَ اللهُ تعالى بعضَ نِعَمِهِ، لكنَّ الحقيقةَ هي أَنَّ نِعَمَهُ كثيرةٌ لدرجةٍ أَنَّ حساباتنا لا يمكنُ أن تُحصيها، ولذا ينبغي للإنسانِ أن لا يجحدَ اللهُ تعالى الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ، وإنما يتوبُ إليه ويستغفره.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

١٣- اللهُ تعالى هو خالقُ الكائناتِ كُلِّها، بينما الأصنامُ التي يعبدُها مشركو مكَّةَ لا يمكنُها أن تخلقَ ولو شيئاً تافهاً بسيطاً، على العكس من ذلك، هذه الأصنامُ محتاجةٌ في وجودها وخلقها إلى الله تعالى، كما أنَّها جامدةٌ لا رُوحَ فيها، ولا تعلمُ أيضاً متى تقومُ الساعةُ؟ فمن كان مخلوقاً ومحتاجاً لا يستطيعُ أن يخلقَ شيئاً، ومن كان بلا رُوح وبلا علم، لا يستطيعُ أن ينصُرَ أحداً أو يهديه.

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۖ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٣﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۖ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾

١٤- الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة لله تعالى، ويظنون أنفسهم بسبب تكبرهم عظماء والآخرين حقيرين، ولا يتدبرون دعوة النبي الكريم ﷺ لهم، ولكن يجب أن يعلم أولئك المشركون أن الله تعالى يعلم الظاهر والباطن، وأنه لا يحب المتكبرين، كما أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطن الحق وغمط الناس»^(١)، وقال الله تعالى في «الحديث القدسي» فيما رواه النبي ﷺ من أن: «العز إزاره والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عدبته»^(٢).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾

١٥- يقول الإمام ابن جرير الطبري: «كانوا يقعدون بطريق من أتى نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاذا مر بهم أحد من المؤمنين يريد نبي الله ﷺ، قالوا لهم: أساطير الأولين، يريد: أحاديث الأولين وباطلهم»^(٣)، فهذا إذا ليس بالأمر الجديد، فلا تذهبوا إليه.

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٣٩ برقم ١٤٧.

(٢) مسلم، كتاب البر، باب ٣٨ برقم ٢٦٢٠.

(٣) تفسير ابن جرير الطبري.

وقد نزلت الآية الثانية ردًا على هذا، يعني: هؤلاء المشركون الذين يُضِلُّون الناسَ فيما يتعلَّق بالقرآن الكريم، ويمنعونهم من الدُّخول في الإسلام، سيكون عليهم يوم القيامة أن يحْمِلُوا وِزْرَ شُرِكِهِمْ بشكلٍ مؤكَّد، وفي نفس الوقت سيَحْمِلُونَ وِزْرَ عَدَمِ إيمان أولئك الذين لم يدخلوا في الإسلام بسبب تضليلهم إياهم، مثلما قال النبي ﷺ فيما رواه سيِّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»^(١).

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ * وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَدَّلَ كَيْدَهُمْ مِنْ أَنْ يَقُولُوا قَدْ فَخَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾

١٦- كان مشركو مكة مستغرقين ليلَ نهارٍ في الكَيْدِ للنبي ﷺ والتأمرِ عليه، وهذا ليس بالأمرِ الجديد، فقد تأمرتِ الأممُ السابقةُ ضدَّ أنبيائهم الكرام عليهم السلام، وأهلكهم الله تعالى بمؤامراتهم هذه، وأتاهم العذابُ من حيث لا يتوقعون أن يأتِيهم، ومثلهم كمثل القوم الذين بنوا مبنىً عاليًا، ثم سَقَطَ هذا المبنى فوق رؤوسهم، فهلك القومُ كُلُّهم، وبنفسِ الطريقة تأمر مشركو مكة على النبي ﷺ ليقتلوه، ولينفُوهُ من الأرض، لكن - في نهاية الأمر - انقلبت مؤامراتهم عليهم، فهلك بعضهم في الحروبِ والمعارك، ومن لم يُسلم من الباقين رَحَلَ عن مكة بعد أن فَتَحَهَا اللهُ تعالى على النبي ﷺ.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

١٧- ثم إنَّ الله تعالى سيُخْزِي المشركين ويُدِلُّهم يومَ القيامة، ويسألهم: أين ما كنتم تعبدون من دوني وتُشركونهم في عبادتي، وكنتم تحاربون المؤمنين بسببهم؟ عندئذٍ لن يستطيع المشركون جوابًا بسببِ خجلهم وندمهم، لكنَّ أهلَ العلم سيقولون لهم: لقد كنَّا في الدُّنيا ندعو إلى هذه الحقيقة، مبَّهينَ إلى أنَّ المشركين سيُصِيبُهُمُ الْخِزْيُ في الآخرة، واليومَ يرى الناسُ جميعًا أنَّ المشركين هم المستحقُّونَ الْحَقِيقِيُّونَ لِلدُّلِّ وَالْخِزْيِ، وسيواجهُ بعضُ أهلِ الإيمانِ الدُّلَّ يَوْمَئِذٍ بشكلٍ مؤقت، لكنَّ الْخِزْيَ الدائم سيُتلى به المشركونَ يقينًا.

﴿ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

١٨- الذين يُصِرُّونَ على شِرِكِهِمْ حتى آخِرَ لحظةٍ من حياتِهِمْ، يَرَوْنَ آثارَ وشواهدَ عاقبتِهِم الوخيمةَ حينَ يَأْتِيهِمْ مَلَكُ الموتِ وجماعتهُ ليقبِضَ أرواحَهُمْ، وعندئذٍ سيعتريهِمْ خوفٌ شديد، ويدَّعونَ أمامَ الملائكةِ التَّقوى والصَّلاحَ، بأننا لم نكنْ نَعْمَلُ سوءًا في الدنيا، وسيقولُ لهم الملائكةُ عندئذٍ: إنكم لا تستطيعون خِدَاعَ الله تعالى بكذبِكُم هذا؛ لأنه يَعْلَمُ تمامَ العِلْمِ أَعْمَالَكُم السيئةَ، ولهذا سَتَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ الآنَ لا محالةَ، وستُخلَدونَ فيها إلى أبدِ الأبدِينِ.

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾

١٩- في الفترة الأولى للإسلام عندما كان أحدُ المسافرين إلى مكَّةَ وعابري سبيلها يَسْأَلُ مشرَّكًا عن القرآن الكريم كان يقولُ له: إنه مجردُ حكاياتٍ كاذبةٍ عن السَّابِقِينَ، وحينَ يلتقي هؤلاءُ المسافرينَ المسلمينَ الأتقياءَ، ويسألونهم عن القرآن الكريم، كانوا يجيبونهم بأنَّ القرآنَ الكريمَ خيرٌ وصَلاحٌ كُلُّهُ، وهو يُعَلِّمُنَا أنَّ الذين يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ لهم الخَيْرُ في الدُّنيا، أي: يجتهدونَ في عملِ الصَّالِحَاتِ أملًا في الأَجْرِ الحَسَنِ، وفي الآخرةِ سيدْخُلُونَ الجَنَّةَ التي سيكونُ فيها كُلُّ ما تشتهي أنفُسُهُمْ، وكأنَّ الله تعالى قال: اعملوا في الدنيا ما نريدُ، وسنُحَقِّقْ لكم في الآخرةِ ما تريدونَ.

﴿الَّذِينَ نُوفِّهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

٢٠- السَّعْدَاءُ الَّذِينَ يَبْقَوْنَ حَتَّى آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِمْ مَبْرَأِينَ مِنَ الشَّرِكِ وَالرَّغَبَاتِ السَّيِّئَةِ، تُحْيِيهِمْ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ وَتُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ حِينَ تَأْتِيهِمْ، وَيُبَشِّرُونَهُمْ بِالْجَنَّةِ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ.

يقول محمد بن كَعْبِ الْقُرْظِيُّ: «إِذَا اسْتَنْقَعَتْ نَفْسُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَلِيَّ اللَّهِ! اللَّهُ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ يَقْبِضُ رُوحَ الْمُؤْمِنِ قَالَ: رَبُّكَ يُقَرِّتُكَ السَّلَامَ»^(١).

كم هو إنسانٌ سعيدُ الطَّالِعِ ذلك الذي حين يُفَارِقُ هذه الدُّنْيَا تستقبلُهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، وَيُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ السَّلَامَ. يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، أَنْعِمْ عَلَيَّ وَعَلَى كُلِّ مَنْ لَهُمْ عِلَاقَةٌ بِي بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ بِوَسِيلَةِ أَحِبَّائِكَ وَالْمَقْرَبِينَ إِلَيْكَ، آمِينَ، بِحَقِّ جَاهِ حَبِيبِكَ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ التَّحِيَّةُ وَالتَّسْلِيمُ.

يقول العلامة نور الدين الحلبى، عن الأيام الأولى لإسلام سيدنا بلال رضي الله عنه، وعن اللَّحْظَاتِ الْآخِرَةِ فِي حَيَاتِهِ: «فَكَانَ بِلَالٌ بِقَوْلِهِ: أَحَدٌ أَحَدٌ يَمْزُجُ مَرَارَةَ الْعَذَابِ بِحَلَاوَةِ الْإِيمَانِ. وَقَدْ وَقَعَ لَهُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا احْتَضَرَ وَسَمِعَ امْرَأَتَهُ تَقُولُ: وَاحْزَنَاهُ! صَارَ يَقُولُ: وَاطْرِبَاهُ، غَدًا أَلْقَى الْأَحَبَّ، مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ، فَكَانَ بِلَالٌ يَمْزُجُ مَرَارَةَ الْمَوْتِ بِحَلَاوَةِ اللَّقَاءِ»^(٢). كم هي ساعةٌ مباركةٌ وسعيدة، حين نلتقي بأحبابنا غداً، يعني: بِسَيِّدِنَا وَحَبِيبِنَا سَيِّدِنَا الْمُصْطَفَى ﷺ وَصَحَابَتِهِ الْكَرَامِ الْبَرَّةِ، وَكَأَنَّهُ هُنَا يَمْزُجُ مَرَارَةَ رَحِيلِ سَيِّدِنَا بِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِحَلَاوَةِ لِقَاءِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ.

(١) تفسير القرطبي.

(٢) السيرة الحلبية، ١: ٤٢٢.

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

٢١- لقد ظهر الحق واضحاً بالبراهين والأدلة المبيّنة، فلماذا لم يؤمن المشركون بالرغم من ذلك، هل ينتظرون أن تأتيهم ملائكة الموت، ويقبضوا أرواحهم، وتنتهي حياتهم، ويبتلوهم بعذاب البرزخ، أم هل ينتظرون أن ينزل عليهم عذاب من السماء يهلكهم ويدمرهم؟ ينبغي لهم أن يعتبروا من أحوال الأمم السابقة عليهم، حين أنذرتهم الأنبياء الكرام عليهم السلام بالعذاب من الله تعالى، لكنهم سخروا من الأنبياء عليهم السلام وقالوا: متى يأتينا هذا العذاب؟ إلى أن أحاط بهم فعلاً ومن كل جانب ذلك العذاب الذي كانوا يسخرون منه، ولم يظلمهم الله تعالى في هذا أبداً، وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم، وما هذا إلا نتيجة ومصير أعمالهم السيئة.

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

٢٢- كان مشركو مكة يدعون أنهم يشركون في بيت الله تعالى منذ قرون، ولو أراد الله تعالى لما أشركوا، ولما حرموا حيوانات حلالاً مثل البحيرة والسائبة، ويعلم

منه بهذا الشَّكل أنَّ الله تعالى يحبُّ شركَهم، ولو لم يحبَّه لَمَنَعَهُمْ من كلِّ هذا، وعليه قال الله تعالى: إن هذا ليس بالأمر الجديد، فقد ادَّعى المشركون من قبلهم أيضًا هذا الادِّعاء، لكنَّ ادِّعاءهم هذا ليس صحيحًا؛ لأنَّ الله تعالى مَنَعَ كلَّ أُمَّةٍ من الشُّرك، ولهذا أَرْسَلَ إليهم الرُّسُلَ الذين أَخْبَرُوهم أنْ يَعْبُدُوا الله الواحدَ الأحد، وواجبُ الرُّسُل هو أن يُبَيِّنُوا الحقَّ من الباطل بشكلٍ كامل، وقد أدَّوا هذا الواجب بكلِّ أمانةٍ فعلاً، ويبقى الواجب على هؤلاء أن يستعملوا عقولَهم، ويختاروا طريقَ الحق، والله تعالى لا يُجِبِّرُ أحداً على الهداية؛ لأنَّ هذا يتنافى مع حِكْمَتِهِ.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾

٢٣- أَرْسَلَ اللهُ تعالى رسولا إلى كلِّ قوم، حتى يُخَبِّرَهُمْ أنْ يَعْبُدُوا الله تعالى، ويتجنَّبُوا الشَّيْطَانَ، فالذين يتدبَّرونَ ما قاله الرُّسُلُ عليهم السَّلام، هداهم اللهُ تعالى إلى طريقِ الحق، أمَّا الذين كَذَّبُوا الرُّسُلَ عليهم السَّلام، تَرَكَهُمُ اللهُ في ضلالِهِم يعمَّهون، لهذا سَيرُوا في الأرض، وانظُرُوا كيف كانت عاقبةُ المكذِّبين.

﴿ إِن تَحْرِضْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾

٢٤- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، إِنَّكَ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ جميعاً، وتريدُ - برحمتِكَ الْفِطْرِيَّةَ - أن يؤمنَ المشركونَ جميعاً، لكنَّ الذين بَلَغُوا المَدَى في الضَّلَالِ منهم بسببِ عصيانِهِمْ وطُغيانِهِمْ لن يؤمنوا، ولهذا تَرَكَهُمُ اللهُ تعالى يَهيمونَ في ضلالِهِمْ مستغرقينَ فيه، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يُساعدَهُم في شيء.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾

٢٥- لا تستوعب عقول المشركين أن يموت الإنسان ويصير تراباً، ثم يبعث من جديد، ولهذا يُقسمون بأغلظ الأيمان مدَّعين أنه لن تقوم الساعة، وعليه نزلت هذه الآية بأن الساعة قادمة لا محالة؛ لأن كل فرقة في العالم في أيامنا هذه تدَّعي أنها على الحق، وأن الباقيين على الباطل، ولهذا لا بد أن يأتي يوم يتضح فيه الحق من الباطل، وعندها سيتيقن المنكرون أنهم كاذبون، وأن الحق هو ما قاله النبي الكريم ﷺ، وإن لم يأت يوم القيامة، فسيبقى الصالحون بغير أجر، والظالمون بغير عقاب، وشهداء الوطن والملة بغير ثواب، وهذا يتنافى مع حكمة الله تعالى.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

٢٦- الله تعالى قادرٌ مطلق، وحين يريد خلق شيء فإنه يقول له فقط: ﴿كُنْ﴾، فيكون الشيء، ويقول المفسرون: «هذا تقريب للأذهان، والحقيقة أنه تعالى لو أراد شيئاً لكان بغير احتياج إلى لفظ ﴿كُنْ﴾»^(١)، وإذا كان الله تعالى يستطيع أن يخلق الكائنات كلها بمجرد الإرادة، فهل يصعب عليه إحياء موتى البشر ثانية؟ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِّثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ

فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَتِحُوا ظِلِّهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآ أَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٠﴾

٢٧- أَوْقَعَ كُفَّارُ مَكَّةَ ظُلْمًا لَا حَدَّ لَهُ بِالْمُسْلِمِينَ، فَصَبَرُوا، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَهَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ، بَعْضُهُمْ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَالبعضُ الْآخَرُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أُولَئِكَ الْمُهَاجِرِينَ بِوَطْنٍ جَمِيلٍ يَانِعٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فِي صُورَةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَفِي النِّهَايَةِ أَنْعَمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِحُكْمِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا، أَمَّا أَجْرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ عَظِيمٌ، وَعِنْدَمَا كَانَ سَيِّدُنَا عُمَرُ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقْدُمُ الْعَطَاءَاتِ وَالْمِنْحَ لِلْمُهَاجِرِينَ أَيَّامَ عَهْدِ خِلَافَتِهِ كَانَ يَقُولُ: «خُذْ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهِ، هَذَا مَا وَعَدَكَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، وَمَا ادَّخَرَ لَكَ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآ أَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾» (١). لَيْتَ مُشْرِكِي مَكَّةَ كَانُوا يَعْلَمُونَ بِهَذَا الْأَجْرِ الْعَظِيمِ فِي الْآخِرَةِ، وَرَغِبُوا إِلَى الْإِسْلَامِ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

٢٨- كَانَ مِنْ بَيْنِ اعْتِرَاضَاتِ مُشْرِكِي مَكَّةَ عَمُومًا أَنَّهُ لِمَاذَا لَمْ يُرْسِلِ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكًا رَسُولًا؟ وَقَدْ جَاءَ الرَّدُّ عَلَى هَذَا الْاعْتِرَاضِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، بِأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ أَنَّهُ أَرْسَلَ كُلَّ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ رِجَالًا، وَإِذَا لَمْ تَكُونُوا تَعْرِفُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فَاسْأَلُوا عَالَمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَسَيُخْبِرُكُمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ جَاءَ ذِكْرُهُمْ مِنْ

الأنبياء عليهم السلام في كتبهم كانوا جميعاً رجالاً ومن البشر، وهذه حقيقةٌ بدهيةٌ أن تستفسروا من أهل العلم، وسيُخبرونكم بأن النبي يجب أن يكون إنساناً؛ لأنه لو أرسل الملك نبياً لكانت هناك صعوباتٌ جمةٌ في التفاهم معه، وفي العمل بما جاء به واتباعه، ويُعلم منه أيضاً: أن كل الأنبياء كانوا رجالاً، ولم تكن بينهم امرأة. ولمزيد من التفصيل في هذا الخصوص راجع الحاشية رقم ٢١ من سورة آل عمران (٣).

وَيُعلم من هذه الآية أيضاً: أن الذين لا يَعلمون الأحكام الإسلامية عليهم أن يسألوا أهل العلم ويعملوا بها، وهذا مبدأٌ بدهيٌّ يتم العمل به منذ عهد الصحابة الكرام وحتى اليوم، يعني: أن غير العلماء من الناس يستفتون العلماء ويعملون طبقاً لهذا، وهذا هو ما يُسمى التقليد، ولمزيد من التفصيل راجع الحاشية رقم ٩٣ من سورة النساء (٤)، والحاشية رقم ١٤١ من سورة المائدة (٥).

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴾

٢٩- يا أيها النبي الحبيب ﷺ، كما أرسلنا الرُّسلَ من قبلك بالبراهين الواضحة والكتب البينة، أنزلنا عليك أيضاً القرآن المجيد، لتبين أحكامه للناس بشكل واضح، حتى يتدبروه، ويصلحوا من أنفسهم.

يقول العلامة القرطبي: «فالرسول ﷺ مبينٌ عن الله عز وجل مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغير ذلك مما لم يُفصِّله»^(١)، ولهذا فإن التفسير الذي بينه النبي ﷺ للقرآن المجيد هو الموثوق به، وليس لأحدٍ آخر الحق في تأويل آية على غير ما جاء به النبي ﷺ؛ لأن ما جاء به النبي ﷺ هو المعيار والمقياس، ويمكن النقاش في سند حديث من الأحاديث، إن كان هذا الحديث ثابتاً بالفعل عن النبي ﷺ أم لا، لكن ما قاله النبي ﷺ لا يمكن أن يكون خطأً، ولو كان من الممكن

أن يكون كلامُ النبي ﷺ - لا سمحَ الله - خطأً، فإنَّ القرآنَ كلُّه سيكونُ خطأً، ونحن نؤمنُ أنَّ القرآنَ الكريمَ كلامُ الله تعالى، ودليلُه هو لسانُ رسولِ الله ﷺ فقط، إذ لم يُنزِّلْهُ اللهُ تعالى وجبريلُ الأمينُ علينا نحن.

وعن هذا اللسانِ المبارك يقولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وتأملُ هنا قولَ النبي ﷺ فيما رواه سيِّدنا عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما، حيث يقولُ سيِّدنا عبدُ الله: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَنْتَنِي قُرَيْشٌ، وَقَالُوا: تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَا؟ فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَوْمَأَ بِإصْبَعِهِ إِلَيَّ فِيهِ، وَقَالَ: «اكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ»^(١).

ما أعظمَ شأنَ لسانِ النبي ﷺ، فإذا نَطَقَ لم يكنْ إِلَّا بشيئينِ فقط: القرآنِ أو الحديثِ، ولا ثالثَ لهما، ولمزيدٍ من التفصيلِ عن الحديثِ والسُّنة راجعِ الحاشية رقم ١٧ من سورة آلِ عمران (٣).

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾

٣٠- لم يألُ مشركو مَكَّةَ جُهدًا في الكَيْدِ الوَضِيعِ والتَّأْمُرِ الْحَسِيسِ ضِدَّ الْإِسْلَامِ، وَهنا تَنْبِيهُ لَهِمْ، بِأَنَّكُمْ إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا عَنْ عِنَادِكُمْ وَطُغْيَانِكُمْ، فَلَا تَكُونُوا مَطْمَئِنِّينَ، إِذْ يُمْكِنُ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْكُمْ وَاحِدٌ مِنْ أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ هِيَ:

١- أَنْ تَبْتَلَعَهُمُ الْأَرْضُ وَيَغُوصُوا فِيهَا مِثْلَ قَارُونَ، وَمِثْلَمَا حَدَثَ مَعَ سُرَاقَةِ

ابن مالكٍ وقتَ هجرةِ النبي ﷺ، حيثَ خَرَجَ سُرَاقَةُ متَعَقِّبًا النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْهُ غَاصَتْ أَقْدَامُ فَرَسِهِ فِي الْأَرْضِ الصَّخْرِيَّةِ حَتَّى بَلَغَتْ بَطْنَهَا، وَارْتَفَعَ الْغَبَارُ كَالدُّخَانِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، فَخَافَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ وَتَوَسَّلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ وَيَسَامَحَهُ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَعُودُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ دُونَ أَنْ يَمْسَهُ بِسُوءٍ^(١).

٢- أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ مِنْ مَكَانٍ لَا يَتَوَقَّعُونَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مِنْهُ أَبَدًا، مِثْلَمَا جَاءَتْ هَزِيمَةُ الْمُشْرِكِينَ بِجَيْشِهِمُ الَّذِي بَلَغَ أَلْفًا، عَلَى يَدِ ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةِ عَشَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ مَا لَمْ يَكُونُوا يَتَصَوَّرُونَهُ.

٣- أَنْ يَنْهَمِكُوا فِيمَا يَقُومُونَ بِهِ يَوْمِيًّا، فَيَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ يَأْخُذُهُمْ، إِذْ أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ اللَّهَ تَعَالَى، مِثْلَمَا حَدَثَ فِي فَتْحِ مَكَّةَ، حَيْثُ أَصْبَحُوا أُسَارَى فِي مَدِينَتِهِمْ.

٤- أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ بِمَا يَعْتَرِيهِمْ مِنْ خَوْفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، مِثْلَمَا ضَاقَتِ الْأَرْضُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِمَا رُحِبَتْ، بِسَبَبِ زِيَادَةِ أَعْدَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَحَرَّمَ هَذَا الْخَوْفُ النَّوْمَ عَلَيْهِمْ، إِلَى أَنْ جَاءَ الْوَقْتُ الَّذِي اضْطُرَّ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ إِلَى الرَّحِيلِ عَنِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَيْوُا ظِلَّهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾

٣١- كُلُّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ مَخْلُوقَاتٍ تَتَّبِعُ أَوَامِرَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَحْكَامَهُ، وَخَاصَّةً ظِلُّ الْأَشْيَاءِ ذَاتِ الْأَجْسَامِ الْمَادِيَّةِ، إِذْ حِينَ تَتِمَّائِلُ يَمْنَةً

(١) «وقال أبو بكر رضي الله عنه: «وتبعنا سراقه بن مالك ونحن في جلدٍ من الأرض فقلت: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا. قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. فلما دنا منا وكان بيننا وبينه قدر رمحٍ أو رمحين، فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها فوثب عنها، ثم قال: يا محمد قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب». سبل الهدى والرشاد، ٢: ٣٥٤.

وَيْسْرَةً، تُقَدَّمُ مُشْهَدًا لِلشُّجُودِ، يُعَدُّ بِمِثَالِهِ دَرْسٌ عِبْرَةٌ لِلْمُتَكَبِّرِينَ مِنَ الْبَشَرِ، بِأَنَّ الْأَشْيَاءَ الْجَامِدَةَ وَظَلَّهَا سَاجِدَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي تَوَاضُعٍ جَمٍّ، بَيْنَمَا الْإِنْسَانُ الْمُتَكَبِّرُ مُسْتَغْرِقٌ فِي عَصْيَانِهِ لِلَّهِ تَعَالَى.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

٣٢- يُعَلِّمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مُعْصُومِينَ؛ لِأَنَّهُمْ مُقَيَّدُونَ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَمُلْتَزَمُونَ بِهِ.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا نَتَّخِذُ أَلِهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفْعَزَ اللَّهُ نَنْقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانْتَهُمُ فَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْهَا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا نَتَّخِذُ أَلِهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونَ ﴿٥١﴾﴾

٣٣- الْعِبَادَةُ لَا تَلِيقُ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى فَقَطْ، وَهُوَ وَاحِدٌ أَحَدٌ، وَاحِدٌ فَقَطْ، وَلَا يَوْجَدُ تَصَوُّرٌ لِأَكْثَرٍ مِنْ إِلَهٍ وَاحِدٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ فَقَطْ هُوَ مَالِكُ كُلِّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَلْزَمُ كُلَّ شَيْءٍ طَاعَتُهُ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَخْشَاهُ كُلُّ مَخْلُوقٍ.

﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْثَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾

٣٤- عندما كان الأذى يلحقُ بالمشرِكين كانوا يستغيثون بالله تعالى، وحين يرفعُ الله تعالى عنهم الأذى كانوا يُشركون به، مع أنه كان يجبُ عليهم أن يكونوا لله من الشاكرين، ولكن إن أصروا على جحودهم، فسوف يلقونَ في الآخرة بعد هذه الحياة القصيرة عذاباً أليماً. يقولُ المفسِّرين الإمامُ فخرُ الدِّين الرازي رحمه الله فيما يتعلَّقُ بهذه الآية: «في اليوم الذي كنتُ أكتبُ هذه الأوراقَ وهو اليومُ الأوَّلُ من محرَّم سنة اثنتين وستِّمئة حصلتْ زلزلةٌ شديدة، وهَدَّةٌ عظيمةٌ وقتَ الصُّبح، ورأيتُ النَّاسَ يَصِيحُونَ بالدُّعاء والتضرُّع، فلما سكَّنت وطابَ الهواء، وحسُنَ أنواعُ الوقت نُسوا في الحالِ تلكَ الزَّلزلةَ وعادوا إلى ما كانوا عليه من تلك السَّفاهة والجهالة»^(١).

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ثَالِثَ ثَلَاثٍ لِّسُلَّةٍ عَمَّا كُتِبَ تَفَرُّونَ ﴿٥٥﴾﴾

٣٥- كان المشرِكون يخصِّصونَ جزءاً من أموالِ حقولهم وتجارتهم في المواشي للأصنام، وكانوا يعتقدون أنَّ هذه الأصنامَ ستشفعُ لهم عندَ الله تعالى، مع أنه ليس لديهم أيُّ دليلٍ على هذا الادِّعاء، يثبتُ منه أنَّ الله تعالى - بالفعل - قد جعلَ من الأصنام شركاءَ له، وإنَّما كان هذا كُلُّه محضَ افتراءٍ على الله تعالى، وسوف يحاسبونَ عليه. ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشية رقم ١٢١ من سورة الأنعام (٦).

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٦﴾﴾

٣٦- كانت هناك قبيلتان من القبائل العربيَّة في شبه الجزيرة: قبيلة خُزاعة، وقبيلة كنانة، وكانتا تدَّعيان أنَّ الملائكةَ بناتُ الله!^(٢) مع أنَّ الله تعالى منزَّهٌ عن

(١) التفسير الكبير.

(٢) «نزلت في خُزاعة وكنانة؛ فإنهم زعموا أنَّ الملائكة بنات الله». القرطبي.

أن يكون له أولاد، كما أن هؤلاء كانوا يحبون الذكور لأنفسهم، وينفرون من الإناث، وفي نفس الوقت يجعلون لله البنات، كم هو ظلم منهم، وكلام لا يقبله عقل، بأن يثبتوا لله الشيء الذي لا يحبونه لأنفسهم.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾

٣٧- كان العرب في زمن الجاهلية لا يحبون الإناث، وإذا بُشِّرَ أحدهم بمولد أنثى يعمُ الحزن والألم على وجهه، ويعيشُ مختبئاً بعيداً عن الناس، ويُحدثُ نفسه إن كان سيُقي على هذه الأنثى التي أصابه بولادتها الإذلالُ حيَّةً، أم يدفنها في التراب، وكانت قبائلُ مضر وخزاعة وتميم تدفنُ إناثها أحياء^(١).

من الفضل العظيم للإسلام على المرأة أنه قضى على هذه العادة واقتلها من جذورها، بحيث أنه بعد الإسلام لا تجدُ مثلاً واحداً لدفن البنات أحياء.

الحالة البائسة للإناث في الجاهلية:

يقول قيسُ بن عاصم رضي الله عنه: إنه جاء إلى النبي ﷺ وقال له: إني وأدْتُ ثمانِي بناتٍ لي في الجاهلية، قال: «أعتق عن كلِّ واحدةٍ منها رَقَبَةً»، قلت: إني صاحبُ إبلٍ، قال: «اهدِ إن شئتَ عن كلِّ واحدةٍ منهنَّ بَدَنَةً»^(٢).

ويروى أن شخصاً قال: يا رسول الله، ما أجْدُ حلاوة الإسلام منذُ أسلمتُ، فقد كانت لي في الجاهلية ابنةٌ فأمرتُ امرأتي أن تُزَيِّنَهَا فَأَخْرَجْتُهَا إِلَيَّ فَانْتَهَيْتُ بِهَا إِلَى وَادٍ بَعِيدٍ الْقَعْرِ فَأَلْقَيْتُهَا فِيهِ، فقالت: يا أبتِ قتلتنِي، فكلَّمَا ذَكَرْتُ قَوْلَهَا لَمْ

(١) «وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حية، قال قتادة: كان مضر وخزاعة وتميم يدفنون البنات أحياء؛ وأشدهم في هذا تميم». القرطبي.

(٢) المعجم الكبير، ١٨: ٣٣٧ برقم ٨٦٣.

يَنْفَعْنِي شَيْءٌ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَدْ هَدَمَهُ الْإِسْلَامُ، وَمَا كَانَ فِي الْإِسْلَامِ يَهْدِمُهُ الْاسْتِغْفَارُ»^(١).

فضل الابنة في الإسلام:

١- عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا رآها (فاطمة رضي الله عنها) قد أقبلت رحّب بها ثم قام إليها فقبلها ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في مكانه^(٢).

٢- قال رسول الله ﷺ: «لَا تَكْرَهُوا الْبَنَاتِ، فَإِنَّهُنَّ الْمُؤَنِّسَاتُ الْغَالِيَاتُ»^(٣).

٣- قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَالَ جَارِيتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ» وَضُمَّ أَصَابِعَهُ^(٤).

٤- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ كَانَتْ لَهُ بِنْتُ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي أَسْبَغَ عَلَيْهِ، كَانَتْ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(٥).

٥- يقول العلامة إسماعيل حقي: «وفي الشريعة: ويزداد فرحًا بالبنات مخالفةً لأهل الجاهلية»^(٦).

(١) التفسير الكبير.

(٢) الأدب المفرد، الإمام البخاري، ٢٧٨.

(٣) مسند أحمد، ٤: ١٥١.

(٤) مسلم، كتاب البر، باب ٤٦ برقم ٦٦٩٥.

(٥) حلية الأولياء، ٥: ٦٧ برقم ٦٣٤٨، وكنز العمال، ١٦: ٤٥٢ برقم ٤٥٣٩١.

(٦) تفسير روح البيان.

ولا تزال في بعض الناس جهالة من مثل هذا، بمعنى: أن الرجل يحب المرأة باعتبارها زوجة، ولا يحبها باعتبارها ابنة، لكنه لا يفكر بأن زوجته في نهاية الأمر إنما ابنة لأحد من الناس، ولو قضينا على وجود الابنة فلن تكون هناك زوجة أصلاً، وبالتالي لن تكون هناك ذرية وتسلسل في النسل، ولهذا فإن كراهية الابنة ليست إلا حماقة ومخالفة للفطرة، ولأن الإسلام دين الفطرة، لهذا لا مجال فيه للتفرقة بين الابنة والزوجة.

ولو أن الابنة مخلوق غير مرغوب فيه، لما ولدت البنات عند الأنبياء الكرام عليهم السلام، وقد كان لسيد الأنبياء ﷺ أربع بنات، وهو الذي قال: «لا تكثرهن البنات، فإنني أبو البنات»، كما أنه ﷺ قال: «من بركة المرأة تكثرها بالبنات»، أي: يكون أول ولدها بنتاً، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿يَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَرَ﴾، حيث بدأ بالإناث؟^(١)، ثم بعد ذلك يأتي البنون.

حكاية ابن:

لو رزق أبوان بابنة، لا داعي لأن يُصيّبهم الإحساسُ بالنقص، إذ إن هذه الابنة ستكبر وتُسعدُ والديها، بحيث لو كان مكانها ابنٌ، لربما لم يُسعدَهما مثلها، لصديقي ابنٌ، جاء إلى بريطانيا وسلك الطريقَ الخطأ، وهو ما كان سبباً للخجل الشديد لو والديه، وذات يوم قال لي والده: يا سيد بيرزاده، إن لنا ابناً وأحداً، والباقي بنات، وحين وُلد هذا الابن احتفلنا بمولده وسعدنا به كثيراً، وورعنا الحلوى على الناس أيضاً، ولكن أفعاله اليوم تُخرجنا غاية الخجل، بحيث يثور داخل قلوبنا صوتٌ يقول: ليتَه لم يولد، لكننا اليوم أسعدُ حالاً بدونه.

حكاية ابنة:

على العكس من الابن سابق الذكر، استمع إلى قصّة ابنة، جعلتها أمانتها وتدنيها زينة لبنت الخليفة وهي ابنة بيت فقير، وأصبحت هذه الابنة محلّ فخر واحترام وتكريم لوالديها، بل وللأسرة كلّها، والقصّة فحواها أنه: «لما كان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يعسّ في دروب المدينة ليلاً، فسمع الحوارَ بين الأمّ التي تأمرُ ابنتها بخُلطِ الماء بالحليب، والبنتُ التي تقولُ لأُمّها: أما سمعتِ عمرَ ينهى عن خُلطِ الماء بالحليب؟ فقالت الأمّ: وهل عمرُ يرانا الآن؟ فأجابتها البنتُ: إذا كان عمرُ لا يرانا، فإنّ ربَّ عمرَ يرانا - (ما أعظمَ هذه الابنة!) - وعندها وَضَعَ عمرُ علامةً على هذا البيتِ ثم ذهب إلى أبنائه، فسألهم عَمَّن يَرغبُ في الزّواج، وزوّجَ (ابنه عاصمًا رضي الله عنه) من هذه الفتاة، فأخرج الله من نسل هذه الفتاة، الخليفة الراشدُ عمرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه وأثمر ورعُ هذه الفتاة، وتقواها، ورعًا وتقوى، وخوفًا من الله تعالى، ومراقبةً له، عند حفيدها عمرُ بن عبد العزيز»^(١)، وهو الخليفة الذي تفخّره الأمة المسلمة حتى اليوم.

ندعو الله تعالى أن يرزقَ الجميعَ مع البنين بناتٍ عفيفاتٍ طاهراتٍ مُنصفاتٍ كهذه، آمين، ولهذا لا يليقُ بأيّ أبٍ أو أمٍّ أن تفضّلَ ابنها على ابنتها أبدًا، فمن يدري من منهما سيكونُ خيرًا لوالدّيه؟

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

٣٨- كان من صفات المشركين السيئة أنهم كانوا يكرهون الإناث، ويدفنونهنّ أحياء، والصفة السيئة الثانية أنهم كانوا يكرهون لأنفسهم البنات، وفي نفس الوقت يُشبتون لله البنات، وكانت هذه صفات سيئة للمشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة.

على أي حال، صفات الله تعالى في غاية الرِّفعة والعظمة، وهو منزّه عن كل عيبٍ وضعفٍ ونقصٍ.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿١١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَإِنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿١٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَآلِهِمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٥﴾

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

٣٩- قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال النبي ﷺ: «كلُّ ابنِ آدمَ خطّاءٌ، وخيرُ الخطّائينَ التّوابون»^(١)، ويُعلّمُ منه أنّ عددَ الظالمينَ كبيرٌ، وأنه ليس هناك إنسانٌ معصوماً من الخطأ.

فإذا عاقب الله تعالى المخطئين والظالمين في هذه الدنيا عقاباً فورياً، فإنّ الأقلّيّة الشاكرة سيُقضى عليها من هذه الدنيا كنوع من الابتلاء، جنباً إلى جنبٍ مع الأكثرية التي سينزل عليها العذابُ، وهكذا لا تبقى هناك ضرورةٌ لحيوانٍ؛ لأنها خلقت لفائدة الإنسان، كما لن تكون هناك ضرورةٌ لأنبياءٍ؛ لأنهم يُرسلون لهداية الإنسان، وحين لن يبقى الإنسان نفسه، فلا حاجةٌ عندئذٍ للأنبياء عليهم السّلام، وبالتالي ستخلو الأرضُ من الإنسان والحيوان، لكنّ حكمة الله تعالى اقتضت

إمهال الناس لوقتٍ محدّد، حتى يُصلِحوا من أنفسهم، فإن لم يُصلِحوا أنفسهم، فمن الممكن أن يولّد من أصلا بهم عبادٌ شاكرون، إلا أنه إذا حان الوقت المحدّد لعذابِ الظالمين، فلا يمكنُ التقديم أو التأخير فيه عندئذٍ.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾

٤٠- كان المشركون يدّعون أن الله تعالى بناتٍ، مع أنهم لم يكونوا يحبّون لأنفسهم البناتِ، أمّا ادّعاؤهم الثاني فهو أنه على فرض أن الساعة قامت، فإننا أيضًا سنكون مستحقّين للجنة وللخير، كما أننا مستحقّون للخير في الدنيا. وفي هذه الآية إبطال لما يدّعيه المشركون، والتأكيد على أنهم كاذبون، ولهم في الآخرة جهنّم وبئس المصير، وسيكونون أول الداخلين فيها.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَليَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٤١- كان النبي ﷺ يحزن من تصرّفات مشركي مكّة التافهة، وسلوكهم الدّنيء، وفي هذه الآية يُسرّي الله تعالى عن قلب النبي ﷺ، بأن الشيطان قد زَيّن للأمم السابقة أيضًا أعمالهم السيئة، وجعلهم يخالفون أنبياءهم الكرام عليهم السّلام، وبنفس الطريقة فإن الشيطان وليّهم اليوم، وقد زَيّن للمشركين سوء عملهم، فلا تغتم ولا تحزن أيّها النبي الكريم ﷺ، فسوف يفشل هؤلاء كما فشلت الأمم السابقة، ولهم في الآخرة عذابٌ أليم.

﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

٤٢- كان المشركون واليهود والنصارى على اختلافٍ فيما بينهم فيما يتعلّق بالدين، وكان كلُّ فريقٍ منهم يدّعي أنه على الحقّ، وأن الآخرين على باطل، وعليه

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، لقد أنزلنا عليك القرآن الكريم لَتَبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَنَّ الْحَقَّ هُوَ مَا جَاءَ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ هَدَايَةُ كُلِّهِ وَرَحْمَةٌ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ سِوَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ فَقَطْ.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

٤٣- الَّذِينَ يَسْمَعُونَ هَذِهِ الْآيَةَ بِتَمَعْنٍ يَجِدُونَ فِيهَا دَلِيلًا عَلَى عَمَلِيَّةِ الْبَعْثِ، بِمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ الَّذِي يَجْعَلُ مِنَ الْأَرْضِ الْجَذْبَاءِ الْبُورِ أَرْضًا خَضِرَاءَ يَانِعَةً، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْإِنْسَانَ الْمَيِّتَ ثَانِيَةً.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ۖ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿١٦﴾
وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ ۚ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُنَوِّفُكُمْ ۖ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ۖ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾

٤٤- الْمُرَادُ بِالْأَنْعَامِ هُنَا: الْبَقَرُ وَالْجَامُوسُ وَالْجِمَالُ وَالْأَغْنَامُ، أَيِ: الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تُعْطَى لَبْنًا، إِذْ عِنْدَمَا يَدْخُلُ الْعَلْفُ فِي بُطُونِهَا، يَتَحَوَّلُ جُزْءٌ مِنْهُ إِلَى رَوْثٍ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا فِي شَكْلِ فَضَلَاتٍ، وَجُزْءٌ آخَرُ يَتَحَوَّلُ إِلَى دَمٍ يَدُورُ فِي الْجِسْمِ كُلِّهِ، بَيْنَمَا يَتَحَوَّلُ جُزْءٌ ثَالِثٌ إِلَى لَبَنِ نَشْرَبُهُ نَحْنُ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ وَجُودَ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةٍ وَمتضادةٍ مِنْ جِسْمٍ وَاحِدٍ وَغِذَاءٍ وَاحِدٍ لَهُوَ آيَةٌ عَظِيمَةٌ وَعِبْرَةٌ لِمَنْ يَعْتَبِرُ، وَتَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾

٤٥- بيني نحل العسل عُشَّهُ وأقراصه في الجبالِ وفوق الأشجارِ والأماكن المرتفعة، ثم بعد أن يمتصَّ هذا النحلُ رحيقَ الأزهارِ يطيرُ بعيدًا في أعالي السماءِ وفوق الطُّرُقِ المفتوحة، لكنّه لا ينسى الطريقَ إلى أعشاشه أبدًا، حيث يعودُ إليها ثانيةً، ويُخرج من جسمه عسلًا رائع المذاق فيه شفاءٌ للناس.

فإذا تأملنا في هذه العملية كلها: بدايةً من امتصاصِ رحيقِ الأزهار وحتى تكوينِ العسل وإخراجه، لَوَجَدَ أصحابُ العقول فيها آيةً عظيمةً على قدرةِ الله تعالى، فقد جعلَ الله في جسدِ هذا النحلِ مصنعًا فطريًا طبيعيًا يُحوِّلُ رحيقَ الأزهارِ إلى عسل مصفًى، وكان النبي ﷺ يحبُّ العسلَ كثيرًا، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان النبي ﷺ يُعَجِّبُهُ الحَلْوَاءُ والعسلُ^(١).

في العسل شفاء لأمرض عدة:

يقول سيّدنا أبو سعيد الخُدري رضي الله عنه: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه. فقال: «اسقِه عسلًا». (فسقى الرجل أخاه عسلًا، لكنَّ الإسهالَ لم ينتهِ، بل على العكس ازداد) ثم أتى الثانية فقال: «اسقِه عسلًا». ثم أتاه الثالثة فقال: «اسقِه عسلًا». ثم أتاه فقال: فعلتُ. فقال: «صَدَقَ الله، وكذَّبَ بطنُ أخيك، اسقِه عسلًا». فسقاه فبرأ^(٢).

العلاج بالعسل:

١- عن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لكلِّ داءٍ دواءٌ،

(١) البخاري، كتاب الطب، باب ٤ برقم ٥٦٨٢.

(٢) البخاري، كتاب الطب، باب ٤ برقم ٥٦٨٤.

فإذا أصاب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل^(١).

٢- عن أسامة بن شريك، قال: أتيت النبي ﷺ وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير (أي: صامتين تمامًا) فسلمت ثم قعدت، فجاء الأعراب من ها هنا وها هنا فقالوا: يا رسول الله، أنتداوى؟ فقال: «تداؤوا، فإن الله عز وجل لم يضع داءً إلا وضع له دواءً غير داءٍ واحدٍ: الهرم»^(٢).

٣- عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواءً، فتداؤوا، ولا تداؤوا بحرام»^(٣)، بمعنى: أنه إذا كان الدواء الحلال للداء موجوداً، وكذا الدواء الحرام، فلا ينبغي أن نتداوى بالدواء الحرام، أما إذا لم يكن الدواء الحلال موجوداً، فيجوز التداوي به من الأمراض المهلكة.

٤- عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ استعط^(٤).

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

٤٦- بعد أن بين الله تعالى الآيات الخارجة على القدرة، وجّه الإنسان إلى التفكير والتدبر في نفسه، أي: أن الله تعالى خلق الإنسان، ثم هو الذي يُميته، ويرُدُّ بعض الناس في هذه الدنيا إلى أَرْدَلِ العُمُر، حيث يفقد حواسه ووعيه، وينسى في هذه الشيخوخة المتقدمة الأشياء التي كان يعرفها جيّداً من قبل، والله تعالى هو الذي أحدث كل هذه التغيرات؛ لأنه القادر المطلق.

(١) مسلم، كتاب السلام، باب ٢٦ برقم ٢٢٠٤.

(٢) أبو داود، كتاب الطب، باب ١ برقم ٣٨٥٥.

(٣) أبو داود، كتاب الطب، باب ١١ برقم ٣٨٧٤.

(٤) أبو داود، كتاب الطب، باب ٨ برقم ٣٨٦٧.

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
 وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ
 وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾
 ﴿٧٥﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ
 يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ
 اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا
 يُوْجَّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾
 ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا
 مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٨﴾

٤٧- من أعطاه الله تعالى وفرة في المال، لا يُعطي مَنْ مَلَكَتْ يَمِينُهُ من
 المال ما يجعلهم متساوين معه في الثراء، فإذا كنتم لا ترضون أن تُشركوا عبيدكم
 في أموالكم، فكيف تُشركون مخلوقًا مع الله تعالى، أليس هذا جحودًا لِنِعْمِ اللَّهِ
 تعالى، بأنكم تُثبِّتون لله تعالى ما لا تحبُّونه لأنفسكم؟

﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً
 وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٨٠﴾

٤٨- أنعم الله تعالى عليكم بالأزواج والأطفال والرِّزقِ الحلال، ومع ذلك
 تتركون الله تعالى وتعبدون غيره، وهي آلهة لا تملك القدرة على أن تَرْزُقَكُمْ، أليس
 هذا عبادة للباطل؟ من المؤكَّد أن عبادة الباطل بمثابة جحود لِنِعْمِ اللَّهِ تعالى.

﴿فَلَا تَضُرُّوْا اللّٰهَ الْاَمْتَالَ﴾

٤٩- أي: لا تشركوا بالله ولا تعدلوا معه أحدًا؛ لأنه تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

﴿ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٥٠- في هذه الآية بيّن الله تعالى مثالًا لشخصين، أحدهما: عبدٌ لا يستطيع أن يفعل شيئًا بمحض إرادته ورغبته، والآخر: حرٌّ أنعم الله تعالى عليه بالمال والثروة، وهو يُنفقُ منه سرًّا وعلانيةً لیساعد الناس، ورغم أن هذين الشخصين بشر، وكلاهما إنسان، لكنهما لا يتساويان، وبالتالي كيف تستوي المخلوقات العاجزة التي تعبّدونها مع الله تعالى القادر المطلق خالق كل شيء؟ الحقيقة أن المستحق لكل ثناء هو الله تعالى فقط، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

﴿وَضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

٥١- في هذه الآية بيّن الله تعالى مثالًا لشخصين آخرين، أحدهما: أبكمٌ لا فائدة منه، ويمثّل عبداً على سيّده، والآخر يسير على الطريق المستقيم، يفيد الناس بالعدل والإنصاف، فإذا كان هذان لا يستويان، فكيف يستوي الكافر مع المؤمن، وكيف يتساوى الخالق مع المخلوق؟

وَلِلّٰهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ
اللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا

وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى جِئِينَ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

٥٢- الله وحده هو الذي يَعْلَمُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ولا يُمكنُ لِإنسانٍ أن يَعْلَمَ هذا الغيبَ معتمداً على عقله وحواسه، لكنَّ مَنْ يَخْتَارُهُ اللهُ تعالى يُعْطِيهِ من هذا العلمِ بقدرِ ما يشاء، فهو أمرٌ متوقَّفٌ على إرادته سبحانه وتعالى. ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشية رقم ١٢٥، ١٢٦ من سورة آل عمران (٣)، والحاشية رقم ١٣٧ من سورة المائدة (٥)، والحاشية رقم ٤٣، ٥٥، ٥٨ من سورة الأنعام (٦)، والحاشية رقم ١٠٦ من سورة الأعراف (٧).

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

٥٣- قبل أن تقوم الساعةُ ستفنى هذه الأرضُ وهذه السَّماءُ، بل والكائناتُ كُلُّها، وقدرةُ الله تعالى العظيمةُ ليست في حاجةٍ إلى جيوشٍ وكتائبٍ لكي تُفنى هذه الكائناتُ كُلُّها، وإنما تُفنىها في أقلِّ من طَرْفَةِ عَيْنٍ بمجردِ الإرادةِ ليس إلا، وهو تعالى القادرُ المطلق، وينبغي أن نخشى عذابه، وأن نعبده.

وكما أنَّ الساعةَ تقومُ في أقلَّ من طَرْفَةِ عَيْنٍ، كذلك يأتي الموتُ في أقلَّ من طَرْفَةِ عَيْنٍ، ولذا ينبغي للإنسان أن يعملَ على إصلاح نفسه بأسرع ما يمكن، فقد يأتيه الموتُ قبلَ ذلك، وحينها لن يكونَ هناك سوى الندم، وحينها أيضًا لن ينفعَ الندمُ بشيء.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

٥٤- حين يولد الإنسان من بطنِ أمِّه لا يكونُ على علمٍ بأيِّ شيء، وقد أنعم الله تعالى على هذا الإنسان بالأذنين والعينين والقلبِ حتى يشكرَ الله تعالى، بمعنى: أن يستعملَ هذه النعمَ في طاعةِ الله تعالى، واسأل المحرومَ من السَّمعِ والبصرِ عن قيمةِ هذه النعمِ وعن قدرها، وكم تحيطُ به المشاكلُ بسببِ فقدانها؟

﴿الْمَرِيرُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

٥٥- خلقَ الله تعالى أجسادَ الطيور وريشها بطريقةً تجعلها متمكنةً من الطيران في الفضاءِ دونَ أن تسقطَ على الأرض، وقد تفكَّر العلماءُ التجريبيُّونَ في الطيورِ وتأملوها، واستَوْحَوْا منها فكرةَ الطائرة وصنعوها، ويعلمُ الله كم من الاختراعاتِ سيظهرُ مستقبلًا، ليت أهلُ الإيمانِ أيضًا يتدبَّروا في هذه الآياتِ ويتفكَّروا فيها.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثَالًا إِلَى حِينٍ﴾

٥٦- وفقَّ الله تعالى الإنسانَ إلى بناءِ بيته المستقلِّ من الأحجارِ والطِّينِ، وإلى صناعةِ خيامه من جلودِ الأنعام، حيث يسهلُ استخدامها في السَّفرِ والحَضَرِ، كما

وَفَقَّهَ اللَّهُ تَعَالَى كَذَلِكَ إِلَى تَدْبِيرِ احتِجَاجَاتِهِ الصَّرُورِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْحَيَاةِ مِنْ أَوْبَارِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ وَمِنْ الصُّوفِ وَالْحَرِيرِ أَيْضًا، وَلَكِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ يَسْتَطِيعُ الْإِسْتِفَادَةَ مِنْ كُلِّ هَذِهِ النَّعْمِ لِفَتْرَةٍ مُحَدَّدَةٍ فَقَطْ، وَفِي النِّهَايَةِ سَيَمُوتُ هَذَا الْإِنْسَانُ ذَاتَ يَوْمٍ، وَسَيُحَاسِبُهُ اللَّهُ تَعَالَى خَالِقَهُ الْحَقِيقِيَّ عَنْ كُلِّ هَذِهِ النَّعْمِ.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾

٥٧- خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْإِنْسَانِ الظِّلَّ لِلْحِمَايَةِ مِنَ الْحَرِّ، وَوَقَّعَهُ إِلَى صِنَاعَةِ الْمَلَابِسِ لِلْوَقَايَةِ مِنَ الْقَيْظِ وَالْبَرْدِ، وَجَعَلَ فِي الْجِبَالِ الْغَارَ وَمَا شَابَهُهُ لِلْوَقَايَةِ مِنَ الْمَطَرِ، وَوَقَّعَهُ إِلَى صِنَاعَةِ الدُّرُوعِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَدِيدِ لِلْوَقَايَةِ مِنْ ضَرَبَاتِ الْأَعْدَاءِ فِي مِيْدَانِ الْحَرْبِ، وَهَكَذَا هَيَّاَ اللَّهُ تَعَالَى أَسْبَابًا لَا حَصَرَ لَهَا لِتَلْبِيَةِ كُلِّ ضَرُورَاتِ الْإِنْسَانِ، وَذَلِكَ لِكِي يَشْكُرَ هَذَا الْإِنْسَانُ رَبَّهُ عَلَى هَذِهِ النَّعْمِ، وَلِيَكُونَ عَبْدًا مُطِيعًا لَهُ.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾

٥٨- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ، إِنْ لَمْ يُمْ مِنْ بَكَ الْمَشْرِكُونَ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ النَّعْمِ مِنِّي، وَبَعْدَ دَعْوَتِكَ الْوَاضِحَةِ لَهُمْ، فَلَا تَحْزَنْ وَلَا تَغْتَمَّ، فَقَدْ أَدَّيْتُ حَقَّ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، كَمَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ يَعْرِفُونَ نِعَمَ اللَّهِ جَيِّدًا، وَلَكِنَّهُمْ يَجْحَدُونَهَا بِسَبَبِ عِنَادِهِمْ وَصَلَفِهِمْ، وَالْعِنَادُ مَرَضٌ لَا عِلَاجَ لَهُ.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَقْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْنَبُونَ ﴾

٥٩- عندما يشهد كل نبي يوم القيامة على من كفروا به، بأنه دعاهم إلى التوحيد وأبلغهم رسالته، لكنهم كفروا به عامدين متعمدين، عندئذ لن يُسمح للمنكرين بالاعتذار بعد شهادة الأنبياء الكرام عليهم السلام هذه، فهي الشهادة الحتمية التي لا تقبل الإنكار، كما أنهم لن يمهّلوا ليتوبوا؛ لأن وقت التوبة انتهى بنهاية الدنيا، أما الآن فهو وقت الحساب والعقاب والثواب فقط.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

٦٠- عندما تلقى الملائكة بالظالمين في جهنم، ويشاهد الظالمون العذاب عملياً، فلن يكون لصراخهم واستغاثتهم أثر في تخفيف العذاب عنهم، كما أنهم لن يُعطوا فرصة للاستراحة من هذا العذاب، وإنما سيكون عذاباً مستديماً ومتواصلاً.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

٦١- عندما يرى المشركون يوم القيامة الشركاء الذين اخترعواهم من عند أنفسهم لله تعالى يقولون: يا ربنا، هؤلاء هم شركاؤنا الذين كنا نعبدُهم من دونك، فيُعطي الله تعالى هذه الأصنام القدرة على الكلام، فتَرُدُّ هذه الأصنام على المشركين قائلة: إننا لم نقل لكم أبداً أن اعبدونا، ولا يمكن أن نكون شركاء لله تعالى، ولئن أشركتمونا مع الله تعالى، فهذه عقيدتكم الفاسدة الكاذبة، وأنتم

المستولون عنها، ولا دَخَلَ لنا فيها. وحين تتَخَلَّى عن المشركين كلَّ وسائلهم الكاذبة، يخضعونَ أمامَ الله تعالى بكلِّ عجزٍ وانكسار، حتى يعفو عنهم ويغفر لهم، ولكن لا فائدة من التوبة يومَ القيامة.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾

٦٢- الذين كفروا، ومَنَعُوا الآخرينَ من الطريقِ المستقيم، لهم عذابٌ مضاعفٌ، واحدٌ بسببِ كفرهم، والآخرُ بسببِ إضلالهمُ الناسَ، ويُعلمُ منه أنه كما أنَّ في الجنةِ درجاتٍ مختلفةً من الأجرِ والثواب، كذلك في النارِ درجاتٌ مختلفةٌ من العقاب.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾

٦٣- لمعرفة تفسيرِ هذه الطائفة من الآية راجع الحاشية رقم ٩٨ من سورة

البقرة (٢).

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾

٦٤- هناك أقوالٌ مختلفةٌ في تفسيرِ هذه الطائفة من الآية:

١- «عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَتَنَوَّرِ الْقُرْآنَ، فَإِنَّ

فيه عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ»^(١).

٢- «أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: أَنْزَلَ اللَّهُ مِائَةً وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، أَوْدَعَ

عِلْمُهَا أَرْبَعَةً مِنْهَا: التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ، ثُمَّ أَوْدَعَ عِلْمَ الثَّلَاثَةِ الْفُرْقَانَ»^(٢)، ولهذا فإن القرآن الكريم جامع لعلوم كل الكتب السماوية هذه.

(١) تفسير الدر المنثور.

(٢) الإِتقان، الإمام السيوطي، ٤ : ٢٤.

٣- «حكى ابن سُرَاقَة في كتاب «الإعجاز»: ما شيءٌ في العالمِ إلّا وهو في كتاب الله»^(١).

٤- «قال ابن مسعود رضي الله عنه: قد بين لنا في هذا القرآن كلَّ علم وكلَّ شيء»^(٢)، ويقول العلامة ابن كثير: «وقول ابن مسعود أعمُّ وأشمل؛ فإنَّ القرآن اشتملَ على كلِّ علمٍ نافعٍ من خبرٍ ما سبق، وعِلْمٍ ما سيأتي، وحُكْمٍ كلِّ حلالٍ وحرامٍ، وما النَّاسُ إليه محتاجون في أمرِ دُنياهم ودينهم، ومعاشهم ومَعادِهِمْ»^(٣).

٥- «ما من شيءٍ إلّا يمكنُ استخراجُه من القرآنِ لمن فَهَمَهُ الله»^(٤)، مثلما قال سيّدنا الإمامُ عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وجهه: «جميعُ العِلْمِ في القرآنِ، لكنْ تقاصر عنه أفهامُ الرجال».

٦- بل إنه رُوي عن سيّدنا ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لو ضاع لي عقْالٌ بعيرٌ لوجدته في كتابِ الله تعالى»^(٥).

كيف يوجدُ بيانُ كلِّ شيءٍ في القرآن الكريم؟

يقول العلامة القرطبي: «ما تركنا في القرآن شيئاً من أمرِ الدِّينِ إلّا وقد دَلَّلنا عليه في القرآن، إمّا دلالةً مبينةً مشروحةً، وإمّا مُجَمَّلةً يُتَلَقَّى بيانها من الرّسول عليه الصّلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثَبَتَ بنصِّ الكتاب»^(٦).

(١) الإِتقان، الإمام السيوطي، ٤: ٢٥.

(٢) تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير الطبري.

(٣) تفسير ابن كثير.

(٤) الإِتقان، الإمام السيوطي، ٤: ٢٦.

(٥) تفسير روح المعاني، والإِتقان، ٤: ٢٦.

(٦) تفسير القرطبي، سورة الأنعام (٦): الآية ٣٨.

بمعنى: أنه إذا لم يكن حُكْمُ شيءٍ ما موجودًا صراحةً في القرآن الكريم، ويثبتُ بالسُّنَّةِ والإجماع أو القياس، فإنه يُعَدُّ أيضًا من حُكْمِ القرآن الكريم؛ لأنَّ هذه الوسائل الثلاثة (السُّنَّةُ، الإجماع، القياس) حُجَّةٌ في الإسلام طبقًا لدلالة القرآن الكريم. وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

١- «عن علقمة، قال: لَعَنَ عَبْدُ اللَّهِ الْوَاشِمَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمَغْيِرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ. فقالت أُمُّ يَعْقُوبَ: ما هذا؟ قال عَبْدُ اللَّهِ: وما لي لا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ، وفي كتاب الله؟ قالت: والله لقد قرأتُ ما بينَ اللُّوْحَيْنِ فما وجدته. قال: والله لئن قرأته لقد وجدته: ﴿وَمَاءَ أُنْثَى كَالْأُنْثَى فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]»^(١)، ويضيف عليه العلامةُ الألويسيُّ قائلاً: «قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: أما قرأتُ ﴿وَمَاءَ أُنْثَى كَالْأُنْثَى فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾؟ قالت: بلى. قال: فإنه عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد نَهَى عنه»^(٢)، ولهذا فإنَّ حُكْمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هو - بالأصل - حُكْمُ اللَّهِ تعالى.

٢- «عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال مرةً بمكة: سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ أَخْبِرْكُمْ عَنْهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فقبل له: ما تقولُ في الْمُحَرِّمِ يَقْتُلُ الزُّنْبُورَ؟ فقال الإمامُ الشافعي: ليس عليه شيءٌ، فقبل له: أين هذا الحُكْمُ في القرآن الكريم؟ فقال الإمامُ الشافعي: بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قال الله تعالى: ﴿وَمَاءَ أُنْثَى كَالْأُنْثَى فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾»^(٣)، وقال رسولُ الله ﷺ: «فمن أدركَ ذلكَ منكم فعليه بسُنَّتِي وَسُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»^(٤)، كما أنَّ

(١) البخاري، كتاب اللباس، باب ٨٤ برقم ٥٩٣٩.

(٢) تفسير روح المعاني.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٦ برقم ٢٦٧٦.

سَيِّدَنَا عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَدْ أَمَرَ الْمُحَرَّمَ بِقَتْلِ الزُّنْبُورِ^(١)، وَبِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ أَثْبَتَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى حُكْمَ الْخَلِيفَةِ بِالسُّنَّةِ، وَأَثْبَتَ السُّنَّةَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلِهَذَا فَإِنَّ حُكْمَ الْخَلِيفَةِ هُوَ بِالْأَصْلِ حُكْمُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

٣- يَقُولُ الْإِمَامُ الشَّيْخُ الشَّعْرَاوِيُّ: «وَنَذْكُرُ هُنَا أَنَّ الْإِمَامَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ حَدَّثَ عَنْهُ وَهُوَ فِي بَارِيسَ أَنَّ أَحَدَ الْمُسْتَشْرِقِينَ قَالَ لَهُ: أَلَيْسَ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ: ﴿مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ...﴾ [الأنعام: ٣٨]؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ لَهُ: فَهَاتِ لِي مِنَ الْقُرْآنِ: كَمْ رَغِيفًا يَوْجَدُ فِي أَرْدَبِ الْقَمْحِ؟ فَقَالَ الشَّيْخُ: نَسَأَلُ الْخَبَّازَ فَعِنْدَهُ إِجَابَةُ هَذَا السُّؤَالِ. فَقَالَ الْمُسْتَشْرِقُ: أَرِيدُ الْجَوَابَ مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي مَا قَرَطَ فِي شَيْءٍ، فَقَالَ الشَّيْخُ: هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ الَّذِي عَلَّمْنَا فِيْمَا لَا نَعْلَمُ أَنَّ نَسَأَلَ أَهْلَ الذِّكْرِ فَقَالَ: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]»^(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَنْ

(١) «عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه أمر أن يقتل المحرم الزنبور». روح المعاني.

(٢) تفسير الشعراوي.

عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

٦٥- قال الله تعالى في الآية السابقة عن القرآن الكريم: ﴿ تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾، وهذه الآية نموذجٌ لذلك، حيث جاء فيها بيانٌ لخلاصة تعاليم الإسلام كلها، مثلما يقول أهل العلم: «لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى»^(١)، وقال سيّدنا عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: «هذه أجمعُ آية في القرآن لخيرٍ يُمثَّل، ولشرٍّ يُجتَنَّب»^(٢)، بمعنى: أنه سواءً كانت العقيدة أم العمل، وسواءً كانت حقوقُ الله تعالى أم حقوقُ العباد، وسواءً كان أمراً فردياً أم جماعياً، وسواءً كان مسلماً أم كافراً، فقيراً أم غنياً، عليكم أن تتعاملوا مع الناس بالعدل والإحسان، ولا تتعاملوا مع أحدٍ بالفحشاء والمنكر والبغْي، فهذه إذاً بعضُ الألفاظ التي تشتملُ على الأمر بكلِّ شيء حسنٍ، والنهي عن كلِّ شيء سيئٍ، وربما لأجل هذا درج المسلمون منذ عهد السلف الصالح المبارك وحتى يومنا هذا على تلاوة هذه الآية في نهايةِ خطبة الجمعة وخطبة العيدين، وأولُ من شَمَلَ هذه الآية في الخطبة بشكل منتظم كان سيّدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

يقول سيّدنا عكرمة رضي الله عنه: «قرأ النبي ﷺ على الوليد بن المغيرة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ إلى آخرها، فقال: يا ابن أخي أعد! فأعاد عليه،

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) تفسير القرطبي.

فقال: والله إنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّ أصله لمُورِق، وأعلاه لمُثمِر، وما هو بقول بشر! ^(١).

الفرق بين العدل والإحسان:

العدلُ هو: جزاءُ حَسَنَةٍ بِمِثْلِهَا، والزيادةُ على ذلك: إحسانٌ، وبنفس الطريقة فإنَّ مجازاةَ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا: عدْلٌ، والعفوُ عنها: إحسانٌ، وكذلك مجازاةُ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ: إحسانٌ أيضًا، والأمنُ والسلامُ يَسُودُ المجتمعَ بالعدلِ، بينما يتولَّد الاحترامُ والتقديرُ في القلوبِ بالإحسان.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾

٦٦- جاء التأكيد في هذه الآية على الوفاء بالعهد، والمنع من النكوص عنه، بمعنى: أنهم حين تُعَاهِدُونَ الله تعالى أو إنسانًا ما على أمرٍ من الأمور، فلا تُفَكِّرُوا في مجرَّد النكوصِ عنه؛ لأنكم أَشْهَدْتُمُ الله تعالى على هذا العهدِ وقَطَعْتُمُوهُ على أَنْفُسِكُمْ بضمٍّ منه تعالى، والله يَعْلَمُ تمامَ العِلْمِ أَعْمَالَكُمْ، فإنَّ خالفْتُمُ عهدَكُمْ فلن تستطيعوا الإفلاتَ من العقابِ على ذلك.

يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما: عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «الغادرُ يُرْفَعُ له لواءٌ يومَ القيامةِ، يقالُ: هذه غَدْرَةُ فلانِ ابنِ فلانٍ» ^(٢).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ﴾

٦٧- كانت القبائلُ المختلفةُ تُبرِّمُ العهودَ فيما بينها في زمنِ الجاهليَّةِ، وكانت

(١) تفسير القرطبي.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ٩٩ برقم ٦١٧٧.

تَجْعَلُ مِنَ الْقَسَمِ عَلَى هَذِهِ الْعَهْدِ وَسِيلَةً لِلْخِدَاعِ، فَإِذَا رَأَتْ قَبِيلَةً مَا فَائِدَةٌ أَكْبَرَ لَهَا عِنْدَ قَبِيلَةٍ أُخْرَى، نَكَصَتْ عَلَى عَهْدِهَا مَعَ الْقَبِيلَةِ الْأُولَى، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُمْ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْفُوا بِعَهْدِهِمْ، وَأَلَّا يَكُونُوا مِثْلَ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْمَجْنُونَةِ الَّتِي تَغْزِلُ النَّسِيجَ طِيلَةَ النَّهَارِ، ثُمَّ تَنْقُضُ هَذَا الْغَزْلَ بِنَفْسِهَا عِنْدَ الْمَسَاءِ، وَتُمْزِقُ مَا نَسَجَتْ، فَتَضِيعُ بِذَلِكَ الْجَهْدِ الَّذِي بَذَلَتْهُ طِيلَةَ النَّهَارِ هَبَاءً، وَبِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ إِنْ خَالَفْتُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا عَهْدَكُمْ، فَلَنْ تُفْلِتُوا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى لَكُمْ؛ لِأَنَّهُ يَبْتَلِيكُمْ وَيَخْتَبِرُكُمْ عَنْ طَرِيقِ هَذِهِ الْوَعْدِ وَالْإِيمَانِ الَّتِي تَقْطَعُونَهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَسَوْفَ يَفْضَحُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمَلَأِ الْاِخْتِلَافَاتِ وَالْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُخَادِعُونَ مِنْ أَجْلِهَا.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

٦٨- الله تعالى قادرٌ مطلق، وإن شاء جَعَلَكم جميعاً أُمَّةً واحدة، لكنَّ حِكْمَتَهُ اقْتَضَتْ أَنْ يَتَرَكَّ مِنْ يَخْتَارُ مِنْكُمْ الْبَاطِلَ لِنَفْسِهِ وَبِرَغْبَتِهِ يَهْدِيهِمْ فِي ضَلَالِهِ، أَمَّا مَنْ يَطْلُبُ الْحَقَّ مِنْكُمْ لِنَفْسِهِ وَبِرَغْبَتِهِ، فَإِنَّهُ يَهْدِيهِ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ، وَلِهَذَا فَإِنْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ يَكُونُ مُسْتَوِلاً عَنْ أَعْمَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُجْبِرُ أَحَدًا عَلَى الْحَسَنَةِ وَلَا يَدْفَعُهُ إِلَى السَّيِّئَةِ.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

٦٩- أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، لَا تَحْتَثُوا فِي أَيْمَانِكُمْ مِنْ أَجْلِ مَصَالِحِ الْحُكْمِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَإِلَّا زَلَّتْ أَقْدَامُكُمْ وَانْحَرَفَتْ بِكُمْ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَسَيُسِيءُ الْكُفَّارُ الظَّنَّ بِالْإِسْلَامِ بِسَبَبِ حِنْثِكُمْ فِي أَيْمَانِكُمْ وَنَقْضِكُمْ لِعَهْدِكُمْ، وَيَمْتَنِعُونَ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ،

وبهذا تكونون قد أجرتم بنقضكم العهد من جانب، وصدّ الآخرين عن السير على طريق الحق، وفي نهاية الأمر ستواجهون مصيراً سيئاً.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا عَهْدَ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

٧٠- أي: لا تنقضوا عهد الله تعالى في مقابل مال الدنيا ومتاعها، فمهما كثر هذا المال وذلك المتاع، فهو قليل في مقابل الآخرة، كما أنّ هذا المال والمتاع فان، بينما نعم الله تعالى في الآخرة خالدة دائمة، والذين يصبرون على المصاعب التي تواجههم في سبيل الوفاء بالعهد سينالون الأجر الحسن جزاء صبرهم هذا.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

٧١- المؤمن الذي يعمل الصالحات، سواء كان رجلاً أم امرأة، يُنعم الله تعالى عليه بحياة طيبة طاهرة، بمعنى: أنه لو كان في فقر وعُسرة وصبر، فلديه الأمل في الأجر العظيم على صبره على كل هذا، وإن كان في رَغَدٍ من العيش وراحة البال فشكر، فلديه الأمل في الأجر العظيم أيضاً؛ لأن الله تعالى سيجزيه أجراً عظيماً في الآخرة على صبره وشكره، أما الذين يظنون خطأ أنّ المرأة لا قدّر لها في الإسلام، فعليهم أن يقرأوا هذه الآية بتمعن، فالله تعالى سيجزي كل واحد على أعماله، ولن يكون هناك تفریق بين الرجل أو المرأة في هذا المجال، فإن كانت الأعمال الصالحة للمرأة كثيرة، فستكون في الدرجة العليا من الجنة، وإن كانت الأعمال الصالحة للرجل قليلة، فسيكون في الدرجة الدنيا من الجنة.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

٧٢- من آداب تلاوة القرآن الكريم: أن تستعِذَ بالله من الشيطان الرجيم أولاً، فقراءة الاستعاذة قبل التلاوة سنة^(١)، ليحفظَ الله تعالى قارئ القرآن الكريم أثناء التلاوة والتدبر في معانيه من وسوسة الشيطان؛ لأنَّ الله تعالى أعطى الشيطان قدرةً لدرجة أنه يمكنه محاولة الوسوسة بها حتى في قلوب الأنبياء الكرام عليهم السلام، فمن نكون نحن بالنسبة لهم، مثلما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُمْ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾

٧٣- الذين آمنوا وتوكلوا على الله تعالى، لا يستطيع الشيطان أن يسيطر على قلوبهم، وإن تأثروا بوسوسته بشكل عارض، فإنهم يستعيذون بالله منه فور أن يشعروا بهذا، لكن الشيطان يسيطر على قلوب الذين يتخذون منه ولياً بأنفسهم، وبالتالي يُبتَلَوْنَ بالشرك بسبب إغوائه لهم.

ويعلم من هذه الآية أنَّ الله تعالى لم يعطِ الشيطان القدرة على أن يجبر الإنسان على شيء، وإنما يتبع الإنسان الشيطان بسبب خضوعه لرغباته النفسية وغفلته.

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّلسَّكَاتِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ

(١) «اتفق سائر الفقهاء على أن الاستعاذة سنة في الصلاة وغيرها». تفسير الخازن.

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ
بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ
اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنِّي رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ
بَعْدِ مَا فَتَنَّاوُا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾
﴿ وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ
مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

٧٤- عندما يَنْسَخُ اللهُ تعالى حُكْمًا، وَيُنْزِلُ مكانه حُكْمًا آخَرَ، يَعْلَمُ هو
حِكْمَتَهُ تمامَ الْعِلْمِ، يَقُولُ الْكَافِرُونَ: إِنَّكَ تَأْتِي بِهَذَا الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِكَ، وَلَوْ كَانَ
هَذَا كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى لَمَا كَانَتْ هُنَاكَ حَاجَةٌ إِلَى نَسْخِ حُكْمٍ فِيهِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ هَؤُلَاءِ
الْكُفَّارَ لَا يَعْلَمُونَ حِكْمَةَ النَّسْخِ، وَلِهَذَا يَعْتَرِضُونَ عَلَيْهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نَسْخٌ
فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، لَمَا كَانَتْ هُنَاكَ حَاجَةٌ إِلَى الزَّبُورِ بَعْدَ التَّوْرَةِ، وَلَا إِلَى الْإِنْجِيلِ
بَعْدَ الزَّبُورِ، وَلَا إِلَى الْقُرْآنِ بَعْدَ الْإِنْجِيلِ، وَلَكِنْ الْعَمَلُ بِالتَّوْرَةِ فَقَطْ يَكْفِي، وَلِهَذَا
فَإِنَّ النَّسْخَ لَيْسَ نَتِيجَةً غَفْلَةٍ أَوْ عَدَمِ عِلْمٍ، وَإِنَّمَا تَقْتَضِيهِ ظُرُوفُنَا الْمَتَغَيِّرَةُ. وَلِمَزِيدٍ
مِنَ التَّفْصِيلِ رَاجِعِ الْحَاشِيَّةَ رَقْمَ ٧٢ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢).

وهذا مثالٌ لِلنَّسْخِ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ فَتَأَمَّلْهُ.

جاء الْحُكْمُ فِي سُورَةِ الْمَزْمَلِ (٧٣)، وَهِيَ الَّتِي نَزَلَتْ فِي مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ قَبْلَ
الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَنْ نَقُومَ نِصْفَ اللَّيْلِ أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ قَلِيلًا فِي الصَّلَاةِ، وَلَكِنْ بَعْدَ فِتْرَةٍ

وَجِزَةٌ جَاءَ التَّخْفِيفُ فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ، أَيْ: نَقَوْمُ اللَّيْلِ بِقَدْرِ مَا نَسْتَطِيعُ، وَأَنْ نَقْرَأَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِقَدْرِ مَا نَسْتَطِيعُ، فَهُوَ يَكْفِي، وَانْتَهَى بِذَلِكَ الْإِلْتِزَامُ بِنَصْفِ اللَّيْلِ أَوْ أَقَلِّ مِنْهُ أَوْ أَكْثَرَ قَلِيلًا، وَقَدْ أَظْهَرَ الصَّحَابَةُ الْكَرَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا فِي تَنْفِيزِ الْحُكْمِ الْأَوَّلِ، وَفِي اتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ النَّشَاطِ وَالْحِمَاسِ وَالْإِخْلَاصِ بِمَا يُعَدُّ مِثَالًا عَظِيمًا لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَقَدْ كَانُوا حَرِيصِينَ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ مُلتَزِمِينَ بِهِ بِصُورَةٍ كَانَتْ أَقْدَامُهُمْ تَتَوَرَّمُ مَعَهَا، وَتَصَفَّرُ وَجُوهُهُمْ ضَعْفًا، حَتَّى وَإِنْ كَانُوا عَلَى سَفَرٍ أَوْ يَعَانُونَ مَرَضًا.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾

٧٥- قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي تَظُنُّونَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِي، إِنَّمَا هُوَ - فِي الْحَقِيقَةِ - لَيْسَ كَلَامِي، بَلْ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى جَاءَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ سَيِّدُنَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَتْ الْحِكْمَةُ فِي نَزُولِهِ تَدْرِيجِيًّا وَالنَّسْخُ فِيهِ طَبَقًا لِلظُّرُوفِ هِيَ أَنْ يَسْهُلَ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ فَهْمُهُ وَحِفْظُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَأَنْ يَثْبُتُوا بِصُدُورٍ مَنْشُورَةٍ عَلَى الْحَقِّ.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِمَا نَزَّلْنَا بِأَمْرِنَا وَإِلَيْهِ عَاجِمُونَ﴾
وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿

٧٦- كَانَ مُشْرِكُو مَكَّةَ كَثِيرًا مَا يَتَّهِمُونَ النَّبِيَّ ﷺ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَحِينَ كَانَ يُقَالُ لَهُمْ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُمِّيٌّ! وَلَمْ يَقْرَأْ أَوْ يَكْتُبْ أَيْ كِتَابٍ طِيلَةً الْأَرْبَعِينَ سَنَةً الْأُولَى مِنْ عُمُرِهِ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُهُ إِعْدَادُ كِتَابٍ بِهَذَا الْقَدْرِ الْعَظِيمِ مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ؟ كَانُوا يَقُولُونَ: لَا بَدَّ أَنْ رَجُلًا يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ، وَعِنْدَمَا كَانُوا يُسْأَلُونَ: مَنْ هُوَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي يُعَلِّمُهُ؟ كَانُوا أحيانًا يَقُولُونَ: إِنَّهُ «جَبْر»، وَأحيانًا

يقولون: إنه «يعيش»، أو «يسار» أو «بلعام»، وكان هؤلاء جميعاً عبيداً من العجم! وبعضهم كان يهودياً، والبعض الآخر نصرانياً، والبعض الثالث كان قد أسلم. ويقول العلامة القرطبي عن «جبر» هذا: «أي: كيف يُعلمه جبر وهو أعجمي هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها؟ وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول له: أنت تعلم محمداً، فيقول: لا والله، بل هو يُعلمني ويهديني»^(١).

والأمر الذي يستحق التمعّن الآن هو: إذا كان «جبر» هو الذي يُعلم النبي ﷺ القرآن، فلا بدّ أنه كان يعلم أن هذا ليس كلام الله تعالى، وإنما كلام يُعلمه هو، فما الذي دعاه إلى أن يُسلم، ويتعرّض للضرب من سيّده؟ لكن الحقيقة هي ما أعلنها «جبر» فيما مضى، يعني: أنه تلقى من النبي ﷺ العلم والهداية التي نزلت يقيناً من الله تعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٧٧- معنى عدم هداية المنكرين: أن الله تعالى أنزل آيات القرآن الكريم لكي يهتدوا، لكنهم أنكروا هذه الآيات ولم يقبلوا الهداية، ولهذا سيُجزّون العذاب الأليم.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

٧٨- كان المشركون يقولون عن النبي ﷺ: «الصادق الأمين» من ناحية، ومن ناحية أخرى يتهمونه بالكذب، وبأنه يأتي بالقرآن من عند نفسه، ثم ينسبُه إلى الله تعالى، وعليه قال الله تعالى: إنهم هم الكاذبون في الحقيقة؛ لأنهم يُنكرون آياتي، ويعتبرونها من كلام المخلوق.

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

٧٩- مَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيْمَانِهِ، وَظَلَّ مُطْمَئِنًّا بِكُفْرِهِ مَصْرًّا عَلَيْهِ حَتَّى مَوْتِهِ، فَهُوَ مُرْتَدٌّ، وَعِقَابُهُ فِي الدُّنْيَا الْقَتْلُ، وَلَهُ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، أَمَّا مَنْ أُجْبِرَ عَلَى الْكُفْرِ، وَقَالَ بِلِسَانِهِ كَلِمَةَ الْكُفْرِ لِيُنْقَذَ رُوحُهُ مِنَ الْهَلَاكِ، بَيْنَمَا قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ، فَهُوَ لَيْسَ مُرْتَدًّا. سَيِّدُنَا عِمَارُ بْنُ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي حَقِّ سَيِّدِنَا عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَدْ اعْتَقَلَتْهُ قُرَيْشٌ ذَاتَ مَرَّةٍ هُوَ وَوَالِدُهُ يَاسِرًا وَأُمُّهُ سُمَيَّةٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا، وَأُجْبِرَتْهُمْ عَلَى تَرْكِ الْإِسْلَامِ، لَكِنَّ ثَلَاثَتَهُمْ رَفَضُوا هَذَا، فَرَبَطُوا السَّيِّدَةَ سُمَيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بَيْنَ بَعِيرَيْنِ، أَي: إِحْدَى قَدَمَيْهَا فِي بَعِيرٍ وَالْأُخْرَى فِي الْآخَرِ، وَضَرَبَهَا أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ بِرُمَحٍ فِي فَرْجِهَا، ثُمَّ سَاقَ الْبَعِيرَيْنِ فِي جِهَتَيْنِ مُتَعَاكِسَتَيْنِ، حَتَّى تَمَزَّقَ جَسَدُهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى نِصْفَيْنِ، وَأَصْبَحَتْ بِذَلِكَ أَوَّلَ شَهِيدَةٍ فِي الْإِسْلَامِ، ثُمَّ قُتِلَ سَيِّدُنَا يَاسِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِكُلِّ قَسْوَةٍ، لِيَصْبَحَ بِذَلِكَ ثَانِيَّ شَهِيدٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ أُجْبِرَ سَيِّدُنَا عِمَارٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى قَوْلِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ، فَقَالَهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُضْطَرًّا، فَقِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْ قَدْ كَفَرَ عِمَارٌ؟ فَقَالَ ﷺ: كَلَّا، فَعِمَارٌ عَامِرٌ بِالْإِيْمَانِ مِنْ رَأْسِهِ إِلَى قَدَمَيْهِ، وَقَدْ سَرَى الْإِسْلَامُ فِي دَمِهِ وَلَحْمِهِ، وَلَمَّا أَفَلَّتْ سَيِّدُنَا عِمَارٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ هُنَاكَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بَاكِيًا، وَقَصَّ عَلَيْهِ مَا حَدَثَ، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ: مَاذَا كَانَ حَالُ قَلْبِكَ إِذْ ذَاكَ؟ فَقَالَ سَيِّدُنَا عِمَارٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ مُطْمَئِنًّا بِالْإِيْمَانِ، وَعَلَيْهِ مَسَحَ النَّبِيُّ ﷺ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنَيَّ سَيِّدِنَا عِمَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ: لَوْ أُجْبِرُوكَ عَلَى قَوْلِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ ثَانِيَةً قُلْهَا^(١).

(١) روي: «أَنْ قُرَيْشًا أَكْرَهُوا عِمَارًا وَأَبُوهُ يَاسِرًا وَسُمَيَّةَ عَلَى الْإِرْتِدَادِ فَأَبَوْا، فَرَبَطُوا سُمَيَّةَ بَيْنَ بَعِيرَيْنِ، وَوَجَّئَتْ بِحَرْبَةٍ فِي مَوْضِعٍ عَفَّتْهَا، وَقَالُوا: إِنَّمَا أَسْلَمْتَ مِنْ أَجْلِ الرِّجَالِ، فَفَقَتَلُوهَا وَقَتَلُوا =

النُّطْقُ بِالْكَفْرِ اضْطِرَارًا:

أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ «مَنْ أَكْرَهَ عَلَى الْكُفْرِ حَتَّى خَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ الْقَتْلَ، أَنَّهُ لَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنْ كَفَرَ وَقَلْبُهُ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ، وَلَا تَبَيَّنَ مِنْهُ زَوْجَتُهُ وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِحُكْمِ الْكُفْرِ»^(١)، مَثَلَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(٢). ويقول العلامة ابن كثير: إنه يجوز قول كلمة الكفر لإنقاذ الروح، ولكن «الأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله»^(٣).
سيدنا عبد الله بن حذافة رضي الله عنه:

يقول العلامة ابن كثير في تفسير هذه الآية: «قال الحافظ ابن عساكر، في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة: أنه أسرته الرُّوم، فجاءوا به إلى ملكهم، فقال له: تنصّر وأنا أشرُّك في ملكي وأزوّجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب، على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين، ما فعلت! فقال: إذن أقتلك. قال: أنت وذاك! فأمر به فُصِّلَ، وأمر الرُّمّة فرمّوه قريباً من يديه ورجليه، وهو يُعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأُنزل، ثم أمر بقدر - وفي رواية: ببقرة من نحاس - فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح. وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يُلقى فيها، فُرفِعَ

= يأسراً، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقيل: يا رسول الله، إن عماراً كفر، فقال رسول الله ﷺ: كلا، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه، وقال: ما لك؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت». تفسير ضياء القرآن، تفسير المنير.

(١) تفسير القرطبي.

(٢) ابن ماجه، أبواب الطلاق، باب ١٦ برقم ٢٠٤٥.

(٣) تفسير ابن كثير.

في البكرة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيتُ لأن نفسي إنما هي نفسٌ واحدة، تُلقي في هذه القدر الساعة في الله، فأحببتُ أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفسٌ تُعذبُ هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حلَّ لي، ولكن لم أكن لأشمتك في. فقال له الملك: فقبّل رأسي وأنا أطلقك. فقال: وتطلقني معي جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم. فقبّل رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حق على كل مسلم أن يقبّل رأس عبد الله ابن حذافة، وأنا أبدأ. فقام فقبّل رأسه^(١).

تعريف المرتد:

الشخص الذي يكون مسلماً، ثم يترك عقيدة الإسلام بعد ذلك يُسمّى مرتدّاً.

عقاب المرتد:

يقول العلامة شمس الدين السرخسي في هذا الخصوص: «وإذا ارتدّ المسلم عُرض عليه الإسلام وعلينا إزالة الشبهات»^(٢)، ويروى عن الإمام أبي حنيفة والإمام أبي يوسف رحمهما الله تعالى: «أنه يُستحب للإمام أن يؤجله ثلاثة أيام»^(٣)، حتى يمكنه أن يفكر جيّداً في الإسلام وفي مستقبله، لكن إن لم يرجع عن ارتداده فإن عقابه القتل، مثلما قال النبي ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»^(٤)، وقد اتفق الأئمة الأربعة

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) المبسوط للسرخسي، ١٠: ٩٨.

(٣) المبسوط، ١٠: ٩٩.

(٤) البخاري، كتاب الجهاد، باب ١٤٩.

رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى «عَلَى أَنْ مِنْ ثَبَّتْ ارْتِدَاؤُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَجَبَ قَتْلُهُ»^(١)، لَكِنْ «لَا تُقْتَلُ النِّسَاءُ إِذَا هُنَّ ارْتَدَّزْنَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَلَكِنْ يُحْبَسْنَ وَيُدْعَيْنَ إِلَى الْإِسْلَامِ»^(٢)، «وَلَا يُقْتَلُ الْمُرْتَدُّ إِلَّا الْإِمَامُ أَوْ نَائِبُهُ»^(٣)، بِمَعْنَى: أَنَّ عِقَابَ الْمُرْتَدِّ وَتَنْفِيذَهُ مَسْئُولِيَّةُ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ الْحَقُّ فِي أَنْ يَقُومَ هُوَ بِشَكْلِ شَخْصِيٍّ فَرْدِيٍّ بِتَنْفِيذِ الْقَانُونِ، وَإِلَّا لَقُتِلَ الْكَثِيرُونَ بِسَبَبِ الْخِلَافَاتِ الشَّخْصِيَّةِ تَحْتَ سِتَارِ الْارْتِدَادِ، وَهُمْ لَيْسُوا فِي الْحَقِيقَةِ مُرْتَدِّينَ.

أسباب عقوبة المرتد:

١- حُرِّيَّةُ الْفِكْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا فِي كُلِّ بَلَدٍ مُتَحَضِّرٍ، وَلَكِنْ لِهَذِهِ الْحُرِّيَّةِ حَدُودًا، فَلَوْ تَحَدَّثَ أَحَدٌ بِالْمُرُودِ ضِدَّ حُكُومَةٍ مِنَ الْحُكُومَاتِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْحُكُومَةَ لَنْ تَتَحَمَّلَ هَذِهِ الْحُرِّيَّةَ الْفِكْرِيَّةَ، وَإِنَّمَا سَتَعْتَبِرُ هَذَا الشَّخْصَ مَتَمَرِّدًا وَخَائِنًا، وَسَتَعَاقِبُهُ أَشَدَّ الْعِقَابِ، وَبِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ تَقُومُ الْحُكُومَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ دَائِمًا عَلَى أَسَاسِ النَّظَرِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْمُسْلِمُ الَّذِي يَتَمَرَّدُ عَلَى النَّظَرِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هُوَ فِي الْأَصْلِ مَتَمَرَّدٌ عَلَى الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَخَائِنٌ لَهَا، وَلِهَذَا فَهُوَ أَيْضًا يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ الرَّادِعَ، لَكِنْ الشَّخْصَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ أَصْلًا بِالنَّظَرِيَّةِ الْأَسَاسِ لِلْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، يَعْنِي: لَيْسَ مُسْلِمًا أَصْلًا، وَإِنَّمَا يَعِيشُ تَحْتَ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ دِمِّيًّا، وَسَوَاءٌ قَبْلَ هَذَا الدِّمِّيُّ الْإِسْلَامَ أَمْ أَيْ دِينٍ آخَرَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مَتَمَرَّدًا عَلَى الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلِذَا لَا يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ.

٢- لَا يَجُوزُ طَبَقًا لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِجْبَارُ كَافِرٍ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا مَسْمُوحٌ لِلْكَافِرِ تَحْتَ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنْ يَبْقَى عَلَى كُفْرِهِ، وَإِذَا قَبِلَ الْإِسْلَامَ فَلَا يَجُوزُ

(١) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، ٥: ٤٢٣.

(٢) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، ٥: ٤٢٣.

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته، ٦: ١٨٨.

له الخروج منه وهو يعيش تحت الحكومة الإسلامية، فإذا ترك الإسلام فإن عقابه القتل، ولذا ينبغي لمثل هذا الشخص أن يفكر جيدًا في هذا الضابط الأساس للحكومة الإسلامية قبل أن يدخل الإسلام ثم يخرج منه.

عقاب المرتد في الكتاب المقدس:

١- «لو نَقَضَ أَحَدٌ فِي أَرْضِكُمْ عَهْدَهُ مَعَ اللَّهِ، سَوَاءٌ كَانَ رَجُلًا أَمْ امْرَأَةً، وَأَخَذَ يَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى، يَعْنِي: الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ، فَخُذُوهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ وَارْجُمُوهُ حَتَّى الْمَوْتِ»^(١).

٢- «لَوْ هَمَسَ لَكَ أَحَدُ أَقَارِبِكَ الْأَقْرَبَاءِ، أَوْ صَدِيقِكَ الْمُقَرَّبِ، أَوْ أَخُوكَ، أَوْ ابْنُكَ أَوْ ابْنَتُكَ، أَوْ زَوْجَتُكَ الْمُقَرَّبَةُ لَكَ، بِأَنَّهُ سَيَعْبُدُ إِلَهًا أُخْرَى، فَلَا تَسْمَعْ إِلَى مَا يَقُولُ، وَلَا تَرَأْفَ لِحَالِهِ، وَلَا تَأْخُذْ بِهِ رَأْفَةً فِي عِقَابِهِ، وَلَا تَسْتَسِرَّ عَلَى اقْتِرَاحِهِ الْبَشْعِ، وَإِنَّمَا اقْتُلْهُ، وَينبغي أن تكون يدك أول يد تمتد لقتله، ثم بعد ذلك تمتد أيدي باقي القوم، ارجمهم حتى الموت؛ لأنه حاول أن يُبْعِدَكَ عَنْ رَبِّكَ»^(٢).

٣- «مَنْ يَتْرِكِ اللَّهَ وَيَقْدِمُ الْقَرَابِينَ لِمَعْبُودٍ آخَرَ فَاقْتُلْهُ»^(٣).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠٧) **أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** (١٠٨) **لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴿

٨٠ - ومن أسباب الارتداد أن المرتدين يفضلون الحياة الدنيا على الآخرة، ووضعوا على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم غشاوة سميكة تمنعهم من الهداية،

(١) الكتاب المقدس الحي، الاستثناء، ١٧: ٢-٥.

(٢) الكتاب المقدس الحي، الاستثناء، ١٣: ٦-١٠.

(٣) الكتاب المقدس الحي، الخروج، ٢٢: ٢٠.

ومن المؤكد أن أمثال هؤلاء هم الخاسرون في الآخرة. ولمزيد من التفصيل عن عدم هداية الله تعالى لهم، وختمه على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم بالغشاوة، راجع الحاشية رقم ١٠ من سورة البقرة (٢).

﴿ ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

٨١- كانت جبال الظلم تهال على المسلمين في مكة، فهاجروا منها، وصبروا على المصاعب التي واجهتهم في طريق الجهاد، فيا أيها النبي الحبيب ﷺ، بشرهم بأن الله تعالى سيغفر لكم كل أخطائكم لقاء أعمالكم هذه، وسوف يعظمكم برحمته.

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١١١)
 وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾
 وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عِبَادُونَ ﴿١١٤﴾
 إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾
 مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

٨٢ - يوم القيامة سيكون كل شخص مشغلاً بنفسه، ويحاول جاهداً من أجل النجاة، ولكن في ذلك اليوم لن يستطيع أحد أن يحصل على النجاة بالكذب

أو الخِداء، وسينال كلُّ شخصٍ جزاءَ أفعاله كاملاً، بمعنى: أن الصالحين سينالون ثواب أعمالهم الصالحة، ولو شاء الله تعالى لَزَادَ بِرَحْمَتِهِ فِي ثَوَابِهِمْ، وبنفس الطريقة سينال الأشرار العذاب عقاباً على سيئاتهم، ولو شاء الله لَخَفَّفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، على أيِّ حال لن يُظْلَمَ أَحَدٌ في ذلك اليوم أو يُجَارَ عليه.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

٨٣ - يمكن أن يكون المراد بالقريه هنا أي قريه، لكن أكثر المفسرين على أن المراد: مكّة المكرّمة، وكان كلُّ أهل الجزيرة العربيّة يجُلُّون مكّة بسبب وجود بيت الله فيها، ولذلك كان أهل مكّة يتمتّعون بكلِّ أنواع الأمن والراحة، وتصلُّهم الغلال والفواكه والثمار من كلِّ أنحاء الجزيرة العربيّة وهم مستريحون في بيوتهم، وحينما جاءتهم النعمة الكبرى في صورة بعثة النبي ﷺ إليهم، كان ينبغي لأهل مكّة حينئذ أن يشكروا الله تعالى على نعمه، ويؤمنوا بالنبي ﷺ، لكنهم كفروا به، ولهذا أصابهم زمنٌ من القحط بسبب جحودهم هذا.

كان الخوف يسيطر عليهم دائماً بسبب الزيادة المطردة في أعداد المسلمين، وبسبب المعارك الإسلامية كذلك، وفي نهاية الأمر فتح المسلمون مكّة، واضطّر الجاحدون إلى الاعتراف بهزيمتهم المنكرة.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

٨٤ - لمعرفة تفسير هذه الآية راجع الحاشية رقم ١٢٤، ١٢٥ من سورة

البقرة (٢)، والحاشية رقم ٩ من سورة المائدة (٥).

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٨٥ - إنَّ تحريم أي شيء أو تحليله حقُّ الله تعالى فقط، بينما كان المشركون يحرمون بعض الأشياء ويحللون البعض الآخر من عند أنفسهم، ويدَّعون أنَّ هذا حكمُ الله تعالى، ولذلك جاء التنبيه على ذلك أنَّ ارجعوا عن تحليل الأشياء وتحريمها بغير سند أو دليل؛ لأنَّ هذا افتراءٌ على الله تعالى، والذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون أبداً، وقد يستمتعون لبعض الوقت في هذه الحياة القصيرة، ولكن سيُنالهم في الآخرة عذابٌ عظيم.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

٨٦ - اليهودُ الذين قتلوا الأنبياء الكرام عليهم السلام، وأكلوا أموال الناس بالباطل، حرَّم الله تعالى عليهم عدداً من الأشياء الحلال عقاباً لهم على جرمهم، وهو ما مرَّ ذكره في الآية رقم ١٤٦ من سورة الأنعام (٦)، وكان هذا العقاب مؤقتاً، وبسبب الظلم الذي ارتكبه بأَنْفُسِهِمْ.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

٨٧ - الذين يرتكبون الذنوب عن عمد أو عن غفلة، ثم يتوبون إلى الله، ويُصلحون من أَنْفُسِهِمْ، يغفر الله لهم ذنوبهم برحمته. ولمزيد من التفصيل عن التوبة راجع الحاشية رقم ٢٣ من سورة النساء (٤).

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجَبْتَهُ وَهَدَيْتُهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٢﴾

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾
 إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
 وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
 بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
 لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ
 مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

٨٨ - في هذه الآيات بيان لعظمة سيدنا إبراهيم عليه السلام ومكانته، فقد واجه عليه السلام المشركين جميعاً بمفرده وبشجاعة منقطعة النظير، فأثبت أن الله تعالى قد جمع في ذاته كل الأوصاف والكمالات والفضائل التي لا تكون إلا متفرقة في جماعة بأكملها.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

٨٩ - التعاليم الأساسية التي جاء بها الأنبياء جميعاً واحدة، يعني: التوحيد والرِّسالة والآخره وغيرها، لكن هناك اختلافاً في الشرائع بسبب اختلاف الظروف، ولنبي آخر الزمان سيدنا محمد ﷺ شريعة مستقلة، فهو ليس تابعاً لشريعة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ولكن شريعته ﷺ في معظمها أكثر قرباً فعلاً من شريعة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ولهذا أمر النبي ﷺ باتِّباع ملة جدّه العظيم سيدنا إبراهيم عليه السلام، وفيه تكريم لسيدنا إبراهيم عليه السلام، بأن شريعته تتوافق مع شريعة سيد الأنبياء وحبيب الله سيدنا محمد ﷺ، إذ إن هناك بعض الأشياء التي حرّمت على بني إسرائيل، وبعض الأشياء حرّمها بنو إسرائيل على

أنفسهم، على سبيل المثال: الجمال والبَطُّ والأَرَانِبُ وغيرها، كُلُّها كانت حَلَالًا في شريعة سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، وهي حَلَالٌ أيضًا في الشريعة المحمَّدية، كما أَنَّ المَشْرِكِينَ كانوا يَدْعُونَ أَنَّهُمْ أَتْبَاعُ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، وفي هذا إجابة لَهُم بأنَّ المَتَّبِعَ الحَقِيقِيَّ لَسَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام هو النَّبِيُّ الْكَرِيم ﷺ؛ لَا تَكُم تَشْرِكُونَ في عِبَادَتِكُمْ، في حينَ لَمْ يَكُنْ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام مَشْرِكًا. ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

٩٠- قال سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: «تَفَرَّغُوا لِلَّهِ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا، فَاعْبُدُوهُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَلَا تَعْمَلُوا فِيهِ شَيْئًا مِنْ صَنِيعِكُمْ، فَأَبُوا أَنْ يَقْبَلُوا ذَلِكَ، وَقَالُوا: لَا نَبْتَغِي إِلَّا الْيَوْمَ الَّذِي فَرَّغَ فِيهِ مِنَ الْخَلْقِ، وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ، فَجَعَلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمُ، وَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ فِيهِ»^(١).

ويَوْمُ الْجُمُعَةِ بالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمٌ مُعَظَّمٌ، يَلْتَزِمُونَ فِيهِ بِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ، مَا عدا ذَلِكَ فَلَا قَيْدٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَعْمَلُونَ، لَكِنْ لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ اخْتَلَفُوا مَعَ حُكْمِ نَبِيِّهِمْ، وَأَصْرُوا عَلَى يَوْمِ السَّبْتِ بدلًا مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، مُنِعُوا مِنَ الْعَمَلِ بِالتَّجَارَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَالصَّيْدِ وَغَيْرِهِ أَيَّامَ السَّبْتِ، فَمَنْ خَالَفَ مِنْهُمْ هَذَا الْأَمْرَ مَسَخَهُمُ اللَّهُ قِرْدَةً^(٢)، وَسَيَحْكُمُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي كُلِّ الْاِخْتِلَافَاتِ، وَالتِّي سَيَدْخُلُ الْمُطِيعُونَ الْجَنَّةَ طَبَقًا لَهُ، وَيَدْخُلُ الْعَاصُونَ جَهَنَّمَ طَبَقًا لَهُ أَيْضًا.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ بِالْقِيَمَةِ أَيْ أَحْسَنُ﴾

٩١- في هذه الآية الكريمة يَبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى طَرِيقَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَمَنْهَجَهَا، وَهِيَ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى النَّقَاشِ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَالنَّصِيحَةِ وَبِأَحْسَنِ الْأَسَالِيبِ.

(١) تفسير زاد المسير.

(٢) «فمسخهم الله تعالى قردة». تفسير روح المعاني.

الدعوة والتبليغ:

الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَرَضُ النُّبُوَّةِ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ، وَهِيَ فَرَضُ كِفَايَةٍ عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ، مِثْلَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:

١- ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

٢- ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

٣- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

الحكمة:

المراد بالحكمة: «المقالة الصحيحة المحكّمة، وهو الدليل الموضح للحقّ المزيل للشبهة»^(١)، والتي يراعى فيها أحوال المخاطبين وظروفهم^(٢)، وهي: «الكلام الصواب القريب الواقع من النفس أجمل موقع»^(٣)، والمراد بالحكمة أيضًا: «البصيرة على رعاية المناسبة في مقتضيات الأحوال والمقامات بالتليين والتخفيف والتعريض في مقاماتها والتغليظ والتشديد والتصريح في مقاماتها ونحو ذلك من المناسبات الحكّمية الجالبة للمصالح والسالبة للمفاسد»^(٤)،

(١) تفسير النسفي.

(٢) «والدعوة بالحكمة، هي: النظر في أحوال المخاطبين وظروفهم». في ظلال القرآن.

(٣) البحر المحيط.

(٤) تفسير روح البيان.

ولهذا قال النبي ﷺ فيما رواه سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «الكلمة الحِكْمَةُ ضالّةُ المؤمن فحيثُ وجَدَها فهو أحقُّ بها»^(١).

الموعظة الحسنة

المراد بالموعظة الحسنة: بيان أجر وثواب العمل الصالح بأسلوب جميل يدخل القلب، بحيث يميل قلب الإنسان من خلالها إلى العمل الصالح ويرغب فيه، وبيان عاقبة العمل السيئ بأسلوب مهيب ومؤثر بحيث ينفّر قلب الإنسان بعده من الأفعال السيئة.

الجدال بالتي هي أحسن:

لو وصلت الأمور أثناء القيام بفرض الدعوة إلى النقاش والمناظرة، فيجب أن تكون بسلام لئلا، وبأدلة معقولة، وبأسلوب مهذب ونظيف، بحيث يتقن المخاطب - من خلال ذلك - بأن هذا الذي يناظرني يتمنى لي الخير، ولا يقصد إهانتي أو إحراجي.

أمثلة للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة:

١- عن أبي أمامة، قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: «أذنه»، فدنا منه قريباً. قال: فجلس قال (دون أن يظهر أي غضب): «أتحبّه لأُمَّك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبّونه لأُمَّهاتهم». قال: «أفتحبّه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبّونه لبناتهم». قال: «أفتحبّه لأختك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبّونه لأخواتهم». قال: «أفتحبّه لعمّتك؟»

قال: لا والله، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قال: «ولا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعِمَاتِهِمْ». قال: «أَفْتَحْبُهُ لَخَالَتِكَ؟» قال: لا والله، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قال: «ولا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لَخَالَاتِهِمْ». قال: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ. قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفتُ إلى شيءٍ^(١). وبعد هذه النصيحة كره هذا الشابُّ الزنا، بحيث أنه كلما فكَّر فيه تذكَّر أمُّه وأخته، فتتلاشى الفكرة من عقله^(٢).

٢- هذه القصة تجسّد صادقاً لما ينبغي أن يكون عليه الدّاعية. فيروى أن الحَسَنَ والحُسَيْنَ عليهما السّلام رأيا رجلاً لا يُحسِنُ الوضوءَ، وأرادا أن يُعلِّماه الوضوءَ الصّحيحَ دونَ أن يَجْرَحَا مشاعره، فما كان منهما إلّا أنّهما افتتعا خصومةً بينهما، كلُّ منهما يقولُ للآخر: أنت لا تُحسِنُ أن تتوضّأ، ثم تحاكما إلى هذا الرجل أن يرى كلاّ منهما يتوضّأ، ثم يحكم: أيُّهما أفضلُ من الآخر، وتوضّأ كلُّ منهما فأحسَنَ الوضوءَ، بعدها جاء الحكم من الرجل يقول: كلُّ منكما أحسن، وأنا الذي ما أحسنتُ^(٣).

٣- رأى رجلٌ أنّ نفسه قد غلبته وأنه أسرفَ على نفسه، فذهب إلى طبيبِ القلوبِ إبراهيمَ بن أدهمَ، وطلبَ منه أن يعرضَ عليه ما يكون زَجْراً له عن فعلِ المعاصي، فقال إبراهيم: إنّ قَدَرْتَ على خمسٍ خصالٍ لن تكونَ من العاصين، قال الرجل: هاتِ ما عندك، فقال له إبراهيمُ بنُ أدهمَ:

الأولى: إنّ أردتَ أن تعصيَ اللهَ فلا تأكلُ من رزقه، فتعجّب الرجلُ ثم قال متسائلاً: كيف تقولُ ذلك يا إبراهيمُ والأرزاقُ كلّها من عندِ الله؟ قال: إذا كنتَ تعلمُ ذلك فهل يجدرُ بك أن تأكلَ من رزقه وتعصيه؟ قال: لا يا إبراهيم. هاتِ الثانيةَ.

(١) مسند أحمد، ٥: ٢٥٦، وتفسير الشعراوي، سورة النحل (١٦): الآية ١٢٥.

(٢) «فقام الشاب وأبغض ما يكون إليه أن يزني، وهو يقول: فوالله ما همّت نفسي بشيء من هذا، إلّا ذكرت أُمِّي وأختي وزوجتي». تفسير الشعراوي.

(٣) تفسير الشعراوي.

قال: الثانية: إذا أردت أن تعصي الله فلا تسكن بلادَه، فتعجب الرجل أكثر من تعجبه الأول، ثم قال: كيف ذلك يا إبراهيم والبلاد كلها ملكُ الله؟ فقال له: إذا كنت تعلم ذلك فهل يجدرُ بك أن تسكن بلادَه وتعصيه؟ قال: لا يا إبراهيم. هاتِ الثالثة.

قال: الثالثة: إذا أردت أن تعصي الله سبحانه فانظر مكانًا لا يراك فيه الله فاعصِه فيه، قال: كيف تقول ذلك يا إبراهيم وهو يعلم السرَّ وأخفى ويسمع ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء؟ فقال: إذا كنت تعلم ذلك، فهل يجدرُ بك أن تعصيه؟ قال: لا يا إبراهيم. هاتِ الرابعة.

قال: الرابعة: إذا جاءك ملك الموت ليقبض رُوحك فقل له: أخزني إلى أجلٍ معدود، فقال الرجل: كيف تقول ذلك يا إبراهيم والله سبحانه يقول: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾؟ فقال: إذا كنت تعلم ذلك فكيف ترجو النجاة؟ قال: نعم يا إبراهيم. هاتِ الخامسة.

قال: الخامسة: إذا جاءتك ملائكة جهنم (الزبانية) ليأخذوك إلى جهنم فلا تذهب معهم، فما كان الرجل يستمع إلى هذه الخامسة حتى قال باكيًا: كفى يا إبراهيم، أنا أستغفرُ الله وأتوبُ إليه، ولزم العبادة حتى مات^(١).
﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

٩٢- إن مسئولية الداعي هي أن يدعو مُراعياً مقتضيات الحكمة والموعظة الحسنة، وبعد ذلك إن لم يقبل أحد الموعظة، فلا حاجة بالداعية إلى أن يحزن أو يغتم، والله تعالى يعلم تمام العلم من يضل عن السبيل ومن يهتدي.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾

٩٣- حين يقع ظلم على أحد فإنه - بشكل عام - يتعدى الحدود في حماس

الانتقام، وقد أَمَرَ الإسلامُ بالتحكُّم في هذه الرِّغْبَةِ في الانتقام عند شدَّة الغضب، ومراعاة مقتضيات العدل والإنصاف؛ لأنَّ هذا المظلومَ إن تعدَّى الحدودَ في انتقامه، فسيصبح ظالمًا هو الآخر، ولهذا يمكنكم أن تأخذوا حقكم من الظالم بقدر ما ظلمكم، بمعنى: أنه لو قطع لكم يدًا لا يمكنكم أن تقتلوه في مقابل هذا، وإنما لكم أن تقطعوا يده فقط، ولكن إن صبرتم وعفوتُم عنه، فإنَّ ذلك خيرٌ لكم، حيث سيزيد ثوابكم، وفوق ذلك يمكن لعدوكم هذا أن يصبح صديقًا لكم، متأثرًا من حسن أخلاقكم.

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

٩٤- في الآية السابقة أذن الله تعالى لعامة المسلمين أن يأخذوا حقهم ممَّن ظلمهم بقدر ظلمه لهم، وأرشدهم إلى أنَّ الصبر هو الأفضل، وفي هذه الآية خاطب الله تعالى النبي ﷺ بصفة خاصة قائلاً: أنك على مقام رفيع من علو الهمة، ولهذا عليك الصبر في كلِّ حال بتوفيق الله عزَّ وجل، ولا يضيِّق صدرك بمكرهم وخداعهم، فالله - على وجه اليقين - مع أولئك الذين يختارون التقوى، ويحسنون إلى الآخرين.

الفقير إلى الله:

محمد إمداد حسين بيبرزاده

جامعة الكرم: إيتن هال: إنجلترا

بعد صلاة العشاء من يوم الخميس ١٥ مارس عام ٢٠٠٧ م

الموافق ٢٥ صفر عام ١٤٢٨ هـ

واكمل تفسير سورة النحل في اثني وعشرين يومًا

والحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٧) سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

هذه السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، واسمُها «سُورَةُ بني إسرائيل»^(١)؛ لأنَّ فيها ذِكرًا لبني إسرائيل، ومعَّ أنه لم يكن لبني إسرائيل وجودٌ في مَكَّةَ أصلاً، لكنَّ البعضَ ممَّن على شاكلتهم كان قد قَبَلَ الإسلامَ في المدينة، لهذا جاء تقديمُ لبني إسرائيلَ الذين يعيشونَ في المدينة في مرآةٍ ماضيهم، حتى يتعلَّموا الدَّرْسَ من هذا الماضي، ويدخلوا في الإسلام، كما أنَّ في هذه السُّورَةِ تنبيهاً لأهل مَكَّةَ أيضاً أنْ يعتبروا هم أيضاً من ماضي بني إسرائيل، ويؤمنوا بالنبِيِّ الكريم ﷺ.

وللسُّورَةِ اسمٌ آخَرٌ وهو: «الإِسْرَاءُ»؛ لأنَّ الآيةَ الأولى منها ذَكَرَتْ معجزةَ الإِسْرَاءِ والمعراجَ للنبِيِّ ﷺ، والسُّورَةُ نَزَلَتْ بعدَ هذه المعجزة، ومن خلالها عَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ بمعجزةِ الإِسْرَاءِ والمعراج، وهذه المعجزةُ شَرَّفَ اللهُ تعالى بها سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ قَبْلَ الهجرة بعام واحد، بمعنى: أنها نَزَلَتْ في السَّنةِ الأخيرة من العهدِ المَكِّيِّ، إلَّا أنَّ بعضَ آياتِها نَزَلَتْ في المدينة المنورة.

والمرادُ بالإِسْرَاءِ والمعراج هنا: تلك المعجزةُ التي أُسْرِيَ فيها اللهُ تعالى بالنبِيِّ الكريم ﷺ في جزءٍ بسيطٍ من اللَّيْلِ: من بيتِ اللهِ في مَكَّةَ إلى بيتِ المقدسِ

(١) السورة معروفة في البلاد العربية باسم سورة الإسراء، باعتبار أنها بدأت بذكر مسرى النبي ﷺ إلى المسجد الأقصى، وفي بلاد الناطقين باللغة الأردية (باكستان والهند) تعرف باسم سورة بني إسرائيل للسبب الذي ذكره المفسر الجليل، أي: لورود ذكر بني إسرائيل فيها. (المترجم).

في فلسطين، ثم من هناك عَرَجَ به إلى السَّمَاوَاتِ وَالْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى، وفي هذه اللَّيْلَةِ فُرِضَتْ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِشَكْلِ مُنْتَظَمٍ.

وَحَدَّدَتِ السُّورَةُ فِي الْآيَاتِ مِنْ ٢٣ إِلَى ٣٨ مِنْهَا مَلَاحِظَ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، وَرَغْمَ أَنَّ هَذَا الْمَجْتَمَعَ لَمْ يَكُنْ قَائِمًا فِي مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ، إِلَّا أَنَّ بَدَايَتَهُ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ كَانَتْ قَدْ أَوْشَكَتْ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِحُسْنِ التَّعَامُلِ مَعَ الْوَالِدَيْنِ، وَخِدْمَتِهِمَا فِي شَيْخُوخَتِهِمَا، وَالِدَّعَاءِ لِهَمَّا بِالرَّحْمَةِ، جَنِّبًا إِلَى جَنْبِ مَعَ تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَرَ كَذَلِكَ بِحُسْنِ مَعَامَلَةِ الْأَقَارِبِ وَالْمَسَاكِينِ، وَإِيفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَنَهَى عَنِ الْإِسْرَافِ وَالزُّنَا وَالْقَتْلِ وَالْغُرُورِ وَالتَّكْبُرِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، كَمَا نَهَى أَيْضًا عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ خَشْيَةَ الْفَقْرِ وَالْإِمْلَاقِ، لِأَنَّ الرَّازِقَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَنْ الْمُمْكِنُ أَنْ يُنْعِمَ عَلَى الْأَوْلَادِ بَرَزَقٍ وَفَيْرٍ يَقْضِي بِهِ عَلَى فَقْرِكُمْ أَنْتُمْ، وَلِذَا لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ وَتُفْسِدُوا دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتَكُمْ.

جامعة الكرم: إيتن هال: إنجلترا

بعد صلاة الفجر من يوم الاثنين ١٩ مارس ٢٠٠٧م

الموافق ٢٩ صفر عام ١٤٢٨هـ

الفقيه إلى الله:

محمد إمداد حسين بيرزاده



سُورَةُ الْإِسْرَاءِ (١٧)،

مكية (٥٠)، آياتها (١١١)، ركوعاتها (١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ، مِّنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلَنَ عُلوًا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَاتَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَهُ أَحْسَنَتْ لَأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عُلُوًّا تَبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عَلَيْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ، مِّنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

١- معنى «سبحان»: تنزه الله تعالى عن كل عيب ونقص وضعف وعجز،

ويقال لفظُ «سبحانَ» - بصفةٍ عامّةٍ - عندما يكونُ المقصودُ ذِكْرَ واقعةٍ عظيمةٍ الشأن، وذِكْرُها هنا يعني أنّ هذه الواقعةَ مهما كانت في نظر الناسِ مستحيلةً باعتبارِ الأسبابِ الظاهريّةِ، لكنّها ليست صعبةً أبدًا بالنسبةِ لله تعالى؛ لأنّ الله تعالى لا يحتاجُ إلى الأسبابِ، فهو القادرُ المطلقُ، وهو الذي يفعلُ ما يشاءُ بمجردِ الإرادةِ.

لَمَّا عَرَجَ اللهُ سبحانه وتعالى بِنبيّه الكريم ﷺ ليلةَ السابعِ والعشرينَ من رَجَبٍ في جزءٍ صغيرٍ من الليل، أُسْرِيَ به أولاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى، والمسجدُ الأقصى هو الذي جعلَ اللهُ تعالى حوله بركةً عظيمةً، حيث أنّ هناك كثرةً من الفواكهِ بمثابةِ البركةِ من الناحيةِ الماديّةِ والدُّنيويّةِ، وهو ما يوفّرُ للناسِ الغذاءَ، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخرَ هناك أضرحةٌ كثيرةٌ من الأنبياءِ الكرامِ عليهم السّلام ومقابرُهم، وهي بركةٌ من الناحيةِ الدُّينيّةِ. والمسجدُ الأقصى بعيدٌ عن المسجدِ الحرامِ بحيثُ لو أراد أحدٌ أن يذهبَ إليه من مكّةَ بمواصلاتٍ ذلك الزّمن، أي: بالجمال، لَتَطَلَّبَ الأمرُ شهرينِ من السّفَر، لكنّ الله تعالى أُسْرِيَ بِنبيّه ﷺ من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى في فترةٍ وجيزةٍ للغاية من الوقت، ثم عَرَجَ به من هناك إلى العالمِ الأعلى، حتى يُريه آياتِ قُدْرَتِهِ.

واقعة الإسراء والمعراج:

في السّنة الثانية عشرة من البعثة النّبويّة، أي: قبل الهجرة النّبويّة بعامٍ واحد، أُسْرِيَ اللهُ تعالى بِنبيّه الكريم ﷺ إلى المسجدِ الأقصى في السابعِ والعشرينَ من رَجَبٍ بطريقةٍ معجزةٍ ومحيّرةٍ، ويُطلَقُ على هذه الرّحلة من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى «الإسراءُ»، وهو ما ذُكِرَ في الآية الأولى من سورة الإسراء (١٧)، ويُطلَقُ على الرّحلة من المسجدِ الأقصى إلى العالمِ العلويّ: «المعراجُ»، وهو ما جاء ذِكْرُه في بداية سورة النّجم (٥٣)، ووَرَدَ كذلك في الأحاديثِ النّبويّةِ

الشريفة، ولكن يُطْلَقُ على الرَّحْلَتَيْنِ معًا بصفةٍ عامّةٍ «المعراج»^(١).

وقد ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ واقعةَ الإسراءِ والمِعراجِ مرّاتٍ عديدةً، وَذَكَرَ مِنْهَا أَمَامَ كُلِّ شَخْصٍ الْجِزءَ الَّذِي يَناسِبُ اسْتِعْدادَهُ وإِدراكَهُ، وَقَدْ رَوَى هَذِهِ الْواقعةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثُونَ صَحَابِيًّا، وَلَا يَوْجَدُ تَفْصِيلٌ كَامِلٌ لِأَحْداثِ الْواقعةِ فِي رِوايةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ، وَفِيما يَلِي سَأَحاولُ تَقْدِيمَ هَذِهِ الْواقعةِ كَامِلَةً مُترابطةً مِنْ خِلالِ الْأَحْداثِ النَّبَوِيَّةِ وَالرّوايَاتِ الْمُتَعَدِّدةِ:

نزول سيدنا جبريل عليه السلام:

ذاتَ لَيْلَةٍ كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَرِيحُ فِي الْحَظِيمِ عِنْدَ الْكُعْبَةِ الْمَشْرِفَةِ، إِذْ جِاءَهُ سَيِّدُنَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَيَّقَظَهُ مِنْ نَوْمِهِ، وَأَخْبَرَهُ بِالْإِرادَةِ الْإِلَهِيَّةِ، ثُمَّ اضْطَحَبَهُ بِالْقُرْبِ مِنْ زَمْزَمَ، وَشَقَّ صَدْرَهُ الشَّرِيفَ، ثُمَّ أَخْرَجَ قَلْبَهُ مِنْهُ، وَغَسَلَهُ، وَمَلَأَهُ بِالْإِيْمانِ وَالْحِكْمَةِ، ثُمَّ أَعادَهُ إِلى مَوْضِعِهِ وَأَغْلَقَ صَدْرَهُ كَمَا كانَ، ثُمَّ قَدَّمَ لِلنَّبِيِّ ﷺ حَيَوانًا لِيَمْتَطِيَهُ، وَيُدْعَى «الْبَراقُ»، وَكانَ الْبَراقُ فِي غايَةِ السَّرْعَةِ بِحَيْثُ كانَ يَضَعُ قَدَمَهُ حَيْثُ يَصُلُّ بِصَرِّهِ^(٢).

(١) فِي الْعَرَبِيَّةِ يَجْمَعُونَ الرَّحْلَتَيْنِ مَعًا فَيَقُولُونَ: «الإسراء والمعراج». (المترجم).

(٢) «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةٍ أُسْرِيَ بِهِ: بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَظِيمِ - وَرَبَّمَا قَالَ: فِي الْحَجَرِ - مُضْطَجِعًا، إِذْ أَتَانِي آتٍ فَقَدْ - قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: فَشَقَّ - مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلى هَذِهِ - فَقُلْتُ لِلْجَارُودِ وَهُوَ إِلى جَنْبِي: مَا يَعْنِي بِهِ؟ قَالَ: مِنْ ثَغْرَةِ نَحْرِهِ إِلى شَعْرَتِهِ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مِنْ قَصَبِهِ إِلى شَعْرَتِهِ - فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أَتَيْتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمانًا، فَغَسَلْتُ قَلْبِي ثُمَّ حَشَيْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَبْيَضَ، فَقَالَ لَهُ الْجَارُودُ: هُوَ الْبَراقُ يَا أَبَا حَمْزَةَ؟ قَالَ أَنَسُ: نَعَمْ، يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرَفِهِ».

مغادرة مكة المكرمة:

وحين غادر النبي ﷺ مكة المكرمة وَوَصَلَ إِلَى أَرْضٍ تَمَلُّهَا أَشْجَارُ النَّخِيلِ قال له سَيِّدُنَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام: انْزِلْ هُنَا وَصَلِّ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَلَّى، ثُمَّ قَالَ سَيِّدُنَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام: هَذِهِ يَثْرُبُ (حَيْثُ سُبُهَا جُرَّ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهَا فِيمَا بَعْدُ)، ثُمَّ صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِ لَحْمٍ، حَيْثُ وُلِدَ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام^(١). قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: حِينَ مَرَرْنَا عِنْدَ كَثِيبٍ أَحْمَرَ بِالقُرْبِ مِنْ قَبْرِ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، وَجَدْنَاهُ وَاقِفًا فِي الْقَبْرِ يُصَلِّي^(٢).

الوصول إلى بيت المقدس:

حِينَ وَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ رَبَطَ البُرَاقَ فِي الْحَلَقَةِ الَّتِي كَانَتْ مَطَايَا الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَرْبُوطَةً فِيهَا^(٣). قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: جَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى لِي الْأَنْبِيَاءَ الْكَرَامَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِيهِ، وَقَدَّمَنِي جِبْرِيلُ الْأَمِينُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِإِمَامَةِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الصَّلَاةِ، فَصَلَّيْتُ بِالْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ^(٤).

(١) دلائل النبوة، البيهقي، ٣: ٣٥٥: باب الإسراء، وفيه: «حتى بلغنا أرضاً ذات نخل فأنزلني، فقال: صلِّ، فصليت، وقال: صليت بيثرب، ثم صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام».

(٢) «مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره». مسلم، كتاب الفضائل، باب ٤٢ رقم ٢٣٧٥.

(٣) «حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيها». المواهب اللدنية، ٣: ٤٩، المقصد الخامس.

(٤) «ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السلام فقدمني جبريل حتى أمتهم». النسائي، كتاب الصلاة، باب ١.

العروج إلى السماء:

عَرَجَ سَيِّدُنَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى السَّمَوَاتِ، فَالتَقَى فِي السَّمَاءِ الْأُولَى بِسَيِّدِنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي الثَّانِيَةِ بِسَيِّدِنَا يَحْيَى وَسَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَفِي الثَّلَاثَةِ بِسَيِّدِنَا يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي الرَّابِعَةِ بِسَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي الْخَامِسَةِ بِسَيِّدِنَا هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي السَّادِسَةِ بِسَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي السَّابِعَةِ بِسَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ وَصَلَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى^(١).

(١) «فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت، فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه. فسلمت عليه فردّ السلام ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء. فلما خلصت، إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما. فسلمت فردّ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خلصت إذا يوسف. قال: هذا يوسف فسلم عليه. فسلمت عليه فردّ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خلصت إذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه. فسلمت عليه فردّ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلم عليه. فسلمت عليه فردّ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: من معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت، فإذا موسى، =

سدرۃ المنتهى:

هذا هو مقرّ سيّدنا جبريل عليه السّلام، ولهذا توقّف سيّدنا جبريل عليه السّلام هناك وقال: لو تقدّمت أكثر من ذلك قيّد أنملة لأحترقت^(١).

وصف المعراج:

نقل السيّد محمد الألوسي فيما يتعلّق بالمعراج قولاً ترجمه العلامة أبو الحسنات سيّد محمد أحمد قادري إلى الأردية في تفسيره، وهو: «أمر المعراج أجلّ من أن يُكَيّف، وماذا عسى يقال سوى أنّ المُحبّ القادر الذي لا يُعجزه شيءٌ دعا حبيبه الذي خلّقه من نُوره إلى زيارته، وأرسل إليه مَنْ أرسل من خواصّ ملائكته فكان جبريل هو الآخذ بركابه، وميكائيل الآخذ بزمام دابّته، إلى أن وصل إلى ما وصل»^(٢).

= قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصّالح والنّبي الصّالح. فلمّا تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأنّ غلاماً بعث بعدي، يدخل الجنّة من أمّته أكثر من يدخلها من أمّتي. ثمّ صعد بي إلى السّماء السّابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، فنعمّ المجيء جاء، فلمّا خلصت، فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلم عليه. قال: فسلمت عليه، فردّ السّلام ثم قال: مرحباً بالابن الصّالح والنّبي الصّالح. ثمّ رفعت لي سدرۃ المنتهى. البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب ٤٢ برقم ٣٨٨٧.

(١) «ويروى أن جبريل لما وصل إلى السدرۃ التي هي مقامه تأخر فلم يتجاوز، فقال عليه السلام: (أفي مثل هذا المقام يترك الخليل خليله؟) فقال: لو تجاوزت لأحترقت بالنور. وفي رواية:

لو دنوت أنملة لأحترقت». تفسير روح البيان، سورة الإسراء (١٧): الآية ١.

(٢) تفسير روح المعاني، نقلاً عن تفسير الحسنات، سورة الإسراء (١٧): الآية ١.

القرب الخاص:

توقف سيدنا جبريل الأمين عند سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، ثم قَرَّبَ اللهُ تعالى نبيَّهِ ﷺ، فكم كان هذا القُرب؟ أكتفي بِذِكْرِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إجابةً عن هذا السؤال، حيث يقول الله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩].

رؤية الله تعالى:

١- «لَقِيَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَعْبًا بَعَرَفَةَ فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ ... فَقَالَ كَعْبٌ: إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ رُؤْيَاهُ وَكَلَامَهُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَمُوسَى، فَكَلَّمَ مُوسَى مَرَّتَيْنِ، وَرَأَاهُ مُحَمَّدٌ مَرَّتَيْنِ»^(١).

٢- عن عبدِ اللهِ بنِ شَقِيقٍ، قال: قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ: لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كُنْتَ تَسْأَلُهُ؟ قَالَ: كُنْتُ أَسْأَلُهُ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قَدْ سَأَلْتُ فَقَالَ: «رَأَيْتُ نُورًا (يعني: رَأَى رَبَّهُ)»^(٢).

٣- يَقُولُ الْعَلَّامَةُ بَدْرُ الدِّينِ عَيْنِي فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ: «وَرَوَى ابْنُ خُزَيْمَةَ بِإِسْنَادٍ قَوِيٍّ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ، وَبِهِ قَالَ سَائِرُ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَكَعْبُ الْأَحْبَارِ وَالزُّهْرِيُّ وَصَاحِبُ مَعْمَرٍ وَآخَرُونَ، وَحَكَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ حَلَفَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ»^(٣).

٤- سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ: هَلْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالَ: «رَأَاهُ، رَأَاهُ»، وَظَلَّ يُرَدِّدُ ذَلِكَ حَتَّى كَادَ يَنْقَطِعُ نَفْسُهُ^(٤).

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥٣، سورة النجم (٥٣): برقم ٣٢٧٨.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٨، برقم ٢٩٢.

(٣) عمدة القاري شرح البخاري، ١٩: ١٩٨.

(٤) «وعن الإمام أحمد أنه كان يقول إذا سئل عن الرؤية: رآه رآه، حتى ينقطع نفسه، ولا يزيد على ذلك». تفسير روح المعاني، سورة النجم (٥٣): الآية ١٨.

٥- يَذْكُرُ العَلَّامَةُ سَيِّدَ مَحْمُودِ الْأَلُوسِيِّ رَأْيَهُ الشَّخْصِيَّ فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِرُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى فيقول: «وَأَنَا أَقُولُ بِرُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَبِدُنُوهِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ»^(١).

حديث الحب:

يقول العَلَّامَةُ سَيِّدُ سُلَيْمَانَ النَّدَوِيِّ: رَبِّمَا رَفَعَ مُسْتَوْرُ الْأَزَلِ الْحِجَابَ عَنْ وَجْهِهِ، وَأَنْعَمَ بِرِسَالَةِ الْحُبِّ فِي خَلْوَةِ الْأَسْرَارِ بِمَا لَا تَحْتَمِلُهُ لَطَافُهُ وَرِقَّةُ الْأَلْفَاظِ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، فَأَوْحَىٰ اللَّهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ وَفَقَطُ^(٢).

الصلوات الخمس:

ماذا أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي هَذَا الْقُرْبِ الْخَاصِّ؟ هَذَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ وَرَسُولُهُ ﷺ تَمَامَ الْعِلْمِ، وَفِي الْعَوْدَةِ مِنَ الْمِعْرَاجِ حِينَ وَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ سَيِّدِنَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُ سَيِّدُنَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ خَمْسِينَ صَلَاةً كَثِيرَةً، أَسْأَلُ رَبَّكَ التَّخْفِيفَ: «وَدَنَا الْجَبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّى حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَابُ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ، فَأَوْحَى اللَّهُ فِيْمَا أَوْحَىٰ إِلَيْهِ خَمْسِينَ صَلَاةً عَلَى أُمَّتِكَ كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. ثُمَّ هَبَطَ حَتَّى بَلَغَ مُوسَىٰ فَاحْتَبَسَهُ مُوسَىٰ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَاذَا عَهْدُ إِلَيْكَ رَبُّكَ؟ قَالَ: عَهْدُ إِلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ وَعَنْهُمْ ... فَقَالَ وَهُوَ مَكَانَهُ: يَا رَبِّ، خَفِّفْ عَنَّا، فَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ هَذَا. فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرَ صَلَوَاتٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَاحْتَبَسَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهُ مُوسَىٰ إِلَىٰ رَبِّهِ حَتَّى صَارَتْ إِلَىٰ خَمْسِ صَلَوَاتٍ، ثُمَّ احْتَبَسَهُ مُوسَىٰ عِنْدَ الْخَمْسِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ لَقَدْ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمِي عَلَىٰ أَدْنَىٰ مِنْ هَذَا فَضَعُفُوا فَتَرَكُوهُ فَأَمَّتْكَ أَضْعَفُ أَجْسَادًا وَقُلُوبًا

(١) تفسير روح المعاني، سورة النجم (٥٣): الآية ١٨.

(٢) سيرة النبي، ٣: ٤٢٣.

وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارْجِعْ فليخفف عنك ربُّكَ ... فقال: يا رب، إنَّ أُمَّتِي ضُعْفَاءُ أجسادُهم وقلوبُهم وأسماعُهم وأبدانُهم فخففَ عَنَّا، فقال الجَبَّار: يا مُحَمَّد، قال: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. قال: إِنَّه لَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ، كما فَرَضْتُ عَلَيْكَ فِي أَمِّ الْكِتَابِ - قال - فكلُّ حَسَنَةٍ بَعَشْرٍ أَمْثَالِهَا، فهي خمسونَ في أَمِّ الْكِتَابِ وهي خمسٌ عَلَيْكَ. فَرَجَعَ إِلَى مُوسَى؟ فقال: كيف فَعَلْتُ؟ فقال: خَفَّفَ عَنَّا، أَعْطَانَا بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا. قال مُوسَى: قد وَاللهِ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ فَتْرَكُوهُ، ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فليخففَ عنك أَيضاً. قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: يا مُوسَى، قد وَاللهِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي مِمَّا اخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ. قال: فَاهْبِطْ بِاسْمِ اللهِ. قال: وَاسْتَيْقِظْ وَهُوَ فِي مَسْجِدِ الْحَرَامِ^(١).

ذكر المعراج أمام قريش:

يقولُ سَيِّدُنَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ فيما رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «ثُمَّ أَصْبَحَ بِمَكَّةَ يُخْبِرُهُم بِالْعَجَائِبِ: أَنِّي أَتَيْتُ الْبَارِحَةَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَعُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، وَرَأَيْتُ كَذَا وَرَأَيْتُ كَذَا، فَقَالَ أَبُو جَهْلُ بْنُ هِشَامٍ: أَلَا تَعْجَبُونَ مِمَّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ! يَزْعُمُ أَنَّهُ أَتَى الْبَارِحَةَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ أَصْبَحَ فِينَا، وَأَحْدُنَا يَضْرِبُ مِطْيَتَهُ مُصْعِدَةً شَهْرًا وَمُنْقَلِبَةً شَهْرًا، فَهَذَا مَسِيرَةُ شَهْرَيْنِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ. قَالَ: فَأَخْبَرَهُمْ بِعِيرِ لُقْرِيشٍ لَمَّا كَانَ فِي مَصْعَدِي رَأَيْتُهَا فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا وَأَنَّهُا نَفَرَتْ، فَلَمَّا رَجَعْتَ رَأَيْتُهَا عِنْدَ الْعُقْبَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِكُلِّ رَجُلٍ وَبَعِيرُهُ كَذَا وَكَذَا وَمَتَاعُهُ كَذَا وَكَذَا»^(٢).

ورود بيت المقدس أمام النبي ﷺ:

يقولُ سَيِّدُنَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: «فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: أَنَا أَعْلَمُ النَّاسَ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَكَيْفَ بِنَاؤِهِ وَكَيْفَ هَيَأَتِهِ وَكَيْفَ قُرْبُهُ مِنَ الْجَبَلِ، فَإِنْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣٧ برقم ٧٥١٧.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي، ٢: ٣٩٥.

صَادِقًا فَسَأخِبُكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ كَاذِبًا فَسَأخِبُكُمْ، فَجَاءَهُ ذَلِكَ الْمَشْرِكُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدٌ، أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ بِنَاؤُهُ وَكَيْفَ هِيَئَتُهُ وَكَيْفَ قُرْبُهُ مِنَ الْجَبَلِ؟ قَالَ: فَرَفَعَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مِنْ مَقْعَدِهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ كَنَظَرِ أَحَدِنَا إِلَى بَيْتِهِ، فَقَالَ: بِنَاؤُهُ كَذَا وَكَذَا، وَهِيَئَتُهُ كَذَا وَكَذَا، وَقُرْبُهُ مِنَ الْجَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ الْآخَرُ: صَدَقْتَ. فَرَجَعَ إِلَى الصَّحَابَةِ فَقَالَ: صَدَقَ مُحَمَّدٌ فِيمَا قَالَ، أَوْ نَحْوًا مِنْ هَذَا الْكَلَامِ^(١).

وَيُرَوِّي الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ سَيِّدِنَا جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَمَّا كَذَّبْتَنِي قُرَيْشٌ قَمْتُ فِي الْحَجَرِ، فَجَلَا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أَخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»^(٢).
تَصَدِّقُ سَيِّدُنَا أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يَقُولُ سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَأَصْبَحَ، فَأَخْبَرَ عَمَّا كَانَ، فَلَمَّا سَمِعَ الْمَشْرُكُونَ قَوْلَهُ أَتَوْا أَبَا بَكْرٍ فَقَالُوا: يَا أَبَا بَكْرٍ، هَلْ لَكَ فِي صَاحِبِكَ؟ يُخْبِرُ أَنَّهُ أَتَى فِي لَيْلَتِهِ هَذِهِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، ثُمَّ رَجَعَ فِي لَيْلَتِهِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنْ كَانَ قَالَهُ فَقَدْ صَدَقَ، وَإِنَّا لَنُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ هَذَا، نُصَدِّقُهُ عَلَى خَيْرِ السَّمَاءِ. وَمِنْ ذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ»^(٣).

وَيُرَوِّي الْإِمَامُ الطَّبْرَانِيُّ، عَنِ الرَّوَاةِ الثَّقَاةِ، «أَنَّ عَلِيًّا كَانَ يَحْلِفُ بِاللَّهِ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ اسْمَ أَبِي بَكْرٍ مِنَ السَّمَاءِ: الصِّدِّيقَ، وَكَانَ ابْتِدَاءُ تَسْمِيَّتِهِ بِذَلِكَ صَبِيحَةَ الْإِسْرَاءِ»^(٤).

(١) دلائل النبوة للبيهقي، ٢: ٣٩٥.

(٢) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ٤١، برقم ٣٨٨٦.

(٣) تفسير ابن كثير، سورة الإسراء (١٧): الآية ١.

(٤) الإمام الزرقاني، شرح المواهب اللدنية، ١: ٤٤٥.

مشاهدة العقاب:

جَعَلَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ يَرَى فِي لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ عِدَدًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِقَابِ بِشَكْلِ عَمَلِيٍّ،
أَذْكُرُ هُنَا بَعْضًا مِنْهَا حَتَّى نَعْتَبِرَ:

١- عقابُ تاركِ الصَّلَاةِ المفروضة:

«ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ تُرْضِخُ رُءُوسُهُمْ، كَلِمًا رُضِخَتْ عَادَتُ كَمَا كَانَتْ. وَلَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ. فَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ، مِنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَتَشَاغَلُ رِءُوسُهُمْ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ»^(١).

٢- عقابُ الزُّنَاةِ رجالًا ونساءً:

«ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَحْمٌ نَضِيجٌ فِي قُدُورٍ، وَلَحْمٌ آخَرُ نَيْيٌ خَبِيثٌ، فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنَ النَّيِّ الْخَبِيثِ وَيَدْعُونَ النَّضِيجَ. فَقَالَ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أُمَّتِكَ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ الْحَلَالُ الطَّيِّبُ، فَيَأْتِي امْرَأَةً خَبِيثَةً، فَيَبِيتُ عِنْدَهَا حَتَّى يُصْبِحَ، وَالْمَرْأَةُ تَقُومُ مِنْ عِنْدِ زَوْجِهَا حَلَالًا طَيِّبًا، فَتَأْتِي رَجُلًا خَبِيثًا فَيَبِيتُ مَعَهُ حَتَّى تَصْبِحَ»^(٢).

٣- الخطيبُ الذي لَا يَعْمَلُ بِمَا يَقُولُ:

«ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ تُقَرِّضُ أَلْسِنَتُهُمْ وَشِفَاهُهُمْ بِمَقَارِضَ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا قُرِضَتْ عَادَ، لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَقَالَ: مِنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ الْفِتْنَةِ مِنْ أُمَّتِكَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ»^(٣).

(١) سبل الهدى والرشاد، ٣: ١١٧.

(٢) سبل الهدى والرشاد، ٣: ١١٧.

(٣) سبل الهدى والرشاد، ٣: ١١٧.

٤- الْمُغْتَابُونَ:

«فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ تُقَطَّعُ مِنْ جَنُوبِهِمُ اللَّحْمُ فَيُلْقَمُونَ، فيقالُ له: كُلْ كَمَا كُنْتَ تَأْكُلُ مِنْ لَحْمِ أَخِيكَ، قلتُ: يَا جَبْرِيلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ هَؤُلَاءِ الْهَمَّازُونَ مَنْ أُمَّتِكَ اللَّمَّازُونَ»^(١).

دلائل المعراج الجسماني:

١- يقول العلامة إسماعيل حقي في تفسيره: «قال الشيخ الأكبر قدس سره: إن معراجَه عليه السلام أربعاً وثلاثين مرةً واحدةً بجسده والباقي بروحه رؤيا رآها»^(٢).

٢- يقال للروح والجسد معاً: «عبد»، وقد أسرى الله تعالى وعرج في هذه الواقعة بعبدِه (عبدِه الخاص)، وفرض عليه في هذا المعراج الجسماني الصلوات الخمس.

٣- بدأت سورة الإسراء في أول الآية الأولى منها بقول: ﴿سُبْحَنَ﴾، ويُستعمل هذا اللفظُ للتعجب وللأعمالِ عظيمة الشأن، ولو كان هذا الإسراء والمعراج في النوم بالروح فقط، فأئى عجب في هذا؟ إذ إن مثلَ هذا الحلم قد يراه أيُّ إنسانٍ عادي، على سبيل المثال: لو قال شخصٌ: إنه رأى أولاً بيتَ الله في نومِه ليلاً، ومن هناك ذهب إلى بيت المقدس، وصلى الجمعة هناك، ثم طار في السماء وفوق السحاب، وحين فتح عينيه وجد نفسه على فراشه، فأئى عجب في هذا المنام؟

٤- كذب كفارُ مكة هذه الواقعة حين سمعوها، وسخروا منها، بل إنَّ إيمانَ

(١) دلائل النبوة، البيهقي، ٢: ٣٩٣.

(٢) تفسير روح البيان، سورة الإسراء (١٧): الآية ١.

بعض المسلمين قد اهتزَّ أيضًا، ولو كان مقصِدُ النبي ﷺ بيانَ رؤيا في المنام، فهل كان أحدٌ يُنكرُ عليه ذلك؟

٥- لم يجعل الله تعالى النبي ﷺ يسافرُ ليلةَ الإسراء والمعراج، وإنما جعلها له رحلة؛ لأنَّ السَّفَر يُمكنُ أن يكونَ في حالةِ المنام، وفي حالةِ عَدَمِ الوعي أيضًا، على سبيل المثال: لو أتى أُسْتَقِلُّ طائرةً من المملكة العربية السعودية متَّجهةً إلى لندن، وغلبني النومُ عندما ارتفعتِ الطائرةُ في السَّماء، فإنَّ هذا لن يُعطِلَ سَفَرِي، بل هو مستمَرٌّ، لكنِّي لا أشعرُ به، ولا أدري على أيِّ ارتفاعٍ أُطيرُ، ولا بأيِّ سرعة، ولا حتَّى أيُّ بلدٍ أُمُرُّ فوقه، فالسَّفَرُ إذاً يَمُكِنُ أن يكونَ في النوم وفي حالة الغيابِ عن الوعي، لكنَّ الرِّحْلَةَ والتَّجَوَّالَ لا يكونانِ إلَّا حين يكونُ الإنسانُ في كامل وعيهِ، يرى بعينه كلَّ شيءٍ أمامه، وبالتالي فإنَّ الله تعالى لم يجعل الإسراء والمعراجَ سَفَرًا للنبي ﷺ، وإنما جعله رحلةً له، حتَّى يشاهدَ آياتِ قُدرةِ الله تعالى، وبالتالي فإنَّ الإسراء والمعراجَ لم يكونا بالروح فقط، وإنما كانا بالروح والجسد معًا، وفي حالة الوعي واليقظة الكاملة، مع الرؤية العينية أيضًا التي جعل الله تعالى النبي ﷺ يراها بقدرته الكاملة.

إنكار المعراج الجسماني:

النبي ﷺ لم يدَّع أنه ذهب في الإسراء والمعراج، وإنما كما جاء في الآية الأولى من سورة الإسراء ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، وكما جاء على لسانِ النبي ﷺ من أنه «عرج بي» و«أُسري بي ليلاً»، ولو كان النبي ﷺ هو الذي ادَّعى هذا لكان من الممكن مناقشة الأمر، لكن بما أنَّ الله تعالى هو الذي قال بأنه هو الذي أسرى به وعرج به، فلا يُناقش في هذا أصلًا إلَّا الذي ليس لديه يقينٌ على قُدرةِ الله تعالى، على سبيل المثال: لو قلتُ أنا: إنَّ الطائرةَ أَقْلَتْنِي من المملكةِ

المتَّحدة إلى المملكة العربيَّة السُّعوديَّة بِسُرْعَةٍ خَمْسِمِائَةِ مِيلٍ فِي السَّاعَةِ، فَلَا حَاجَةَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَفَكَّرَ وَيَتَدَبَّرَ فِي سُرْعَتِي وَقَوَّتِي أَنَا، بِمَعْنَى أَنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسِيرَ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ أَمْ لَا، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي مُحَرَّكَاتِ الطَّائِرَةِ، إِذْ لَوْ اسْتَطَاعَتْ هَذِهِ الْمُحَرَّكَاتُ أَنْ تَطِيرَ بِالطَّائِرَةِ بِسُرْعَةِ خَمْسِمِائَةِ مِيلٍ فِي السَّاعَةِ، فَطَبِيعِي أَنْ الَّذِي يَرَكُبُ فِي الطَّائِرَةِ سَيَكُونُ سَفَرُهُ بِنَفْسِ هَذِهِ السَّرْعَةِ، وَبِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي عَرَّجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ تَعَالَى - مِنْ حَيْثُ الْقُدْرَةُ - قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَلِهَذَا فَإِنَّ مَنْ يُنْكِرُ مِعْرَاجَ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ يُنْكِرُ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾

٢- أُنْزِلَ اللَّهُ تَعَالَى التَّوْرَةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَيَّنَّ فِيهَا كُلَّ الْأَحْكَامِ الَّتِي تَكْفِي لِهَدَايَةِ بَنِي إِسْرَءِيلَ، وَكَانَ أَهَمُّ حُكْمٍ فِيهَا هُوَ أَنْ يَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ أُمُورِهِمْ، وَأَنْ لَا يَعْتَقِدُوا بِأَنَّ أَحَدًا غَيْرَهُ يَدْبُرُ الْأَمْرَ.

وَيُعَلِّمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا أَنَّ التَّوْرَةَ أُنْزِلَتْ لِهَدَايَةِ بَنِي إِسْرَءِيلَ فَقَطْ، فِي حِينَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَزَلَ لِهَدَايَةِ الْبَشَرِ جَمِيعًا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

٣- بَعْدَ طُوفَانِ سَيِّدِنَا نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، اسْتَمَرَّ النَّسْلُ الْإِنْسَانِيُّ فِي الْوُجُودِ مِنْ أَبْنَاءِ سَيِّدِنَا نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِينَ رَكَبُوا مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ وَنَجَّوْا مِنَ الطُّوفَانِ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ يُذَكِّرُ اللَّهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِفَضْلِهِ هَذَا مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى لَوْ لَمْ يُنْقِذْ أَجْدَادَكُمْ، يَعْنِي: الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَوْلَادِ سَيِّدِنَا نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالسَّفِينَةِ، لَمَا كَانَ لَكُمْ وَجُودٌ الْيَوْمَ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَقَدْ كَانَ أَبُوكُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَبْدًا شَكُورًا أَيْضًا، فَعَلَيْكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا أَنْ تَخْتَارُوا طَرِيقَ الشُّكْرِ وَالاعْتِرَافِ بِالْفَضْلِ.

«قال عمران بن سليم: إنما سُمِّي نوحٌ عبدًا شكورًا لأنه كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء لأعراني»^(١).
﴿وَفَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلَمَ عُلُوَّ كَبِيرًا﴾

٤- أخبر الله تعالى بني إسرائيل - عن طريق التوراة والصُحفِ السماوية الأخرى - أنكم ستُفسدون في بلادكم - يعني: الشام وبيت المقدس - مرّتين، وتكبرون فيها، أي: أنكم ستُفسدون بمخالفتكم لحقوق الله تعالى، وستكبرون بتضييعكم حقوق العباد، وبالفعل حدث ذلك، ولكن كلما أفسدوا وتكبروا، ذاقوا العذاب الأليم في كل مرة.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾

٥- أصاب بني إسرائيل التقدم والازدهار، والتأخر والترجع مرّات عديدة، وعند أكثر المفسرين: المراد بالوعْد الأول في هذه الآية: ذلك التدهور الذي حدث عندما هاجم بخت نصر ملك بابل القدس عام ٥٨٧ قبل الميلاد، وانتشر جنوده المحاربون في المدينة، وهدموا الهيكل السليماني، وذبحوا أعدادًا كبيرة من اليهود كما تذبّح الخراف، واستعبدوا أعدادًا لا تحصى منهم.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ إِنِ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾

٦- بعد موت بخت نصر تغير الحال، وأنعم الله تعالى على بني إسرائيل

بوفرة من الأموال وكثرة من الأولاد، وكتب لهم الازدهار ثانية في القدس، وعاد أكثر اليهود إلى فلسطين، وأعادوا بناء الهيكل السليماني من جديد، لكن حين أخذوا يُفسدون في البلاد ثانية ويتكبرون فيها، إلى درجة أنهم حاولوا - بشدة - قتل سيدنا عيسى عليه السلام (لكن الله نجاه ورفعَه إليه)، وقتلوا سيدنا زكريا وسيدنا يحيى عليهما السلام^(١)، عاقبهم الله تعالى بالتراجع والتدهور ثانية، وهو الذي أصابهم حين هاجم توتيس (Titus) ملك الروم القدس عام ٧٠م، وهدم الهيكل السليماني كما حدث في المرة الأولى، وقتل أكثر من مليون يهودي، وباع من بقي على قيد الحياة من اليهود عبيداً وإماءً، ونفاهم من البلاد. ولمزيد من التفصيل راجع «تفسير ضياء القرآن» في هذا الخصوص.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُثِمَ عُذْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾

٧- نبه الله تعالى بني إسرائيل إلى أنكم خالفتم شريعة سيدنا موسى عليه السلام، فدمركم بحث نصر عام ٥٨٧ ق.م، ثم خالفتم شريعة سيدنا عيسى عليه السلام، فدمركم توتيس عام ٧٠م، والآن جاءكم شريعة سيدنا محمد ﷺ، فآمنوا بها يرحمكم الله، ولئن عصيتم ثانية فسوف نعاقبكم كما عاقبناكم من قبل، وبالفعل، حدث هذا، فاليهود الذين لم يؤمنوا بالنبى ﷺ اضطروا للرحيل عن المدينة المنورة وعن خيبر، وفي نهاية الأمر استولى المسلمون على القدس أيضاً، والفرق فقط هو أن الملوك الأول أهانوا بيت المقدس، بينما أعاد المسلمون بناءه، وردوا إليه حرمة. واليوم، المسلمون في العالم مظلومون، وتدنس أماكنهم ورموزهم المقدسة، والسبب واضح أيضاً، فكما أن بني إسرائيل خالفوا أحكام الله تعالى فأصابهم

الانحطاط، كذلك ضُربَ المسلمونَ اليومَ بالأحكامِ الإلهيةِ عُرِضَ الحائطُ، فحاقَ بهم الظلمُ:

* لو أننا لم ننسَ دَرَسَ القرآنَ، لما أَرانا الزَّمنُ هذا الوقتَ الذي نعيشُه.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

٨ - كان طريقُ الكتُبِ السَّماويةِ الأولى قوياً ومستقيماً، لكنَّ طريقَ القرآنِ أكثرُ قوَّةً واستقامةً منها، فالذين سيعملونَ بالقرآنِ، سيجزيهم اللهُ تعالى أحسنَ الجزاءِ، والذين يُنكرونها الآخرةَ، سيُعَذِّبهم اللهُ عذاباً أليماً.

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ ۖ فِي عُنُقِهِ ۚ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مِّنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا نُزِرُ وَأَرْزُقُ وَزَرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نَّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ ۖ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نَّمِدُّهُهُنَّ وَهُنَّ لَآئٍ مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُومًا ﴿٢٢﴾

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾

٩- في بعض الأحيان يلعن الإنسان - في غضبه - ماله وأولاده، ويدعو بهلاكه وهلاكهم! مع أنه لا يقصد ذلك أبداً، والحقيقة أن هذه علامة على تعجله، لكن من رحمة الله وكرمه أنه لا يقبل مثل هذا الدعاء فوراً، ولو أن الله تعالى قبل مثل هذا الدعاء من كل إنسان، لكان كثير من الناس قد هلكوا حتى هذه اللحظة، مثلما جاء في الآية رقم ١١ من سورة يونس (١٠) ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، لهذا ينبغي للإنسان أن يتحلى بالصبر والتحمل في مواجهة الظروف، وأن يتجنب الدعاء على نفسه بتعجله.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾

١٠- جعلنا الليل لكم مظلمًا لتستريحوا فيه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧]، والنهار مضيئًا لتبحثوا عن أرزاقكم في نوره، وفي تعاقب الليل والنهار هكذا آيات على قدرة الله تعالى الذي خلقها، وجعلها تدور وتتعاقب في نظام وترتيب مستمر، كما أن لتعاقب الليل والنهار فائدة أخرى، وهي أنكم تستطيعون من خلاله حساب الشهور والسنين وعدّها.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾

١١- فصل الله تعالى في القرآن الكريم تفصيلاً كاملاً كل شيء ضروري لكم في الدين والدنيا.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾

١٢- ذَكَرَ سَيِّدُنَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ حَدِيثًا قُدُسِيًّا قَالَ فِيهِ اللَّهُ تَعَالَى: «يَا ابْنَ آدَمَ، بَسَطْنَا لَكَ صَحِيفَةً، وَوُكِّلَ بِكَ مَلَكَانِ كَرِيمَانِ: أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِكَ، وَالْآخَرُ عَنْ يَسَارِكَ، فَأَمَّا الَّذِي عَنْ يَمِينِكَ فَيَحْفَظُ حَسَنَاتِكَ، وَأَمَّا الَّذِي عَنْ شِمَالِكَ فَيَحْفَظُ سَيِّئَاتِكَ، فَاعْمَلْ مَا شِئْتَ، أَقَلُّ أَوْ أَكْثَرُ، حَتَّى إِذَا مِتَّ طُوِيَتْ صَحِيفَتُكَ، فَجُعِلَتْ فِي عُنُقِكَ مَعَكَ فِي قَبْرِكَ، حَتَّى تُخْرَجَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا»^(١).

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

١٣- أَيْنَمَا كَانَ الْإِنْسَانُ، وَفِي أَيِّ حَالٍ كَانَ، هُنَاكَ مَلَكَانِ مَعَهُ دَائِمًا وَفِي كُلِّ وَقْتٍ، يَكْتُبُونَ كُلَّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا، وَكُلَّ سَيِّئَةٍ يَقْتَرِفُهَا، فِي صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِ، وَحِينَ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَوْضَعُ أَمَامَهُ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ مَفْتُوحَةً، وَيَقَالُ لَهُ: اقْرَأْهَا بِنَفْسِكَ، وَسَتَعْرِفُ مَبَاشَرَةً أَيَّ أَجْرٍ، أَوْ أَيِّ عِقَابٍ تَسْتَحِقُّهُ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي لَنَا الْيَوْمَ أَنْ نَقُومَ بِالْأَعْمَالِ الَّتِي لَا نَحْجُلُ مِنْهَا حِينَ نَرَاهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ شَخْصٍ الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ، كَمَا أَنَّ أَكْثَرَ الْمُتَعَلِّمِينَ لَا يَعْرِفُونَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ، وَلَكِنْ يُعَلِّمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ سَيَقْرَأُ صَحِيفَةَ أَعْمَالِهِ الْمَكْتُوبَةِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِنَفْسِهِ، سَوَاءً كَانَ مُسْلِمًا أَمْ غَيْرَ مُسْلِمٍ، وَسَوَاءً كَانَ أُمِّيًّا أَمْ غَيْرَ أُمِّيٍّ، مِثْلَمَا رَوَى الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ عَنْ سَيِّدِنَا قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَيَقْرَأُ يَوْمَئِذٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَارِئًا فِي الدُّنْيَا»^(٢)، وَقَدْ قَالَ سَيِّدُنَا الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَقْرَأُ أُمِّيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ أُمِّيٍّ»^(٣).

(١) التفسير المنير.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري وتفسير ابن أبي حاتم.

(٣) تفسير زاد المسير.

يقول سيّدنا أبو أمامة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُؤْتَى كِتَابَهُ مَنْشُورًا فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، فَأَيْنَ حَسَنَاتِي كَذَا وَكَذَا عَمِلْتُهَا لَيْسَتْ فِي صَحِيفَتِي؟ فَيَقُولُ: مُجِيبًا بِأَعْيَابِكَ لِلنَّاسِ»^(١).

﴿مَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزْرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾

١٤- يُعْلَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ مُسْئِلٌ عَنْ أَعْمَالِهِ، وَلَنْ يَحْمِلَ شَخْصٌ أَوْزَارَ شَخْصٍ آخَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِمَعْنَى: أَنَّ كُلَّ شَخْصٍ سَيُنَابِئُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، وَيُعَاقَبُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ وَضَلَالِهِ الَّذِي اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

١٥- سَنَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُعَرِّفَ كُلَّ قَوْمٍ أَوْلاً بِالْهُدَايَةِ عَنْ طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ مَنْ يُتُوبُونَ عَنْهُمْ، وَمَنْ يَخْتَارُ الضَّلَالَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ عَمْدٍ يَعَاقِبُهُ، أَمَّا مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ رِسَالَةُ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ لَا يَعْلَمُهَا تَمَامَ الْعِلْمِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى^(٢).

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾

١٦- عِنْدَمَا يُفْسِدُ أَهْلُ قَرْيَةٍ مَا وَيَطْعُونَ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُنْزِلُ الْعَذَابَ عَلَيْهِمْ فَوْرًا، وَإِنَّمَا يُمَهِّلُهُمْ، وَيُبَلِّغُ رِسَالَةَ الْهُدَايَةِ إِلَى الْأَغْنِيَاءِ وَأَصْحَابِ النُّفُوزِ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ بِدَايَةٍ عَنْ طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَوْ مَنْ يُتُوبُونَ عَنْهُمْ، حَتَّى يُقْلِدَهُمْ عَامَّةُ النَّاسِ وَيَهْتَدُوا، وَلَكِنْ إِنْ عَصَى هَؤُلَاءِ وَتَكَبَّرُوا وَطَغَوْا، وَأَصْرَوْا عَلَى هَذَا بَرْغَمَ مَا سَبَقَ، وَجَبَ نَزُولُ الْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَدْمُرُ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَيُهْلِكُهَا حِينَ يَشَاءُ.

(١) التفسير المظهر.

(٢) «وَمَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ فَهُوَ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لِلْعَذَابِ مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ». تفسير القرطبي.

وَيُعَلِّمُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْأَغْنِيَاءَ وَأَصْحَابَ الثَّفُودِ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى وَيَخَافُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ جَانِبٍ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ فَإِنَّ عَامَّةَ النَّاسِ يَقْلِدُونَهُمْ، وَلِهَذَا إِنْ كَانَتْ أَعْمَالُ الْأَغْنِيَاءِ طَيِّبَةً، فَإِنَّ أَعْمَالَ عَامَّةِ النَّاسِ تَكُونُ طَيِّبَةً أَيْضًا، وَإِنْ أَسَاءُوا أَسَاءَ عَامَّةِ النَّاسِ كَذَلِكَ.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾

١٧- سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ الْأَقْوَامَ الَّتِي تُصَرُّ عَلَى الْعِصْيَانِ وَالْفُسَادِ بَرَّغَمَ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَهُمْ، سَيَأْتِي عَلَيْهِمْ يَوْمٌ - فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ - يُهْلِكُهُمْ، وَمِثَالُ قَوْمِ سَيِّدِنَا نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ أَمَانًا، كَمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُهْلِكُ أَحَدًا بِغَيْرِ سَبَبٍ، وَهُوَ يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ أَعْمَالَ عِبَادِهِ، وَيَعَاقِبُهُمْ طَبَقًا لِمَا يَرْتَكِبُونَ مِنْ جُرْمٍ.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾

١٨- الَّذِي يَطْلُبُ الدُّنْيَا فَقَطْ لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يُعْطَاهَا بِنَاءً عَلَى طَلْبِهِ، وَإِنَّمَا يُعْطَاهَا فَقَطْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهَا لَهُ، وَبِالْقَدْرِ الَّذِي يَرِيدُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَكِنَّهُ يَسْتَحِقُّ جَهَنَّمَ فَقَطْ لِأَنَّهُ طَلَبَ الدُّنْيَا وَغَفَلَ عَنِ الْآخِرَةِ، وَسَوْفَ يُلْقَى بِهِ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَلِيلًا صَاغِرًا مُحْتَقَرًا.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾

١٩- الَّذِي يُفْضِلُ الْآخِرَةَ فِي مَقَابِلِ الدُّنْيَا، وَيَحَاوُلُ قَدْرَ اسْتَطَاعَتِهِ بِإِيمَانِهِ أَنْ يَكُونَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْمَفْلِحِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ مُحَاوَلَةَ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ.

﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾

٢٠- اللَّهُ تَعَالَى يُعْطِي كُلَّ فَرْدٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا رِزْقَهُ، سِوَاءِ كَانَتْ مُؤْمِنًا أَمْ كَافِرًا،

وسواءً كان طالب دُنْيا أم طالب آخِرة، وبابُ النِّعم الدُّنيويَّة ليس حِكراً على أحدٍ بعَيْنِه، وإنَّما يصلُّ إليه كلُّ بقْدَرٍ محاولته، أمَّا نِعَمُ الآخِرة فلا ينالُها إلَّا أولئك السُّعداءُ المؤمنون الذين عَمِلُوا الصَّالحات.

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

٢١- فَضَّلَ اللهُ تعالى بعضَ الناس في هذه الدُّنيا على البعض الآخر لحِكْمَةٍ عنده، ولكن في الآخِرة سيكونُ البعضُ أَفْضَلَ من البعض الآخر بآلافِ الدَّرجات، بل بدرجاتٍ لا تُحصى، إلى أن يَسْعَدَ أَهلُ الإيمانِ برِيعِ الجَنَّة، وَيَصَلَّى العِصاةُ نارَ جهنَّم. وفي هذه الآية ترغيبٌ للإنسانِ أنه كما يحاولُ في هذه الدُّنيا ليتقدَّمَ على غيره، عليه أن يحاولَ أيضًا من أَجلِ التقدُّم على الآخرين في الآخِرة؛ لأنَّ الفرقَ بين الدَّرجاتِ في الآخِرة يكونُ شاسعًا للغاية.

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخَذُولًا ﴾

٢٢- لا يَلِيقُ بالسيِّدِ الإنسان - وهو أَشْرَفُ المخلوقات - أن يعبُدَ أحدًا آخرَ مع الله تعالى، ومَنْ يُشْرِكُ بالله سيكونُ في الآخِرة ذليلاً مُهانًا لا عونَ له ولا سَنَد.

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣ ﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٢٤ ﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ٢٥ ﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ٢٦ ﴾ إِنْ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ٢٧ ﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ٢٨ ﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا ٢٩ ﴾ إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ٣٠ ﴾

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكَفَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣ ﴾
وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴿

٢٣- في هذه الآية أمر الله تعالى بحسن معاملة الوالدين، وجعلها في المرتبة الثانية بعد عبادته، ومنه تتضح أهمية خدمة الوالدين وطاعتهم.

الخالق الحقيقي للإنسان هو الله تعالى لا شك في ذلك، لكن السبب الظاهري لمجيئه في هذه الحياة هو الوالدان، وبنفس الطريقة فإن المربي الحقيقي للإنسان هو الله تعالى أيضاً، ولكن السبب الظاهري في هذه التربية هو الوالدان اللذان لا يألوان جهداً في العمل من أجل خير الأبناء، رغم المصاعب والمشكلات، ولهذا يكون من حقهما أن يعمل الأولاد دُجْدً واجتهاد على خدمتهما، وأن لا يقولوا لأحدهما: «أف»، وإنما يتحدثون إليهما بكل تواضع واحترام، ويدعون الله لهما دائماً أن يا رب، ارحم والدي كما ربّيتني في طفولتي صغيراً برحمة كبيرة منهما.

حقوق الوالدين وفضلهما:

١- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: أجاهد؟ قال: «ألك أبوان؟»، قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»^(١)، وطالما لم يكن الجهاد فرض عَيْن لا يجوز للأبناء المشاركة في الجهاد بغير إذن والديهم.

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ما من ولدٍ بارٍّ ينظرُ إلى والديه نظرة رحمةٍ إلا كتب الله له بكل نظرة حجة مبرورة، قالوا: وإن نظر كل يوم مائة مرة؟ قال: «نعم، الله أكبر وأطيب»^(٢).

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣ برقم ٥٩٧٢.

(٢) مشكاة المصابيح، باب البر، الفصل الثالث.

٣- عن ابنِ عُمَرَ رضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآله وسلَّم: «نومُك على السريرِ بَرًّا بوالدَيْك تُضحِكُهما ويُضحِكُكَ أَفْضَلُ من جهادِكَ بالسَّيفِ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ»^(١).

٤- عن مالكِ بنِ ربيعةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: بيَّنا نحن عندَ النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وآله وسلَّم إذ جاءه رجلٌ من بني سَلَمَةَ فقال: يا رسولَ الله، أبقِي من بَرِّ أبويَّ شيءٌ أبرُّهما به من بعدِ موتِهما؟ قال: «نَعَمْ، الصَّلَاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإيفاءُ بعهودِهما من بعدِ موتِهما، وإكرامُ صديقِهما، وصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لا تُوَصَّلُ إِلَّا بهما»^(٢).

٥- عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآله وسلَّم: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَمُوتُ وَالِدَاهُ أَوْ أَحَدُهُمَا وَإِنَّهُمَا لَعِاقٌ، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو لهما وَيَسْتَغْفِرُ لهما حَتَّى يَكْتُبَهُ اللهُ بَارًّا»^(٣).

٦- عن مُحَمَّدِ بنِ النُّعْمَانِ رضيَ اللهُ عنه، أَنَّ النَّبيَّ صلى اللهُ عليه وآله وسلَّم قال: «مَنْ زَارَ قَبْرَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدِهِمَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً غَفَرَ اللهُ لَهُ وَكُتِبَ بَرًّا»^(٤).

٧- قال النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وآله وسلَّم: «لَا يَرَى وَجْهِي (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ثَلَاثَةَ أَقْوَامٍ، أَحَدُهَا: الْعَاقُ لَوَالِدَيْهِ، وَالثَّانِي: تَارِكُ سُنَّتِي وَالثَّالِثُ: مَنْ ذَكَرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»^(٥).

٨- عن هشامِ بنِ عُرْوَةَ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضيَ اللهُ عنه أَبْصَرَ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ لِأَحَدِهِمَا: مَا هَذَا مِنْكَ؟ فَقَالَ: أَبِي، فَقَالَ: لَا تُسَمِّهِ بِاسْمِهِ، وَلَا تَمْشِ أَمَامَهُ، وَلَا تَجْلِسَ قَبْلَهُ»^(٦).

(١) تفسير الدر المنثور.

(٢) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ٢ برقم ٣٦٦٤.

(٣) مشكاة المصابيح، باب البر، الفصل الثالث.

(٤) مشكاة المصابيح، باب زيارة القبور، الفصل الثالث.

(٥) تفسير روح البيان، سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٥٦.

(٦) الإمام البخاري، الأدب المفرد، ٢٢.

٩- عن أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلَّم قال: «الجنةُ تحتَ أقدامِ الأمَّهاتِ»^(١).

١٠- عن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، أنَّ رجُلًا كان في الطَّوافِ حاملًا أُمَّهُ، فسأل النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلَّم: هل أدبْتُ حقَّها؟ قال: «لا، ولا بركةٍ واحدةٍ (طَلَقَةٍ واحدةٍ)»^(٢).

١١- عن أسماء بنتِ أبي بكرٍ رضي الله عنهما، قلتُ: قَدِمْتُ عَلَيَّ أُمِّي وهي مُشْرِكةٌ في عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، فاستَفْتَيْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، قلتُ: إنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وهي راغبةٌ، أفأصلُّ أُمِّي؟ «قال: نعم، صلي أُمَّك»^(٣).

١٢- «حُكِيَ أَنَّ رجُلًا جاء إلى الأستاذِ أبي إسحاقَ فقال: رأيتُ البارحةَ في المنام أنَّ لحيَتَكَ مُرَصَّعةً بالجواهرِ واليواقيتِ، فقال: صَدَقْتَ، فإنِّي البارحةَ مسحْتُ لحيَتِي تحتَ قدمٍ والدتي قبلُ أنْ نِمْتُ، فهذا من ذاك. ويَباشرُ ابنُ إسحاقَ خِدْمَتَهَا بيده ولا يُفَوِّضُهَا إلى غيره؛ لأنَّه ليس بعارٍ للرجُل أنْ يَخْدُمَ معلَّمه وأبُوئِه وسُلْطانَه وضيْفَه ولا يؤمُّه للصَّلَاةِ وإنْ كان أفقَه منه أي: أعلمَ بالفقه من الأب، ولا يمشي أُمَامَهُمَا إِلَّا أنْ يَكُونَ لِإِمَاظَةِ الْأَذَى عن الطريق، ولا يَتَصَدَّرَ عليهما في المجلس، ولا يَسْبِقُ عليهما في شيءٍ أي: في الأكلِ والشُّربِ والجلوسِ والكلامِ وغيرِ ذلك»^(٤)، وراجع في ذلك الحاشية رقم ٥١ من سورة النساء (٤).

(١) كنز العمال، برقم ٤٥٤٣٩.

(٢) مجمع الزوائد، ٨: ١٣٧.

(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣ برقم ٢٦٢٠.

(٤) تفسير روح البيان.

﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾

٢٤- يعني: العاطفة التي تُكُونُهَا في قلوبكم لو الديكم، سواء كانت حسنة أم سيئة، الله تعالى يعلمها تمام العلم، ولهذا فإنه إذا كان أحدنا يُقَصِّرُ في خدمة والديه وطاعتهما من قبل، فعليه الآن التوبة إلى الله، وأن يكون صالحًا؛ لأنَّ مَنْ يتوبُ إلى الله بصدق من قلبه يغفرُ الله له.

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾

٢٥- يُعَلِّمُ من هذه الآية أنَّ مساعدة الأقارب الفقراء والمساكين وعابري السبيل المحتاجين ليس إحسانًا عليهم ولا مَنَّةً، وإنما جعل الله تعالى في مال الأغنياء حقًّا لهؤلاء الفقراء، ولذا على الأغنياء أن يفهموا أنَّ هذه المساعدة فرضٌ عليهم، وأن يُساعدوا الفقراء.

﴿ وَلَا بُذْرَ تَبَذِيرًا ۖ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾

٢٦- المالُ فضلٌ من الله تعالى وإحسانٌ منه، وتضييعُه أو إنفاقُه فيما لا يفيدُ، أو إنفاقُه في معصية الله تعالى يَدْخُلُ كُلُّهُ في باب التبذير، وقد مَنَعَ الله من التبذير، وهو عملٌ مذموم بحيثُ أنَّ مرتكبَه يُعَدُّ أَخًا للشيطان، وكأنه كما أنَّ الشيطانَ جاحدٌ فَإِنَّ الإنسانَ الذي يُنْفِقُ المالَ فيما يُغَضِبُ الله تعالى جاحدٌ أيضًا.

«قال عثمان بن الأسود: كنتُ أطوفُ في المساجدِ مع مجاهدٍ حولَ الكعبة، فرَفَعَ رأسَه إلى أبي قُبَيْسٍ وقال: لو أنَّ رجلًا أنفقَ مِثْلَ هذا في طاعة الله لم يكنُ من المُسْرِفينَ، ولو أنفقَ درهمًا واحدًا في معصية الله كان من المُسْرِفينَ. وأنفقَ بعضهم نفقةً في خيرٍ فأكثر، فقليل له: لا خيرَ في السَّرَفِ، فقال: لا سَرَفَ في الخير»^(١).

أي أنّ شخصاً أنفقَ مالاً كثيراً في عملٍ من أعمالِ الخير، وقيل له: إنه لا خيرَ في التبذير، فقال: لا تبذيرَ في الخير^(١)، يعني: أنه مهما تُنفقَ في طاعةِ الله تعالى، فإنه لا يُعدُّ تبذيراً.

﴿وَمَا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾

٢٧- حين يسألك الأقارب الفقراء والمساكين وعابرو السبيل المحتاجون العون والممدد، ولم تكن أحوالك المادية ميسرة إذ ذاك بحيث تستطيع مساعدتهم، وكنت أنت أيضاً من الذين يأملون - في فضل الله ورحمته - أن يُيسرَ أحوالك في القريب، فعليك أن تعتذر بكل احترام ولين من الأقارب الفقراء والمساكين، وأن تعدّهم أنه ما إن تيسرَ أحوالك المادية فسوف تساعدُهم، وذلك حتى يعلموا بأنك أيضاً مضطّرٌّ مثلهم، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر لا تنكسر قلوبهم.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾

٢٨- في الآيات السابقة رغب في الإنفاق، وفي هذه الآية علّمنا آداب الإنفاق، بمعنى: لا تبخلوا إلى الحد الذي لا تؤدّون فيه حقوق العباد، فيلومكم الناس، ولا تُسرفوا أيضاً حتى لا ينتهي مالكم، وتضطّروا إلى سؤال الناس، وإنما حافظوا على الاعتدال والتوازن في حالة اليسر وحالة العسر أيضاً.

بعض الأحاديث المتعلقة بالكرم والبخل:

- ١- عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أنفقي - أو انضحّي أو انفحي - ولا تحصي فيحصي الله عليك»^(٢).

(١) التفسير الكبير.

(٢) مسلم، برقم ١٠٢٩.

٢- عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»^(١).

٣- قال النبي ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير إسراف ولا مخيلة». وقال ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك اثنتان: سرف أو مخيلة^(٢).

٤- عن سهل - رضى الله عنه - أن امرأة جاءت النبي ﷺ ببرد منسوجة فيها حاشيتها ... «أندرون ما البردة؟»، قالوا: الشملة، قال: «نعم». قالت: نسجتها بيدي، فجئت لأكسوكها. فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فحسناها فلان، فقال: اكسنيها، ما أحسنها! قال القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجًا إليها، ثم سألته وعلمت أنه لا يرُدُّ. قال: إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفي. قال سهل: فكانت كفته^(٣)، ويقول العلامة ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث: «وقال ابن بطال: فيه جواز إعداد الشيء قبل وقت الحاجة إليه، قال: وقد حفر جماعة من الصالحين قبورهم قبل الموت»^(٤).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾

٢٩- يجعل الله تعالى سعة في الرزق لمن يشاء، ومن يشاء ضيق عليه وسائل الرزق، وسعة الرزق وضيقه متوقف على مشيئة الله تعالى، ولا يعلم الحكمة منها تمام العلم إلا هو، ولكن ليس معنى هذا أن الله يكون راضيًا عمَّن لديه سعة في

(١) مسلم، برقم ١٠١٠.

(٢) البخاري، كتاب اللباس، باب ١.

(٣) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٢٩ برقم ١٢٧٧.

(٤) فتح الباري، ٣: ١٤٤.

الرِّزْقَ، وأنه غاضبٌ عَمَّنْ لَدَيْهِ ضِيقٌ فِي الرِّزْقِ، وإنما يَرْضَى اللهُ تعالى عَمَّنْ يُطِيعُهُ، سواءً كان غنياً أم فقيراً.

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَزْفُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾
وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ أَسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَزْفُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾

٣٠- كان أكثر أهل الجزيرة العربية من الفقراء والبُدُو الرُّحُل، وكانوا يعتقدون أنه: كيف يستطيعون توفير الطعام لأولادهم إذا كانوا يعانون صعوبات جمة في توفير الطعام لأنفسهم؟ ولهذا كان كثير من الناس يقتلون أولادهم بسبب هذا الفقر الاقتصادي، وفي هذه الآية يُخبرهم الله تعالى أن القتل بغير حق ذنبٌ عظيم، ولا تقتلوا أولادكم خَشْيَةَ الفقر؛ لأن الرزاق الحقيقي للمخلوقات كلها هو الله تعالى، وهو الذي سيرزق أولادكم أيضًا كما يرزقكم أنتم.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾

٣١- الزنا ذنبٌ عظيم، فلا تقربوه، أي: تجنبوا الأسباب التي تؤدي إلى الزنا؛

لأنّ هذا فاحشة إذا ارتكبها رجل متزوّج أو امرأة متزوّجة لوجب قتلهما رجماً بالحجارة، حتى يُصباحا عبرة لمن يعتبر.

ويعلم من هذا أنّ الزنا أشدّ جرماً من القتل أيضاً؛ لأنّ عقاب القتل هو القتل، ولكنّ عقاب الزنا هو الرجم، وللبعد عن الزنا راجع نصيحة النبي ﷺ في الحاشية رقم ٩١ من سورة النحل (١٦).

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾

٣٢- قتل إنسان بغير سبب حرام، ولكن يجوز قتل القاتل قصاصاً للمقتول بعد أن يحكم حاكم الوقت بذلك، وقد أكّد الإسلام على الحكام أن يساعدوا ورثة المقتول في القصاص له، ولهذا يجب على ورثة المقتول شكر الله تعالى، وأن لا يتجاوزوا الحدّ في القصاص، بمعنى: أنه يجب لزوماً أن لا تقتل أكثر من واحد في قتل واحد، أو أن تقتل من لم يرتكب جريمة القتل، فهذا كلّه غير جائز.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

٣٣- اليتيم يُقال لذلك: الطفل غير البالغ الذي مات أبوه، إذ إن هذا المسكين يكون متألماً للغاية وضعيفاً وغير مُدرِك بعد، ولذا ينبغي الاحتياط بشكل أكبر فيما يتعلّق بماله، فعليكم أن تحفظوا عليه ماله، أو أن تستثمروه في تجارة تضيف إليه وتزيده، وحين يصل الطفل إلى مرحلة الشباب، ويستطيع أن يدرك ما ينفعه وما يضره، عندئذ سلّموه أمواله بكلّ أمانة، وأوفوا بوعدكم، سواء كان هذا الوعد ليتيم أم لغيره؛ لأنكم ستسألون يوم القيامة عن هذه الوعود.

١- عن أبي بَرزّة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «يُبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم نارا»، فقيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «ألم تر أنّ الله تعالى يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ الآية^(١).

٢- عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا ما رأيت ليلة الإسراء بك، قال: انطلق بي إلى خلقٍ من خلق الله كثير، رجال كل رجل منهم له مشفران كمشفر البعير، وهو موكل بهم، رجال يفكون لحي أحدهم، ثم يجاء بصخرة من نار فتقذف في في أحدهم حتى تخرج من أسفله، وله خوار وضراخ، فقلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(٢)، ولمزيد من التفصيل عن اليتيم راجع الحاشية رقم ٤ من سورة النساء (٤).

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

٣٤- لا تطففوا في الكيل والميزان، فهو خير لكم، إذ بهذه الطريقة تزداد ثقتكم وتجارحكم، ويكون لكم الثواب في الآخرة أيضاً، أما إن ارتكبتم الغش في الكيل والميزان، فسوف يفقد الناس الثقة فيكم، ولن تكون تجارتكم رابحة.

١- عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، قال: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»^(٣).

٢- عن ابن عمر، قال: قال رسول الله - ﷺ - «التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة»^(٤).

(١) تفسير ابن أبي حاتم، سورة النساء (٤): الآية ١٠، برقم ٤٨٨١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، الموضع السابق، برقم ٤٨٨٤.

(٣) الترمذي، أبواب البيوع، باب ٤ برقم ٢٠٩.

(٤) ابن ماجه، أبواب التجارات، باب ١ برقم ٢١٣٩.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْغُولًا﴾

٣٥- يعني: الشيء الذي لا تعلمونه إذا اتبعتموه فسوف تُسأل عنه آذانكم وعيونكم وقلوبكم يوم القيامة؛ هل رأيتم هذا الشيء بأعينكم وسمِعتموه بأذانكم؟ فماذا سيكون جوابكم في ذلك الوقت؟ لهذا عليكم تجنبُ تقليدِ واتباع الأشياء التي لا تعرفونها، واتبِعوا القرآنَ المَجِيدَ وهو الحق.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾

٣٦- لا يليقُ بالإنسان أن يمشيَ بغرورٍ كالمتكبرين؛ لأنه لا طاقة في قدميه بحيث يمكنه خرقُ الأرض وشقُّها، ولا رأسه مرتفعٌ بحيث يطاولُ الجبال، ولهذا عليه أن يختارَ طريقَ التواضع، وهو الأفضل له.

عن عمرَ قال وهو على المنبر: يا أيُّها الناس، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من تواضعَ لله رَفَعَهُ اللهُ، فهو في نفسه صغير، وفي أعينِ الناس كبير، ومن تكبرَ وَضَعَهُ اللهُ، فهو في أعينِ الناسِ صغير، وفي نفسه كبير، حتَّى لهُو أهونُ عليهم من كلبٍ أو خنزيرٍ، والله أعلم»^(١).

ويَنقُلُ العلامةُ القُرطبيُّ في تفسير هذه الآية بيتين من الشعر لشاعر عربيِّ هما:

* ولا تمشِ فوقَ الأرضِ إلَّا تواضعًا فكم تحتها قومٌ همو منك أرفع

* وإن كنتَ في عزٍّ وحِزٍّ ومنعةٍ فكم ماتَ من قومٍ همو منك أَمْنَعُ^(٢)

ولمزيد من التفصيل عن ذمِّ التكبر راجع الحاشية رقم ١٤ من سورة النحل

(١٦).

(١) التفسير المظهرى.

(٢) تفسير القرطبي.

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾

٣٧- لا يحبُّ الله تعالى ارتكابَ الأمور التي مَنَعَ منها في الآياتِ السابقة.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾

٣٨- الأحكامُ المليئةُ بالعلم والحكمة والتي أنزلها الله تعالى في هذه الآيات، بدأت بحكم التوحيد في الآية رقم ٢٢، وبلغت نهايتها في هذه الآية بحكم التوحيد أيضاً، بمعنى: ألا تُشركوا مع الله أحداً في العبادة، وإلا أصابكم الخزي والذلُّ، وألقيتم في جهنمَ مدحورين أذلاء.

ويعلمُ منه أن التوحيد هو أصلُ الأحكام الإسلامية كلها، والعملُ المقبولُ هو ذلك الذي يبدأ بالتوحيد وينتهي كذلك بالتوحيد.

﴿أَفَاصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾

٣٩- كان أكثرُ العربِ يكرهون البناتِ، في حينَ أن بعضَ القبائل كانت تدَّعي أن الملائكة بناتُ الله، وفي هذه الآية يُنبِّههم الله تعالى إلى أن هذه حماقةٌ كبرى، وأمرٌ خلافُ الأدب، أن تُحبُّوا لأنفسكم البنين، وتُبتوا لله تعالى البناتِ، مع أن الله تعالى منزَّهٌ أصلاً عن الولد.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ

وَحَدَّهُ، وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمْعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْخِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ بِحَمْدِهِ، وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

٤٠- بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْعُقَائِدَ وَالْأَعْمَالَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِطُرُقٍ وَأَسَالِيبَ مُخْتَلِفَةٍ، حَتَّى يَتَفَكَّرَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ طَبَقًا لِدَوَقِهِ وَمُيُولِهِ، وَيَحْصُلَ مِنْهُ عَلَى النَّصِيحَةِ، لَكِنَّ الْمَشْرِكِينَ بَلَّغُوا الْمَدَى فِي تَعْصُبِهِمْ، بَحِثُ أَنْ شَرِكَهُمْ كَانَ يَزِدَادُ كُلَّمَا سَمِعُوا كَلَامَ التَّوْحِيدِ، فَيَغْرَقُونَ فِي مَزِيدٍ مِنَ الْكَيْدِ لِلْإِسْلَامِ وَمُخَالَفَتِهِ.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بَنَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾

٤١- لَوْ كَانَ مَعَ اللَّهِ آلِهَةٌ أُخْرَى لَاجْتَمَعُوا سَوِيًّا وَتَحَدَّثُوا اللَّهُ تَعَالَى مَالِكَ الْعَرْشِ، وَحَافِلُوا التَّغْلُبَ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ هَذَا لَا أَصْلَ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ.

وَيُعَلِّمُ مِنْهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاحِدٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَنْزَرَةٌ - فِي الْحَقِيقَةِ - عَنْ كُلِّ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُشْرِكُهَا الْمَشْرِكُونَ مَعَهُ وَأَعْلَى مِنْهَا وَأَعْظَمُ.

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿٤٣﴾ نَسِخَ لَهُ السَّعَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يَنْسِخُ بِحُدُودِهِ وَلَكِنَّ لَا نَفْقَهُونَ نَسِخَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

٤٢- كُلُّ شَيْءٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى وَيُسَبِّحُهُ بِأَسْلُوبِهِ وَطَرِيقَتِهِ، وَلَآئِنَّا لَا نَفْهَمُ لُغَتَهَا، أَوْ لَا نَسْمَعُ أَصْوَاتَهَا، فَإِنَّا لَا نَفْهَمُ تَسْبِيحَهَا،

وبنفس الطريقة هناك ملائكةٌ معنا في كلِّ وقت، ولكنْ لأننا عاجزونَ عن أن نراهم أو أن نسمعَ كلامهم، لهذا لا نستطيعُ أن نسمعَ تسييحهم أيضًا، إلّا أن الأنبياء الكرامَ عليهم السّلام بمعجزاتهم، وأولياء الله الصّالحين بكراماتهم، يستطيعون سماعَ هذه التسيحاتِ مثلما يتّضح ممّا يلي:

١- يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «ولقد كنّا نسمعُ تسبيحَ الطّعام وهو يؤكّل»^(١).

٢- عن جابر بن سمرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إني لأعرفُ حَجَرًا بمكّة كان يُسلمُ عليّ قبلَ أن أُبعث، إني لأعرفُهُ الآن»^(٢).

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾

٤٣- حين كان النبي ﷺ يقرأ القرآن، ويحاولُ المشركونَ الاقترابَ منه لإيذائه، فإنَّ الله تعالى كان يحولُ بينَ الرّسول ﷺ والمشركينَ بحائلٍ غيرِ مرئيٍّ، بحيث لا يستطيعونَ رؤيته ﷺ، وينقلُ العلامةُ البغويُّ في تفسيرِ هذه الآيةِ روايةً لسعيد بن جبير تقول: «أنه لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ جاءتِ امرأةُ أبي لهبٍ ومعها حَجَرٌ، والنبيُّ ﷺ مع أبي بكرٍ، فلم تره، فقالت لأبي بكرٍ: أين صاحبُك؟ لقد بلغني أنَّه هَجَانِي؟ فقال: والله ما ينطقُ بالشَّعر ولا يقوله، فرجعت وهي تقول: قد كنتُ جئتُ بهذا الحَجَرِ لأرضخَ رأسه، فقال أبو بكرٍ: ما رأيتُك يا رسولَ الله، قال: «لا، لم يزلْ ملكٌ بيني وبينها يسْتُرني»^(٣).

(١) البخاري، برقم ٣٥٧٩.

(٢) مسلم، كتاب الفضائل، باب ١ برقم ٢٢٧٧.

(٣) تفسير البغوي وتفسير الخازن.

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتِ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّهُ وَلَوْ أَعْلَى أَذْبَرَهُمْ نُفُورًا ﴾

٤٤- كان المشركون يكرهون التوحيد لدرجة أنهم ما إن يسمعو اسم التوحيد حتى كانوا يولّون هارين، بله أن يسمعو الكلام عنه ويتدبروا فيه. ولمزيد من الشرح لهذه الآية راجع الحاشية رقم ٢٤ من سورة الأنعام (٦).
﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾

٤٥- عندما كان المشركون يسمعون القرآن الكريم، لم يكونوا يقصدون إلى فهمه، وإنما كانوا يسمعون للبحث عن نقص فيه أو عيب، ثم يتهامون فيما بينهم، ومن يقبل الإسلام منهم يقولون: إنه سحر، ولهذا يتكلم بما يخالف عقائد آبائنا وأجدادنا، فلا تتبعوه.

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

٤٦- ما أعجب هؤلاء المشركين! في البداية كانوا يقولون عن النبي ﷺ إنه الصادق الأمين، ثم خالفوه بعد ذلك بسبب دعوة التوحيد، فكانوا يقولون عنه أحياناً: إنه لمجنون، وأحياناً أخرى يقولون: إنه شاعر، وأحياناً ثالثة يقولون: إنه ساحر، وأحياناً رابعة يقولون: لقد سحر، ولقد بلغ هؤلاء الأشرار المسيئون في ضلالهم حداً لا يمكن أن يعودوا معه إلى الطريق المستقيم.

﴿ وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

٤٧- قال المشركون: إننا لا نفهم كيف سيمكن إحيائنا من جديد بعد أن نموت وتبلى عظامنا وتتفرق وتصير تراباً؟

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾

٤٨- فأجاب الله تعالى المشركين بأنّ التراب على أية حال شيءٌ لّتين، لكنّ حتّى إن صيرتُم بعد موتكم حجارةً، أو حديدًا، أو حتى شيئًا أقسى من ذلك، مما تعتقدون أنه من غير الممكن أن تكون فيه حياة، فالله تعالى - برغم ذلك - قادرٌ على كلّ شيء، وكما خلّقكم أول مرة من طين أو من نطفة، فإنه يستطيع كذلك أن يحييكم من جديد، وعليه سيقول المشركون بمزيد من التعجب: إذا، متى يأتي ذلك اليوم؟ فيقول النبي ﷺ: الوقت الحقيقي للقيامة لا يعلمه تمام العلم سوى الله تعالى، ولكنّ القيامة على أي حال اقتربت؛ لأنّ وقتًا كبيرًا قد مضى من عمر هذه الدنيا، ولم يبقَ إلّا وقتٌ قليل، كما أنّي النبي الآخر، ولن يأتي نبيٌ بعدي، وإنما ستقوم الساعة.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ وَتُظَنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾

٤٩- بعد أن ينهض الناس من قبورهم أحياء يوم القيامة، سينادي مُنادٍ من قبل الله تعالى للحساب، وسيقوم المسلمون وغير المسلمين بتنفيذ الأمر ويمثلون في حضرة الله تعالى؛ لأنّ غير المسلمين في ذلك اليوم سيتيقنون برؤية قدرة الله تعالى من أنّهم كانوا - بالفعل - على خطأ، وأنّ القادر المطلق الحقيقي هو الله تعالى وليس سواه، كما أنّهم سينظرون إلى هذه الحياة الدنيا وحياة البرزخ على أنّها قليلةٌ للغاية بسبب هيبة يوم القيامة، والواقع أيضًا أنّ مدة الحياة الدنيا وحياة البرزخ في مقابل الحياة الآخرة قليلةٌ جدًّا؛ لأنّ الدنيا فانيةٌ، والآخرة دائمةٌ خالدة. يقول سيّدنا سعيد بن جبّير رضي الله عنه: «تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون: سبحانك وبحمدك، ولكن لا ينفعهم اعترافٌ ذلك اليوم»^(١).

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ
 عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِن يَشَاءُ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
 وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ
 وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا
 تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ
 وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِنْ مِنْ قَرِيبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا
 قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيَا أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ
 نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا نَمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ
 بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ
 إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ
 عَدُوًّا مُبِينًا ﴾

٥٠- في هذه الآية تربية أخلاقية للمسلمين، بأنهم سواء كانوا يتحدثون مع
 المسلمين أمثالهم، أم مع غير المسلمين، عليهم في الحالتين مراعاة مقتضى التحضر
 وحسن الأخلاق، وأن لا يجرحوا قلب أحد دون مبرر؛ لأن الشيطان يستغل بشكل
 كبير ولو زلة صغيرة من اللسان، فيحدث بينكم - من خلالها - الفساد، ويحرص
 غير المسلمين عليكم بشكل أكبر.

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِن يَشَاءُ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

٥١- يا أيها النبي الحبيب ﷺ، لقد أديت حق تبليغ الرسالة، فإن أصر هؤلاء
 برغم ذلك على شركهم وكفرهم، ولم يرجعوا عنه، فلا تحزن ولا تغتم، فأنت لست
 مسئولاً عن كفرهم وشركهم، والله تعالى يعرفهم تمام المعرفة، فإن قبلوا الإسلام

سِيرَ حُجْمِهِمُ اللَّهَ تَعَالَى، وَإِنْ ظَلُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَشُرِكِهِمْ فَسَيُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾

٥٢- الله تعالى قادرٌ مطلق، وعِلْمُهُ محيطٌ بكلِّ شيءٍ، وهو يَعْلَمُ تمامًا مَنْ هو أَهْلُ للنُّبُوَّةِ، ولهذا فهو يختارُ من بني الإنسانِ مَنْ يَرَاهُ مناسبًا وَيُنْعِمُ عَلَيْهِ بِمَنْصِبِ النُّبُوَّةِ، وَيُؤْتِي عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ بِمَا يَرَاهُ مناسبًا لَهُ مِنْ كُتُبٍ أَوْ صَحَافٍ، مِثْلَمَا أُعْطِيَ سَيِّدُنَا دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الزَّبُورُ، وَأُعْطِيَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدًا ﷺ الْقُرْآنَ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَفْضِلُ مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى الْآخَرِينَ، رَغْمَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ جَمِيعًا بِاعْتِبَارِ النُّبُوَّةِ مُتَسَاوُونَ، وَلَكِنْ بِاعْتِبَارِ الدَّرَجَاتِ بَعْضُهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ.

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِيلًا﴾

٥٣- يَقُولُ الْعَلَامَةُ الْقُرْطُبِي: «لَمَّا ابْتُلِيَتْ قُرَيْشٌ بِالْقَحْطِ (لِسَبْعِ سَنَاتٍ) وَشَكُّوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، أَي: (أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ (أَنْ) ادْعُوا الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ وَزَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ آلِهَةٌ^(١))، أَي: لِمَاذَا لَا تَتَّجِهُونَ بِالشُّكْوَى إِلَى تِلْكَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بِنَفْسِهِ أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ أَصْلًا، وَلِذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُخَلِّصُوكُمْ مِنَ الْمَصَاعِبِ وَالْمَشَاكِلِ الَّتِي تَوَاجِهُونَهَا.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مُحْدُورًا﴾

٥٤- يَعْنِي: الْمَلَائِكَةُ وَالْجَنُّ الْمُؤْمِنُونَ وَبَعْضُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ كَانَ يَعْبُدُهُمْ هَؤُلَاءِ، كُلُّهَا لَيْسَتْ آلِهَةً، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ، إِنَّهَا تَبْحَثُ هِيَ الْأُخْرَى عَنْ وَسِيلَةٍ

(١) تفسير القرطبي، وتفسير خزان العرفان.

تَنَالُ بِهَا قُرْبَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتَهُ، وَيَخْشَوْنَ عَذَابَهُ، وَيُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّ الْبَحْثَ عَنْ وَسِيلَةٍ تَحَقُّقِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ.

﴿وَأَنَّ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾

٥٥- كَتَبَ اللَّهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ هَذَا الْحُكْمَ، أَنَّ أَهْلَ أَيِّ قَرْيَةٍ ظَالِمَةٍ عَاصِيَةٍ لَا بَدَّ وَأَنْ يَهْلِكُوا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ إِنْ عَاجَلًا أَوْ آجَلًا، وَإِنْ لَمْ يَنْزِلِ الْعَذَابُ عَلَيْهِمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّهُمْ سَيُعَذِّبُونَ فِي الْآخِرَةِ عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾

٥٦- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا، وَأَنْ يُنْحِيَ عَنْهُمْ الْجِبَالَ، فَيَزْرَعُوا، فَقِيلَ لَهُ: إِنْ شِئْتَ أَنْ نَسْتَأْذِنَ بِهِمْ لَعَلَّنَا نَجْتَنِي مِنْهُمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ نَوْتِيَهُمُ الَّذِي سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا أَهْلِكُوا كَمَا أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَهُمْ، قَالَ: «بَلْ نَسْتَأْذِنُ بِهِمْ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَايَاتُنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ ^(١).

﴿وَأَيُّهَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾

٥٧- لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُحَوِّلَ جَبَلَ الصِّفَا إِلَى ذَهَبٍ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأُمَّمَ السَّابِقَةَ حِينَمَا كَانُوا يَرَوْنَ الْمَعْجَزَاتِ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا بِأَنْفُسِهِمْ لَمْ يَكُونُوا يُؤْمِنُونَ، وَلِذَلِكَ أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى، وَمِثَالُ قَوْمِ ثَمُودَ أَمَامَنَا، إِذْ أَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ نَاقَةً بَنَاءً عَلَى طَلِبِهِمْ، وَكَانَتْ

هذه الناقةُ بمثابة المعجزة الواضحة، ولكن هؤلاء الظالمين بدلاً من أن يؤمنوا، قَتَلُوا الناقةَ، فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ قَتْلِهِمْ إِيَّاهَا.

وبنفس الطريقة إذا حَوَّلَ اللَّهُ جَبَلَ الصِّفَا إِلَى ذَهَبٍ بِنَاءً عَلَى طَلَبِ كُفَّارِ مَكَّةَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِيُؤْمِنُوا بِرَغْمِ رُؤْيَيْهِمْ هَذِهِ الْمَعْجَزَةَ، وَلِذَلِكَ كَانَ لَا بَدَّ أَنَّ اللَّهَ مُهْلِكُهُمْ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ بَعْضًا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُؤْمِنُونَ، أَوْ أَنَّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَنْسَالِهِمْ مَنْ سَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلِهَذَا لَمْ يَحَقِّقِ اللَّهُ تَعَالَى الْمَعْجَزَةَ بِنَاءً عَلَى طَلَبِهِمْ.

﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

٥٨- إِنَّ الْهَدَفَ مِنَ الْإِتْيَانِ بِالْمَعْجَزَاتِ هُوَ أَنْ يَرَى النَّاسُ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى الْعَظِيمَةِ، فَيَخَافُوا مِنْ عَصْيَانِهِ، وَلَكِنْ حَيْثُ عَلِمَ مِنَ الْبَدَايَةِ أَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا حَتَّى بَعْدَ أَنْ يَرَوْا الْمَعْجَزَةَ، فَإِنَّهُ لَا فَائِدَةَ إِذَا مِنَ الْإِتْيَانِ لَهُمْ بِمَعْجَزَةٍ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾

٥٩- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يَتَأَمَّرُونَ ضِدَّكَ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُونَ، فَلَا تَبَالٍ بِهِمْ، وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا إِيْذَاءَكَ، فَنَحْنُ نَحْفَظُكَ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا فِي مُحِيطٍ عَلَمِنَا وَقَبْضَةِ قُدْرَتِنَا.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾

٦٠- جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى النَّبِيَّ ﷺ يَرَى بَعَيْنَيْ رَأْسِهِ آيَاتِهِ فِي عَالَمِ الْيَقَظَةِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، وَكَذَلِكَ شَجَرَةُ الزُّقُومِ فِي جَهَنَّمَ، وَالَّتِي سَيَأْكُلُ ثَمَارَهَا الْمَلْعُونَةُ أَهْلُ جَهَنَّمَ الْمَلْعُونُونَ، وَهِيَ الثَّمَارُ الَّتِي تُشْعِلُ النَّارَ فِي بَطْنِ مَنْ يَتَنَاوَلُهَا بِحَيْثُ يَشْعُرُ وَكَأَنَّ فِي بَطْنِهِ مَاءً يَغْلِي.

هذان المثالان أصبحا بمثابة الابتلاء لضعاف الإيمان؛ لأن إتمام رحلة طويلة من الإسراء والمعراج في عالم اليقظة، ووجود شجرة الزقوم الخضراء في نار جهنم التي تحرق الأحجار، أمران لا يمكن تصديقهما في الظاهر، لكن الذين يؤمنون بأن الله قادرٌ مطلق، لا يصعبُ عليهم الإيمان بكل هذا.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾

٦١- حين يرى الكفار آياتِ قدرة الله تعالى فإنَّ حقدَهم على الإسلام وبُغضَهم له يزداد، ويزدادُ معهم عِصْيَانُهُمْ وَطُغْيَانُهُمْ.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ كُفْرًا مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَظَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهًا فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿

٦٢- مَرَّ ذِكْرُ هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ قَبْلُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، وَيُعَلِّمُ مِنْهَا أَنَّ طَاعَةَ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى
بِلاَ نِقَاشٍ أَوْ جِدَالٍ إِنَّمَا هُوَ سُنَّةُ الْمَلَائِكَةِ، وَزَرْعُ الشُّبُهَاتِ فِيهَا هُوَ تَفْكِيرُ الشَّيْطَانِ.
﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿

٦٣- طَلَبَ الشَّيْطَانُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى قَائِلًا: لِمَاذَا فَضَّلْتَ آدَمَ عَلَيَّ؟ لَوْ أُعْطِيتَنِي
مُهِلَةً حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَسَأَقْضِي عَلَى إِيْمَانِ أَوْلَادِ آدَمَ، وَلَنْ يَبْقَى سِوَى قَلِيلٍ مِنَ
النَّاسِ الَّذِينَ لَنْ أُسْتَطِيعَ التَّغْلِبُ عَلَيْهِمْ.
﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿

٦٤- أُعْطَى اللَّهُ تَعَالَى الشَّيْطَانُ مُهِلَةً طَوِيلَةً طَبَقًا لِرَغْبَتِهِ هَذِهِ، يَعْنِي: أَنَّكَ
سَتَبْقَى حَيًّا طَالَمَا بَقِيَ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، لَتَكُونَ ابْتِلَاءً لَهُ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ
تَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى بَنِي الْإِنْسَانِ إِلَى أَنَّ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّيْطَانَ سَيَدْخُلُ جَهَنَّمَ مَعَ الشَّيْطَانِ.
﴿ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي
الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ
عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿

٦٥- أَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى لِلشَّيْطَانِ مَعَ الْحَيَاةِ الطَّوِيلَةِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ فِي إِضْلَالِ الْإِنْسَانِ
كُلَّ أَنْوَاعِ الْأَسْلِحَةِ الْمُمَكِّنَةِ لَهُ، مَثَلًا: بِالتَّفَاقُ وَلُغُو الْحَدِيثِ، وَبِوَسْوَسةِ جَيْشِ حَوَارِيِّهِ
مِنَ الْجِنَّ وَالْبَشَرِ، وَبِخُلْطِ الْحَرَامِ بِالْحَلَالِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَبِالْوَعْدِ الْكَاذِبَةِ،
وَبِاخْتِصَارِ: يَسْتَعْمَلُ كُلَّ سِلَاحٍ مُتَاحٍ لَهُ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُقَرَّبِينَ لَا
يَمْكُنُ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ يَحَاوِلُونَ نَيْلَ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ اللَّهَ
تَعَالَى كَافِيهِمْ.

﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

٦٦- من فضل الله تعالى ورحمته أنه سخر لكم ماء البحر العميق، وأنتم تحملون في السفن بضائعكم التجارية لتسافروا بها إلى بلاد بعيدة، وتبعوا وتشتروا وتربحوا، ويُعلم منه أن البحث عن الرزق الحلال فضل من الله تعالى أيضًا، ولكن خلط الحرام به حرام.

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾

٦٧- حين تواجهون مشكلة عصبية في البحر، وتصيحون على يقين من أنكم غارقون لا محالة، فإنكم حينئذ لا تدعون آلهتكم التي ادعيتموها لأنفسكم، وإنما ترجعون إلى الله تعالى، وتعدون وعدًا راسخًا بأنه إن نجاكم الله تعالى من هذا الطوفان، فستكونون من عباد الله الشاكرين، ولكن حين يُنجيكم الله تعالى من الطوفان، تنسون وعدكم الذي وعدتم، فهل هناك جحود أكبر من هذا؟

ويُعلم من هذا أن بذرة التوحيد موجودة في الفطرة الإنسانية، وحين يحقق بالإنسان وقت عصب، وتتخلى عنه كل الوسائل الفانية، تظهر عندئذ عقيدة التوحيد من نفسها. ولمزيد من الشرح والتوضيح راجع الآية رقم ١٢٢ من سورة يونس (١٠)، وكذا الحاشية رقم ٢٣.

﴿ أَفَأَمْتَرُ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾

٦٨- لقد أصبحتم بلا خوف بعد الخروج من البحر إلى البر لأنكم اعتقدتم أنكم لن تواجهوا مثل هذه المصيبة على البر، مع أن الله تعالى قادر مطلق، وكما يستطيع إغراقكم في البحر، يستطيع أن يعاقبكم في البر كذلك، ويخسف بكم الأرض، أو يمطركم بحجارة من عنده فيهلككم، مثلما حدث مع بعض الأمم السابقة عليكم،

ولهذا سواءً كنتم في البحر أم على البرِّ، عليكم أن تخافوا من عصيانكم لله تعالى .
﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾

٦٩- أو أصبحتم بلا خوفٍ باعتبار أنكم لن تنزلوا البحر بعد ذلك؟ مع أنكم لو نزلتموه لأيّ طارئٍ يطرأ عليكم، وأرسل الله عليكم الرِّيح العاصف، وأغرقكم بسبب كفركم، فلن تستطيعوا أن تفعلوا شيئاً إذ ذاك؛ لأنه لا توجد قوة في الكائنات كلّها يمكنها أن تسأل الله تعالى عما يفعل .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

٧٠- إنّ الإمكانات التي أنعم الله بها على الإنسان من الشّكل والصّورة والقدر والقامة والعلم والحكمة، لم يُنعم بمثلها على أيّ مخلوقٍ آخر، ولهذا جعل الله تعالى الإنسان خليفته، وأنعم عليه من العلم بحيث سجّد الملائكة للإنسان الأوّل، وقد استفاد الإنسان من كلّ هذه الإمكانات الموهوبة له من الله تعالى، وسخر من خلالها كلّ شيء في البرّ والبحر، وأعدّ أشياء كثيرة طاهرةً لطعامه، ولكلّ هذه الخصائص المميّزة لا يعلو مخلوقٌ على الإنسان ولا يتفوّق عليه .

من أفضل مخلوق؟

عند علماء الأحناف: الرُّسُل من البشر هم أفضل المخلوقات، ثم الرُّسُل من الملائكة، ثم إنّ عامة الملائكة أفضل من عامّة البشر^(١).

(١) «إن الرسل من البشر أفضل مطلقاً، ثم الرسل من الملائكة على من سواهم من البشر والملائكة، ثم عموم الملائكة على عموم البشر، وهذا ما عليه أصحاب الإمام أبي حنيفة عليه الرحمة وكثير من الشافعية والأشعرية». تفسير روح المعاني.

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِمْعَانِهِمْ فَمَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ، يَمِينُهُ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِمْعَانِهِمْ فَمَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ، يَمِينُهُ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾

٧١- يوم القيامة سينادي على كل إنسان بإمامه الذي كان يتبعه في الحياة الدنيا، فإن كان مؤمناً فسينادي عليه بالأنبياء والأولياء والصالحين والأعمال الصالحة، وما أن يسمع أهل الحشر اسم الإمام الصالح حتى يتيقنوا من أن سعيد الطالع هذا من أهل الجنة. يا إلهي، اجعل عبدك الضعيف هذا في ميدان الحشر مع حبيبي المصطفى ﷺ، ومع الإمام العظيم أبي حنيفة رحمه الله، ومع سيدنا ضياء الأمة الشيخ محمد كرم شاه الأزهرى، آمين.

أما إن كان ذلك الشخص كافراً ومتمرّداً، فسوف يُنادى عليه باسم الشياطين والمنكرين والفاسقين والأعمال السيئة، وما أن يسمع أهل الحشر اسم إمام السوء حتى يتيقنوا من أن هذا التّعس من أهل جهنم، كما أن إحدى علامات المفلحين في ذلك اليوم هي أن صحائف أعمالهم ستكون في أيديهم اليمنى، وسوف يقبلون على قراءة صحائفهم بفرحة وسرور.

ويعلم من هذا أنه لن يكون يوم القيامة أحد أمياً؛ لأن كل واحد سيقراً

صحيفته بنفسه، هذا أولاً، وثانياً: يُعَلِّمُ منه أن لغة الناس جميعاً في القبر والحشر ستكون اللغة العربية؛ لأنَّ صحائف الأعمال ستكون باللغة العربية^(١)، وستكون لغة أهل الجنة هي اللغة العربية، ويمكنك في هذا الخصوص مراجعة الآية رقم ٢ من سورة يوسف (١٢)، وكذا الحاشية رقم ٢.

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾

٧٢- مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بَعَيْنَيْنِ تَرِيَانٍ، وَلَكِنَّهُ وَضَعَ عَلَى عَيْنَيْهِ ضُمَادَةً مِنَ التَّعَصُّبِ، وَبَقِيَ مُتَعَامِيًا عَنْ فَهْمِ الْحَقِّ وَرُؤْيَيْهِ عَامِدًا مُتَعَمِّدًا، فَسَيَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَسَيَعَاقِبُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ يُعْمِيَ عَيْنَيْهِ الظَّاهِرَتَيْنِ أَيْضًا، مِثْلَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَنتَ أَتَيْنَا فَسَيِّئَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

﴿وَأَصْلُ سَبِيلًا﴾

٧٣- بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ أَمَامَ الشَّخْصِ الَّذِي ظَلَّ ضَالًّا مُتَعَامِيًا عَنْ الْحَقِّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَيُمْكِنُ أَنْ يَتَوَبَّ إِلَى اللَّهِ فِي أَيِّ وَقْتٍ وَيَحْضُلَ عَلَى الْهَدَايَةِ، وَلَكِنْ مِنْ تَكُونُ نَهَائِيَّتُهُ عَلَى الضَّلَالِ، فَسَيَكُونُ أَكْثَرُ النَّاسِ ضَالًّا وَعَمَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يُنْقِذَهُ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّ تَوْبَتَهُ فِي الْآخِرَةِ لَا يُمْكِنُ قَبُولُهَا.

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾

٧٤- كَانَ الْكُفَّارُ يَرِيدُونَ أَنْ يَخَفَّفَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ الْأَحْكَامِ، وَعِنْدَئِذٍ يَصَادِقُونَهُ وَيَتَوَلَّوْنَهُ، بَلْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ أَيْضًا، وَكَانَتْ هَذِهِ مُؤَامَرَةً دَنِيَّةً مِنْهُمْ، وَلِهَذَا

قال الله تعالى: لو لم نُثَبِّتْ نحن أقدامك لكنت تميلُ إليهم بشكلٍ أو بآخر، طمعاً في أن يؤمنوا بك، وليس معنى هذا أبداً أن النبي ﷺ كان قد عَقَدَ العزمَ على تنفيذ ما أَرَادَتْهُ قُرَيْشُ مَكَّةَ، وإنما الواضحُ هنا تمامُ الوضوح هو أن الله تعالى ثَبَّتَ النبي ﷺ من البداية، ولهذا لم يركن النبي ﷺ إلى المشركين، مثلما قال العلامة ابن كثير: «يُخْبِرُ تعالى عن تأييدِ رسوله صلواتُ الله عليه وسلامه، وتثبيتِهِ، وعصمته وسلامته من شرِّ الأشرارِ وكَيْدِ الْفُجَّارِ، وآتَهُ تعالى هو المتولِّي أمره ونصره، وأنه لا يَكِلُهُ إلى أَحَدٍ من خَلْقِهِ، بل هو وَلِيُّه وحافظه وناصره ومؤيِّده ومظفِّره، ومُظْهِرُ دينه على مَنْ عاداه وخالفه وناوأه، في مشارقِ الأرض ومغاربِها، صلى الله عليه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين»^(١).

ويقول سيّدنا ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسولُ الله ﷺ معصوماً، ولكن هذا تعريفٌ للأمة لئلا يركنَ أحدٌ منهم إلى المشركين في شيءٍ من أحكام الله تعالى وشرائعه»^(٢).

﴿ إِذَا لَازَقْتَنكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾

٧٥- وبفرض المستحيل لو أنه ﷺ مالَ إليهم لناله عذابٌ ضِعْفَيْنِ في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ من كان أكثرَ قُرْباً فإنَّ خطأه البسيطُ يُعَدُّ خطأً جسيماً، وفي هذا تنبيهٌ لعلماءِ الأمة من أنَّهم لو أخذوا يبحثون عن تخفيفٍ في الأحكام الإلهية إرضاءً للأغنياء من الناس، فإنَّ عذابهم سيكونُ مضاعفاً؛ لأنهم - بذلك - يُحرِّفون أحكامَ الله عن عَمَدِ رَغمِ علمهم بها.

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير القرطبي.

﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

٧٦- عَزَمَ مشركو مَكَّةَ على إخراج النبي ﷺ من مَكَّةَ، لكنَّ الله تعالى لم يدْعهم ينفذونَ عَزَمَهم هذا^(١)، وإِنَّمَا حَذَّرهم الله تعالى من أَنهم لو أَخْرَجوه ﷺ فلن يبقُوا هم أَيضًا فترةً طويلةً^(٢)، ولهذا عندما هاجر النبي ﷺ فيما بعدُ داخلَ الجزيرة العربية من مَكَّةَ إلى المدينة، تحقَّقت نبوءة القرآن الكريم بشكلٍ كاملٍ، بحيث لم يستطع أهلُ مَكَّةَ أن يعيشوا يومًا واحدًا في راحة، وبعدَ عام ونصفٍ لا أكثرُ قُتل منهم سبعونَ في ميدانِ بَدْرٍ، وأُسِرَ سبعونَ آخرونَ، ثم لَحَقَتْهم الهزائمُ المتتاليةُ في الغزواتِ النَّبَوِيَّةِ إلى أن فَتَحَ المسلمونَ مَكَّةَ في نهايةِ الأمرِ في العامِ الثامنِ للهجرة، وبهذا انتهى الكُفْرُ والشُّركُ من مَكَّةَ تمامًا.

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾

٧٧- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، كانت الأُمُّ السَّابِقَةُ كُلُّمَا أَخْرَجْتَ أَنْبِيَاءَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، ولم تتغيَّرِ سُنَّتُنَا حتى الآنَ، فَإِنْ أَخْرَجُوكَ مِنَ الْأَرْضِ، فلن يبقُوا هم فيها أَيضًا؛ إِمَّا أَنْ يَهْلِكُوا جَمِيعًا، أو أَنْ يَرْجِعُوا عَنِ الشُّرْكِ ويدخلوا الإسلامَ. أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ

(١) «هم المشركون كلهم وأرادوا أن يستفزوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهروا عليهم، فمنع الله رسوله ولم ينالوا منه ما أملوه». تفسير الخازن.

(٢) «هم الكفار كلهم أن يستحقوه من أرض العرب بتظاهروا عليهم فمنعه الله، ولو أخرجوه من أرض العرب لم يمهلوا». القرطبي.

وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨٧﴾ وَنَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٨﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٩﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٩٠﴾

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾

٧٨- هنا ذكرَ لأربع صلواتٍ منذُ بداية فترة زوالِ الشمس إلى إظلام الليل، يعني: صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، بينما جاء ذكرُ صلاة الفجر منفردًا، وقد عبّر عن صلاة الفجر بالقرآن لأن قراءة القرآن فيه تكون طويلةً.

﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾

٧٩- الملائكة المقرّرون لحفظ الإنسان ليلاً وكتابة أعماله، يعودون بعد صلاة الفجر، ويحلُّ محلّهم ملائكة النهار قبل صلاة الفجر، وبالتالي يجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر، مثلما قال النبي ﷺ فيما رواه سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرّج الذين باتوا فيكم، فيسألهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصلُّون، وأتيناهم وهم يُصلُّون»^(١)، كم هم سعداء الحظ أولئك المسلمون الذين يُصلُّون، وتشهد الملائكة على صلاتهم عند الله تعالى! أمّا كيف تحفظ الملائكة الإنسان فيمكنك التعرف عليه بمراجعة الآية رقم ١١ من سورة الرعد (١٣)، وكذا الحاشية رقم ١٣.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾

٨٠ - الركعتان أو الأربعة أو الثمانية من النوافل التي تُصلّى بعد النهوض من

النوم ليلاً، يقال لها: صلاة التهجد، وهذه الصلاة عبادة نفلية للأمة المسلمة، لكنها بالنسبة للنبي ﷺ صلاة خاصة، وكان يؤديها بانتظام دائماً.

﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾

٨١ - يُطَلَّقُ عَلَى الشَّفَاعَةِ الْكُبْرَى الَّتِي سَيَشْفَعُهَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى: «المقام المحمود»، إذ إن كلَّ أهلِ الْحَشْرِ سَيُثْنُونَ عَلَيْهِ ﷺ وَيَحْمَدُونَهُ، وَإِلَيْكَ بَعْضَ مَظَاهِرِ كُلِّ هَذَا:

١- عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه»^(١).

٢- عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: اشفع لنا إلى ربِّكَ. فيقول: لستُ لها ولكن عليكم بإبراهيمَ فإنه خلیلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لستُ لها ولكن عليكم بموسى فإنه كَلِيمُ اللَّهِ. فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لستُ لها ولكن عليكم بعيسى فإنه رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ: لستُ لها ولكن عليكم بِمُحَمَّدٍ ﷺ. فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا. فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذِنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مُحَامَدَ أَحْمَدَهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمُحَامَدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يَسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيَقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمُحَامَدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يَسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيَقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمُحَامَدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ

رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمْتِي أُمْتِي. فيقول: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ. فَانْطَلِقْ فَافْعَلْ ... «ثُمَّ أَعُوذُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ، ثُمَّ أَخْرِجْ لَهُ سَاجِدًا، فيقال: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أَتَدْنُو لِي فَيَمْنُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فيقول: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي، لَا أَخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

٣- قال القاضي أبو الفضل عياض: «شفاعات نبينا ﷺ يوم القيامة خمس شفاعات، الأولى: العامة. الثانية: في إدخال قوم الجنة دون حساب. الثالثة: في قوم من موحدني أُمْتِهِ اسْتَوْجَبُوا النَّارَ بِذُنُوبِهِمْ فَيُشَفَّعُ فِيهَا نَبِينَا ﷺ، وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَشْفَعَ وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ. الرابعة: فيمن دَخَلَ النَّارَ مِنَ الْمُذْنِبِينَ فَيَخْرُجُونَ بِشَفَاعَةِ نَبِينَا ﷺ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ وَإِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ. الخامسة: في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها»^(٢).

٤- عن جابر بن عبد الله، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

٥- وهناك رواية أخرى فيما يتعلّق بالمقام المحمود مُفَادُهَا: أَنَّ «ذَلِكَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ نَبِيَّهٗ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبْعَثَهُ إِيَّاهُ، هُوَ: أَنْ يُقَاعَدَهُ مَعَهُ عَلَى عَرْشِهِ»^(٤).

(١) البخاري، ، كتاب التوحيد، باب ٣٦ برقم ٧٥١٠. ومسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٤ برقم ١٩٣.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) البخاري، كتاب الأذان، باب ٨ برقم ٤٧١٩.

(٤) تفسير ابن جرير والقرطبي.

﴿ وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾

٨٢ - حين أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بالهجرة نَزَلَتْ هذه الآية، والتي جاء فيها تلقينُ بهذا الدعاء: اللَّهُمَّ اجْعَلْ هِجْرَتِيْ مِنْ مَكَّةَ بِالْحَقِّ، ودخولي المدينة بِالْحَقِّ أَيضًا، أي - أن يكونَ عاقِبَةُ كُلِّ مِنْهُمَا خَيْرًا، وكذلك انْصُرْنِيْ مِنْ عِنْدِكَ، بحيث يكونُ نَصْرُكَ ملازمًا لي في كُلِّ حال حيثما ذَهَبْتُ ومن حيث خَرَجْتُ، وهكذا رَأَتْ الدُّنْيَا كُلُّهَا أَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْ هَذَا الدُّعَاءِ تَحَقَّقَ، فعندمَا غَادَرَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ، لم يَسْتَطِعِ الْكُفَّارُ الَّذِينَ تَعَقَّبُوهُ أَنْ يُمَسِّكُوْا بِهِ، وعندمَا وَصَلَ ﷺ الْمَدِيْنَةَ الْمُنَوَّرَةَ، حَصَلَ عَلَى الْغَلْبَةِ وَالنُّصْرَةِ، بحيثُ فُتِحَتْ مَكَّةُ بَعْدَ سِنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ، لَيْسَ هَذَا فَقْطً، وَإِنَّمَا رَفُرْفَتْ رَايَةُ الْإِسْلَامِ عَالِيَةً خَفَاقَةً حَيْثَمَا وَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ قَدَمَهُ الطَّاهِرَةَ فِي الْجَزِيْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

٨٣ - كان هذا الإِعلانُ عندمَا كان المسلمونَ يعيشونَ في مَكَّةَ أَوْقَاتًا عَصِيْبَةً في حَالَةٍ مِنَ الْقَهْرِ وَالْعَجْزِ، وكان الْبَاطِلُ مُسَيِّطِرًا في كُلِّ اتِّجَاهٍ، ولا تَبْدُو في الْأَفْقِ أَيُّ آثَارٍ أَوْ شَوَاهِدٍ وَلَوْ قَلِيلَةً تُدَلُّ عَلَى انتِصَارِ الْحَقِّ، لَكِنَّ الدُّنْيَا كُلُّهَا رَأَتْ أَنَّ نُبُوَّةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَحَقَّقَتْ، وَفُتِحَتْ مَكَّةُ بَعْدَ سِنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ، وَعِنْدَهَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُسْقِطُ بَعْصَاهُ الشَّرِيفَةَ الْأَصْنَامَ الْمَوْضُوعَةَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، وَيَتْلُو هذه الآيةَ، يعني ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

٨٤ - مثَلَمَا يَفِرُّ الْبَاطِلُ بِمَجِيءِ الْحَقِّ، كَذَلِكَ تَفِرُّ الْعِقَائِدُ الْبَاطِلَةُ وَالْأَمْرَاضُ الرُّوحِيَّةُ مِنَ الْقُلُوبِ الَّتِي يَتَجَلَّى فِيهَا نُورُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَنْزِلُ عَلَيْهَا رَحْمَةُ اللَّهِ

تعالى بحيث يصبح أصحابها إلى الأبد من المتقين، ويُنجيهم الله تعالى من الأعمال الباطلة، أما الظالمون فلا تُهم لا يؤمنون بالقرآن الكريم، لهذا عندما يسمعون القرآن الكريم يزداد بُغضُهم وحقدُهم وعنادُهم، وتزداد مخالفتُهم للإسلام وعداوتُهم له أكثر من ذي قبل، ولهذا تزيد خسارة هؤلاء وعذابُهم في الآخرة.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَنِ أَعْرَضَ وَنَسِىَ بِإِحْسَانِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾

٨٥ - جاءت الإشارة في هذه الآية إلى نقطة ضعف عامة في بني البشر، بمعنى: أنه حين يُنعم الله تعالى على أحد يجحد هذا الإنسان نعمة، وحين يُصيب الأذى أحداً، فإنه يئأس تماماً، لكن الذين يؤمنون بالقرآن يكون حالهم هو الشكر على النعمة، والصبر على الشدة، ولا يئأسون من رحمة الله تعالى.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾

٨٦ - في هذه الدنيا كل إنسان يعمل بطريقته وطبقاً لمزاجه، والله تعالى يعلم تمام العلم من يسير على الصراط المستقيم، ومن يتيه على طريق الخطأ، وفي الآخرة سيحاسب كل فرد ويجازى طبقاً لعمله.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

٨٧ - جاء لفظُ الرُّوح في القرآن الكريم دالًّا على سيِّدنا جبريل الأمين عليه السَّلام، وعلى سيِّدنا عيسى عليه السَّلام، وعلى القرآن المجيد، وعلى الوحي، لكنَّ مراد السائل منه في هذه الآية الرُّوح البشريَّة ومعرفة حقيقتها، وقد أجاب القرآن الكريم عن السُّؤال إجابةً إجماليَّة، بأنَّ الرُّوح ليست شيئًا ماديًّا، وإنَّما هي معجزةٌ من أمر الله تعالى، والعلمُ التفصيليُّ بحقيقتها أكبرُ من إدراكِ عامَّة الناس، لهذا فإنَّ العلمَ البسيطَ الذي أُعطيَ لك فيما يتعلَّقُ بالرُّوح إنَّما هو طبقًا لفهمك وحاجتك، وعليك أن تكتفي بهذا، يعني: أنَّ الرُّوح شيءٌ خُلِقَ بأمرِ الله تعالى، ولا تروِّنه أنتم، ولكنَّ ليس معنى هذا: أنَّ النبيَّ ﷺ نفسه لا يَعْلَمُ شيئًا عن حقيقة الرُّوح، وإنَّما مثلما قال العلامة بدرُ الدِّين عيني: «جَلَّ مَنْصِبُ النَّبِيِّ ﷺ، وهو حبيبُ الله وسيِّدُ خَلْقِهِ، أن يكونَ غيرَ عالمٍ بالرُّوح، وكيف وقد مَنَّ اللهُ عليه بقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. وقد قال أكثرُ العلماء: ليس في الآية دليلٌ على أنَّ الرُّوح لا تُعْلَم ولا على أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن يَعْلَمُها»^(١).

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴿

٨٨ - يقول مولانا شبير أحمد عثمانى: «يعني: أنَّ عِلْمَ القرآن الذي أعطاهُ لك، يستطيعُ اللهُ تعالى إن شاء أن يسلِّبه منك في لحظة، ولن يستطيع أحدٌ أن يُعيده إليك ثانية، ولكنَّ فَضْلَهُ عَلَيْكَ عَظِيمٌ، ولهذا أنعمَ عليك بهذه النِّعمة العُظمى، وليس هناك سببٌ لسلْبها منك، والمقصودُ فقط هو إظهارُ القُدرة العظيمة، وأنَّ الرُّوح مهما كانت كاملةً فإنَّ كلَّ كمالاتها موهوبةٌ ومستعارةٌ، وليست ذاتيَّة»^(٢).

(١) عمدة القاري، ٢: ٢٠١، برقم ١٢٥.

(٢) التفسير العثماني.

﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾

٨٩- تفضل الله تعالى على النبي الكريم ﷺ بالفضل العظيم، فما هي حدود هذا الفضل؟ هذا لا يعلمه تمام العلم إلا الله تعالى، ولا يستطيع العقل الإنساني أن يتصوره، ولمزيد من التفصيل راجع الآية ١١٣ من سورة النساء (٤)، وكذا الحاشية رقم ١٢٢، حيث شرف الله تعالى النبي الكريم ﷺ بألفاظ الفضل العظيم.

﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

٩٠- كان المشركون يدَّعون أنَّ النبي ﷺ هو الذي يؤلف القرآن الكريم وينسبُه إلى الله تعالى، وفي هذه الآية تحداهم الله تعالى بأنه لو اجتمع الإنس والجن في هذه الدنيا فلن يستطيعوا الإتيان بمثل هذا القرآن، فكيف يمكن لإنسان واحد هو سيدنا محمد ﷺ أن يؤلف هذا القرآن من عند نفسه؟ ورغم ذلك فقد حاول بعض المنكرين الإتيان بمثل القرآن، وعلى رأس هؤلاء: مُسَيِّمَةُ الكذاب، فقد ادَّعى النبوة كذبًا، وألف الكلام التالي دليلًا على نبوته، وهو لا يساوي شيئًا أمام فصاحة وبلاغة وعلم وحكمة القرآن الكريم:

- ١- الفيلُ ما الفيل. له ذنبٌ ذليل. وخُروطٌ طويل. إنَّ ذاك من خلقِ ربِّنا الجليل.
- ٢- يا ضفدع. بنت ضفدع نقي. ما تنقي. أعلاك في الماء وأسفلك في الطين.
- لا للشارب تمنعين. ولا للماء تكدرين^(١).

ولمزيد من تفسير هذه الآية راجع الآية رقم ١٤ من سورة هود (١١)، وكذا الحاشية رقم ١٢.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾

٩١- بين الله تعالى في القرآن المجيد العقائد والأعمال الإسلامية عن طريق

مختلف الأمثلة مَرَاتٍ عديدةً، حتى يحصلَ كلُّ فردٍ على الهداية من القرآن الكريم حسبَ ذوقه، لكنَّ أكثرَ الناسِ يُصِرُّونَ على الجحودِ بسببِ التعصُّبِ والعناد، ولا يَقْبَلُونَ الهدايةَ.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝١٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝١١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا ۝١٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَقِيكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝﴾

٩٢- في الآيات الأربع السابقة طالبُ الكُفَّارِ بمعجزاتٍ عديدةٍ مختلفة، يعني: أن يُجريَ النبي ﷺ لهم من الأرضِ عَيْنَ ماء، وأن يُقدِّمَ لهم حديقةَ نخيلٍ وأعنابٍ تجري فيها الأنهارُ، وأن يُسَقِّ السَّمَاءَ ويُسْقِطَها عليهم، وأن يَظهرَ الله تعالى والملائكةُ أمامَ أعينهم! حتى يستطيعوا التحدُّثُ إليهم، وأن يكونَ له ﷺ بيتٌ من ذهب، وأن يُنزلَ عليهم كتابًا من السماء يستطيعون قراءته، ولو أَرَيْنَاهُم هذه المعجزاتِ لَمَا آمَنُوا بسببِ تعصُّبهم وعنادهم، ولهذا قال لهم النبي ﷺ بأمرٍ من الله تعالى: رَبِّي مَنْزَرَةٌ عَنْ كُلِّ ضَعْفٍ، وهو القادرُ المطلق، وأنا بشرٌ رسول، وواجبي هو تبليغُ رسالةِ الله تعالى، وهو ما أفعله الآن، لكنَّ طلباتكم المتعددةَ كلَّ يوم بأن أريكم معجزاتٍ أمرٌ يتوقَّفُ على حِكْمَةِ الله تعالى، فما يراه سبحانه وتعالى مناسبًا يَظهرُ إلى حَيِّزِ الوجود، ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ النبي ﷺ لم يكن قادرًا على إظهارِ المعجزات؛ لأنَّ المعجزاتِ التي أعطى الله تعالى للنبي ﷺ الاختيارَ في إظهارها كان قادرًا على إظهارها بالفعل، مثلما قال النبي ﷺ فيما رواه سيِّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «هل ترونَ قبْلتي ها هنا؟ والله ما يخفى عليَّ ركوعكم ولا خشوعكم، وإنِّي لأراكم وراءَ ظهري»^(١)، والركوعُ يقال: للشكل

الظاهري للصلاة، بينما الخشوع يقال: للكيفية الباطنة لها، ولهذا فإن النبي ﷺ في إمامته للصلاة يتجه إلى القبلة، ومع ذلك يستطيع رؤية ظاهر وباطن المأمومين خلفه، وكانت هذه معجزة يستطيع إظهارها في أي وقت، ومثلما نحن قادرون على أن نقوم بعمل مكنتنا الله تعالى من القيام به، فإن المعجزات التي أعطى الله تعالى الاختيار في إظهارها للنبي ﷺ كان يمكنه إظهارها.

ولمزيد من التفصيل عن طلب المعجزات راجع الآية رقم ٥٩ من هذه السورة، وكذا الحاشية رقم ٥٧، وفيما يتعلق بإظهار المعجزات راجع الآية رقم ٧ من سورة الرعد (١٣)، وكذا الحاشية رقم ٩.

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُميًا وَبُكْمًا وَيَصُفُّ مَآوِلَهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبِثَ زَنْدُهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتْ أَعْيُنُنَا وَمَآ لَنَا لِمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٠٠﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠١﴾

﴿٩٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٦﴾

٩٣- عندما جاء القرآن الكريم إلى مشركي مكة، وأفحموا أمام نور الهداية، أخذوا يعترضون في النهاية بهذا الاعتراض الذي لا معنى له من أجل إخفاء تعصبهم

وعنادهم، قائلين: لماذا أُرسلَ الله تعالى رسولاً بشراً مثلنا؟ لماذا لم يُرسلْ ملكاً رسولاً؟ وعليه قال النبي ﷺ بأمرٍ من الله تعالى: لو أنّ الملائكة كانت تعيشُ على الأرض، لأُرسلَ الله تعالى ملكاً رسولاً، لكنّ الأرضَ يعيشُ عليها البشرُ، والإنسانُ يحتاجُ في هدايته إلى إنسانٍ مثله، حتى يستطيع أن يقدمَ بأقواله وأفعاله نموذجاً يكونُ وسيلةً لهداية الآخرين.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾

٩٤- يعني: أنّ الله تعالى أُرسلني إليكم رسولاً، وقد أبلغتكم رسالته وأدّيت واجبي، والآن سواءً أمتُم بي نبياً أم لا، لا فرقَ عندي في ذلك؛ لأنّ شهادة الله تعالى على نُبُوتي تكفيني، وهو يعلمُ تمامَ العلم أحوالَ عبادِهِ وأعمالهم، وسيجزّيهم ويحاسبهم طبقاً لهذه الأعمال.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا ۚ وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾

٩٥- الذين يعملون جاهدين بحثاً عن الهداية، يُرشدُهم الله تعالى إلى طريق الهداية، أمّا الذين يُعرضون عن الهداية عامدين متعمّدين، يتركهم الله تعالى في ضلالهم يعمّهون، ولا يمتدُّ أحدٌ لهم يدَ العون، ويومَ القيامة سيُحرّمون من السَّمع والبصر والكلام، ثم يُلقَى بهم في نارِ جهنّم الحامية.

﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا زُرْقًا أَهَنَّا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾

٩٦- سيُلْقَى بالكُفَّار في جهنّم لأنّهم أنكروا دلائلَ الله تعالى وآياته البينات، كما أنّهم أنكروا أن يكونَ الله تعالى هو الخالق والقادر، وكانوا يقولون ساخرين: إنه حين تنفَرِّقُ عظامنا وتبلى، وتحوّلُ إلى تُراب، كيف سيمكنُ إحياءنا من جديد؟

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾

٩٧- لقد خَلَقَ اللهُ تعالى القادرُ المطلقُ أشياءَ عظيمةً مثل: السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، بغيرِ أيِّ مادةٍ، فليس من الصَّعْبِ عليه أن يُحييَ خَلْقًا بسيطًا مثلكم، إذ إنَّ هذا الأمرَ بالنسبة له أكثرُ سهولةً ويُسرًا، ولكنَّ الإحياءَ من جديدٍ محدَّدٌ له يومَ القيامةِ، وهو يومٌ لا شكَّ في قدومه، لكنَّ الظالمينَ يَجْحَدُونَ ويُنكرون.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾

٩٨- كان المشركون يطالبون أن تتحوَّلَ أرضُ مَكَّةَ إلى حدائقٍ وأنهارٍ، وأن تتحوَّلَ الجبالُ إلى ذَهَبٍ، وقد ردَّ اللهُ عليهم في هذه الآية بأنَّ هذه الأمورَ عاديَّةٌ وبسيطةٌ بالنسبة لهُ تعالى، ولو افترضنا أنَّ اللهُ تعالى أعطاكم خزائنَ رحمته التي لا تنتهي، فإنَّ طمعكم عند ذلك لن يقلَّ، ولن تُنفقوا شيئًا تساعدون به فقيرًا؛ لأنَّ الإنسانَ بصفةٍ عامَّةٍ ضيقُ الصدرِ بخيل.

قال النبي ﷺ فيما يتعلَّقُ بالبخل، فيما رواه سيِّدنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: «لو كان لابنِ آدمَ واديانٍ من مالٍ لا بُتَغى ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلَّا الترابُ، ويتوبُ اللهُ على من تاب»^(١).

وقال النبي ﷺ عن الكريم والبخل فيما رواه سيِّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنْ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَلِجَاهِلٍ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَابِدٍ بِخِيلٍ»^(٢).

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ١٠ برقم ٦٤٣٦.

(٢) الترمذي، أبواب البر، باب ٤٠ برقم ١٩٦١.

ولمزيد من التفصيل عن الكريم والبخيل راجع الآية رقم ٢٩ من هذه السورة، وكذا الحاشية رقم ٢٨.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُونُوا الْأَرْضِ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ فِيهِمْ خُشوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرُهُ كَبِيرًا ﴿١١١﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴾

٩٩- في هذه الآيات ردَّ الله تعالى على مشركي مكَّة فيما يتعلَّق بالمعجزات التي طالبوا بها، يعني: لو أننا نعلم أنكم ستؤمنون بعد رؤية هذه المعجزات لحققناها لكم، ولكننا على يقين من أنكم لن تؤمنوا بسبب تعصُّبكم، ولذلك لن نريكم المعجزات التي طلبتموها، كما أننا قد أرينا بني إسرائيل من قبل معجزات أكبر وأعظم من هذه، وذكرها موجود في التوراة أيضًا، وتستطيعون أن تتأكدوا من هذا بسؤال علماء بني إسرائيل، ولكن برغم هذه المعجزات لم يؤمن فرعون، وإنما قال لسيِّدنا موسى عليه السَّلام: لقد سُحِرْتُ، ولهذا تهذي بكلام غير مفهوم.

ذكر القرآن الكريم معجزاتٍ عديدةً لسيّدنا موسى عليه السّلام، على سبيل المثال: شقُّ طريقٍ في البحر، وتفجيرُ عَيْنِ الماءِ في الأحجارِ الصّخرية، وإخراجُ الماءِ منها، وإنزالُ المنِّ والسّلوى، وغيرها، وقد ذَكَرَ سيّدنا ابنُ عبّاس رضي الله تعالى عنهما تسعًا من هذه المعجزاتِ فيما يلي: «اليَدُ والعَصَا والطُّوفَانُ والجُرَادُ والقُمَّلُ والضَّفادعُ والدَّمُ والسَّنينُ وطمسُ الأموال»^(١). ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشية ٦٥ من سورة الأعراف (٧).

وعندَ بعضِ المفسّرين أنّ المرادَ من هذه المعجزاتِ التسع: الأحكامُ التسعة، مثلما وَرَدَ عن سيّدنا صفوانَ بنِ العسال رضي الله عنه المراديّ: «أنَّ يهوديّين، قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النّبيّ نسأله، فقال: لا تُقلْ له: نبيّ (أي: لا داعي لأن تقول ذلك، فنحن أيضًا نؤمنُ أنه نبيّ) فإنّه إن سَمِعنا نقول: نبيّ، كانت له أربعةٌ أُعيِن، فأتيا النّبيّ ﷺ فسألاه عن قولِ الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، فقال رسولُ الله ﷺ: «(١) لا تُشركوا بالله شيئًا (٢) ولا تزنوا (٣) ولا تقتلوا النّفْسَ الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ (٤) ولا تسرقوا (٥) ولا تسحرّوا (٦) ولا تمشّوا ببريٍّ إلى سلطانٍ فيقتله (٧) ولا تأكلوا الرّبا (٨) ولا تقدّفوا مُحَصَّنَةً (٩) ولا تفرّوا من الزّحف - شكّ شعبة - وعليكم اليهودُ خاصّةً أن لا تعدّوا في السّبت». (يقول سيّدنا صفوان رضي الله عنه: إنهما عندما سَمِعَا هذه الإجابةَ الجامعةَ من النّبيّ ﷺ) فقَبَلَا يديهِ ورجليهِ وقالَا: نشهدُ أنّك نبيّ. قال: «فما يمنّعكما أن تُسلّما؟». قالَا: إنّ داودَ دعا الله أن لا يزالَ في ذُرّيّته نبيّ، وإنّا نخافُ إن أسلّمنا أن تقتلنا اليهود»^(٢).

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس.

(٢) الترمذي، تفسير القرآن، سورة الإسراء (١٧) برقم ٣١٤٤.

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يُفْرِعُونَ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾

١٠٠- قال سيّدنا موسى عليه السّلام لفرعون: أنت تعلم جيّدًا أنّ هذه المعجزات نزلت من الله تعالى؛ لأنّها لا يقدّر عليها إنسان، ولهذا عليك أن تعتبر منها، وإلاّ أهلكك الله، وعليه قرّر إخراج بني إسرائيل من مصر، مما نتج عنه أن أغرق الله تعالى فرعون وأتباعه في البحر.

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

١٠١- بعد غرق فرعون وجيشه قلنا لبني إسرائيل: «اسكنوا الأرض التي أراد فرعون إخراجكم منها، وهي أرض مصر، أو أرض الشام التي وعدتم بها»^(١)، لكننا سنجمعكم جميعًا يوم القيامة، سواء المؤمنون والكافرون، وسواء الصالحون والأشرار، وسنحاسبكم على أعمالكم، ونجازيكم طبقًا لها.

في هذه الآية الكريمة عبرة لمشركي مكّة، بأنّه مثلما أراد فرعون وجيشه طرد سيّدنا موسى عليه السّلام وبني إسرائيل من مصر، وفي نهاية أمرهم أخرجهم الله من مصر وأغرقهم في البحر، بنفس الطريقة، يا مشركي مكّة، أنتم تريدون إخراج النبي ﷺ وأتباعه من مكّة، وإن لم ترجعوا عن عدائكم هذا، فليس ببعيد أن يُخرجكم الله تعالى من هنا، وهذا هو ما حدّث بالفعل، فقد فتحت مكّة بعد سنوات قليلة، وتمّ إخراج المشركين من هناك.

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

١٠٢- لقد أنزلنا القرآن بالحق، وأنت يا رسول الله ﷺ أبلغته للناس كما هو بالحق، والآن إذا لم يؤمن المشركون، فهذه حماقة منهم، فلا تحزن ولا تغتم؛ لأننا

أرسلناك مبشراً ونذيراً من العذاب فقط، وقد أدت حق الدعوة والتبليغ.

﴿وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾

١٠٣- الكتبُ والصُّحفُ السَّماويَّةُ التي نَزَلَتْ على الأنبياء السابقين عليهم السلام، نَزَلَتْ مرَّةً واحدةً، لكنَّا أنزلنا عليك القرآنَ منجِّماً في شكل سُورٍ وآياتٍ مختلفةٍ متفرِّقة، حتى يسهلَ على الناسِ تلاوته وحفظه، وعليك أن تتلوه عليهم بتأنٍّ وعدمٍ تسرُّع، وبفاصلٍ في القراءة، حتى يسهلَ عليهم فهمه، ولقد أنزلناه تدريجيًّا على مدى ثلاثةٍ وعشرينَ عامًّا طبقاً للظروفِ والأحوال، حتى يستطيعوا استيعابَ مناسبةٍ وسببٍ وموقعِ نزولِ الآياتِ والأحكام، ويبحثوا عن حلولٍ لمشاكلهم في ضوئها.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾

١٠٤- يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، قلْ لمشركي مكَّة: سواءً آمَنتُم بالقرآنِ الكريم أم لم تؤمنوا به، لن يؤثرَ هذا على صدق القرآنِ الكريم في شيءٍ، فإنَّ علماءَ أهل الكتابِ الذين أعطاهم الله تعالى علمَ الوحي والثبوة قبلَ نزولِ القرآنِ الكريم، ومن بينهم سيِّدنا زيدُ بن عمرو وسَيِّدنا سلمانُ الفارسيُّ، وسَيِّدنا أبو ذرٍّ رضي الله عنهم جميعاً^(١)، بلا شكٍّ عندما سمعَ هؤلاء القرآنَ الكريمَ أحنوا رؤوسهم خضوعاً لحقائِته، وسجدوا لله تعالى شكراً له، وسبحوه؛ لأنَّه حقٌّ وعده في الكتبِ السابقةِ بنزولِ الكتابِ الأخيرِ وَبَعَثَ النَّبِيَّ الْآخِرَ ﷺ، فقد ظَهَرَ إلى عالمِ الوجودِ آخِرُ نبيٍّ في صورةِ سيِّدنا محمدٍ ﷺ، وآخِرُ كتابٍ في صورةِ القرآنِ الكريم.

ومن هذا يتقنُ أهلُ الكتابِ أنَّ كُتُبهم كانت صادقة؛ لأنَّ النبوءة التي وَرَدَتْ

فيها ثَبَّتْ صدقها، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ: تيقَّنوا من أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ نبيُّ حقٍّ وصدقاً؛ لأنَّ فيه كلَّ الصِّفَاتِ التي جاء ذِكْرُها في الكُتُبِ السَّماويةِ السابقة.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾

١٠٥- كانت سجدةُ الشُّكْرِ الأولى في الآية رقم ١٠٧ لأنَّ الله تعالى وفَّقهم إلى الإيمانِ بالنبيِّ الآخر ﷺ، أمَّا هذه السَّجدةُ الثانيةُ فكانت بأثرٍ من تعاليم القرآن الكريم؛ لأنهم كانوا يَبْكُونَ حينَ يَتْلُونَ القرآنَ الكريمَ، ويزدادُ خشوعُهم لله تعالى وخضوعُهم له.

فضل البكاء من خشية الله:

١- عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

٢- عن عبد الله بن مسعودٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ -: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يَخْرُجُ مِنْ عَيْنَيْهِ دُمُوعٌ وَإِنْ كَانَ مِثْلَ رَأْسِ الدُّبَابِ - مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ - ثُمَّ تُصِيبُ شَيْئًا مِنْ حَرِّ وَجْهِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»^(٢).

٣- «عن أبي حازم: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ يَبْكِي، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: «فُلَانٌ»، قَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّا نَزَّ أَعْمَالُ بَنِي آدَمَ كُلِّهَا إِلَّا الْبُكَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ يَطْفِئُ بِالدَّمْعَةِ نُهْورًا مِنْ نِيرَانِ جَهَنَّمَ»^(٣).

(١) الترمذي، أبواب فضائل الجهاد، باب ١٢ برقم ١٦٣٩.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ١٩ برقم ٤١٩٧.

(٣) تفسير الدر المنثور.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾

١٠٦- يقول سيّدنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: «صَلَّى صَلَوَاتُ اللَّهِ عليه بمكّة ذات يوم، فدعا الله تعالى، فقال في دعائه: «يا الله، يا رحمن»، فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ، يَنْهانا أَنْ ندعو إِلَهَيْن، وهو يدعو إِلَهَيْن، فنَزَلَ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ ... الآية»^(١)، يعني: أَنَّ اللهَ وَالرَّحْمَنَ ليسا اسمَيْنِ لذاتَيْنِ مختلفَتَيْنِ، وإنما الرَّحْمَنُ اسمُ صفةٍ لمنِ اسمُهُ الذاتِي: الله.

صفاتُ الله تعالى كثيرةٌ للغاية، ولهذا فإنَّ أسماءَ صفاتِهِ تعالى كثيرةٌ أيضًا، مثل: الرَّحْمَن، الرَّحِيم، الخالق، الرّازق، وغيرها ممّا وَرَدَ ذكرُهُ في القرآنِ الكريم والسُّنّةِ النَّبويّةِ المَطهّرة، وصفاتُ الله تعالى هي الأَكْمَلُ والأَعْلَى، والأَسْمَاءُ العَظيمةُ التي تُدُلُّ على هذه الصّفات هي الأَفْضَلُ والأَعْلَى أيضًا، ولهذا أيّا كان الاسمُ الذي تنادُون به الله تعالى، فهو الأَفْضَلُ، والمرادُ من كلّ هذه الأَسْماءِ ذاتٌ واحدةٌ هي ذاتُ الله تعالى.

﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾

١٠٧- «رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ قَالَ: نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَارٍ بِمَكَّةَ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ الْمَشْرُكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ فَيَسْمَعُ الْمَشْرُكُونَ قِرَاءَتَكَ. ﴿وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ عَنْ أَصْحَابِكَ، أَسْمِعْهُمْ الْقُرْآنَ وَلَا تَجْهَرُ ذَلِكَ الْجَهْرَ»^(٢).

وَيُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّهُ حَيْثُمَا كَانَتِ الظُّرُوفُ مُشَابِهَةً لظُرُوفِ مَكَّةَ، فَعَلَيْكَ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ

(١) التفسير المنير.

(٢) تفسير القرطبي.

وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى والدُّعَاءَ لَهُ بِصَوْتٍ مُتَوَسِّطٍ، حَتَّى لَا تُتَّخَذَ لغيرِ الْمُسْلِمِينَ فُرْصَةٌ لِإِهَانَةِ الْإِسْلَامِ.

وَيُرْوَى «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَخْفُتُ فِي قِرَاءَتِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا جِي رَبِّي، وَقَدْ عَلِمَ حَاجَتِي، وَعُمَرُ كَانَ يَجْهَرُ بِهَا وَيَقُولُ: أَطْرُدُ الشَّيْطَانَ وَأَوْقِظُ الْوَسْطَانَ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ، أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ قَلِيلًا وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَخْفِضَ قَلِيلًا»^(١).

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ﴾

١٠٨- الْحَمْدُ وَالثَّنَاءُ كُلُّهُ لِلَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ الْمُتَّصِفُ بِكُلِّ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَهُوَ الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ وَضَعْفٍ وَحَاجَةٍ لِغَيْرِهِ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مُعِينٍ أَوْ ابْنٍ أَوْ شَرِيكٍ، فَهُوَ وَحْدَهُ مَالِكُ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ، وَلِهَذَا هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَلِيقُ أَنْ يَتَمَّ بَيَانُ كِبَرِيَّاتِهِ.

الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ:

مُحَمَّدٌ إِمْدَادُ حُسَيْنٍ بَيْرَزَادَه

جَامِعَةُ الْكَرَمِ، إِيْتِن هَال، إِنْجَلْتِرَا

اِكْتَمَلَ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ بَعْدَ صَلَاةِ ظَهْرِ الْيَوْمِ السَّبْتِ ٥ مِنْ مَآيُو عَامِ ٢٠٠٧م

الْمُوَافِقَ ١٧ مِنْ رَبِيعِ الثَّانِي عَامِ ١٤٢٨هـ

فِي شَهْرِ ثَمَانِيَةِ عَشَرَ يَوْمًا

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ،

وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨) سُورَةُ الْكَهْفِ

هذه السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، واسمُها «الكَهْفُ»، بمعنى: «الغار»؛ لأنَّ فيها ذِكرًا لأصحابِ الكهفِ «الذين كانوا في الغار».

وفي الآية الأولى من هذه السُّورَةِ إعلانٌ بأنَّ الله تعالى أنزل القرآنَ المَجِيدَ على عبده الخاصِّ سيِّدنا مُحَمَّدٍ ﷺ، وأنَّ القرآنَ المَجِيدَ صحيفَةٌ كاملةٌ من الرُّشْدِ والهداية، وليس في تعاليمه أيُّ عيبٍ أو عوجاج، وجاء فيه أيضًا بيانٌ لعظمة الله تعالى بحيثُ لو تبدَّلت مياهُ البحارِ إلى أحبارٍ، وكُتِبَت بهذه الأحبارِ أحاديثُ حِكْمَةِ الله تعالى وقُدْرَتِهِ، فسوف تنتهي مياهُ بحارٍ كثيرةٍ ولن يمكنَ الإحاطةُ بكلِّ ما يتعلَّقُ بهذه العظمةِ والقُدرةِ.

جاء في هذه السُّورَةِ بيانٌ تفصيليٌّ لثلاثِ قِصَصٍ:

١ - قِصَّةُ أَهْلِ الْكَهْفِ:

وكان هؤلاء مجموعةً من الشُّبابِ المؤمنِ الذين هاجروا من وطنهم حفاظًا على دينهم، ولجأوا إلى غارٍ في الجبل، وسلَّطَ اللهُ تعالى عليهم النُّومَ ثلاثمائة وتسع سنين^(١)، ثم أيقظهم اللهُ من نومهم.

وفي القِصَّةِ درسٌ عِبْرَةٌ للمُشْرِكِينَ، وهو أنَّ الله تعالى، الذي بثَّ الحياةَ من

(١) «وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فرارًا بدينهم ولجأوا إلى غار في الجبل، ثم مكثوا فيه نيامًا ثلاثمائة وتسع سنين، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة». صفوة التفاسير.

جديد في أصحاب الكهف بعد نوم استمرّ مئات السنين، يستطيع أيضاً أن يبعثكم يوم القيامة أحياء من جديد، وكان بعض المسلمين من مكة قد هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم، وكان الباقر سيهاجرون إلى المدينة قريباً، وبالتالي كان في قصة أصحاب الكهف تسريّة عن قلوبهم، بأن أهل الإيمان قبلكم أيضاً كانوا يهاجرون فراراً بدينهم.

٢ - قصة سيّدنا موسى وسيّدنا الخضر عليهما السّلام:

رأى سيّدنا موسى عليه السّلام ثلاثة أحداثٍ تبدو - في الظاهر - منافية للعدل والحكمة، ولكن حين رَفَعَ سيّدنا الخضر عليه السّلام الحجاب عن حقيقة هذه الأحداث ثَبَتَ أنها الحكمة بعينها، ويمكنك مراجعة هذه الحكمة في الآيات من ٧٩ إلى ٨٢ من السّورة.

وبنفس الطريقة، نحن أيضاً نرى في هذه الدّنيا بعض الأحداث لا نستطيع استيعابها، ونظنّها منافية للعدل والحكمة، وهذا ظنُّنا نحن، لكن الحقيقة هي أنّ أيّ فعل من أفعال الله تعالى لا يخلو من حكمة، وحين يُرَفَّع الحجاب عن حقيقة هذه الأحداث في ميدان الحشر، ستبدو لنا حينئذٍ هي الحكمة بعينها.

٣ - قصة ذي القرنين:

في هذه القصة درسٌ عبرة للأثرياء والحكّام، بأنكم - في نشوة ثروة بسيطة، أو حكومة عادية - تنسَوْنَ الله تعالى، بينما كان ذو القرنين يحكم منطقة شاسعة من الشرق إلى الغرب، ولكنّه - مع ذلك - كان يتّقي الله تعالى، وكان رحيماً على رعاياه.

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حسين بيرزاده،

جامعة الكرم، إنجلترا

بعد صلاة العصر من يوم الأحد ٦ مايو

٢٠٠٧م

الموافق ١٨ ربيع الثاني عام ١٤٢٨هـ

سُورَةُ الْكَهْفِ (١٨)،

مكية (٦٩)، آياتها (١١٠)، ركوعاتها (١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝ (١) فَيَمَّا يَلِيْزُ بَأْسًا شَدِيدًا
مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ (٢) مَّا كَثُورٌ
فِيهِ أَبَدًا ۝ (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ
كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ (٥) فَلَمَّا كَبُرَتْ نَفْسُكَ عَلَى
عَاقِبَتِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا
لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ۝ (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ
أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا ۝ (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا
رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ (١٠) فَضَرْبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ
سِنِينَ عَدَدًا ۝ (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝ (١٢)

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾

١ - يُعَلِّمُ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ
الْمُقَرَّبِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ لَيْسَ فِيهِ أَيُّ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ، وَيُعَلِّمُ مِنَ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ
الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِذَاتِهِ كِتَابٌ كَامِلٌ لَا عَيْبَ فِيهِ، لَيْسَ هَذَا فَقَطْ، وَإِنَّمَا يَصَحِّحُ عَقَائِدَ

الذين يؤمنون به وأعمالهم أيضاً، كما أنه يُنذر الذين يعملون السيئات من عذاب الله تعالى بأنهم إن لم يرجعوا عن أعمالهم السيئة فسيكون مصيرهم جهنم، وفي نفس الوقت يبشّر الذين يعملون الصالحات بأن لهم الأجر العظيم والجنة التي سيُخلّدون فيها.

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾

٢ - من مقاصد نزول القرآن الكريم أيضاً: أنه يحذّر الذين يُشَبِّتُونَ لله تعالى الولد من عذاب الله تعالى، مثلما قالوا عن سيّدنا عيسى عليه السلام: إنه ابن الله! وكان بعضُ المشركين يقولون: إنّ الملائكة بناتُ الله، مع أنه ليس لديهم ولا لدى آبائهم وأجدادهم دليلٌ علميٌّ على هذا الكلام، فما أعظمَ هذا الكذب والافتراء على الله تعالى.

﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾

٣ - في هذه الآية طمأن الله تعالى النبي ﷺ بأن لا تُحزِنَ نفسك على المشركين الذين لا يؤمنون بك، ولا تنغصُ حياتك بسببِ عدم إيمانهم؛ لأنك قد أدّيتَ حقَّ الدّعوة إلى الله، ولهذا إذا لم يؤمن هؤلاء فلن تُسألَ عنهم؛ لأنهم هم المسئولون عن كفرهم.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

٤ - زَيَّنَ الله تعالى هذه الأرضَ بالحقول والأشجار والحدائق وغيرها، وأراد ابتلاءَ الإنسان بكلِّ هذه النعم؛ مَنْ يستغْرِقُها جمالُ هذه النعم وحُسْنُها فينسى الله تعالى، ومَنْ سيَحْنِي رأسه خضوعاً لحُكم الله تعالى رَغْمَ هذه النعم؟

قال رسول الله ﷺ «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»^(١)، ولمزيد من التعرف على حقيقة زينة الدنيا وأموالها راجع الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران (٣)، وكذا الحاشية رقم ١٣٢، وأيضاً الآية رقم ١٠٠ من سورة الإسراء (١٧)، وكذا الحاشية رقم ٩٨.

﴿وَأِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾

٥ النعم في هذه الأرض عارضة مؤقتة فانية، وستزول في يوم من الأيام، ولن يكون في ميدان القيامة حداثق ولا خضرة، وستكون الأرض كلها كميدان صخري بور، ولهذا فإن ترك نعم الله الخالدة، والتعلق بهذه النعم الفانية ليس من العقل في شيء.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾

٦ - المراد بأصحاب الكهف: تلك المجموعة من الشباب المؤمنين الذين كانوا موحدين، ومن أتباع سيدنا عيسى عليه السلام، وقد هاجروا من وطنهم حفاظاً على دينهم، ولجأوا إلى الجبل، ودعوا الله تعالى أن يثبتهم على إيمانهم. والمراد بالرقيم: إما أن يكون تلك المنطقة التي كان بها الكهف، أو تلك اللوحة التي كان مكتوباً عليها أسماء أصحاب الكهف، ولهذا فإن المراد بأهل الكهف وأصحاب الرقيم هو: تلك الجماعة.

وفي هذه الآية يخبر الله تعالى أهل مكة بأنكم تعجبون لهذه الواقعة فقط؟ مع أن خلق السماء والأرض والشمس والقمر آيات أكبر وأعظم من هذه القصة، كما أن تعاقب الليل والنهار الذي يجري منذ ملايين السنين بكل تنظيم وترتيب، ليس آية بسيطة بدوره.

قصة أهل الكهف:

قصة سيدنا يوسف عليه السلام هي القصة الوحيدة التي جاء بيانها تفصيلاً في القرآن الكريم؛ لأن كثيراً من أحداث حياة سيدنا يوسف عليه السلام وأحداث حياة سيدنا محمد ﷺ متشابهة إلى حد كبير، بينما بين القرآن الكريم أجزاء من القصص الأخرى التي تتعلق بتعليم الناس وهدايتهم، وهكذا بين القرآن الكريم بعض الوقائع الخاصة من قصة أهل الكهف، وإن كان المفسرون قد كتبوا كثيراً عنها، وأنا فيما يلي أقدم خلاصة بعض ما كتبوا.

كان حاكم الروم وثنيًا، وفي عام ٢٤٨ م ارتقى دقيانوس (Decius) عرش الروم، فقام بحظر النصرانية في بلاده، وكان يقتل النصارى في أي منطقة يذهب إليها من البلاد^(١)، وحين ذهب دقيانوس إلى آسيا الصغرى رَفَضَ سبعة من الشباب النصارى ترك النصرانية، فقال لهم دقيانوس: أنتم شباب، ولهذا أمهلكم ثلاثة أيام، فإن لم تقبلوا عبادة الأصنام خلال هذه الأيام الثلاث قتلتكم، فاستغل هؤلاء الشباب مهلة الثلاثة أيام هذه وهاجروا من هناك، وفرّوا إلى كهف في جبل للحفاظ على دينهم، ودعوا الله تعالى أن يُنجيهم من شر هذا الحاكم الظالم، وأن يُثبتهم على الإيمان، فاستجاب الله دعاءهم، وسلط عليهم النوم، وكان معهم كلب سار معهم، وحاولوا إبعاده عنهم، لكنه لم يتحركهم، وحين نام هؤلاء الشباب ظل الكلب جالساً ممدداً رجليه أمام باب الغار لحراستهم.

وهكذا مضت ثلاثمائة وتسعة أعوام، وفي تلك الفترة مات دقيانوس، وخلفه ملوك آخرون حكم كل منهم فترة ورّحل، وخربت مدن وعمرت مدن، إلى أن جاء يوم دخل فيه أهل الروم وحاكمهم في النصرانية، وعندئذ أيقظ الله

(١) دائرة المعارف البريطانية، المجلد ٧: ١٢٠.

تعالى هؤلاء الشباب من نومهم الطويل، فَهَضُّوا وهم يَفْرُكُونَ أَعْيُنَهُمْ بأيديهم، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ رَبَّمَا نَامُوا اليومَ أَكْثَرَ من الأيام العاديَّة، لكنَّهُمْ لم يتخيلوا أبدًا أَنَّهُمْ نَامُوا هنا لَأَكْثَرَ من ثلاثة قرون، ولهذا كانوا يسأل بعضهم بعضًا: كم نَمْنَا هنا؟

وقال أهل الكهف لواحدٍ منهم أن يذهب إلى المدينة ليشتري لهم طعامًا، وأخبروه أن يكونَ على حَذَرٍ حتى لا يتعرَّفَ عليه الناسُ، ولكنَّ حينما ذهبَ هذا الشابُّ إلى المدينة أخذته الحيرةُ والدَّهْشَةُ، فقد تغيَّرت الدنيا تمامًا، وأصبح الناسُ جميعًا نصارى، فقام بشرءٍ بعض الخُبزِ من أحدِ حوانيتِ الخبزِ، وأعطى الخبازَ العُملةَ الفِضِّيَّةَ القديمةَ التي كان منقوشًا عليها صورةُ المَلِكِ دِقْيَانُوسَ، تعجَّبَ صاحبُ الحانوتِ كثيرًا حين رأى العُملةَ الفِضِّيَّةَ، وطال النقاشُ بينه وبينَ الشابِّ، حتى تجمَّع أصحابُ الحوانيتِ القريبة، واتَّهموه بأنه سَطَا على كَنْزٍ ملكيٍّ قديمٍ، ووَصَلَ الأمرُ إلى حاكم المدينة، فعَلِمُوا عندئذٍ أنَّ هذا الشابَّ واحدٌ من أولئك السبعة الذين فَرَّوا من مظالم المَلِكِ دِقْيَانُوسَ، وفرَّح الناسُ كثيرًا، واتَّجهوا جميعًا إلى الكهفِ لرؤيتهم، وحين رأى أهل الكهفِ هذا الجَمْعَ الغفيرَ قادمًا ناحيتهم ظنُّوا أنَّ زميلَهُمْ قد أَلْقَى القبضَ عليه فأرْسَدَ إلى مكانِهِمْ وهذا الجَمْعُ قادمٌ للإمساكِ بِهِمْ. وحين وَصَلَ الناسُ بقيادة حاكم المدينة إلى الكهفِ عَلِمَ هؤلاءُ أَنَّهُ قد مضى عليهم في هذا المكانِ أَكْثَرَ من ثلاثة قرون، والتقى الناسُ بأصحابِ الكهفِ، وتبرَّكوا بِهِمْ، ثم فجأةً استلقى هؤلاءُ الشبابُ السبعةُ وصعدت رُوحُهُمْ إلى بارئها، وبنى الناسُ مزارًا على بابِ الكهفِ، وهذه كرامةٌ من كراماتِ أوليائِ بني إسرائيلَ الصَّالحينَ.

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾

٧ - أغلقَ اللهُ تعالى آذانَهُمْ حتى لا يُقْلِقَ صوتٌ من الأصواتِ مناهِمَهُمْ.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾

٨ - حينَ استيقظوا من نومهم أخذوا يتناقشون سويًّا؛ كم من الوقت ناموا؟ قال أحدهم: لقد ناموا اليوم كله، وقال الآخر: بل ناموا بعضَ اليوم لا اليوم كله، بينما أخبرهم أهل المدينة أنهم ناموا ثلاثمائة عام وتسعًا.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ ؕ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ؕ إِلَهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرُّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾

٩ - حين آمن هؤلاء الشباب السبعة برَّبهم مخلصين من قلوبهم في بيئة عبادة الأصنام هذه، أضاء الله تعالى لهم طريق الهداية وزاده نورًا، مثلما قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ ؕ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾:

١٠ - كما أننا جعلنا قلوبهم قويّة بحيث أنهم وقفوا في وجه حاكم ظالم قائلين:

رَبُّنَا هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَنْ نَعْبُدَ سِوَاهُ أَبَدًا، وَلَوْ أَنَّنا عَبَدْنَا هَذِهِ الْأَصْنَامَ فَلَنْ يَكُونَ هُوَ الْحَقُّ، وَلِهَذَا لَنْ نَرْتَكِبَ هَذَا الْخَطَأَ أَبَدًا.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُوا عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

١١ - ما أعجب قومنا! فقد اتَّخذوا لهم آلهة من دون الله تعالى، وليس لديهم أي دليل واضح يؤيد عبادتهم لغير الله تعالى؛ لأنَّ الله تعالى لا شريك له، ولهذا هل هناك أكثر ظلمًا ممَّن يفترى على الله كذبًا؟

﴿وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾

١٢ - ثم أخذ هؤلاء الشباب يقولون لبعضهم: إذا كنتم اخترتم البعد عن آلهتهم، فعليكم أن تخرجوا من هنا نجاةً من فتنهم، وفروا إلى غارٍ تختبئون فيه، والله يرحمكم، ويسر أمركم. وهكذا، خرجوا إلى الغار واختبأوا فيه، وقد حاول جنود الحاكم الظالم البحث عنهم ولكن دون جدوى، مثلما خرج كفار مكة بحثًا عن النبي ﷺ حتى غار ثور، ولكنهم لم يصلوا إليه ﷺ في الغار.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾

١٣ - رغم أنَّهم كانوا مستلقين في مكانٍ فسيح في الغار، لكن ضوء الشمس لم يكن يصل إليهم، وكان الوضع هو أنَّ فتحة الغار كانت باتجاه الشمال، وهكذا

كانت الشمس تُشرق من الناحية اليمنى للغار، وتغرب في الناحية اليسرى له، وبهذا الشكل كانوا في مأمن من شدة الحرارة وحدتها طيلة النهار.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرِيدًا﴾

١٤ - هذه الواقعة بمثابة آية على قدرة الله تعالى وكرامة لأهل الكهف، كما أنها درس عبرة أيضاً، فالذين يطلبون الهداية مخلصين صادقين، يصبح حتى الكهف في الجبل أيضاً سبباً في حفظ إيمانهم، أما الذين يختارون طريق الضلال عمداً، فلن يستطيع إنسان أن يهديهم مهما كان عظيماً.

وَتَحْسَبُهُمْ آيْكَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيْكَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾

١٥ - حين نام أهل الكهف كانت أعينهم مفتوحة، وكانوا يتقلبون يمينا ويسارا،

في مثل هذه الحالة لو افترضنا أن أحدا رآهم، فإنه كان يظن أنهم مستيقظون، ولكن الله تعالى، حفاظاً عليهم، جعل الجو داخل الكهف موحشاً ومربعا لدرجة أنه لو حاول أحد أن يتلصص عليهم لخاف وولّى هارباً.

﴿وَكَلَبُهمْ بِسِطْرٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾

١٦ - ينقل العلامة القرطبي - في هذا الإطار - قول كعب «مروا بكلب فنبح لهم فطردوه، فعاد فطردوه مراراً، فقام الكلب على رجله ورفع يديه إلى السماء كهيئة الداعي، فنطق فقال: لا تخافوا متي أنا أحب أحب الله تعالى فناموا حتى أحرسكم»^(١).

حب أولياء الله الصالحين:

١ - يقول العلامة القرطبي: «إذ كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصالحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا، فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين؟»^(٢).

٢ - يقول سيدنا أنس رضي الله عنه: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، متى قيام الساعة؟ فقام النبي ﷺ إلى الصلاة، فلما قضى صلاته قال: «أين السائل عن قيام الساعة؟». فقال الرجل: أنا يا رسول الله. قال: «ما أعددت لها؟» قال: يا رسول الله، ما أعددت لها كبير صلاة ولا صوم، إلا أنني أحب الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت». (قال أنس رضي الله عنه: فما رأيت فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بهذا)^(٣).

(١) تفسير القرطبي.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٥٠ برقم ٢٣٨٥.

٣ - وفي رواية أخرى: قال سيّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدّ من قول النبي ﷺ: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم^(١).

٤ - يقول سيّدنا أبو موسى رضي الله عنه: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجل أحبّ قوماً ولمّا يلحق بهم؟ قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب»^(٢).

الحب في الله:

١ - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنّ عبدَيْنِ تَحَابَّا في الله، واحدٌ بالمشرق وآخر بالمغرب، لَجَمَعَ اللهُ بينهما يومَ القيامة، يقول: هذا الذي كنتَ تحبُّه في»^(٣).

٢ - قال الله تعالى في الحديث القدسي: «وَجَبْتُ محبَّتي للمتحابِّينَ فيّ والمتجالسينَ فيّ والمتزاوِرينَ فيّ والمُتبادِلينَ فيّ»^(٤).

٣ - قال رسول الله ﷺ - فيما رواه سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه -: «إنّ الله يقول يومَ القيامة: أين المتحابُّونَ بجلالي؟ اليومَ أَظْلَهُم في ظلي يومَ لا ظلَّ إلّا ظلي»^(٥).

٤ - قال النبي ﷺ - فيما رواه سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه -: «إنّ رجلاً زار أخاه في قريةٍ أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكاً، فلمّا أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريدُ أخالي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمةِ تربّها؟ قال: لا، غير أنّي

(١) تفسير القرطبي.

(٢) مسلم، كتاب البر، باب ٥٠ برقم ٢٦٤٠.

(٣) كنز العمال، ٩: ٤ برقم ٢٤٢٤٦.

(٤) مسند أحمد، ٥: ٢٣٣.

(٥) مسلم، كتاب البر، باب ١٢ برقم ٢٥٦٦.

أَحَبُّهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحَبَّتَهُ فِيهِ»^(١).

٥ - يُرَوَى عَنْ سَيِّدِنَا أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لِأَحَبُّ هَذَا. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْلَمْتَهُ؟». قَالَ: لَا. قَالَ: «أَعْلَمْتَهُ». قَالَ: فَلَحِقَهُ فَقَالَ: إِنِّي أَحَبُّكَ فِي اللَّهِ. فَقَالَ أَحَبَّكَ الَّذِي أَحَبَّتَنِي لَهُ»^(٢).

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾

١٧ - كَمَا أَنَّا جَعَلْنَاهُمْ يَنَامُونَ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، يُمْكِنُنَا أَنْ نَجْعَلَهُمْ يَسْتَيْقِظُونَ أَيْضًا، بِمَعْنَى: أَنَّ النَّوْمَ لِهَذِهِ الْفَتْرَةِ الطَّوِيلَةِ، ثُمَّ النَّهْوُ سَالِمِينَ لَا شَيْءَ فِيهِمْ، مَا هُمَا إِلَّا آيَاتَانِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبَعْدَ أَنْ اسْتَيْقَظُوا شَعَرُوا أَنَّهُمْ قَدْ نَامُوا الْيَوْمَ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ، وَلِهَذَا سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا: كَمْ مِنَ الْوَقْتِ نَامُوا؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: نِمْنَا الْيَوْمَ كُلَّهُ، وَقَالَ الْآخَرُ: بَلِ نِمْنَا بَعْضَ الْيَوْمِ. ثُمَّ قَالُوا: دَعَكُمْ مِنْ هَذَا النَّقَاشِ الْعَقِيمِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ كَمْ مِنَ الْوَقْتِ نِمْنَا، وَالْآنَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا أَحَدَكُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَشْتَرِيَ لَنَا طَعَامًا، وَلَكِنْ عَلَى مَنْ يَذْهَبُ أَنْ يَبْحَثَ لَنَا عَنِ الطَّعَامِ الْحَلَالِ الطَّاهِرِ، هَذَا مِنْ جَانِبٍ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ حَذِرًا، وَأَلَّا يَجَادِلَ أَحَدًا، حَتَّى لَا يَعْرِفَ أَحَدٌ بِوُجُودِكُمْ؛ لِأَنَّهُ لَوْ عَلِمَ أَتْبَاعُ ذَلِكَ الْحَاكِمِ الظَّالِمِ بِوُجُودِكُمْ فَسَيُمْسِكُونَ بِكُمْ وَيَرْجُمُونَكُمْ، أَوْ يَعِيدُونَكُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، وَلِئِنْ نَجَحُوا فِي

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٢ برقم ٢٥٦٧.

(٢) أبو داود، كتاب الأدب برقم ٥١٢٥.

إعادتكم إلى الكُفْرِ والشُّرْكِ، فقد ضاعَ هدفُكم من هذه الهجرة، ولن تُفْلِحوا بعدَ ذلك أبداً. وقد مرَّت مثلُ هذه الواقعة قبلَ ذلك في الآية رقم ٢٥٩ من سورة البقرة (٢)، حيث أحيا الله تعالى سيّدنا عزيراً عليه السلام بعد أن أماته مائة عام.

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾

١٨ - في واقعة أهل الكهفِ هذه نموذجٌ ممتازٌ لمُنكري يوم القيامة، بأنّه مثلما أحيا الله تعالى هؤلاء بعدَ مئات السنين، يستطيع أن يُحيي الجميع مرةً ثانية، ومن المؤكّد أنّ وعد الله تعالى - فيما يتعلّق بقيام الساعة - صادقٌ تماماً.

﴿إِذِ يَنْتَظِعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾

١٩ - بعد أن استيقظ أصحاب الكهفِ من نومهم الطويل وماتوا ميتةً طبيعيّة، اختلف الناس في وُضع ما يحدّد مكانَ قبرِهم، فقال البعض: بنينا مبنى عند فتحة الغار يُخلدُ ذكراهم، لكن رأي الأكثرية كان أن يبنوا مكاناً للعبادة قرب الغار، حيث يعبُدُ الناس فيه الله سبحانه وتعالى.

بناء المساجد بالقرب من الأضرحة:

١ - يقول العلامة ثناء الله باني بتي: «هذه الآية تدلُّ على جواز بناء المسجد ليُصلّى فيه عند مقابر أولياء الله قصداً للتبرُّك بهم. وقد كان الشيخ الأستاذ محمد فاخر المحدث رحمه الله يكره ذلك مستدلاً بما رواه مسلم، عن ابن الهيثج الأسدي، قال: قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ؟ أن لا تدعَ تمثالاً إلا طمستَه، ولا قبراً مُشْرِفاً إلا سَوَّيْتَه ... وما روى مسلم، عن جابر، قال: نهى رسول الله ﷺ

أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرِ وَأَنْ يُنَى عَلَيْهِ وَأَنْ يُقَعَّدَ عَلَيْهِ ... وما رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَا: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرُحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ وَهُوَ كَذَلِكَ: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ... قَالَتْ: يَحْذَرُ مِثْلَ مَا صَنَعُوا. قُلْتُ: هَذِهِ الْأَحَادِيثُ تَدُلُّ عَلَى كِرَاهَةِ تَجْصِيسِ الْقُبُورِ وَالْبِنَاءِ عَلَيْهَا وَجَعْلِ الْقُبُورِ مُشْرِفَةً ... وَلَا دَلَالَهَ لَهَا عَلَى كِرَاهَةِ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ بِقَرْبِ مِنْهَا ... وَمَعْنَى: «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» أَنَّهُمْ يَسْجُدُونَ إِلَى الْقُبُورِ»^(١)، كَمَا هُوَ صَرِيحٌ فِي حَدِيثِ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا»^(٢).

٢ - يَقُولُ سَيِّدُنَا صَدْرُ الْأَفَاضِلِ: «يُعَلِّمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ بِنَاءَ الْمَسَاجِدِ بِالْقَرَبِ مِنْ أَضْرِحَةِ الْأَوْلِيَاءِ طَرِيقَةٌ قَدِيمَةٌ مِنْ طُرُقِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَذَكَرَهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعَدَمُ الْمَنْعِ مِنْهُ بِمُثَابَةِ الدَّلِيلِ الْقَوِيِّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْعَمَلِ، وَيُعَلِّمُ مِنْهُ أَيْضًا أَنَّ الْبَرَكَةَ تَحُلُّ بِجَوَارِ الْأَوْلِيَاءِ، وَلِهَذَا يَذْهَبُ النَّاسُ لَزِيَارَةِ أَضْرِحَةِ الْأَوْلِيَاءِ اللَّهُ لِلتَّبَرُّكِ بِهَا، وَلِهَذَا أَيْضًا فَإِنَّ زِيَارَةَ الْقُبُورِ سُنَّةٌ وَمُوجِبَةٌ لِلثَّوَابِ»^(٣).

٣ - يَقُولُ الْعَلَّامَةُ سَيِّدُ مُحَمَّدٍ الْأَلُوسِيُّ: «وَيَكْفِيكَ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ تَتَّبِعُ مَا صَنَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قَبْرِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ أَفْضَلُ قَبْرِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، بَلْ أَفْضَلُ مِنَ الْعَرْشِ، وَالْوُقُوفُ عَلَى أَفْعَالِهِمْ فِي زِيَارَتِهِمْ لَهُ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَتَتَّبِعُ ذَاكَ»^(٤).

(١) التفسير المظهرى.

(٢) مسلم، كتاب الجنائز، باب ٣٣ برقم ٢٢٥٠.

(٣) تفسير خزائن العرفان.

(٤) تفسير روح المعاني.

٤ - بُني قبر رسول الله ﷺ في حُجْرَةٍ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهذه الحُجْرَةُ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَتْ بِنَاءً مُسَقِّفًا (أَي: ذَا سَقْفٍ)، والمسجد النبوي بجوار هذا القبر المبارك، حيث يُصَلِّي المسلمون فيه من زمنٍ بعيدٍ وحتى يومنا هذا^(١).

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَتُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾

٢٠ - جاء في هذه الآية بيانٌ لأقوالِ الناس عن عددِ أهلِ الكهف، وهي ثلاثة أقوال؛ أي: ثلاثة وخمسة وسبعة، وأكثرُ المفسرينَ على أن عددهم كان سبعةً، والثامنُ هو الكلب؛ لأنَّ القرآنَ الكريمَ يقولُ بعدَ القولينِ الأولينِ: إِنَّ هَذَا هُوَ حَدْسُهُمْ بغيرِ أن يَرَوْا شَيْئًا، وبعدَ القولِ الثالثِ لا يتحدَّثُ عن حَدْسٍ آخَرَ، مما يَشيرُ إلى صحَّةِ هذا القولِ.

﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

٢١ - يعني: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ عَدَدَهُمْ، ولهذا نَاقِشُوا عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ بِمَا أَوْحَى اللَّهُ بِهِ فَقَطُّ، وَلَا حَاجَةَ لَكُمْ إِلَى سُؤَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْهُمْ، وَلَكِنْ هُنَاكَ الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ يَعْرِفُونَ عَدَدَهُمُ الصَّحِيحَ، مِثْلَمَا كَانَ سَيِّدُنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «أَنَا مِنْ ذَلِكَ الْقَلِيلِ»، (أَي: الَّذِينَ يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا سَبْعَةً وَثَامَتُهُمْ كَلْبُهُمْ)، ثُمَّ ذَكَرَ السَّبْعَةَ بِأَسْمَائِهِمْ^(٢).

(١) تفسير تبيان القرآن.

(٢) تفسير القرطبي.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَيْثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْثُوا لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۚ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾

٢٢ - في هذه الآية جاء الإرشاد إلى أهل الإيمان أنه كلما أراد مسلم أن يقوم بعملٍ من الأعمال، عليه أن يقول: «إن شاء الله»، وإذا نسي أن يقول: «إن شاء الله» في وقتها، فعليه أن يقولها حالما يذكرها، فالبركة تحل في العمل بسببها، ومن الممكن أن يهديه الله إلى عملٍ أفضل منه أيضًا.

سهو النبي ﷺ في الصلاة:

١ - ذات مرة سها النبي ﷺ في الصلاة، فسجد سجدتين للسهو، ثم قال: «إنه لو حدث في الصلاة شيء لبتأتكم به، ولكن إنما أنا بشرٌ مثلكم (يعني: لست إلهًا)،

أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني، وإذا شك أحدكم في صلاته فليتحرّ الصواب، فليتّم عليه ثمّ يسلم، ثمّ يسجد سجدةً^(١)».

٢ - روى الإمام مالكٌ بسنده، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إني لأنسى أو أنسى لأسن»^(٢)، بمعنى: أنه إذا لحق السهو بأحدٍ من أمتي فإنّ عملي أمامه ليقتي به.

﴿وَلْيَتُوبُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾

٢٣ - «حكى النقّاش ما معناه: أنّهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسيّة بحساب الأيام، فلمّا كان الإخبارُ هنا للنبيّ العربيّ ذُكرت التسعُ، إذ المفهومُ عنده: من السنين القمرية، وهذه الزيادة هي ما بين الحسابين. ونحوه ذكر الغزنويّ. أي: باختلاف سِنِي الشّمس والقمر؛ لأنّه يتفاوت في كلّ ثلاثٍ وثلاثين وثُلث سنة سنةً، فيكون في ثلاثمائة تسع سنين»^(٣).

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾

٢٤ - علّم من الآية السابقة أنّ أهل الكهف مكثوا فيه بالحسابِ القمريّ ثلاثمائة عام وتسعًا، ولكن يا أيّها النبيّ الحبيب ﷺ، رغم ذلك يختلفُ الناسُ في هذا، فقلّ لهم: هل أنتم أعلمُ أم الله تعالى الذي كان يراهم؟ فإذا كان الله تعالى قال: إنّهم مكثوا في الغارِ ثلاثمائة سنين وتسعًا، فهذا هو الصّحيح؛ لأنّه هو - وحده فقط - الذي يَعْلَمُ كم مكثوا في كهفهم.

(١) البخاري، كتاب الصلاة، باب ٣١ برقم ٤٠١.

(٢) الموطأ، كتاب السهو، برقم ٢.

(٣) تفسير القرطبي وتفسير ابن كثير.

﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ، وَأَسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾

٢٥ - كُلُّ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ الْمَدَبُّرُ لِأَمْرِ أَهْلِ الْكَهْفِ، فَهُوَ الَّذِي حَفِظَهُمْ هَذِهِ الْمَدَّةَ الطَّوِيلَةَ، إِنَّهُ وَاحِدٌ أَحَدٌ، قَادِرٌ مُطْلَقٌ، وَلَا شَرِيكَ لَهُ.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾

٢٦ - رَغْمَ أَنَّ الْخَطَابَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، لَكِنَّهُ مَوْجَّهٌ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا، يَعْنِي: عَلَيْكُمْ بِتِلَاوَةِ كُلِّ مَا نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَهُوَ الْحَقُّ وَيَكْفِيكُمْ، وَمَنْ يَحَاوُلُ التَّحْرِيفَ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، لَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يُفْلِتَهُ مِنْ قَبْضَتِهِ.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾

٢٧ - جَاءَ هَذَا الْمَضْمُونُ قَبْلًا فِي الْآيَةِ رَقْم ٥٢ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ (٦)، يَعْنِي: أَنَّ قُرَيْشَ مَكَّةَ ذَاتَ مَرَّةٍ حِينَ رَأَوْا سَيِّدَنَا بِلَالًا وَسَيِّدَنَا صُهَيْبًا وَسَيِّدَنَا عِمَارًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا وَأَمْثَالَهُمْ مِنْ فَقَرَاءِ الصَّحَابَةِ وَمَسَاكِينِهِمْ يَجْلِسُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالُوا فِي تَكْبُرٍ: يَا مُحَمَّدُ، ﷺ، إِنْ كُنْتَ تَرِيدُ أَنْ نَجْلِسَ نَحْنُ أَيْضًا عِنْدَكَ، وَنَسْمَعَ كَلَامَكَ، فَاطْرُدْ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينَ مِنْ عِنْدِكَ، إِذْ تَفُوخُ مِنْهُمْ رَائِحَةُ كَرِيهَةٍ، وَجَلُوسُنَا مَعَهُمْ إِهَانَةٌ لَنَا، فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَالْمَخَاطَبُ الْأَصْلِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الْأُمَّةُ الْمُسْلِمَةُ، يَعْنِي: يَا أَهْلَ الْإِيمَانِ، إِنَّ صُحْبَةَ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينِ شَرَفٌ لَكُمْ وَغَنِيمَةٌ، فَطَيَّبُوا خَاطَرَهُمْ، فَهُمْ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى صَبَاحَ مَسَاءٍ طَلَبًا لِرِضَاهُ، وَابْتَعَدُوا عَنْ عِبَادِ الدُّنْيَا

أولئك، وهم الذين تغفل قلوبهم عن ذكر الله، وقد ابتلوا بالإفراط والتفريط في اتباع رغبات أنفسهم.

وَيُعَلِّمُ مِنْ هَذَا أَنَّ صَحْبَةَ الصَّالِحِينَ أَمْرٌ طَيِّبٌ، حَتَّى وَإِنْ كَانُوا فَقَرَاءَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا، وَأَنَّ صَحْبَةَ الْأَشْرَارِ أَمْرٌ سَيِّئٌ، حَتَّى وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ يَمْلِكُونَ الْكَثِيرَ.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

٢٨ - يعني: أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، وَقَدْ أَوْضَحَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ تَمَامًا، وَالْآنَ سَوَاءٌ آمَنْتُمْ أَمْ لَمْ تَوْمِنُوا فَالْأَمْرُ يَرْجِعُ إِلَيْكُمْ، لَكِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْحَقِّ، وَلَا يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ جِدًّا، سَيُلْقَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ تَحِيطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَإِذَا غَلَبَهُمُ الظُّمَأُ وَطَلَبُوا الْمَاءَ، فَسَيُسْقَوْنَ رِصَاصًا مَصْهُورًا يَحْرُقُ وَجُوهَهُمْ أَيْضًا. مَا أَسْوَأَ هَذَا الشَّرَابِ! وَمَا أَسْوَأَهَا مِنْ عَاقِبَةِ جَهَنَّمَ.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾

٢٩ - أَجْرُ الصَّالِحِينَ لَا يَضِيعُ، وَسَيَخْلُدُونَ فِي الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِينَ، وَسَيَلْبَسُونَ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلِبَاسًا مِنَ الْحَرِيرِ، وَيَجْلِسُونَ عَلَى أَرَائِكٍ وَأَسِرَّةٍ بِكُلِّ عَظْمَةٍ وَفَخَامَةٍ وَرَفْعَةٍ شَأْنٍ.

وَنَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَصَوَّرَ نِعَمَ الْجَنَّةِ بِشَكْلِ دَقِيقٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ كَيْفَ تَكُونُ هَذِهِ الْأَسَاوِرُ، وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ اللَّبَاسُ؛ لِأَنَّ نِعَمَ الْجَنَّةِ لَا مِثِيلَ لَهَا، وَلَمْ تَرَهَا عَيْنٌ، وَلَمْ تَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَلِهَذَا لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّتُهَا الْحَقِيقِيَّةَ تَمَامَ الْعِلْمِ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، لَكِنَّ وَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ الْأَجْرَ سَيَكُونُ عَظِيمًا، وَأَنَّ الْمَصِيرَ سَيَكُونُ عَظِيمًا أَيْضًا.

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾
 كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَاهَا وَلَمْ تَطْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
 لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ
 قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ
 خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ
 نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَيْكَنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ
 جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي
 أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ
 يُصْبِحَ مَاءً وَّهَاعُورًا فَلَنْ لَا تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَاصْبِرْ يَقْلَبْ كَيْفَهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ
 فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيِّنُنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾
 كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَاهَا وَلَمْ تَطْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾

٣٠ - ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى - فِي هَذِهِ الْآيَاتِ - مَثَلًا لِرَجُلٍ كَافِرٍ ثَرِيٍّ وَرَجُلٍ مُؤْمِنٍ
 فَقِيرٍ، أَعْطَى اللَّهُ تَعَالَى الْكَافِرَ حَدِيقَتَيْنِ مِنَ الْعِنَبِ، يَحِيطُ بِهِمَا سُورٌ مِنْ أَشْجَارِ
 النِّخِيلِ، وَدَاخِلَ الْحَدِيقَتَيْنِ أَرْضٌ خَصْبَةٌ لِلزَّرْعَةِ، وَأَنْهَارٌ تَجْرِي لِسُقْيَاهَا، وَتُتَّجَانِ
 مُحَاصِيلٌ وَثَمَارًا بَوْفَرَةً، فَوْجُودٌ مِثْلَ هَذِهِ الْحَدَائِقِ وَهَذِهِ الْأَنْهَارِ وَالْقَنَوَاتِ فِي أَرْضِ
 شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ الصَّحْرَاوِيَّةِ الْجُرْدَاءِ لَيْسَ نِعْمَةً عَادِيَةً!

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾

٣١ - كَانَ الْكَافِرُ يَعِيشُ فِي رَعْدٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَكَانَ لَدَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالْمَتَاعِ
 الْكَثِيرِ، عِلَاقَةٌ عَلَى الْحَدِيقَتَيْنِ، وَذَاتَ يَوْمٍ قَالَ لِلْمُؤْمِنِ مُحَافَاةً إِبْثَاتَ تَفَوُّقِهِ عَلَيْهِ:
 إِنِّي أَكْثَرُ مِنْكَ مِنْ حَيْثُ الْمَالِ، وَأَقْوَى مِنْكَ مِنْ حَيْثُ الْأَوْلَادُ أَيْضًا.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾

٣٢ - ذات يوم دخل هذا الكافر حديقته، وقال متكبرًا: مالي هذا ومتاعي وحديقتاي ستبقى كلها عندي بطبيعة الحال في هذه الدنيا، ولن تفنى أو تبلى أبدًا، وأعتقد أيضًا أن الساعة لن تقوم أبدًا، وعلى افتراض أن الساعة ستقوم، فساكون في الآخرة أيضًا مقرَّبًا إلى الله ومحبَّبًا عنده، وسيكون لدي في الآخرة حداثق أكثر جمالًا، مثلما أنا في الدنيا مقرَّب إليه ومحبَّب عنده، إذ جعلني مالكا لهاتين الحديقتين الجميلتين، ولو لم يكن الله تعالى راضيًا عن أعمالي، لما أنعم علي في الدنيا برغد من العيش؟

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾

٣٣ - حاول المؤمن إفهامه كثيرًا بأن فكر قليلًا في مولدك أنت وتدبره، فالله تعالى هو الذي خلق الإنسان الأول من التراب، وخلقك من نطفة وجعلك إنسانًا مكتملًا، أُنكر هذا؟ على أي حال إن عقيدتي واضحة تمامًا، وهي أنني أومن بالله تعالى إيمانًا لا يتزلزل، فهو ربي، وأنا لا أشرك به أحدًا.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

٣٤ - قال المؤمن لرفيقه الثري: هذه الحداثق نعمة من الله تعالى، وكان يجب عليك أن تشكر الله تعالى عليها بدلًا من أن تغتر بها، وأن تقول: «ما شاء الله لا قوَّة إلا بالله»، ولو قلت هذا لكانت هذه الحداثق خيرًا أكثر بالنسبة لك، مثلما قال سيِّدنا أنس رضي الله عنه: «من رأى شيئًا من ماله فأعجبه فقال: ما شاء الله، لا قوَّة إلا بالله: لم يُصِبْ ذلك المال آفة أبدًا»^(١).

(١) تفسير ابن أبي حاتم، وتفسير الدر المنثور.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾

٣٥ - قال المؤمن: إنك تحتقرني وتعتبرني أضعف منك؛ لأنني أقل منك باعتبار المال والأولاد، مع أن الوقت ليس ببعيد حين يُنعم الله تعالى عليّ في هذه الدنيا أو في الآخرة بجنة أفضل من جنتك، ويُنزل على جنتك هذه عذاباً من السماء يُحيلها إلى أرضٍ جذباء قاحلة، ويجعل ماءها يغوص في الأرض وينضب، بحيث لا تستطيع أن تحصل عليه ثانية، لهذا ليس من العقل أن تغترّ بهذا المال الفاني وهذه الحداثي الزائلة، وتعرض عن ربك سبحانه وتعالى.

﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ. فَاصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾

٣٦ - لم تؤثر نصيحة المؤمن المخلصة في هذا الكافر بشيء، وظلّ مُصرّاً على تكبره وشركه، إلى أن انتهت ساعات المهلة، إذ نزل عذاب الله عليه بغتة، وتساقطت إلى الأرض تلك الأعمدة الحشبيّة التي تسلّق عليها أغصان وقطوف العنب وتنمو عليها، وتلف محضول العنب كاملاً، وأخذ يضرب كفاً بكف أسفاً وندماً قائلاً: ليتني لم أشرك مع ربّي أحداً، كما أن كثرة العدديّة في عائلته لم تستطع أن تساعد في شيء، بل ولم تعد لديه هو نفسه طاقة لينتصر لنفسه.

﴿هَٰذَا لَكِ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾

٣٧ - عندما ينزل عذاب الله تعالى على أيّ طاغية، ويكون هذا الطاغية في النزع الأخير من حياته، أو عندما يبعثه الله من جديد يوم القيامة، عندئذ يتقن هذا الطاغية من أن مالك كلّ السُّلطات هو الله تعالى فعلاً، ولكنّ الإحساس بهذا

في ذلك الوقت لن يفيدَه بشيء، لكنّ الذين أطاعوا الله تعالى في هذه الدنيا، سيمنّهم الله تعالى بأفضل أجرٍ وثواب، وعاقبة جميلة رائعة.

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرًا ﴾

٣٨ - في هذه الآية شبه الله تعالى هذه الحياة الدنيا بنبتة خضراء نمت وترعرعت بسبب الماء، مثلما يُمطرُ الله الأرض اليابسة الخالية بالمطر، فيُعطيها ربيع الخُضرة من كل اتجاه، وتختفي تربة الأرض تحت هذه الخُضرة، ولكن بعد فترة وجيزة، وحين يتغيّر الجو، تيبس هذه الخُضرة وتجف وتطأير مع الهواء، بحيث لا يبقى لها أثر في مكانها، والحياة الدنيا أيضًا مثل هذه الخُضرة، تظل في ربيع لأيام معدودة، وفي النهاية سيطوبها الفناء، وقد مرّ ذكر مثل هذا المثل في الآية رقم ٢٤ من سورة يونس (١٠).

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

٣٩ - قال الله تعالى في هذه الآية: المال والأولاد زينة هذه الحياة الدنيا، وقال

في موضع آخر: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا بِتِمْثَالِكُمْ وَأُولَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤-١٥]، ويُعلم منه أن المال والأولاد بمثابة الابتلاء، وسيُفْتَنُ جميعاً، مثلهما مثل الحياة الدنيا أيضاً، ولهذا فإن التخلي عن طاعة الله تعالى، والاستغراق في محبة المال والأولاد، ما هو إلا طريق إلى جهنم، بينما حب المال والأولاد طبقاً لطاعة الله تعالى هو الطريق إلى الجنة، وفي هذه الحالة يصبح المال والأولاد بمثابة الصدقة الجارية التي تكون في الآخرة وسيلة لأعظم الأمل في الثواب من الله تعالى، مثلما قال سيدنا عليّ كرم الله وجهه: «الْحَرْثُ حَرْثَانِ: فَحَرْثُ الدُّنْيَا الْمَالُ وَالْبُنُونُ، وَحَرْثُ الْآخِرَةِ الْبَقَايَاتُ الصَّالِحَاتُ، وَقَدْ يَجْمَعُهُنَّ اللَّهُ تَعَالَى لِأَقْوَامٍ»^(١).

﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾

٤٠ - قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، إذ سوف تتطير هذه الجبال قبل يوم القيامة كالقطن المنفوش، وكالسحاب أيضاً، وتنتهي تماماً، بل كل الكائنات الموجودة عندئذ ستفنى أيضاً، وستظهر إلى الوجود أرض جديدة في صورة ميدانٍ فسيح نظيف، وفي هذا اليوم سيبعث الله تعالى الأولين والآخرين، ويجمعهم في هذا الميدان للحساب، وفي هذا اليوم لن يستطيع أحد أن يختفي هنا أو هناك، وسيحاسب كل إنسان على أعماله في محكمة العدل والإنصاف الإلهية.

﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾

٤١ - في ذلك اليوم، حين تقف المخلوقات جميعاً مصطفةً في حضرة الله تعالى، سيقول الله تعالى لمنكري يوم القيامة: لقد أخبركم أنبيائي الكرام عليهم السلام أنه مثلما خلقكم الله تعالى في المرة الأولى، فإنه سوف يحييكم من جديد يوم القيامة، لكنكم كنتم تنكرون ذلك، مع أنكم قد بعثتم اليوم من جديد فعلاً! فأخبروني الآن؛ هل كانت رسالة أنبيائي صادقة، أم تفكيركم المعوج هو الذي كان صادقاً؟

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

٤٢ - ستقدّم أمام كل إنسان صحيفته، وحين يجد المجرمون كل ذنوبهم - الصغيرة والكبيرة على السواء - مدونةً في صحيفة أعمالهم، يرتعدون خوفاً ورعباً من مجرد تصوّر العقاب، لكن الله تعالى لن يظلم أحداً، وإنما سيعاقب كل إنسان طبقاً لذنوبه.

يقول المفتي أحمد يار خان: «يُعلم من هذا أنه لن يكون هناك شخص يوم القيامة لا يقرأ، فالجميع عندئذ يستطيعون القراءة، ويعرفون اللغة العربية؛ لأن صحائف الأعمال ستكون باللغة العربية، بل إن اللغة العربية ستكون لغة كل إنسان بمجرد موته؛ لأن سؤال القبر سيكون باللغة العربية، وسيجيب الناس جميعاً باللغة العربية^(١)، وستكون لغة أهل الجنة هي اللغة العربية مثلما قال النبي ﷺ فيما رواه سيّدنا ابن عباس رضي الله عنهما: «أحبوا العرب لثلاث: لأنّي عربيّ، والقرآن عربيّ، وكلام (لسان) أهل الجنة عربيّ»^(٢).

(١) تفسير نور العرفان.

(٢) المستدرک، ٤: ٩٨.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ
وَدُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا
شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ
النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَدُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾

٤٣ - في هذه الآية تصريح بأن إبليس لم يكن من الملائكة، وإنما كان من الجن؛ لأن الملائكة لا تعصي الله أبداً: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، في حين أن إبليس عصى الله تعالى، وأيضاً الملائكة مخلوقات نورانية، في حين أن إبليس مخلوق من النار، وليس للملائكة أولاد، بينما للجن قبيلة وأولاد، لكن إبليس كان يعد من الملائكة بسبب ملازمته لهم كثيراً، ولهذا كان من بين من صدر لهم الحكم من الله تعالى بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام.

عصى إبليس أمر الله تعالى من ناحية، ومن ناحية أخرى رفض تعظيم أبيكم آدم عليه السلام، كما أنه عدو مبین لكم، فهو يدعوكم إلى عصيان الله تعالى، فهل يليق بكم أن تتركوا الله تعالى وتتخذوا من إبليس ودريته أولياء وهم أعداء أبيكم آدم عليه السلام، وأعداء ربكم، وأعداءكم أيضاً؟ ولئن اتخذتم إبليس ولياً برغم ذلك، وظللتم مصرين على عصيانكم لله تعالى، فأنتم أيضاً من الظالمين إذاً، وسيلقى الظالمون يوم القيامة عقاباً شديداً وعذاباً أليماً ومصيراً سيئاً لقاء المظالم التي ارتكبوها، كما أن الظالمين لم يتخذوا الله ولياً، واختاروا بدلاً منه صداقة إبليس،

وهذا بدلٌ سيئ، واختيارٌ غايةٌ في السوء، ولمزيدٍ من التفصيل عن إبليس راجع الآية رقم ١٢ من سورة الأعراف (٧)، وكذا الحاشية رقم ١٠ أيضًا.

﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾

٤٤ - الشياطين الذين اتَّخَذْتُمُوهُمْ شُرَكَاءَ لِي، وتصورْتُم أنهم مدبرو أمرِكم، لم أَسْتَعِنْ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ولست في حاجةٍ أصلاً إلى عَوْنٍ مِنْهُمْ، بل إنَّهم حتى ذلك الوقتِ لم يكونوا قد خَلَقُوا بعدُ، وعندما خَلَقْتُ هؤلاء الشياطين بعد ذلك لم أَسْتَشِرْهُمْ في شيءٍ أيضًا، فإذا كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْلُقَهُمْ بِغَيْرِ عَوْنٍ مِنْهُمْ، فما حاجتي إذا لَأَنْ أَتَّخِذَ مِنْهُمْ شُرَكَاءَ؟ وبفرضِ المستحيل لو أَنِّي سَأَشْرِكُ أَحَدًا مَعِي، فلماذا أُشْرِكُ هؤلاءِ الشياطينَ الذين يعصونني أصلاً.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾

٤٥ - سيقولُ اللهُ تعالى للمُنْكَرِينَ يومَ القيامةِ أَنْ نادُوا أولئك الذين اعتقدْتُم أنهم شُرَكَاءُ لِي حتى يُنْقَذَوْكُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وسوف ينادونهم، ولكن لن يُلَبِّي أَحَدٌ نداءهم، بل سَتَحُولُ بَيْنَهُمْ حُفْرَةٌ مِنْ جَهَنَّمَ، وحين يرى المجرمونَ نَارَ جَهَنَّمَ، سَيَتَقَنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ فِيهَا لَا مَحَالَةَ، وأنه ليس هناك سبيلٌ للإفلاتِ منها.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ

يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾

٤٦ - يَبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى الْعُقَائِدَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِطُرُقٍ وَأَمْثَلَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، حَتَّى يَفْهَمَهَا النَّاسُ بِسَهُولَةٍ، كُلُّ طَبَقًا لَا اسْتِعْدَادِهِ، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ الْعَاصِيَ الْمَتَمَرِّدَ كَثِيرُ الْجَدَلِ الْعَقِيمِ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَقْبَلَ الْحَقَّ، تَرَاهُ يُجَادِلُ جَدَلًا عَقِيمًا لَا طَائِلَ مِنْ وَرَائِهِ حَتَّى فِي الْأُمُورِ الْبَسِيطَةِ الْوَاضِحَةِ.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾

٤٧ - أُنْزِلَ اللهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فَوَضَّحَ طَرِيقَ الْهُدَايَةِ تَمَامَ الْوُضُوحِ، فَمَنْ مَنَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ هَذَا؟ هَلْ يَرِيدُونَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَيُهْلِكَهُمْ، مِثْلَمَا نَزَلَ عَلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِمْ وَأَهْلَكَهَا، أَوْ أَنْ يَأْتِيَ الْعَذَابُ أَمَامَهُمْ تَمَامًا، فَيَتُوبُوا إِلَى اللهِ، فِي حِينٍ أَنْ وَقَتْ قَبُولِ التَّوْبَةِ سَيَكُونُ قَدْ انْتَهَى بَعْدَ رُؤْيَا هَذَا الْعَذَابِ؟

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَنَجِدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾

٤٨ - أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى الرُّسُلَ حَتَّى يَبْشُرُوا عِبَادَ الْحَقِّ بِالْجَنَّةِ، وَعُتَادَ الْبَاطِلِ بِعَاقِبَةِ الشُّوْءِ، وَالْآنَ كَانَ يَجِبُ عَلَى عِبَادِ الْبَاطِلِ أَنْ يَخَافُوا مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى، وَيَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ طَرِيقَ الْحَقِّ، لَكِنَّ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، يَجَادِلُونَ مِنْ أَجْلِ الْقَضَاءِ عَلَى الْحَقِّ، مُعْتَمِدِينَ عَلَى أدَلَّةِ الْبَاطِلِ، وَيَسْخَرُونَ مِنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى وَمِنْ عَذَابِهِ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾

٤٩ - الذين تَمَّتْ نصيحتهم عن طريق آياتِ الله تعالى، ومع ذلك أَعْرَضُوا عن هذه النَّصِيحَةِ، ونَسُوا أَعْمَالَهُم السيئة ومصيرهم السيئ، هؤلاء ظالمون غاية الظلم، وعقاباً لهم على ظلمهم هذا طَبَعَ اللهُ تعالى على قلوبهم غشاوةً، وجَعَلَ في سَمْعِهِمْ ثِقلاً بحيث أصبح من المستحيل عليهم سماعُ القرآن الكريم وفهمه وقبول النَّصِيحَةِ منه، ولهذا كيف يمكنُ دعوتهم إِذَا، فهم ليسوا مستعدين تماماً للسَّير على طريق الهداية أبداً، ولمزيد من الشرح والتوضيح لمسألة القَدَر راجع الآية رقم ٧ من سورة البقرة (٢)، وكذا الحاشية رقم ١٠.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُم مَّوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾

٥٠ - لو كان اللهُ تعالى يؤاخِذُ على الذنوب فوراً لَنَزَلَ العذاب على الظالمين سريعاً، لكنَّ اللهُ تعالى رحيماً غاية الرحمة، ويُمهِّلُ الظالمين لوقتٍ محدَّد حتى يتوبوا ويستغفروا اللهُ من ذنوبهم، ولكنَّ إن لم يَرِجِعُوا عما هم فيه، وحن الوقت المحدد، فسيُنزل العذاب عليهم لا مَحَالَةَ، ولن يستطيعوا الإفلات منه بصورةٍ أو بأخرى.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَنَّمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا﴾

٥١ - كان العربُ يشاهدون خلال أسفارهم التجارية قري قوم عادٍ وثمود المدمرة، حيث ارتكب أهل هذه القري الظلم فأمهلهم اللهُ تعالى إلى وقتٍ محدَّد، ولكن حين لم يَرِجِعُوا عن ظلمهم دَمَّرهم اللهُ تعالى هم وقراهم أيضاً.

وفي هذه الآية تنبيهٌ لأهل مكة أيضًا بأن المهلة المحددة التي أُعطيت لكم لا تعني - أبدًا - أنكم لن تُسألوا عما تفعلون، ولكن عليكم أن تستغلُّوا هذه الفرصة لإصلاح أنفسكم، وإلا فإن الوقت المحدد إذا حان موعده فسيكون مصيركم هو نفس مصير الأمم السابقة عليكم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَفْسَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءُ نَا لَقَدْ لَعِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاثِيئُهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ، مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَ مِمَّا عَلَّمْتُ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، خَبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾

٥٢ - طلب سيّدنا موسى عليه السّلام من الله تعالى أن يلتقي سيّدنا الخضر عليه السّلام، فقال الله تعالى: اذهب إلى مُلتقى البحرين، وهناك ستلتقيه، وهكذا قال سيّدنا موسى عليه السّلام لخادمه يوشع بن نون: إنّ علينا أن نواصل سفرنا حتى نصل إلى مَجْمَعَ البحرين، حتى لو اضطررنا إلى السير سنين طويلاً. وقد جاء بيان قصة سيّدنا موسى عليه السّلام مع سيّدنا الخضر عليه السّلام في الآيات من هذه الآية وحتى الآية رقم ٨٢، وأرى أنّ من المناسب أن أقدم - أولاً - تعريفاً بسيّدنا الخضر عليه السّلام وبالبحرين، قبل أن أقدم خلاصة قصة اللقاء هذه.

سيدنا الخضر عليه السلام:

«جاء في التواريخ أن اسمه: بليا بن ملكان، والخضر لقب له، سُمِّيَ به لأنه جلسَ على فُرْوةٍ بيضاءَ فاحضَرَّت»^(١).

هل كان سيدنا الخضر عليه السلام نبياً أم ولياً؟

يقول العلامةُ ثناءً لله باني بتي: «قال البغوي: لم يكن الخضرُ نبياً عند أكثر أهل العلم. قلت: وهذا عندي محلٌّ نظر؛ لأنَّ العلمَ الحاصلَ للأولياءِ بالإلهام وغير ذلك علمٌ ظنيٌّ يحتملُ الخطأ، ولذلك ترى تعارضَ علومهم المُلهمَة، فلو لم يكن الخضرُ نبياً لما جاز له قتلُ نفسٍ زكيةٍ بإلهامٍ أنه لو عاش لأرَهَقَ أبويه طُغياناً وكفراً»^(٢)، ويقول العلامة أبو حيان الأندلسي: «والجمهورُ على أنَّ الخضرَ نبيٌّ»^(٣). ويقول العلامة القرطبي: «والخضرُ نبيٌّ عند الجمهور. وقيل: هو عبدٌ صالحٌ غيرُ نبيٍّ، والآيةُ تشهدُ بنبوته؛ لأنَّ بواطنَ أفعاله لا تكونُ إلَّا بوحي»^(٤).

ويقول العلامةُ فخرُ الدين الرازي في تفسير الآية رقم ٦٥ من هذه السُّورة: إنَّ الخضرَ نبيٌّ عند أكثر العلماء، وبَيَّنَ لذلك أسباباً عديدةً.

هل سيدنا الخضر عليه السلام حي إلى الآن أم لا؟

يقول العلامةُ ثناءً لله باني بتي: إنَّ أقوالَ العلماءِ في هذا الخُصوصِ مختلفة، «ولا يمكنُ حلُّ هذا الإشكالِ إلَّا بكلامِ المجدِّدِ للألفِ الثاني رضي الله عنه، فإنه

(١) تفسير البغوي.

(٢) التفسير المظهر.

(٣) البحر المحيط.

(٤) تفسير القرطبي، سورة الكهف (١٨): الآية ٦٥.

حين سُئِلَ عن حياة الخَضِرِ عليه السَّلَامُ ووفاته توجّه إلى الله سبحانه مستَعِلِّمًا من جنبه عن هذا الأمر ... فرأى الخَضِرَ عليه السَّلَامُ حاضراً عنده، فسأله عن حاله فقال: أنا وإلياسُ لسنا من الأحياء لكنَّ الله سبحانه أعطى لأرواحنا قوةً نتجسّدُ بها ونفعلُ بها أفعالَ الأحياء من إرشادِ الضالِّ وإغاثةِ الملهوفِ إذا شاءَ الله وتعليمِ العلمِ اللَّدُنِّيِّ وإعطاءِ النَّسَبِ لمن شاءَ الله تعالى^(١). ويقولُ العلامَةُ أبو حَيَّانَ الأندَلُسِيُّ: «والجمهُورُ على أنه مات»^(٢).

مجمع البحرين:

أين مَجْمَعُ البحرَيْنِ وملتقاهما هذا؟ أقوالُ العلماءِ في هذا أيضًا مختلفة، لكنَّ الأقربَ للقياس هو: ذلك المكانُ الذي يلتقي فيه خليجُ العقبة بخليجِ الشُّوَيْسِ، ثم يُصبَّانِ في البحرِ الأحمرِ^(٣)، على أيِّ حال، المرادُ منه هو: ذلك المكانُ الذي التقى فيه سيِّدُنا موسى عليه السَّلَامُ سيِّدَنا الخَضِرَ عليه السلام.

قصة سيِّدنا موسى عليه السلام مع سيِّدنا الخضر عليه السلام:

ذاتَ مرَّة، وقَفَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلَامُ يخطُبُ في بني إسرائيلَ، فسأله أحدُهم: هل بينَ الناسِ من هو أعلمُ؟ فقال سيِّدُنا موسى عليه السَّلَامُ: أنا أعلمُ الناسَ. فعاتبَه اللهُ تعالى قائلاً: لماذا لم يَنْسِبِ العِلْمَ إلى اللهِ تعالى؟ (وفيه درسٌ عبرةٌ عن طريق سيِّدنا موسى عليه السَّلَامُ لكلِّ أهلِ الإيمانِ حتى قيام الساعةِ بأن يقولوا في مثل هذه الحالة: إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ من هو الأَعْلَمُ)، وهكذا أَرْسَلَ اللهُ تعالى الوَحْيَ إلى سيِّدنا موسى عليه السَّلَامُ أنَّ عبدًا لي (الخَضِرَ) في مَجْمَعِ البحرَيْنِ، وهو أعلمُ منك.

(١) التفسير المظهر.

(٢) البحر المحيط في التفسير.

(٣) تفسير تبيان القرآن.

فقال سيّدنا موسى عليه السّلام: يا إلهي، كيف ألقاه؟ فقال الله تعالى: ضَعْ سَمَكَةً فِي سَلَّةٍ، وَحِينَ تَضِيعُ مِنْكَ هَذِهِ السَّمَكَةُ (أي: بعد أن تعودَ إليها الحياة)، ستجدُ عَبْدِي هَذَا. وهكذا اضْطَحَبَ سيّدنا موسى عليه السّلامُ خادَمَهُ يوشَعَ بْنَ نُونٍ وَمَعَهُمَا سَمَكَةٌ، وَسَارَا حَتَّى وَصَلَا إِلَى صَخْرَةٍ، فَوَضَعَا رَأْسَيْهِمَا عَلَيْهَا وَنَامَا، وَأَثْنَاءَ ذَلِكَ تَحَرَّكَتِ السَّمَكَةُ وَخَرَجَتْ مِنَ السَّلَّةِ، وَشَقَّتْ لِنَفْسِهَا طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ كَأَنَّهُ السَّرْدَابُ، وَرَأَى يوشَعَ بْنَ نُونٍ السَّمَكَةَ وَهِيَ تَنْزِلُ إِلَى الْبَحْرِ، لَكَنَّهُ رَأَى أَنَّ مِنْ غَيْرِ الْمُنَاسِبِ حِينَئِذٍ أَنْ يوقِفَ سيّدنا موسى عليه السّلام، وقال لنفسه: سأخبره حينَ يستيقظُ، ثم نَسِيَ أَنْ يُخْبِرَهُ أَيْضًا. وَحِينَ تَحَرَّكَ مِنْ عِنْدِ الصَّخْرَةِ، وَبَعْدَ سَفَرٍ يَوْمٍ كَامِلٍ سَأَلَ سيّدنا موسى عليه السّلامُ خادَمَهُ أَنْ يُجَهِّزَ لَهُمَا الْإِفْطَارَ. عِنْدَئِذٍ قَالَ يوشَعَ بْنَ نُونٍ: لَقَدْ قَفَزَتِ السَّمَكَةُ فِي الْبَحْرِ حِينَ كُنَّا نَائِمَيْنِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ، وَنَسِيتُ أَنْ أَخْبِرَكَ بِذَلِكَ. فقال سيّدنا موسى عليه السّلام: إِذَا هَذَا هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي كُنَّا نَبْحَثُ عَنْهُ.

وعاد الاثنانِ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَرَأَى سيّدنا الْخَضِرُ عَلَيْهِ السّلامُ موجودًا هناك. فقال له سيّدنا موسى عليه السّلامُ بعد أن سَلَّمَ عَلَيْهِ: هَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَبْقَى مَعَكَ بِشَرِطٍ أَنْ تُعَلِّمَنِي شَيْئًا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ؟ فقال سيّدنا الْخَضِرُ عَلَيْهِ السّلام: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَّمَنِي عِلْمًا لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَقَدْ عَلَّمَكَ اللَّهُ تَعَالَى عِلْمًا لَا أَعْلَمُهُ أَنَا (لِأَنَّ الْعُلُومَ كُلَّهَا لَمْ يَجْمَعْهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَحَدٍ إِلَّا لَذَاتِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ سيّدنا الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ التَّحِيَّةُ وَالثَّنَاءُ). فقال سيّدنا موسى عليه السّلام: إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى سَتَجِدُنِي صَابِرًا، وَلَنْ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا. قَالَ سيّدنا الْخَضِرُ عَلَيْهِ السّلام: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَصَحَّبَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ أَيِّ شَيْءٍ إِلَى أَنْ أَخْبِرَكَ أَنَا عَنْهُ بِنَفْسِي.

وهكذا، سارا بمحاذاة شاطئ البحر، وفي تلك الأثناء مرّت سفينةٌ مِنْ أَمَامِهِمْ، وَعَرَفَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ سيّدنا الْخَضِرَ عَلَيْهِ السّلام، فَأَرْكَبُوهُمَا مَعَهُمَا دُونَ أَنْ يَتَقَاضُوا مِنْهُمَا أَجْرَةٌ، وَقَامَ سيّدنا الْخَضِرُ عَلَيْهِ السّلامُ بِاقْتِلَاعِ لَوْحٍ مِنَ الْأُلُوحِ

من أسفلِ السَّفينة وألقى به بعيدًا، فقال له سيِّدنا موسى عليه السَّلام: هؤلاءِ الناسُ أركبونا معهم بغيرِ أُجرة، وأنتِ اقتلعتِ لوحًا من السَّفينة حتى تُغرقَ مَنْ يركبونَ فيها؟ إن هذا أمرٌ سيِّئ. فقال سيِّدنا الخَضِرُ عليه السَّلام: ألم أقلْ لك: إنك لن تستطيعَ معيَ صبرًا؟ فقال سيِّدنا موسى عليه السَّلام: لقد نسييت، فسامِخني.

وفي تلك الأثناءِ جاءت عصفورةٌ وحطَّت على حافةِ السَّفينة، والتقطت بمنقارِها بعضَ الماء، فقال سيِّدنا الخَضِرُ عليه السَّلام لسيِّدنا موسى عليه السَّلام: علمي وعِلْمُكَ معًا بالنَّسبة إلى عِلْمِ الله تعالى لا يَعدِلانِ مقدارَ الماءِ الذي التقطته هذه العصفورةُ بمنقارِها من البحر.

ثم خَرَجَا من السَّفينة وسارا على الشاطئ، فرأيا غلامًا صغيرًا يلعبُ مع أترابه، فقتل سيِّدنا الخَضِرُ عليه السَّلام هذا الغلامَ، وعندئذٍ قال له سيِّدنا موسى عليه السَّلام: لقد قَتَلْتَ غلامًا بغيرِ حقٍّ وبغيرِ جَريرةٍ ارتكَبَها، إنك لم تُحسن الصُّنع. فقال سيِّدنا الخَضِرُ عليه السَّلام: ألم أقلْ لك: إنك لن تستطيعَ معيَ صبرًا؟ فقال سيِّدنا موسى عليه السَّلام: لن أفعلَ ذلك مستقبلاً.

ثم دَخَلَا قريةً، وطلَّبا طعامًا من أهلِها، إلَّا أنَّ أهلَ القرية رَفَضُوا استضافتهما، فرأيا جدارًا مائلًا في هذه القرية، وقاما بإصلاحه وإقامةِ اعوجاجِه، فقال سيِّدنا موسى عليه السَّلام: أنَّ أهلَ القرية لم يُقدِّموا لنا حتى مجرَّدَ الطعام، فإن شئتَ يمكنكُ أن تطالبَهم بأجرٍ على هذا العمل. فقال سيِّدنا الخَضِرُ عليه السَّلام: هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ الْآنَ^(١).

(١) حدَّثني أبي بن كعب، أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل فسئل: أيُّ النَّاسِ أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يردِّ العلمَ إليه، فأوحى الله إليه. إنَّ لي عبدًا بمجمع البحرين، هو أعلم منك، قال موسى: يا ربِّ، فكيف لي به؟ قال: تأخذُ معك حوتًا فتجعله في مكثلي، فحيثما فقدت الحوت فهو ثمِّي، فأخذ حوتًا فجعله في مكثلي ثم انطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتَّى إذا أتيا الصَّخرة وضعا رءوسهما فناما، واضطرب =

ثم قال سيّدنا الخضر عليه السّلام: هيا أُخْبِرْكَ الآنَ قَبْلَ أَنْ نَفْتَرِقَ بِحَقِيقَةِ كُلِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَمْ تَسْتَطِعِ الصَّبْرَ عَلَيْهَا.

= الحوت في المِكتَل، فخرج منه، فسقط في البحر فاتّخذ سبيله في البحر سرّاً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطّاق، فلمّا استيقظ، نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقيّة يومهما وليلتهمَا، حتّى إذا كان من الغد قال موسى لفته: ﴿إِنَّا عَدَاءُكَ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾، قال: ولم يجد موسى النّصب حتّى جاوز المكان الَّذِي أَمَرَ الله به، فقال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾، قال: فكان للحوت سرّاً ولموسى ولفته عَجَبًا، فقال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبُغِ فَارْتَدَّ عَلَيْنَا آثَارُهُمَا فَصَصًا﴾، قال: رجعا يقصّان آثارهما حتّى انتهيا إلى الصّخرة، فإذا رجلٌ مسجّى ثوباً، فسلم عليه موسى. فقال الخضر: وأنتي بأرضك السّلام؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلّمني ممّا علّمت رشداً. قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، يا موسى إنّي على علمٍ من علم الله علّمني لا تعلّمه أنت، وأنت على علمٍ من علم الله علّمك الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. فقال له الخضر: ﴿إِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينةٌ فكلّموهم أن يحملوهم، فعرّفوا الخضر، فحملوه بغير نولٍ، فلمّا ركبا في السّفينة، لم يفجأ إلّا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السّفينة بالقدوم. فقال له موسى: قومٌ حملونا بغير نولٍ، عمدت إلى سفينتهما فخرقتهما لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً. قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: ﴿لَا تُؤْخَذُنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾. قال: وقال رسول الله ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نسياناً». قال: «وجاء عصفورٌ فوق على حرف السّفينة فتقر في البحر نقرَةً، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلّا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثمّ خرجا من السّفينة، فبينما هما يمشيان على السّاحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله. فقال له موسى: أقتلت نفساً زاكيةً بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نكراً. قال: ألم أقل لك: إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: وهذا أشدّ من الأولى، قال: إن سألتك عن شيءٍ بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنّي عذراً. فانطلقا، حتّى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ - قال: مائلٌ - فقام الخضر فأقامه بيده فقال موسى: قومٌ أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيّفونا، لو شئت لاتّخذت عليه أجراً. قال: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾. البخاري، كتاب التفسير، سورة الكهف (١٨): باب ٢.

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ فَقَرَاءَ، وَكَانَ هُنَاكَ مَلِكٌ ظَالِمٌ يَأْخُذُ السُّفْنَ
الْجَيِّدَةَ غَضَبًا، وَلَقَدْ أَحْدَثْتُ عِيًّا فِي السَّفِينَةِ لِكَيْ لَا يَغْتَصِبَهَا الْمَلِكُ الظَّالِمُ، وَتَظَلَّ
السَّفِينَةُ وَسِيلَةً كَسْبِ الْعِيشِ لَهُؤَلَاءِ الْمَسَاكِينَ الْفُقَرَاءِ. وَأَمَّا الْوَلَدُ الَّذِي قَتَلْتُهُ فَكَانَ
وَالِدَاهُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَلَوْ بَقِيَ هَذَا الْوَلَدُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ لَأَجْبَرَ وَالِدَيْهِ عَلَى
الْكُفْرِ، وَالْآنَ سِيرَ زُفُيْهُمَا اللَّهُ تَعَالَى بِوَلَدٍ أَفْضَلَ مِنْهُ. وَأَمَّا الْجِدَارُ الَّذِي كَانَ آيَلًا
لِلشُّقُوطِ فَكَانَ لَطِفَيْنِ يَتِيمَيْنِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا خَبَاءٌ وَالِدَاهُمَا الصَّالِحُ لَهُمَا،
إِلَى أَنْ يَكْبُرَا فَسَيُخْرِجَاهُ، وَلَوْ سَقَطَ ذَلِكَ الْجِدَارُ لَنَهَبَ النَّاسُ هَذَا الْكَنْزَ.

وَيُعَلِّمُ مِنْ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ أَنَّ الذَّهَابَ لِلِقَاءِ عَالِمٍ كَبِيرٍ مِنْ أَجْلِ طَلَبِ الْعِلْمِ،
وَالسَّفَرِ الطَّوِيلِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ سُنَّةِ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا خُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾

٥٣ - حِينَ وَصَلَ سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَخَادِمُهُ يُوْشَعَ بْنِ نُونٍ إِلَى مَلْتَقَى
الْبَحْرَيْنِ وَضَعَا رَأْسَيْهِمَا عَلَى الصَّخْرَةِ وَنَامَا، وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ عَادَتِ الْحَيَاةُ إِلَى
السَّمَكَةِ، وَشَقَّتْ طَرِيقَهَا إِلَى الْبَحْرِ مِثْلَ السَّرْدَابِ، وَرَغِمَ أَنْ يُوْشَعَ بْنُ نُونٍ رَأَى السَّمَكَةَ
وَهِيَ تَقْفُزُ إِلَى الْبَحْرِ، لَكِنَّهُ نَسِيَ أَنْ يُخَبِّرَ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذَا الْأَمْرِ.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا غَدَاءٌ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾

٥٤ - بَعْدَ أَنْ اسْتَرَا حَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ قَامَا وَوَاصَلَا سَفَرَهُمَا، وَبَعْدَ سَفَرٍ يَوْمٍ كَامِلٍ
قَالَ سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعُلاَمِهِ: أَحْضِرْ لَنَا طَعَامَ الْفُطُورِ، فَلَقَدْ تَعَبْنَا كَثِيرًا.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ
وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾

٥٥ - قَالَ الْخَادِمُ: حِينَ نِمْنَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ عَادَتِ الْحَيَاةُ إِلَى السَّمَكَةِ وَقَفَزَتْ
فِي الْبَحْرِ، وَقَدْ أَنْسَانِي الشَّيْطَانُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِأَمْرِهَا.

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّ عَلَيَّ آثَارُهُمَا قَصَصًا﴾

٥٦ - قال سيّدنا موسى عليه السّلام: هذا هو المكان الذي كنا نبحث عنه إذاً، وهكذا عادا متتبعين آثار أقدامهما متجهين إلى تلك الصخرة.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾

٥٧ - حين وصلا عائدين إلى الصخرة كان ذلك - في الحقيقة - هو المكان الذي يقال له: «مجمع البحرين»، وكان سيّدنا الخضر عليه السّلام موجوداً هناك، فسلم عليه سيّدنا موسى عليه السّلام، فردّ عليه سيّدنا الخضر عليه السّلام قائلاً: وعليك السّلام يا نبيّ بني إسرائيل. فسأله سيّدنا موسى عليه السّلام: كيف عرفتني؟ فأجابه سيّدنا الخضر عليه السّلام: الذي أرسلك إلى هنا هو الذي عرّفني بك. ويُعلم من هذه الآية أنّ الله تعالى قد أنعم على سيّدنا الخضر عليه السّلام برحمة خاصّة من عنده وعلم خاص، أي: العلم اللدني.

تعريف العلم اللدني:

يقول الملاء عليّ القاري: «والعلم نورٌ في قلب المؤمن مقتبسٌ من مصابيح مشكاة الثبوة من الأقوال المحمّديّة، والأفعال الأحمديّة، والأحوال المحموديّة، يُهتدى به إلى الله وصفاته وأفعاله وأحكامه، فإن حصل بواسطة البشر فهو كسبيّ، وإلّا فهو العلم اللدني المنقسم إلى: الوحي، والإلهام، والفِراسة»^(١).

الله تعالى يُنعم على أنبيائه الكرام عليهم السّلام وعلى أوليائه الكاملين بالعلم اللدني، لكن درجاتهم ومراتبهم مختلفة ومتفاوتة، والوحي خاصٌّ بالأنبياء الكرام عليهم السّلام، ويحصل منه العلم اليقينيّ، والذي هو حُجّة في الشريعة،

بينما الإلهام والفِرَاسَةُ بمثابة علامةٍ على عِظَمَةِ أولياءِ الله الكاملين، ولكن يحصلَ منه العِلْمُ الظَّنِّي، وهو ليس حُجَّةً في الشريعة.

المراد بالعلم اللدني:

فَهِمُ المفسِّرونَ من العِلْمِ اللَّدْنِيِّ في هذه الآية على أنه عِلْمُ الغيب، يعني: أن الله تعالى أنعم على سَيِّدِنَا الخَضِرِ عليه السَّلَامُ بعِلْمِ الغيب، على سَبِيلِ المِثَالِ:
١ - يقول العلامةُ القرطبي: «أي: علمُ الغيب»^(١).

٢ - يقول القاضي البيضاوي: «مما يختصُّ بنا ولا يُعَلِّمُ إلَّا بتوفيقنا، وهو علمُ الغيوب»^(٢).

٣ - يقول العلامةُ مُحَمَّدُ علي الصابوني: «أي علمًا خاصًّا بنا لا يُعَلِّمُ إلَّا بتوفيقنا، وهو علمُ الغيوب»^(٣).

٤ - يقول العلامةُ الشُّوكَانِيُّ: «وهو ما عَلَّمَهُ اللهُ سبحانه من عِلْمِ الغيبِ الذي استأثَّرَ به»^(٤).

٥ - يقول العلامةُ أَبُو حَيَّانَ الأندلسيُّ: «أي: من عندنا، أي: ممَّا يختصُّ بنا من العِلْمِ، وهو الإخبارُ عن الغيوب»^(٥).

٦ - يقول العلامةُ محمودُ الألوسي: «أي: علمًا لا يُكْتَنَتُهُ كُنْهُهُ ولا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، وهو علمُ الغيوبِ وأسرارُ العلومِ الخَفِيَّةِ»^(٦).

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير البيضاوي.

(٣) صفوة التفاسير.

(٤) تفسير فتح القدير.

(٥) تفسير البحر المحيط.

(٦) تفسير روح المعاني.

٧ - يقول العلامة أبو مسعود: «عِلْمًا خَاصًّا لَا يُكْتَنَّهُ كُنْهُهُ وَلَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، وَهُوَ عِلْمُ الْغُيُوبِ»^(١).

٨ - يقول العلامة ابن جرير الطبري: «وَكَانَ رَجُلًا يَعْلَمُ عِلْمَ الْغَيْبِ»^(٢).

علم سيدنا محمد ﷺ للغيب:

يُعْلَمُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَالْأَقْوَالِ الْمَذْكُورَةِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَنْعَمَ عَلَى سَيِّدِنَا الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ بِعِلْمِ الْغَيْبِ فَقَطُّ، وَإِنَّمَا بِعِلْمِ الْغُيُوبِ، فَإِنَّ عِلْمَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ إِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَسَيِّدُهُمْ، بِالْغَيْبِ، وَعِلْمُهُ بِالْغُيُوبِ أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾

٥٨ - طَلَبَ سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِكُلِّ أَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ - مِنْ سَيِّدِنَا الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ أَسْمَحَ لِي أَنْ أَرِافَقَكَ لِفَتْرَةٍ أَتَعْلَمُ فِيهَا مِنْكَ، وَيُعْلَمُ مِنْهُ أَنْ عَلَى الْإِنْسَانِ مَهْمَا كَانَتْ رُبَّتُهُ وَمَكَانَتُهُ، أَنْ يَتَأَدَّبَ مَعَ أَسَاتِذِهِ وَيَحْتَرُمَهُ فِي كُلِّ حَالٍ، وَعَلَى كُلِّ طَالِبٍ عِلْمٍ أَنْ يَتَأَسَّى فِي هَذَا بِالْأُسُوةِ الْحَسَنَةِ مِنْ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يقول العلامة ثناء الله باني بتي: «هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَفْضُولَ قَدْ يَكُونُ لَهُ فَضْلٌ جُزْئِيٌّ عَلَى مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ، وَعَلَى أَنَّ الْفَاضِلَ يَنْبَغِي أَنْ يَطْلُبَ هَذِهِ الْحِصَّةَ مِنَ الْفَضْلِ مِنَ الْمَفْضُولِ وَلَا يَسْتَكِفَ عَنْهُ»^(٣). ومثلما قال النبي ﷺ

(١) تفسير أبي السعود.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري.

(٣) التفسير المظهر.

فيما رواه عنه سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «الكلمة الحكمة ضالّة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقّ بها»^(١).

و«قيل لابن مسعود رضي الله عنه: بم وجدت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤولٍ وقلب عقول»^(٢).

و«روى: العالم أرف بالتلميذ من الأب والأم؛ لأن الآباء والأمهات يحفظونه من نار الدنيا وآفاتهما، والعلماء يحفظونه من نار الآخرة وشدائدها»^(٣).

و«قيل: فإن الآباء ثلاثة: من علمك، ومن زوّجك، ومن ولّدك»^(٤)، وقال الإمام الغزالي رحمه الله: «وخير الآباء من علمك»^(٥).

وقد روى سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه هذا الإرشاد للنبي ﷺ أن اطلبوا العلم، وتعلّموا الشكون والوقار من أجل العلم، وتواضعوا أمام من تتعلّمون منه^(٦).

ذات مرّة سأل الخليفة العباسي هارون الرشيد رجال بلاطه: أخبروني، من الأكثر احترامًا والأرفع قدرًا في هذه البلاد؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين. فكرّر الخليفة سؤاله ثلاث مرات، وأعاد عليه الحاضرون نفس الإجابة، وهو ما اعتبره الخليفة جوابًا خاطئًا، فسأله الحاضرون في البلاط: لو أنّ جوابنا ليس صحيحًا، فأخبرنا أنت. قال هارون الرشيد: الأكثر احترامًا في هذه البلاد كلّها هو الأصمعي

(١) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩.

(٢) التفسير الكبير، سورة البقرة (٢): الآية ٣١.

(٣) المرجع السابق، سورة البقرة (٢): الآية ٣١.

(٤) روح المعاني، سورة الضحى (٩٣): الآية ٨.

(٥) منهاج المتعلم، المكتبة الشاملة، ٨١.

(٦) «تعلّموا العلم، وتعلّموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تعلّمون منه». كنز العمال،

أستاذ ولدي: المأمون والأمين؛ لأنّ ولديّ يتسابقان دائماً في حَمْلِ حذاءِ أستاذيهما، بينما لا يفعلان ذلك في حَمْلِ حذائي^(١).

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

٥٩ - كان سيّدنا الخَضِرُ عليه السّلام يَعْرِفُ أنّ مِثْلَ هذه الواقعات التي تتنافى مع الشّريعة - في الظاهر - سوف تحدث، ولا يمكنُ لنبيّ أن يسكُتَ على أمورٍ مخالفةٍ للشّرع ما لم يظهرَ له سببٌ لحدوثها، ولهذا قال سيّدنا الخَضِرُ عليه السّلام لسيّدنا موسى عليه السّلام: إنك لن تستطيعَ معي صبرًا، وفي نفسِ الوقت بيّن السببَ في قوله هذا بأنّ من الطّبيعيّ أنك لن تستطيعَ الصبرَ على عَمَلٍ يخالفُ الشّرع ولا تَعْلَمُ حِكْمَتَهُ، لكنّ سيّدنا موسى عليه السّلام وَعَدَهُ بأنه إن شاء الله سيصبر، ولن يعصيَ له أمرًا.

﴿قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾

٦٠ - قال سيّدنا الخَضِرُ عليه السّلام: عندما أقومُ بعملٍ لا تَعْلَمُ حِكْمَتَهُ، عليك بالصّبر، ولا تستفسرَ عنه فورًا، إلى أن أُبينَ لك أنا الحِكْمَةَ من وراءه.

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا رَكِيَةً بَعِيرٌ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْفُلُفُلُ فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا رَكَّبَهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا نَغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾

٦١ - سار سيّدنا موسى عليه السّلام وسيّدنا الخضر عليه السّلام كلاهما بمُحاذاة شاطئ البحر، وفي تلك الأثناء مرّت سفينة من أمامهم، وعرف أصحاب السفينة سيّدنا الخضر عليه السّلام، فأركبوهما معهما دون أن يتقاضوا منهما أجرًا، وقام سيّدنا الخضر عليه السّلام باقتلاع لوح من الألواح من أسفل السفينة وألقى به بعيدًا، فقال له سيّدنا موسى عليه السّلام: هؤلاء الناس أركبونا معهم بغير أجر، وأنت اقتلعت لوحًا من السفينة! وبهذه الطريقة سيغرق رُكّاب السفينة في الماء، لقد قمت بعملٍ خطيرٍ للغاية، فقال سيّدنا الخضر عليه السّلام: ألم أقل: إنك لن تستطيع معي صبرًا؟ وعليه قال سيّدنا موسى عليه السّلام: لقد أخطأت، فلا تقسُ عليّ وسامخني.

يقول المفتي أحمد يار خان: لقد اقتلَع سيّدنا الخضر عليه السّلام من السفينة ذلك اللّوح الذي يفصلُ بين الماء والسّفينة، ومع ذلك لم يتسرّب الماء إليها^(١).

وهنا إشارة إلى معجزتين من معجزات سيّدنا الخضر عليه السّلام، بمعنى: أنه اقتلَع اللّوح من السفينة بطريقة معجزة، بحيث لم يشعرُ بالأمر أحدٌ غير سيّدنا موسى عليه السّلام، وفي نفس الوقت لم يتسرّب الماء إلى السفينة رغم حدوث الثّقْب فيها.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَفِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّكَ دَجَمْتُ شَيْئًا نُّكْرًا﴾

٦٢ - ثم خَرَجَا من السَّفِينَةِ وسارا على شاطئ البحر، فرأيا غلامًا يلعبُ مع أترابه، فقتل سيِّدنا الخَضِرُ عليه السَّلَامُ هذا الغلامَ، فقال له سيِّدنا موسى عليه السَّلَامُ: لقد قتلتَ هذا الطِّفْلَ البريءَ بغيرِ حقٍّ، إنَّ هذا فعلٌ شنيعٌ غيرُ لائقٍ! فقال سيِّدنا الخَضِرُ عليه السَّلَامُ: أَلَمْ أَقُلْ: إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ معيَ صَبْرًا؟ قال سيِّدنا موسى عليه السَّلَامُ: أعطني فُرْصَةً أُخْرَى، وإنَّ سَأَلْتُكَ بَعْدَهَا فَلَا تُبْقِنِي مَعَكَ، وستكونُ على حقٍّ في قرارِكَ هذا، ولن أَعترضَ عليك في شيءٍ.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَبِأَوَّلِهَا نُلَاقِيهِمْ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾

٦٣ - ثم دَخَلَ قَرْيَةً، وطلبَا طعامًا من أَهْلِ هذه القرية، لكنَّ أَهْلَ القرية رَفَضُوا استضافتهما، ثم وَجَدَا جدارًا على وَشَكِ السُّقُوطِ في هذه القرية، عندئذٍ أَقَامَهُ سيِّدنا الخَضِرُ عليه السَّلَامُ بيده بطريقَةٍ معجزةٍ فاستقامَ الجدارُ، فقال سيِّدنا موسى عليه السَّلَامُ: إنَّ أَهْلَ هذه القرية لَمْ يُقَدِّمُوا لَنَا مَجْرَدَ الطعامِ، ولو شِئْتَ يُمكنُكَ أَنْ تَطْلُبَ منهم أَجْرًا على إِقامَتِكَ الجدارِ. قال سيِّدنا الخَضِرُ عليه السَّلَامُ: يكفي هذا، الآنَ حانَ وَقْتُ الفِرَاقِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ؛ لأنَّكَ لَمْ تَسْتَطِعَ الصَّبْرَ.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾

٦٤ - ثم قال سيِّدنا الخَضِرُ عليه السَّلَامُ لسيِّدنا موسى عليه السَّلَامُ: هَيَّا قَبْلَ أَنْ نَفْتَرِقَ أَخْبِرْكَ بِحَقِيقَةِ تلكَ الأمورِ التي لَمْ تَسْتَطِعَ الصَّبْرَ عليها:

فقد كانت تلكَ السَّفِينَةُ يَمْلِكُهَا بعضُ الفقراءِ، وكان يقفُ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ ظالمٌ

يغضبُ الشُّفَنَ الجَيِّدَةَ التي لا عيبَ فيها من أصحابِها، ولم يكنْ أصحابُ هذه السفينة يعلمونَ بهذا الأمر، ولهذا أحدثتُ عيبًا في السفينة حتى لا يأخذها المَلِكُ الظالمُ غصبًا، وحتى تستمرَّ وسيلةٌ كَسْبِ العيشِ لهؤلاءِ المساكينِ الفقراءِ.

﴿وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنِينَ فَأَخْبَيْنَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾

٦٥ - أمّا ذلك الغلامُ الذي قَتَلْتُهُ فكان والداه من أهلِ الإيمان، ولو بقيَ على قيدِ الحياة لأَجَبَرَهُما على الكُفْرِ والطُّغيان، والآن سوف يُنْعِمُ اللهُ تعالى عليهما بخيرٍ منه، يكونُ أكثرَ طهرًا في ذاته، وأكثرَ رحمةً بوالديه.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾

٦٦ - وأمّا الجدارُ الذي أقمتهُ وكان على وَشِكِ السَّقُوطِ، فهو لِطِفْلَيْنِ يَتِيمَيْنِ، وتحتَهُ كنزٌ مدفون، دَفَنَهُ والدُهُما الصَّالِحُ لهما، حتى يَسْتَخْرِجَاهُ عندما يَشْبَا عَنْ الطُّوقِ، ولو سَقَطَ الجدارُ لَنَهَبَ النَّاسُ كَنْزَ هَذَيْنِ الْيَتِيمَيْنِ.

﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

٦٧ - وفي النهاية قال سيّدنا الخَضِرُ عليه السَّلَام: إنني لم أفعلْ كلَّ هذا برغبةٍ مني وهوىٍ في نفسي، وإنّما فعلتهُ بأمرٍ من الله تعالى.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَّكَّرُ إِلَيْكَ إِيَّانَا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِنَّا أَنْ تَذَّكَّرَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ

وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ نَائِسِرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَنْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَنْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

﴿وَسَأَلُونَا عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾

٦٨ - استفسر مشركو مكة بالتشاور مع يهود المدينة عن ذي القرنين من النبي ﷺ، فقال ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْعَمَ عَلَى ذِي الْقَرْنَيْنِ بِحُكْمِ بِلَادِ فَارَسَ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِكَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِرْفَةِ وَالْمَتَاعِ، سَاعَدْتُهُ كُلُّهَا عَلَى تَحْقِيقِ فَتُوحَاتٍ كَبِيرَةٍ، بَحِثْ أَصْبَحَ حَاكِمًا عَلَى الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ. وَيُعَلِّمُ مِمَّا قَالَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ كَانَ إِنْسَانًا صَالِحًا وَمُؤْمِنًا صَادِقًا، وَكَانَ مَلِكًا يَهْتَمُّ بِرِعْيَتِهِ وَيَعْطِفُ عَلَيْهِمْ.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾

٦٩ - اتَّجَهَ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَوَّلًا إِلَى الْغَرْبِ، وَفَتَحَ الْبِلَادَ فِي طَرِيقِهِ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى السَّاحِلِ الْغَرْبِيِّ لِأَسْيَا الصُّغْرَى حَيْثُ تَنْتَهِي الْأَرْضُ وَيَنْتَهِي الْعِمَارُ، وَلَا يَوْجَدُ سِوَى الْمَاءِ عَلَى امْتِدَادِ الْبَصَرِ، حَيْثُ كَانَ يَبْدُو مِثْلَ عَيْنِ الْوَحْلِ الْأَسْوَدِ بِسَبَبِ تَنَاقُضِهِ مَوْزَعًا فِي خُلُجَانٍ صَغِيرَةٍ، وَكَانَتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ بَيْنَ أَمْوَاجِ الْمِيَاهِ، وَرَغْمَ

أَنَّ الشَّمْسَ أَكْبَرُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ، وَتَسِيرُ فِي مَدَارِهَا الْخَاصِّ بِهَا، وَلَا تَغْرُبُ فِي مَكَانٍ أَبَدًا، وَلَكِنَّ الَّذِي يَقِفُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ - يَشَاهِدُ مَنْظَرَ غُرُوبِ الشَّمْسِ - يَشْعُرُ وَكَأَنَّ الشَّمْسَ تَغْرُبُ فِي الْمَاءِ.

﴿وَجَدَ عِنْدَ هَاقُمًا قُلْنَا يَذُرُّ الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ نَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾

٧٠ - كَانَ أُولَئِكَ الْقَوْمُ الَّذِينَ أَغَارُوا عَلَى بِلَادِ ذِي الْقَرْنَيْنِ، وَحَاوَلُوا الْاِسْتِيلَاءَ عَلَى عَرْشِهِ، يَسْكُنُونَ بِالْقُرْبِ مِنَ الْبَحْرِ بِاتِّجَاهِ الْغَرْبِ، وَقَدْ سَيَّطَرَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، فَأَلْهَمَ اللَّهُ تَعَالَى ذَا الْقَرْنَيْنِ - بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي أَلْهَمَ بِهَا أُمَّ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [طه: ٣٨]، أَي: عَلَيْكَ يَا أُمَّ مُوسَى أَنْ تَضْعِيَ مُوسَى فِي صَنْدُوقٍ وَتُلْقِي بِهِ فِي الْبَحْرِ - وَهَكَذَا أَلْهَمَ ذَا الْقَرْنَيْنِ أَنْ إِذَا شِئْتَ يُمْكِنُكَ أَنْ تَنْتَقِمَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَغَارُوا عَلَى بِلَادِكَ، وَإِنْ أَرَدْتَ يُمْكِنُكَ أَنْ تَعْفُو عَنْهُمْ^(١).

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ، نُعْرِضُكَ إِلَى رَبِّهِ، فَيُعَذِّبُهُ، عَذَابًا نُكْرًا﴾

٧١ - عَفَا ذُو الْقَرْنَيْنِ عَنِ الْأَخْطَاءِ السَّابِقَةِ لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ، لَكِنَّهُ حَذَّرَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَوْ اخْتَارُوا السَّيْرَ عَلَى طَرِيقِ الظُّلْمِ وَالْاِعْتِدَاءِ مُسْتَقْبَلًا، فَسَوْفَ نُعَاقِبُهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ.

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾

٧٢ - وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، فَسَيَكُونُ لَهُ الْأَجْرُ الْعَظِيمُ فِي الْآخِرَةِ، وَنَحْنُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا سَنَعْمَلُ عَلَى تَيْسِيرِ أُمُورِهِ.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾

٧٣ - وبعد فتوحاته في الغرب اتجه ذو القرنين إلى الشرق، حيث نهاية العمران البشري؛ لأن بعض قبائل البدو كانت قد أشعلت هناك نار الفتنة، وكان هؤلاء يعيشون في الجبال والغابات كالحيوانات المتوحشة بغير منازل يستقرون فيها ولا حتى ملابس تستر عوراتهم، ويلى أماكن تواجد هؤلاء باتجاه الشرق سلسلة من الجبال طويلة شاهقة، وحين ترتفع الشمس فوق هذه الجبال، يشعر الناظر إليها وكأنها تشرق فعلاً من بين هذه الجبال.

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾

٧٤ - كل ما ذكر عن ذي القرنين كانت هذه هي حقيقته، فالله تعالى يعلم تمام العلم كل إمكانيات ذي القرنين، وقد أنعم عليه بالإمكانيات التي جعلته يسيطر على العالم المعروف كله في ذلك الوقت.

﴿ثُمَّ أُنْعَمَ سَبًّا﴾

٧٥ - مفهوم الآيات - من الآية رقم ٩٢ إلى الآية رقم ٩٧ - هو أن ذا القرنين اتجه من الشرق إلى الشمال، وحين وصل إلى معبر بين جبلين، وجد خلف هذين الجبلين قوماً لا يعرفون ذا القرنين ولا لغة جيشه، فاشتكوا إليه بلغتهم قائلين: إنَّ يأجوج ومأجوج يسكنون في الجانب الآخر من هذه الجبال، وقد أحالوا حياتنا إلى عذاب، فهم يتسللون من خلال هذا المعبر، ويدمرون قرانا ويعيثون فيها فساداً، وينهبون أموالنا ومتاعنا، ونحن على استعداد لأن نقدم لك النفقات اللازمة لكي تقيم بيننا وبين هؤلاء سداً عالياً، حتى نبقي في أمان من شرورهم وظلمهم. وقد فهم ذو القرنين لغة هؤلاء وما قالوا عن طريق العلم الذي أنعم الله

به عليه، فقال لهم: لست في حاجة إلى أموالكم، وقد أنعم الله تعالى عليّ بالعلم والحرفة، وهذا أفضل من مالكم، لهذا عليكم أن تساعدوني بجهدكم، وأحضروا لي صفائح الحديد، وأنا سأقيم بينكم وبين هؤلاء القوم سدًا عاليًا. وهكذا أقام ذو القرنين سدًا من الحديد بين الجبلين وبارتفاعهما، ثم أشعل النار وصهر هذا الحديد، وأسأل فوقه المعدن المذاب بحيث أضاف إليه مزيدًا من القوة والصلابة، وفي نفس الوقت جعله أملس، حتى لا يستطيع يأجوج ومأجوج تسلق هذا السد، ولا إحداث ثقب فيه، ويأجوج ومأجوج من أولاد سيدنا آدم عليه السلام، لكنهم ظالمون ويأكلون البشر.

أين يأجوج ومأجوج الآن؟

هناك رأي فيما يتعلق بيأجوج ومأجوج، وهو: أنهم لا يزالون محبوسين خلف ذلك المعبر الجبلي، وسوف يتحطم السد قرب يوم القيامة، ويخرج يأجوج ومأجوج، ويعملون القتل والخراب والدمار في العالم كله.

يبقى هناك سؤال، وهو: أين ذلك الجبل الذي يعيش يأجوج ومأجوج محبوسين خلفه؟ لا يوجد أي تصريح بذلك في القرآن الكريم ولا في الأحاديث النبوية، كما أنه ليس هناك أي حكم إسلامي مرتبط بالتحقيق في هذا الأمر، فقد يكون ذلك السد الحديدي قد تحول إلى تراب واختلط بالأحجار الآن بعد مرور آلاف السنين، وليس من الضروري أيضًا أن يكون يأجوج ومأجوج يعيشون في منطقة واسعة من الأرض؛ لأن إعطاءهم الأعمار الطويلة والأولاد الكثير ليس من سنة الله تعالى، وإنما لإظهار قدرة الله تعالى، والله تعالى قادر على كل شيء، فكما أنه قادر على أن يمدد يوم القيامة ليعدل خمسين ألف يوم مما نعرفه، كذلك يستطيع أن يحيل المليارات من يأجوج ومأجوج إلى أجساد صغيرة في صغر حجم النمل،

ويحبسهم في غار في جبل، ثم يُخرجهم قُرب يوم القيامة من الجبل ويُعيدهم إلى حالتهم الأولى، مثلما روى سيّدنا ابنُ عباس رضي الله عنهما «أنّ إبليسَ جاء إلى عالم وقال: هل يَقْدِرُ ربُّكَ أن يجعلَ الدُّنيا في جَوْفِ بيضة؟ قال: نَعَمْ، قال: وكيف؟ قال: يقولُ لذلك إذا أراد: كن، فيكون»^(١).

وهناك روايةٌ أخرى في هذا الخُصوص جاء فيها: يقولُ سيّدنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: «يَطْوِي اللهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ بما فيها من الخليفة، والأَرْضِينَ السَّبْعَ بما فيها من الخليفة، يَطْوِي ذلك كُلَّهُ بيمينه، يكونُ ذلك كُلُّهُ في يده بمنزلة خَزْدَلَةٍ»^(٢)، وكما أنّ الله تعالى يَطْوِي كُلَّ مخلوقاتِ السَّمَاءِ والأَرْضِ مثلَ حَبَّةِ خَزْدَلٍ، فإنه كذلك يُمكنه أن يَطْوِيَ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ أيضًا مثلَ حَبَّةِ خَزْدَلٍ، ثم يعيدهما إلى حالتِهما الأُصْلِيَّةِ مرةً أخرى قُرب يوم القيامة.

وهناك رأيٌ آخرُ فيما يتعلّق بِيَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ، وهو: أنّ فترة اقترابِ يوم القيامة قد بدأت بالفعل مع بَعْثَةِ نبيِّ آخر الزَّمان سيّدنا محمدٍ ﷺ، ومن الممكن جدًا أن يكونَ موضوعُ إخراجِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ قد حَدَثَ بالفعل، مثلما يقولُ الشهيدُ سيّد قُطُب: «وهذا النصُّ لا يحدّدُ زمانًا. ووعدُ الله - بمعنى: وَعِدَهُ بِدَكِّ السِّدِّ - ربّما يكونُ قد جاء منذُ أنْ هَجَمَ التَّارُ وانساحوا في الأرض، ودمّروا الممالكَ تدميرًا»^(٣).

ويقولُ العلامَةُ عبدُ الحقِّ: إنّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ همُ التَّارِيُّونَ وأهلُ التَّارِ الصَّيِّئُونَ، وهم الذين أقامَ ذو القرنينِ السِّدَّ من أجلِ إيقافِ أجدادِهِم، وسوف تُغيّرُ هذه الأقوامُ في آخِرِ الزَّمانِ على بلادِ الدنيا، أو أنها أغارت بالفعل، والله أعلم^(٤).

(١) جامع بيان العلم وفضله، ٤٢، رواية رقم ١١٦.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، سورة الأنبياء (٢١): الآية ١٠٤.

(٣) تفسير في ظلال القرآن.

(٤) تفسير حقاني.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾

٧٦ - قال ذو القرنين: هذا فضلٌ من ربِّي سبحانه وتعالى ورحمةٌ، بأن جعل هذا السدَّ قويًّا، وسوف يتحطَّم هذا السدُّ في الوقت المحدد له، وعندها سيخرج هؤلاء القوم كأمواج البحر الهادرة، يعيشون في الأرض قتلاً وتخریباً وإفساداً.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾

٧٧ - بدايةً من هنا تقدَّم الآياتُ مشهدًا من مشاهد القيامة، يعني: حين يُنفخ في الصور، ويُبعث الناس من قبورهم فيخرجون إلى ميدانٍ فسيح يتجمعون فيه، أمَّا أولئك الكفار الذين كانوا ينكرون الآخرة، وحرّموا آذانهم وأعينهم من ذكرى، فستبدو لهم جهنّم أمامهم تمامًا، وهي التي سيلقون فيها.

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَآخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكُمُتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾

٧٨ - أولئك الكفار الذين يتزكّون الله تعالى ويعبدون الملائكة وسيّدنا عيسى عليه السلام وسيّدنا عزيّراً عليه السلام، ويتوقعون منهم أن يُنقذوهم من عذاب يوم القيامة، هؤلاء في غاية الجهل، وعلى العكس من ذلك، سيظهر سيّدنا

عيسى عليه السّلام نفسه براءته من حركاتهم الكُفريّة هذه يوم القيامة، ولهذا فإنّ المؤمنين بالله تعالى سيستفيدون يوم القيامة يقيناً بحبّ الأنبياء الكرام عليهم السّلام وأولياء الله الصّالحين، بينما لن يستفيد الكُفّار من صداقة أو محبة لأحد بسبب كُفْرهم، وسيدخلون جهنّم داخرين.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾

٧٩ - أخبر الله تعالى في هذه الآيات عن أولئك الذين سيكونون في خسارة باعتبار أعمالهم، بمعنى: أنه ستكون لديهم أعمال، لكن بلا جدوى، وهؤلاء هم الذين ضاعت جهودهم كلّها في تحسين الحياة الدّنيا فقط، وظلّوا يعتقدون بأنّ هذا من الأعمال الصّالحة، أمّا الخسارة التي سيواجهونها بسبب نسيانهم الآخرة، فهم لا يشعرون بها، أو أنّ المراد الكُفّار والمُراءون الذين لن تفيدهم أعمالهم الصّالحة أيضاً بشيء يوم القيامة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾

٨٠ - الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا بالآخرة، ولا يؤمنون بحقيقة أنّهم سوف يمثلون أمام الله تعالى يوم القيامة لمحاسبتهم على أعمالهم، هؤلاء ليس لأعمالهم الدّنيويّة أيّ قيمة عند الله يوم القيامة؛ لأنّ هذه الأعمال فقدت قيمتها وأثرها بسبب كُفْرهم، كما أنّهم لن يقام لهم الميزان يوم القيامة؛ لأنّ الميزان يكون لأولئك الذين تتراوح أعمالهم بين الحسّن والسيّئ، أمّا الذين لا توجد في صحائف أعمالهم حسنة واحدة فلا حاجة لهم بالميزان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾

٨١ - الذين آمنوا وعملوا الصّالحات سيدخلون جنّات الفردوس.

الدعاء بالجنة:

١ - ﴿وَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥].

٢ - دعا النبي ﷺ قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ. آمين»^(١).

أحوال أهل الجنة:

١ - قال النبي ﷺ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْذًا مُرْدًا مَكْحَلِينَ أَبْنَاءَ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً»^(٢).

٢ - قال رسول الله ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عَشْرُونَ وَمِائَةً صَفًّا، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ»^(٣).

٣ - قال رسول الله ﷺ عن أهل الجنة: «وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غُدُوَّةً وَعَشِيَّةً»^(٤).

جنة الفردوس:

قال رسول الله ﷺ: «فِي الْجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةٌ وَمِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَةُ، وَمَنْ فَوْقَهَا يَكُونُ الْعَرْشُ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ»^(٥).

(١) المعجم الكبير للطبراني، ٢٣: ٣١٧. رواية رقم ٧١٧.

(٢) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٢ برقم ٢٥٤٥.

(٣) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٣ برقم ٢٥٤٦.

(٤) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٧ برقم ٢٥٥٣.

(٥) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ٤ برقم ٢٥٣١.

﴿خَلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾

٨٢ - سَيُخْلَدُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَسَيَنْعَمُونَ مَطْمَئِنِّينَ بِنِعْمِهَا بَحِثُ لَا يَرْغَبُونَ أَبَدًا فِي الْإِنْتِقَالِ مِنْهَا إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ مَكَانٌ أَفْضَلُ مِنَ الْجَنَّةِ أَصْلًا، فَمَنْ - يَا تَرَى - يُمَكِّنُ أَنْ يَرْغَبَ فِي غَيْرِهَا؟

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾

٨٣ - لَوْ كُتِبَتْ كَلِمَاتُ أَوْصَافِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَمَالَاتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَجُعِلَ مَاءُ الْبَحْرِ مِدَادًا وَأَحْبَارًا تُكْتَبُ بِهَا، فَسَوْفَ تَنْفَدُ مِائَةُ الْبَحَارِ مَهْمَا كَانَتْ وَاسِعَةً وَعَمِيقَةً قَبْلَ أَنْ تَكْتَمَلَ الْكِتَابَةُ؛ لِأَنَّ مِائَةَ الْبَحَارِ مَحْدُودَةٌ عَلَى أَيْ حَالٍ، بَيْنَمَا كَلِمَاتُ اللَّهِ وَكَمَالَاتُهُ غَيْرُ مَحْدُودَةٍ، وَلِهَذَا فَإِنَّ مِنَ الْبَدِيهِيِّ تَمَامًا أَنَّ الْكَيَانَ الْمَحْدُودَ لَا يُمَكِّنُهُ الْإِحَاطَةُ بِالْكَلِمَاتِ غَيْرِ الْمَحْدُودَةِ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾

٨٤ - بَشَرِيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ:

لَمَّا رَأَى النَّاسُ مَعْجَزَاتِ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَمَالَاتِهِ اعْتَبَرُوهُ إِلَهًا وَابْنَ اللَّهِ، وَحِينَ بُعِثَ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا وَالْمَعْجِزَةُ الْمَجْسُودَةُ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالَّذِي سَلَّمَ عَلَيْهِ الْأَشْجَارُ وَالْأَحْجَارُ، كَانَ هُنَاكَ خَطَرُ احْتِمَالِ أَنْ تَعْتَبِرَهُ أُمَّتُهُ إِلَهًا أَوْ ابْنَ اللَّهِ، وَلَسَدَ الطَّرِيقَ عَلَى هَذَا الْإِحْتِمَالِ مِنْ سُوءِ الْفَهْمِ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، قُلْ لَهُمْ: لَا شَكَّ أَنَّي بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَيَنْزِلُ عَلَيَّ الْوَحْيُ بِأَنَّ

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ: ﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، يعني: أنا مثلكم في مسألة عَدَمَ ألوهيتنا، فأنا لست إلهًا، وأنتم كذلك لستم آلهة، ولكن هذا لا يعني أبدًا أنه ﷺ مثل باقي البشر تمامًا، ومما لا شك فيه أن كل نبيٍّ بشرٌ، ولكن بداخل بشريّة النبيِّ صلاحيةٌ وإمكانيةٌ استقبالِ الوحي، وهو ما يُميّزه عن باقي البشر، ولأنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ جميعًا، لهذا فإنَّ بشريّته هي أرقى وأرفع بشريّة بين بني الإنسان، وهذا هو السبب في أنَّ الصَّحَابَةَ الْكَرَامَ رضوانُ الله عليهم جميعًا حينَ رَأَوْا عِبَادَةَ النَّبِيِّ ﷺ وصيامه واصلوا الصيام (أي: وَصَلُوا صَوْمَ الْيَوْمِ بِالَّذِي قَبْلَهُ، وَلَمْ يَتَنَاوَلُوا بَيْنَهُمَا طَعَامًا)، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ كَثِيرًا، وَعَلَيْهِ نَهَاہُم النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّكَ تَوَاصِل. قَالَ: «لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَظَلُّ أُطْعَمُ وَأُسْقَى»^(١)، وفي حديثٍ آخَرَ قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أُطْعَمُ وَأُسْقَى»^(٢)، وفي آخَرَ، قَالَ ﷺ: «وَأَيْكُمْ مِثْلِي؟ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي»^(٣).

نورانية النبي ﷺ:

كما أنَّ بشريّة النَّبِيِّ ﷺ لا مثيلَ لها، فإنَّ نورانيّته ﷺ أيضًا لا مثيلَ لها، مثلما قال النَّبِيُّ ﷺ:

١ - «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى نُورِي»^(٤).

٢ - «كُنْتُ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ فِي الْخَلْقِ وَآخِرَهُمْ فِي الْبَعْثِ»^(٥).

(١) البخاري، كتاب الصوم، باب ٢٠.

(٢) مسلم، كتاب الصيام، باب ١١ برقم ٢٥٦٤.

(٣) مسلم، كتاب الصيام، باب ١١ برقم ٢٥٦٦.

(٤) تفسير روح المعاني، سورة الأنعام (٦): الآية ١٦٣.

(٥) كنز العمال، ١١ برقم ٣٢١٢٦.

٣- يَروي سَيِّدُنَا أَبُو هَرِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ الصَّحَابَةَ الْكَرَامَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوءَةُ؟ قَالَ: «وَأَدُمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ»^(١).

ويقول العلامةُ سَيِّدُ مُحَمَّدٍ الْأَلُّوسِي: «المحبُّ القادرُ الذي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ دعا حَبِيبَهُ الذي خَلَقَهُ مِنْ نُورِهِ إِلَى زِيَارَتِهِ»^(٢).

ويقول العلامةُ الطَّبْرِي: «فهو نورٌ لمن استنارَ بِهِ يُبَيِّنُ الْحَقَّ»^(٣).

وقالت السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: اسْتَعْرَتْ مِنْ حَفْصَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ إِبْرَةَ كُنْتُ أَخِيضُ بِهَا ثَوْبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم، فَسَقَطَتْ عَنِّي الْإِبْرَةُ، فَطَلَبْتُهَا فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهَا، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم فَتَبَيَّنْتُ الْإِبْرَةَ بِشُعَاعِ نُورٍ وَجْهَهُ»^(٤).

الفقيهُ إِلَى اللَّهِ: مُحَمَّدٌ إِمْدَادُ حُسَيْنِ بَيْرَزَادَه،
جامعة الكرم، إيتن هال، إنجلترا
اكتمَل تفسِيرُ سورةِ الكهفِ اليومَ الخميس ٣١ من مايو عام ٢٠٠٧ م
الموافق ١٤ من جُمادى الأولى عام ١٤٢٨ هـ
وقد استغرقَ تفسِيرُها خمسةً وعشرينَ يومًا.
والحمدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ،
وعلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.



(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١.

(٢) تفسير روح المعاني، سورة الإسراء (١٧): الآية ١.

(٣) تفسير ابن جرير الطبري، سورة المائدة (٥): الآية ١٥.

(٤) كنز العمال، ١٢: ٤٢٩ رقم ٣٥٤٩٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩) سُورَةُ مَرْيَمَ

هذه السُّورة مَكِّيَّة، واسمُها مَرْيَمُ؛ لأنها تحدَّثت - تفصيلاً - عن السيِّدة مَرْيَمَ عليها السلام.

زمن النزول:

نزلت هذه السُّورة قبلَ العامِ الخامسِ من البَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ، ودليلُ ذلك: الواقعةُ التاليةُ من الهجرة إلى الحبشة، والتي قرأ فيها سيِّدنا جعفرُ الطَّيَّارُ رضيَ اللهُ عنه جزءاً من هذه السُّورة أمامَ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الحبشة، وقد كانت الهجرة إلى الحبشة في السَّنة الخامسة من البَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ، ويُعلِّمُ من هذا أنَّ هذه السُّورة كانت قد نزلت قبلَ السَّنة الخامسةِ هذه.

الهجرة إلى الحبشة:

عندما رأى النبي ﷺ أنَّ ظُلمَ كُفَّارِ مَكَّةَ للمسلمينَ يزداد، أذن لفدائِيَّيه وعُشَّاقِه في الهجرة إلى الحبشة، إذ إن هناك المَلِكَ النَّجَاشِيَّ، وهو مَلِكٌ رَحِيمٌ القلبِ عادل، لا يَظْلِمُ أحداً، ولا يَسمَحُ لأحدٍ بظُلمِ الضُّعَفَاءِ، وهكذا خَرَجَت أولُ قافلةٍ من المهاجرينَ من وَطَنها مَكَّةَ في العامِ الخامسِ للبَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ مَتَّجِهَةً إلى الحبشة، وكانت هذه القافلةُ تضمُّ اثنيَ عَشَرَ رجلاً وأربعَ نساء، وكان قائدَ القافلة هو سيِّدنا

عثمانُ الغنِيُّ رضيَ اللهُ عنه، وكانت فلذةُ كبدِ النَّبيِّ ﷺ السيِّدةُ رُقِيَّةُ رضيَ اللهُ عنها زوجةُ سيِّدنا عثمانَ رضيَ اللهُ عنه ضمنَ هذه القافلةِ المهاجرةَ.

وحين وَصَلَت قافلةُ المسافرينَ على طريقِ الحقِّ هذه استقبلَها النَّجاشِيُّ بكلِّ احترامٍ وتقديرٍ، وهياًَّ لهم مكاناً آمناً لإقامتهم، ومَضَت ثلاثةُ أشهرٍ في أَمْنٍ واطمئنانٍ، وفي تلك الأثناءِ انتشرَ خبرٌ بأنَّ أهلَ مَكَّةَ قد أسلموا، ولهذا عاد أكثرُ أفرادِ القافلةِ من الحبشةِ إلى مَكَّةَ، وهناك عَرَفُوا أنَّ هذا الخبرَ مجردُ إشاعةٍ، وأنَّ أحوالَ المسلمينَ هنا أكثرُ سوءاً من ذي قَبْلُ، وهكذا أذن النَّبيُّ ﷺ لهم بالهجرةِ ثانيةً إلى الحبشةِ، وفي هذه المرَّةِ كان ضمنَ أفرادِ القافلةِ سيِّدنا جعفرُ الطيّارُ رضيَ اللهُ عنه ومسلمون آخرون، وكان عددُ أفرادِ القافلةِ ثلاثةً وثمانينَ فرداً.

عندما تَرَكَ هذا العددُ الكبيرُ مَكَّةَ مهاجراً إلى الحبشةِ، أصابَ القلقُ كُفَّارَ مَكَّةَ بهذا الشأنِ، خوفاً من أن يَستَجمِعَ المسلمونَ هناك طاقاتهم ويُغيروا عليهم، وهكذا تشاورَ كُفَّارُ مَكَّةَ فيما بينهم، وأرسلوا سفيرينَ إلى النَّجاشِيِّ، لكي يَلْتَقِيَهُ، ويؤثِّرا عليه بطريقةٍ أو بأخرى، بحيث يَطْرُدُ المسلمينَ المهاجرينَ من الحبشةِ، ويُجبرَهم على العودةِ إلى مَكَّةَ، ولكي يَجْعَلُوا هذه السَّفارةَ أكثرَ تأثيراً أرسلوا الهدايا النفيسةَ الغاليةَ إلى النَّجاشِيِّ، لكي يَحْضِلُوا على تأييدهِ هو ورجالِ بلاطِهِ، ولَمَّا وَصَلَ سفيراً قُرَيْشٍ إلى الحبشةِ قالوا لَمَلِكِها:

بعضُ السُّفهاءِ من بلادنا جاءوا إلى بلادِك وأقاموا فيها، هؤلاءِ السُّفهاءُ تَرَكَوا دينَ قومِهِم، ولم يَقْبَلُوا دينَكَ، وإنَّما جاءوا بدينٍ لهم من عندِ أنفُسِهِم، وقد أرسلنا إليك سادةَ قُرَيْشٍ حتى تأمُرَ هؤلاءِ السُّفهاءَ بالخروجِ من بلادِك، والعودةِ إلى أهلِهِم في وطنِهِم.

وهكذا استدعى النَّجَاشِيُّ المسلمينَ المهاجرينَ إلى بِلَاطِهِ وسألهم: أيُّ دينٍ هذا الذي تَرَكْتُم من أَجْلِهِ دينَ آبائكم؟ فقال سَيِّدُنَا جَعْفَرُ الطَّيَّارُ رضيَ اللهُ عنه: أَيُّهَا المَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا جُهَلَاءَ، نَعْبُدُ الأصْنَامَ، وقد أَرْسَلَ اللهُ تعالى إلينا رسولًا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ جَيِّدًا، فدَعَانَا إلى الإِيْمَانِ بالله تعالى.

وبعدَ ذلك تلا سَيِّدُنَا جَعْفَرُ الطَّيَّارُ رضيَ اللهُ عنه بضعَ آياتٍ من سُورَةِ مَرْيَمَ، اسْتَمَعَ إليها النَّجَاشِيُّ، فَطَرَأَتْ عليه حالةٌ من الرِّقَّةِ، ثم قال: هذا الكلامُ، والكلامُ الذي نَزَلَ على سَيِّدِنَا عيسى عليه السَّلَامُ أَشْجَعَةٌ لشمسٍ واحدة.

وهكذا قال النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الحَبَشَةِ لسفيري مَكَّةَ: ارحلوا أنتم من هنا، فإنِّي لستُ بطاردٍ هؤلاءِ ولا مُسَلِّمهم لأحدٍ، وأشهدُ أنَّ النَبِيَّ الذي يؤمُّنُ به هؤلاءِ هو رسولُ اللهِ فعلاً، وهو الرسولُ الذي بَشَّرْنَا سَيِّدُنَا عيسى عليه السَّلَامُ بقُدومِهِ، وَقَسَمًا بالله لولا اضطراري في الحُكْمِ لَحَضَرْتُ في خِدْمَةِ النَبِيِّ الكَرِيمِ ﷺ، وَلَسَعِدْتُ بأنَّ أَوْصِيَّتَهُ، ولهذا عندما مات النَّجَاشِيُّ صَلَّى عليه النَبِيُّ ﷺ والصَّحَابَةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم صلاةَ الجَنَازَةِ، ودَعَوْا له بالمَغْفِرَةِ.

مضامين سورة مريم:

في بداية السُّورَةِ جاءَتِ البُشْرَى لسَيِّدِنَا زكريَّا عليه السَّلَامُ بمولِدِ ابنِهِ سَيِّدِنَا يحيى عليه السَّلَامُ، في الوقتِ الذي كانَ شَعَرَ سَيِّدُنَا زكريَّا عليه السَّلَامُ قَدْ أَبْيَضَ من الشَّيْخوخَةِ، وأصبحتِ السَّيِّدَةُ زوجته عقيماً، ثم جاءَ ذِكْرُ مولِدِ سَيِّدِنَا عيسى عليه السَّلَامُ من السَّيِّدَةِ مَرْيَمَ العَذْرَاءِ عليها السَّلَامُ بغيرِ أبٍ، لإبرازِ حَقِيقَةِ أَنَّ اللهُ تعالى قادرٌ على كُلِّ شيءٍ، وأنه ليسَ في حاجةٍ إلى الأسبابِ الظَّاهِرِيَّةِ.

لَمَّا رَأَى الناسُ ولادةَ سَيِّدِنَا عيسى عليه السَّلَامُ المعجزةَ قالَ عنه بعضُهم:

إنه إله، أو إنه ابن الله، والبعض الآخر وجه النقد والإساءة والتشنيع إلى السيِّدة مريمَ العذراءِ عليها السَّلام، ولكنَّ الله تعالى أنهى هذا الإفراطَ والتفريطَ بأنَّ جعلَ سيِّدنا عيسى عليه السَّلامُ يتكلَّم وهو في حجرِ أمِّه، ليشهدَ على عِقَّة والدته وطهارتها من جانب، ومن جانبٍ آخرَ ليُعْلِنَ نبوَّته قائلاً: إنني لستُ إلهاً، وإنما عبدُ الله ونبِيُّه، وقد أعطاني كتاباً أيضاً لهدايةِ البشر.

ثم بعد ذلك جاء ذكرُ بعضِ الأنبياءِ الكرامِ الآخرينَ عليهم السَّلام جميعاً، وكذا الحديثُ عن كمالِهم الخاصَّة، وأيضاً عن ذريَّتِهِم بأنَّ منهم مَنْ سيتزكُّ الصلاة، ويتَّبِعُ شهواتِهِ، وأنَّ الله تعالى سيُعاقِبُ هؤلاء، وسيُعطي من يعملونَ الصالحاتِ أجراً عظيماً.

الفقيهُ إلى الله: محمَّد إمداد حُسين بيروزاده
جامعة الكرم، إيتن هال - إنجلترا
يومَ الثلاثاء الثاني عشرَ من يونيه عام ٢٠٠٧م
الموافق السادس والعشرين من جمادى الأولى
عام ١٤٢٨هـ.



سُورَةُ مَرْيَمَ (١٩)،

مكية (٤٤)، آياتها (٩٨)، ركوعاتها (٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ① ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ⑥ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑦ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ⑨ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑪ يَبْحَثُ خِذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ⑫ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً ⑬ وَكَانَ تَقِيًّا ⑭ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ⑮ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ⑯

﴿كَهَيْعَصَ﴾

١ - هذه حروف مقطعات، وهي سرٌّ بينَ الله تعالى وحيبيه المكرَّم سيِّدنا محمدٍ ﷺ، ولمزيدٍ من الشرح لها راجع الحاشية رقم ١ من سورة البقرة (٢).

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَّرِيًّا﴾

٢ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، الوقائع التي يجري ذكرها في هذه الآيات فيها رحمة من ربك الكريم، الذي أنعم على عبده سيدنا زكريا عليه السلام، يعني: أنعم عليه بولد في شيخوخته هو سيدنا يحيى عليه السلام.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا﴾

٣ - دَعَا سَيِّدُنَا زَكْرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ خُفِيَّةً، والدعاء سواء كان بصوت مرتفع أم خُفِيَّة لا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، لَكُنْ فِي الدُّعَاءِ بِصَوْتٍ خَفِيزٍ إِخْلَاصٌ أَكْثَرُ، وَيَكُونُ أَكْثَرُ بُعْدًا عَنِ الرِّيَاءِ، وَالذِّكْرُ كَذَلِكَ صَحِيحٌ فِي الْحَالَتَيْنِ، وَلَكِنَّ الْإِخْلَاصَ أَكْثَرُ مَعَ الذِّكْرِ بِالصَّوْتِ الْخَفِيزِ. عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَجْهَرُونَ بِالتَّكْبِيرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ»^(١).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾

٤ - لَمْ يَكُنْ لَدَى سَيِّدِنَا زَكْرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَام أَوْلَادٌ، وَذَاتَ يَوْمٍ تَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالدُّعَاءِ بِكُلِّ عَجْزٍ وَتَوَاضَعٍ قَائِلًا: يَا رَبِّ، إِنَّ عَظَامِي قَدْ وَهَنْتْ عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ، وَلَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الشَّيْخُوخَةِ عُمُرًا تَبْدُو مَعَهُ إِمْكَانِيَّةُ إِنْجَابِ أَوْلَادٍ مَعْدُومَةٍ فِي الظَّاهِرِ، وَلَكِنَّكَ قَادِرٌ مُطْلَقٌ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى سَبَبٍ لِتَفْعَلَ، وَلِهَذَا أَدْعُوكَ يَا رَبِّ أَنْ تُنْعِمَ عَلَيَّ بَوْلَدٍ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَأَنَا لَسْتُ يَائِسًا مِنْ رَحْمَتِكَ؛ لِأَنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُكَ مِنْ قَبْلُ أَيْضًا، كُنْتُ تَقْبَلُ دُعَائِي بِفَضْلِكَ وَكَرَمِكَ، وَأَنَا الْآنَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ رَحْمَتِكَ، وَبَأَنَّكَ سَتَسْتَجِيبُ دُعَائِي هَذَا.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾

٥ - لم يكن لدى سيدنا زكريا عليه السلام أولاد، وكان شيخا كبيرا، وكانت امرأته عاقرا، وكان أقاربُه لا دينَ لهم، ولهذا كان يشعر بخطرٍ من أنه إذا مات، مَنْ سيقومُ بتبليغِ علومِ النبوة والدعوة لها؟ ومن هنا دعا الله تعالى أن يرزقه ولدا يرث علومه وعلوم آل يعقوب، ويكون مقربا عند الله تعالى.

تركة الأنبياء الكرام عليهم السلام:

تركة الأنبياء الكرام عليهم السلام لا تكون مالا، وإنما تكون علما، مثلما قال النبي ﷺ فيما رَوته السيدة عائشة رضي الله عنها: «لا نورث، ما تركنا صدقة»^(١).

ومما لا شك فيه أن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لا يورثون دينارا ولا درهما، وإنما يورثون العلم، ولهذا فإن من حصل العلم فقد حصل على جزء كبير^(٢). يقول العلامة سيد محمود الألوسي: «ومذهب أهل السنة أن الأنبياء عليهم السلام لا يرثون مالا ولا يورثون، لما صحَّ عندهم من الأخبار. وقد جاء ذلك أيضا من طريق الشيعة، فقد روى الكليني في «الكافي»، عن أبي البختري، عن أبي عبد الله جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه، أنه قال: إن العلماء ورثة الأنبياء، وذلك أن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا وإنما ورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ بحظ وافر»^(٣).

(١) البخاري، كتاب الفرائض، باب ٤ برقم ٦٧٢٧.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «... إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر». الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩ برقم ٢٦٨٢.

(٣) تفسير روح المعاني.

وبقول العلامة غلام رسول سعيدي، نقلاً عن «الكافي»: إنّ أبا عبد الله، قال: كان سيّدنا سليمان عليه السّلام وارثاً لسيّدنا داود عليه السّلام، وكان سيّدنا محمد ﷺ وارثاً لسيّدنا سليمان عليه السّلام، ونحن ورثة سيّدنا محمد ﷺ (١).

ويظهر من هذا أنّ المراد بتركة الأنبياء الكرام عليهم السّلام: علوم النّبوة؛ لأنه ليس هناك أيّ احتمال لتركة ماليّة يرثها سيّدنا محمد ﷺ من سيّدنا سليمان عليه السّلام.

﴿يَزَكِّرِيَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾

٦ - استجاب الله تعالى دعاء سيّدنا زكريّا عليه السّلام، فبشّره - عن طريق ملائكته - بالولد، واقترح له اسماً هو «يحيى»، ولم يكن أحدٌ قبله قد سُمّي بهذا الاسم.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾

٧ - قال سيّدنا زكريّا عليه السّلام: ياربّ، إنّ زوجتي عاقراً، وأنا شيخ كبير، فكيف سيولد لي ولد؟ هل ستعيّدنا شاباً ثانياً، أم هل سترزقني الولد في هذه الشيخوخة؟ وجاءه الجواب: سيولد لك ولد في هذه الحالة من الشيخوخة، وهذا ليس بالأمر العسير عليّ، فكما أتيت بك من العدم، سأنعم عليك بالولد في هذه الشيخوخة.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾

٨ - قال سيّدنا زكريّا عليه السّلام: ياربّ، اجعل لي علامة أو آية أعرف منها أنّ وقت تحقّق البشري قريب، فأخبره الله تعالى بأنّ الآية هي: أنك لن تستطيع

التحدث إلى الناس لثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، وسوف تتفاهم معهم بالإشارة، وهذا الصمت الذي يلحق بك ليس بسبب مرضٍ يصيبك، وإنما سيكون علامة لك لكي تطمئن نفسك، وقد مرت هذه الواقعة من قبل في الآيات من ٣٨ إلى ٤١ من سورة آل عمران (٣).

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾

٩ - كان سيدنا زكريا عليه السلام معتاداً على أن يخرج من مكان تعبده في أوقات معينة، ويعظ الناس، وقد استمرت دعوته ووعظه هذا خلال الثلاثة أيام التي كان صامتاً فيها، ولكن بالإشارة فقط، ويُعلم من هذا أن الأنبياء الكرام عليهم السلام يواصلون دعوتهم وتبليغهم في كل حال.

﴿يَبْحِثُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾

١٠ - يقول العلامة القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَبْحِثُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ في الكلام حذف، المعنى: فولد له ولد وقال الله تعالى للمولود: ﴿يَبْحِثُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾، أي: بجِدِّ واجتهادٍ، قاله مجاهدٌ. وقيل: العلم به، والحفظ له والعمل به، وهو الالتزام لأوامره، والكف عن نواهيه..... وروى معمرٌ، أن الصبيان قالوا ليحيى: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعبِ خلقتُ. فأنزل الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾. وقال قتادة: كان ابنُ سنينٍ أو ثلاث سنين. وقال مقاتل: كان ابنُ ثلاث سنين^(١)، وقد أُعطيت النبوة لسيدنا عيسى عليه السلام بمجرد مولده، بينما أُعطيت لسيدنا يحيى عليه السلام وهو ابنُ ثلاث سنين^(٢)، ويقول العلامة فخر الدين

(١) تفسير القرطبي.

(٢) «كان ابن ثلاث سنين». التفسير المنير.

الرازي: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ يَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَهُمَا صِبْيَانٌ»^(١)، بَيْنَمَا كَانَ نَبِيُّنَا سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيًّا مِنْذُ الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ سَيِّدُنَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ^(٢)، فِي حِينَ أَنَّ مَعْظَمَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَدْ أُعْطُوا النُّبُوَّةَ فِي سَنِّ الْأَرْبَعِينَ^(٣).

النبي معصوم حتى قبل بعثته:

يقول المفتي أمجد علي: أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ - حَتَّى قَبْلَ بَعْثِهِمْ - مِنَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ، وَمِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَنْفِرُ مِنْهُ الْبَشَرُ مِثْلَ: الْكَذِبِ وَالْخِيَانَةِ وَالْجَهْلِ وَغَيْرِهَا، وَكَذَا مِنَ الصِّفَاتِ الدَّمِيمَةِ مِثْلَ تِلْكَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَتَنَافَى مَعَ الْوَجَاهَةِ وَالْمَرْوَةِ، أَمَّا الْكِبَائِرُ فَهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْهَا تَمَامًا، وَالْحَقُّ أَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ ارْتِكَابِ الصَّغَائِرِ عَمْدًا قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَبَعْدَهَا أَيْضًا^(٤).

﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾

١١ - أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سَيِّدِنَا يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِرِقَّةِ الْقَلْبِ وَالطُّهْرِ، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعَامِلُ النَّاسَ بِرَحْمَةٍ وَلِينٍ، كَمَا أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَتَّقِي اللَّهَ وَيُخْشَاهُ، وَيُحَسِّنُ مُعَامَلَةً وَالِدِيَّهِ.

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾

١٢ - يَقُولُ ابْنُ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ: إِنَّ مَعْنَى «سَلَامٌ» هُنَا هُوَ الْأَمَانُ، فَالشَّيْطَانُ

(١) التفسير الكبير.

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى وَجِبْتَ لَكَ النُّبُوَّةُ؟ قَالَ: «وَأَدَمَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ». الترمذي، أبواب المناقب، باب ١، كنز العمال، برقم ٣١٩١٧.

(٣) «وَلَمْ يَنْبَأْ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَبْلَ الْأَرْبَعِينَ». روح المعاني.

(٤) بهار شريعت، المجلد الأول: ١١.

يُضْرُ كُلُّ إِنْسَانٍ عِنْدَ مَوْلَدِهِ، لَكِنَّ سَيِّدَنَا يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ظَلَّ مُحْفُوظًا مِنْ ضَرَرِهِ،
وعندما يموت يكون محفوظًا من عذاب القبر^(١).

هذه الأيام الثلاثة: (يوم الميلاد، ويوم الوفاة، ويوم البعث) في غاية الوحشة،
إذ يرى كلُّ إنسانٍ فيها ما لم يره من قبل، لكنَّ الله تعالى تَكْرَّم على سَيِّدِنَا يَحْيَى عليه
السَّلَام وبشَّره بالسَّلَام والأمان، وبنفس الطريقة فإنَّ الأنبياء الكرام عليهم السَّلَام
يكونون في سَلام في هذه المواضع الثلاثة أيضًا، مثلما قال سَيِّدُنَا عيسى عليه
السَّلَام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ﴿١٨﴾
قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ
يَمَسْسَنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً
لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾

(١) «وقوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ يقول: وأمان من الله يوم ولد، من
أن يناله الشيطان من السوء، بما ينال به بني آدم، وذلك أنه روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:
«كلُّ بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنبٌ إلا ما كان من يحيى بن زكريا». حدثنا بذلك ابن حميد،
قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، قال: ثني ابن
العاص، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ذلك. حدثنا الحسن، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال:
أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ قال: كان ابن المسيب يذكر، قال: قال
رسول الله ﷺ: «ما من أحدٍ يلقي الله يوم القيامة، إلا ذا ذنبٍ، إلا يحيى بن زكريا». قال: وقال
قتادة: ما أذن، ولا هم بامرأة.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ يقول: وأمان من الله تعالى ذكره له من فتاني القبر، ومن هول المطلع،
﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ يقول: وأمان له من عذاب الله يوم القيامة، يوم الفرع الأكبر. تفسير ابن
جرير الطبري.

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا ﴿٢٣﴾
 فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَى إِلَيْكِ جِذْعُ النَّخْلَةِ السَّقَاطَ
 عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ
 لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ
 جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَذَ هَهُنَا مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوَاءً وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾
 فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ
 وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾
 وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ
 أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَخْذَ
 مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ
 مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ
 وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ
 وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا﴾

١٣ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، اقرأ على الناس قصّة السيّدة مريم عليها
 السّلام من القرآن المجيد، وذلك حين غادرت بيتها وانفصلت عن أهلها، واتّجهت
 إلى الجانب الشرقي من بيت المقدس، وصنعت لنفسها حجاباً بينها وبين الناس
 لتنجو من أنظارهم، وفي أثناء وحدثها هذه أرسل الله تعالى إليها سيّدنا جبريل عليه
 السّلام في شكل بشر، وحين رأت السيّدة مريم عليها السّلام بشراً بالقرب منها
 قالت وهي مضطربة خائفة: إني أعوذ بالرحمن منك، إن كنت تخشى الله تعالى
 فلم أتيت إلى هنا؟

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾

١٤ - قال جبريل الأمين عليه السلام: لا تخافي، فأنا لستُ إنساناً، وإنما ملكٌ مرسلٌ من ربك، أرسله إليك، وقد جئتُ لأبشركِ بمولدِ ابنِ طاهرٍ لك.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾

١٥ - قالتِ السيدةُ مريمٌ عليها السلام: إني فتاةٌ عذراء، ولم تلمسني يدُ إنسان، كما أنني لستُ بغيًّا، فكيف إذا يولدُ لي ولدٌ؟

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾

١٦ - أجاب جبريل الأمين عليه السلام: هذا سيكونُ فعلاً؛ لأنَّ هذا حُكْمُ ربك، وخلقُ ولدٍ بغيرِ أبٍ أمرٌ يسيرٌ بالنسبة له، وكما أنَّ الله تعالى خلق سيِّدنا آدم عليه السلام بغيرِ أبٍ أو أمٍّ، بنفسِ الطريقة قرَّر أن يخلق ابنك بغيرِ أبٍ، ولن يكون طفلاً عادياً، وإنما سيكونُ آيةً على قدرة الله ورحمته.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾

١٧ - نفخ سيِّدنا جبريل الأمين عليه السلام نفخةً فحدث الحملُ، وقد كانت السيدةُ مريمٌ عليها السلام مطمئنةً باطلاعها على الإرادة الإلهية، لكن مثلَ هذا الأمرِ فوقَ مستوى فهمِ الناس وإدراكهم، لهذا اعتزلتِ الناس في مكانٍ بعيد، أي: في صحراء بيت لحم، وذلك لتجنَّب افتراءاتِ الناس عليها واتهاماتهم لها، في هذا المكان قال سيِّدنا جبريل الأمين عليه السلام لسيِّدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج أن يُصليَّ ركعتين فيه؛ لأنه المكان الذي وُلد فيه سيِّدنا عيسى عليه

السلام^(١)، وقد زار هذا العبد الفقير إلى الله بيتَ لَحَمٍ أيضًا في يناير من عام ٢٠٠١م بعد أن زار المسجد الأقصى.

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾

١٨ - عندما بدأت مرحلة وضع الحمل جلست السيدة مريم عليها السلام إلى جانب جذع نخلة متكئة عليها، وقالت لنفسها: إنه حين يولد طفلي ويراؤه الناس، فسيتهموني بارتكاب الفاحشة، فكيف أقنعهم إذ ذاك؟ ولهذا خرجت من فيها هذه الألفاظ بلا اختيار منها: ليتني مت قبل أن ألد هذا الطفل، وأصبحت منسية لا يذكرني أحد!

﴿ فَادْنَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ ٢٤ ۝ وَهَزَيْ إِلَيْكِ الْجِذْعَ النَّخْلَةَ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۝ ٢٥ ۝ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾

١٩ - حين ولد سيدنا عيسى عليه السلام لم يكن لدى السيدة مريم عليها السلام في تلك الصحراء داية «مولدة»، ولا شيء من الطعام والشراب، وفي هذه الظروف العصيبة ناداها سيدنا جبريل عليه السلام من الوادي أسفلها أن لا تحزني، وانظري تحتك، فقد أجرى الله تعالى تحتك في الوادي عين ماء أيضًا.

﴿ وَهَزَيْ إِلَيْكِ الْجِذْعَ النَّخْلَةَ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴾

٢٠ - يعني: حركي جذع شجرة النخيل، وسيتساقط عليك منها رطب طيب، ولهذا يمكنك أن تشربي الماء من العين، وتأكلي التمر، وتقرري عينًا برؤية مولودك، أي: يطمئن قلبك.

(١) «ثم صليت بيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام». دلائل النبوة للبيهقي، باب الإسراء، المجلد الثاني، ٣٥٥.

﴿فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾

٢١ - من الطبيعي أن كل من يرى هذا الطفل مع السيدة مريم العذراء عليها السلام سيسأل عنه، ولهذا قيل للسيدة مريم عليها السلام أن انوي صومًا من الصمت، فإذا ما سألك أحد عنه فعليك أن تخبريهم بالإشارة أنك صائمة عن الكلام، ولهذا لا تستطيعين التحدث إليهم، وكان الصوم عن الكلام جائزًا في شريعة بني إسرائيل من قبل، ولكنه الآن غير جائز.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾

٢٢ - قال وهب بن منبه: «لما أتت به قومها تحمله تسامع بذلك بنو إسرائيل، فاجتمع رجالهم ونساؤهم، فمدت امرأة يدها إليها لتضربها فأجف الله شطرها فحملت كذلك. وقال آخر: ما أراها إلا زنت، فأخرسه الله تعالى، فتحامى الناس من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمة تؤذيها، وجعلوا يخفون إليها القول ويلينون، فقالوا: ﴿يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي: عظيمًا»^(١)، مع أن والدك كانا صالحين، وهارون الذي أنت أخته، هو أيضًا رجل صالح، بمعنى: أن عائلتك كلها من الصالحين، فلماذا ارتكبت أنت هذا العمل السيئ؟

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾

٢٣ - عندما سأل بنو إسرائيل عن هذا الطفل، ألقي الله تعالى في قلب السيدة مريم عليها السلام أن أشيري إلى الطفل، وسوف يجيب الطفل عن سؤالهم، وحين أشارت السيدة مريم عليها السلام إلى الطفل قالوا: كيف يمكن أن نتحدث مع هذا

الطِّفْل الصَّغِير البريء وهو لا يزالُ حتى الآن في حِجر أمِّه؟ وعندئذٍ نطقُ الطفل ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، وكأنه أوضح أنَّ مولده لم يكن نتيجة ارتكابٍ فاحشة، وإنما هو آيةٌ على قدرة الله تعالى وعِفَّة أمِّه وطهارتها؛ لأنَّ من يختاره الله تعالى من عباده للنُّبوة يكونُ غايةَ الطهارة في مولده ونسبه.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾

٢٤ - لقد جعلني الله تعالى مباركًا؛ لأنَّ الموتى سيَحْيَوْنَ بدعائي، وسيعودُ البصرُ إلى الأعمى، ويبرأ الأبرصُ من مرضه بدعائي أيضًا.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾

٢٥ - يُعَلِّمُ من هذه الآية أنَّ ولادة سيِّدنا عيسى عليه السَّلام كانت بغير أب؛ لأنه لو كان له أبٌ لما ذَكَرَ حُسْنَ المعاملة مع الأمِّ فقط، وإنما كان سيذكرُ حُسْنَ المعاملة مع الوالدين معًا، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر يُعَلِّمُ من هذه الآية أيضًا أنَّ الشَّخصَ الذي لا يَخْدُم والدته، هو عند الله تعالى بمثابة العاصي التَّعَس.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾

٢٦ - لتفسير هذه الآية راجع الحاشية رقم ١٢، وكذا الآية رقم ١٥.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

٢٧ - في الآيات الأربع السابقة جاء الكلامُ المعجِزُ لسيِّدنا عيسى عليه السَّلام والذي قاله وهو في حِجر أمِّه، ثم لم يتحدَّث بعد ذلك إلى أن وصلَ إلى عمرِ الكلام، مثله مثل باقي الأطفال، وحقيقة سيِّدنا عيسى عليه السَّلام هي التي جاء بيانها في هذه الآيات، يعني: أنه عبدُ الله ونبيُّه، وهذا هو الأمرُ الصادقُ الذي يُشكُّ

فيه الناس، ويقعون في الإفراط والتفريط فيما يخصه وبلا داع أيضاً.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

٢٨ - الله تعالى ليس في حاجة إلى أولاد، فهو القادر المطلق، ويفعل ما يريد بمجرد الإرادة، أو بمجرد قوله: «كن» ليس إلا.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

٢٩ - يمكن أن يكون هذا من كلام سيدنا عيسى عليه السلام، ويمكن أن يكون من كلام نبي آخر الزمان سيدنا محمد ﷺ أيضاً؛ لأن الرسالة الأصلية للأنبياء جميعاً واحدة، يعني: أن الله تعالى هو ربِّي وربُّكم بلا شك، ولهذا ينبغي أن تعبدوه هو، وهذا هو الصراط المستقيم.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾

٣٠ - هناك اختلاف في الآراء بين أهل الكتاب فيما يتعلق بسيدنا عيسى عليه السلام، فهو - عليه السلام - في نظر اليهود ساحرٌ وابنٌ غير شرعي، وفي نظر الفرقة النسطورية (البروتستانت: Protestant) النصرانية عيسى عليه السلام ابنُ الله تعالى، وفي نظر المَلَكانيّين (الكاثوليك: Catholic) هو الصِّلغ الثالث من الثالوث المقدس، وفي نظر اليعقوبيّين (الأرثوذكس: Orthodox) هو الله نفسه، وهكذا اتّسم اعتقاد اليهود فيما يتعلق بسيدنا عيسى عليه السلام بالتفريط، بينما اتّسم اعتقاد النصارى بالإفراط^(١).

(١) «اختلف الأحزاب بينهم. وقال قتادة: أي: ما بينهم، فاختلقت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السلام. فاليهود بالقدح والسحر. والتصارى قالت النسطورية منهم: هو ابن الله. والملاكاتية: ثالث ثلاثة. وقالت اليعقوبية: هو الله، فأفرطت التصارى وغلّت، وفرّطت اليهود وقصّرت». القرطبي.

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

٣١ - سيكون يوم القيامة - باعتبار شدائده وأهواله - يومًا قاسيًا وشديدًا، وباعتبار طول المدة سيكون يومًا في غاية الطول، وحينما يمثل المنكرون في ذلك اليوم للحساب، سيكون الحكم بدمارهم وهلاكهم عقابًا لهم على إنكارهم الحق.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ تَأْتُنَا لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

٣٢ - يعني: أن هؤلاء الناس عمي اليوم عن رؤية الحق، وصم عن سماع الحق، ويعمّهون في ضلال واضح وصريح، ومهما أفهمتهم فإنهم لا يحاولون الفهم، ولكن حين يصدع الحق بوجوده يوم القيامة، فسيري هؤلاء ويسمعون، وسيضطرون إلى الاعتراف بالحق، ولكن مثل هذا الاعتراف بالحق لا جدوى من ورائه في ذلك الوقت، ليتهم يشعرون بهذا اليوم.

﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

٣٣ - قيل ليوم القيامة: «يوم الحسرة» لأن الأشرار أيضًا في ذلك الوقت سيتحسرون بأن ليتهم لم يرتكبوا الشر، والصالحون أيضًا سيتحسرون: لماذا لم يستزيدوا من العمل الصالح^(١)، وباختصار: سيتقرر يوم القيامة من يدخل الجنة ومن يدخل جهنم، وكلاهما سيخلد فيما سيدخل فيه إلى الأبد، ولكن الناس في أيامنا غافلون عن يوم القيامة، ولا يؤمنون به.

(١) وروى البغوي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يموت إلا ندم»، قالوا: فما ندمه يا رسول الله؟ قال: «إن كان محسنًا أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئًا ندم أن لا يكون نزع». التفسير المظهر.

﴿ إِنَّا نَخْنُزُهُنَّ مِنَ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

٣٤ - أُنعم الله تعالى في هذه الدنيا على بعض الناس بالملكيّة المؤقتة لبعض الأرض وبعض الأشياء، ويُمكنهم التصرف فيها، ولكن المالك الحقيقي المباشر يوم القيامة للأرض وأهل الأرض وحاكمهم هو الله تعالى فقط، وسوف يمثّل الناس جميعاً في حضرته يوم القيامة للحساب.

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَت لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَابَتَ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَابَتَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَابَتَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ تَبَرَأْتَ إِلَهِتِي يَتَبَرَّأُ مِنْكَ إِبْرَاهِيمُ لَنْ تَنْتَهِيَ عَنْ تَعْبُدِهِمْ لِمَا تَشَاءُ قَالَ سَتَلِدُكَ أُنثَىٰ تَبْذُرُكَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي شَيْءٍ حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعَزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴾

٣٥ - كان العرب يقولون عن سيّدنا إبراهيم: إنه أبوهم، هذا من جانب، ومن جانب آخر يقدّمون الدليل على عبادتهم الأصنام بأنه لما كان أجدادهم يعبدون الأصنام، فإنهم لا يستطيعون ترك عبادة الأصنام، وفي هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى النبي الكريم ﷺ بأن يقصّ على أهل الجزيرة العربيّة من قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السّلام ما ورد في القرآن المجيد، بأنّ أباكم المكرّم والمحرّم كان سيّدنا إبراهيم عليه السّلام، وقد أنكر عبادة الأصنام، ولهذا ينبغي لكم أنتم أيضًا أن

ترجعوا عن عبادة الأصنام، وأن تتبعوا سيّدنا إبراهيم عليه السّلام، فقد كان بلا شكّ نبياً لله صادقاً.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَعْتَنِي مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾

٣٦ - المراد بالأب هنا هو: آزر عمّ سيّدنا إبراهيم عليه السّلام، والذي نهاه سيّدنا إبراهيم عليه السّلام عن عبادة الأصنام، ولمزيد من التفصيل راجع الآية رقم ٧٤ من سورة الأنعام (٦)، وكذا الحاشية رقم ٧٠.

﴿يَتَابَعْتَنِي فَإِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾

٣٧ - قال سيّدنا إبراهيم عليه السّلام لعمّه آزر: رَغِمَ أَنْكَ أَكْبَرُ مِنِّي عُمْرًا، لكنّ الله تعالى أنعم عليّ بالعلم عن طريق الوحي، وهذا العلم ليس عندك، ولهذا ينبغي أن تتبعني، وسأهديك إلى الصّراط السّويّ.

﴿يَتَابَعْتَنِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾

٣٨ - قال سيّدنا إبراهيم عليه السّلام لعمّه آزر: الشيطان عاصٍ لله تعالى، وهو الذي يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، وهكذا فإنّ عبادة الأصنام هي - في الأصل - عبادة للشيطان، ولهذا ينبغي أن ترجعوا عن عبادة الشيطان، ولئن مثّم على حالكم هذه من الكفر، فستكونون رُفقاء للشيطان، وستواجهون العذاب الإلهيّ دائماً.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ تَوَلَّيْتُ لِرَبِّهِمْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيَّ بِهَا رَبِّي مِنْ يَوْمٍ فَتَنِي فَإِنْ عَصَيْتُ رَدَّتْ عَلَيَّ الْكِبَرُ وَالْكِبَرُ فَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا يَكْفِيكَ﴾

٣٩ - قال آزر لسيّدنا إبراهيم عليه السّلام: يبدو أنك لا تعترفُ باللهتنا، ولهذا تنهاني أنا أيضاً عن عبادتها، ولكنّ تذكر أنّك إن لم ترجع عن مخالفة هذه الآلهة، فسأرجمك، ولذا يجب أن تغرب عن أنظاري بعيداً.

﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾

٤٠ - للسلام قسمان؛ أحدهما: تحفة السلام ودعاءً بالسلامة، والذي هو المقصود الأضلي للسلام، والثاني: السلام الذي يكون لإنهاء الحديث مع أحد، وللتخلص منه، وهنا ألقى سيدنا إبراهيم عليه السلام على آزر السلام لكي يعتزله، بمعنى: اقبل سلامي الأخير هذا، والآن سأهاجر من هنا، ولكن برغم عدم تقديرك ولا مبالاةك فإنني سأظل أدعو لك بالهداية حتى يغفر الله لك، ولكن حين مات آزر على الكفر ترك سيدنا إبراهيم عليه السلام الدعاء له، ولمزيد من التوضيح راجع الآية رقم ١١٤ من سورة التوبة (٩)، وكذا الحاشية رقم ٩٢.

يقول العلامة القرطبي فيما يتعلق بالسلام على الكفار: «سئل الأوزاعي عن مسلم مرّ بكافر فسلم عليه، فقال: إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك. وروي عن الحسن البصري أنه قال: إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم»^(١).

﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾

٤١ - قال سيدنا إبراهيم عليه السلام لأقاربه وأهل بلده: بما أنكم لا تقبلون نصيحتي، وإنما على العكس من ذلك تهددونني بالرجم، فلا فائدة إذاً من بقائي هنا معكم، ولهذا فإنني سأترككم وأترك أهلكم، وأهاجر من هنا، حتى أستطيع أن أعبد ربي بكل سكينه واطمئنان، وعندى أمل كامل في رحمة الله تعالى بأنني لن أبقي محروماً من بركة عبادته.

(١) تفسير القرطبي.

﴿ فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾

٤٢ - الذي يُهاجر إرضاءً لله تعالى لا يبقى محروماً ولا خائباً، وحين هاجر سيدنا إبراهيم عليه السلام من وطنه إلى الشام، أنعم الله تعالى عليه بآبٍ مثل سيدنا إسحاق عليه السلام، وحفيدٍ مثل سيدنا يعقوب عليه السلام، وأنعم على هذين بالنبوة أيضاً.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾

٤٣ - تفضل الله تعالى على سيدنا إبراهيم عليه السلام بكرم خاصٍّ وفَضْلٍ من عنده، وأعلى ذكّره كثيراً، حتى أنّ اليهود والنصارى والمسلمين في أيامنا هذه أيضاً يعترفون بعظمةٍ وقُدسيّة سيدنا إبراهيم عليه السلام، رغم اختلافاتهم فيما بينهم، أمّا نحن المسلمين فإنّ صلاتنا لا تكتمل ما لم نذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام بالخير مع صلاتنا على نبيّنا الكريم ﷺ، بينما في الحجّ فإننا - في كثير من مواضعه - نتبع أعمال سيدنا إبراهيم عليه السلام، وسيدنا إسماعيل عليه السلام، والسيدة هاجر عليها السلام.

وفي هذه الآيات طمأنة للمهاجرين أيضاً بأنه كما أنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام هاجر في سبيل رضا الله تعالى ولم يُصبه الخُسران، بل على العكس كان الفلاح من نصيبه، فإنكم أنتم أيضاً سيُكتب لكم الفوز والفلاح بهجرتكم في سبيل الله تعالى، والتاريخ شاهدٌ على أنّ الله تعالى قد منّ على المهاجرين بالرّفعة والعظمة ممّا لم يكن كفّار قريش يتصورونه.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَذَرْنَاهُ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرُ

فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ خُلِّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

﴿وَأَذْكُرِي فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾

٤٤ - للرسول والنبي مهمة بعينها، يعني: إبلاغ رسالة الله تعالى إلى خلقه، وهذا اللفظان عادة يُستعملان بمعنى واحد، لكن هناك فرقاً بينهما، أي: أن النبي الذي يأتي بكتاب وشريعة يكون رسولا أيضا، أما النبي الذي يدعو لكتاب نبي قبله ويبلغ شريعته فهو نبي فقط وليس رسولا، ولهذا فإن كل رسول نبي، وليس - من الضروري - أن يكون كل نبي رسولا.

﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾

٤٥ - كان سيدنا موسى عليه السلام متجهاً من مدين إلى مصر، وحين مر في طريقه بجبل الطور، كان هذا الجبل على جهته اليمنى، ومن هذه الجهة ناداه الله تعالى وكلمه وأنعم عليه بقرب خاص، والمراد بالمناجاة هنا: أن كلام الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام كان بشكل مباشر دون واسطة من ملك، ولهذا لقب بكليم الله.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾

٤٦ - دعا سيّدنا موسى عليه السّلام في حضرة الله تعالى: اجعلْ أخِي هَارُونَ نَبِيًّا لِكِي يُعِينَنِي، فاستجابَ اللهُ تعالى دعاءه، وأنعمَ على سيّدنا هَارُونَ بالنُّبُوّةِ لِكِي يُعِينَهُ وَيُقَوِّمَهُ، وَيُعَلِّمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ إِذَا كَانَ نِعْمَةً عَظِيمَةً مِثْلَ النُّبُوّةِ يُنْعِمُ اللهُ تَعَالَى بِهَا اسْتِجَابَةً لِدَعَاءٍ مِنْ أَحَدِ أَحِبَّائِهِ، فَمَا تَكُونُ نِعْمَةً الْأَوْلَادِ، أَوْ أَيُّ نِعْمَةٍ أُخْرَى مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا قِيَاسًا بِالنُّبُوّةِ، بِحَيْثُ لَا يُنْعِمُ اللهُ بِهَا اسْتِجَابَةً لِدَعَاءٍ مِنْ أَحَدٍ أَوْلِيَائِهِ!

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾

٤٧ - كَانَ سَيِّدُنَا إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولًا نَبِيًّا، وَالْأَنْبِيَاءُ جَمِيعًا صَادِقُونَ فِيمَا يَعِدُونَ بِهِ، وَلَكِنْ سَيِّدُنَا إِسْمَاعِيلُ كَانَ مَعْرُوفًا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَوَرَدَ أَنَّهُ «وَعَدَ رَجُلًا أَنْ يَلْقَاهُ فِي مَوْضِعٍ، فَجَاءَ إِسْمَاعِيلُ وَانْتَظَرَ الرَّجُلَ يَوْمَهُ وَلَيْلَتَهُ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ جَاءَ، فَقَالَ لَهُ: مَا زِلْتُ هَاهُنَا فِي انْتِظَارِكَ مِنْذُ أَمْسٍ»^(١).

يَقُولُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْحَمَسَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِنَيْعٍ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ، وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ، فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ، فَنَسِيتُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَجِئْتُ فَإِذَا هُوَ فِي مَكَانِهِ، فَقَالَ: «يَا فَتَى، لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ، أَنَا هَاهُنَا مِنْذُ ثَلَاثٍ أَنْتَظَرُكَ»^(٢).

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾

٤٨ - يُعَلِّمُ مِنْ هَذَا أَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَبْدَأَ دَعْوَتَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهُوَ شَخْصٌ مَقْرَّبٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مُحَبَّبٌ إِلَيْهِ.

(١) تفسير القرطبي.

(٢) أبو داود، كتاب الأدب، باب ٩٠ برقم ٤٩٩٦.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾

٤٩ - جَعَلَ اللهُ تَعَالَى سَيِّدَنَا إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيًّا، وَرَفَعَهُ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ وَأَرْفَعَ مَكَانَهُ، وَرَغِمَ أَنْ بَعْضَ الرِّوَايَاتِ تَذَكُّرُ أَنَّهُ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ حَيًّا، لَكِنَّ مَصْدَرَ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ كُلُّهَا هُوَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتُ، وَالتِّي لَا يُمْكِنُ بِنَاءُ عَقِيدَةٍ عَلَى أُسَاسِهَا.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾

٥٠ - أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِفَضْلٍ خَاصٍّ مِنْ عِنْدِهِ، فَقَدْ هَدَاهُمْ، وَاخْتَارَهُمُ لِلنَّبُوَّةِ، وَبَرَّغَمَ هَذَا الْمَقَامَ الْعَظِيمَ وَالْمَكَانَةَ الرَّفِيعَةَ، فَقَدْ بَلَغُوا فِي تَوَاضُعِهِمْ وَعُبُودِيَّتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى شَأْنًا عَالِيًّا، بِحَيْثُ أَنَّهُمْ كُلُّمَا قُرِئَتْ آيَاتُ اللهِ تَعَالَى أَمَامَهُمْ فَإِنَّهُمْ يَخِرُّونَ لِلَّهِ تَعَالَى سَاجِدِينَ بَاكِينَ.

يَجِبُ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ إِذَا مَا وَصَلَ فِي أَثْنَاءِ تِلَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَى آيَاتِ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَنْ يُحَاوَلَ الْبُكَاءَ، مِثْلَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَؤُا»^(١)، وَالسُّجُودُ وَاجِبٌ بَعْدَ تِلَاوَةِ هَذِهِ الْآيَةِ.

- قَالَ سَيِّدُنَا عَلِيُّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: «إِذَا بَكَى أَحَدُكُمْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ فَلَا يَمْسُخْ دُمُوعَهُ بِثُوبِهِ وَلْيَدْعُهَا تَسِيلٌ عَلَى خَدَّيْهِ يَلْقَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا»^(٢).

- رُويَ فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِسَيِّدِنَا عُمَرَ الْفَارُوقِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: «أَنَّهُ كَانَ فِي وَجْهِهِ خَطَّانِ أَسْوَدَانِ مِنَ الْبُكَاءِ»^(٣).

(١) ابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ١٧٦ برقم ١٣٣٧.

(٢) شعب الإيمان، ١: ٤٩٣ برقم ٨٠٨.

(٣) شعب الإيمان، ١: ٤٩٣ برقم ٨٠٦.

﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾

٥١ - خَلَفَ الْأَنْبِيَاءَ الْكَرَامَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَيْضًا أَنْاسٌ غَيْرُ جَدِيرِينَ بِأَنْ يَكُونُوا خَلَفًا لَهُمْ، عَصَوْا اللَّهَ تَعَالَى وَاتَّبَعُوا شَهَوَاتِهِمْ، وَغَفَلُوا عَنْ فَرِيضَةٍ فِي غَايَةِ الْأَهَمِّيَّةِ مِثْلَ الصَّلَاةِ، وَسُوفَ يَلْقَى هَؤُلَاءِ الْعُصَاةَ - يَقِينًا - عِقَابَ ضَلَالِهِمْ هَذَا.

بعض الأحاديث النبوية عن الصلاة:

١ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي فَرَضْتُ عَلَى أُمَّتِكَ خَمْسَ صَلَوَاتٍ، وَعَهَدْتُ عِنْدِي عَهْدًا أَنَّهُ مَنْ جَاءَ يُحَافِظُ عَلَيْهِنَّ لَوْ قَتَلَتْهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ لَمْ يَحَافِظْ عَلَيْهِنَّ فَلَا عَهْدَ لَهُ عِنْدِي»^(١).

٢ - يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يَحَاسِبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ: صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ»^(٢).

٣ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَسْوَأُ النَّاسِ سَرَقَةً الَّذِي يَسْرِقُ صَلَاتَهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَسْرِقُ صَلَاتَهُ؟ قَالَ: «لَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا»^(٣).

٤ - رُوِيَ عَنْ سَيِّدِنَا جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ الصَّلَاةُ، وَمِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطَّهُّورُ»^(٤).

(١) أَبُو دَاوُدَ، كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ ٩ بِرَقَم ٤٣٠.

(٢) التِّرْمِذِيُّ، أَبْوَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ ١٨٨ بِرَقَم ٤١٣.

(٣) سَنَنِ الدَّارِمِيِّ، كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ ٧٨.

(٤) مُسْنَدُ أَحْمَدَ، ٣: ٣٤٠.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾

٥٢ - المُذنبون الذين يتوبون إلى الله تعالى من قلوبهم صادقين، ويختارون لأنفسهم طريق عمل الصالحات، سيُدخلهم الله تعالى - كما وعد - جنات عدن، حيث الأمن التام والسلام الدائم، وحيث لا يسمع الإنسان ما لا يسره أبدًا.

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَآبِينَ أَيَدِينَا وَمَا خَلَفْنَا وَمَآبِينَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾

٥٣ - يقول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟»، فنزلت^(١)، يعني: أن سيدنا جبريل الأمين عليه السلام أجاب قائلاً: إننا لا ننزل بغير حكم من الله تعالى، وهو الذي يرسلنا في الوقت الذي يشاء، فهو مالك الكائنات كلها، ويفعل كل شيء في وقته ومحله، وهو منزّه عن النسيان والغفلة.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾

٥٤ - الله تعالى وحده هو خالق هذه الكائنات ومالكها وربّها، وهو متفرد في ذاته وصفاته، ولهذا لا تليق العبادة إلا به سبحانه وتعالى.

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبَئًا أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ

فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًىٰ وَالْبَاقِيَتُ
الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ
مَا لَا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ
لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً
لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

﴿وَقَوْلُ الْإِنْسَانِ إِنْذَا مَا مِتْ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ
وَلَعَلَّكَ شَيْئًا﴾

٥٥ - الذي لا يؤمن بيوم القيامة يبدو له أن إحياءه ثانية بعد موته، وبعثه من قبره، أمرٌ مستحيلٌ، وردًّا على هذا قال الله تعالى: أَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ خَلَقَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا مِنْ قَبْلُ؟ الْآنَ وَقَدْ جَعَلَهُ يَقْضِي حَيَاتِهِ فِي شَكْلِهِ الْإِنْسَانِيِّ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، فَلَيْسَ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ خَلْقُ إِنْسَانٍ مِثْلَ هَذَا الَّذِي خَلَقَهُ مِنْ قَبْلُ، فَاخْتَرَأُ شَيْءٌ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ شَيْءٌ صَعْبٌ، وَلَكِنْ عَمَلَهُ ثَانِيَةً لَيْسَ بِالْأَمْرِ الصَّعْبِ.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾

٥٦ - سَيَجْمَعُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْكَرِي الْقِيَامَةِ وَالشَّيَاطِينَ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ، وَحِينَ يَتَمُّ إِحْضَارُ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا حَوْلَ جَهَنَّمَ، لَنْ يَسْتَطِيعُوا وَقُوفًا عِنْدَمَا يَرَوْنَ أَهْوَالَ الْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ، وَإِنَّمَا سَيَجْثُونَ عَلَى رُكَبِهِمْ.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَهِمُ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِنِيًّا﴾

٥٧ - ثُمَّ يَفْصِلُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمُنْكَرِينَ أَكْثَرَهُمْ عَصِيَانًا وَطُغْيَانًا، حَتَّى يَبْدَأَ بِأَلْقَائِهِ هُوَ فِي جَهَنَّمَ أَوَّلًا، لِيَذُوقَ مَزِيدًا مِنَ الدُّلِّ وَالْهَوَانِ.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾

٥٨ - يعني: أن الله تعالى يعلم تمام العلم أولئك الطغاة الذين يستحقون جهنم أكثر من غيرهم.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾

٥٩ - جهنم في الطريق إلى الجنة، وعليها جسر يقال له: الصراط، وسيكون على كل شخص المروء من فوق هذا الصراط يوم القيامة، أما المتقون فيمرون من فوقه بسلام، وأما الظالمون فتزل أقدامهم ويسقطون في جهنم على ركبهم.

روى الإمام مسلم حديثاً طويلاً، عن سيدنا أبي سعيد الخدري جاء فيه: «ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون: اللهم سلم سلم... فيمرو المؤمنون كطرف العين وكالبزق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فجاج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم. حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده، ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم أخرجوا من عرفتم. فتحرّم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبته»^(١).

﴿وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾

٦٠ - حينما كان كفار مكة يدعون إلى الإسلام، ويخوفون من عذاب الله تعالى، كانوا يقولون لأهل الإيمان: إلى أي حال سيئ وعجز وإفلاس تدعوننا؟ في حين أن بيوتنا ومجالسنا أفضل مما عندكم كثيراً، وكما أننا نستمتع في هذه

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨١ برقم ٣٠٢.

الدنيا بحياةٍ أفضلَ من حياتكم، فإننا في الآخرة كذلك إذا كانت هناك جنّة كما تقولون، ستكون هذه الجنّة من نصيبنا أيضًا.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنَاءَ وَرَيَاءَ﴾

٦١ - في هذه الآية يتم إزالة سوء الفهم لدى كفار مكة، بأنه قد مضت أمم من قبلهم، وكانوا أكثر من كفار مكة باعتبار متاع الدنيا، وباعتبار العظمة والجاه الدنيوي، ولكن الله تعالى أهلكهم عقابًا لهم على طغيانهم، ولذا ينبغي أن لا يغتر كفار مكة بهذه الثروة الدنيوية والجاه الظاهري، وإنما عليهم أن يعتبروا من عاقبة الأمم السابقة، وأن يرجعوا عن طغيانهم.

ويعلم من هذه الآية أن المال والمتاع والعظمة والجاه الدنيوي ليس دليلًا على أن من لديه هذه الأشياء هو على الحق أيضًا، كما أن الفقر والإفلاس ليس دليلًا على أن من ابتلي به هو على الباطل، وعلى سبيل المثال: هناك العديد من الأنبياء الكرام عليهم السلام كانوا في عسرة باعتبار مال الدنيا ومتاعها، لكنهم كانوا على الحق، كما أن العديد من الكفار الطغاة - مثل قارون وفرعون - كانوا في غاية الثراء، لكنهم لم يكونوا على الحق. ولمزيد من التفصيل راجع الآية رقم ٢٦ من سورة الرعد (١٣)، وكذا الحاشية رقم ٣٥.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾

٦٢ - الذين يختارون - عن عمد - طريق الضلال، ويفضلون قصورهم والجيوش التي تحميهم، لا يأخذهم الله تعالى على الفور، وإنما يمهّلهم لكي يتوبوا، فإذا انتهت ساعات المهلة، ولحق بهم عذاب في الدنيا، أو أتاهم العذاب

يومَ القيامة، فإنَّهم يعلمونَ حينَ يرونَ العذابَ أنَّ قصورَهم وجيوشَهم هي الأسوأ، ولكنَّ النَّدمَ لا يفيدُ بشيءٍ في ذلكَ اليوم؛ لأنَّه لن تكونَ هناكُ أيُّ صورةٍ لتداركِ ما حدث.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾

٦٣ - الذين يختارونَ طريقَ الهدايةِ بنيةٍ خالصة، يزيدُ اللهُ تعالى في نورِ هدايتهم، وإذا لم يستطيعوا - لمرضٍ أو لظروفٍ خارجةٍ عن إرادتهم - مواصلةَ العملِ الصَّالح، فإنَّ سلسلةَ الأعمالِ الصَّالحة تظلُّ تُدَوِّنُ في صحائفِ أعمالهم، طالما استمرَّ مرضُهم، أو تواصلت الظروفُ الخارجةُ عن إرادتهم.

- يقولُ سيِّدنا عبدُ اللهِ بنُ عمرو بن العاصِ رضي اللهُ عنهما: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ العبدَ إذا كان على طريقةٍ حسنةٍ من العبادة، ثمَّ مَرَضَ، قيلَ للمَلِكِ الموَكَّل به: اكتبْ له مِثْلَ عملِهِ إذا كان طليقًا، حتَّى أطلقَه، أو أكفِّتَه إليَّ»^(١).

- يقولُ سيِّدنا أنسُ رضي اللهُ عنه: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إذا ابتلى اللهُ العبدَ المسلمَ ببلَاءٍ في جسَدِهِ، قال للمَلِكِ: اكتبْ له صالحَ عملِهِ الَّذي كان يعملُ، فإنَّ شفاه، غَسَلَه وطَهَّرَه، وإن قبَضَه، غَفَرَ له ورحِمَه»^(٢).

﴿وَالْبَقِيَّتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾

٦٤ - في هذه الآيةِ تسريَّةٌ عن قلوبِ الفقراءِ والمساكين من المسلمين، بأنَّ الثَّروة والعظمةَ الدُّنيويَّة التي يتفاخرو بها كُفَّارُ مكَّة، ستفنى جميعُها، وأنَّ الأعمالِ الصَّالحة التي تقومون بها باقيةٌ خالدة، وهي أفضلُ بكثيرٍ من حيثُ الأجرِ والثواب.

(١) مسند أحمد، ٢: ٢٠٣.

(٢) مسند أحمد، ٣: ٢٥٨.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾

٦٥ - يقول سيدنا خَبَابُ بن الْأَرْتِ رضي الله عنه: «جئتُ العاصي بن وائل السَّهْمِيَّ أتقاضاهُ حقًا لي عنده، فقال: لا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، فقلت: لا، حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ. قال: وإني لَمَيِّتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ؟ قلتُ: نعم. قال: إن لي هناك مَالًا وولَدًا فأقضيكَه، فنزلت هذه الآية»^(١).

يعني: ما يدعيه هذا المُنْكَرُ من أنَّ عنده عِلْمَ الْغَيْبِ، أو أنه أَخَذَ من الله مِثْقًا أنه سَيُنْعَمُ عليه يومَ الْقِيَامَةِ أيضًا بِالْمَالِ والأولاد، مع أنَّ هذا ليس صحيحًا بِالْمَرَّةِ، فالْمَالُ والأولاد الذين يتحدَّثُ عنهم هذا الدَّعِيُّ نحن وارثوه، وسوف تنتهي علاقته به كُلُّهُ فَوَرَّ أن يموت، وسوف يجيء يومُ الْقِيَامَةِ وحيدًا، ولن يكون لديه مَالٌ ولا أولاد، لكنَّه سيواجهُ الْعَذَابَ على طُغْيَانِهِ، وسوف نُضِيفُ عَذَابًا إلى هذا الْعَذَابِ.

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾

٦٦ - الذين يَتْرُكُونَ الله تعالى ويعبدون غيره طَمَعًا في أن تساعدَهم هذه الآلهة، هذا لن يحدث أبدًا، على العكس، ستكونُ هذه الآلهة مخالفةً له يومَ الْقِيَامَةِ، وستُعلنُ براءتها من عبادتهم لها، يعني: أننا لم نُقَلِّ لهم أبدًا أن يعبدونا، ولا نحن نستحقُّ العبادة.

الْمَرَّةَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ

هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ
يَوْمَ الْفَيْصَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ
وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدًا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرِثُهُمْ أَرْثًا﴾

٦٧ - يعني: يا أيُّها النبي الحبيب ﷺ، الذين يعتقدون أنك صادق، ولكنهم
لا يؤمنون بك بسبب تعصُّبهم وعنادهم، سلطنا عليهم الشياطين بسبب تكذيبهم
هذا، ليحرِّضوهم على مزيدٍ من المخالفة للإسلام.

ويعلم من هذا أنَّ الشيطان لا يُجبرُ أحدًا على ارتكابِ السُّوء، وإنما يُرغِّبه
في السُّوء عن طريقِ الوسوسة، وهذه حماقةٌ من الإنسان الذي يتبعُ الشيطانَ دونَ
مبالاةٍ بالعاقبة.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾

٦٨ - يا أيُّها النبي الحبيب ﷺ، لقد أدَّيتَ حقَّ الدَّعوة، فإذا لم يؤمن بك
الكُفَّارُ برَّغم كلِّ هذا، فلا تحزن ولا تغتم، ولا تتعجلَ نزولَ العذابِ عليهم؛ لأننا
نحن نعدُّ أيامَ حياتهم، وما أن تنتهيَ حياتهم حتى تبدأ سلسلةٌ من العذابِ تُحقِّقُ بهم.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾

٦٩ - حينَ نزلت هذه الآية قال سيِّدنا عليُّ رضي الله عنه: يا رسولَ الله، إنِّي
قد رأيتُ الملوكَ ووفودهم فلم أَرُ وفدًا إلَّا رُكبًا، فما وفدُ الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ:
«أما إنَّهم لا يُحشرون على أقدامهم ولا يُساقون سوقًا، ولكنهم يؤتَوْنَ بُنوقٍ من

نُوقِ الْجَنَّةَ لَمْ يَنْظُرِ الْخَلَائِقُ إِلَى مِثْلِهَا، رَحَالُهَا الذَّهَبُ وَزِمَامُهَا الزَّبْرَجَدُ، فَيَرْكَبُونَهَا حَتَّى يَقْرَعُوا بَابَ الْجَنَّةِ»^(١).

يقول سَيِّدُنَا عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهَ اسْتَقْبَلَهُ عَمَلُهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَأَطْيَبِ رِيحٍ، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ قَدْ طَيَّبَ رِيحَكَ وَحَسَّنَ صُورَتَكَ. فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عَمَلُكَ الصَّالِحُ طَالَمَا رَكَبْتِكَ فِي الدُّنْيَا أَرْكَبْنِي الْيَوْمَ، وتلا: ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾»^(٢).

ويقول سَيِّدُ مُحَمَّدٍ الْأَلُوسِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «أَنَّهُمْ يَرْكَبُونَ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْقُبُورِ وَيَتَهَوَّنَ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُمْ لَا يُحَاسِبُونَ»^(٣)، مِثْلَمَا رَوَى عَنْ سَيِّدِنَا ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رَفَعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»^(٤).

وَرَوَى عَنْ سَيِّدِنَا عَمْرُو بْنِ حَزْمٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِيمَا أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ وَابْنُ أَبِي هَتَمٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ رَبِّي وَعَدَنِي أَنْ يَدْخُلَ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعِينَ أَلْفًا بِلا حِسَابٍ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي فِي هَذِهِ الثَّلَاثِ أَيَّامٍ الْمَزِيدَ، فَوَجَدْتُ رَبِّي

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير الطبري وتفسير القرطبي.

(٣) تفسير روح المعاني.

(٤) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٩٤ برقم ٣٧٤.

ماجدًا كريمًا فأعطاني مع كلِّ واحدٍ سبعين ألفاً^(١)، وطبقًا لبعض الروايات فإن الأشخاص التالي ذكرهم من بين من يدخلون الجنة بغير حساب:

١ - الذين يحمّدون الله تعالى ويشكرونه في العسرِ واليسرِ.

٢ - الذين يسهّرون الليالي في ذكرِ الله تعالى.

٣ - الذين لا تلهيهم تجارتهم الدنيويّة عن ذكرِ الله تعالى.

٤ - طالبُ العلمِ.

٥ - المرأةُ المطيعةُ لزوجها.

٦ - الأولادُ البارّون بوالديهم^(٢).

﴿وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾

٧٠ - يقول سيّدنا عمّرو بن قيس رضي الله عنه: «وإنَّ الكافرَ يستقبله عمله (أي: حين يخرج من القبر) في أقبح صورةٍ وأنتنٍ ريحٍ، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، إلّا أنّ الله قد قبّح صورتك وأنتنَ ريحك. فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عملك السيئ طالما ركبتني في الدنيا وأنا اليوم أركبك. وتلا: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾^(٣).

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) «وفي بعضها ذكر من يدخل الجنة بغير حساب بوصفه كالحامدين لله تعالى شأنه في السراء والضراء، وكالذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وكالذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى، وكالذي يموت في طريق مكة ذاهبًا أو راجعًا، وكطالب العلم، والمرأة المطيعة لزوجها، والولد البار بوالديه، وكالرحيم الصبور وغير ذلك». روح المعاني.

(٣) تفسير القرطبي.

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾

٧١ - لن يكون لأحد يوم القيامة الإذن بالشفاعة، لكن أهل الإيمان الذين يأذن الله تعالى لهم بالشفاعة سيشفعون.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾

٧٢ - الذين يدعون أن الله تعالى ولدًا يجري هنا مخاطبتهم بشكل مباشر، بأنكم قلتم عن الله تعالى كلامًا في قمة العيب وغاية الاستحالة، لأن من الضروري لوجود الابن أن يكون من نفس جنس الأب، في حين أن الله تعالى منزّه عن المثل والنظير.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾

٧٣ - ادّعاء أن الله تعالى ولدًا أمرٌ في غاية الإساءة، بحيث لو أن الله تعالى غَضِبَ لهذا لَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، وانهارت الجبال وتطايرت كالحصى، لكنه تعالى حلیمٌ، ولا يتعجلُ المؤاخذه، وإنما يُمهِّلُ الناسَ لكي يتوبوا، مثلما روي عن سيدنا أبي موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «ما أحدٌ أصبر على أذى سمعه من الله، يدعون له الولد، ثم يُعافِيهم وَيَرْزُقُهُمْ»^(١).

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾

٧٤ - إذا كانت كل ملائكة السماء والأرض، والجن وبنو الإنسان عبادًا محتاجين اليوم أيضًا إلى الله تعالى، وسيمثلون في حضرته يوم القيامة عبادًا محتاجين له، فلا حاجة له أن يتخذ من أحد ولدًا، ولا يليق هذا بشأنه تعالى؛ لأنه منزّه عن الولد.

﴿لَقَدْ أَخَصَّكُمْ وَعَدَّكُمْ عَدًّا﴾

٧٥ - أحاط الله تعالى - بقدرته - ببني الإنسان جميعاً، ويعلمُ تمامَ العلم أعمالهم وأعدادهم، وليس أحدٌ بخافٍ عليه.

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾

٧٦ - سيمثلُ كلُّ فردٍ أمامَ الله تعالى يومَ القيامةِ بنفسه وحيداً، ولن يكونَ معه من متاع الدنيا ومالها شيءٌ، كما لن يكونَ معه مُعينٌ أو مساعدٌ، لكنَّ أهلَ الإيمانِ سيُعينُ بعضهم بعضاً بإذنِ الله تعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾

٧٧ - الذين آمنوا وعملوا الصالحات يُحبُّهم الله تعالى أيضاً، كما تتولَّدُ محبَّتُهم في قلوبِ عامةِ الناس، مثلما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فَلَانَا فَأَحِبَّهُ فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ ينادي جِبْرِيلُ في السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فَلَانَا فَأَحِبُّوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ»^(١).

رَغْمَ أَنَّ أَهْلَ الْحَقِّ يُضْطَرُّونَ لِلتَّصَادُمِ مَعَ قُوَى الْبَاطِلِ مِنْ أَجْلِ رِفْعَةِ الْحَقِّ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ تَلَحُّقُ بِهِمُ الْهَزِيمَةُ فِي الظَّاهِرِ، لَكِنَّ الْحَقَّ يَنْتَصِرُ فِي النِّهَايَةِ، وَيُضْطَرُّ النَّاسُ إِلَى الْاعْتِرَافِ بِعُظْمَةِ أَهْلِ الْحَقِّ.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾

٧٨ - يعني: أَنَّنَا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ بِلُغَتِكَ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَوْضَحْنَا تَعَالِيمَهُ وَسَرَرْنَاهَا بِشَكْلِ كَامِلٍ، حَتَّى لَا يَبْقَى أَذْنَى شَكٍّ أَوْ إِبْهَامٍ فِي تَبْشِيرِ الْمُتَّقِينَ وَتَحْذِيرِ الْمُخَالَفِينَ.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾

٧٩- في هذه الآية تنبيه لأهل مكة بأن العديد من الأمم السابقة عليهم قد هلكوا عقاباً لهم على طغيانهم، فلم يبقَ لهم وجودٌ بأنفسهم، ولم يعدْ لهم أثرٌ يدلُّ اليومَ عليهم، ولهذا ينبغي لأهل مكة أن يعتبروا من هؤلاء، ويرجعوا عن عصيانهم لله تعالى.

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيرزاده

جامعة الكرم: إنجلترا

يوم الأحد ٤ نوفمبر ٢٠٠٧م، الموافق ٢٤

شوال ١٤٢٨هـ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠) سُورَةُ طه

هذه السُّورة مَكِّيَّة، وهي واحدةٌ من بين تسع وعشرين سورةً نَزَلَتْ في بدايتها الحروفُ المقطَّعات، وأوَّلُ كلمةٍ في هذه السُّورة هي «طه»، ولهذا سُمِّيَتْ «سورة طه».

في بداية هذه السُّورة جاءت تسريَّةٌ عن قلبِ النَّبيِّ ﷺ بأنَّ هذا القرآن لم يُنزلْ عليك لكي تشقى به، أو لكي يحمِّلَكَ مسؤوليَّةً أن يُسلمَ الكُفَّارُ جميعًا، وإنَّما واجِبُكَ هو النَّصْحُ لهم وإبلاغهم أحكامَ الله تعالى فقط.

جاءت في هذه السُّورة قصَّةُ سيِّدنا موسى عليه السَّلام تفصيلًا؛ لأنَّه هو أيضًا كان يواجهُ قومًا من المتعصِّبين المتكبِّرين مثلَ كُفَّارِ مَكَّة، وذلك لكي يطمئنَّ النَّبيُّ الكريمُ ﷺ بأنَّ الأنبياءَ الكرامَ السابقينَ عليهم السَّلام أيضًا تعاملوا مع أمثالِ هؤلاء الأَقوامِ المتعصِّبة.

جاء في آخر هذه السُّورة ذِكرٌ لعقابِ الذين يُعرضونَ عن أحكامِ القرآن الكريم، وجاء كذلك تلقينٌ للمسلمينَ بأنَّ يصبروا على إيذاءِ الكُفَّارِ لهم.

هذا وقد نَزَلَتْ هذه السُّورة قبلَ إسلامِ سيِّدنا عُمَرُ رضي الله عنه؛ لأنَّ الآياتِ الأولى منها كانت سببًا في إسلامِ سيِّدنا عُمَر، ولهذا حَرَصَ أكثرُ المفسِّرينَ على

الحديث عن قصّة إسلام سيّدنا عمر رضي الله عنه في بداية السّورة.

وهذه القصّة المذكورة في كُتُب الحديث والتاريخ، وأنا هنا أقدم خلاصتها:

إسلام سيّدنا عمر رضي الله عنه:

رُوي عن سيّدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنّ رسول الله ﷺ دعا ربّه قائلاً: «اللّهم أعزّ الإسلام بأحبّ هذين الرجلين إليك: بأبي جهلٍ أو بعمر بن الخطّاب»^(١)؛ لأنّ هذين كانا زعيمين من زعماء مكّة المقبولين ذوي النفوذ، وإنّ أسلم أحدهما كان ذلك بمثابة زيادة في قوة المسلمين، على أيّ حال دعا النبي ﷺ بهذا الدّعاء يوم الأربعاء، وأسلم سيّدنا عمر رضي الله عنه في اليوم التالي مباشرة، أي: يوم الخميس^(٢).

حين بدأ النبي ﷺ الجهر بالدّعوة إلى الإسلام في مكّة، كانت الخلافات تدبّ في بيوت وعائلات الذين يدخلون الإسلام، وهو ما نتج عنه الكثير من التّفريق في المدينة كلّها، وعليه قرّر سيّدنا عمر رضي الله عنه في داخله أن يقتل سيّدنا محمداً ﷺ، حتى يعود السلام والاطمئنان إلى البلاد، وهكذا خرج ذات يوم من بيته ومعه سيفه، وفي الطريق رآه سيّدنا نعيم بن عبد الله رضي الله عنه، ولا حظّ تجاههم وجهه، فسأله: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمداً هذا الصّابغ الذي فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسبّ آلهتها فأقتله. فقال له نعيم: أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأيّ أهل بيتي؟ قال: حتّك وابن عمّك سعيد بن

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١٨ برقم ٣٦٨١.

(٢) «دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعمر بن الخطاب أو لأبي جهل بن هشام، فأصبح عمر وكانت الدعوة يوم الأربعاء فأسلم عمر يوم الخميس». البداية والنهاية، المجلد الثاني:

زَيْدٍ وَأُخْتُكَ فَاطِمَةُ، فَقَدْ - وَاللَّهِ - أَسْلَمَا وَتَابَعَا مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى دِينِهِ، فَعَلَيْكَ بِهِمَا، فَرَجَعَ عُمَرُ عَائِدًا إِلَى أُخْتِهِ فَاطِمَةَ وَعِنْدَهَا خَبَابُ بْنُ الْأَرْتِ مَعَهُ صَحِيفَةٌ فِيهَا «طه» يُقْرِئُهَا إِيَّاهَا، فَلَمَّا سَمِعُوا حَسَنَ عُمَرَ تَغَيَّبَ خَبَابُ فِي مَخْدَعٍ لَهُمْ - أَوْ فِي بَعْضِ الْبَيْتِ - وَأَخَذَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ الصَّحِيفَةَ فَجَعَلَتْهَا تَحْتَ فَخِذِهَا، وَقَدْ سَمِعَ عُمَرُ حِينَ دَنَا إِلَى الْبَابِ قِرَاءَةَ خَبَابٍ عَلَيْهَا: فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: مَا هَذِهِ الْهَيْئَةُ الَّتِي سَمِعْتُ؟ قَالَا لَهُ: مَا سَمِعْتَ شَيْئًا. قَالَ: بَلَى وَاللَّهِ، لَقَدْ أُخْبِرْتُ أَنَّكُمْ تَابِعْتُمَا مُحَمَّدًا عَلَى دِينِهِ، وَبَطَشَ بِخَتْنِهِ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ. فَقَامَتْ إِلَيْهِ أُخْتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ لَتُكْفِّهَ عَنْ زَوْجِهَا فَضَرَبَهَا فَشَجَّهَا، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ قَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ وَخَتْنُهُ: نَعَمْ، قَدْ أَسْلَمْنَا وَآمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ، فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا بِأُخْتِهِ مِنَ الدَّمِ نَدِمَ عَلَى مَا صَنَعَ وَارْغَوَى، وَقَالَ لِأُخْتِهِ: أَعْطِنِي هَذِهِ الصَّحِيفَةَ الَّتِي كُنْتُمْ تَقْرَأُونَ أَنَا أَنْظُرُ مَا هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، وَكَانَ عُمَرُ كَاتِبًا، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ قَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ: إِنَّا نَخْشَاكَ عَلَيْهَا، قَالَ: لَا تَخَافِي، وَحَلَفَ لَهَا بِأَلْهَيْتِهِ لَيُرَدِّدْنَهَا إِذَا قَرَأَهَا إِلَيْهَا، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ طَمِعَتْ فِي إِسْلَامِهِ فَقَالَتْ: يَا أَخِي، إِنَّكَ نَجِسٌ عَلَى شِرْكِكَ، وَإِنَّهُ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ [٥٦: ٧٩] فَقَامَ عُمَرُ فَاغْتَسَلَ فَأَعْطَتْهُ الصَّحِيفَةَ وَفِيهَا «طه»، فَقَرَأَهَا، فَلَمَّا قَرَأَ مِنْهَا صَدْرًا قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ وَأَكْرَمَهُ! دُلَّنِي يَا خَبَابُ عَلَى مُحَمَّدٍ حَتَّى آتِيَهُ فَأُسْلِمَ^(١).

وكان النبي ﷺ في ذلك الوقت يجلس في دار الأرقم مع أصحابه وفدائييه، فلما طرَّق سيدنا عمر رضي الله عنه الباب «وسمعوا صوته، قام رجل فنظر من خلل الباب فراه متوشحاً سيفه (أي: ولم ير معه خبأً ولا سعيلاً) فرجع إلى النبي ﷺ وهو فرع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً سيفه، نعوذ بالله من

شره، فقال حمزة بن عبد المطلب: فائذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه^(١).

فلما فتح الباب دخل سيّدنا عمر رضي الله عنه، فأجلسه النبي ﷺ بالقرب منه قائلاً: «أسلم يا ابن الخطاب»^(٢)، فأسلم سيّدنا عمر رضي الله عنه على الفور، «فكبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت تكبيرة سمعت بأعلى مكة»^(٣). يقول سيّدنا ابن عباس رضي الله عنهما: «لما أسلم عمر نزل جبريل فقال: يا محمد، لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر»^(٤). ورؤي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضرب صدر عمر بن الخطاب بيده حين أسلم ثلاث مرات وهو يقول: اللهم أخرج ما في صدره من غلّ وأبدله إيماناً. يقول ذلك ثلاثاً»^(٥).

عندما أسلم سيّدنا عمر رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده، إنكم على الحق إن متّم وإن حييتم»، فقلت: ففيم الاختفاء، والذي بعثك بالحق ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا خائف، والذي بعثك بالحق لنخرجن، فخرجنا في صفين: حمزة في أحدهما وأنا في الآخر، له (أي: لذلك الجمع) كديد ككديد الطحين، (أي: لذلك الجمع غباراً نائز من الأرض لشدة وطء الأقدام؛ لأن الكديد: التراب الناعم إذا وطئ ثار غباره). قال:

(١) السيرة الحلبية، ١: ٤٦٧.

(٢) «فجلست بين يديه صلى الله عليه وآله وسلم فأخذ بمجامع قميصي فجذبني إليه ثم قال: أسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهده». السيرة الحلبية، ١: ٤٦٦.

(٣) البداية والنهاية، ٢: ٣١.

(٤) ابن ماجه، المقدمة، باب ١١ برقم ١٠٣.

(٥) المستدرک للحاكم، ٣: ٩١ برقم ٤٤٩٢.

حَتَّى دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ، فَنَظَرْتُ قُرَيْشٌ إِلَيَّ وَإِلَى حِمَزَةٍ فَأَصَابَتْهُمْ كَابَةٌ لَمْ يُصِبْهُمْ مِثْلُهَا، فَطَافَ ﷺ بِالْبَيْتِ وَصَلَّى الظَّهَرَ مُعَلِّناً، ثُمَّ رَجَعَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى دَارِ الْأَرْقَمِ، فَسَمَّانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ الْفَارُوقَ، فَفَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ»^(١).

- عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَانَ جِبْرِيلُ يُذَاكِرُنِي فَضَلَ عُمَرَ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا بَلَغَ فَضْلُ عُمَرَ؟ قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، لَوْ لَبِثْتُ مَعَكَ مَا لَبِثْتُ نُوْحٌ فِي قَوْمِهِ مَا بَلَغْتُ لَكَ فَضْلَ عُمَرَ»^(٢).

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيروزي
جامعة الكرم، إنجلترا
بعد صلاة الجمعة من يوم التاسع من نوفمبر
٢٠٠٧ م
الموافق ٢٨ شوال عام ١٤٢٨ هـ



(١) السيرة الحلبية، ١: ٤٧٣.

(٢) تفسير القرطبي، سورة العنكبوت (٢٩): الآية ١٤، ١٣: ٣٣٤.

سُورَةُ طه (٢٠)،

مكية (٤٥)، آياتها (١٣٥)، ركوعاتها (٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ
الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِن يُجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ
امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَنهَا تُودِي
يَمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ
لِمَا يُوْحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ
ءَانِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ وَمَا تَلَكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا
عَلَيْهَا وَأَهْشَى بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَالْقَهَا
فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ
يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِّرَبِّكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾
أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾

﴿طه﴾

١ - يقول محمد علي الصّابوني: «سُمِّيَتْ «سُورَةُ طه»، وهو: اسمٌ من أسمائه الشّريفة عليه الصّلاة والسلام»^(١).

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾

٢ - في بدايات نزول القرآن الكريم كان النّبي ﷺ يُمضي اللَّيْلَ كُلَّهُ واقفاً يُصَلِّي النوافلَ وَيَتْلُو الْقُرْآنَ، حتّى كانت قَدَمَاهُ الشّريفتان تتورّمان، ثم يَقْضي النّهارَ كُلَّهُ في دعوة أهل مَكَّةَ إلى القرآن الكريم، وبرغم ذلك لم يؤمن أكثر أهل مَكَّةَ، وكان النّبي ﷺ يحزن كثيراً على ضلّالهم.

وفي هذه الآية قال الله تعالى لكي يخلّصه ﷺ من هاتين المشقّتين: يا أيّها النّبيّ الحبيب ﷺ، إنّنا لم نُنزل القرآن عليك لكي تهجر الراحة والنّوم، وهما ضروريّان لحياة بني الإنسان، وإذا لم يؤمن كفّار مَكَّةَ بتعاليم القرآن الكريم فلا تُشَقِ نفسك بسببهم؛ لأنّ الذين يحصلون على النّصيحة من القرآن الكريم هم أولئك الذين يخافون الله تعالى فقط.

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾

٣ - في هذه الآية جاء الحديث عن حقيقة القرآن المّجيد وفضله، بمعنى: أنّ هذا ليس من كلام البشر، وإنّما هو كلامُ الله تعالى الذي خَلَقَ السّماوات والأرض.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾

٤ - طبّقاً لهذه الآية من القرآن الكريم فإنّ إيماننا هو أنّ الله تعالى مُتَجَلِّ

على العرش بما يليقُ بشأنه، ولكن ما حقيقةُ هذا التجلي، وما كَيْفِيَّتُهُ؟ فهذا ما لا نستطيعُ إدراكه. ويُعَلِّمُ منه أيضًا أَنَّ الله تعالى ليس خالقَ الكائناتِ فقط، وإنَّما هو حاكمُها المطلقُ والأعلى، وحُكْمُهُ نافذٌ في أعلى الكائناتِ وأدناها.

﴿وإنَّ بَجْهَرِ الْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾

٥ - سواءٌ تحدَّثَ الإنسانُ بصوتٍ عالٍ أم بصوتٍ خَفِيفٍ، فالله تعالى يَعْلَمُ الحالَّتينِ تمامَ العلم، بل إنَّ الله تعالى يَعْلَمُ أيضًا ما يُخْفِيهِ الإنسانُ في قلبه، وَيَعْلَمُ كذلك ما لا يَعْلَمُهُ الإنسانُ حتى وقته، وما هو فاعله في المستقبل^(١).

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾

٦ - يعني: أَنَّ خالقَ الكائناتِ كُلِّها ومالكها وحاكمها، والذي يَعْلَمُ ما يُخْفِيهِ الناسُ من أسرار، هو - وحده - الذي تليقُ به العبادة، وأسماءه التي ينادى بها هي أفضلُ الأسماء.

- يقولُ سيِّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إِنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ لله تسعةً وتسعينَ اسمًا مائةً إِلَّا واحدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

- يقولُ سيِّدنا زَيْدُ بن أَرْقَمَ رضي الله عنه: إِنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ». قيل: وما إِخْلَاصُها؟ قال: «أَنْ تَحْجُزَهُ عَنْ محارمِ الله عَزَّ وَجَلَّ»^(٣).

- يقولُ سيِّدنا عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو بن العاص رضي الله عنهما: إِنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ الله سَيُخَلِّصُ رجلاً من أُمَّتِي على رءوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ فيُنْشَرُ عليه

(١) «ما خفي على ابن آدم ممَّا هو فاعله وهو لا يعلمه فالله تعالى يعلم ذلك كله». القرطبي.

(٢) البخاري، كتاب الشروط، باب ١٨ برقم ٢٧٣٦.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني، ٢: ١٣٧ برقم ١٢٥٧.

تسعة وتسعين سَجَلًا كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثم يقول: أَتُنْكِرُ من هذا شيئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: أَفَلَاكَ عُذْرٌ؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فيقول: احْضِرْ وَزَنِّكَ، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السَّجَلَاتِ؟ فقال: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قال: فتَوَضَّعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ وَالبطاقةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ البطاقةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ^(١).

﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدَعٍ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾

٧ - هنا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهَ الْحَبِيبَ ﷺ بِقِصَّةِ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى يَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ وَحْدَهُ الَّذِي يُعَانِي مِنَ الْمَشْكَلاتِ، وَإِنَّمَا عَانَى مِنْ قَبْلِهِ الْأَنْبِيَاءُ الْكَرَامُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

والْحِكَايَةُ هِيَ أَنَّ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوَجَّهَ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدْيَنَ، وَأَمْضَى عِدَّةَ سِنَوَاتٍ عِنْدَ سَيِّدِنَا شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ تَزَوَّجَ بِابْنَةِ سَيِّدِنَا شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ اضْطَحَبَ زَوْجَتَهُ عَائِدًا إِلَى مِصْرَ، وَكَانَ فَضْلُ الشِّتَاءِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَبِالْقُرْبِ مِنْ جَبَلِ الطُّورِ رَأَى سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاللَّيْلِ نَارًا مِنْ بَعِيدٍ، فَقَالَ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَزَوْجَتِهِ: أَنْتَظِرِينِي هُنَا، وَسَأُذْهَبُ أَنَا عِنْدَ تِلْكَ النَّارِ، رَبِّمَا آتِي بِبَعْضِ جَمْرَاتِهَا مِنْ هُنَاكَ لِكَيْ نُشْعَلَهَا وَنُسْتَدْفِيَ بِحَرَارَتِهَا مِنَ الْبُرُودَةِ، أَوْ رَبِّمَا أَجِدُ عِنْدَهَا أَحَدًا يَدُلُّنَا عَلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ إِلَى مِصْرَ، حَتَّى لَا نَتِيَّهَ بِغَيْرِ هُدًى فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْؤُوسَى﴾

٨ - عِنْدَمَا وَصَلَ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى النَّارِ رَأَى مَنْظَرًا عَجِيبًا،

حيث رأى - كما قال البغوي - «شجرة خضراء من أسفلها الى أعلاها أطافت ناراً بيضاء تَقْدُ كأضواء ما يكون - فلا ضوء يُغيّر خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تُغيّر ضوء النار»^(١).

وفي تلك الأثناء جاءه صوت من الغيب يقول: يا موسى، هذه النار التي تتراءى لك ليست ناراً، وإنما هو التجلي مني، وأنا ربك، والآن أنت في وادي طوى المقدس تكلّم ربك سبحانه وتعالى، ولهذا عليك أن تخلع حذاءك تأدباً واحتراماً لهذا الوادي المقدس، حتى تنال قدماك البركة^(٢).

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾

٩ - يعني: لقد اخترتك من بين بني قومك لتكون رسولاً ونبياً، وكان سيّدنا موسى عليه السلام على يقين من أنّ هذا كلام الله تعالى؛ لأنّ الله تعالى يخلُق بداخل النبي ملكة يستطيع من خلالها التمييز بين ما هو كلام الله تعالى مباشرة وما هو من كلام ملك الوحي والتعرّف عليهما، ولمزيد من التفصيل في هذا الخصوص راجع الحاشية رقم ٧٥ من سورة يونس (١٠).

ويقول العلامة غلام رسول سعيدي أيضاً: إنّ إجماع المتقدمين والمتأخرين على أنّ النبي يكون مؤمناً منذ مولده، ولا يكون للمحنة بغير إيمان^(٣).

ويعلم من هذه الآية أنّ النبوة أمرٌ وهبي، ولا يمكن لإنسان أن يكون نبياً من خلال كثرة التريّض والعبادة، وإنما النبوة عطاء إلهي، يُعطيها من فضله لمن يشاء من عباده.

(١) التفسير المظهري.

(٢) «ثم أمره أن يخلع نعليه احتراماً للبقعة المقدسة، فقال: فاخلع نعليك لأنك بالوادي المطهر المسمى بطوى، فاخلعهما ليحصل للقدمين بركته». تفسير المراغي.

(٣) تفسير تبيان القرآن.

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾

١٠ - هنا بيان لحكمة من حَكَم الصَّلَاة، يعني: جَدِّدُوا تَذَكُّرَكُمْ لله تعالى بإقامة الصَّلَاة بينَ الحينِ والآخر، ولا تَغْفَلُوا عنه؛ لأنه يَسْهُلُ على الشَّيْطَانِ إضْلالُ الغافلين.

وهناك معْنَى آخَرُ لذلك وهو: أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ حَتَّى يَذْكُرَكُمْ اللهُ تعالى؛ لِأَنَّ وَعْدَ اللهِ تعالى هُوَ أَنْ يُنْعِمَ بِذِكْرِهِ عَلَى مَنْ يَذْكُرُهُ، وهل هناك أَفْضَلُ حَظًّا مَنْ أَنْ يَذْكُرَ اللهُ تعالى عَبْدَهُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ؟

﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَآيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾

١١ - الموتُ والقيامةُ حقيقة، لكنَّ اللهُ تعالى أَخْفَى وَتَهْمَا حَتَّى يَظَلَّ الخوفُ في قلوبِ الناسِ دَائِمًا بِأَنْ يَعْلَمَ اللهُ تعالى مَتَى تَقُومُ الْقِيَامَةُ، وَلَوْ أَنَّ اللهُ تعالى أَخْبَرَ النَّاسَ بِوَقْتِ الْمَوْتِ وَالْقِيَامَةِ، لَبَقِيَ النَّاسُ مِنْهُمْ كَيْفَ فِي السَّيِّئَاتِ بِاعْتِبَارٍ أَنَّهُ لَا يَزَالُ هُنَاكَ مَتَّسِعٌ فِي الْحَيَاةِ، وَعِنْدَمَا يَقْتَرِبُ وَقْتُ الْمَوْتِ وَالْقِيَامَةِ يَتُوبُونَ قَبْلَهَا بِسَاعَاتٍ، لِيَنْجُوا مِنَ الْعَذَابِ.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾

١٢ - الذي لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَتَّبِعُ هَوَى نَفْسِهِ، يَسِيرُ بِاطِّرَادٍ نَحْوَ الْهَلَاكِ، وَسَيَدْخُلُ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا لَا تَطِيعُوا أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ أَبَدًا، وَإِلَّا سَتَهْلِكُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا.

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى﴾

١٣ - كَانَ اللهُ تعالى يَعْلَمُ أَنَّ فِي يَدِ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصًا، وَلَكِنَّهُ سَأَلَهُ

حتى يستحضر سيّدنا موسى عليه السّلام في ذهنه حقيقة هذه العصا وخصائصها، ثم يشاهد بعينه قدرة الله تعالى، أي: كيف تتحوّل عصا جامدة لا روح فيها إلى حيّة تسعى.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْبُشْ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾

١٤ - كان يكفي للإجابة عن هذا السؤال أن يقول سيّدنا موسى عليه السّلام: هذه عصاي، لكنّ سيّدنا موسى عليه السّلام أطال الجواب حتى يحظى بشرف مزيد من الكلام مع الله تعالى، وهذا من فطرة الإنسان، بأنه حين يتكلّم مع شخصيّة عظيمة محبوبة فإنه يستمتع كثيرًا بهذا، ويحاول أن يطيل الحديث.

﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾

١٥ - جعل الله تعالى سيّدنا موسى عليه السّلام يشاهد بنفسه تحوّل العصا إلى ثعبان، ثم قال: لا تخف من هذا الثّعبان، فما أن تمسك به حتى نحيله إلى عصا كما كان من قبل، وهكذا وّضع سيّدنا موسى عليه السّلام يده في فم الثّعبان، وأمسك به من فكّيه، فاستحال إلى عصا من جديد، وقد جاء ذكر هذه المعجزة في التّوراة^(١).

﴿وَأَصْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةً أُخْرَى﴾

١٦ - جاء هنا ذكر معجزتين من معجزات سيّدنا موسى عليه السّلام، فذكر الله تعالى في الآيات السابقة معجزة العصا، وفي هذه الآية ذكر معجزة اليد البيضاء، يعني: عندما وّضع سيّدنا موسى يده تحت إبطه وأخرجها من تحته،

(١) الكتاب المقدس الحي، سفر الخروج، ٤: ٤ - ١.

خَرَجَتْ بِيضَاءَ لَامِعَةً دُونَ سَبَبٍ مِنْ مَرَضٍ وَنَحْوِهِ، وَأَضَاءَاتُ مَا حَوْلَهَا، وَحِينَ وَضَعَهَا ثَانِيَةً تَحْتَ إِبْطِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا عَادَتْ إِلَى حَالَتِهَا الْأُولَى.

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾

١٧ - بَعْدَ أَنْ أَعْطَى اللَّهُ تَعَالَى لِسَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَاتَيْنِ الْمِعْجَزَتَيْنِ أَمَرَهُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقُمَ بِدَعْوَتِهِ إِلَى الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ قَدْ طَغَى، حَتَّى أَنَّهُ ادَّعَى أَنَّهُ رَبُّ الْأَرْبَابِ أَيْضًا: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النَّازِعَاتُ: ٢٤].

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾
وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰذُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ تُسِجَّحَ
كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ
مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ
فَلْيُلْقِيهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ، وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾
إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا
تَحْزَنَ، وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ
قَدَرٍ يَمُوسَى ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾
أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾ قَالَ لَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ
يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا
رُسُلَا رَبِّكَ فَارْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنْ
أَتَبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا
يَمُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾

قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا
وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا
أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾

١٨ - لم يكن فرعون حاكمًا على مصر فقط، وإنما كان يعتبر نفسه الرب الأعلى، وحين أمر الله تعالى سيّدنا موسى عليه السّلام بالذهاب إلى فرعون، توجه سيّدنا موسى عليه السّلام إلى الله تعالى بدعاء اشتمل على إحدى عشرة آية، يعني: يا رب، اجعل في صدري تلك السّعة والجراحة والشجاعة التي تتطلبها النبوة، ويسر كل المصاعب التي تعترض طريق هذه المهمّة، واحلل عقدة لساني، أي: خلّصني من تلك اللّكنة التي في لساني، واجعل فيه فصاحة وسلاسة، حتى يفهمهم الناس جيّدًا ما أقول. ثم يقول سيّدنا موسى عليه السّلام في الجزء الثاني من الدّعاء: واجعل هارون أخي وزيرًا لي لكي ترتفع معنوياتي، واجعله كذلك شريكًا لي في عملي. ثم يقول في الجزء الأخير من الدّعاء: الهدف من دُعائي هذا هو أن نُكثِرَ أنا وأخي هارون من ذِكرك وتسيحك، كما أنّك تعلم تمام العلم ما نحتاجه من الضّروريات، فحقّق يا ربّ هذه الضّروريات كلّها، حتى نستطيع القيام بمسؤولياتنا خير قيام.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾

١٩ - في هذه الآية بشر الله تعالى سيّدنا موسى عليه السّلام بأنه استجاب لكلّ دُعائه.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾

٢٠ - بعد أن بشر الله تعالى سيّدنا موسى عليه السّلام بقبول دُعائه، ذكر هنا إحساناً منه تکرّم به عليه دون أن يطلبه، يعني: أنه أنقذه من القتل عند مولده، وهو ما تذكّره الآية التالية.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾

٢١ - قال المنجّمون لفرعون: إن هناك طفلاً سيولّد في بني إسرائيل سيكون سبباً في زوال ملكه، ولهذا أمر الفرعون بقتل كلّ طفل يولّد في بني إسرائيل، حتى «لا يبقى النائي، ولا الغائب الذي يُصنّع منه»^(١)، وفي تلك الأيام ولّد سيّدنا موسى عليه السّلام، فألهم الله والدته، أي: ألقي في روعها أن تضع الطفل في صندوق، ثم تلقي به في النيل، ولا تغتم ولا تحزن، فسوف يحمله ماء النهر إلى الساحل، وسيحمله من هناك الفرعون، الذي هو عدو الله تعالى وعدو سيّدنا موسى عليه السّلام، فهو عدو الله تعالى لأنه كان مشركاً، بل ويدّعي الألوهية لنفسه، وهو عدو لسيّدنا موسى عليه السّلام لأنه سيعاديه بالفعل في المستقبل، بل إنه في ذلك الوقت كان عدواً لسيّدنا موسى حقيقةً، ولكنّه لم يكن يعلم أنّ سيّدنا موسى عليه السّلام هو ذلك الطفل الذي سيكون سبباً في زوال ملكه، ولو علم هذا عند ولادته لقتله على وجه اليقين، لكن الله تعالى خلق من الأسباب - لحفظ سيّدنا موسى عليه السّلام - ما لا يستطيع الفرعون فهمه.

لقد خلق الله تعالى سيّدنا موسى عليه السّلام جميلاً بمحبّته ورحمته الخاصّة، وكان كلّ من يراه يهيمُ بجماله. وذات يوم كان الفرعون يشاهدُ منظر النيل

(١) مثل بالأردية، وهو: «نه رهے بانس نه بجے بانسرى»، ويقال في موضع اقتلاع أمر ما من جذوره. (المترجم).

مع زوجته، إذ رأى صندوقاً عائماً فوق المياه، فأمر عبيده أن أحضروا هذا الصندوق أمامي، وحين فُتِحَ الصندوق وَجَدَ فيه طفلاً جميلاً جَذَاباً، حيث قَرَّرَ الفرعونُ بناءً على رغبة زوجته أن يُبْقِيَه في القصر وأن يُزَيِّهه أيضاً، وهكذا تَرَبَّى سَيِّدُنَا موسى عليه السَّلامُ في رعاية وحفظٍ خاصٍّ من الله تعالى.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ﴾

٢٢ - بعد أن أَلْقَتْ أُمُّ سَيِّدِنَا موسى عليه السلام بولدها في النهر قالت لابنتها: راقبي هذا الصندوق، وحين وَصَلَ الصندوقُ إلى قصورِ فرعون، واستدعت زوجته فرعونَ عدَّةَ نساءٍ لإرضاعه، حَضَرَتْ أُخْتُ سَيِّدِنَا موسى أيضاً، ورأت أن أخاها سَيِّدَنَا موسى عليه السَّلامُ لا يَرْضَعُ من أيِّ امرأة، وحينئذٍ قالت أُخْتُ سَيِّدِنَا موسى عليه السَّلامُ لامرأة فرعون: أنا أُخْبِرُكم عن امرأةٍ سِيرَضُ هذا الطِّفْلُ من لبنِها، وهكذا استدعت أُمُّها، وأخذ سَيِّدُنَا موسى عليه السَّلامُ يَرْضَعُ منها، ففَرِحَتْ زوجته فرعونَ بذلك كثيراً، وقالت لأُمِّ سَيِّدِنَا موسى عليه السَّلامُ: ابقِ معنا هنا في القصر، وقومي بتربية الطِّفْلِ، لكنَّ أُمَّ سَيِّدِنَا موسى عليه السَّلامُ قالت: لا أَسْتَطِيعُ أن أترك زوجي وأطفالي وأعيشَ هنا، وهكذا تَقَرَّرَ أن تأخُذَ الطِّفْلَ معها إلى بيتِها، وتربِّيه هناك، وتُعْطَى مقابلَ ذلك من الخِزَانَةِ المَلَكِيَّةِ، وهكذا أعاد الله تعالى سَيِّدَنَا موسى عليه السَّلامُ إلى أُمِّه لكي تَقَرَّ عَيْنُهَا ولا تحزنَ، وقد قَبِلَتِ السَّيِّدَةُ أُمُّ سَيِّدِنَا موسى عليها السَّلامُ ما أُعْطِيَ لها من الأجرِ حتى لا ينكشفَ السِّرُّ بأنَّها هي الأُمُّ الأَصْلِيَّةُ لهذا الطِّفْلِ.

﴿وَقُلْتَ نَفْسًا فَجَيعَكَ مِنَ الْعَمْرِ ۗ﴾

٢٣ - وهناك إحسانٌ آخرُ من الله تعالى على سَيِّدِنَا موسى عليه السَّلامُ سَيَرِدُ

ذَكَرَهُ فِي الْآيَةِ رَقْم ١٥ مِنْ سُورَةِ الْقَصَصِ (٢٨)، وَذَلِكَ حِينَ قَتَلَ سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ فِي سَنِّ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِصْرِيًّا عَنْ طَرِيقِ الْخَطَا، وَتَأَمَّرَ الْمِصْرِيُّونَ عَلَى قَتْلِ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخْرَجَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مِصْرَ، وَأَوْصَلَهُ إِلَى سَيِّدِنَا شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾

٢٤ - لَقَدْ ابْتَلَى اللَّهُ تَعَالَى سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِرَارًا، وَكَتَبَ لَهُ الْفَوْزَ وَالْفَلَاحَ فِي هَذِهِ الْابْتِلَاءَاتِ جَمِيعًا، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: إِنْقَاذُهُ مِنَ الْقَتْلِ عِنْدَ وَلادَتِهِ، وَإِنْقَاذُهُ مِنَ الْغَرَقِ عِنْدَمَا وَضَعْتَهُ أُمُّهُ فِي صُنْدُوقٍ وَأَلْقَتْ بِهِ فِي النَّهْرِ، وَإِنْقَاذُهُ مِنَ الْقَتْلِ عَلَى يَدِ الْمِصْرِيِّينَ (الْأَقْبَاطِ) حِينَ قَتَلَ مِصْرِيًّا (قَبْطِيًّا) عَلَى سَبِيلِ الْخَطَا وَجَاءَ بِهِ إِلَى مَدْيَنَ.

﴿فَلَيْسَتْ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يُمْسِي﴾

٢٥ - حِينَ بَلَغَ سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْعُمُرِ أَرْبَعِينَ سَنَةً جَاءَ إِلَى جَبَلِ الطُّورِ الَّذِي كَانَ مَقْدَرًا أَنْ يُكَلِّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَيُبْعَثَهُ نَبِيًّا مِنْ فَوْقِهِ.

سن الأربعين هو سن البعثة النبوية عموماً:

يقول أكثر المفسرين في خصوص هذه الآية: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ يُبْعَثُونَ عِنْدَ سَنِّ الْأَرْبَعِينَ، رَغْمَ أَنَّ هُنَاكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ بَعَثَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى قَبْلَ سَنِّ الْأَرْبَعِينَ، مِثْلَ: سَيِّدِنَا عِيسَى وَسَيِّدِنَا يُوسُفَ وَسَيِّدِنَا يُحْيَى عَلَيْهِمُ جَمِيعًا السَّلَامُ، وَهَذَا إِظْهَارٌ لِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، لَكِنَّ سُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ أَنْ يُبْعَثَ النَّبِيُّ بَعْدَ أَنْ يُتِمَّ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً، مِثْلَمَا يَقُولُ الْعَلَامَةُ أَبُو حَيَّانَ الْأَنْدَلُسِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ: «وَكَانَ عُمُرُهُ حِينَ

ذَهَبَ إِلَى مَدْيَنَ اثْنِي عَشَرَ عَامًا، وَأَقَامَ عَشْرَةَ أَعْوَامٍ فِي رَعْيِ غَنَمِ شُعَيْبٍ، ثُمَّ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ عَامًا بَعْدَ بَنَائِهِ بِامْرَأَتِهِ بِنْتِ شُعَيْبٍ، وَوُلِدَ لَهُ فِيهَا، فَكَمُلَ لَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَهِيَ الْمُدَّةُ الَّتِي عَادَةُ اللَّهِ إِرسَالُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى رَأْسِهَا^(١).

﴿وَأَصْطَفَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾

٢٦ - اختار الله تعالى سيّدنا موسى عليه السّلام ليَجْعَلَهُ نبيّه ورسوله.

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ ثِيَابِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾

٢٧ - قال الله تعالى لسيّدنا موسى وسيّدنا هارونَ عليهما السّلام: اذهبا أنتما الاثنان بآياتي، يعني: معجزاتي ودلائلي وأحكام التّوراة، إلى فرعونَ؛ لأنّه قد طغى، ولكنّ عليكما أن تُكثِرا من تسيّحي وذكري، لكي تتغلّبا على المشكلات التي ستواجهكما، وترتفع معنوياتكما، ولا تنيا في هذا أبداً، وعليكما أن تُخاطبا فرعونَ بقدر من اللّين، على أمل أن يستمع إلى النّصيحة، ويخشى عذابي.

في هذه الآيات درسٌ عبرةٌ للدّعاة، بأنّهم حين يريدون تقديم الإسلام إلى غير المسلم، فعليهم أن يفعلوا ذلك بعد الاستعداد الجيّد والبحث الدّقيق، وأن يذكروا الله تعالى في كلّ حال، وأن لا يغلطوا في الحديث، وإنما يختارون اللّين؛ لأنّ الناس ينفرون من الغلظة، ويميلون إلى اللّين في الحديث، ويظهرون شوقاً إلى الاستماع حينئذٍ.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾

٢٨ - قال سيّدنا موسى وسيّدنا هارونَ عليهما السّلام - واضعَيْن في اعتبارهما

طُغْيَانِ فِرْعَوْنَ -: يَا رَبَّنَا، نَخْشَى أَنْ يَعْتَدِيَ عَلَيْنَا فِرْعَوْنُ حِينَ نَدْعُوهُ إِلَى الْهَدَايَةِ، وَعَلَيْهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمَا: إِنَّنِي مَعَكُمْ يَقِينًا، وَأَسْمَعْ تَمَامًا مَا يَقُولُهُ فِرْعَوْنُ وَأَرَى مَا يَفْعَلُهُ، وَلِهَذَا لَا تَخَافَا مِنْ فِرْعَوْنَ، فَسَوْفَ أَحْفَظُكُمَا مِنْهُ، وَسَأُبْطِلُ كُلَّ سِلَاحٍ يَسْتَعْمَلُهُ.

﴿فَأَنبَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾

٢٩ - يعني: اذْهَبَا أَنْتُمَا الْإِثْنَانِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْلَا لَهُ: نَحْنُ رَسُولَا رَبِّكَ إِلَيْكَ، وَقَدْ جِئْنَا إِلَيْكَ بِآيَةِ النُّبُوَّةِ مِنْ عِنْدِهِ، أَيِ: الْمَعْجَزَاتِ، فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ لِنَعُودَ بِهِمْ إِلَى الشَّامِ، وَلَا تُوْذِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، وَرِسَالَةُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْكُمْ أَتِيهَا النَّاسُ أَنْ سَيَكُونُ السَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهَدَايَةَ، أَمَّا مَنْ كَذَّبَ بِالْكَلامِ الْإِلَهِيِّ وَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَسَيَنْزِلُ عَلَيْهِ الْعَذَابُ.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾

٣٠ - قَالَ سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْفِرْعَوْنَ: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ إِلَيْكَ، فَقَالَ الْفِرْعَوْنُ مُنْذِهِشًا غَيْرَ مُصَدِّقٍ: إِنَّنِي أَنَا رَبُّ أَهْلِ مِصْرَ، وَلَا رَبَّ لِي، وَإِنْ كُنْتُمَا صَادِقَيْنِ فِيمَا تَدَّعِيَانِ فَأَخْبِرَانِي: مَنْ رَبُّكُمَا، وَمَا حَقِيقَتُهُ؟

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾

٣١ - قَالَ سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَبُّنَا هُوَ ذَلِكَ الَّذِي مَنَحَ كُلَّ شَيْءٍ وَجُودَهُ الَّذِي يَتَّفَقُ مَعَ بَيِّنَتِهِ، ثُمَّ أَوْدَعَ فِطْرَتَهُ هَدَايَةً تَتَوَافَقُ مَعَ مَقْصِدِ حَيَاتِهِ وَوَسِيلَةِ كَسْبِهِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَحَ الْإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتَ وَغَيْرَهَا وَجُودًا يَطَابِقُ بَيِّنَتَهَا، كَمَا أَنْعَمَ عَلَيْهَا بِالْإِمْكَانِيَّاتِ الْفِطْرِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا ضَرُورِيَّاتُهَا.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾

٣٢ - بعد هذا الجواب المُفجِع قال الفرعونُ مبدلاً وجهة الحديث: حسناً، أخبرني إذا، ماذا كانت عاقبة المُنكرين في الأمم السابقة؟

﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾

٣٣ - تجاهل سيّدنا موسى عليه السّلام هذا السؤال الخارج عن الموضوع من فرعون، بغرض مواصلة الدّعوة إلى التوحيد، وقال: لقد كتّب الله تعالى أحوال الأمم السابقة عنده في اللّوح المحفوظ لحكمة يعلمها هو، وسوف يُجازيهم طبقاً لهذه الأحوال ويُحاسِبُهم، لكنّ علم الله تعالى لا يحتاج إلى اللّوح المحفوظ، وإنّما هو يعلم تمام العلم وأكمّله كلّ شيء، حيث لا مجال مطلقاً للخطأ أو النسيان.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾

٣٤ - يعني: أنّ الله تعالى هو الذي مهّد لكم الأرض، حتى تستطيعوا الاستقرار عليها، وجعل لكم في جبالها وبرّها وبحرّها طرقاً تسلكونها، حتى يُمكنكم توفير طعامكم وطعام مواشيكم وأنعامكم، وفي هذه الأشياء كلّها آيات واضحة لأصحاب العقول، وكلّها تشير إلى وجود الله تعالى وتدلّ على وحدانيّته.

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ، نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ

الزينة وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَن تُلْقَى وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنِ الْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَتَوْا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا أَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ أَمْنَمْتُ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ أَنَّهُ لَكِبَرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قُطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُم مِّنْ خَلْفٍ وَلَا أَصْلَبَتِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَافْضُ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَاءً أَمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَى ﴿٧٥﴾ حَتَّىٰ عَذَبِ النَّجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾

٣٥ - أولُ إنسانٍ هو سيدنا آدم عليه السَّلام، وهو الذي بدأت من عنده سلسلةُ بني البشر، وقد خُلِقَ آدم من تراب، ولهذا قال الله تعالى مشيرًا إلى هذا الأصلِ التُّرابيِّ: لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ، وقد استمرَّ النُّسلُ الإنسانيُّ بعدَ سيدنا آدم عليه السَّلام من خلالِ النُّطفة، ولأنَّ الغذاءَ الذي يتربَّى عليه الإنسانُ وما فيه من نُطفةٍ يأتي من التُّراب، لهذا نُسِبَ الإنسانُ إلى التُّرابِ أيضًا (ولمزيد من التفصيل راجع الآية رقم ٢ من سورة الأنعام (٦)، وكذا الحاشية رقم ٢ أيضًا)، ثم يُدفنُ الإنسانُ

بعد الموت في هذه الأرض أيضاً، ويوم القيامة يُبعث كذلك من هذه الأرض.

﴿وَلَقَدْ آرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ۚ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

٣٦ - حين عَرَضَ سَيِّدُنَا موسى عليه السَّلامُ معجزتي نبوته، يعني: اليد البيضاء والعصا، لم يُنكر الفرعونُ نبوته فقط، وإنما قال عن المعجزتين: إنهما سحرٌ، ثم قال: إنك تريد - عن طريق هذا السحر - أن تُخرجنا من مصرَ وتستولي أنت عليها، ولهذا فإننا سنقفُ أمامَ سحرِكَ هذا ونواجهه، فتعال للمواجهة في ميدانٍ مفتوح أمام الجميع، ولتحدّد الوقت لهذه المواجهة، ولا تُخلف ما تقرّره من موعدٍ لها.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾

٣٧ - قال سَيِّدُنَا موسى عليه السَّلام: نحدّد الغدَ موعداً للمواجهة، وهو الوقت الذي يجتمع فيه قومك في الميدان المفتوح عند الصُّباح للاحتفال، حتى يرى الناسُ جميعاً في ضوءِ النهار الحقِّ والباطل، وهكذا استدعى الفرعونُ كبار السَّحرة في قومه ومشاهيرهم، وجاء بهم إلى الميدان في الموعد المحدّد.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۚ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾

٣٨ - أخذ سَيِّدُنَا موسى عليه السَّلامُ يعظُ الناسَ في هذا الميدان المفتوح قائلاً: لا تفتروا على الله كذباً بالاعتقاد في ربوبيّة الفرعون، والقول عن المعجزات: إنَّها سحرٌ، وإلا فإنَّ الله تعالى سيقضي عليكم قضاءً مبرماً عن طريق العذاب، ولقد فشِلَ من الأمم السابقة عليكم أولئك الذين افترّوا على الله كذباً.

﴿فَنَنْزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾

٣٩ - بعد أن استمع السحرة إلى وعظ سيدنا موسى عليه السلام اختلفوا فيما بينهم، وأخذوا يتهامون معاً، فقال البعض منهم: هذا ساحر، وقال البعض الآخر: يبدو أنه نبي؛ لأن حديثه ليس مثل أحاديث السحرة، لكنهم جميعاً قالوا خوفاً من فرعون: إن هذين ليسا بنبيين، وإنما ساحران يريدان أن يخرجكما من مصر، ويقضيا على دينكم وحضارتكم.

﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾

٤٠ - أي: استجمعوا اليوم كل مهاراتكم وحيلكم، واضطفؤوا معاً واخرجوا إلى الميدان، حتى إذا راكم هذان خافا منكم، وتذكرا أن من يغلب اليوم سيظل ناجحاً ومنتصراً أبداً.

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تُسْعَى﴾

٤١ - قال سيدنا موسى عليه السلام للسحرة: اعرضوا أنتم أولاً كل ما عندكم من طاقة مجتمعين، ثم سأريكم أنا قوة النبوة، وهكذا ألقى هؤلاء السحرة بعضيهم وجبالهم، فشعر سيدنا موسى عليه السلام كأنها ثعابين تتحرك هنا وهناك.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾

٤٢ - على أي حال، كان سيدنا موسى عليه السلام متيقناً من أن هذه العصي وهذه الجبال لن تستطيع إيذاؤه؛ لأن الله تعالى حاميه وناصره، ولكن حين خاف

سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاعْتِبَارِ مَقْتَضِيَّاتِ الْبَشَرِيَّةِ، طَمَأَنَّهُ اللَّهُ تَعَالَى قَائِلًا: لَا تَخَفْ، فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمُنْتَصِرُ لَا مُحَالَةً.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَفَى﴾

٤٣ - أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُلْقِيَ عَصَاهُ، وَهَكَذَا اسْتَحَالَتِ الْعَصَا إِلَى ثُعْبَانٍ ضَخْمٍ، وَابْتَلَعَ كُلَّ حِبَالٍ وَعَصِيٍّ السَّحَرَةِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ مَجْرَّدَ خِدَاعٍ بَصَرِيٍّ لَا أَكْثَرَ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْجَحَ السَّحَرُ فِي مُوَاجَهَةِ الْمَعْجَزَةِ.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾

٤٤ - عِنْدَمَا رَأَى السَّحَرَةُ مَعْجَزَةَ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَيَقَّنُوا أَنَّهُ لَيْسَ سَاحِرًا، لِهَذَا أَعْلَنُوا إِيمَانَهُمْ بِرَبِّ سَيِّدِنَا هَارُونَ وَسَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَخَرُّوا سَاجِدِينَ لِلَّهِ دُونَ اخْتِيَارٍ مِنْهُمْ، وَكَأَنَّ مَعْجَزَةَ الْعَصَا وَمَعْرِفَةَ الْحَقِّ هِيَ الَّتِي أَجْبَرَتْهُمْ عَلَى أَنْ يَخْرُجُوا سَاجِدِينَ.

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ أَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ، لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَ بِأَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾

٤٥ - قَالَ فِرْعَوْنُ: إِنِّي أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى، لِمَاذَا آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ أَاذَنَ لَكُمْ؟ يَبْدُو أَنَّكُمْ تَعَلَّمْتُمُ السِّحْرَ مِنْهُ، وَتَأَمَّرْتُمْ عَلَى حُكُومَتِي، وَانْهَضْتُمْ عَنْ عَمْدٍ أَمَامَ مُعَلِّمِكُمْ، وَلِهَذَا سَوْفَ أَقْطَعُ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ، وَسَأُعَلِّقُكُمْ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ، وَعِنْدَئِذٍ سَتَعْرِفُونَ إِنْ كَانَ عَذَابُ رَبِّ مُوسَى أَشَدَّ أَمْ عَذَابِي أَنَا.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

٤٦ - بِالرَّغْمِ مِنَ التَّهْدِيدِ الْخَطِيرِ مِنْ جَانِبِ الْفِرْعَوْنِ، إِلَّا أَنَّ السَّحَرَةَ قَالُوا لَهُ:

لا يمكننا أن نُفضِّلَكَ على ذلك الربِّ الذي خَلَقَنَا وهدانا بعد أن شاهدنا المعجزات، لهذا عاقبنا بما تشاء، وتذكَّر أنك تستطيع أن تؤذينا في هذه الحياة فقط، وسوف تنتهي سُلْطَتُكَ بموتك، وستُبتلى أنتَ نفسُك بعذابٍ لكُفْرِكَ، لكنَّ الله تعالى باقٍ خالدٌ دائمٌ، ولو ظللنا نَعْصِي خالقنا الحقيقي، فإنه قادرٌ على أن يعاقبنا بعد الموتِ أيضًا.

﴿إِنَّا أَنَا مَنَابِرِنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾

٤٧ - كان السَّحَرَةُ مُسْتَعِدِّينَ لِلْمُوَاجَهَةِ بِدَايَةٍ طَمَعًا فِي الْمَكَافَأَةِ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا مُعْجَزَاتِ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَفَضُوا الْمُوَاجَهَةَ، مِثْلَمَا يَرَوِي الْعَلَامَةُ سَيِّدُ مُحَمَّدٍ الْأَلُوسِيُّ أَنَّهُ حِينَ اسْتَدْعَى الْفِرْعَوْنَ السَّحَرَةَ لِمُوَاجَهَةِ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُ السَّحَرَةُ: نَرِيدُ أَنْ نَرَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلًا وَهُوَ نَائِمٌ، وَبِالْفِعْلِ أُتِيحَتْ لَهُمْ هَذِهِ الْفُرْصَةُ، فَرَأَوْا سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَائِمًا وَعَصَاهُ تَحْرُسُهُ، فَلَمَّا رَأَى السَّحَرَةُ هَذَا قَالُوا الْفِرْعَوْنَ: إِنَّ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ سَاحِرًا؛ لِأَنَّ السَّاحِرَ إِذَا نَامَ تَعَطَّلَ سِحْرُهُ أَيْضًا، لَكِنَّ الْفِرْعَوْنَ أَجْبَرَهُمْ عَلَى الْمُوَاجَهَةِ^(١)، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ اسْتَمَعَ السَّحَرَةُ إِلَى وَعْظِ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمِيدَانِ زَادَ إِحْسَاسُهُمْ بِأَنَّهُ لَيْسَ سَاحِرًا، وَإِنَّمَا نَبِيٌّ، وَمُوَاجَهَةُ النَّبِيِّ لَيْسَتْ جَيِّدَةً، لَكِنَّهُمْ اضْطُرُّوا إِلَى مُوَاجَهَتِهِ خَوْفًا مِنَ الْفِرْعَوْنَ، وَحِينَ ابْتَلَعَتِ الْعَصَا الْمُعْجِزَةُ حِبَالَهُمْ عَلَى الْإِعْلَانِ وَبَوْضُوحٍ تَامٍ آمَنَ السَّحَرَةُ، حَتَّى يَغْفِرَ اللَّهُ تَعَالَى خَطَايَاهُمْ، وَبِصِفَةِ خَاصَّةٍ خَطَأَ السَّحَرِ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَأْتُونَ لِمُوَاجَهَةِ الْمُعْجِزَةِ.

(١) «إنه أكرههم على المعارضة حيث روي أنهم قالوا له: أرنا موسى نائمًا، ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا: ما هذا بسحر فإن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه». روح المعاني.

إيمان السيدة آسية زوجة الفرعون رضي الله عنها:

يقول العلامة القرطبي في تفسير هذه الآية: «وكانت امرأة فرعون تسأل: مَنْ غَلَبَ؟ فقيل لها: غَلَبَ موسى وهرون، فقالت: آمَنْتُ بِرَبِّ موسى وهرون. فأرسل إليها فرعون فقال: انظروا أعظمَ صخرة، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت منزلها في الجنة، فمضت على قولها فانتزع روحها، وألقيت الصخرة على جسدها وليس في جسدها روح»^(١).

دور المرأة في الإسلام:

١ - السيدة خديجة الكبرى أم المؤمنين رضي الله عنها: اتفق أهل العلم على أن أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها هي أول من آمن بسيدنا محمد ﷺ^(٢).

وكان هناك اثنان من الصحابة الكرام رضي الله عنهم جميعاً أنفقاً كل ما يملكان في سبيل الدعوة إلى الإسلام، وهما: أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى رضي الله عنها، وسيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد كان كلاهما من الأثرياء قبل أن يسلموا، وحين انتقلا إلى رحمة الله تعالى لم يكن لديهما شيء^(٣).

٢ - السيدة سمية رضي الله عنها: كانت السيدة سمية رضي الله عنها أول من نالت سعادة الشهادة في الإسلام، ولمزيد من التفصيل عن استشهادها راجع الآية رقم ١٠٦ من سورة النحل (١٦)، وكذا الحاشية رقم ٧٩ أيضاً.

(١) تفسير القرطبي.

(٢) «اختلف العلماء في أول من أسلم، مع الاتفاق على أن خديجة أول خلق الله إسلاماً». الكامل، ابن الأثير، ٢: ٣٧، والسيرة النبوية، ابن هشام، ١: ٢٢٤.

(٣) ضياء النبي، ٢: ٤٣٠.

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾

٤٨ - ستكون جهنم عاقبة المجرم في حق الله تعالى، يعني: الكافر، ولن تكون حياته في جهنم مما يمكن أن يتتبع بها، بسبب العذاب الشديد، وإنما سيكون الموت أفضل من حياته هذه ألف مرة، إذ في هذه الحالة يتخلص من العذاب، لكن لا وجود للموت هناك، ولهذا ما أعجب حال أهل جهنم! لا يموتون فيستريحوا، ولا يتمنون الحياة، وإنما سيعيشون أذلاء مهانين في صراع بين الحياة والموت.

﴿وَمَن يَأْتِهِ مَوْمِنًا فَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾

٤٩ - الذين يؤمنون بالله تعالى ويعملون الصالحات، بمعنى: أنهم يتبعون عن العقائد الفاسدة والأعمال السيئة، هؤلاء لهم الدرجات العلى، وسيخلدون في جنات عدن إلى أبد الأبد.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أُنْجِيتُكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ! لِمَ يَبْعِدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا

مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَتْهَا فكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾

٥٠ - عندما لم يؤمن فرعون، ولم يُقدِّم على تحرير بني إسرائيل أيضًا، أمر الله تعالى سيِّدنا موسى عليه السَّلام أن اضْطَحِبْ بني إسرائيلَ معَكَ وهاجِرْ من مِصرَ لَيْلًا، وحين تصلُ إلى ساحل البحر، اضربه بعصاك، وسيَنشَقُّ لك في البحر طريقٌ، وحينئذٍ اعْبُرِ البحرَ من هذا الطريقِ بلا خوفٍ أو تردُّدٍ، وهكذا فَعَلَ سيِّدنا موسى عليه السَّلام، وحين تَبَعَ فرعونُ وجنوده على هذا الطريقِ غَرِقُوا جميعًا في البحر.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ، وَمَا هَدَىٰ﴾

٥١ - يُعَلِّمُ منه أَنَّ القائدَ الذي يكونُ ضالًّا في ذاته، إِنَّمَا يُضِلُّ قَوْمَهُ وَمَنْ يَتَّبِعُونَهُ، مثلَمَا غَرِقَ فرعونُ نفسه، وأَغْرَقَ قَوْمَهُ معه.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَبْغَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾

٥٢ - في هذه الآية ذَكَرَ الله تعالى بني إسرائيلَ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، أي: أَنَّهُ نَجَّاكُمْ من مظالم الفِرْعَوْنِ، وَوَعَدَ سيِّدنا موسى عليه السَّلامُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ التَّوْرَةُ فَوْقَ جَبَلِ الطُّورِ بَغَرَضٍ هِدَايَتِكُمْ، وَأَنْزَلَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى طَعَامًا لَكُمْ، حَتَّى تَشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى. ولمزيد من التفصيل عن المَنَّاءِ وَالسَّلْوَى راجع الآية رقم ٥٧ من سورة البقرة (٢)، وكذا الحاشية رقم ٤٧ أيضًا.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾

٥٣ - كُلُوا الطَّيِّبَ من الأشياء، ولا تتجاوزوا الحدَّ، بمعنى: أن لا تُسْرِفُوا في تناول الحلال، وتجنَّبوا تناول الحرام، وإلا هلكتم ودمركم الله تعالى.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾

٥٤ - الله تعالى غفورٌ رحيم، لكنَّ مَنْ يستحقُّ مغفرتَه هو ذلك الذي يتوبُ إليه من العصيان، ويؤمنُ به تعالى، ويعملُ صالحًا، ويستقيمُ على الهداية.

﴿وَمَا أَعَجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ﴾

٥٥ - بعد أن نجا سيِّدنا موسى عليه السَّلام من الفرعون أسرعَ متَّجِّهاً إلى جبل الطُّور لتلقِّي التَّوراة، فسألهُ الله تعالى: يا موسى، لمَ تركتَ قومَكَ وجئتَ مُسرَّعاً؟ فقال سيِّدنا موسى عليه السَّلام: إنَّ قَوْمِي خَلَفِي بِالْقُرْبِ مِنِّي، وقد جئتُ مُسرَّعاً شوقاً للقائك، حتى ترضى عني وأنال رضاك.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾

٥٦ - قال الله تعالى لسيِّدنا موسى عليه السَّلام: بعد أن أتيتَ إلى هنا ابتَلينا قومَكَ بفتنةٍ، وقد أضلَّهُم السَّامِرِيُّ.

تربية السامري:

المشهور أنَّ اسمَ السَّامِرِيِّ كان: موسى بن ظُفر، وَيُنْقَلُ العَلَّامةُ سيِّد محمود الألويسيُّ روايةً عن سيِّدنا ابن عباس رضي الله عنهما أنه عندما وُلِدَ السَّامِرِيُّ كان

الفرعونُ قد أمرَ بقتل كلِّ حديثي الولادة في مصر، فقامت أمُّ السَّامريِّ بوضعه في غارٍ في غابةٍ لإنقاذه من القتل، وأغلقت فتحة الغار بحجرٍ (حتى لا يراه أحدٌ، وظلَّت هي تتحسَّس الأخبارَ بينَ الفئنةِ والأخرى)، وكان سيِّدنا جبريلُ عليه السَّلامُ يأتي بالطعام للسَّامريِّ في الغارِ بأمرِ الله تعالى، وهكذا تربَّى السَّامريُّ في الغارِ ونشأ فيه^(١)، لكنَّه لما كبرَ بلغتْ به التَّعاسةُ أنْ أصبحَ سببًا في إضلالِ قومه جميعًا، وقد عبَّرَ أحدُ الشعراءِ عن هذا الأمرِ فقال:

إذا المرءُ لم يُخلَقْ سعيدًا تحيَّرتُ عقولُ مريِّيه وخاب المؤمِّلُ
فموسى الذي ربَّاه جبريلُ كافرٌ وموسى الذي ربَّاه فرعونُ مُرسَلٌ^(٢)

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَفْقَهُمُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾

٥٧ - أنزل اللهُ تعالى التَّوراةَ على سيِّدنا موسى عليه السَّلامُ بعدَ أربعينَ يومًا، وقال له: بعدَ مجيئك إلى هنا عبَدَ قومُك العِجلَ. فغَضِبَ سيِّدنا موسى عليه السَّلامُ كثيرًا، وغَيِمَ الحزنُ على قلبه، وعاد إلى قومه، وقال لهم: لقد وَعَدَ اللهُ تعالى أنْ يُنَزِّلَ التَّوراةَ لهدايتكم، وحينَ ذهبتُ إلى جبلِ الطُّورِ لتلقِّي التَّوراةَ أخذتُ منكم وعدًا أنْ تستقيموا على طاعةِ الله تعالى بعدي بقيادةِ سيِّدنا هارونَ عليه السَّلامُ، ولكنْ للأسفِ الشَّدِيدِ أنكم في خلالِ الأربعينَ يومًا كنتم قد أخلفتم ما وعدتُموني به، وأخذتم تُعبُدونَ العِجلَ، فهل مَضَتْ على ذهابي من هنا فترةٌ طويلةٌ بحيث

(١) «عن ابن عباس، أن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غار وأطبقت عليه، فكان جبريل عليه السلام يأتيه فيغذوه بأصابعه في واحدة لبنًا وفي الأخرى عسلًا، وفي الأخرى سمنا، ولم يزل يغذوه حتى نشأ». تفسير روح المعاني.

(٢) تفسير روح المعاني.

أَنْكُمْ يَسْتُمْ مِنْ عَوْدَتِي إِلَيْكُمْ، أَمْ أَنْ حَظَّكُمْ التَّعَسَّ تَغْلَبَ عَلَيْكُمْ، وَأَرَدْتُمْ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ؟

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾

٥٨ - قال بنو إسرائيل لسيّدنا موسى عليه السّلام: إنّنا لم نُخْلِفْ وَعْدَنَا مَعَكَ بِإِرَادَتِنَا أَوْ عَامِدِينَ، فَلَقَدْ غَرَّرَ بِنَا السَّامِرِيُّ، فَأَلْقَيْنَا بِحُلَيْنَا فِي النَّارِ، فَانْصَهَرَتْ، وَصَنَعَ مِنْهَا السَّامِرِيُّ تِمثَالًا عَلَى شَكْلِ عِجَلٍ، وَأَحْدَثَ فِيهِ ثُقْبًا إِذَا مَرَّ الْهَوَاءُ فِيهِ أَحْدَثَ صَوْتًا يَشْبَهُ صَوْتَ الْعِجَلِ (وَيُمْكِنُكَ الرَّجُوعُ فِي هَذَا أَيْضًا إِلَى الْحَاشِيَةِ رَقْم ٧٥ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٧))، وَلَمَّا صَدَرَ صَوْتُ الْعِجَلِ مِنْ هَذَا التَّمثالِ الْجَامِدِ الَّذِي لَا رُوحَ فِيهِ وَسَمِعُوهُ هَتَفُوا دُونَ اخْتِيَارٍ مِنْهُمْ: هَذَا هُوَ الْمَعْبُودُ الْأَصْلِيُّ، وَلَقَدْ أَخْطَأَ سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَهَابِهِ إِلَى الطُّورِ بَاحْتًا عَنِ الْمَعْبُودِ.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾

٥٩ - مَا أَعْجَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ! فَلَمْ يُفَكِّرُوا مَجَرَّدَ التَّفَكِيرِ أَنَّ هَذَا التَّمثالَ الَّذِي لَا رُوحَ فِيهِ، وَالَّذِي صَنَعُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ، لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يُجِيبَ عَنْ كَلَامِ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ أَوْ يَضُرَّهُمْ.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَقَوْمٍ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿١٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿١١﴾ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ

فَرَقَتْ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفُقْ قَوْلِي ﴿١٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِعُرِي ﴿١٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي
نَفْسِي ﴿١٦﴾ فَكَأَنَّمَا أَفْهَمْتُكَ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ
وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١٧﴾
إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٨﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ
مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٢٠﴾
خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿٢٢﴾
يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٢٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ
لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿٢٤﴾

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا
أَمْرِي ﴾

٦٠ - حينَ أخذَ بنو إسرائيلَ يعبدونَ العِجلَ بعدَ ذهابِ سيِّدنا موسى عليه
السَّلامُ إلى جبلِ الطُّورِ، قالَ لهم سيِّدنا هارونُ عليه السَّلامُ: لقد فُتِنْتُمْ بعبادةِ العِجلِ،
فهو ليسَ برَبِّكم، وإنَّما ربُّكم هو الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وهو الذي نَجَّاكم من استعبادِ
الفرعونَ لكم.

﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾

٦١ - ردَّ بنو إسرائيلَ على سيِّدنا هارونَ عليه السَّلامُ قائِلينَ: إنَّهم سيظلُّونَ
قائمينَ على عبادةِ هذا العِجلِ في الوقتِ الراهنِ إلى أن يعودَ سيِّدنا موسى عليه
السَّلامُ، وعندها سنرى ماذا يكونُ الموقفُ.

﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَذَلَّتْ بَصَرًا ۚ أَلَا تَتَّبِعُنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾

٦٢ - حين عاد سيدنا موسى عليه السلام من جبل الطور ورأى بني إسرائيل يعبدون العجل، اعتراه غضب شديد غيرة على الدين، وأمسك برأس سيدنا هارون عليه السلام وبلحيته قائلاً: لماذا لم تتركهم وتأت خلفي عندما رأيتهم قد ضلوا، ولو أن هؤلاء الناس اختاروا الضلال في وجودي، ولم يرتدعوا عنه رغم منعي إياهم، لحاربتهم، وإذا لم تكن لدي الطاقة على ذلك لأعزلتهم، لكنك لم تفعل حتى واحداً من هذين الأمرين، وخالف بذلك توقعاتي منك.

ويقول حكيم الأمة المفتي أحمد يار خان نعيمى في تفسير هذه الآية: يُعلم منه أن اللحية يجب أن تكون قدر قبضة، بمعنى أن يمكن للأصابع الأربعة أن تقبض عليها، وهذه هي سنة الأنبياء، وكان النبي ﷺ يخلل ما بين شعر لحيته أثناء الوضوء، وتخليل اللحية ممكن إذا ما كانت طويلة^(١).

- يقول سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما: إن النبي ﷺ قال: «خالفوا المشركين، وفرّوا اللحى، وأحفوا الشوارب»^(٢)، وكان سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما إذا ما حج أو اعتمر أمسك بلحيته، وقص ما زاد منها على قبضة يده.

- يقول سيدنا جابر بن سمرة رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ قد شَمِطَ مُقَدَّم رَأْسِهِ وَلَحِيَّتِهِ... وكان كثير شعر اللحية»^(٣).

- يقول سيدنا يزيد الفارسي: «رأيت رسول الله ﷺ في التَّوَمِّ زَمَنَ ابْنِ عَبَّاسٍ...

(١) تفسير نور العرفان.

(٢) البخاري، كتاب اللباس، باب ٦٤ برقم ٥٨٩٢.

(٣) مسلم، كتاب الفضائل، باب ٣٠ برقم ٦٠٨٤.

قد مَلَأْتُ لِحِيَّتَهُ، مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ، حَتَّى كَادَتْ تَمَلَأُ نَحْرَهُ»^(١).

- يَروِي سَيِّدُنَا شُعَيْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأْخُذُ مِنْ لِحْيَتِهِ مِنْ عَرْضِهَا وَطَوْلِهَا»^(٢)، يَعْنِي: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْخُذُ مِنْ لِحْيَتِهِ طَوْلًا وَعَرْضًا.

- يَقُولُ سَيِّدُنَا عِثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُخَلِّلُ لِحْيَتَهُ»^(٣).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا تَوَضَّأَ أَخَذَ كَفًّا مِنْ مَاءٍ فَأَدْخَلَهُ تَحْتَ حَنَكِهِ فَخَلَّلَ بِهِ لِحْيَتَهُ وَقَالَ: هَكَذَا أَمَرَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ»^(٤).

- يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو مَعْمَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قُلْنَا لِحَبَّابٍ: هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْنَا: بِمَ كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ ذَلِكَ؟ (باعتبار أن القراءة في صلاتي الظهر والعصر ليست جَهْرِيَّةً) قَالَ: بِاضْطِرَابِ لِحْيَتِهِ»^(٥)، يَعْنِي: أَنَّنَا كُنَّا نَعْرِفُ مِنْ حَرَكَةِ لِحْيَتِهِ ﷺ أَنَّهُ يَقْرَأُ، وَيُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّ طَوْلَ لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يَكُنْ أَقْلَ مِنْ قَبْضَةٍ؛ لِأَنَّ اللَّحْيَةَ الْقَصِيرَةَ لَا تَهْتَرُ أَثْنَاءَ الْقِرَاءَةِ.

- «وَالسُّنَّةُ فِي اللَّحْيَةِ: الْقَبْضَةُ»^(٦)، وَيَروِي مُحَمَّدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ «الْأَثَارِ»، عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «وَأَمَّا اللَّحْيَةُ فَذَكَرَ مُحَمَّدٌ فِي «الْأَثَارِ» عَنِ الْإِمَامِ أَنَّ السُّنَّةَ أَنْ يَقَطَعَ مَا زَادَ عَلَى قَبْضَةِ يَدِهِ»^(٧).

(١) مسند أحمد، ١: ٣٦١.

(٢) الترمذي، أبواب الأدب، باب ١٧ برقم ٢٧٦٢.

(٣) الترمذي، أبواب الطهارة، باب ٢٣ برقم ٣١.

(٤) أبو داود، كتاب الطهارة، باب ٥٧ برقم ١٤٥.

(٥) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ١٢٤ برقم ٨٠١.

(٦) الدر المختار، كتاب الحظر والإباحة، فصل في البيع، ٦: ٤٠٧.

(٧) حاشية الطحاوي، باب الجمعة.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾

٦٣ - بدأ سيّدنا هارون عليه السّلام في جوابه على سيّدنا موسى عليه السّلام بهذه الألفاظ لكي يهدّئ من غضبه، فقال: يا ابن أمّي، بمعنى: أنّي لست مُخالفاً لك، وإنما أنا أخوك، ولقد حاولتُ كثيراً إعادة بني إسرائيل إلى التوحيد، قلتُ لهم: اتّبعوني، وارجعوا عن عبادة العجل، فحاول أكثرهم قتلي، ولم يبقَ معي سوى طائفة قليلة، وسواء قاتلتهم، أم اضطّحتُ هذه الطائفة القليلة وأتيتك، فإنّ بني إسرائيل كانت ستقسم إلى فئتين، وعندها كنت ستقول لي: إنك فرّقت بين بني إسرائيل، لهذا اعتبرتُ أنّ من الحكمة أن أنتظر عودتك، فمن الممكن أن يرجع هؤلاء إلى التوحيد بإفهامك لهم. ورغم أنه كان هناك اختلاف في الرأي بين سيّدنا موسى وسيّدنا هارون عليهما السّلام حول كيفية حلّ هذه المسألة، ولكنّ مقصد كلّ منهما ومهمّته كانت واحدة، وهي أن يترك بنو إسرائيل عبادة العجل ويعودوا إلى التوحيد، واختلافات أهل العلم عادة تكون بهذا الشكل، ولهذا لا يمكن أن نقول: إنّ أحدهما كان على خطأ.

عندما سمع سيّدنا موسى عليه السّلام الجواب التفصيلي من سيّدنا هارون عليه السّلام هداً غضبه وسكن، ودعا الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وكان الهدف من هذا الدّعاء أن يتمّ تلافي نتائج تصرّفه القاسي مع أخيه، ولا يجد الأعداء فرصة للطعن عليهما بأنّ الأخوين يتشاجران معاً.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ ۚ ٩٥ ﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۖ

٦٤ - سأل سيّدنا موسى عليه السّلام السّامريّ: ما هذه الفتنة التي أثرتّها؟ فأجابه السّامريّ: ذات مرّة رأيت سيّدنا جبريل عليه السّلام يمتطي فرساً، وحيثما وَضَعْتُ فرسه قَدَمَهَا على التراب اليابس نَبَتَ العُشْبُ الأخضر، وقد رأيتُ أنا هذا الأمرَ بنفسِي مصادفةً، ولم يَلْتَفِتِ الناسُ إلى هذا الأمر، فَفَهِمْتُ أَنَّ هناك شيئاً خاصّاً لَقَدَمِ هذه الفرسِ في التراب^(١)، وهكذا احتَفَظْتُ بقبضةٍ من هذا الترابِ عندي، وعندما وَضَعْتُ هذا الترابَ في ذلك التَّمثالِ خَرَجَ منه صوتٌ يشبهُ صوتَ العِجَلِ، وهو ما كان سبباً في هذه الفتنة^(٢).

وقد نَقَلَ القرآنُ الكريمُ جوابَ السّامريّ هذا، لكنّه لم يُوَكِّدْهُ، وقد مرَّ من قبلُ توجيهٌُ لكيفيّةِ صدورِ صوتِ العِجَلِ، بأنّ السّامريّ أَدْحَثَ ثُقباً في التَّمثالِ، بحيث إذا مرَّ الهواءُ منه خَرَجَ منه صوتٌ يُشَبِّهُ صوتَ العِجَلِ، والصَّنَاعُ في كلِّ زمانٍ يَخْتَرِعُونَ مثلاً هذه الأمور، بحيث يمكنُ أن يَصْدُرَ عن الأجسام التي لا رُوحَ فيها أصوات، وعندنا اليومَ مئاتُ اللَّعبِ بهذا الشكل، وتُصدِرُ أصواتاً لحيواناتٍ وطيورٍ مختلفة.

﴿ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ ۖ ﴾

٦٥ - أَخْبَرَ سيّدنا موسى عليه السّلام السّامريّ بالعاقبةِ الوخيمة، وأخْرَجَهُ من بلاطه، وهكذا نَزَلَ عليه عذابٌ في حَيَاتِهِ بأنّه إذا لَمَسَهُ أَحَدٌ يَدَهُ أَصَابَتْ الاثْنَيْنِ

(١) «قال موسى عليه السلام للسّامري: فما شأنك يا سامري، وما الذي دعاك إلى ما فعلته؟ قال: إنه رآه كلما رفع الفرس يديه أو رجليه على التراب اليابس يخرج النبات فعرف أن له شأنًا». روح المعاني.

(٢) «عن ابن عباس، قال: قبض قبضة من أثر جبرائيل، فألقى القبض على حليهم فصار عجلًا جسدًا له خوار، فقال: هذا إلهكم وإله موسى». تفسير ابن جرير الطبري.

حُمَّى، ولهذا ظلَّ السامريُّ طيلةَ عُمُرِهِ يقول: ابتعدوا عني وإلا أصابَتْكم الحُمَّى، وبالتالي تَرَكَ النَّاسُ مخالطته والتعاملَ معه تمامًا، فخرَجَ إلى الصَّحراء وقضى بقيةَ عُمُرِهِ معَ الحيوانات، يعني: حَدَثَ له مثلما قال سيِّدنا موسى عليه السَّلام، وهكذا لن ينجو أبدًا من عذابِ الآخِرَةِ أيضًا.

وَيُعَلِّمُ مِنْهُ أَيْضًا أَنَّ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام كَانَ يَعْلَمُ عَاقِبَةَ السَّامِرِيِّ مِنْ أَنَّهُ سَيَمُوتُ عَلَى الْكُفْرِ، وَسَوْفَ يَواجُهُ الْعَذَابَ أَيْضًا.

﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾

٦٦ - في الجزء الأول من هذه الآية عَرَفَ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ السَّامِرِيَّ بِعَاقِبَتِهِ الْوَحِيمَةِ، وَفِي الْجِزْءِ الثَّانِي مِنَ الْآيَةِ عَرَفَهُ بِتَدْمِيرِ مَعْبُودِهِ الْمَزْعُومِ بِأَنَّهُ سَيُتِّمُ نَفْسَهُ وَإِحْرَاقَهُ وَالْقَاوَةَ فِي الْبَحْرِ فُورًا وَأَمَامَ عَيْنَيْهِ، حَتَّى يَعْلَمَ مِنْ يَعْبُدُونَهُ أَنَّ الْمَعْبُودَ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ حِمَايَةَ نَفْسِهِ كَيْفَ يُمْكِنُهُ نَفْعُ الْآخَرِينَ.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾

٦٧ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، لَقَدْ أَعْطَيْنَاكَ الذِّكْرَ، أَي: الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ، وَالَّذِي يَحْتَوِي عَلَى قِصَصِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ الْإِسْلَامِيَّةِ، حَتَّى تَعْتَبِرَ بِهِ أُمَّتُكَ وَتَحْصُلَ مِنْهُ عَلَى النَّصَحِ.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾

٦٨ - الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، سَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ يَحْمِلُونَ عِبَاءَ كُفْرِهِمْ وَعَصْيَانِهِمُ الثَّقِيلِ، وَالَّذِي سَيَكُونُ مُؤْلَمًا لَهُمْ غَايَةُ الْإِيلَامِ، وَسَوْفَ يَتَنَوَّنَ تَحْتَ وَطْأَتِهِ إِلَى الْأَبَدِ.

﴿يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾

٦٩ - حين يَنْفُخُ سَيِّدُنَا إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الصُّورِ لَأَوَّلِ
مرة، سَيَمُوتُ الْجَمِيعُ، وَحِينَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ سَيَعُودُ الْجَمِيعُ إِلَى
الحَيَاةِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي مِيدَانِ الْحَشْرِ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَسْوَدُّ وَجُوهُ الْمُجْرِمِينَ، أَيِ:
الكَافِرِينَ، وَتَصْبُحُ عَيُونُهُمْ زُرْقًا بِسَبَبِ الْخَوْفِ وَالرُّعْبِ، وَسَيَكُونُونَ فِي غَايَةِ الْقَلَقِ
وَالْخَجَلِ.

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾

٧٠ - يَكَادُ هَؤُلَاءِ يَفْقِدُونَ حَوَاسَّهُمْ فِي هَذَا الْجَوِّ الرَّهيبِ لِمِيدَانِ الْحَشْرِ،
وَيَسِيشْعُرُونَ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا الطَّوِيلَةَ هَذِهِ كَانَتْ قَلِيلَةً لِلْغَايَةِ، وَسَيَتَهَا مَسُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ
قَائِلِينَ: إِنَّكُمْ لَبِثْتُمْ فِي الدُّنْيَا عَشْرَةَ أَيَّامٍ لَا أَكْثَرَ، بَيْنَمَا سَيَقُولُ أَكْثَرُهُمْ ذُكَاءً: إِنَّهَا لَمْ
تَكُنْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، بَلْ يَوْمًا وَاحِدًا فَقَطْ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ كَمْ
كَانَتِ الْمَدَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَكَمْ سَيَكُونُ حَدُّهُمْ.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا
عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا
تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفْعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ
مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾
وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾
فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ
زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا آلَ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا ﴿١١٥﴾

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾

٧١ - عندما كان يقال للكفار: إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَيَفْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كانوا يسألون: أين ستذهب هذه الجبال الرّواسي الشاهقة؟ فجاء الجواب في هذه الآية بأنّ الله تعالى قادرٌ مطلق، وستتطاير هذه الجبال وتتناثر بأقل إشارة من الله تعالى وتصبح كأنها العهن المنفوش أو ذرات التراب، ولن يبقى لها أثر مطلقاً.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾

٧٢ - حين تتطاير الجبال وتتناثر يوم القيامة كأنها ذرات الغبار، وتحف مياه البحار والأنهار والينابيع، عندئذ يجعل الله تعالى من الأرض ميداناً ممهداً ممتداً مستوياً، دون أن تكون فيه أي ارتفاعات أو انخفاضات.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾

٧٣ - في هذا الميدان الممتد الممهد يوم القيامة سينادي ملكٌ، وعندئذ سيتبعه الناس جميعاً، ولن يتخلف أحدٌ منهم أو يشرد هنا أو هناك، وسوف يعم الصمت والشكوت في كل اتجاه بسبب جلال الله تعالى والخوف منه ورهبة الموقف، ولن يسمع شيء غير الهمس العادي وأصوات الأقدام.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾

٧٤ - يوم القيامة لن يشفع أحد سوى أولئك الذين يسمع الله لهم بذلك، وسوف يشفعون لمن كان إسلامهم عند الله مقبولاً، ومن الذين سيسمح لهم بالشفاعة يوم القيامة: الأنبياء والعلماء والشهداء والحفاظ والمؤمن الصالح والقرآن ورمضان والأطفال الصغار ذكورا وإناثا، وغيرهم.

بعض الأحاديث المتعلقة بالشفاعة:

١ - يقول سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إنّ رسول الله ﷺ قال: «لكلّ نبيّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجّل كلّ نبيّ دعوته، وإنّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله من مات من أمتي لا يُشركُ بالله شيئاً»^(١).

٢ - يقول سيّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: سألتُ النبيّ ﷺ أن يشفعَ لي يومَ القيامة، فقال: «أنا فاعلٌ». قال: قلتُ: يا رسولَ الله، فأين أطلبُك؟ قال: «أطلبُني أوّلَ ما تطلبُني على الصّراط». قال: قلتُ: فإن لم ألقَك على الصّراط؟ قال: «فاطلبُني عندَ الميزان». قلتُ: فإن لم ألقَك عندَ الميزان؟ قال: «فاطلبُني عندَ الحوضِ، فإنّي لا أخطئُ هذه الثّلاثَ المواطنِ»^(٢).

٣ - يقول سيّدنا أبو أمامة رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «وعدّني ربّي أن يُدخِلَ الجنّةَ من أمتي سبعين ألفاً لا حسابَ عليهم ولا عذابَ، مع كلّ ألفٍ سبعون ألفاً»^(٣).

٤ - روي عن سيّدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «يشفعُ يومَ القيامة ثلاثَةٌ: الأنبياءُ ثمّ العلماءُ ثمّ الشّهداء»^(٤).

٥ - قال رسولُ الله ﷺ: «يشفعُ عثمانُ بن عفّان يومَ القيامة في مثلِ ربيعةٍ ومُضَرٍ»^(٥).

-
- (١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٦ برقم ٣٣٨.
 (٢) الترمذي، أبواب صفة الجنّة، باب ٩ برقم ٢٤٣٣.
 (٣) الترمذي، أبواب صفة الجنّة، باب ١٢ برقم ٢٤٣٧.
 (٤) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٤٣١٣.
 (٥) الترمذي، أبواب صفة الجنّة، باب ١٢ برقم ٢٤٣٩.

٦ - يقول سيّدنا عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الصَّيَّامُ وَالْقِرَاءُ يُشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصَّيَّامُ: أَيُّ رَبِّ، مَنْعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَقَّعَنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقِرَاءُ: مَنْعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَقَّعَنِي فِيهِ»، قال: «فِيُشَفَّعَانِ»^(١).

٧ - سَمِعَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّهُ يُقَالُ لِلْوِلْدَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ». قال: «فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، حَتَّى يَدْخُلَ آبَاؤُنَا وَأُمَّهَاتُنَا»، قال: «فَيَأْتُونَ»، قال: «فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَا لِي أُرَاهُمْ مُحْبَنَطَيْنِ؟ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ»، قال: «فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، آبَاؤُنَا»، قال: «فَيَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ»^(٢).

٨ - رُوِيَ عَنْ سَيِّدِنَا عُمَرَ الْفَارُوقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ زَارَ قَبْرِي كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا، وَمَنْ مَاتَ فِي إِحْدَى الْحَرَمَيْنِ بَعَثَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَمْنَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

ولمزيد من التفصيل عن الشّفاعَةِ راجع الحاشية رقم ٧٨ من سورة يوسف (١٢)، والحاشية رقم ٧ من سورة الحجر (١٥)، والحاشية رقم ٨١ من سورة الإسراء (١٧)، والحاشية رقم ٥٩ من سورة مريم (١٩).

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾

٧٥ - اللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ مِنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّحَ لَهُ بِالشَّفَاعَةِ؛ لِأَنَّ

(١) مسند أحمد، ٢: ١٧٤.

(٢) مسند أحمد، ٤: ١٠٥.

(٣) كنز العمال، ٥: ١٣٥ برقم ١٢٣٧١.

عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِمَاضِي النَّاسِ وَمُسْتَقْبَلِهَا وَكُلُّ أَحْوَالِهَا، فِي حِينٍ أَنَّ عِلْمَ النَّاسِ مُحَدُودٌ تَمَامًا، وَلِهَذَا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْإِحَاطَةَ بِعِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾

٧٦ - حِينَ تُنْصَبُ عَدَالَةُ اللَّهِ تَعَالَى الْقَادِرِ الْمَطْلُوقِ الْحَيِّ الْقَيُّومِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، سَيُخَنِي النَّاسُ جَمِيعًا جِبَاهَهُمْ أَمَامَ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَكِبَرِيَّاتِهِ، وَلَنْ يَكُونَ أَحَدٌ مُتَكَبِّرًا، وَسَوْفَ يَفْشَلُ - فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَقِينًا - ذَلِكَ الَّذِي اخْتَارَ الظُّلْمَ، أَيِ: الشَّرْكَ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ الشَّرْكَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ لَيْسَ هُنَاكَ مَجَالٌ لِلْعَفْوِ عَنْهُ.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾

٧٧ - مَنْ يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ وَيَكُونُ مُؤْمِنًا لَنْ يَخْشَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظُلْمًا وَلَا خَسَارَةً؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ هُوَ يَوْمُ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، وَلَنْ يُظْلَمَ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذِرُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾

٧٨ - لَقَدْ أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، حَتَّى يَسْتَطِيعَ أَوَّلُ الْمُخَاطَبِينَ بِهِ - وَهُمْ الْعَرَبُ - فَهَمَّهُ بِسَهُولَةٍ، كَمَا أَنَّا بَيَّنَّا فِيهِ - وَبَطَّرِقَ عِدِيدَةً - عِقَابَ الْجَرَائِمِ الْمُخْتَلِفَةِ، حَتَّى يَفْهَمَ النَّاسُ حَقِيقَةَ تِلْكَ الْجَرَائِمِ، وَيَتَجَنَّبُوا ارْتِكَابَهَا.

﴿فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾

٧٩ - رَوَى أَبُو صَالِحٍ، عَنْ سَيِّدِنَا ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، «أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَأْتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالسُّورَةِ وَالْآيِ فَيَتْلُوها عَلَيْهِ، فَلَا يَفْرُغُ جِبْرِيلُ مِنْ آخِرِهَا حَتَّى يَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَوَّلِهَا مُخَافَةً أَنْ يَنْسَاهَا، فَزَلْتُ هَذِهِ

الآية»^(١)، يعني: لا تتعجل، ودع سيدنا جبريل عليه السلام يقرأ الآية أو السورة كلها، واسمعها أنت جيّدًا، ونحن سنحفظها في قلبك؛ لأننا نحن الذين أنزلنا القرآن الكريم، ونحن الذين سنحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

٨٠ - روي عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ»^(٢).

ويقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: «أشرفُ العبادةِ الدُّعَاءُ»^(٣).

وقد رَغِبَ اللهُ تعالى - في الجزء الأخير من هذه الآية - رسول الله ﷺ في الدُّعَاءِ من أجل الزيادة في العلم: ولهذا فإن من دعاء النبي ﷺ أيضًا: «اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»^(٤).

وَيَنْقُلُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ هَذَا الْقَوْلَ لَابْنِ عُيَيْنَةَ: «وَلَمْ يَزَلْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي زِيَادَةٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(٥)، بل إنَّ عِلْمَهُ وَفَضْلَهُ ﷺ فِي ازْدِيَادٍ مُسْتَمِرٍّ مِثْلَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤].

(١) تفسير زاد المسير لابن الجوزي.

(٢) الترمذي، أبواب الدعاء، باب ١ برقم ٣٣٧١.

(٣) الأدب المفرد، الإمام البخاري، ٢١٠.

(٤) ابن ماجه، المقدمة: باب ٢٣.

(٥) تفسير ابن كثير.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾

٨١- لو عصى أحدٌ حُكْمًا من أحكام الله تعالى بِمَحْضِ إِرَادَتِهِ وعن عَمْدٍ، فَإِنَّ هَذَا يُعَدُّ ذَنْبًا، ولكن إذا كان هذا العِصْيَانُ عن غيرِ عَمْدٍ ودونَ إِرَادَةٍ فلا يقالُ له: ذَنْبٌ، وقد أمرَ الله تعالى سَيِّدَنَا آدَمَ عليه السَّلَامُ أَنْ لا يقتربَ من تلك الشجرة، ولكن سَيِّدَنَا آدَمَ عليه السَّلَامُ أكلَ من ثمارِ الشجرة، ومعَ هذا لم يكن ذلك ذَنْبًا؛ لأنَّ الله تعالى قد وَضَّحَ هذا بقوله: إِنَّ آدَمَ قد نَسِيَ، ولم يَرْتَكِبْ هذا العِصْيَانُ بِإِرَادَتِهِ.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَتَّعِدُكُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعِدُكُمْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَجَرَةٍ أَخْلَدُ وَمُلْكٍ لَا يَبَلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْبَنَهُ رَبُّهُ فَلَبَّاهُ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا ابْنِ آدَمَ فَخُذْ هَذَيْنِ فَمِنْ بَيْنِ هَذَيْنِ فَلا يَصِلَا فَلا يَصِلَا وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَنتَ أَتَيْنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّعَى ﴿١٢٨﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾

٨٢- هل كان إبليسُ من الجنِّ أم من الملائكة، ولماذا رَفَضَ السجودَ لسيِّدنا

آدم عليه السلام؟ لمزيد من التفصيل راجع الآية رقم ١١ من سورة الأعراف (٧)، وكذا الحاشية رقم ١٠ أيضاً.

﴿فَقُلْنَا يَتَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾

٨٣ - قال الله تعالى: يا آدم عليه السلام، إن الشيطان عدوك وعدو زوجك، ولهذا ينبغي أن تحذره، فلا يخدعك ويخرجك من الجنة، فلن تشقى في الجنة من أجل الغذاء واللباس والإقامة، إذ إن كل شيء موجود فيها معدّ وجاهز، ولكن إذا نزلت إلى الأرض، فسوف تشقى وتحمل المصاعب في سبيل توفير هذه الضروريات للحياة.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾

٨٤ - قال الله تعالى: يا آدم عليه السلام، لن تجوع في الجنة ولن تعرى، ولن تظماً فيها ولن تلفحك الحرارة، وإنما ستجد أمانك على الفور كل ما تطلبه وتتمناه.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾

٨٥ - وسوس الشيطان في قلب سيدنا آدم عليه السلام بأنك إن أكلت من ثمار هذه الشجرة، فسوف يكتب لك الخلود والحياة التي لا تنتهي، وسوف يكون لك ملك لا يزول ولا يفنى.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءُ تُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَى﴾

٨٦ - وهكذا أكل الاثنان (سيدنا آدم والسيدة حواء عليهما السلام) من ثمار الشجرة، وكان نتيجة ذلك أن زال عنهما لباس الجنة، وانكشفت عوراتهما،

فَأَخَذَا يَسْتُرَانِ عَوْرَاتِهِمَا بِأُورَاقِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، وَهَكَذَا انْخَدَعَ سَيِّدُنَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِوَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ إِلَيْهِ فَعَصَى رَبَّهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَاةً عَنِ الْاقْتِرَابِ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ.

كَيْفَ انْخَدَعَ سَيِّدُنَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِوَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا ذَنْبًا، فَلِمَاذَا انْكَشَفَتْ عَوْرَاتُهُمَا إِذَا، وَلِمَاذَا أُخْرِجَا مِنَ الْجَنَّةِ؟ يُمَكِّنُكَ لِلتَّعَرُّفِ عَلَى هَذَا الرَّجُوعُ إِلَى الْآيَةِ رَقْمَ ١٩ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٧)، وَكَذَا الْحَاشِيَةُ رَقْمَ ١٤.

﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ، فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾

٨٧ - بَعْدَ الْخَطَا غَيْرِ الْمُتَعَمِّدِ مِنْ سَيِّدِنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَدِمَ عَلَيْهِ، وَظَلَّ يَبْكِي وَيَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ الْمَغْفِرَةَ، فَاخْتَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْقُرْبِ مِنْهُ ثَانِيَةً، وَقَبْلَ تَوْبَتِهِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالتَّوْفِيقِ الدَّائِمِ إِلَى الْهَدَايَةِ.

﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْغَى﴾

٨٨ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ قَبْلَ مَوْلِدِ سَيِّدِنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وَيُعَلِّمُ مِنْهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ سَيِّدَنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَصْلًا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَجْعَلَهُ خَلِيفَةً لِلَّهِ عَلَى الْأَرْضِ، لَكِنَّهُ أَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ لِبَتْلَاءِ مُؤَقَّتٍ أَوَّلًا، ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَبِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ أَخْبَرَهُ أَنَّ بَعْضَ أَوْلَادِكَ سَيَكُونُونَ أَعْدَاءَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَيَتَّبِعُ الْهَدَايَةَ الَّتِي تَنْزِلُ مِنْ عِنْدِي، وَسَيَعِيشُونَ فِي الدُّنْيَا بَعِيدِينَ عَنِ الضَّلَالِ، وَسَيَحْفَظُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ، وَسَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾

٨٩ - يقول العلامة ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾

أي: خالف أمري وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح ل صدره، بل صدره [ضيق] خرج ل ضلاله، وإن تنعم ظاهره، وليس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة^(١). ولهذا فإن كثيرا من الأغنياء يلجأون إلى تعاطي المخدرات والخمر من أجل التخلص من هذا الاضطراب والقلق، بل إن الحال يصل بال بعض منهم إلى الانتحار، ويعلم من هذا أن سكينه القلب وطمأنينته ليست في كثرة المال والثروة، وإنما في ذكر الله تعالى واتباع أحكامه.

وضيق العيش في الدنيا لا يعني - أبداً - أن العاصي لله تعالى يعيش في هذه الدنيا فقيراً ومصاباً، وإنما معناه أنه سواء كان هذا غنياً أم لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، فإنه لن ينال السكينه والطمأنينة؛ لأن من المعروف أن ضيق العيش في الدنيا والابتلاء بمصائبها وشدائدِها واجهه أهل الله وأولياؤه أيضاً، لكن قلوبهم كانت مطمئنة، وعلى سبيل المثال:

١ - يقول سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «أشد الناس بلائاً الأنبياء ثم العلماء ثم الأمثل فالأمثل»^(٢).

يروي سيدنا مصعب بن سعد رضي الله عنه، عن والده، قال: قلت: يا رسول الله،

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) المستدرک للحاكم، ٣: ٣٨٦ برقم ٥٤٦٣.

أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيُتْلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرَكَ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(١).

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾^(١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا^(١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَتَنَّا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيْكَ

٩٠ - سَيُيَعَثُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى كُلُّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَنْ أَحْكَامِهِ، وَعِنْدَئِذٍ سَيَقُولُ: يَا رَبِّ، لَقَدْ كُنْتُ فِي الدُّنْيَا بَصِيرًا، فَلِمَ حَشَرْتَنِي الْيَوْمَ أَعْمَى؟ وَسَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَلَا تَذَكَّرُ، أَلَمْ تَرَ آيَاتِ قُدْرَتِي؟ لَكِنَّكَ تَعَامَيْتَ عَنْهَا عَمْدًا، وَنَسَيْتَهَا بِإِرَادَتِكَ، وَعِقَابُ هَذَا أَنَّنِي جَعَلْتُكَ الْيَوْمَ مَنْسِيًّا. وَلَكِنَّ هَذَا سَيُيَقَى أَعْمَى مِنْذُ خُرُوجِهِ مِنَ الْقَبْرِ إِلَى الْحَشْرِ، ثُمَّ سَيُعَادُ إِلَيْهِ بَصَرُهُ حَتَّى يَتِمَكَّنَ مِنْ قِرَاءَةِ صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِ بِنَفْسِهِ، وَسَيَقُولُ الْمَلَكُ الَّذِي مَعَهُ: هَذِهِ (صَحِيفَةُ أَعْمَالِكَ) جَاهِزَةٌ وَمَكْتُوبَةٌ عِنْدِي: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ* وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ [ق: ٢٢-٢٣].

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾

٩١ - الَّذِي يَتَجَاوَزُ الْحَدَّ، وَلَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِ رَبِّهِ، سَيُيَقَىٰ مُحْرَمًا مِنْ سَكِينَةِ الْقَلْبِ أَيْضًا فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ سَيُوجَهُ عَذَابًا شَدِيدًا.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾

٩٢ - حِينَ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ يَسَافِرُونَ فِي تِجَارَتِهِمْ، وَيَرَوْنَ فِي طَرِيقِهِمْ مَسَاكِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الْمَدْمُورَةِ، لَمْ يَكُونُوا يَأْخُذُونَ مِنْهَا دَرْسَ عِبْرَةٍ بِأَنَّهُمْ لَوْ أَعْرَضُوا هُمْ

أيضاً عن أحكام الله تعالى، فمن الممكن أن ينزل عليهم العذاب مثلما نزل على الأمم العاصية من قبل.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلنَّفَّاثِ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ بَيْنَهُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِي ۚ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾

٩٣ - الله تعالى يُمهِّلُ كلَّ قوم ظالم لفترة معينة حتى يُصلحوا من أنفسهم، لكن إن لم يرجع هؤلاء القوم عن طغيانهم، عاقبهم الله تعالى على طغيانهم طبقاً للوقت المحدد لديه، فيعاقب البعض في هذه الدنيا، ويؤخر عقاب البعض إلى يوم القيامة، لكن الله تعالى أخر عقاب المنكرين للنبي ﷺ إلى الآخرة، مثلما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَهُمْ يَسْتَعْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]؛ لأن النبي ﷺ رحمة للعالمين جميعاً، ونزول العذاب يتنافى مع الرحمة، ولهذا لن ينزل العذاب على هؤلاء حال وجوده ﷺ، ولو لم يُمهِّل الله تعالى هؤلاء بفضل رحمته ﷺ، ولو لم يقرّر وقتاً معيناً من قبل، لأنزل عليهم العذاب فوراً، ولدمرهم وأهلكهم جميعاً.

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾

٩٤ - يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، اصْبِرْ على تكذيبِ المشركينَ لكَّ وعلى إيدائهم لكَّ، واستمرَّ في حَمْدِكَ لله تعالى والثناءِ عليه، وسوف يرتقي الإسلامُ سريعاً، وسوف تَرْضَى أنت أيضاً.

يقول العلامةُ الرازي: «فالأكثرُونَ على أنَّ المرادَ منه الصَّلَاة، وأنَّ الآيةَ تدلُّ على أنَّ الصَّلواتِ: الخمسُ لا أزيدَ ولا أنقصَ، فقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: دخلتِ الصَّلواتُ الخمسُ فيه، فقبلَ طُلُوعِ الشَّمسِ هو: صلاةُ الفجر، وقبلَ غروبِها هو: الظُّهر والعصر؛ لأنَّهما جميعاً قبلَ الغروب، ومن آناءِ اللَّيْلِ فسَبِّح: المغربُ والعشاءُ الأخيرة، ويكونُ قوله: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ كالتَّوكيد للصَّلَاتَيْنِ الواقعتينِ في طرفي النَّهارِ وهما: صلاةُ الفجرِ وصلاةُ المغربِ»^(١).

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَابْقَى ﴾

٩٥ - ينبغي أن يفخرَ كلُّ مسلمٍ بنعمةِ القرآنِ الكريمِ العظيمة، ولا يرغب أبداً إلى الزينةِ والجاهِ الظاهريِّ الذي يتمتَّع به العصاة؛ لأنَّ الله تعالى إنما أعطى هؤلاء هذا الجاهَ وهذه العظمةَ حتى يبتليهم، كما أنَّ هذا كلُّه ما هو إلَّا ربيعٌ لأيام قلائلَ، وسيكونُ مصيرُهم بعدَ ذلك جهنَّم، أما النِّعمُ التي سيُنعمُ الله تعالى بها على المسلمينَ في الآخرة، فهي الأفضلُ، وهي الخالدة.

يقول سيِّدنا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: دخلتُ على رسولِ الله ﷺ

وهو مضطجع على حصير، فجلست، فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحَصِيرُ قد أثر في جنبه، فنظرتُ ببصري في خزانة رسول الله ﷺ فإذا أنا بقُبْضَةٍ من شعير نحو الصَّاع ومثلها قرظًا في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلق - قال - فابتدرت عيناى قال: «ما يُيكِك يا ابن الخطاب؟». قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحَصِيرُ قد أثر في جنبك وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قِصْرُ وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته وهذه خزائنك؟ فقال: «يا ابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟»^(١).

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَقَةُ لِلنَّعْوَى﴾

٩٦ - يُعَلِّمُ من هذه الآية أنَّ على كلِّ مسلم أن يُقيمَ الصَّلَاةَ بنفسه، وأن يأمر زوجته وأطفاله بالصَّلَاةِ أيضًا، وألا ينهمك في كَسْبِ العيشِ لدرجةٍ يُحرِّمُ معها من الصَّلَاةِ؛ لأنَّ الرَّاظِقَ الْأَصْلِيَّ والحَقِيقِيَّ هو الله تعالى، وعاقبة من يخشى الله تعالى طيبةٌ حسنة.

هنا تحذيرٌ للمسلم الذي لا يُقيمُ الصَّلَاةَ بِحُجَّةِ الانشغال في كَسْبِ الرِّزْقِ بأنَّ الرَّاظِقَ هو الله تعالى، كما أنه ليس من العقلِ في شيءٍ التَّخَلِّيُّ عن الصَّلَاةِ الباقية من أَجْلِ الرِّزْقِ الفاني.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾

٩٧ - كانت آياتُ القرآن الكريم تُتلى على كُفَّارِ مَكَّةَ، وتُقدَّمُ إليهم المعجزات، ولكن برغم ذلك كانوا يقولون: إننا لم يُعرَضْ علينا شيءٌ، مع أنَّ في كُتُبِهِم السابقة

دلائل واضحة فيما يتعلقُ بنبوة النبي ﷺ، ألا تكفي هذه الدلائل لأولئك المنكرين؟
كما أن القرآن الكريم بذاته أعظم معجزة تصدقها كتبهم أيضاً.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ
مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۚ﴾ (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَابُ
الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ۚ

٩٨ - لو أننا أهلكنا كفار مكة بسبب كفرهم وشركهم قبل أن نرسل إليهم
النبي الكريم ﷺ، لاحتجوا قائلين: إننا لم يرسل إلينا رسول، ولو أن الله تعالى
أرسل إلينا رسولاً لاتبعنا أحكام الله تعالى، ولما أصبحنا أذلاءً مهانين، ولكن أما
وقد أرسلنا إليهم الرسول ﷺ، فإنهم الآن يطالبون بمعجزات وآيات طبقاً لأهوائهم،
والحقيقة أنهم لا يريدون الإيمان أصلاً، وإنما يجادلون جدلاً عقيماً لا أكثر، ولهذا
- أيها النبي الكريم ﷺ - عليك أن تحذّرهم بأنكم إن لم تؤمنوا برغم هذه الآيات
الواضحة، فانظروا إذاً، ونحن معكم من المنتظرين، وستقوم الساعة قريباً، وستعرفون
عندها من كان ممّا على الصراط المستقيم ومن كان على الضلال.

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيرزاده
جامعة الكرم، بريطانيا
بعد صلاة مغرب يوم الثلاثاء الحادي عشر من
ربيع الأول عام ١٤٢٩ هـ
الموافق الثامن عشر من مارس عام ٢٠٠٨ م.

ملحوظة: لم يتيسر لي وقت كافٍ في الفترة الماضية لكتابة التفسير بسبب
بعض الظروف الطارئة في جامعة الكرم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢١) سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

هذه السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، واسمُها سُورَةُ «الأنبياء»؛ لأنَّ فيها ذِكْرًا لكثيرٍ من الأنبياء الكرام عليهم السَّلام.

كان أهلُ مَكَّةَ وَثَنِيَّينَ مشركين، ولهذا ذُكِرَتِ العقائدُ الأساسيّةُ للإسلام في هذه السُّورَةِ بشكلٍ خاصٍّ، يعني: التوحيدَ والنُّبُوَّةَ والآخِرَةَ.

في بدايةِ هذه السُّورَةِ ذُكِرَتِ القيامةُ، حتى يتجنَّبَ الناسُ اللُّهُوَّ والعَبَثَ الدُّنْيَوِيَّ وكذا المِلَذَّاتِ النَّفْسَانِيَّةَ، ويميلوا إلى الأعمالِ الطَّيِّبَةِ التي تنفَعُ في الآخِرَةِ؛ لأنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ.

واحدٌ مَن اعتراضاتِ كُفَّارِ مَكَّةَ أَنَّهُ ﷺ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ، يَأْكُلُ كَمَا يَأْكُلُونَ، ويشربُ كما يشربون، فكيف يمكنُ أن يكونَ رسولاً؟ فَأَخْبَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى في هذه السُّورَةِ أَنَّ كُلَّ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ بُعِثُوا قَبْلَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ كانوا بَشَرًا، فَإِنْ لم تكونوا على يقينٍ من نُبُوَّتِهِ ﷺ فاسألوا علماءَ اليهودِ والنَّصارى، فهم أيضاً يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ أَنَّ أَنْبِيَاءَهُمُ الْكَرَامَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ، يعني: سَيِّدَنَا مُوسَى وَسَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلامُ، كانا من البَشَرِ، وكان كُفَّارُ مَكَّةَ يقولون: إِنَّ المَلَائِكَةَ بناتُ اللهِ تَعَالَى، فَأَخْبَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى في هذه السُّورَةِ أَنَّ المَلَائِكَةَ ليسوا بناتِ اللهِ تَعَالَى، وإنما عبادهُ الطَّائِعُونَ.

في هذه السورة أعلن الله تعالى أنه أرسل نبينا الحبيب سيدنا محمداً ﷺ
رحمةً للعالمين جميعاً.

الفقيه إلى الله: محمد إمداد حسين بيرزاده
جامعة الكرم، إنجلترا
بعد صلاة العشاء من يوم الجمعة ٢٨ مارس
عام ٢٠٠٨ م
الموافق ٢١ ربيع الأول عام ١٤٢٩ هـ



سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ (٢١)،

مكية (٧٣)، آياتها (١١٢)، ركوعاتها (٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ
تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ
هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ
فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَثَ أَحْلَمٌ بَلْ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ
هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِثَايَا كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا
أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ
كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾
ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ
كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾

١ - مضى زمنٌ طويلٌ بُعث فيه مائةٌ وأربعةٌ وعشرون ألفاً من الأنبياء الكرام
عليهم السلام، وبدأ زمنٌ بعثة النبي الآخر سيِّدنا محمدٍ المصطفى ﷺ، ثم لن يأتي
نبيٌّ آخرٌ بعده، وإنما ستقوم الساعةُ بعده، مثلما قال سيِّدنا أنسُ بنُ مالك رضي الله

عنه: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَمَعَ بَيْنَ إصْبَعَيْهِ قَائِلًا: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»^(١).

والمرادُ بوقتِ الحسابِ هو: القيامةُ أو الموتُ، وهو يقتربُ منّا ساعةً بعدَ أخرى، وما أَحَسَّنَ ما قال شاعرٌ:

- يُخْبِرُكَ مَرُورُ سَاعَةٍ أَثْنَاهَا الْغَافِلُ، أَنَّ الْخَالِقَ قَدْ أَنْقَضَ سَاعَةً أُخْرَى مِنَ الْعُمُرِ.

ومَعَ الموتِ تَبْدَأُ سِلْسِلَةُ الْحِسَابِ، أَمَّا الْحِسَابُ الْنَهَائِيُّ فَسَيَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَيْثُ يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ بَعْدَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيَذْهَبُ الْأَشْرَارُ إِلَى جَهَنَّمَ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ مِنْهُمْ كَوْنًا فِي اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ، غَافِلِينَ عَنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَلَمْ يُعْلِنِ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْوَقْتِ الْمَحْدَدِ لِلْمَوْتِ وَالْقِيَامَةِ، حَتَّى يَظُلَّ الْإِنْسَانُ يَتَجَنَّبُ الذَّنْبَ فِي كُلِّ وَقْتٍ، خَوْفًا مِنْ أَنْ يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ حَالَ ارْتِكَابِهِ الذَّنْبِ، وَالْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ التَّالِيَةُ تَسْتَحِقُّ التَّمَعُّنَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَجَنُّبِ الذُّنُوبِ وَالْبَعْدِ عَنْهَا:

١ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أُمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصُّبْحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صَحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ^(٢).

٢ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعْطُهُ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»^(٣).

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٣٩ برقم ٦٥٠٤.

(٢) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٣ برقم ٦٤١٦.

(٣) المستدرک، الإمام الحاكم، ٤: ٣٤١ برقم ٧٨٤٦.

٣ - عن أبي سعيدٍ، قال: دَخَلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مُصَلًّا، فرأى ناسًا كأنهم يكتشرون، قال: «أما إنكم لو أكثرتم ذكرَ هاذمِ اللَّذاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أرى، فأكثرُوا من ذِكْرِ هاذمِ اللَّذاتِ: الموتِ، فإنه لم يأتِ على القبرِ يومٌ إلَّا تكَلَّم فيه فيقولُ: أنا بيتُ الغربةِ وأنا بيتُ الوَحدةِ وأنا بيتُ الثُّرابِ وأنا بيتُ الدُّودِ»^(١)، وقالَ سيدنا عبيدُ بنَ عمرٍ رضي الله عنهما «إنَّ القبرَ ليقولُ: يا ابنَ آدمَ! ماذا أعدَدْتَ لي؟ ألمَ تعلمُ أنِّي بيتُ الغربةِ وبيتُ الدودِ وبيتُ الوحدةِ»^(٢).

٤ - عن مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «ليس من يومٍ يأتي على ابنِ آدمَ إلَّا ينادى: يا ابنَ آدمَ! أنا خَلَقْتُ جديداً، وأنا عليكَ غداً شهيداً، فاعْمَلْ خيراً فيَّ أشهدُ لكَ غداً، وإنِّي لو قد مَضَيْتُ لن تراني أبداً، ويقولُ اللَّيْلُ مثْلَ ذلكَ»^(٣).

عذاب القبر:

١ - عن عبد الله، قال: قالت أُمُّ حَبِيبَةَ زوجُ النَّبِيِّ ﷺ: اللَّهُمَّ امْتِنِ بزوجي رسولِ اللَّهِ ﷺ وبأبي أبي سُفْيَانَ وبأخي معاوية. قال: فقال النَّبِيُّ ﷺ: «قد سألتَ اللهَ لآجالٍ مضروبةٍ وأيامٍ معدودةٍ وأرزاقٍ مقسومةٍ، لن يُعَجَّلَ شيئاً قبلَ حِلِّهِ أو يؤَخَّرَ شيئاً عن حِلِّهِ، ولو كنتِ سألتِ اللهَ أن يُعَيِّدَكَ من عذابٍ في النَّارِ أو عذابٍ في القبرِ كان خيراً وأفضَلَ»^(٤).

(١) الترمذي، أبواب القيامة، باب ٢٦ برقم ٢٤٦٠.

(٢) كتاب الخراج، الإمام أبو يوسف، ١٨.

(٣) التفسير المظهر، سورة هود (١١): الآية ١٨.

(٤) مسلم، كتاب القدر، باب ٧ برقم ٦٧٧٠.

٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(١).

﴿مَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾

٢ - حين تَنْزِلُ سُورَةٌ جَدِيدَةٌ أَوْ آيَةٌ جَدِيدَةٌ، وَتُتْلَى عَلَى الْمَشْرِكِينَ بَعَرَضِ هِدَايَتِهِمْ، كَانُوا يَسْمَعُونَهَا كَأَنَّهَا لَعِبَةٌ مِنَ الْأَلْعَابِ، بِمَعْنَى: أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا، هَذَا مِنْ جَانِبٍ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهَا.

﴿لَا هِيَءَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾

٣ - هَؤُلَاءِ الظَّالِمُونَ غَافِلُونَ تَمَامًا عَنِ الْآخِرَةِ، يَتَهَامِسُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيَتَأَمَّرُونَ بِهِ، فَإِذَا رَأَوْا أَحَدًا يَرْغَبُ إِلَى الْإِسْلَامِ قَالُوا لَهُ: إِنَّ مُحَمَّدًا بَشَرٌ مِّثْلُكَ، وَهُوَ لَيْسَ نَبِيًّا، وَإِنَّمَا هُوَ سَاحِرٌ، فَكَيْفَ تَتَوَرَّطُ فِي سَحَرِهِ هَكَذَا عَنْ عَمْدٍ وَرَغْبَةٍ؟

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

٤ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمَشْرِكِينَ: إِنَّ رَبِّي يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ كُلَّ شَيْءٍ فِي أَيِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْأَرْضِ، سِوَاءٍ كَانَ خَفِيًّا أَمْ ظَاهِرًا، وَلِهَذَا فَإِنْ تَأَمَّرَكُم لَا يَخْفَى عَلَيْهِ. يَقُولُ الْعَلَامَةُ الْقُرْطُبِيُّ: «فَظَهَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ هَذَا»^(٢)، وَقَدْ أَخْبَرَهُم النَّبِيُّ ﷺ بِخَبَرِ الْغَيْبِ حِينَ فَضَّحَ

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٨٧ برقم ١٣٧٧.

(٢) تفسير القرطبي.

تَهَامُسُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَانَ هَذَا مِنْ مَعْجَزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَوْفُقْ هَؤُلَاءِ الظَّالِمُونَ أَصْحَابَ الْعُقُولِ الْمَظْلُومَةِ إِلَى الْإِيمَانِ.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾

٥ - لَقَدْ اقْتَلَعَ صِدْقُ النَّبِيِّ ﷺ وَحَقَائِقَةُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الْكُفْرَ وَالشِّرْكَ مِنْ جُذُورِهِمَا، وَمَنْ كَانَ يَسْمَعُ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ بِتَمَعُنٍ أَسْلَمَ، وَأَخَذَ كُفَّارُ مَكَّةَ يُلْفَقُونَ التُّهْمَ الْمَخْتَلَفَةَ بِغَرَضِ إِبْعَادِ النَّاسِ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَتَارَةً يَقُولُونَ: هَذَا الْقُرْآنُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ أَضْغَاتِ أَحْلَامِهِ ﷺ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: إِنَّ هَذَا لَيْسَ كَلَامَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا اخْتَرَعَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ وَنَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ، وَتَارَةً أُخْرَى يَقُولُونَ: إِنَّهُ مَجْرَدُ تَخِيلَاتٍ شَاعِرٍ، وَلَا عِلَاقَةَ لَهُ بِالْحَقِيقَةِ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ، وَلَنْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا حَقًّا، فَلَمْ لَمْ يَأْتِنَا بِمَعْجَزَةٍ مِثْلَ مَعْجَزَةِ الْعَصَا وَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ كَمَا فَعَلَ الرَّسُلُ مِنْ قَبْلِهِ؟

إِنَّ قَوْلَ الشُّعْرِ وَسَمَاعَهُ لَيْسَ عَيْبًا فِي حَدِّ ذَاتِهِ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ، تَكُونُ الْحَقِيقَةُ مِنْ خِلَالِهِ مُؤَثَّرَةً ضِعْفًا مَا لَوْ كَانَتْ بغيرِهِ، وَقَدْ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ نَفْسُهُ أَشْعَارًا، وَسَمِعَ الشُّعْرَ مِنْ صَحَابَتِهِ الْكَرَامِ أَيْضًا، وَلَكِنَّ الْأَشْعَارَ الَّتِي تَمْتَلِئُ بِالْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، وَيَصِلُ فِيهَا التَّخِيلُ إِلَى حَدِّ الْكَذِبِ وَالْكَفْرِ، مِثْلُ هَذِهِ الْأَشْعَارِ يَحْرُمُ قَوْلُهَا وَسَمَاعُهَا، وَقَدْ قَالَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأَشْعَارِ: إِنَّهَا ضَلَالٌ، وَلِهَذَا فَلَا عِلَاقَةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَشْعَارِ.

﴿مَاءَ أَمْنَةٍ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾

٦ - الْأُمُّ الَّتِي أَهْلَكَتْ مِنْ قَبْلِ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرُغْمِ رُؤْيَتِهِمْ لِلْمَعْجَزَاتِ الَّتِي طَلَبُوهَا، وَبِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ إِذَا أَرَيْنَا أَهْلَ مَكَّةَ الْمَعْجَزَاتِ الَّتِي طَلَبُوهَا فَإِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَنْ يُؤْمِنُوا؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ أَمَامَهُمْ مِنَ الْبَدَايَةِ، وَهُوَ فِي ذَاتِهِ مَعْجَزَةٌ حَيَّةٌ خَالِدَةٌ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ تَكْفِيهِمْ مُعْجَزَةٌ وَاحِدَةٌ، أَمَّا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فَلَا تَكْفِيهِمْ حَتَّى مِائَاتِ الْمَعْجَزَاتِ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

٧ - كان كفار مكة يعترضون بأن النبي ﷺ بشر مثلهم، يأكل مثل ما يأكلون، ويشرب كما يشربون، فأخبرهم الله تعالى - في هذه الآية - بأن كل الرسل الذين أرسلوا من قبله ﷺ كانوا بشرًا، فإن لم تكونوا على يقين من نبوته ﷺ فاسألوا علماء اليهود والنصارى، فهم أيضًا يعلمون حقيقة أن أنبياءهم الكرام عليهم السلام، يعني: سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام، كانا من البشر.

لقد كان كل الأنبياء الذين أرسلوا لهداية البشر رجالًا، ولم يكن من بينهم امرأة واحدة أو ملك أرسله الله نبيًا، ولمزيد من التفصيل في هذا الخصوص راجع الآية رقم ٤٢ من سورة آل عمران (٣)، وكذا الحاشية رقم ٢١.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾

٨ - لم تكن أجسام الأنبياء كأجسام الملائكة حتى لا يأكلوا مثلهم، كما لم تكن خالدة مثل الله تعالى، وإما كان الأنبياء من البشر، فكانوا يأكلون الطعام، وهم - بالطبع - ميئون.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾

٩ - لقد حقق الله تعالى كل الوعود التي وعد بها الأنبياء الكرام عليهم السلام، بمعنى: أنه نجى الأنبياء عليهم السلام ومن اتبعوهم، وأهلك المكذبين.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

١٠ - في القرآن المجيد نصيحة لكم وبيان للشرعة، ولهذا ينبغي أن تفكروا

فيه، وتعملوا على تحسين أوضاعكم في الدنيا والآخرة.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْأَوَّلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَلَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾

١١ - لقد دمرنا كثيراً من القرى لأن أهلها كانوا ظالمين، فأهلكناهم وأسكننا مكانهم أقواماً آخرين.

﴿ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٣﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

١٢ - حينَ ظَهَرَتْ آثارُ عذابِ الله تعالى فَرُّوا هاربينَ، وَحِينَئِذٍ جاءَ صوتٌ مِنَ الْغَيْبِ يَقُولُ: إِنَّ هَرُوبَكُمْ لَنْ يُنْجِيَ أَرْوَاحَكُمْ، وَلَكِنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعُودُوا إِلَى مَسَاكِنِكُمْ وَالنَّعْمَ الَّتِي تَعِيشُونَ فِيهَا، حَتَّى تُسْأَلُوا عَنْ هَذِهِ النَّعْمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، وَهَذَا السُّؤَالُ عَلَى سَبِيلِ الشُّخْرِيَةِ لَا أَكْثَرَ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ يُضَيَّقَ خِنَاقُ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ فَأَيُّ جَوَابٍ يُمْكِنُ أَنْ يُجِيبُوا بِهِ سِوَى النَّدَمِ؟

﴿ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴾

١٣ - لَمَّا لَمْ يَجِدُوا أَيَّ وَسِيلَةٍ لِلنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ اضْطُرُّوا إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِمَا ارْتَكَبُوا مِنْ مَظَالِمٍ وَأَخَذُوا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ، لَكِنَّ وَقْتَ قَبُولِ التَّوْبَةِ عِنْدَئِذٍ يَكُونُ قَدْ فَاتَ، وَلِهَذَا أَهْلَكَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَجَعَلَهُمْ كَأَنْهَمُ أَكْوَامٌ مِنْ بَقَايَا الْحِصَادِ، وَنِيرَانٌ قَدْ خَمَدَتْ وَاسْتَحَالَتْ تَرَابًا.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْنِ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَالِينَ ﴾

١٤ - لَمْ يَخْلُقِ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْكَائِنَاتِ بِلَا مَقْصِدٍ أَوْ هَدَفٍ، وَإِنَّمَا خَلَقَهَا لِيَتَفَكَّرَ النَّاسُ فِيهَا، وَيُدْرِكُوا تَوْحِيدَهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَ«لَوْ أَرَدْنَا فِعْلَ ذَلِكَ لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّهُ مُنَافٍ لِلْحِكْمَةِ فَلَمْ نَفْعَلْهُ»^(١).

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾

١٥ - الصَّرَاعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ قَدِيمٌ قَدِيمٌ التَّارِيخُ الْإِنْسَانِي نَفْسِهِ، وَلَكِنَّ الْحَقَّ كُلَّمَا صَارَعَ الْبَاطِلَ وَهُوَ مُسْتَعِدٌّ بِكُلِّ قُوَّتِهِ، هَزَمَهُ وَقَضَى عَلَيْهِ، وَفِي هَذِهِ

الآية تحذيرٌ لكُفَّارِ مَكَّةَ بأنَّ وجودَ الله تعالى القادرِ المطلقِ حقٌّ، وما تقولونَ عنه من كلامِ الباطلِ سيكونُ سببًا في هلاكِكُم أنتم.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾

١٦ - الملائكةُ مقرَّبونَ من الله تعالى بشكلٍ خاصٍّ، وهم منهمكونَ كلَّ وقتٍ في تسبيحِهِ وعبادَتِهِ بكلِّ إخلاصٍ وشوقٍ، ولا يتكاسلونَ عن ذلك ولا يملُّونَ منه ولو للحظات.

قال سيِّدنا كعبُ الأخبارِ رضي الله عنه: «التسبيحُ لهم كالتنفُّسِ لنا، فكما أنَّ اشتغالنا بالتنفُّسِ لا يمنعنا من الكلامِ فكذا اشتغالهم بالتسبيحِ لا يمنعهم من سائرِ الأعمال»^(١).

ويقولُ العلامةُ فخرُ الدِّينِ الرازي في تفسيرِ هذه الآية: «الملائكةُ - مع كمالِ شرفهم ونهايةِ جلالَتهم - لا يستكبرونَ عن طاعته، فكيف يليقُ بالبشرِ الضَّعيفِ التمرُّدُ عن طاعته؟»^(٢).

﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾

١٧ - هل لدى الأشياءِ التي اتَّخذها المشركونَ آلهةً، طاقةٌ تمكِّنهم من أن يمنحوا شيئًا للحياة، أو أن يحيوا ثانيةً من مات؟ بالتأكيد لا، فمن كان جامدًا لا رُوحَ فيه، كيف يُمكنه أن يحييَ ميتًا، مع أنَّ من صفاتِ المعبود أن يكونَ قادرًا على الإحياء والإماتة^(٣)، ولهذا ينبغي للمشرِّكين أن يتركوا عبادةَ هذه الأشياءِ، ويعبدوا الله وحده، فهو الذي بيده الموتُ والحياة.

(١) التفسير الكبير.

(٢) المرجع السابق.

(٣) «هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض قادرين على إحياء الموتى؟ كلا بل اتخذوا آلهة جامدًا لا تتصف بالقدرة على شيء فهي ليست بآلهة على الحقيقة لأن من صفة الإله القدرة على الإحياء والإماتة». صفوة التفسير.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

١٨ - الله تعالى واحدٌ أحد، ولا تليقُ العبادةُ إلا به، وهو القادرُ المطلق، وخالقُ الكائناتِ كلّها ومالكُها ورازقُها، كما أنّ الله تعالى هو ربُّ العرشِ العظيم أيضاً، وهو منزّهٌ عن كلّ الشُّركاء الذين اتَّخذهم المشركون.

بعض الدلائل العقلية عن التوحيد:

١ - خالقُ الكائناتِ هو الله تعالى فقط:

لو سلّمنا بوجود أكثر من إله، فسيكون هناك سؤال: هل الذي خلق هذه الكائناتِ إلهٌ واحدٌ فقط، أم أنهم جميعاً تعاونوا معاً في خلقها؟ فلو أنّ الذي خلقها إلهٌ واحدٌ فقط، فما الحاجةُ إذاً إلى وجودِ آلهةٍ أخرى؟ ولو أنّهم جميعاً تعاونوا معاً في خلقها، فليس من بينهم إذاً واحدٌ يستحقُّ أن يقال له: إلهٌ؛ لأنّ الذي يحتاجُ إلى مساعدة الآخرين، كيف يُمكنه مساعدة مخلوق؟

٢ - الله تعالى ليس محتاجاً لأحد:

ولو أنّ من بين هذه الآلهةِ إلهاً يمتلكُ القدرةَ الكاملة، وتحتاجُ الآلهةُ الأخرى إلى مساعدته، فما حاجةُ كاملِ القدرةِ هذا إلى أن يُشركَ معه آخرين في خلق هذه الكائناتِ العظيمة؟ على سبيلِ المثال: لو أنّ أحدَ العلماءِ يستطيعُ أن يخترعَ شيئاً بنفسه، فإنه لن يتحمّلَ أن يشتركَ معه أحدٌ في الحصولِ على هذا الشرف.

٣ - الله تعالى هو الأقوى على الإطلاق:

لو كلّ هؤلاءِ الآلهةِ لهم نفسُ القوّةِ والاختيار، للزم أن يحدثَ بينهم اختلاف، وحين يقفُ إلهٌ في مواجهةٍ إليه آخر، ينفرطُ عقدُ الكائنات، مثلما قال الله تعالى: ﴿مَا

أَتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدِهِ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿المؤمنون: ٩١﴾.

٤ - الله تعالى هو الذي يُسَيِّرُ نظامَ الكائنات:

لو افترضنا أنَّ هؤلاء الآلهة كلُّهم يعملون متفقين معاً، ولا يختلف أحدهم مع الآخر، فهل يبدل جميعهم قوته في تسيير نظام الكائنات، أم أحدهم فقط هو الذي يفعل ذلك؟ فلو أنَّ واحداً فقط هو الذي يفعل ذلك، فهذا يعني أنَّ الآخرين لا عمل لهم، ولو أنَّ الجميع يفعلون ذلك، لآثار ذلك سؤالاً: هل يُسيِّر هؤلاء الآلهة نظامَ الكائنات كلٌّ على حدة أم لا؟ لو أنَّ الإجابة بـ«لا»، لكان معناه أنهم جميعاً عاجزون ومحتاجون، وهو ما لا يليقُ بشأن الألوهية، وإن كانت الإجابة أنَّ كلاً منهم يُسيِّر نظامَ الكائنات منفرداً عن الآخر، ثم يُسيِّرونه مجتمعين، فإنَّ في هذا ضياعاً للقوة، واستعراضاً لها بلا معنى.

٥ - الله تعالى ليس عاجزاً:

يقول العلامة القرطبي: «لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير؛ لأنَّ أحدهما إن أراد شيئاً والآخر ضده كان أحدهما عاجزاً»^(١)، يعني: لو أنَّ إلهاً أراد اليوم أن يجعل الشمس تشرق من المغرب، وأراد الآخر أن تشرق من المشرق، وطلعت الشمس من المغرب، فمعناه أنَّ الثاني عاجز، وإن لم تطلع من المغرب فمعناه أنَّ الأول عاجز، والعجز لا يمكن أن يكون إلهاً، فلزم أن يكون الإله واحداً.

٦ - ليس هناك إله سوى الله تعالى:

يقول العلامة إسماعيل حقي: «ليس لجسد قلبان، ولا لبدن نفسان، ولا

للسماء شمسان، شهد الأخبار بواحد، وهو منتهى الأعيان، لو حصل شمسان لأنظمت الأركان، أبى النظام شمساً أخرى، فكيف لا يأبى إلهاً آخر، إن كان للقيوم شريك فأين شمسُه؟»^(١)، وهذه حقيقة بدهية تماماً، مثلما هو واقع في دنيانا اليوم من أن كل بلد أو مصنع أو مدرسة لها رئيس، والذي يملك قوة اتخاذ القرار هو الذي يكون رئيساً، وإلا فسدت الإدارة التي يقودها.

٧ - من كان قبل الله تعالى؟

سأل أحد الدهريين (منكري الله تعالى) الإمام أبا حنيفة رحمه الله: لو أن الله واحد، فمن كان قبله؟ فقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: إن كنت تعرف العدَّ فعدَّ، وهكذا أخذ الدهريُّ يعدُّ حتى وصل إلى ثلاثة، فسأله الإمام أبو حنيفة رحمه الله: قل لي، ماذا قبل ثلاثة؟ فقال: اثنان. فسأله: وماذا قبل اثنين؟ قال: واحد. فقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: وماذا قبل واحد؟ فقال: صفر، يعني: لا شيء. فقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: وهذا هو ما نقوله، أي: أن الله واحد، وليس قبله شيء.

٨ - الله في كل مكان:

سأل أحد الدهريين الإمام أبا حنيفة رحمه الله: من الضروري أن يكون لكل موجود مكان يقيم فيه، فأين يقيم الله؟ فطلب الإمام أبو حنيفة إناءً مليئاً باللبن وقال للدهري: هل في هذا الإناء زبدة؟ فقال الدهري: نعم. سأله الإمام أبو حنيفة: في أي جزء من اللبن توجد الزبدة؟ قال الدهري: لا يمكن أن نحدّد مكاناً معيناً؛ لأنّ الزبدة توجد في كل قطرة من اللبن. فقال الإمام أبو حنيفة: هكذا الله، موجود في كل مكان، ولا يمكن أن نحدّد له مكاناً بعينه.

(١) تفسير روح البيان.

٩ - الله موجود:

كان هناك عَجُوزٌ في الزَّمنِ القديمِ تَغْزِلُ بِمِغْزَلِهَا، أي: تَغْزِلُ الْخَيْطَ من القُطن، وفي نفسِ الوقتِ كانت تردُّ الشَّهادَتَيْنِ دائِماً، فسألها أحدُ عابري السَّبِيلِ: هل لَدَيْكَ دَليْلٌ على وجودِ الإلهِ الذي تذكُرِينَ؟ قالت العجوز: نَعَمْ. مِغْزَلِي هذا دَليْلٌ على وجودِ الله. فقال عابِرُ السَّبِيلِ: وكيف هذا؟ قالت المرأة: حين أُديرُ هذا المِغْزَل يدور، وإن لم أُحرِّكْهُ لا يتحرَّكُ، وبما أنَّ نظامَ الكائناتِ في حركةٍ دائِمةٍ، فإنَّ هذا دَليْلٌ على أنَّ هناك مَنْ يُحرِّكُهُ وَيُسَيِّرُهُ، وهو الله الواحدُ خالقُ الكائناتِ كُلِّها ومالكُها.

١٠ - الله واحدٌ فقط:

سأل عابِرُ السَّبِيلِ المرأةَ ثانيةً: هل لَدَيْكَ دَليْلٌ على أنَّ مَنْ يُسَيِّرُ الكائناتِ إلهٌ واحدٌ؟ فقالت العجوز: دَليْلُهُ مِغْزَلِي أيضاً؛ لأنِّي إذا أدْرَتُهُ وحدي دارَ بشكلٍ صحيحٍ، وإذا أدَارَهُ اثنانِ انْقَطَعَ الْخَيْطُ (مثلما أنَّ السيارةَ إنْ يَقْدُها واحدٌ فقط، تَسِرُ بشكلٍ صحيحٍ، وإنْ يَقْدُها اثنانِ في نفسِ الوقتِ فهناك إمكانٌ لأنْ تتعرَّضَ لحادث)، وبما أنَّ نظامَ الكائناتِ كُلَّهُ يدورُ بِنَسَقٍ معيَّنٍ وبكُلِّ سُرْعَةٍ، فإنَّ هذا يعني أنَّ الذي يُسَيِّرُهُ واحدٌ فقط، ولو كان هناك أكثرُ من إلهٍ لَانْفَرَطَ عَقْدُ نظامِ الكائناتِ بسببِ اختلافِهم فيما بينهم، وقد قال الله تعالى في القرآنِ المَجِيدِ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

١١ - الله لا يُرى:

قال أحدُ المدرِّسينَ الدَّهْرِيِّينَ للتلاميذ في الفَصْلِ: هل أبْدُو لَكُمْ الْآنَ؟ فقال التلاميذ: نعم. فقال المدرِّس: هذا يعني أنَِّّي موجود. ثم سأل التلاميذَ بنفسِ

الطريقة عن الكرسي والمنصدة، وبعدها سألهم: هل الله يبدو لكم؟ فقالوا: لا. قال المدرّس: هذا يعني أن الله ليس موجوداً، ولو كان موجوداً لبدا لكم. فوقف أحد التلاميذ وقال مخاطباً باقي زملائه: هل يبدو لكم عقل المدرّس؟ فأجاب التلاميذ بالنفي. فقال التلميذ: هذا يعني أنه لا عقل للمدرّس! وهكذا هناك أشياء كثيرة لا نراها ولكننا نؤمن بوجودها، مثل: الروح والهواء والصوت والإخلاص والنفاق وغيرها.

١٢ - حوار بين مسلم وكافر:

سأل كافرٌ مسلماً: لماذا تؤمن بالله لا يبدو لك؟ فسأله المسلم عن اسم جدّه الأعلى وقال: هل رأيت جدّك الأعلى؟ قال الكافر: إنني لم أر حتى قبره؛ لأنه كان يقيم في بلدٍ آخر بعيد. قال المسلم: إذا لم تكن قد رأيته فلماذا تقول عنه: إنه جدّك؟ قال الكافر: لقد سمع من أبويّه وأقاربه. قال المسلم: أليس من الممكن أن يكذب عليك أولئك الذين أخبروك عن جدّك الأعلى؟ ولكننا سمعنا عن الله تعالى من إنسانٍ صادق (سيدنا محمد ﷺ) شهد بصدقته حتى أعداؤه، وكان كلٌّ من يعرفه ومن لا يعرفه يناديه بالصادق الأمين.

١٣ - نحتاج إلى الله:

ذات مرّة اشترك وفدٌ من الشّباب والفتيات من أديانٍ مختلفة في نقاشٍ على شاشة تلفزيون بي بي سي، وكان موضوع النقاش: هل هناك حاجةٌ إلى الله؟ قالت فتاة: يمكن أن يقع الخطأ من أيّ إنسان، وحين يُخطئ الإنسان لأول مرّة في حياته يلوّمه ضميره، وفي بعض الأحيان يكون الخطأ مُخجلاً وفظيعاً بحيث

لَا يُحِبُّ الْإِنْسَانُ أَنْ يُخْبَرَ بِهِ حَتَّى وَالذَّيْهَ، وَلَا يَرَى مِنَ الْمُنَاسِبِ كَذَلِكَ أَنْ يُخْبَرَ
أَصْدَقَاءَهُ عَنْهُ، وَيَبْقَى وَحْدَهُ فِي قَلْقٍ شَدِيدٍ يَكَادُ يَفْجُرُ دِمَاغَهُ، وَفِي مِثْلِ هَذِهِ
الْأَحْوَالِ قَدْ يَضْطَرُّ الْإِنْسَانُ لِدَرَجَةٍ تَجْعَلُهُ يُقْبَلُ عَلَى الْإِنْتِحَارِ، أَوْ يَسِيرُ طِيلَةً
عُمُرَهُ عَلَى طَرِيقِ الْإِجْرَامِ.

وَلَكِنْ إِنْ كَانَ هَذَا الْإِنْسَانُ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ يَخْتَلِي بِنَفْسِهِ وَيَبْكِي
أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى مَا أَرَادَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَبْكِي، وَيَعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ، وَيَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ، وَيَعِزُّمُ
عَلَى أَنْ لَا يَرْتَكِبَ هَذَا الذَّنْبَ مُسْتَقْبَلًا، وَيَأْمُلُ فِي أَنْ يَغْفَرَ اللَّهُ لَهُ ذَنْبَهُ بِرَحْمَتِهِ،
وَيَبْدَأُ انْطِلَاقَةً جَدِيدَةً فِي رَحْلَةِ حَيَاتِهِ، وَلِهَذَا يَحْتَاجُ كُلُّ إِنْسَانٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِكَيْ
يَنْجُوَ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْقَلْقِ.

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾

١٩ - اللَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ وَمَخْتَارٌ مُطْلَقٌ، وَهُوَ مَنْزَعٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ وَظُلْمٍ
وَجَوْرِ، وَلَا يَخْلُو أَيُّ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِهِ مِنْ حِكْمَةٍ، وَلِهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْأَلَ عَنْ
أَيِّ قَوْلٍ مِنْ أَقْوَالِهِ أَوْ أَيِّ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِهِ، كَمَا أَنَّهُ حَاكِمُ الْكُلِّ، وَلَا أَحَدٌ حَاكِمٌ لَهُ
يُمْكِنُ أَنْ يَسْأَلَهُ، وَلَكِنَّ بَنِي الْإِنْسَانِ جَمِيعًا عِبَادُهُ، وَطَاعَتُهُ وَاجِبَةٌ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا
سَوْفَ يَسْأَلُ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا عَنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾

٢٠ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْحَبِيبُ ﷺ، قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ: لَقَدْ سَمِعْتُمُ الْآنَ دَلِيلًا بَسِيطًا
وَسَهْلَ الْفَهْمِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّوْحِيدِ، لَكِنْ لَوْ كَانَ لَدَيْكُمْ دَلِيلٌ عَلَى مَنْ اتَّخَذْتُمُوهُمْ

آلهة من دون الله فأتوا به، مع أن الكتاب الذي أنزل عليّ، والكتب التي أنزلت من قبلي على الأنبياء الكرام السابقين عليهم السلام، لا توجد بها ولو مجرد إشارة عن هؤلاء الآلهة، والحقيقة أنه ليس لديهم أي دليل على هؤلاء الآلهة، وإنما هم يعرضون عن الحق بسبب العناد والجَهْل لا أكثر.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

٢١ - جاء بيانٌ للدليل العقلي على توحيد الله تعالى في الآية رقم ٢٢، والآن جاء بيان الدليل النقلي عليه في هذه الآية، يعني: أن كل الأنبياء السابقين عليهم السلام، كتب في كتبهم أن العبادة لا تليق إلا بالله تعالى وحده، ولهذا ينبغي أن تعبدوه وحده.

الكتاب المقدس والتوحيد:

التعاليم الأساسية والمركزية لأي كتاب سماوي هي أن الله واحد، ولا يليق بالعبادة سواه، وهو متفردٌ واحدٌ أحدٌ ليس كمثله شيء، وإذا تأملنا الكتاب المقدس الموجود في أيامنا لوجدنا تصوّر الله تعالى في مواضع شتى منه، وأمامي الآن (الكتاب المقدس الحي: The Living Bible)، طبعة ١٩٧٥ م البريطانية، وهذه بعض الحالات منه:

١ - أيها الرب، إنك عظيمٌ ومتعالٍ بحيث أننا لم نسمع عن أي إله آخر مثلك، وليس هناك إله سواك^(١).

(١) How great are you, Lord God! We have never heard of any other god like you. And there is no other god. (2 Samuel: 7: 22: P. 313)

٢ - أنت، وأنت فقط الله الواحد، أنت الذي خلقت السموات والجنة والأرض والبحار وكل شيء يعيش في وسعها، وأنت ربهم جميعاً، والملائكة جميعاً يعبدونك^(١).

٣ - ثم أخذه الشيطان (أي: سيدنا عيسى عليه السلام) إلى قمة جبل شاهق الارتفاع، وجعله يرى أمم العالم وعظمتهم وجاههم، وقال له: لو انحنيت فقط وأديت لي العبادة فسأعطيك كل هذا. فقال له سيدنا عيسى عليه السلام: اغرب أيها الشيطان؛ لأنّ الصحف المقدسة تقول بأنّ عليك أن تعبد ربك الله فقط، وتطيعه هو وحده^(٢).

٤ - سأل أحد أساتذة الدين سيدنا عيسى عليه السلام: ما أهمّ حكم بين الأحكام؟ فأجابته سيدنا عيسى عليه السلام: اسمع يا إسرائيل، أولاً: أنّ الله ربنا واحد فقط، وعليك أن تحب هذا الله من قلبك وروحك وعقلك وكلّ طاقتك... فقال له الأستاذ: عظيم أيها السيّد، لقد قلت حقاً، إنّ الله واحد فقط، وليس هناك غيره^(٣).

(١) You alone are God. You have made the skies and the heavens, the earth and the seas, and everything in them. You preserve it all: and all the angels of heaven worship you. (Nehemiah: 9: 6: P. 491).

(٢) Next Satan took him to the peak of a very high mountain and showed him the nations of the world and all their glory. "I'll give it to you", he said, "if you will only kneel and worship me".

Get out of here, Satan", Jesus told him. "The Scriptures say, "Worship" only the Lord God. Obey only him". (Matthew: 4: 8 to 10: P. 886).

(٣) One of the teachers of religion asked, "Of all the commandments, which is the most important?" Jesus replied, "The one that says, "Hear, O Israel! The Lord God is the one and only God. And you must love him with all your heart and soul and mind and strength..."

٥ - ذات مرة، خَطَبَ سَيِّدُنَا عيسى عليه السَّلام، ثم رَفَعَ رأسه إلى السَّمَاءِ وقال في الحضرة الإلهية: إِنَّ الطريقَ للحصول على الحياة الأبدية هو أن يؤمنَ الإنسانُ بكَ إلهًا واحدًا حقًّا، وبالمسيح نبيِّكَ المرسل على الأرض^(١).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾

٢٢ - كانت بعض قبائل العرب تعتقد في أنَّ الملائكة بناتُ الله تعالى، فجاء البيان في هذه الآية بأنَّ الله تعالى منزَّهٌ عن الولد، وأنَّ الملائكة ليسوا بناتِه، وإنَّما عباده الأحياء المقربون، وأدبهم واحترامهم في الحضرة الإلهية أنَّهم لا يتفَوَّهون بشيءٍ بغيرِ رضى الله تعالى وإذنه، ويلتزمون بالعمل بأحكام الله دائماً، ويُعلِّمُ منه أنَّ الملائكة معصومون؛ لأنَّهم لا يعصون حُكْمَ الله تعالى أبداً.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾

٢٣ - الله تعالى يَعْلَمُ تمامَ العلمِ ماضي الملائكة ومستقبلهم وظاهرهم وباطنهم، وقد أذن لهم بالشفاعة، لكنَّ الملائكة يشفعون لمن رضى الله عنه.

يقول العلامة القرطبي: «﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ قال ابن عباس: هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد: هم كلُّ من رضى الله عنه، والملائكة يشفعون غداً في الآخرة كما في صحيح مسلم وغيره، وفي الدنيا أيضاً، فإنَّهم يستغفرون للمؤمنين ولَمَن في الأرض»^(٢). ويُعلِّمُ منه أنَّ الملائكة سيشفعون يوم القيامة أيضاً بالإضافة إلى

The teacher of religion replied, "Sir, you have spoken a true word in saying that there is only one God and no other". (Mark: 12: 28 to 32: P. 941).

(١) And this is the way to have eternal life- by knowing you, the only true God, and Jesus Christ, the one you sent to earth. (John: 17: 3: P. 1018).

(٢) القرطبي.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾

٢٥ - ألا يتفكّر الكفار في قدرة الله تعالى بأن الأرض والسما في بداية الأمر كانتا متلاصقتين، ثم فصلهما الله تعالى عن بعضهما، وأصبح بينهما نظام قوي من الفضاء والهواء، وقد زينت الشمس والقمر والنجوم السماء، بينما يرسم الإنسان والحقول والحيوان والأنهار والجبال مظاهر خلافة على الأرض، ألا يؤمن هؤلاء المشركون بتوحيد الله تعالى بعد أن يروا كل هذا النظام الرائع؟

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

٢٦ - بين الماء والأحياء علاقة قوية ودائمة، فكل ما نراه من الأحياء وسيلة خلقه قطرة من النطفة، أي: الماء، ثم إن وسيلة بقاء هذه الأحياء ونموها وتطورها هو الماء أيضاً، بمعنى: أن الأشياء التي تأكلها الأحياء أو تشربها تدخل - بشكل مباشر أو غير مباشر - ضمن الماء.

على العكس من ذلك، فإن خلق الملائكة كان من النور، والجن من النار، لكننا لا نراهم، أما سيدنا آدم عليه السلام فقد خلق من الطين، والسيدة حواء خلقت من ضلع سيدنا آدم عليه السلام، وخلق سيدنا عيسى عليه السلام من نطفة، ولم يكن للماء دخل في خلقه مطلقاً، والحقيقة أن مولد سيدنا عيسى عليه السلام بمثابة التجلي لقدرة الله تعالى، ولكل قاعدة بعض الاستثنائات، ولهذا يصدق عليها الحكم الكلي باعتبار الأكرية.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾

٢٧ - جعل الله تعالى الجبال في الأرض لتحفظ توازنها، وهذه الجبال لا تمنع

الأرض من الدوران، لكنّها تحميها من الاهتزاز والارتعاش إلى حدّ ما، وتكون سبباً في تقليل كثرة وحِدّة الزلازل.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

٢٨ - لم يجعل الله تعالى الجبال الشاهقة جدراناً صخرية بحيث لا يستطيع من يعيشون في جهة منه الذهاب إلى الجهة الأخرى، وإنّما جعل بينها بوابات ومعابر ومسافات خالية، حتى يمهّد الناس لأنفسهم طرقاً بينها تمكّنهم من التواصل مع بعضهم.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾

٢٩ - السّماء العظيمة الفسيحة التي جعلها الله تعالى فوق الأرض بمثابة السّقف لها، لم يجعل لها جدراناً أو أعمدة تُقيمها، ومع ذلك تقف هذه السّماء منذ آلاف السنين محفوظة قويّة، ثم إنّ الشمس والقمر يدوران كلّ في مداره في السّماء بطريقة غاية في النّظام بحيث لم يحدث في دورانها أيّ خلل، وهذه كلّها آيات تدلّ دلالة واضحة على توحيد الله تعالى وقدرته، لكنّ المشركين لا يتفكّرون.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

٣٠ - الشمس والقمر والكواكب الأخرى تدور في أفلاكها، فما الفلك؟ وهل الفلك والسّماء شيء واحد؟

عند أكثر المفسّرين: الفلك والسّماء شيان مختلفان، فالسّماء في العلاء، والأفلاك إلى أسفل، مثلما يقول العلامة الألويسي بأنّ الفلك «هو مَوْجٌ مكفوفٌ

تحت السماء يجري فيه الشمس والقمر. وقال الضحاك: هو ليس بجسم، وإنما هو مدار هذه النجوم^(١).

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾

٣١ - لم يأل الكفار جهداً في مخالفة الإسلام، وحين لم ينجحوا في ذلك، أخذوا يطمئنون قلوبهم بكلام لا معنى له قائلين: لا بأس، إن محمداً على أي حال سيموت يوماً من الأيام، وسوف تنتهي حركته هذه من نفسها، وحينئذ نزلت هذه الآية التي قيل فيها للكفار: صحيح أنه لم يكتب الخلود لبشر قبل النبي ﷺ، والنبي ﷺ أيضاً لن يخلد في هذه الدنيا، ولكن هذا ليس أمراً يسعدكم؛ لأنكم أنتم أيضاً لن تخلدوا في هذه الدنيا.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

٣٢ - جاءت الإشارة في هذه الآية إلى ثلاثة أشياء:

١ - كل شيء حي سيدوق الموت إن عاجلاً أم آجلاً.

٢ - ستستمر سلسلة الابتلاءات للإنسان طالما كان على قيد الحياة.

٣ - كل إنسان سيرجع إلى الله تعالى ليحاسبه.

ويعلم منه أن كل إنسان سيموت حتماً، وسوف يحاسب على أعماله يوم القيامة، لهذا لا يليق بأي عاقل أن يدمر حياته الخالدة من أجل حياة لأيام معدودة. ولمزيد من التفصيل عن الموت راجع الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران (٣)، وكذا الحاشية رقم ١٣١.

﴿وَإِذْ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْخُدُّوكَ إِلَّا هُزُوءًا هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

٣٣ - كان الكُفَّارُ يَسْخَرُونَ مِنَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ؛ لأنه كان يُنْكِرُ آلِهَتَهُمُ الَّتِي لَا تَضُرُّهُمْ وَلَا تَنْفَعُهُمْ، مَعَ أَنَّ الْمُسْتَحِقَّ لِلْسُّخْرِيَّةِ فِي هَذَا الْخُصُوصِ هُمُ الْكُفَّارُ أَنْفُسُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وَجُودَ اللَّهِ الرَّحْمَنِ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾

٣٤ - لِأَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ عَجُولًا، لِهَذَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ: إِذَا كُنَّا مُسْتَحِقِّينَ لِلْعَذَابِ بِسَبَبِ رَفْضِنَا لِلْإِسْلَامِ، فَلِمَ لَا يَنْزِلُ هَذَا الْعَذَابُ عَلَيْنَا إِذَا؟ وَعَلَيْهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ حَدَّدَ لِكُلِّ عَذَابٍ وَقْتَهُ لِحِكْمَةٍ عِنْدَهُ، وَحِينَ يَقْتَرِبُ هَذَا الْوَقْتُ الْمَحْدَدُ سِيرِيكُمْ عِلَامَاتٍ عَلَيْهِ، وَحِينَئِذٍ سَتَنْدَمُونَ، وَلَنْ تَجِدُوا طَرِيقًا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ، مِثْلَمَا حَدَثَ مَعَهُمْ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ.

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾

٣٥ - كان الكُفَّارُ يُنْكِرُونَ الْقِيَامَةَ، وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ لَا وَجُودَ لِمَا يَسْمَى بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ لَا حَيَاةَ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ وَتَنْتَهِي اللَّعْبَةُ، وَلِهَذَا كَانُوا يَسْأَلُونَ سَاخِرِينَ: لَوْ كُنْتَ نَبِيًّا حَقًّا، فَلِمَ لَا تَأْتِينَا بِالْعَذَابِ الَّذِي تَخَوُّفُنَا مِنْهُ، وَمَتَى يَنْزِلُ هَذَا الْعَذَابُ بِنَا؟ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ طَمَآنَةٌ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ بِأَنَّ الْحَقِيقَةَ هِيَ أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يَعْلَمُونَ بِعَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا يَتَعَجَّلُونَهُ، وَحِينَ تُحِيطُ بِهِمْ نَارُ جَهَنَّمَ وَلَا يُمَدُّ أَحَدٌ لَهُمْ يَدُ الْمُسَاعَدَةِ، عِنْدَئِذٍ سَيَنْدَمُونَ، وَلَكِنْ نَدَمَهُمْ هَذَا لَنْ يَفِيدَهُمْ بِشَيْءٍ إِذْ ذَاكَ.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

٣٦ - ستقوم الساعةُ بَغْتَةً، مما سَيَطِيرُ بُلْبُهم، وعندئذٍ لن يستطيعوا تأخير القيامة، ولن يُعْطُوا مُهْلَةً ليتوبوا، ولهذا فإنَّ هناك صورةً واحدةً فقط للنَّجاة من عذابِ القيامة، وهي أن نتوبَ من عصياننا في هذه الدُّنيا، ونصبحَ عبادًا طائعينَ لله تعالى.

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

٣٧ - كان كُفَّارُ مَكَّةَ يَسْخَرُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وفي هذه الآيةِ تَسْرِيَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بأنَّ هذا ليس بالأمرِ الجديد، فلقدِ اسْتَهْزَأَ بِالرُّسُلِ من قبلك، لكنَّ العذابَ الذي كانوا يَسْخَرُونَ بسببِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ عِنْدَمَا يَحِينُ وَقْتُهُ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ فَسَوْفَ يُهْلِكُ هَذَا الْعَذَابُ الْكُفَّارَ وَيُدْمِرُهُمْ.

قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾
 أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾
 بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءَ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرُكُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾

٣٨ - الخطابُ هنا لمشركي مَكَّةَ بأنَّ طُغيانكم يقتضي أن ينزل العذابُ عليكم، لكنَّ الله تعالى قد أمهلَكم لكي تتوبوا وتُصلحوا من أنفسِكم، وإذا نزلَ عليكم العذابُ فَوَرَّاً في أيِّ وقتٍ ليلاً أو نهاراً فلن يستطيع أحدٌ أن يُنجيَكم منه، وبالتالي كان ينبغي لكم أن تستغلُّوا هذه المَهلةَ، وأن تشكروا الله تعالى عليها، لكنَّ ما أعجبَكم من جاحدين، إذ لا ترغبون في مجردِ ذكرِ الله تعالى.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مَتَائِصُ حُبُونَ﴾

٣٩ - كان مشركو مَكَّةَ يُنكرون عذابَ القيامة، وكانوا يعتقدون أنَّهم حتى على افتراضِ نزولِ العذابِ عليهم، فإنَّ أصنامَهم ستُنجيهم من هذا العذاب، وقد ردَّ الله تعالى عليهم في هذه الآية، بأنَّ هذا سوءٌ في الفهم لديهم، فالأصنامُ لا طاقةَ لها حتى على إنقاذِ نفسِها، ولا تستطيع حتى إبعادَ ذبابةٍ تقفُ عليها، فكيف ستساعدُ أولئك المشركين إذا؟ كما أنَّ هذه الأصنامَ لا تحظى بتأييدٍ ونصرةٍ من الله تعالى بحيث يستطيعون مساعدةَ هؤلاء المشركين، وفي هذا الخصوص يقولُ القاضي ثناءُ الله باني بتي: «ولا يصحبُهم متا نصر، كما يصحبُ لمن يشفعُ عصاةَ المؤمنين من النبيينَ والملائكةِ والصالحين»^(١).

﴿بَلْ مَتَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

٤٠ - كان أهلُ الجزيرةِ العربيَّةِ يحترمون أهلَ مَكَّةَ بسببِ وجودِ الكعبةِ بها، وهو ما وفرَّ لأهلِ مَكَّةَ وآبائهم وأجدادهم حياةً رغدةً من فترةٍ طويلة، لكنَّهم لم

يشكروا الله تعالى على هذه المَهلة وهذه النعمة، وانما اغترُّوا بمتاع الدنيا إلى درجة أنهم أنكَرُوا نبيَّ الله تعالى، وأخذوا يحلُمونَ بهزيمة المسلمين، وفي هذه الآية يقولُ الله تعالى: عليكم أن تتعقلوا وتتمعنوا في الأمور قليلاً، فكلُّ قبيلةٍ من القبائل العربية تتحوَّل إلى الإسلام، وحدودُ الإسلام تتسع يوماً بعدَ يوم، بينما تَضيقُ الأرضُ على الكُفرِ أكثرَ وأكثرَ، فهل لا يزالونَ على خطأهم في الفهم من أنهم سيتغلبونَ على المسلمين؟ ويُعلمُ منه أنَّ هذه الآية نزلت في المدينة المنورة؛ لأنَّ القبائلَ العربيةَ بدأتْ تدخلُ في الإسلام بعدَ مجيئهم إلى المدينة المنورة.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾

٤١ - عملُ النبيِّ هو تبليغُ رسالةِ الله تعالى، وإنذارُ العصاة بسوءِ العاقبة، لكنَّ عُميانَ القلوبِ إن لم يستمعوا إلى هذه الرسالة فلا ذنبَ للنبيِّ في ذلك.

﴿وَلَيْنَ مَسْتَهْمُ نَفْحَةٍ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنُوحِلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

٤٢ - الآنَ هؤلاءِ أصمُّوا آذانهم عن الرسالةِ الإلهية، ويُطالبونَ بسرعةِ نزولِ العذاب، ولكنَّ إن مسَّهم قليلٌ من العذابِ طارت عقولُهم، وفقدوا صوابهم صارخين: إنَّهم كانوا بالفعل ظالمين.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾

٤٣ - الله تعالى يعلمُ تمامَ العلمِ أعمالَ كلِّ إنسانٍ، حسنِها وسيئِها، ويستطيعُ الحكمَ دونَ وزنِ هذه الأعمال، لكنه يزنُها حتى يعلمَ الناسُ كيف كان عملُهم، وأنهم لم يظلمهم أحدٌ.

رُوي عن سيّدنا أنس رضي الله عنه «إِنَّ مَلَكًا موكِّلاً بالميزان، فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كِفَتي الميزان، فإن رَجَحَ نادى المَلَكُ بصوتٍ يُسمع الخلائق: سَعِدَ فلانٌ سعادةً لا يشقى بعدها أبدًا، وإن خَفَّ نادى المَلَكُ: شَقِيَ فلانٌ شقاوةً لا يسعدُ بعدها أبدًا»^(١).

ورغم أنه لا وجودَ ظاهريًّا للأعمال ولا جسدَ لها، لكنّ هناك رواية تقول: إنّ الأعمالَ الحَسَنَةَ تتجسّدُ في أشكالٍ بيضاء، بينما تتجسّدُ الأعمالُ السيِّئةُ في أشكالٍ سوداءٍ وقيحة، وسوف توزنُ هذه الأشكالُ^(٢). على أيِّ حال اللهُ تعالى قادرٌ على كلِّ شيءٍ، ويستطيعُ أن يزنَ الأعمالَ في أيِّ صورةٍ شاء.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾

٤٤ - أعطى الله تعالى سيّدنا موسى وسيّدنا هارونَ عليهما السّلامُ كتابًا مُبينًا، أي: التّوراة، وهي تُميّزُ بينَ الحقِّ والباطل، ونصيحةٌ للمتّقين.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾

٤٥ - جاء في هذه الآية بيانٌ لصفتين من صفاتِ المتّقين، يعني: رغم أنّهم لم يروا الله تعالى؛ لأنّ الله تعالى لا تراهُ عيونُ البشر، لكنّهم مع ذلك يَخشَوْنَ غضبَ الله تعالى وعذابَ القيامة، وهم - بسببِ هذه الخُشية - لا يعصُونَ الله تعالى.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾

٤٦ - كما أنّ الله تعالى أنزلَ التّوراةَ نصيحةً، كذلك أنزلَ اللهُ تعالى القرآنَ

(١) تفسير القرطبي.

(٢) «قيل: تظهر الأعمال بصور جوهرية: مشرقة إن كانت حسنات، ومظلمة إن كانت سيئات».

روح المعاني.

الكريم، فهو أيضًا نصيحةٌ عظيمةٌ، فإذا كنتم تؤمنون بأن التَّوراةَ كتابُ الله تعالى، فلماذا لا تؤمنون بالقرآنِ إدا؟

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ
الْتَّمَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عِيدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ
أَنْتُمْ وءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ
بَلْ زَيْكُمُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاً إِلَّا كَبِيرًا
لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ
فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾
قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا يَنْتَرُكُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ
الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ
إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عِبْدِينَ ﴿٧٣﴾
وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾

٤٧ - أنعم الله تعالى بالنبوة على سيدنا إبراهيم عليه السلام قبل أن يُنعم بها على سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام، والله تعالى يعلم تمام العلم أنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام يمتلك المقدرة الكاملة لأداء فريضة النبوة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

٤٨ - حين سأل سيدنا إبراهيم عليه السلام قومه: لماذا تعبدون هذه الأصنام، وليس لديكم أي دليل على حَقَائِقِهَا؟ أجابوه قائلين: إنهم وجدوا آباءهم وأجدادهم لها عابدين، فسألهم سيدنا إبراهيم عليه السلام: إنَّ تقليد الآباء والأجداد في شيء ليس دليلاً على حَقَائِقِ هذا الشيء، وإنما يُعلم منه أنّ آباءكم وأجدادكم كانوا في ضلالٍ مُبينٍ مثلكم، فمن كان والد سيدنا إبراهيم عليه السلام؟ للإجابة عن هذا السؤال راجع الآية رقم ٧٤ من سورة الأنعام (٦)، وكذا الحاشية رقم ٧٠ أيضاً.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

٤٩ - كان هؤلاء يعبدون الأصنام منذ فترة بعيدة، ولم يكن في قلوبهم أي تردّد تجاه عبادة الأصنام، وحين سمِعوا من سيدنا إبراهيم عليه السلام مخالفته للأصنام أسقط في أيديهم وقالوا له: هل تقول صدقاً بالفعل أم أنك تمزح؟ فقال لهم: إنني أشهد بكل صدق أنّ ربكم واحد فقط، وهو الله تعالى، ودليل هذا أنه هو خالق السماء والأرض وربكم.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾:

٥٠ - أَقْسَمَ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاللَّهِ تَعَالَى عَاقِداً الْعَزْمَ فِي قَلْبِهِ عَلَى أَنَّهُ حِينَ يَخْرُجُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ مَعْبِدِ أَصْنَامِهِمْ، وَأَجِدُ فُرْصَةً سَاحِحَةً، فَسَوْفَ أُحْطِمُ أَصْنَامَهُمْ، وَهَنَا يَقُولُ جَمَهُورُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهُ ذَاتَ يَوْمٍ خَرَجَ النَّاسُ جَمِيعًا مِنَ الْمَدِينَةِ بَغَرَضِ الْإِحْتِفَالِ بِأَحَدِ أَعْيَادِهِمْ، فَحَمَلَ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ مِعْوَلَهُ وَحَطَّمَ الْأَصْنَامَ جَمِيعًا، لَكِنَّهُ تَرَكَ أَكْبَرَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ دُونَ تَحْطِيمِ، وَوَضَعَ الْمِعْوَلَ عَلَى كَتِفِ هَذَا الصَّنَمِ، حَتَّى يَفْهَمَ النَّاسُ أَنَّ هَذَا الصَّنَمَ الْأَكْبَرَ هُوَ الَّذِي قَامَ بِهَذِهِ الْحَرَكَةِ! أَوْ أَنَّ يَخْجَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُ إِذَا كَانَ هَذَا الصَّنَمُ لَمْ يَسْتَطِعْ إِنْقَاذَ الْأَصْنَامِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَحِيطُ بِهِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُهُ إِنْقَاذُ مَنْ يَعْبُدُونَهُ؟

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا إِلَهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾:

٥١ - حِينَ عَادَ النَّاسُ مِنْ إِحْتِفَالِهِمْ عِنْدَ الْمَسَاءِ غَضِبُوا غَضَبًا شَدِيدًا مِمَّا رَأَوْا وَقَالُوا: مَنْ هُوَ الظَّالِمُ الَّذِي فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ بِسُوءٍ، وَاسْمُهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿قَالُوا فَاتُّبِعْهُ عَلَىٰ آعِينَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يُشْهَدُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا إِلَهَتَنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾:

٥٢ - قَالَ النَّاسُ: أَحْضَرُوا ذَلِكَ الشَّابَّ هُنَا. وَهَكَذَا اعْتَقَلَ جُنُودُ النَّمْرُودِ سَيِّدَنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَحْضَرُوهُ، فَسَأَلُوهُ: هَلْ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا؟

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ، كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٠﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾:

٥٣ - أَجَابَهُمْ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا: الْفَأْسُ عَلَى كَتِفِ الصَّنَمِ الْكَبِيرِ،

وبالتالي فإنه هو الذي فَعَلَ هذه الفَعْلَةَ، أو اسألوا هذه الأصنامَ المُحَطَّمَةَ إذا من فَعَلَ بهم هذا؟ والظاهرُ أنَّ ما قاله سيِّدنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ كذبٌ؛ لأنَّه هو الذي حَطَّم هذه الأصنامَ، ولكنَّ سيِّدنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ أراد بقوله هذا أن يُثَبِّتَ عَجَزَ هذه الأصنامِ في الحقيقة، بمعنى: أنها إذا لم تستطع أن تُنقَذَ نفسَها، ولا أن تُدَلَّ على مَنْ حَطَّمَهَا، فكيف يمكنُ أن تكونَ آلهةً؟ سَمِعَ الناسُ هذا الجوابَ فقال بعضهم لبعض: بما أنَّ الفأسَ موجودةٌ بالفعل عند الصَّنامِ الأكبر، فمن الظُّلم إذا أن نَتَّهِمَ إبراهيمَ عليه السَّلامَ، وإذا لم تستطع هذه الأصنامُ أن تُنقَذَ نفسَها، فمن الظُّلم أيضًا أن تُتَّخَذَ آلهةً، وهكذا خَجَلُوا من أنفُسِهِم قائلين: يا إبراهيم، إنك تَعْلَمُ أنَّ الأصنامَ لا تتكلَّم، فكيف نساُلُها؟ قال الله تعالى في شأنِ سيِّدنا إبراهيمَ عليه السَّلامَ: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، ومَنْ قال عنه الله تعالى: إنه نبيٌّ صادقٌ، لا مجال لأن يَصْدُرَ عنه كذبٌ، ولكن مسموحٌ بِمِثْلِ هذه الألفاظِ التي تحمِلُ معنيينِ طبقًا للظروف، وإليك بعضُ الأمثلةِ على هذا:

١ - حين هاجر النبي ﷺ من مكَّة المَكْرَمَةِ، أعلن أهلُ مكَّة أنَّ مَنْ يُرشدنا عن مكانِ مُحَمَّدٍ ﷺ سنُعْطيه مائةَ ناقةٍ مكافأةً له على ذلك، وحين غادر النبي ﷺ غَارَ ثُورٍ معَ رفيقٍ سَفَرَهُ سيِّدنا أبي بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، سأل رجلٌ أبا بكرٍ قائلاً: مَنْ هذا الذي معَكَ؟ فقال سيِّدنا أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: هذا هو الذي يَدُلُّني على الطريق. وهكذا من يستمعُ إلى هذا القولِ سيفَهِمُ منه الدَّلِيلَ على الطريقِ الدُّنيويِّ، بينما أراد به سيِّدنا أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه طريقَ الإسلامِ والخير^(١).

٢ - عن أنسِ بن مالكٍ، أنَّ رجلاً اسْتَحْمَلَ رسولَ الله ﷺ فقال: «إني حاملُكَ

(١) «فيلقى الرجلُ أبا بكرٍ فيقول: من هذا بين يديك؟ فيقول: هذا الذي يهديني السبيل، فيحسب الحاسبُ إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير». سبل الرشاد، ٣: ٣٥٨، وتفسير زاد المسير.

على وَلَدِ النَّاقَةِ»، فقال: يا رسول الله، ما أَصْنَعُ بَوَلَدِ النَّاقَةِ؟ فقال رسول الله ﷺ: «وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلُ إِلَّا التُّوقَ؟»^(١)، فَفَهِمَ هَذَا الشَّخْصُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَتَحَدَّثُ عَنْ صَغِيرِ النَّاقَةِ، بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يَقْصِدُ وَلَدَ النَّاقَةِ.

٣ - يَقُولُ سَيِّدُنَا الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتَتْ عَجُوزٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانٍ، إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ» قَالَ: فَوَلَّتْ تَبْكِي، فَقَالَ: «أَخْبِرِيهَا أَنَّهَا لَا تَدْخُلُهَا»^(٢) وَهِيَ عَجُوزٌ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * غُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧]، فَقَدْ فَهِمَتْ تِلْكَ الْعَجُوزُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقْصِدُهَا بِمَا قَالَ، فَبَكَتْ، لَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَصَدَ أَنَّ الْعَجُوزَ لَا تَدْخُلُ الْجَنَّةَ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَكُونُونَ شَبَابًا، وَسَتَكُونُ أَعْمَارُهُمْ مَا بَيْنَ ٣٠ وَ ٣٣ عَامًا.

٤ - يَقُولُ سَيِّدُنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنْ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، كَانَ اسْمُهُ زَاهِرًا، وَكَانَ يُهْدِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ هَدِيَّةً مِنَ الْبَادِيَةِ، فَيُجْهِّزُهُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ»، وَكَانَ ﷺ يُحِبُّهُ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا، فَاتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَهُوَ لَا يَبْصُرُهُ. فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ أُرْسِلَنِي، فَالْتَفَتَ، فَعَرَفَ النَّبِيَّ ﷺ فَجَعَلَ لَا يَأْلُو مَا أَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْعَبْدَ؟»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا وَاللَّهِ تَجِدَنِي كَاسِدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتُ بِكَاسِدٍ»، أَوْ قَالَ: «أَنْتَ عِنْدَ اللَّهِ غَالٍ»^(٣). وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعَبْدِ هُوَ: الْغُلَامُ، لَكِنَّهُ كَانَ ذَلِكَ الشَّخْصَ الْحُرَّ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْصِدُ: عَبْدًا لِلَّهِ.

(١) الترمذي، أبواب البر، باب ٥٧ برقم ١٩٩١.

(٢) شمائل الترمذي، باب في صفة رسول الله ﷺ، ٢: ١١١.

(٣) مسند أحمد، ٣: ١٦١، وشرح شمائل الترمذي، باب في صفة مزاح رسول الله ﷺ، ٢:

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) ﴿أَفِ لَكُمْ وَلَٰمًا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

٥٤ - قال سيّدنا إبراهيم عليه السّلام: هل من العقل أن تتخذوا ممّن لا يملك أن ينفع أو يضرّ إلها؟ إن كنتم لا تستوعبون شيئاً بسيطاً كهذا فحسبتم إذا أنتم ومن تعبّدون.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾

٥٥ - عندما أقام سيّدنا إبراهيم عليه السّلام الحُجَّةَ على عَجَزِ الأصنام، وأفحمهم عن الجواب، ركبهم العناد والتعصّب، وقالوا لبعضهم: لقد أهينت آلهتنا كثيراً، وإن أردنا أن نقدّم لها شيئاً فعلينا أن نحرق إبراهيم حيّاً، حتى لا يتجرّأ أحدٌ مستقبلاً على إهانة أصنامنا.

﴿قُلْنَا نَارُ كُوفٍ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾

٥٦ - يقول المفسّرون: «لَمَّا أرادوا إحراق إبراهيم جمّعوا له حطباً مدة شهر، ثم جعلوه في حُفرةٍ من الأرض وأضرموها ناراً، فكان لها لهبٌ عظيمٌ، حتى إنّ الطائرَ ليمُرُّ من فوقها فيحترق من شدّة وهجها وحرّها، ثم أوثّقوا إبراهيم وجعلوه في منجنيقٍ ورمّوه في النار، فجاء إليه جبريلُ فقال: ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا، فقال جبريلُ: فاسأل ربّك، فقال: «حسبي من سؤالي علّمه بحالي» (لأنّ الدُّعاء عند الابتلاء بمثابة النّجاة منه) فقال الله: يا نارُ كوني برّداً وسلاماً على إبراهيم، ولم تحرق النارُ منه سوى وثاقه»^(١).

وجاء في الروايات التاريخية، أنّ سيّدنا إبراهيم عليه السّلام مكث في النار سبعة أيام، وكان يقول: إنني لم أجد راحةً في حياتي كالتي وجدتها خلال هذه

(١) صفوة التفاسير، تفسير القرطبي.

الأيام السبعة^(١)، وذات يوم «نَظَرَ نُمُروذُ وأشرفَ على إبراهيمَ من صَرَحٍ له، فراهَ جالسًا في رَوْضَةٍ والمَلَكُ قاعدٌ الى جَنِبِهِ وما حوله نارٌ تحرقُ الحطبَ، فناداه: يا إبراهيم، كبيرُ إِلَهِكَ الَّذي بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ إنْ حالَ بَيْنَكَ وبينَ ما أرى يا إبراهيم، هل تستطيعُ أن تَخْرُجَ منها؟ قال: نعم. قال: هل تخشى إن أقمتَ فيها أن تَضُرَّكَ؟ قال: لا. قال: فقمْ فاخْرُجْ منها. فقام إبراهيمُ يمشي فيها حتى خَرَجَ منها»^(٢).

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾

٥٧ - أرادوا إحراقَ سَيِّدِنَا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في النار، لكنَّ اللهَ تعالى حَفِظَهُ في هذه النارِ الحارقة، وكانت هذه معجزةً عظيمةً لسَيِّدِنَا إبراهيمَ عليه السَّلام.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾

٥٨ - كان سَيِّدُنَا لوطٌ عليه السَّلامُ ابنَ أخِ سَيِّدِنَا إبراهيمَ عليه السَّلام، وكان قد آمَنَ به، ولهذا لم يَتَوَانَ أَهْلُ الْعِرَاقِ في إِيْذَائِهِمَا مَعًا، فَأَمَرَ اللهُ تعالى سَيِّدَنَا إبراهيمَ وسَيِّدَنَا لوطًا عليهما السَّلامُ بالهجرةِ من الْعِرَاقِ إلى الشَّامِ وفِلَسْطِينَ، فَأقام سَيِّدُنَا إبراهيمُ عليه السَّلامُ في فِلَسْطِينَ، في حينَ أَرْسَلَ اللهُ تعالى سَيِّدَنَا لوطًا عليه السَّلامُ نَبِيًّا إلى «سَدُومَ»، وقد بَارَكَ اللهُ تعالى في أَرْضِ الشَّامِ دِينِيًّا ودُنْيَوِيًّا، فقد جاء إليها كثيرٌ من الأنبياءِ الكرامِ عليهمُ السَّلام، حيث حَصَلَ الناسُ منهم على بركةِ الهداية، وتتميُّزِ الأَرْضِ هناك بالخُضرةِ واليُنبوعة، كما يتميُّزُ الطَّقْسُ أيضًا بالاعتدال.

(١) «وكان إبراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام، وقال إبراهيم: ما كنت أيامًا قط أنعم مني من الأيام التي كنت في النار». التفسير المظهري.

(٢) التفسير المظهري.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾

٥٩ - دَعَا سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شَيْخُوخَتِهِ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَهُ الْوَلَدَ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِدَعَائِهِ وَرَزَقَهُ بِسَيِّدِنَا إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِحَفِيدٍ مِثْلَ سَيِّدِنَا يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَا مِنَ الصَّالِحِينَ.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾

٦٠ - جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَسَيِّدِنَا إِسْحَاقَ وَسَيِّدِنَا يَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَيْمَةً لِلنَّاسِ، أَي: جَعَلَهُمْ أَنْبِيَاءَ لَهُمْ، وَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ ادْعُوا النَّاسَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا عَابِدِينَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَيَقُومُونَ بِإِرْشَادِ النَّاسِ طَبَقًا لِأَحْكَامِهِ جَلَّ وَعَلَا.

﴿وَلَوْ طَآءَ أَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجَيْنَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَلَسِقِينَ﴾

٦١ - كَانَ قَوْمُ سَيِّدِنَا لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْكُنُونَ فِي سَدُومَ، وَكَانُوا أَصْحَابَ سُلُوكٍ غَايَةٍ فِي الشُّوْءِ، وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سَيِّدِنَا لُوطٍ بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالنُّبُوَّةِ، وَحَاوَلَ سَيِّدُنَا لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَمْنَعَ هَؤُلَاءِ مِنْ فِعْلِ الشُّوْءِ وَالْخَبَائِثِ هَذِهِ، وَلَكِنْ لَمَّا لَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا يَرْتَكِبُونَ مِنَ الْفَوَاحِشِ أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِأَمْطَارٍ مِنَ الْحِجَارَةِ مِنْ عِنْدِهِ، وَتَفَضَّلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سَيِّدِنَا لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَهْلِ الْإِيمَانِ مَعَهُ، وَأَخْرَجَهُمْ سَالِمِينَ مِنْ تِلْكَ الْقَرْيَةِ قَبْلَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهَا الْعَذَابُ.

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلَةً، مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَنَصْرَنَّهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾
وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ
شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ
يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ
بَاسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوُصُونَ لَهُ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا
دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ * وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ: أَيُّ مَسْنَى الضُّرِّ وَأَنْتَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ؕ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم
مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَانِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ
مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ
ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ
إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَبَجَعْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ: رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ، زَوْجُهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ
فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَانَتْ
فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾
إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ
بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهَةٍ بِإِثَارٍ جَعُولٌ ﴿٩٣﴾

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلَةً، مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٦﴾
وَنَصْرَنَّهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

وذلك قبل سيّدنا إبراهيم وسيّدنا لوطٍ عليهما السّلام، وحين لم يؤمن به قومه برغم هذه الفترة الطويلة من الدّعوة، وعمدوا إلى الإمعان في تكذيبه وإيذائه، دعا عليهم سيّدنا نوحٌ في الحضرة الإلهيّة قائلاً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وهكذا استجاب الله تعالى لدعاء سيّدنا نوح عليه السّلام وأغرق الكافرين في الماء، وأنجى سيّدنا نوحًا والمؤمنين من أهل بيته من الغرق ومن إيذاء الكفار لهم.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾

٦٣ - أنعم الله تعالى على سيّدنا داودَ عليه السّلام بالنبوة، وكان سيّدنا سليمان عليه السّلام ابنه، وأنعم الله تعالى عليه بالحكم والنبوة أيضًا بعد سيّدنا داودَ عليه السّلام، كما أنعم الله تعالى عليهما (الأب وابنه عليهما السّلام) بالعلم والحكمة. وذات يوم رُفعت قضيةٌ من القضايا إلى سيّدنا داودَ عليه السّلام يقول عنها المفسّرون: «تخاصم إلى داودَ رجلانِ دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته فلم تبق منه شيئاً، فقضى بأن يأخذ صاحب الزّرع الغنم، (حتى يمكن تلافي الخسارة التي أصابته) فخرج الرجلان على سليمان وهو بالباب فأخبراه بما حكم به أبوه، فدخل عليه فقال: يا نبي الله، لو حكمت بغير هذا كان أرفق للجميع! قال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرُها حتى يعود زرعها كما كان، ويأخذ صاحب الزّرع الغنم ويتنفع بألبانها وصوفها ونسلها، فإذا خرج الزّرع ردت الغنم إلى صاحبها والأرض إلى ربّها، فقال له داودُ: وفقت يا بني، وقضى بينهما بذلك»^(١).

وطبقاً لحكم سيّدنا داودَ عليه السّلام حُرِمَ صاحبُ الغنم من أغنامِهِ إلى

الأبد، بينما لم يُحرّم أحدٌ ممّا يملكه طبقاً لحُكم سيّدنا سليمان عليه السّلام، ولهذا كان الحُكم الثاني هو الأفضل، وقد اجتهد كلا النّبیین علیهما السّلام في هذا الحُكم، ورجع سيّدنا داود عليه السّلام عن اجتهاده، وحكم طبقاً لاجتهاد ابنه، وكان عمُر سيّدنا سليمان عليه السّلام إذ ذاك أحدَ عشرَ عامًا فقط^(١)، وقد أنعم الله عليه منذ طفولته بمقدرة غير عادية على اتّخاذ القرار.

حينَ يحُكم مجتهدٌ في أمرٍ ما بإخلاصٍ فإنَّ الله يُثيبه على حُكمه، سواءً كان حُكمًا صحيحًا أم حُكمًا خاطئًا، مثلما قال النّبي ﷺ فيما رواه أبو قيس رضي الله عنه: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجرٌ»^(٢)، والمراد بالأجرين: أجرُ الاجتهاد، وأجرُ الحُكم الصّحيح، والمراد بالأجر الواحد: أنه سيُعطى ثوابَ اجتهاده، ولا ثوابَ الحُكم الصّحيح.

الاجتهاد في العصر الحاضر:

المسائل العَصْرِيَّةُ التي لم تُذكَرْ في كُتُبِ الفقه السابقة، مثل: الصّلاة على مكبّر الصّوت، والصّلاة في القطار والطائرة، وإعلان رؤية الهلال من خلال الإذاعة، وتشريح جُثث الموتى، وغيرها من المسائل، يجوزُ الآن الاجتهادُ للتوصّل إلى حُكمها ومعرفة^(٣).

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾

٦٤ - يقول المفسّرون: إنّ الله تعالى قد مَنَحَ صوتَ سيّدنا داود عليه السّلام

(١) «قيل: إنّ سليمان يوم حكم كان ابن إحدى عشرة سنة». التفسير المظهر.

(٢) البخاري، كتاب الاعتصام، باب ٢١.

(٣) تفسير تبيان القرآن.

قدراً عظيماً من الجمال والتأثير، بحيث أن الطيور كانت تتوقف في الهواء لتستمع إليه عندما يقرأ الزبور وتُسبِّح الله مع تسبيحه، بل إن الجبال كذلك كانت تسبِّح معه، وكانت هذه معجزة سيدنا داود عليه السلام، والمعجزة تقال لما يعجز العقل الإنساني، مثل: حديث الأحجار والأشجار والحيوانات إلى النبي ﷺ، وكانت هذه إحدى معجزاته ﷺ.

مرَّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يَتْلُو القرآن من الليل، وكان له صوت طيبٌ [جداً]. فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أُوتِيَ هذا مزامير آل داود» (يعني: أن لديه بعضاً من حُسن الصوت الذي كان لدى سيدنا داود عليه السلام). قال: يا رسول الله، لو عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْمَعُ لَحَبْرَتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا^(١). ويُعَلِّمُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ تَزْيِينَ الْأَعْمَالِ لِكَيْ يَرَاهَا النَّبِيُّ ﷺ وَيَسْمَعَهَا لَيْسَ مِنَ الرِّيَاءِ فِي شَيْءٍ؛ لِأَنَّ رِضَا النَّبِيِّ ﷺ مِنْ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾

٦٥ - ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مَعْجَزَةَ الصَّوْتِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى سَيِّدِنَا دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ الَّذِي كَانَتِ الطُّيُورُ وَالْجِبَالُ تَتَوَقَّفُ لِسَمَاعِهِ وَتَشَارِكُهُ فِي تَسْبِيحِهِ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ذِكْرٌ لِمَعْجَزَةِ الْحَدِيدِ الَّتِي كَانَ يَلْبِسُ فِي يَدَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَحِثْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ مِنْهُ دُرُوعًا غَايَةً فِي الْقُوَّةِ وَخِفَةِ الْوِزْنِ، لِكَيْ تَحْفَظَ النَّاسَ فِي الْمَعَارِكِ مِنْ هُجُومِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا خَطَابٌ لِقَوْمِ سَيِّدِنَا دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا: أَلَا تَشْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الدُّرُوعِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي تَحْمِيكُمْ، وَالَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ عَنْ طَرِيقِ سَيِّدِنَا دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

(١) تفسير ابن كثير، السنن الكبرى للإمام البيهقي، ١٠: ٢٣٠.

يقول المفسرون: إنّ الله تعالى أَلَانَ لِسَيْنَا دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْحَدِيدَ بِحَيْثُ كَانَ يَصْنَعُ مِنْهُ الدُّرُوعَ دُونَ أَنْ يُضْطَرَّ إِلَى صَهْرِهِ فِي النَّارِ، مِثْلَمَا يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ الْأَوَانِي مِنَ الطِّينِ^(١).

وَيُعَلِّمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ احْتِقَارَ الْمِهْنِ الَّتِي يَمْتَنُّهَا الْإِنْسَانُ مِنْ أَجْلِ كَسْبِ لُقْمَةِ عَيْشِهِ جَهْلٌ، وَمُنَافٍ لِعَالِمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. يَقُولُ الْعَلَامَةُ الْقُرْطُبِيُّ: «كَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَصْنَعُ الدُّرُوعَ، وَكَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَكَانَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَائًا، وَنُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَجَّارًا، وَلَقْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيَّاطًا، وَطَالُوْتُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَبَّاعًا»^(٢).

وَرَغْمَ أَنْ نَبَيْنَا الْكَرِيمَ ﷺ لَمْ يَمْتَنِّ مِهْنَةً بَعَيْنَهَا بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ، لَكِنَّهُ رَعَى الْغَنَمَ، وَرَقَعَ الْمَلَابِسَ الْمَمْرُقَةَ، وَغَسَلَ الْمَلَابِسَ، وَخَسَفَ النَّعَالَ، وَسَافَرَ إِلَى الشَّامِ بَغَرَضِ التَّجَارَةِ، وَلِهَذَا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْتَقِرَ أَيَّ عَمَلٍ أَوْ مِهْنَةٍ؛ لِأَنَّ نَبِيَّنَا الْكَرِيمَ ﷺ عَمِلَ فِي أَعْمَالٍ مُتَعَدِّدَةٍ تُعْتَبَرُ حَقِيرَةً فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ، فَكُلُّ عَمَلٍ وَمِهْنَةٍ شَرِيفَةٍ يَمْتَنُّهَا الْإِنْسَانُ بَغَرَضِ كَسْبِ الْقُوَّةِ تَسْتَحِقُّ الشَّاءَ.

طلب الرزق الحلال:

١ - قال رسول الله ﷺ فيما رواه عنه سَيِّدُنَا الْمُقَدِّمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنْ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»^(٣).

٢ - يَقُولُ سَيِّدُنَا كَعْبُ بْنُ عَجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَرَأَى

(١) «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلَانَ الْحَدِيدَ لَهُ لِيَعْمَلَ مِنْهُ بَغَيْرِ نَارٍ كَأَنَّهُ طِينٌ». التفسير الكبير.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) البخاري، كتاب البيوع، باب ١٥ برقم ٢٠٧٢.

أصحابُ رسولِ الله ﷺ من جَلَدِهِ ونشاطِهِ، فقالوا: يا رسولَ الله، لو كان هذا في سبيلِ الله، فقال رسولُ الله ﷺ: «إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صَغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعْقُهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ»^(١).

٣ - أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سَيِّدِنَا آدَمَ بِعِلْمِ أَلْفِ حِرْفَةٍ، وَقَالَ لَهُ: «قُلْ لَوْلَدِكَ وَذُرِّيَّتِكَ: إِنْ لَمْ تَصْبِرُوا فَاطْلُبُوا الدُّنْيَا بِهَذِهِ الْحَرْفِ، وَلَا تَطْلُبُوهَا بِالذِّينِ، فَإِنَّ الذِّينَ لِي وَحْدِي خَالِصًا، وَيُلْ لِمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِالذِّينِ وَيُلْ لَهُ»^(٢).

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾

٦٦ - أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمُعْجَزَةِ تَسْخِيرِ الرِّيحِ، فَكَانَ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُجْلِسُ هُوَ وَوَزَرَاؤُهُ عَلَى الْعَرْشِ، وَيَأْمُرُ الرِّيحَ لِذَهَبَ بِهِمْ حَيْثُ شَاءَ، وَهَكَذَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَطْوِي الْمَسَافَةَ الَّتِي تَسْتَعْرِقُ شَهْرًا فِي السَّفَرِ فِي سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ، لِيَصِلَ إِلَى الْهَدَفِ الْمَنْشُودِ، مَثَلَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُنْذِرُكَ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]، وَلَمْ يَكُنْ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْظُرُ أَثْنَاءَ الرِّحْلَةِ يَمَنَةً أَوْ يَسْرَةً، وَإِنَّمَا كَانَ يَخْنِي رَأْسَهُ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَيَنْشَغِلُ بِذِكْرِهِ^(٣).

(١) المعجم الكبير، ١٩: ١٢٩.

(٢) كنز العمال، ١٠: ٢٠٦ برقم ٢٩٠٩١، البدر المنير، الإمام الشعرائي، ٢٨٩ برقم ١٥٠٧.

(٣) «وهو مطأطىء رأسه ما يلتفت يمينًا ولا شمالاً تعظيمًا لله عز وجل وشكرًا». تفسير ابن كثير.

﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوُصُونَ لَهُ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾

٦٧ - المراد بالشیاطین: الجن المتمردون الذين سخرهم الله تعالى لسيّدنا سليمان عليه السلام، وكان سيّدنا سليمان عليه السلام يكلفهم بأعمال صعبة لا يمكن أن يقوم بها الإنسان، كما كانوا يغوصون في أعماق البحار لاستخراج اللآلئ وغيرها، وهذا الجن وإن كان متمردًا، لكن الله تعالى جعل عليهم ملائكة يراقبونهم، حتى لا يتجرّأوا على عصيان سيّدنا سليمان عليه السلام.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٢﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا﴾

٦٨ - يقول المفسرون: «كان أيوب نبيًا من الرّوم، وكان له أولادٌ ومالٌ كثير، فأذهب الله ماله فصبر، ثم أهلك الأولادَ فصبر، ثم سلط البلاء والمرض على جسمه فصبر، فمرّ عليه ملاءٌ من قومه فقالوا: ما أصابه هذا إلا بذنبٍ عظيم، فعند ذلك تضرّع إلى الله فكشف عنه ضرّه، ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: أكثرهم رحمةً فارحمني، ولم يصرخ بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف، ووصف ربّه بغاية الرحمة ليرحمه، فكان فيه من حسن التلطّف ما ليس في التصريح بالطلب، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي: أجبنا دعاءه وتضرّعه، ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ أي: أزلنا ما أصابه من ضرٍّ وبلاءٍ، ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ قال ابن مسعود: مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث، فلما عوفي أحيوا له وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات»^(١).

﴿وَذَكَرَىٰ لِلْعَبِيدِينَ﴾

٦٩ - في قصة سيّدنا أيوب عليه السلام نصيحة للعابدين، بأنه إذا ما واجهتهم

المشاكل والمصائب في الطريق إلى الله تعالى عليهم أن يصبروا متذكرين في ذلك المصائب التي واجهها سيّدنا أيوب عليه السّلام.

﴿وإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ﴾

٧٠ - لقد واجه سيّدنا إسماعيل وسيّدنا إدريس وسيّدنا ذو الكفل ابتلاءات شديدة، لكنهم صبروا على كلّ هذا، فأدخلهم الله تعالى في رحمته الخاصّة.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾

٧١ - أرسل الله تعالى سيّدنا يونس عليه السّلام نبياً إلى نينوى في العراق، وقد نهى عليه السّلام أهل نينوى عن الشّرك، ودعاهم إلى التوحيد، لكنهم كذّبوه، وازدادوا طغياناً وعصياناً، فأنذرهم سيّدنا يونس عليه السّلام بالعذاب، مؤكّداً لهم أنّ العذاب سينزل عليهم في غضون ثلاثة أيام، وغضب هو عليهم، وتركهم ورّحل من عندهم، ولم ينتظر وحياً من الله تعالى للقيام بهذه الهجرة، ورغم أنّ الهجرة من مناطق أمثال هؤلاء المشركين المعاندين أمر طيّب، لكن الذي يليق بالنبّي هو انتظار الوحي من الله تعالى.

يقول العلامة الرازي: «فَرَكِبَ مَعَهُمْ، فَلَمَّا تَلَجَّجَتِ السَّفِينَةُ تَكَفَّاتُ بِهِمْ وكادوا أن يغرقوا، فقال الملاحون: ها هنا رجلٌ عاصٍ أو عبدٌ أبق؛ لأنّ السّفينة لا تفعلُ هذا من غير رِيحٍ إلّا وفيها رجلٌ عاصٍ، ومن رَسَمْنَا أَنَا إِذَا ابْتُلِينَا بِمِثْلِ هَذَا الْبَلَاءِ أَنْ نَقْتَرَعَ، فَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ الْقَيْنَاهُ فِي الْبَحْرِ، وَلَأَنْ يَغْرُقَ أَحَدٌ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَغْرُقَ السَّفِينَةُ، فَاقْتَرَعُوا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ فِيهَا كُلُّهَا عَلَى يُونُسَ عَلَيْهِ السّلام، فقال: أَنَا الرَّجُلُ الْعَاصِي وَالْعَبْدُ الْآبِقُ، وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ، فَجَاءَ

حوتٌ فابتَلَعه، فأوحى الله تعالى إلى الحوتِ: لا تُؤذِ منه شعرةً، فَإِنِّي جعلتُ بطنَكَ سِجْنًا لَهُ ولم أَجْعَلْهُ طَعَامًا لَكَ»^(١).

خَرَجَ سَيِّدُنَا يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دُونَ أَنْ يَنْتَظِرَ وَحِيًّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ لَا يَرْتَكِبُ بِذَلِكَ خَطَأً، وَلِهَذَا لَنْ يُوَاخِذَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا، وَلَكِنَّهُ شَعَرَ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ أَنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ فِي اجْتِهَادِهِ بِالْخُرُوجِ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ إِلَيْهِ حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ بِالْهَجْرَةِ، وَلِهَذَا اعْتَرَفَ بِخَطِئِهِ، وَدَعَا اللَّهَ وَهُوَ فِي ظُلُمَاتِ بَطْنِ الْحَوْتِ، وَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ، فَأَخْرَجَهُ الْحَوْتُ مِنْ جَوْفِهِ وَأَلْقَى بِهِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ.

فضل دعاء سيدنا يونس عليه السلام:

١ - قال النبي ﷺ فيما رواه سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ»^(٢).

٢ - ذاتَ مَرَّةٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ كَرْبٌ أَوْ بَلَاءٌ مِنْ بَلَايَا الدُّنْيَا دَعَا بِهِ يُفَرِّجَ عَنْهُ؟» فَقِيلَ لَهُ: بَلَى، فَقَالَ: «دَعَاءُ ذِي النُّونِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾»^(٣).

﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

٧٢ - قال الله تعالى:

١ - ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

(١) التفسير الكبير.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٨٢ برقم ٣٥٠٥.

(٣) المستدرک للحاکم، ١: ٦٨٥ برقم ١٨٦٤.

٢ - ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

٣ - ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وَيُعَلِّمُ مِنَ الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَهْدِي الظَّالِمِينَ، وَأَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ تَنْزِلُ عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَنَّ الظَّالِمَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا، لَكِنَّ الْجُزْءَ الْأَخِيرَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ مَا قَالَه سَيِّدُنَا يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١).
وَالْآنَ إِذَا اعْتَقَدَ أَيُّ مُسْلِمٍ أَنَّ سَيِّدَنَا يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ ظَالِمًا، فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَكْفُرُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَهَذَا يَبْرُزُ سَوَالٌ فَحَوَاهُ أَنَّ سَيِّدَنَا يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَعْمَلَ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ لِنَفْسِهِ، وَبَيَّنَّهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، فَلَمَّاذَا لَا نَسْتَطِيعُ نَحْنُ أَنْ نَقُولَ مِثْلَ هَذَا؟

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ حِينَ يَسْتَعْمِلُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ لَفْظًا لَا يَلِيقُ مَعْنَاهُ الظَّاهِرِيُّ بِشَأْنِهِ تَعَالَى، يَنْبَغِي أَنْ نَقُومَ بِتَأْوِيلِهِ، مِثْلَمَا اسْتَعْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِنَفْسِهِ الْأَفْظَا مِثْلَ الشُّخْرِيَّةِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَالْمَكْرُ مَعَهُمْ وَكَذَا الْخِدَاعُ، وَهِيَ لَا تَلِيقُ بِشَأْنِ اللَّهِ تَعَالَى، لِهَذَا نَتْرُكُ مَعْنَاهَا الظَّاهِرِيَّ، وَنَقْصِدُ إِلَى الْمَعْنَى الَّتِي يَلِيقُ بِعَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَبِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ، إِذَا اسْتَعْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ لَفْظًا مَا فِيهِمَا يَتَعَلَّقُ بِنَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ لَفْظًا مَا لِنَفْسِهِ مِمَّا لَا يَلِيقُ مَعْنَاهُ الظَّاهِرِيُّ بِشَأْنِ النَّبِيِّ، يَجِبُ عَلَيْنَا تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَالِكُ لِلْأَنْبِيَاءِ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ مَا يَشَاءُ، وَالْأَنْبِيَاءُ خَاصَّةً اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَسْتَطِيعُونَ التَّعْبِيرَ عَنْ عَجْزِهِمْ وَتَوَاضُعِهِمْ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يُحِبُّونَ، لَكِنْ لَا يَجُوزُ لَنَا نَحْنُ أَنْ نَقْصِدَ إِلَى مَعْنَى لَا يَلِيقُ بِشَأْنِهِمْ وَعَظَمَتِهِمْ.

وَالسَّوَالُ الْآنَ: لَمَّاذَا اسْتَعْمَلَ سَيِّدُنَا يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْأَفْظَا الصَّعْبَةَ

(١) المستدرک للحاکم، ١: ٦٨٥ برقم ١٨٦٤.

لنفسه؟ والجواب عن هذا أنَّ تقوى النبي تكون من الرفعة بمكان بحيث يشعر بأنَّ الهفوة البسيطة بمثابة الخطأ العظيم، ولهذا اعتبر سيّدنا يونس عليه السّلام هفوته البسيطة هذه خطأ عظيماً وقال عن نفسه: إنه ظالم، وهذا من تواضعه لله تعالى، ودليل على عظّمته وكماله، أمّا إن قال عنه مسلم: إنه ظالم، سيكون هذا دليلاً على كفره وحقاقته.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ ﴿

٧٣ - كانت زوجة سيّدنا زكريّا عليه السّلام عاقراً، وكبر سنّه، ولم يكن لديه أولاد، وذات يوم دعا الله سبحانه وتعالى أن يرزقه الولد لكي يكون وارثاً لعلوم النبوة من بعده، واستجاب الله تعالى دعاءه، ورزقه ابناً هو سيّدنا يحيى عليه السّلام، وكان من المُسارعين في الخير، والمتواضعين لله عزّ وجل، فإذا دعا الله تعالى فكأنّه يأمل في رحمة الله من جانب، ومن جانب آخر يخشى غضبه. ولمزيد من التفصيل عن سيّدنا زكريّا وسيّدنا يحيى عليهما السّلام راجع الآيات من ٣٨ إلى ٤١ من سورة آل عمران (٣)، والآيات من ١ إلى ١٥ من سورة مريم (١٩).

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

٧٤ - كانت السيّدة مريم عليها السّلام عفيفة طاهرة، وقد هيأ الله تعالى لها ولادة سيّدنا عيسى عليه السّلام بغير أب، وبمجرد نفخة من جبريل الأمين، وبهذا أصبحت السيّدة مريم وابنها آية على قدرة الله تعالى أمام الدّنيا كلّها. ولمزيد من التفصيل عن السيّدة مريم وسيّدنا عيسى عليهما السّلام راجع الآيات من ٤٢ إلى ٦١ من سورة آل عمران (٣)، وكذا الآيات من ١٦ إلى ٣٦ من سورة مريم (١٩).

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾

٧٥ - يقول العلامة الصابوني في تفسير هذه الآية: «﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: دينكم ومِلَّتكم التي يجب أن تكونوا عليها أيها الناس مِلَّةً واحدةً غيرُ مختلفة، وهي مِلَّةُ الإسلام، والأنبياءُ كلُّهم جاءوا برسالة التوحيد، قال ابن عباس: معناه: دينكم دينٌ واحد. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أي: وأنا إلهكم لا برَّ سِواي فأفردوني بالعبادة»^(١).

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَيْنَا رَجْعُونَ﴾

٧٦ - دعا الأنبياء الكرام عليهم السَّلام جميعاً إلى التوحيد، ولكنَّ الناس اختلفوا في دينهم بمرور الزَّمن، وتفرَّقوا شيعاً، وفي النهاية سِرَجِعُونَ جميعاً إلى الله تعالى، حيث سيشاهدون بأنفسهم ما الصَّحيح وما الخطأ.

اثنان وسبعون وثلاث وسبعون فرقة:

١ - قال رسول الله ﷺ فيما رواه سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: «تفرَّقت اليهودُ على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقةً، والنصارى مثلُ ذلك، وتفرَّقت أُمّتي على ثلاثٍ وسبعين فرقةً»^(٢)، وهذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

٢ - يقول سيّدنا عبدُ الله بن عمر رضي الله عنهما: قال رسولُ الله ﷺ «... وإن بني إسرائيلَ تفرَّقت على ثنتين وسبعين مِلَّةً، وتفرَّقت أُمّتي على ثلاثٍ وسبعين مِلَّةً، كلُّهم في النار، إلَّا مِلَّةً واحدةً»، قالوا: ومن هي يا رسولَ الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(٣).

(١) صفوة التفاسير.

(٢) الترمذي، أبواب الإيمان: باب ١٨ برقم ٢٦٤٠.

(٣) الترمذي، أبواب الإيمان: باب ١٨ برقم ٢٦٤١.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿٩٤﴾
وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ
وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ
أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَوَلَّوْنَ قُدُومًا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾
إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ
كَانَ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا
لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا
يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ
الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ
نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ بُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا
إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَاكِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِن أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَم بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ
يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِن أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُل رَّبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ﴾

٧٧ - العمل الصالح الذي يعمله المؤمن لا يضيع هباءً، وإنما يكتب في صحيفة أعماله، وسيلقى ثوابه وأجره يوم القيامة تأكيداً.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾

٧٨ - الذين أهلكهم الله تعالى بسبب إصرارهم على الكفر انتهت ساعات المهلة

التي مَنَحَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا مِنْ أَجْلِ التَّوْبَةِ، ولهذا لم يُعَذِّبْهُمْ مِنَ الْمَمَكِنِ الْآنَ أَنْ يُعَادُوا إِلَى الدُّنْيَا ثَانِيَةً، وَإِنَّمَا سَيُجْعَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ، وَمِنْ عِلَامَاتِ قُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ: خُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَالَّذِينَ سَيَنْتَشِرُونَ فِي كُلِّ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ بِسُرْعَةٍ وَكَثَافَةٍ عَدَدِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، وَسَيَبْدُو عِنْدَهَا وَكَأَنَّ جِيوشَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تَنْحَدِرُ مِنْ كُلِّ جَبَلٍ وَتَلٍّ، وَيَعِيشُونَ فِي كُلِّ جَوَانِبِ الْأَرْضِ فُسَادًا وَدِمَارًا، وَلَمَزِيدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ عَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ رَاجِعِ الْآيَةِ رَقْمِ ٩٤ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ (١٨)، وَكَذَا الْحَاشِيَةُ رَقْمِ ٧٥.

﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

٧٩ - بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ سَيَكُونُ قِيَامُ السَّاعَةِ قَدْ اقْتَرَبَ تَمَامًا، وَسَيَصِيبُ الْكَافِرِينَ دَهْشَةٌ عَظِيمَةٌ عِنْدَمَا يَرَوْنَ أَهْوَالَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَسَيَصْرُخُونَ قَائِلِينَ: لَيْتَنَا لَمْ نَغْفُلْ، وَلَقَدْ بَيَّنَّ الْأَنْبِيَاءُ الْكَرَامُ لَنَا كُلَّ شَيْءٍ بِتَفْصِيلٍ وَوُضُوحٍ، وَلَكِنَّا نَحْنُ الَّذِينَ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا، وَلَمْ نَعْتَبِرْ مِنْ كَلَامِهِمْ أَوْ نَأْخُذْ مِنْهُ النَّصِيحَةَ.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾

٨٠ - فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَنْبِيهٌُ لِلْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ وَكُلُّ مَا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ، وَلَوْ أَنَّ آلِهَتَهُمْ حَقِيقَةٌ تَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ لَمَا دَخَلُوا جَهَنَّمَ، بَيْنَمَا هُمْ لَنْ يَدْخُلُوا جَهَنَّمَ فَقَطْ، وَإِنَّمَا سَيَكُونُونَ وَقُودًا لَهَا، وَسَيَكُونُ ضَجِيجُ صُرَاخِهِمْ وَاسْتِغَاثَتِهِمْ فِي جَهَنَّمَ مَرْتَفَعًا لِدَرَجَةٍ لَا يَفْهَمُ مَعَهَا أَحَدٌ مَّا يَقُولُونَ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾

٨١ - حِينَ نَزَلَتِ الْآيَةُ رَقْمِ ٩٨ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ قَالَ مُشْرِكُو مَكَّةَ: إِنَّ سَيِّدَنَا

عيسى وسيدنا عزيزا عليهما السلام يُعبدان أيضاً، فهل سيدخلان النار أيضاً؟ وعندئذ نزلت هذه الآية، يعني: أن سيدنا عيسى وسيدنا عزيزاً لم يرغباً أحداً أو يدعوا لعبادتهما، ولذا فهما ليسا مسئولين عن هذا الشرك، ولهما الخير والجنة بفضل توحيدهما وتقواهما، وسيكونان أبعد ما يكونان عن جهنم بحيث لا يسمعان لها صوتاً، لكن الفرعون والنمرود وغيرهما ممن ادعى الألوهية لنفسه سيدخلون جهنم يقيناً، وسيكونون وقوداً لها مع الحجارة مثلما قال الله تعالى: ﴿فَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

٨٢ - عندما يُبعث عباد الله المقربون من قبورهم يوم القيامة، لن تحزنهم أهوال يوم القيامة ولن تخيفهم في شيء، وإنما ستستقبلهم الملائكة على أبواب قبورهم، وعلى أبواب الجنة أيضاً، وسيشرونهم بأن هذا هو اليوم الذي وعدتم من قبل، وسوف يُنعم عليكم اليوم بأجرٍ عظيم لقاء حسناتكم بحيث تسعدون غاية السعادة حين ترون هذا الأجر.

رُوي عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة على كُتبان المسك لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة: رجلٌ أم قوماً وهم به راضون، ورجلٌ كان يؤذن في كل يوم وليلة، وعبدٌ أدى حق الله وحق مواليه»^(١).

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

٨٣ - سوف يطوي الله تعالى السماء يوم القيامة مثلما يطوي كاتب ورقة كتبها ويدخلها في غلافها، ومثلما خلق الله تعالى بني الإنسان لأول مرة، سيبعثهم ثانية يوم القيامة، وهذا وعد من الله تعالى، والله تعالى مقيم وعده يقيناً.

يقول سيدنا ابن عباس رضي الله عنه: «يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليفة، والأرضين السبع بما فيها من الخليفة، يطوي ذلك كله بيمينه، يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة»^(١).

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

٨٤ - كتب الله تعالى في الزبور أيضاً - بعد الوعظ والنصائح - أن الصالحين هم ورثة الأرض، وعند أكثر المفسرين المراد بالأرض هنا: هو أرض الجنة؛ لأن ذكر البعث من القبور والإحياء من جديد، أي: الآخرة، قد ورد في الآيتين السابقتين على هذه الآية، وهو دليل واضح على أن الأرض التي يجري الحديث حولها الآن ليست أرض هذه الدنيا، وإنما هي أرض الجنة بعد البعث من جديد، مثلما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]. ما أحسن ما قاله العلامة القرطبي: «أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة؛ لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم»^(٢).

(١) تفسير ابن أبي حاتم.

(٢) تفسير القرطبي.

كما نقل العلامة الرازي في تفسيره مقولة مشهورة يقول فيها: «يقال في الأثر: المُلْكُ يَبْقَى معَ الكُفْرِ ولا يَبْقَى معَ الظُّلمِ، فمعنى الآية: وما كان ربُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ، أي: لا يُهْلِكُهُمْ بِمَجَرَّدِ شَرِكِهِمْ إِذَا كَانُوا مُصْلِحِينَ يَعْمَلُ بعضهم بعضًا على الصَّلاحِ والسَّدادِ. وهذا تأويلُ أهلِ الشُّنَّةِ لهذه الآية، قالوا: والدليلُ عليه: أنَّ قومَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشُعَيْبٍ إِنَّمَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ الاستِصْصَالِ لَمَّا حَكَى اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ مِنْ إِيْذَاءِ النَّاسِ وَظُلْمِ الْخَلْقِ»^(١)، يعني: أنَّ أولئك النَّاسِ إِنَّمَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْتَصِبُونَ حَقَّ بَعْضِهِمْ، أَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَدُونَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَعَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَيَظْلِمُونَهُمْ، وَالْعَذَابُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَا يَكُونُ بِسَبَبِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ فَقَطْ؛ لَأَنَّ الْعِقَابَ الْأَسَاسِيَّ وَالْكَامِلَ لِلْكَفْرِ وَالشِّرْكِ هُوَ نَارُ جَهَنَّمَ، وَالَّذِي سَيَتِمُّ تَنْفِيذُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَطَالَمَا بَقِيَ الْمُسْلِمُونَ مُتَّبِعِينَ لِلْإِسْلَامِ عَامِلِينَ بِهِ، يَعْنِي: يَعْدِلُونَ مَعَ النَّاسِ وَيَكُونُونَ مُنْصِفِينَ مَعَهُمْ، سَيَبْقُونَ مُسَاطِرِينَ عَلَى الْأَرْضِ غَالِبِينَ فِيهَا، وَإِذَا أَعْرَضُوا عَنْ هَذَا الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ تَخَلَّى عَنْهُمْ النَّصْرُ وَالْغَلْبَةُ، وَتَرَجَعُوا وَزَالُوا.

﴿إِنَّ فِي هَذَا بَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾

٨٥ - أُنْزِلَ اللهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هِدَايَةً لِلْبَشَرِ جَمِيعًا، لَكِنَّ الَّذِينَ يَحْضُلُونَ عَلَى هَذِهِ الْهِدَايَةِ هُمُ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ تَعَالَى. وَمَفْهُومُ هَذِهِ الْآيَةِ تَقْرِيْبًا هُوَ: أَنَّ رِسَالَةَ الْهِدَايَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَامَّةٌ لِلْجَمِيعِ، لَكِنَّ الَّذِينَ يَحْضُلُونَ عَلَى الْهِدَايَةِ مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ هُمُ الْعَابِدُونَ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

٨٦ - الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ نَبِيَّنَا الْحَبِيبَ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ

رحمةً للعالمين، يعني: كلُّ من كان ربُّه الله، سيّدنا محمدٌ ﷺ رحمةً له، ويقولُ العلامة الألويسيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «وكونه ﷺ رحمةً للجميع باعتبار أنه عليه الصّلاة والسّلام واسطةُ الفيض الإلهيِّ على الممكنات على حسبِ القوابل، ولذا كان نورُه ﷺ أوّلَ المخلوقات، ففي الخبر: أوّلُ ما خلق الله تعالى نورَ نبيِّك يا جابر، وجاء: الله تعالى المُعطي وأنا القاسم... لأنه ﷺ إنّما بُعثَ رحمةً لكلِّ فردٍ فردٍ من العالمين: ملائكتهم وإنسهم وجنّهم ولا فرقَ بينَ المؤمنِ والكافر من الإنس والجنِّ في ذلك، والرحمةُ متفاوتةٌ ولبعضٍ من العالمين المُعلّى والرّقيبُ منها»^(١).

بعض الأحاديث المتعلقة برحمة النبي الكريم ﷺ:

١ - عن أبي هريرة، قال: قيل: يا رسولَ الله، ادعُ على المشركين، قال: «إني لم أبعثُ لَعَنًا وإِنَّمَا بُعِثْتُ رحمةً»^(٢)، وعدمُ دعاءِ النبيِّ ﷺ عليهم دليلٌ على رحمته.

٢ - ذاتُ مرّةٍ أرسلَ اللهُ تعالى مَلَكَ الجبالِ إلى النبيِّ ﷺ قائلاً: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ». فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(٣).

٣ - يقولُ سيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسولُ الله، ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»^(٤).

٤ - يقولُ سيّدنا أبو أمامة رضي الله عنه: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي رَحْمَةً وَهَدًى لِلْعَالَمِينَ»»^(٥).

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) مسلم، كتاب البر، باب ٢٤ برقم ٢٥٩٩.

(٣) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٧ برقم ٣٢٣١.

(٤) دلائل النبوة، الإمام البيهقي، ١: ١٥٨.

(٥) مسند أحمد، ٥: ٢٥٧.

٥ - يقول سيّدنا جابر رضي الله عنه: ما سئل النبي ﷺ عن شيء قط فقال: «لا»^(١).

٦ - تقول السيّدّة عائشة رضي الله عنها: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلّا أن يجاهد في سبيل الله^(٢).

٧ - تقول السيّدّة عائشة رضي الله عنها: ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلّا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلّا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها الله^(٣).

٨ - يقول سيّدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر، حتّى إذا دُفِعنا إلى حائط من حيطان بني النّجار، إذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحدٌ إلّا شدّ عليه، قال: فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فجاء حتّى أتى الحائط، فدعا البعير، فجاء واضعاً مشفره إلى الأرض، حتّى برك بين يديه، قال: فقال النبي ﷺ: «هاتوا خطامه»، فخطّمه، ودفعه إلى صاحبه، قال: ثمّ التفت إلى الناس، قال: «إنه ليس شيء بين السّماء والأرض، إلّا يعلم أنّي رسول الله، إلّا عاصي الجنّ والإنس»^(٤).

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿

٨٧ - يعني: أنّ النبي ﷺ قال لمشركي مكّة: إنّ الوحي الذي يأتيني خلاصته أنّ الذي تليق به العبادة هو إله واحد فقط، وهو الله تعالى، فهل تؤمنون بالله الواحد أم لا؟ وإذا لم تؤمنوا بالله الواحد، فإنّي قد أخبرتكم - بصورة واضحة تمام الوضوح - أنّ العذاب سينزل عليكم بالضرورة بسبب شرككم وإيذائكم

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣٩ برقم ٦٠٣٤.

(٢) مسلم، كتاب الفضائل، باب ٢٠ برقم ٢٣٢٨.

(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب ٨٠ برقم ٦١٢٦.

(٤) مسند أحمد، ٣: ٣١٠، وسنن الدارمي، المقدمة، باب ٤ برقم ١٨.

المسلمين، لكن متى يَنْزِلُ هذا العذاب؟ هل في هذه الدُّنيا في شكلِ غزوةٍ بَدْر، أم في الآخرة بعد الحساب؟ هذا ما لا أعرفه أنا، إلى أن يُطْلِعَنِي اللهُ عليه.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾

٨٨ - يعني: أن الله تعالى يَعْلَمُ تمامَ العلمِ الكُفْرَ الصَّريحَ للمُشركين، ومؤامراتهم الخَفِيَّةَ ضدَّ المسلمين، وسوف يُعاقِبُهُم طبقاً لكلِّ هذا.

﴿وَأَنْ أَدْرِي لَعَلَّهِ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ﴾

٨٩ - بالرَّغم من ظُلم المُشركين وجَوْرِهِم، فَإِنَّ التَّأخِيرَ في نزولِ العذابِ الإلهيِّ عليهم قد يكونُ بَقْصِدِ ابتلائهم، حتى يُعيدوا النَّظَرَ فيما يفعلون، أو أَنَّ هناك وقتاً لمُواخَذَتِهِمْ تَمَّ تحديده من قبل، ولهذا أراد بقاءهم واستفادتهم الدُّنيويَّةَ حتى ذلك الوقتِ المقرَّر.

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾

٩٠ - عندما لم يؤمن المُشركون برَّغم دعوتهم بشكلٍ كامل، دعا النبي ﷺ قائلاً: يا ربِّ، هؤلاء المُشركون لا يقتنعون بلُغَةِ الأدلَّةِ والبراهين، وليس هناك مَنْ يُسْتَعَانُ به في مواجهةِ عنادِهِم سوى ذاتِكَ العَلِيَّةِ، ولهذا كما أَنَّ حُكْمَكَ في كلِّ أمرٍ هو الحقُّ دائماً، لهذا لِتَحْكُمِ أَنْتِ الْآنَ بيني وبينَ هؤلاء المُشركين، بحيث ينتصرُ الحقُّ بصورةٍ واضحة. وهكذا بدأ تراجعُ المُشركين وزوالهم بعد غزوةِ بَدْر بدرجةٍ وصلَّت بهم في نهايةِ الأمر أن اضْطُرَّتْهم إلى تسليم الكعبةِ المعظَّمة ومكةَ المكرَّمةَ للمسلمين.

الفقيهُ إلى الله: محمَّد إمداد حُسَيْن بيززاده،

جامعة الكرم: إنجلترا.

بعد صلاة العصر من يوم الجمعة التاسع من

مايو ٢٠٠٨م

الموافق الثالث من جُمادى الأولى ١٤٢٩هـ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٢) سُورَةُ الْحَجِّ

بعضُ آياتِ هذه السُّورة مَكِّيَّة، نَزَلَتْ في آخِرِ العهدِ المَكِّي، وبعضُ آياتِها مَدَنِيَّة، نَزَلَتْ بعدَ الهجرةِ إلى المدينة في بدايةِ العهدِ المَدَنِيِّ، ولهذا يَرى البعضُ أنَّ هذه السُّورة مَكِّيَّة، بينما يَرى البعضُ الآخَرُ أنها مَدَنِيَّة، لكنَّ جمهورَ المفسِّرين على أنها مجموعةٌ من الآياتِ المَكِّيَّة والآياتِ المَدَنِيَّة^(١).

اسم السورة:

اسمُ هذه السُّورة هو (الحَجُّ)؛ لأنَّ الله تعالى أخبر في الآية رقم ٢٧ منها أنَّ سيِّدنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ حينَ أكملَ بناءَ الكعبة، نادى في الناس بالحجِّ بأمرِ الله تعالى، وبالتالي وَصَلَ صَوْتُهُ إلى كُلِّ أَرْجَاءِ الأَرْضِ، بحيث سَمِعَتْهُ النُّطْفُ في الأَصْلَابِ، والأَجِنَّةُ في الأَرْحَامِ، وقالوا مُجِيبِينَ هذا النداء: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ^(٢).

مضامين السورة:

الكُفَّارُ لا يؤمنونَ بِالْآخِرَةِ، ولا بِالْبَعْثِ بعدَ الموتِ، وفي بدايةِ السُّورة جَرى

(١) «قال الجمهور: السورة مختلطة، منها مكِّي ومنها مدني». القرطبي.

(٢) «فنادى على جبل أبي قبيس: يا أيها الناس، إن ربكم بنى بيتاً، وأوجب عليكم الحج إليه، فأجيبوا ربكم. والتفت بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً، فأجابه كل من كتب له أن يحج من أصلاب الرجال وأرحام الأمهات: لبيك اللهم لبيك». التفسير المنير.

إفهامهم بأن الله تعالى كما يحيي الأرض البور الموات بإنزال المطر عليها، فهو قادرٌ أيضًا على إحياء بني الإنسان بعد الموت، ولذا ينبغي لهم أن يتخلَّوا عن عنادهم وصلِّفهم لكي ينجو من عذاب الآخرة، وأن يؤمنوا بتوحيد الله تعالى وبالحياة الآخرة.

ظَلَّ المسلمون يتحمَّلون ظلم الكُفار لهم لأكثر من ثلاثة عشرَ عامًا ويصبرون عليه، وفي هذه السُّورة أذن الله تعالى للمسلمين أن يدفعوا القوَّة بالقوَّة، وفي نفس الوقت وعدهم بالنصرة والتأييد، بمعنى: أن من ينصُر دينَ الله تعالى ينصُرُه الله أيضًا.

لو ظلَّ شعبٌ واحدٌ غالبًا دائمًا لأصابه الكِبَرُ إلى درجةٍ تجعله يُقدِّم على تدميرِ أماكنِ عباداتِ الشُّعوبِ والأممِ الأخرى، أي: الخانقاهاتِ والكنائسِ والمساجد، ولهذا أذن الله تعالى باستخدام القوَّة ردًّا على من يعتدي بها، بغرضِ حفظِ التوازنِ بينَ الشُّعوبِ والأممِ، وحتى تستطيع كلُّ أمةٍ أداءَ عباداتها في أماكنِ العبادة الخاصة بها طبقًا لمعتقداتها، ولا يُقدِّم أحدٌ على هدمِ أو تدميرِ دورِ عبادة الآخرين.

وفي الآية رقم ٤١ من هذه السُّورة جاء بيانٌ لبعضِ مسؤولياتِ الحُكَّام المسلمين، بمعنى: أنهم إن أصبحوا على رأسِ السُّلطة في الأرض، ينبغي لهم أن يقيموا الصَّلَاةَ، ويؤتوا الزَّكاةَ، ويأْمُرُوا بالمعروفِ وينهَوْا عن المنكرِ.

وفي هذه السُّورة جاء ذِكرُ توحيدِ الله تعالى وقُدْرتهِ بطُرُقٍ عديدة، كما جاء ذِكرُ عَجْزِ أولئك الذين يعبُدُهم المشركون من دونِ الله تعالى، بمعنى: أنهم

لا يستطيعون مجتَمعينَ خَلَقَ ولو ذبَابِيَّةً، ولو سَلَبَهُمُ الدُّبَابُ شَيْئًا ما استطاعوا استعادَتَهُ منه، ولا يمكنُ أن تَلِيَقَ العبادةُ بِأَمْثالِ هذه الأشياءِ العاجزةِ المَجبورةِ.

الفَقِيرُ إلى الله: مُحَمَّدٌ إِمْدَادُ حُسَيْنٍ بِبِرْزاده
جامعة الكَرَم، إنجلترا
بعدَ صلاةِ العصرِ من يومِ السبتِ العاشرِ من
مَآيو ٢٠٠٨ م
الموافق الرابع من جُمادى الأولى ١٤٢٩ هـ.

* * *

سُورَةُ الْحَجِّ (٢٢)،

مدنية (١٠٣)، آياتها (٧٨)، ركوعاتها (١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ③ كُذِّبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ④ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُنَوِّقُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑤ ذَلِكَ يَأْنِي أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ⑦ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ⑧ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ⑨ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ⑩

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾

١ - نَقَلَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ حَدِيثًا طَوِيلًا رَوَاهُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلَقَ الصُّورَ، فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَىٰ فِيهِ، شَاخِصٌ بِبَصَرِهِ إِلَى الْعَرْشِ، يَنْتَظِرُ مَتَى يَوْمَرُ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الصُّورُ؟ قَالَ: «قَرْنٌ»، قَالَ: فَكَيْفَ هُوَ؟ قَالَ: «قَرْنٌ عَظِيمٌ يُنْفَخُ فِيهِ ثَلَاثُ نَفَخَاتٍ، الْأُولَى: نَفْخَةُ الْفَرْعِ، وَالثَّانِيَةُ: نَفْخَةُ الصَّعْقِ، وَالثَّلَاثَةُ: نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَىٰ فَيَقُولُ: انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَرْعِ. فَيَفْرَعُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَيَأْمُرُهُ فَيَمُدُّهَا وَيُطَوِّلُهَا وَلَا يَفْتَرُ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهُمْ مِنْ فَوْاقِ﴾ [ص: ١٥] فَيَسِيرُ اللَّهُ الْجِبَالَ، فَتَكُونُ سَرَابًا، وَتَرْجُحُ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجًّا، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦-٨]، فَتَكُونُ الْأَرْضُ كَالسَّفِينَةِ الْمَوْبِقَةِ فِي الْبَحْرِ، تَضْرِبُهَا الْأَمْوَاجُ تَكْفُؤُهَا بِأَهْلِهَا، وَكَالْقَنْدِيلِ الْمَعْلَقِ بِالْعَرْشِ تَرْجَحُهُ الْأَرْوَاحُ، فَيَمْتَدُّ النَّاسُ عَلَى ظَهْرِهَا، فَتَذْهَلُ الْمَرَضِعُ، وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ. وَيَشِيبُ الْوِلْدَانُ، وَتَطِيرُ الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً، حَتَّى تَأْتِيَ الْأَقْطَارَ، فَتَلْقَاهَا الْمَلَائِكَةُ فَتَضْرِبُ وَجُوهَهَا، فَتَرْجِعُ، وَيُؤَلِّي النَّاسُ مُدْبِرِينَ، يَنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ النَّادِ * يَوْمَ تُؤَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢-٣٣]، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ انْصَدَعَتِ الْأَرْضُ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ، فَرَأَوْا أَمْرًا عَظِيمًا، فَأَخَذَهُمْ لَذَلِكَ

من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمُهَل، ثم خُسِفَ شمسُها وخُسِفَ قمرُها، وانتشرت نجومُها، ثم كُشِطَتْ عنهم، قال رسولُ الله ﷺ: «والأموات لا يَعْلَمُونَ بشيءٍ من ذلك». قال أبو هريرة: فَمَنْ اسْتَشْنَى الله حين يقول: ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ [النمل: ٨٧]، قال: أولئك الشهداء، وإنما يَصِلُ الْفَزَعُ إِلَى الْأَحْيَاءِ، أولئك أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وقاهم الله شرَّ ذلك اليوم وآمَنَهُمْ، وهو عذابُ الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذي يقول الله: ﴿يَتَأَبَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(١).

ويقول العلامة القرطبي: «هي الزَّلْزَلَةُ المعروفة التي هي إحدى شرائط الساعة التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة؛ هذا قولُ المجهور»^(٢)، وقد قال القرآن الكريم عن هذه الزَّلْزَلَةِ: إنها شيءٌ عظيمٌ قاسٍ، يذهلُ عقولَ الناس عند رؤية أهواله ويُعطِّلُها مثلما تُعطِّلُها نشوةُ الخمر، مع أنَّ هذا ليس نشوةَ خمرٍ، وإنما الخوفُ والرُّعبُ من العذاب.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾

٢ - كان النُّضْرُ بن الحارث كافرًا قاسي القلب سيئ الخلق كثير الجِدال، وكان يدَّعي أنَّ الإنسان عندما يموت ويصيرُ ترابًا، لا يَقْدِرُ اللهُ تعالى على بَعْثِهِ مرةً أخرى، وعليه نَزَلَتْ هذه الآية^(٣)، بمعنى: أنه كان يُجادِلُ بغير دليلٍ علميٍّ، ويتَّبِعُ الشَّيْطَانَ.

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) «المراد النضر بن الحارث، قال: إن الله عز وجل غير قادر على إحياء من قد بلي وعاد ترابًا».

القرطبي.

يقول العلامة الصابوني: إِنَّ حُكْمَ هَذِهِ الْآيَةِ عَامٌّ، وَأَنَّ مَنْ يُجَادِلُ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ فَإِنَّهُ مَتَّبِعٌ لِلشَّيْطَانِ^(١).

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ، وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

٣ - بسبب تمرد الشيطان وعصيانه كتب الله تعالى في لوح تقديره أن من يتولَّى الشيطان، أي: يتَّبِعُ الوسواسَ الشَّيْطَانِيَّةَ، فإنَّ الشَّيْطَانَ سَوْفَ يُضِلُّهُ، ويجعله يسيرُ على الطريقِ إلى جهنَّم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ﴾

٤ - لو كنتم تشككون في الآخرة وفي البعث بعد الموت، فتفكروا في خلقكم، فكما خلقكم الله تعالى لأول مرة من الطين، يستطيع أيضاً أن يخلقكم ثانية بنفس الطريقة.

وأحد معاني خلق الإنسان من الطين: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ الْأَوَّلَ سَيِّدَنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الطِّينِ، وَأَنْتُمْ أَوْلَادُ سَيِّدِنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا، وَلِهَذَا فَإِنَّ أَصْلَكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا مِنَ الطِّينِ. والمعنى الثاني: أَنَّ الْغِذَاءَ الَّذِي تَتَنَاوَلُونَهُ مِنَ الثَّمَارِ وَالْخَضِرَوَاتِ أَيْضًا تَنْبُتُ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَأْكُلُونَ لَحُومَهَا تَتَرَبَّى هِيَ أَيْضًا عَلَى مُحَاصِيلِ الْأَرْضِ، وَمِنْ هَذِهِ الْأَغْذِيَّةِ تَتَكَوَّنُ النُّطْفَةُ الَّتِي تَسْتَقَرُّ فِي رَحِمِ الْأُمِّ وَتَكُونُ سَبَبًا فِي وَلَادَةِ الْإِنْسَانِ، وَلِهَذَا فَإِنَّ أَصْلَكُمْ - بِنَاءً عَلَى هَذَا - هُوَ الطِّينُ. على أيِّ حال، خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْسَانَ الْأَوَّلَ مِنَ الطِّينِ مَبَاشَرَةً، وَخَلَقَ أَوْلَادَ آدَمَ مِنَ الطِّينِ أَيْضًا وَلَكِنْ بِوَاسِطَةٍ وَبشكْلِ غَيْرِ مَبَاشَرٍ، وَفِي الْحَالَتَيْنِ أَصْلُ كُلِّ إِنْسَانٍ هُوَ الطِّينُ.

(١) «والآية عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين». صفوة التفاسير.

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾

٥ - عندما يلتقي الحيوان المنوي للرجل ببويضة للمرأة، يكون هذا اللقاء هو بداية خلق الإنسان، وتحوّل هذه البويضة بعد فترة إلى علقه، أي: دم ذي قوام متماسك، ثم يتحوّل هذا بدوره إلى قطعة من اللحم، وحين يتخذ شكل الإنسان بعد ذلك فإنّ هذا الجنين أحياناً يكون متكامل الأعضاء والنموّ بفضل الجينات المختلفة للحيوان المنوي والبويضة، وبالتالي يتشكّل إنسان قويّ البنية، وأحياناً يكون الجنين ناقص النموّ، فيولّد إنساناً معاقاً ومشوّهاً^(١)، وعن طريق هذه المراحل التدريجيّة تظهر قدرتنا، حتى تُدركوا أنّ الله الذي خلق من قطرة لا روح فيها دمًا، ثم خلق من الدّم لحمًا، ثم نفخ فيه الرّوح وجعله إنساناً حيًّا، يستطيع أن يعيد الرّوح إلى الإنسان الميت ويحييه من جديد، كما أنّنا نخلق من نشاء من الأطفال في صورة كاملة بعد أن نُقرّه في رحم أمّه لفترة معيّنة، ونسقط من نشاء من الأجنّة من رحم الأمّ قبل أن يكمل فترة نموّه.

روى عن سيّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ أحدكم يُجمّع خلقه (نطفة) في بطن أمّه أربعين يومًا، ثم يكون علقه (دمًا متخثرًا) مثل ذلك، ثم يكون مضغّة (قطعة لحم) مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا، فيؤمّر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمّله ورزقه وأجله وشقيّ أو سعيد. ثم يُنفخ فيه الرّوح»^(٢). ويُعلّم من هذا أنّ الملك يعرف - بإخبار الله تعالى له - متى يأتي هذا الجنين الذي هو في بطن أمّه إلى الدنيا، وكيف سيكون عمّله، وماذا سيكون

(١) «مخلّقة وغير مخلّقة: مصوّرة معالم الخلقة أو غير مصوّرة، أو مسوّاة لا نقص فيها ولا عيب، أي: تامة الخلق، وغير مسوّاة». التفسير المنير.

(٢) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٦ برقم ٣٢٠٨.

مستوى رزقه (المال والثروة والعلم والحكمة)، ومتى يموت، وهل سيكون شقيًا أم سعيدًا؟ وكما أن الملائكة يعرفون كل هذا بإخبار الله تعالى لهم، فإن الأنبياء الكرام عليهم السلام والأولياء الصالحين أيضًا يعرفون الغيب بإخبار الله تعالى لهم على سبيل المعجزة والكرامة، ولمزيد من التفصيل في هذا الخصوص راجع تفسير الآية رقم ٣٤ من سورة لقمان (٣١).

﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾

٦ - يأتي الإنسان إلى هذه الدنيا في شكل طفل ضعيف، يكون محتاجًا في نموه الجسماني والذهني إلى الآخرين، وحين يشبُّ هذا الطفل ويصير شابًا تكون أعضائه جسمه قوية وقدراته الذهنية في أوجها، ثم يموت البعض بين مرحلة الطفولة والشيخوخة، والبعض يصل إلى مرحلة من الشيخوخة هي أَرْدَلُ الْعُمُرِ، حيث تكون أعضاؤه الجسمانية في غاية الضعف، بما يجعله محتاجًا إلى الآخرين في تلبية احتياجاته مثل الطفل الصغير، كما تكون ذاكرته أيضًا في غاية الضعف، بحيث ينسى المعلومات الخاصة بذاته.

﴿وَرَأَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ بِهَيْجٍ ۝٥﴾ ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾

٧ - في الجزء الأول من هذه الآية جاء ذكرٌ لمراحل الخلق الإنساني في بطن الأم، وفي الجزء الثاني منها جاء ذكرٌ لمراحل الطفولة وحتى الشيخوخة، وفي هذا الجزء الأخير جاء بيان البعث يوم القيامة، بمعنى: أنه كما أن الأرض تكون يابسة ومواتًا، ولا أثر فيها لنبات أو محصولٍ مزروع، ثم يُنزل الله تعالى المطر على هذه

الأَرْضِ الْمَوَاتِ فيجعلها خضراء يانعةً، كذلك عندما يموت الإنسان ويصيرُ تراباً، وتنعدمُ فيه آثارُ الحياة، فإنَّ الله تعالى يأمرُ بِنَفْخِ الصُّورِ فيحيا هذا الإنسانُ من جديد، ولهذا فإنَّ قيامَ الساعةِ والبعثُ هو عَيْنُ الحقِّ، والله تعالى قادرٌ على كلِّ شيءٍ.

قال أبو رَزين العُقَيْلِيُّ رضي الله عنه: قلتُ: يا رسولَ الله، كيف يُحيي الله الموتى؟ وما آيةُ ذلك في خَلْقِهِ؟ قال: «أما مرَّرتَ بوادي أهليك مَحَلًّا؟» قال: بلى، قال: «أما مرَّرتَ به يَهْتَزُّ خَضِرًا؟» قال: قلتُ: بلى، قال: «ثمَّ مرَّرتَ به مَحَلًّا؟» قال: بلى، قال: «فكذلك يُحيي الله الموتى، وذلك آيَتُهُ في خَلْقِهِ»^(١).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾^(٨) ثَانِي عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ^(٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿

٨ - نَزَلَتْ هذه الآيةُ في حقِّ أَبِي جَهْلٍ^(٢)، يعني: أنه يُجادِلُ في ذاتِ الله تعالى وصفاته بغيرِ دليلٍ علميٍّ أو عقليٍّ، أو حتى دليلٍ سَمَائيٍّ، وحين لا يستطيعُ أحدٌ تقديمَ دليلٍ عقليٍّ أو نقليٍّ، فإنه بدلاً من أن يخجلَ من نفسه وعجزه، يتكَبَّرُ ويُصِرُّ على رأيه، وينشَطُ في سَبِيلِ إضلالِ الآخرين، ولهذا سيصيبُهُ الخِزْيُ في هذه الدنيا، وهكذا أَهْلَكَ اللهُ تعالى أبا جهلٍ وأخزاه في معركةِ بَدْرٍ، وحين يُلقَى به في نارِ جهنَّمَ يومَ القيامةِ، سيقالُ له: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَظْلِمْكَ؛ لأنَّ الله تعالى عادلٌ لا يَظْلِمُ أحداً، وإنما هذا جزاءُ أَفْعَالِكَ السيِّئةِ التي ارتكبتها أنت، ولو لم تكذِّبِ النبيَّ ﷺ، وعَمِلْتَ الصالحاتِ لَمَا واجَهْتَ هذا العذابَ اليومَ، ولذا فإنَّ هذا هو حصادُ ما زَرَعْتَ في الدُّنْيَا تحصدُهُ اليومَ.

(١) مسند أحمد، ٤: ١١ برقم ١٥٧٦١.

(٢) «نزلت هذه الآية في أبي جهل». التفسير الكبير.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَذَا نَحْنُ أَخْلَصُومُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِّن حديدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾

٩ - في هذه الآيات بيانٌ لمثالٍ على ذلك المسلم المُدْبَذِ الذي لا يؤمنُ إيمانًا كاملاً بدين الإسلام، وإنما يقفُ على حافة الشكِّ، وحين ينالُ فائدةً دُنيويَّةً تراه يمدحُ الإسلامَ ويثني عليه، وإذا حلَّ به ابتلاءٌ أَعْرَضَ عن الإسلام وتحوَّلَ إلى الكُفْرِ، ومثلُ هذا الشَّخصِ يظلُّ محرومًا في الدُّنيا من ثقة المسلمين، ويبقى محرومًا من رحمة الله تعالى في الآخرة.

يقول سيّدنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾، قال: كان الرجلُ يقدّم المدينة، فإن ولدت امرأته غلامًا، وتنجت خيله قال: هذا دينٌ صالحٌ، وإن لم تلدِ امرأته ولم تنجُ خيله قال: هذا دينٌ سوءٌ^(١).

﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾

١٠ - أيّا كان من يُعبُد من دون الله تعالى القادر المطلق فإنه لا يملك نفعًا ولا ضرًّا لأحد، وبالرغم من ذلك فإن من يأمل نفعًا من هذا المعبود الباطل يكون في قمة الضلال؛ لأن من الوهم، بل وفي حكم المستحيل، أن ينفعه هذا المعبود الباطل، في حين أن الضرر منه قريبٌ وواضح، بمعنى: أنه سيكون محرومًا في الدنيا من مال الغنيمة، وفي الآخرة سيكون محرومًا من الجنة، كما أنه حين يرى معبوده يحترق معه يوم القيامة بنار جهنم سيناديه قائلًا: كم أنت صديقٌ سيئ! تحترق بنار جهنم، وأدخلتني أنا أيضًا معك فيها.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾:

١١ - يقول الإمام الرازي في تفسير هذه الآية: «إن حُسادَه وأعداءَه (أي: النبي ﷺ) كانوا يتوقعون أن لا ينصره الله وأن لا يُعليه على أعدائه، فمتى شاهدوا أن الله نصره غاظهم ذلك»^(٢). والآن إن أراد أحدهم النجاة من غمّه وغضبه هذا فإنه يصعدُ إلى مكانٍ مرتفع ويقفز من فوقه متحرًا، وبهذا ينتهي غمّه وغضبه مع نهاية حياته، أمّا إن بقي على قيد الحياة فإنه سيقى يحترق في نار غيظه وحقدِه

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الحج (٢٢): باب ٢ برقم ٤٧٤٢.

(٢) التفسير الكبير.

كلّما رأى ما يحققه النبي ﷺ من إنجازات عظيمة؛ لأن الله تعالى قد وعد النبي ﷺ بالفتح والنصرة، والله لا بدّ مُتِمُّ وعده ومُنْجِزه.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾

١٢ - أنزل الله تعالى القرآن المجيد بالدلائل الواضحة، وبفضل هذا القرآن يكون المستحقُّ لهداية الله تعالى هو ذلك الذي يعملُ على إرضائه دائماً، وقد جاء هذا المفهومُ في آيةٍ أخرى قال فيها الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

١٣ - اليوم يدعي المسلم واليهودي وعابد النجوم والمجوسي والمُشرك أنه على حق، والباقون على باطل، وفي القرآن الكريم الدلائل الواضحة على صدق الإسلام وحَقَانِيَّتِهِ، وبالرغم من ذلك فإن من يتفكرون في هذه الدلائل ويتمعنون فيها ثم لا يؤمنون بالإسلام، ويحكمُ الله بعقابهم يوم القيامة، سيَعْلَمُ كلُّ واحدٍ منهم حينئذٍ أن الدين الإسلامي فقط هو الحق، وأن حكمَ الله بذلك ليس مجرد كلام سَمِعَهُ، فهو نفسه شاهدٌ عيان على كلِّ شيء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾

١٤ - قال النَّحَّاسُ: «أصلُ السُّجودِ في اللغة: الاستسلام والانقيادُ لله عزَّ وجلَّ»^(١)،

(١) تفسير القرطبي، سورة الرحمن (٥٥): الآية ٦.

والمراد بسجود كل شيء في السماء والأرض باعتبار اللغة: أنه ملترم بحكم الله تعالى، وأنه لا يتجاوز القواعد والضوابط الموضوعية له.

أما إن قصدنا المعنى الاصطلاحي للسجود مثلما نسجد في الصلاة، فيمكن أيضًا أن يكون معناه: أن كل شيء يسجد بطريقته، ولكننا لا نفهم كيفية سجوده، مثلما نعرف أن كل شيء في السماء والأرض يسبح الله تعالى، ولكننا لا ندرك كيفية هذا التسبيح.

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

١٥ - بنو الإنسان قسمان؛ أكثرهم الذين يخضعون للأحكام الإلهية ويظهرون عبوديتهم لله تعالى ويعبرون عنها عمليًا، ويطبّقونه في شكل وضع رؤوسهم على الأرض ساجدين في عبادة الله تعالى، وأمثال هؤلاء الطائعين يُدخلهم الله تعالى الجنة في عزٍّ ووقار. أما الذين لا يعترفون بالأحكام الإلهية، ولا يسجدون لله عابدين له، فإن أمثال هؤلاء العصاة كُتب عليهم العذاب، وسيدخلون جهنم في خزي شديد، والجن أيضًا قسمان مثل البشر؛ لأن بعضهم مؤمن والبعض الآخر كافر.

﴿هَٰذَا نِ خَصَمَانِ أَحْصِمُوا فِي رَيْبِهِمَا﴾

١٦ - من هذان الفريقان؟ يقول بعض المفسرين: إن فريقًا منهم هم المسلمون، والفريق الثاني هم غير المسلمين عمومًا، أي: اليهود والنصارى وعبدة النجوم والمجوس أو المشركون، وهم الذين كان يدور بينهم الجدل حول التعاليم الإسلامية، لكن الحديث الذي ذكره الإمام مسلم في آخر كتابه «صحيح مسلم»، يُقسم فيه سيّدنا

أبو ذر رضي الله عنه قائلًا: «إِنَّ هَذَانِ خَصَمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ» ﴿٢٢﴾ نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ بَرَزُوا يَوْمَ بدرٍ: حمزة وعليٌّ وعُبَيْدَةُ بنِ الحَارِثِ (على الجانبِ الإسلامي) وعُتْبَةُ وشَيْبَةُ ابْنَي ربيعةٍ والوليد بن عُتْبَةَ (من جانبِ الكُفَّارِ) ﴿٢١﴾.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾

١٧ - في هذه الآيات الأربعة (من الآية رقم ١٩ إلى الآية رقم ٢٢) ذَكَرَ اللهُ تعالى ثلاثة أقسام من العقابِ للكُفَّارِ يومَ القيامة:

١ - سِيلْبَسُونَ ثِيَابًا مِنْ نارٍ، يعني: كما أَنَّ اللَّباسَ يَغطِّي جِسمَ الإنسان، كذلك تُحِيطُ النَّارُ بِجِسمِهِ كُلِّهِ مِنَ الجوانِبِ الأربعة.

٢ - سَيُصَبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ ماءٌ شَدِيدُ الغَلْيَانِ، سَيَشْوِي جُلُودَهُمْ، بل وما في بطونِهِمْ أيضًا.

٣ - سَتُسْحَقُ رُءُوسُهُمْ بِمَقَامِعٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَحِينَ يَحاولُونَ الخُرُوجَ مِنَ النَّارِ مِنْ شِدَّةِ الأَلَمِ يُعادُونَ إِلَيْهَا ثَانِيَةً، وَيَقَالُ لَهُمْ: إِنَّ النَّارَ مُستَقَرُّكُمْ الأَبَدِيَّ.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُمْ فِيهَا إِلَى الْأَطْيَافِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُمْ فِيهَا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعِكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نَذَقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْرُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾

١٨ - الأساور الذهبية واللؤلؤ والملابس الحريرية ترتديها النساء في هذه الدنيا، ولا تجوز للرجال، ولكن المؤمنين من الرجال سيحلون في الجنة بالذهب والحرير.

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ﴾

١٩ - السبب في دخول أهل الإيمان الجنة وتنعمهم بنعمها هو أنهم عندما هُودوا في الدنيا إلى كلمة التوحيد الطاهرة، وإلى طريق الإسلام العزيز، آمنوا بتوحيد الله عز وجل من أعماق قلوبهم، والتزموا مخلصين تمام الإخلاص بمبادئ الإسلام الذهبية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعُرْكُفِ فِيهِ وَالْأَبَادِ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ يُظَلَمِ نُزُفَةً مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

٢٠ - عندما منع مشركو مكة النبي ﷺ والصحابة الكرام رضي الله عنهم من دخول المسجد الحرام في عام الحديبية (العام السادس للهجرة)، نزلت هذه الآية^(١)، يعني: الذين يمنعون غير المسلمين من دخول الإسلام، ويمنعون المسلمين من زيارة المسجد الحرام، مع أن للمقيمين والمسافرين الحق بالتساوي في المجيء إلى المسجد الحرام، ومن يرد الظلم في المسجد الحرام سيواجه عذاباً أليماً، والدنوب معيوبة في كل مكان، لكنه مضاعف في المسجد الحرام؛ لأن فيه معصية لله تعالى من جانب، ومن جانب آخر إهانة للمسجد الحرام.

(١) «قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت الآية في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية عن المسجد الحرام عن أن يحجوا ويعتصروا». التفسير الكبير والقرطبي.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٣٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ
ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ ﴿٣٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ
مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ﴿٣٨﴾
ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ
يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، عِنْدَ رَبِّهِ. وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى
عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٤٠﴾ حُنَفَاءَ
لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي
بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٤١﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٤٢﴾
لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٤٣﴾

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾

٢١ - يقول سيّدنا أبو ذرّ الغفاري رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، أيّ مسجدٍ
وُضِعَ أوّل؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثمّ أيّ؟ قال: «ثمّ المسجد الأقصى»،
قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون»^(١).

وَيُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّ الْبَنَاءَ الأوّلَ للمسجد الحرام هو سيّدنا آدم عليه السّلام، وأنّ
الْبَنَاءَ الأوّلَ للمسجد الأقصى كان أحد أبناء سيّدنا آدم عليه السّلام، ثمّ تَهْدَمُ مَبْنَى
بَيْتِ اللَّهِ فِي طُوفَانِ سَيِّدِنَا نُوحٍ عَلَيْهِ السّلام، وَمُحِيتُ آثَارُهُ، فَأَرْشَدَ اللَّهُ تَعَالَى سَيِّدَنَا
إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السّلامُ إِلَى مَكَانِهِ، وَقَامَ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السّلامُ بِنَاءَ الْكَعْبَةِ ثَانِيَةً
بَأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا أَنَّ مَبْنَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى قَدْ تَهْدَمُ هُوَ الْآخِرُ فِي طُوفَانِ نُوحٍ
عَلَيْهِ السّلام، فَبَنَاهُ ثَانِيَةً سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السّلام.

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٤٠ برقم ٣٤٢٥.

﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ فِي شَيْءٍ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

٢٢ - المقصود بتطهير وتنظيف بيت الله تعالى هو: أن تُنظفَ عمارته من التراب والغبار، وتُطهرَ بيئته من الكُفر والشُّرك، بحيث تطمئنُ به قلوبُ وأنظارُ العابدين، ويسجدونَ لله تعالى الخالقِ الحقيقيِّ بكلِّ اطمئنانٍ وسَكينة، ويُعلَمُ منه أنَّ الاحتفاظَ بالمساجِدِ نظيفةً طاهرةً هو حُكْمُ الله تعالى، وسُنَّةُ الأنبياءِ الكرامِ عليهمُ السَّلام، كما أنه يجبُ أن يكونَ القائمونَ على أمرِ المساجدِ صالحينَ متقين.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

٢٣ - يقولُ سيّدنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: «لَمَّا فَرَّغَ إبراهيمُ من بناءِ البيتِ قيلَ له: أذِّنْ في الناسِ بالحجِّ، قال: يا ربِّ، وما يبلُغُ صوتي؟ قال: أذِّنْ وَعَلَيَّ الإِبلَاغُ، فصعد إبراهيمُ على جَبَلٍ أَبِي قُبَيْسٍ وصاح: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَكَ بِحَجِّ هَذَا الْبَيْتِ لِيُشَبِّحَكَ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُجِيرَكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَحُجُّوا، فَأُجَابَهُ مَنْ كَانَ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ»^(١)، ويقولُ مجاهدٌ: «فما حجَّ إنسانٌ ولا يحُجُّ أحدٌ حتَّى تقومَ السَّاعةُ إلَّا وقد أسمعَهُ ذلكَ النداءَ، فَمَنْ أَجَابَ مَرَّةً حجَّ مَرَّةً، وَمَنْ أَجَابَ مَرَّتَيْنِ أو أَكثَرَ فَالحجُّ مَرَّتَيْنِ أو أَكثَرَ على ذلكَ المقدار»^(٢).

لقد أصبح السَّفَرُ في أيامنا هذه سهلاً ميسراً بفضل الطائراتِ والسُّفن، لكن في الزمنِ الماضي كان الناسُ يسافرونَ سَفَرًا طويلاً في صورة القوافل مشياً على الأقدام ومُمتطِينَ ظهورَ الجمال، وكانت الجمالُ هي الأخرى تصابُ بالضعفِ والهزال من كثرة الأسفارِ واستمرارِيتها. على أية حال، سواءً كانت الحياةُ البسيطةً والمركَّب

(١) صفوة التفاسير.

(٢) التفسير الكبير.

البسيط كما في العهد القديم، أو الحياة المليئة بالمشاغل والمركب السريع كما في العصر الحديث، فإن عدد الزائرين لبيت الله الحرام في ازدياد مستمر.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَهُمْ﴾

٢٤ - الفائدة الأساسية للحج والهدف الرئيس له هو مغفرة الذنوب ونيل رضى الله تعالى، مثلما قال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١)

وبالإضافة إلى الفوائد الدينية العظيمة في اجتماع الحج العظيم، يمكن تحصيل فوائد دنيوية منه أيضاً، ولو التزم الحُكَّام المسلمون بالحج كل عام، لا تخذ الحج شكل مؤتمر قمة سنوي لرؤساء العالم الإسلامي، فيجلسون معاً عن قرب، ويتناقشون في المشاكل التي تواجه المسلمين، مثلما كان كل حُكَّام الولايات والأقاليم على مستوى العالم الإسلامي يجتمعون معاً في مكة في موسم الحج على عهد الخلفاء الراشدين، ويتشاورون فيما بينهم بخصوص أحوال كل إقليم، ولكن للأسف الشديد نسي المسلمون فيما بعد الأهمية العالمية للحج.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ﴾

٢٥ - أيام النحر:

للأضحية ثلاثة أيام، يعني: يوم العاشر والحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة، لكن الذبح في اليوم الأول هو الأفضل^(٢).

(١) البخاري، كتاب الحج، باب ٤ برقم ١٥٢٢.

(٢) «أيام النحر ثلاثة أفضلها أولها». القدوري: الجوهرة النيرة.

حيوان الأضحية:

تَجُوزُ الْأَضْحِيَّةُ بِثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ، يَعْنِي: الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ وَالْجَامُوسَ، ثُمَّ الْجِمَالَ، وَتَدْخُلُ فِيهَا ذَكَوْرُهَا وَإِنَاثُهَا عَلَى السَّوَاءِ، وَالتَّضْحِيَّةُ بِالْبَقَرِ وَالْجِمَالِ يَكُونُ عَنْ سَبْعَةِ أَفْرَادٍ لِكُلِّ^(١).

حكم الأضحية:

تَجِبُ الْأَضْحِيَّةُ عَلَى الْمُسْلِمِ - رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ - إِذَا كَانَ حُرًّا مُقِيمًا يَمْلِكُ مَا يُضَحِّي بِهِ، وَلا حَظَّ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ التَّالِيَةِ فِي هَذَا الْخُصُوصِ:

١ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «مَنْ كَانَ لَهُ سَعَةٌ وَلَمْ يُضَحِّ فَلَا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّانَا»^(٢).

٢ - عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سَنِينَ يُضَحِّي^(٣).

٣ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا ذَبَحَ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ذَبَحَ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَقَدْ تَمَّ نُسُكُهُ، وَأَصَابَ سُنَّةَ الْمُسْلِمِينَ»^(٤).

وَهَنَّاكَ أَضْحِيَّةٌ أُخْرَى، وَهِيَ الَّتِي يُضَحِّي بِهَا الْحُجَّاجُ فِي الْحَرَمِ، وَهُمْ لَا يُصَلُّونَ عِيدَ الْأَضْحَى، لَكِنَّ الْأَضْحَايَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ السَّابِقَةِ هِيَ الْأَضْحَايَ الَّتِي يَذْبَحُهَا الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ بَقَاعِ الْأَرْضِ كُلِّ فِي مَنْطِقَتِهِ بَعْدَ صَلَاةِ

(١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْبَقَرَةُ عَنْ سَبْعَةٍ، وَالْجَزُورُ عَنْ سَبْعَةٍ». أَبُو دَاوُدَ، كِتَابُ الضَّحَايَا، بَابُ ٧ بِرَقْم ٢٨٠٨.

(٢) ابْنُ مَاجَه، أَبْوَابُ الْأَضْحَايِ، بَابُ ٢ بِرَقْم ٣١٢٣.

(٣) التِّرْمِذِيُّ، أَبْوَابُ الْأَضْحَايِ، بَابُ ١١ بِرَقْم ١٥٠٧.

(٤) الْبُخَارِيُّ، كِتَابُ الْأَضْحَايِ، بَابُ ١ بِرَقْم ٥٥٤٦.

عيد الأضحى، وهي سنة عن النبي الكريم ﷺ؛ لأنه ﷺ كان يُضحي كل عام بعد صلاة عيد الأضحى.

فضل الأضحية:

١ - عن عائشة، أن النبي - ﷺ - قال: «ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحبَّ إلى الله عزَّ وجلَّ من هراقة دم (ذبح الحيوان)، وإنَّه ليأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها (يعني: أن كلَّ هذه الأشياء تكون في حسنات المضحي)، وإنَّ الدَّم ليقع من الله عزَّ وجلَّ بمكانٍ قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا (أيها المسلمون) بها نفساً»^(١).

٢ - عن زيد بن أرقم، قال: قال أصحاب رسول الله - ﷺ -: يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم»، قالوا: فما لنا فيها يا رسول الله؟ قال: «بكل شعرة حسنة». قالوا: فالصوف يا رسول الله؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة»^(٢).

لحوم الأضاحي:

المستحبُّ هو تقسيم لحوم الأضاحي إلى ثلاثة أقسام؛ قسمٌ لأصحاب البيت، وقسمٌ يتصدقُ به، وقسمٌ يوزعُ على الأصدقاء والأحباب، وقد قال النبي ﷺ: «فكلوا وادخروا وتصدقوا (أي: من لحوم الأضاحي)»^(٣).

(١) ابن ماجه، أبواب الأضاحي، باب ٣ برقم ٣١٢٦.

(٢) ابن ماجه، أبواب الأضاحي، باب ٣ برقم ٣١٢٧.

(٣) مسلم، كتاب الأضاحي، باب ٥ برقم ٥١٠٣.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَنَّهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾

٢٦ - بعد الإحرام يمتنع على الحاجِّ قصُّ الشَّعرِ والأظافرِ والتَّعَطُّرُ والَاغْتِسَالُ بغيرِ ضرورة، والحُجَّاجُ رجالاً ونساءً يُحرِّمونَ يومَ الثَّامنِ من ذي الحِجَّةِ من المسجدِ الحرام، ويَظْلُونَ في سَفَرٍ مُستمرٍّ أيامَ الثَّامنِ والتَّاسعِ والعَاشِرِ، أي: لثلاثةِ أيام، وبالتالي تجتمعُ على الجِسمِ آثارُ الحرارةِ والعرقِ والغبارِ والتُّرابِ وغيرها، ولهذا جاء الإرشادُ بأنَّ يتحلَّلوا من الإحرام يومَ العَاشِرِ من ذي الحِجَّةِ بعدَ الذَّبحِ، ويحلِّقوا رءوسَهُم ويغتسلوا ويُنظِّفوا أجسادَهُم ممَّا عَلِقَ بها، ويتعطَّروا، ولو كان أحدهم قد نَذَرَ نَذراً، على سَبِيلِ المِثال: أن يَنْذَرَ لو أنَّ اللهَ تَعَالَى أَكْرَمَهُ بِسَعَادَةِ الحَجِّ سَيُصَلِّي اثْنَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً نَفْلاً، فعليه أن يوفِّي نَذْرَهُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، ثُمَّ يَنْشَغَلَ فِي أَدَاءِ بَقِيَّةِ مَناسِكَ الحَجِّ.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾

٢٧ - المرادُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ: بَيْتُ اللهِ، والمرادُ بهذا الطَّوافِ: الزِّيَارَةُ، وهذا ركنٌ من أركانِ الحَجِّ وفرضٌ كذلك، وهذا الطَّوافُ يُمْكِنُ أن يُوَدَّى يومَ العَاشِرِ والحادي عَشَرَ والثاني عَشَرَ من ذي الحِجَّةِ.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾

٢٨ - المرادُ بِحُرْمَاتِ اللهِ تَعَالَى - بِصِفَةِ عَامَّةٍ - أَحْكَامُ اللهِ تَعَالَى والأماكنُ المقدَّسةُ والمُتَّقُونَ مِنَ النَّاسِ، لكنَّ المرادَ بِحُرْمَاتِ اللهِ هُنَا: الأَعْمَالُ المَخْصُوصَةُ للحَجِّ، وكذا الأماكنُ المَخْصُوصَةُ لَهُ، على سَبِيلِ المِثال: بَيْتُ اللهِ والطَّوافُ بِهِ، والصَّفا والمَرْوَةُ والسَّعْيُ بَيْنَهُمَا، وَمَنَى وَعِرْفَاتُ والقِيَامُ فِيهِمَا، وَحَيَوَانُ الْهَدْيِ وَذَبْحُهُ، فَأَدَاءُ كُلِّ هَذِهِ الأَعْمَالِ بِكُلِّ أَدَبٍ واحْتِرَامٍ، وكذا احْتِرَامُ الأماكنِ المقدَّسةِ

يكون موجباً للأجر الأفضل في الآخرة بالنسبة للسادة الحجاج من الرجال والنساء على السواء.

﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾

٢٩ - حرّم مشركو العرب العديد من الأنعام على أنفسهم بسبب عقائدهم الباطلة مثل: البحيرة والسائبة وغيرهما، وهنا يُخبر الله تعالى المسلمين أن هذه الأنعام حلال لكم، ما عدا تلك الحيوانات التي جاء بيان حرمتها في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولمزيد من التفصيل راجع الحاشية رقم ٢ والحاشية رقم ٩ في تفسير الآية الأولى والثالثة من سورة المائدة (٥).

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾

٣٠ - المراد بنجاسة الأوثان: عبادة غير الله تعالى، والمراد بقول الزور رغم أنه يمكن أن يكون كل قول كذباً، لكن المراد هنا هو: كلام الكفار الممتلئ شراً، والذي ينسبونه إلى الله تعالى، كقولهم: إن الملائكة بنات الله تعالى، وإن أكل لحوم البحيرة والسائبة حرام، وغيرهما، ولهذا ينبغي للمسلمين تجنب كل الأقوال والأفعال التي يشوبها الشرك.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾

٣١ - لِيَتَّبِعُوا عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلْيَتَعَرَّضُوا عَنْ كُلِّ بَاطِلٍ، وَلَا يُشْرِكُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾

٣٢ - مَثَلُ الَّذِي يُشْرِكُ كَمَثَلِ مَنْ سَقَطَ مِنَ السَّمَاءِ، فَنَهَشَتْهُ الطُّيُورُ الْجَارِحَةُ

وهو لا يزال يهوي من علٍ حتى شَوَّهَتْ مَنْظَرَهُ، وإذا أَفَلَتْ من هذه الطيورِ أَلْقَتْ به الرِّيحُ بَقْوَةً في مكانٍ بعيدٍ، فتمزَّقَ جَسَدُهُ أَشْلَاءً، وبعدَ الموتِ أيضًا سَتُوجَّهُ رُوحُ الشَّخْصِ السيِّئِ الخَزْيِ والإِذْلالِ أيضًا، فيُلْقَى بها من علياءِ السَّماءِ إلى قَعْرِ القبرِ، مثلما جاء في الحديثِ الشَّريف الذي رَواه سيِّدُنَا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ: «الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فإذا كان الرَّجُلُ صَالِحًا قالوا: اخْرِجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانتِ في الجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرِجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ، وَرَبٌّ غَيْرُ غَضْبَانٍ، فلا يزالُ يُقالُ لها ذلكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بها إلى السَّماءِ فيُفْتَحُ لها فيقالُ: مَنْ هَذَا؟ فيقولون: فلانُ. فيقالُ: مرحبًا بالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانتِ في الجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبٌّ غَيْرُ غَضْبَانٍ، فلا يزالُ يُقالُ لها ذلكَ حَتَّى يُتَهَيَّأَ بها إلى السَّماءِ التي فيها اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وإذا كان الرَّجُلُ الشُّوءَ قال: اخْرِجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ كَانتِ في الجَسَدِ الخَبِيثِ، اخْرِجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٍ. فلا يزالُ يُقالُ لها ذلكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بها إلى السَّماءِ فلا يُفْتَحُ لها، فيقالُ: مَنْ هَذَا؟ فيقالُ: فلانُ. فيقالُ: لا مرحبًا بالنَّفْسِ الخَبِيثَةِ كَانتِ في الجَسَدِ الخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا لَا تُفْتَحُ لِكَ أَبْوابِ السَّماءِ، فيُرْسَلُ بها من السَّماءِ ثُمَّ تَصِيرُ إلى القبرِ»^(١).

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْمَ شَعْبِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾

٣٣- قال اللهُ تعالى في القرآنِ الكريمِ عن الصِّفا والمَرْوَةِ: إِنَّهَا مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وكذا قال عن حَيَوَانَ الأُضْحِيَّةِ: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦]، وَرَغَبَ في

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣١ برقم ٤٢٦٢.

تعظيمها، وفي هذه الآية يقول الله تعالى: إِنَّ الشَّخْصَ الَّذِي يُعَظَّمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّ هَذَا التَّعْظِيمَ مِنْهُ دَلِيلٌ عَلَى تَقْوَاهُ، وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ الشَّخْصُ الَّذِي لَا يُعَظَّمُ شَعَائِرَ اللَّهِ عَامِدًا مُتَعَمِّدًا، وَيَهْتِكُ حُرْمَتَهَا، فَإِنَّ فَعْلَهُ هَذَا يُعَدُّ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ قَلْبَهُ يَخْلُو مِنْ خَوْفِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَيُعَلَّمُ مِنْهُ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِعِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَوْ بِأَدَاءِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى، إِنَّمَا هِيَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْخَاصَّةِ، بِمَعْنَى أَنَّ تَعْظِيمَ الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَحَيَوَانَاتِ الْهَدْيِ، وَمَنَى وَعَرَفَاتٍ، وَبَيْتِ اللَّهِ وَالْمَسَاجِدِ الْأُخْرَى، وَأَضْرَحَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ، وَصُنْدُوقِ التَّبَرُّكَاتِ الْخَاصِّ بِسَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَغَيْرِهَا، يُعَدُّ دَلِيلًا عَلَى تَقْوَى الْقَلْبِ، وَالْقَوْلُ بِأَنَّهُ شَرَكٌ يَخَالِفُ التَّعَالِيمَ الْقُرْآنِيَّةَ، وَلِفَهْمِ حَقِيقَةِ ذَلِكَ يَنْبَغِي مَعْرِفَةُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّعْظِيمِ، وَلِمَزِيدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ رَاجِعَ حَوَاشِي الْآيَةِ ١٥٨ وَالْآيَةِ ٢٤٨ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢).

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

٣٤ - الْأُضْحِيَّةُ الَّتِي يَصْطَحِبُهَا الْحَاجُّ أَوِ الْمَعْتَمِرُ بَنِيَّةٌ ذَبَحَهَا فِي الْحَرَمِ يُطَلَّقُ عَلَيْهِ «الْهَدْيُ»، أَي: حَيَوَانُ التَّضَحِّيَةِ، وَلِلْإِنْسَانِ الْحَقُّ فِي الْإِسْتِفَادَةِ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي سَخَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلرُّكُوبِ وَلِلْأَلْبَانِ، لَكِنَّ الْحَيَوَانَ الَّذِي يُخَصَّصُهُ لِلْهَدْيِ لَا تَجُوزُ الْإِسْتِفَادَةُ مِنْهُ فِي أَيِّ مَجَالٍ آخَرَ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَمَا تَمَّ تَخْصِيصُ هَذَا الْحَيَوَانِ لِلَّهِ تَعَالَى بِشَكْلِ خَالِصٍ، لَا يَصِحُّ الْإِسْتِفَادَةُ مِنْهُ بِشَكْلِ شَخْصِيٍّ؛ لِأَنَّ هَذَا الْحَيَوَانَ أَصْبَحَ بِذَلِكَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ الَّتِي يَجِبُ تَعْظِيمُهَا، وَتَتَنَافَى مَعَ تَعْظِيمِهِ الرُّكُوبُ عَلَيْهِ، أَوْ حَمْلُ الْأَثْقَالِ فَوْقَهُ بِمَا يُولِّمُهُ وَيُؤْذِيهِ، أَوْ يَجْعَلُهُ نَحِيفًا قَلِيلَ السُّمْنَةِ، مِثْلَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ: «﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قَالَ: الرُّكُوبُ وَاللَّبَنُ وَالْوَلَدُ، فَإِذَا سُمِّيتَ بَدَنَةً أَوْ هَدِيًّا ذَهَبَ كُلُّهُ»^(١)، لَكِنَّ الْإِسْتِفَادَةَ مِنْ حَيَوَانِ الْهَدْيِ عِنْدَ

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

الضرورة جائز، على سبيل المثال: لو أن شخصاً ساق جَمَلًا لِيَذْبَحَهُ هَدِيًّا، وكان هذا الشخصُ يسيّرُ على قدميه، وليس لديه حيوانٌ آخرُ يركبه، وأصبح من الصعب عليه أن يواصل السيرَ على قدميه، فإنه - في هذه الحالة من الضرورة - يمكنه أن يمتطي ظهرَ هذا الجمل. يقول سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عندما سُئل عن ركوب الهدي: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجدَ ظهرًا»^(١).

﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾

٣٥ - مكان ذبح الهدي بالقرب من بيت الله، والمراد به: كل حرم مكة، سواء ذبح في منى أم في أي مكان آخر من مكة^(٢)، وباختصار: من الضروري ذبح الهدي في حدود الحرم، ولا يجوز ذبحه خارج حدود الحرم، أمّا ما عدا الهدي فإن الذبح الواجب على الأغنياء يمكن أن يكون في أي مكان، ولا يُشترط ذبحه في حدود الحرم، مثلما يذبح مسلمو العالم كل في بلده.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَحُدُودَهُ اسْلِمُوا وَيَشْرِ الْمُخِحِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبَدَنَتِ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّفُوسُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا

(١) مسلم، كتاب الحج، باب ٦٥ برقم ١٣٢٤.

(٢) «وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ في موضع الحال، أي: متجهة إلى البيت، والمراد به: ما يليه بعلاقة المجاورة فإنها لا تنتهي إلى البيت نفسه وإنما تنتهي إلى ما يقرب منه». روح المعاني.

اللَّهُ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾ لَا يُحِبُّ كُلُّ خَوَّانٍ كَفُورٍ

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْهَكُمُ إِلَهُ وَحْدُ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾

٣٦- يُعَلِّمُ من هذه الآية أَنَّ حُكْمَ الذَّبْحِ في الإسلام ليس أمرًا جديدًا، وإنما هي سلسلة ممتدة موجودة لدى الأمم السابقة أيضًا، حيث كانوا مأمورين بأن يذكروا اسم الله تعالى عند الذَّبْحِ؛ لأنَّ العبادة لا تليق إلا بالله تعالى الواحد الأحد فقط، وطاعته لازمة.

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

٣٧- في آخر الآية السابقة جاءت البُشْرَى بالجنة للمتواضعين، وفي هذه الآية جاء بيان أربع صفاتٍ لهم، يعني: حين يُذَكَّرُ الله تعالى أمامهم ترتعد قلوبهم خَشْيَةً من جلال الله، وإن حَلَّتْ بهم المصائب لا يخافون ولا يَضْطَرِّبون، وإنما يصبرون، ويطعمون الصَّلَاةَ، ويُنفقون ممَّا رَزَقَهُمُ الله تعالى على فعل الخير.

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾

٣٨- الجمالُ المخصَّصةُ للتَّضَحِّيَةِ بها ذبيحة تُعدُّ من شعائر الله أيضًا، ولكم فيها خيرٌ في الدُّنْيَا والآخرة، ففي الدُّنْيَا تأكلون لحومها، وفي الآخرة ستكون سببًا لنجاتكم.

وطريقة ذَبْحِهَا: أن تَرَبِّطُوا قَدَمَهَا الْيُسْرَى الْأَمَامِيَّةَ مَعَ فَخْذِهَا، وتجعلوها تقفُّ على الأرجل الثلاثة الباقية، ثم تضربوها بِرُمَحٍ في عُنُقِهَا وأنتم تذكرون الله

تعالى، فيسيل دُمُها، وحين تَسْقُطُ على الأرضِ بعدَ خروجِ رَوْحِها، فاقطَعُوا من لحومِها، وكلُوا وأطعمُوا الفقراءَ والمحتاجينَ من لحومِها، سواءً سألوكُم العطاء أم لم يسألوكُم.

﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

٣٩ - جَعَلَ اللهُ تعالى الْجَمَلَ تابِعاً لِلْإِنْسَانِ مَسْخَرًا لَهُ، رَغَمَ طَوِيلِهِ الْمُفْرِطِ وضخامةِ حجمِهِ، ولهذا ينبغي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ تعالى على هذه النِّعم.

﴿لَنْ يَنَالَ اللهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾

٤٠ - بَيَّنَّتْ هذه الألفاظُ فلسفَةَ الذَّبْحِ، يعني: أَنَّ لَحْمَ الذَّبِيحَةِ لَا يَصِلُ إِلَى اللهِ تعالى، وإنما يأكلُهُ الْإِنْسَانُ، لَكِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَى اللهِ تعالى هو تقوى قلوبِكُم، بمعنى إلى أيِّ مَدَى نَفَّذْتُمُ حُكْمَ اللهِ تعالى مَخْلَصِينَ، وَبَقَدَّرَ ما يَزِيدُ الْإِخْلَاصَ فِي أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ بِقَدَرِ ما يَزِيدُ أَجْرُهُ على هذه الأَعْمَالِ.

وبالإضافةِ إلى الذَّبْحِ، فَإِنَّ هذه أيضًا هي فلسفَةُ الْعِبَادَاتِ الأُخْرَى، على سبيلِ الْمِثَالِ: لَا تَصِلُ إِلَى اللهِ الْحَرَكَاتُ الَّتِي نَوْدِيهَا فِي الصَّلَاةِ، وَالْجَوْعُ الَّذِي نَعَانِيهِ فِي الصَّيَامِ، وَإِنَّمَا تَصِلُهُ تَقْوَى قُلُوبِنَا، أَيِ: إِلَى أَيِّ مَدَى أَدِينَا حُكْمَ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ مَخْلَصِينَ، مِثْلَمَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فيما يلي:

١ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١).

٢ - عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(٢).

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٠ برقم ٢٥٤٦.

(٢) البخاري، بدء الوحي، باب ١.

﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَنَكُمْ﴾

٤١ - لقد سَخَّرَ الله تعالى لكم الحيواناتِ الضَّخْمَةَ، وأنعم عليكم بالهداية والقدرة على تسخيرها، لهذا عليكم أن تتبينوا عظمة الله تعالى على ما مَنَحَكُمْ من هذا التفضيل، وحين تَذَبَحُونَ هذه الحيواناتِ عليكم أن تَذْكُرُوا اسمَ الله تعالى عند ذَبْحِهَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾

٤٢ - في السَّنةِ السادسةِ للهجرة توجَّه النبي ﷺ مع ما يقربُ من ألفٍ وأربعمئة من أصحابه بغرضِ أداءِ العُمرة، فأوقَفَهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ عِنْدَ الْحُدَيْبِيَّةِ، ومنعَهم من دخولِ المسجدِ الحرام، وهو ما جاء ذكره في الآية رقم (٢٥)، والظاهرُ أنَّ المسلمينَ تَأَلَّمُوا لذلك كثيرًا، ولهذا بَشَّرَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ في هذه الآيةِ الكريمة بأنَّ الله تعالى سيدافعُ عن الذين آمَنُوا، وسوف يقضي على سيطرة كُفَّارِ مَكَّةَ الخائنينِ الجاحدينِ على مَكَّةَ، وهكذا - وبعدَ عامينِ فقط، وفي العام الثامنِ للهجرة - لَقِيَ كُفَّارُ مَكَّةَ هزيمةً ساحقةً، بحيثِ أصبحتِ الغَلَبَةُ في مَكَّةَ كُلِّهَا للمسلمينِ.

أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوْمِعُ وَبِيعَ وَصَلَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْعَثُ لِكُلِّ قَرْيَةٍ مُّصِيبًا ۚ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۚ ﴿٤٦﴾ وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۖ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۚ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ۚ ﴿٤٨﴾

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

٤٣ - عندما أعلن نبينا الحبيب ﷺ أن ربنا هو الله تعالى فقط، أخذ كفار مكة، الذين يعبدون مئات الآلهة، في إيقاع الظلم بالمسلمين، وكان الصحابة الكرام رضي الله عنهم «يأتون رسول الله ﷺ بين مضروبٍ ومسجوح، ويتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا، فإنني لم أومر بقتالهم، حتى هاجروا، فأُنزلت هذه الآية، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعدما نُهي عنه في أكثر من سبعين آية»^(١)، حتى يتمكن المسلمون من استعمال القوة في الدفاع عن أنفسهم، وفي نفس الوقت أعلن أنه بالرغم من أن عدد المسلمين في هذا الوقت قليلٌ قياساً بعدد الكفار، لكن الله تعالى سينصر أهل الإيمان.

﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوْمِعُوعٌ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾

٤٤ - ظَلَّتْ سُنَّةُ اللَّهِ تعالى أنه عندما يصل قومٌ ظالم إلى قمة ظلمهم، فإن الله تعالى يُسلط عليهم قوماً آخرين يقضون على هذا الظلم، وهذا فضلٌ خاصٌّ من الله تعالى على الأرض؛ لأنه إن ظلَّ قومٌ ظالمٌ واحدٌ في السُّلطة دائماً، فإنه سيوقع ظلماً

عظيمًا بالأقوام الضَّعِيفَة، بل إنه سيهدمُ دُورَ عبادَتِهِم أيضًا، ولو لم يأذنِ اللهُ تعالى لأهلِ الحقِّ، أي: للموحِّدينَ بالله، بالجهاد، ولو لم تُجاهدِ الأُممُ السَّابِقَةُ ضِدَّ الأُممِ الطَّاغِيَةِ، لَمَا نَجَتْ دُورُ عِبَادَةِ أَيِّ دِينٍ مِنَ الأديانِ، وَلَمَا بَقِيَتْ دُورُ العِبَادَةِ فِي زمنِ سَيِّدِنَا موسى عليه السَّلَامُ قائِمةً، وَلَمَا نَجَتْ مِنَ الهَدْمِ دُورُ العِبَادَةِ فِي زمنِ سَيِّدِنَا عيسى عليه السَّلَام.

﴿وَلَيَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنِ يَصُرُهُ﴾

٤٥ - الذين يَنْصُرُونَ دينَ اللهِ تعالى بإخلاصٍ وصِدْقٍ فإنَّ اللهُ تعالى يَنْصُرُهُم، مثَلُما حَدَثَ في غزوةِ بدرٍ، حيثِ اضْطَرَّ جيشُ قِوَامِهِ ثلاثِمائةٍ وثلاثَةِ عَشَرَ رَجُلًا أعزَلَ جيشًا من ألفِ رَجُلٍ مَسْلَحِينَ إلى الفِرارِ، ونحنُ اليَومَ في حاجةٍ مَرَّةً ثَانِيَةً إلى أَنْ نَخْلُقَ بداخِلِنا إِخلاصًا وصِدقًا أَهلِ بدرٍ:

- اخْلُقْ جَوْ بدرٍ الآنَ أيضًا وَسَتَنْزِلُ الملائكةُ صُفُوفًا مِنَ الأَفلاكِ لَتَنْصُرَكَ.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾:

٤٦ - شَأْنُ أَهلِ الإِيمانِ أَنَّهُ حينَ يُنْعِمُ اللهُ تعالى عليهم بِحُكْمِ بِلَدٍ مِنَ البِلادِ، فإنَّهُم يَؤَسِّسونَ نِظامًا يَساعدُ على إِقامةِ الصَّلَاةِ، وإِيتاءِ الزَّكاةِ، والأَمْرِ بالمَعروفِ، والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، ثم بَعْدَ ذلكِ يَفُوضُونَ الأُمُورَ كُلَّها لَهِ اللهُ تعالى؛ لأنَّ اللهُ تعالى هو المَالِكُ الحَقِيقِيُّ للقُوَّةِ والغَلْبَةِ، وَرَغْمَ أَنَّ هَذا حُكْمٌ عامٌّ، لَكِنَّ المَحَقِّقِينَ يَسْتَتِجُونَ أَنَّ المَرادَ مِنْهُمُ الخُلفاءُ الرَّاشِدُونَ رِضوانُ اللهِ عليهم، وَهَمُ الَّذِينَ ضَرَبُوا المِثْلَ العَمَلِيَّ في تَفيِذِ النِّظامِ الإِسلاميِّ على الأَرْضِ^(١)، وَقَدْ جاءَ العَديدُ مِنَ الحُكَّامِ العادِلِينَ

(١) «وهو صفة الخلفاء الراشدين الذين مكَّنه الله في الأرض، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ولم يكن في الأرض غيرهم». أحكام القرآن للجصاص وتفسير القرطبي.

الصالحين بعد الخلفاء الراشدين، لكن نظام الخير والفلاح الذي أقامه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم لا نجد له مثلاً عند من جاء من بعدهم.

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٤﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

٤٧ - في هذه الآية تسرية عن قلب المصطفى ﷺ، بأن كفار مكة يكذبونك، وهذا ليس بالأمر الجديد، إذ إن الأمم السابقة أيضاً كذبت رسلها، وكنت أمنحهم مهلة، ولكن عندما انتهى وقت المهلة أنزلت عليهم عذاباً قضى على كل أثر لهم في الوجود. وبنفس الطريقة، إن لم يستفد أهل مكة من هذه المهلة التي أعطاها الله لهم، ولكن لأنك رحمة للعالمين جميعاً، فإنه لن ينزل عليهم العذاب مثلما حدث مع الأمم السابقة حال وجودك بينهم، إذ إن هذا يتنافى مع شأن كونك رحمة، ومع ذلك ستنتهي سيطرة أهل مكة قريباً من مكة، وسيدخل الناس في دين الله أفواجا.

﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِىٰ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ ﴾

٤٨ - التاريخ شاهد على أن الأمم التي لم تستفد من المهلة التي أعطاها لهم الله تعالى، وحين وقت نزول العذاب عليهم، تهدمت قراهم وأصبحت الأرض سواها، كما تهدمت أبارهم وقصورهم أيضاً.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

٤٩ - ألم ير أهل مكة في أسفارهم أطلال قرى ومساكن الأمم السابقة، وألم يسمعوا قصص دمارهم، حتى يعرفوا عاقبة الظلم؟ لكن الظالمين يرون كل شيء،

وعيونهم ليست عمياء، وإنَّما قلوبهم هي العمياء في الحقيقة، وهم لا يعتبرون من الأحداث السابقة بالتمعن فيها.

﴿وَيَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾

٥٠ - كان مشركو مكّة يتساءلون: لماذا لم ينزل العذاب عليهم إن كانوا على خطأ؟ ولهذا يخبرهم الله تعالى في هذه الآية بأنّ وعد الله حقّ، وأنّ العذاب سينزل عليكم يقيناً، لكنّ ازدهار الأمم وانحطاطها لا يكون في أيام أو شهور، وإنّما يستغرق ذلك قروناً. وهناك تفسير آخر لهذا، وهو: أنهم قد نزل عليهم العذاب في هذه الدنيا بالفعل في صورة معركة بدر، حيث هزم جيش من العزّل قوامه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً جيشاً من ألف رجل مسلّح هزيمة منكّرة، وقتلوا منهم سبعين رجلاً، وأسروا سبعين آخرين، وسينزل العذاب عليهم في الآخرة بحيث سيكون اليوم الواحد فيه يعدل خمسين ألف سنة، مثلما قال الله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

لكنّ مثل هذا اليوم بالنسبة لأهل الإيمان سيكون أقلّ من وقت تؤدّي فيه صلاة مفروضة واحدة^(١)، ولكن كيف سيكون الحساب يوم القيامة لكلّ الناس من لدن آدم عليه السّلام وحتى قيام الساعة، وكم سيستغرق ذلك من الوقت؟ للإجابة عن هذا بالتفصيل راجع الآية رقم ٦٢ من سورة الأنعام (٦)، وكذا الحاشية رقم ٦٠.

(١) قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا». مسند أحمد، ٣: ٧٥.

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾

٥١ - يعني: مهما كانت المهلة التي أمنحها للقوم الظالمين فإنهم لن يفلتوا من أخذني، وفي نهاية الأمر سيرجع الجميع إليّ.

قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمَلَأُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

٥٢ - الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيغفر الله تعالى لهم، وسينعم عليهم برزق العز والوقار في الجنة.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

٥٣ - الذين يعملون دائماً على تكذيب آيات الله تعالى بقصد أن يعجزوا أهل الإيمان ويفشلوهم سيدخلون جهنم يقيناً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾

٥٤ - عندما كان النبي ﷺ يتلو آيات القرآن الكريم، كان الشيطان يُلقي بالشكوك والشُّبهات حول تلك الآيات في قلوب المنكرين والمُذبذبين من الناس، وهكذا كانوا يقومون بإثارة اعتراضات مختلفة، مثلما جاء في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ لَيُحْوَئِكُمْ إِلَى أُولِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوكُمْ وَإِنْ أَعْطَمْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وعليه طمأن الله تعالى نبيه الكريم ﷺ بأن هذا ليس بالأمر الجديد، إذ كان الشيطان يُلقي بالوساوس والشُّبهات في قلوب الناس من الأمم السابقة حين كان أنبياءهم ورُسُلهم يتلون الآيات.

وفي هذا الخصوص نُقلت قصّة من اللغو ناتجة عن عدم احتراز بعض السادة البُسطاء السُدج، يعني: أنه بتأثير من وساوس الشيطان خرج من لسان النبي الكريم ﷺ قوله: إن الشفاعة مأمولة أيضاً من الأصنام - والعياد بالله - لكن الباحثين أثبتوا أن هذه القصّة لا أساس لها من الصّحة ولا أصل لها، كما أن إجماع الأمة أيضاً على أن النبي ﷺ معصومٌ بشكلٍ كامل في تبليغه كلام الله تعالى، ولا يمكن أن يصدر عنه خطأ ولو على سبيل الخطأ؛ لأنه لو كان هذا ممكناً لأصبحت الأحكام والآيات، بل والدين كله، موضع شك، ولكن من الممكن أن يكون أحد الجالسين في مجلسه ﷺ من المشركين أو المنافقين قد نطق بهذه الكلمات، والمشركون كثيراً ما يُطلقون مثل هذه الاتهامات الملققة، والتي لا تؤثر بأي حال من الأحوال على الوحي الإلهي ولا على تلاوة النبي ﷺ، ولمزيد من التفصيل راجع هذا الموضوع في تفسير ضياء القرآن.

﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ﴾

٥٥ - كلما ألقى الشيطان الوسوس والشكوك في قلوب الناس، كان الله تعالى يمحو هذه الوسوس الشيطانية بآيات محكمات أخرى، فيقوى إيمان الناس ثانية.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

٥٦ - يعني: أن الذين يضلون بسبب ما يُلقيه الشيطان من وسوس وشكوك وشبهات هم فقط الذين في قلوبهم مرض النفاق، أو أولئك الذين قست قلوبهم من كثرة الظلم وشدة المخالفة.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

٥٧ - القدرة التي أعطاها الله للشيطان على إلقاء الوسوس والشكوك في القلوب، إنما هي من جانب وسيلة لابتلاء المنكرين والمُذنبين، ومن جانب آخر وسيلة لتقدم أهل العلم وأهل الحق في نور الهداية؛ لأن أهل العلم حين يتدبرون معاني الآيات القرآنية تتيقن قلوبهم من صدق القرآن، ويؤمنون به على أنه الحق، وبركة هذا الإيمان يُنعم الله تعالى عليهم بأن يُسيرهم على الطريق المستقيم الذي يأخذهم إلى الجنة.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾

٥٨ - الكفار لا يتدبرون القرآن بسبب تعصّبهم وعنادهم، وسوف يظنون

دائمًا مبتليَن بوساوسِ الشَّيْطَانِ وشكوكِهِ، إلى أن تأتيهم الساعةُ بغتَةً، أو ينزلَ عليهم عذابٌ يقضي عليهم قضاءً مبرماً.

﴿الْمَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ بِحُكْمٍ بَيْنَهُمْ فَأَلْذِيكَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

٥٩ - الحقيقةُ أنَّ الحُكْمَ اليومَ أيضاً اللهُ تعالى يقيناً، وإنما الكثيرُ من الناسِ في أيامنا هذه لا يؤمنون بهذه الحاكِميَّة، لكنَّ الجميعَ سيَرى عملياً - يومَ القيامة - بأنَّ الحُكْمَ فعلاً اللهُ تعالى، وأنَّ الصَّالِحِينَ سيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِفَضْلِ أَعْمَالِهِم الصَّالِحَةِ، وسيَدْخُلُ الأَشْرَارُ النَّارَ بسببِ أَعْمَالِهِم السيِّئَةِ.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِلَى اللَّهِ لَهُوْ خَيْرُ الرِّزْقَيْنِ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ. وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِقَبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ ﴿٦٤﴾

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِلَى اللَّهِ لَهُوْ خَيْرُ الرِّزْقَيْنِ﴾

٦٠ - الذين خَرَجُوا مِنْ ديارِهِمْ بَغَرَضِ الجِهَادِ، سواءً اسْتُشْهِدُوا فِي المَعَارِكِ أَوْ مَاتُوا مِيتَةً طَبِيعِيَّةً، سوفَ يَرْزُقُهُمُ اللهُ تعالى فِي الجَنَّةِ رِزْقٍ حَسَنٍ وَمُسْتَقَرٍّ عَظِيمٍ يَسْعَدُونَ بِهِ وَيَفْرَحُونَ لَهُ.

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْتَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

٦١ - من ظلم فله الحق في أن يأخذ الحق ممن ظلمه بقدر الظلم الذي وقع عليه، على سبيل المثال: لو أن زيدا كسر سناً لبكر، فيحقت لبكر أن يكسر سناً لزيد، وهكذا تكتمل مقتضيات العدل والإنصاف، ولكن لو أن زيدا استشاط غضباً، واعتدى ثانية على بكر، وكسر سناً أخرى له، فإن بكرًا في هذه الحالة مظلوم، والله تعالى سوف ينصر بكرًا، بمعنى: لو أن الظالم لم يلق عقاب ظلمه في الدنيا، فإنه لن يستطيع الإفلات في الآخرة من العقاب، وسيكون عليه أداء حق من ظلمه.

﴿ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾

٦٢ - في الآية السابقة أعلن الله تعالى أنه سينصر المظلومين، وكان المسلمون مظلومين في تلك الأيام.

وفي الآيات التالية بين الله تعالى آيات قدرته التي تدل على أنه القادر المطلق، يعني: كما أن الله تعالى يأتي بظلام الليل بعد ضوء النهار، ويأتي بضوء النهار بعد ظلام الليل، فإن الإسلام والكفر بنفس الطريقة يتبادلان الغلبة، ولكن الوقت الذي سينقشع فيه ظلام الكفر تمامًا قد اقترب، وشمس الإسلام على وشك الشروق، وبالفعل، حدث هذا، إذ زُفرت راية الإسلام بعد سنوات قليلة على شبه الجزيرة العربية كلها.

﴿ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾

٦٣ - الله تعالى حق، والحق دائماً منتصر مرفوع الهامة، وما يعبدُه هؤلاء المشركون من دون الله تعالى باطل، ولا يمكن أن تكون نهاية الباطل سعيدة.

﴿لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

٦٤ - الله تعالى رحيمٌ غايةَ الرَّحمةِ بمخلوقاتِهِ، وَيَعْرِفُ تمامَ المعرفةِ ما يحتاجونَهُ، ولهذا يُنْزِلُ الماءَ من السماءِ لتخضَّرَ الأرضُ وتَبْنَعَ، حتى يَتَهَيَّأَ لِلإنسانِ وَالْحَيوانِ ما يحتاجونَهُ من الغذاءِ.

وفيه إشارةٌ لطيفةٌ بأنه مثلما أَنَّ الأمطارَ تَتَكَوَّنُ من أَبْجَرَةِ الماءِ فَتَسْقُطُ على الأرضِ الجافَّةِ، فَتَخْضَرُ وَتَبْنَعُ في غضونِ أيامٍ قليلةٍ، بنفسِ الطريقةِ فَإِنَّ أمطارَ التوحيدِ التي تَنْزِلُ على قلوبِ الناسِ المضطربةِ بِفَضْلِ دعوةِ النبي ﷺ، سوف تُهَيِّئُ لهذه القلوبِ قريبا الطُمأنينةَ وَالسَّكينةَ بِذِكْرِ الله تعالى.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

٦٥ - شَأْنُ الله تعالى وَعَظَمَتُهُ أَنَّهُ المالكُ الحقيقِيُّ لكلِّ شيءٍ في السماءِ والأرضِ، والمخلوقاتُ كُلُّها محتاجةٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ غَيْرُ محتاجٍ لأحدٍ، ولهذا فَإِنَّ الله تعالى يَسْتَحِقُّ كُلَّ حَمْدٍ وَثناءٍ.

لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ. وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءٌ وَفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ

يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ تُبْشِرُونَ مِنَ ذَلِكَ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُسِ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾

٦٦ - الله تعالى رؤوفٌ بالناس غاية الرأفة، فقد سَخَّرَ كل ما في الأرض،
والسُّفُنَ في البحار للناس، يعني: أن الله تعالى أنعم على الإنسان بالعقل والحكمة،
مما يمكنه - بفضلها - الاستفادة من كل شيء في الأرض والسماء.

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

٦٧ - الله تعالى أمسك السماء فلا تقع على الأرض، ولكن حين يأذن الله تعالى
ستسقط السماء على الأرض مفتتة^(١).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾

٦٨ - خلقكم الله تعالى من نطفة لا روح فيها، ثم سُمِيتكم بانتهاء فترة
حياتكم المقررة لكم، ثم سيحييكم ثانية يوم القيامة لحسابكم وثوابكم وعذابكم.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾

٦٩ - في الآيات السابقة ذكر الله تعالى نِعَمَهُ، يعني: أنه سَخَّرَ كل شيء
في الأرض من أجل فائدة الإنسان، وجعله تابعاً له، وبالتالي ينبغي لكل إنسان
أن يسجد شكراً في حضرة المتفضل الحقيقي عليه، لكن أكثر الناس جاحدون

(١) «وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ» أي: ويمسك بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض
فيهلك من فيها «إِلَّا بِإِذْنِهِ» أي: إلا إذا شاء، وذلك عند قيام الساعة. صفوة التفاسير
وتفسير البضاوي.

ناكرو الجميل، برغم هذه النعم التي لا تُعدُّ ولا تُحصَى، مثلما قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٌ﴾

٧٠ - أعطى الله تعالى كلَّ أمةٍ نظامَ شريعةٍ خاصًّا طبقًا لأحوالها وظروفها الخاصة، والتي تختلفُ في بعضِ الأشياءِ عن بعضها، ومثلما كان نظامُ شريعةِ الإنجيل مختلفًا عن نظامِ شريعةِ التَّوراة، بنفسِ الطريقةِ فإنَّ نظامَ شريعةِ القرآنِ (الإسلام) مختلفٌ عن نُظُمِ الشرائعِ السابقة، ولهذا ليس من المناسبِ أن يجادلَ أحدٌ في نظامِ شريعةِ الإسلام؛ لأنه مثلما نُسختِ الشريعةُ الموسويةُ بمجيءِ الشريعةِ المسيحيةِ، فإنَّ كلَّ الشرائعِ السابقةِ نُسختِ جميعًا بمجيءِ الشريعةِ المحمَّديةِ على صاحبها أفضلُ الصَّلاةِ وأتمُّ التسليمِ.

وفي الجزء الثاني من هذه الآية طمأن الله تعالى النَّبِيَّ ﷺ أن لا تهتمَّ بجَدالِهِم، وإنَّما عليك أن تواصلَ دعوتَهُم إلى الإسلام؛ لأنَّ الإسلامَ - فقط - هو الطريقُ المستقيم، وهو الذي تسيرونَّ عليه.

﴿وَإِنْ جَدَلْتُمْ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

٧١ - يعني: لو أصرَّ هؤلاء على جدالِك برغم الدلائل والبراهين، فقلْ لهم فقط: إنَّ الله تعالى يَعْلَمُ تمامَ العلمِ أَعْمَالَكُم، وهو الذي سَيَحْكُمُ في اختلافاتِكُم يومَ القيامة، ولهذا سَيُتَّضَحُّ الحقُّ والباطلُ في ذلك اليوم.

يقول العلامةُ القرطبيُّ: «في هذه الآية أدبٌ حسنٌ علَّمه الله عباده في الردِّ على من

جَادَلَ تَعْتًا وَمِرَاءً، أَلَّا يُجَابَ وَلَا يُنَاطَرَ وَيُدْفَعَ بِهَذَا الْقَوْلِ الَّذِي عَلَّمَهُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ»^(١).

كما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اتَّبِعُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًا مَطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ»^(٢).

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

٧٢ - اللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ كُلِّ شَيْءٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَيْسَ أَعْمَالُ أَوْلَئِكَ الْمُنْكَرِينَ فَقَطْ، وَكَتَبَ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ لِحِكْمَةٍ عِنْدَهُ، وَلَا يَصْعُبُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى عِلْمُ كُلِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا حَصَرَ لَهَا، وَالْحُكْمُ طَبَقًا لَهَا، ثُمَّ تَنْفِذُ هَذَا الْحُكْمِ، فَاللَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾

٧٣ - هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَعْبُدُهَا هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَوْجَدُ لَدَيْهِمْ دَلِيلٌ نَقْلِيٌّ مِنْ أَيْ كِتَابٍ سَمَاوِيٍّ يُثَبِّتُ كَوْنَهَا آلِهَةً، كَمَا أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ لَدَيْهِمْ يُمْكِنُهُمْ بِهِ إِثْبَاتُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا فَإِنَّ الْمَشْرُكِينَ هُمُ الظَّالِمُونَ، وَحِينَ يَلْقَوْنَ جَزَاءَ ظُلْمِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَنْ يَجِدُوا مَنْ يُنْقِذُهُمْ مِنْ هَذَا الْجَزَاءِ.

﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُرُونَ
يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأُنَبِّتُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾

٧٤ - عِنْدَمَا كَانَتْ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تُتْلَى أَمَامَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَشِيطُونَ

(١) تفسير القرطبي.

(٢) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، سورة المائدة (٥): برقم ٣٠٥٨.

غضبًا، وتبدو على وجوههم شواهدُ عَدَمِ الرضا، ويدُونَ وكأنَّهم سيَهْجُمُونَ على المسلمين الذين يَتْلُونَ هذه الآيات، وعليه يُنبِّهُ الله تعالى الكُفَّارَ بأنَّكم تُقْطَبُونَ وجوهكم الآنَ لمجرَّدِ سماعِكم آياتِ القرآن، ولكنْ سيأتي الوقتُ الذي ستواجهون فيه حالاتٍ أكثرَ إيلاَمًا إنْ لم تتوبوا اليومَ من كُفْرِكُمْ، وهي نارُ جهنَّمَ التي وَعَدَ اللهُ الكُفَّارَ بها.

يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَعِمْوْا لَهُ إِنَّ الْذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قُلْهٖ أَتَيْكُمْ بِزُرْهِمَ هُوَ سَمَنَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَعِمْوْا لَهُ إِنَّ الْذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾

٧٥ - جاء في هذه الآية بيانٌ لمثالٍ على عَجْزِ الأصنام، يعني: أنَّ الأصنامَ كُلَّها مجتمعةٌ لا تستطيعُ أنْ تَخْلُقَ ذبابةً، بل إنَّ الذُّبَابَةَ لو سَلَبَتْهُمُ شَيْئًا لما استطاعت هذه الآلهةُ أنْ تستعيدَ هذا الشيءَ المسلوبَ منها، وكما أنَّ هذه الآلهةَ عاجزةٌ ضعيفةٌ

لا حيلة لها، فإنَّ مَنْ يَعْبُدُونَهَا وَيَعْتَقِدُونَ فِيهَا أَيْضًا ضُعْفَاءُ عاجزونَ لا حيلةَ لهم،
والحقيقةُ أَنَّهُمْ لَمْ يُقَدِّرُوا قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى الْعَظِيمَةِ حَقَّ قَدْرِهَا، وَإِلَّا لَمَا انْحَنَوْا أَمَامَ
هذه الآلهة العاجزة.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾

٧٦ - اختارَ اللهُ تعالى بعضَ الملائكةِ لتبليغِ رسالته، مثلما اختارَ سيِّدنا جبريلَ
عليه السَّلامُ لتبليغِ الوحيِ إلى الرُّسُلِ والأنبياءِ عليهم السَّلام، واختارَ سيِّدنا عزرائيلَ
عليه السَّلام لتبليغِ رسالةِ الموتِ إلى الناسِ وقَبْضِ أرواحهم، وبنفسِ الطريقة،
اختارَ اللهُ تعالى الأنبياءَ والرُّسُلَ لهدايةِ البشرِ، واختيارُ هَذَيْنِ الْقَسَمَيْنِ مِنَ الرُّسُلِ
(من الملائكةِ ومن البشرِ) يَرْجِعُ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَيَتَوَقَّفُ على رضاه، فهو
الذي يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ ظَاهِرَ وَبَاطِنَ كُلِّ إِنْسَانٍ وَكُلِّ مَلَكٍ، وَيَحْكُمُ فِيهِ طَبَقًا لِقُدْرَاتِهِ
وإمكانيَّاته.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

٧٧ - إذا كان اللهُ تعالى يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ ظَاهِرَ وَبَاطِنَ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَكُلَّ أُمُورٍ
هذا الإنسانِ، ومعاملاته تعودُ إلى اللهِ تعالى، فأين يذهبُ الإنسانُ إذا بعصيانِه اللهُ
تعالى، وكيف يَنجُو من عذابِ اللهِ تعالى؟ ولهذا ينبغي لكلِّ إنسانٍ أن يُطِيعَ اللهُ
تعالى لكي ينالَ رضاه.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾

٧٨ - أَحْسَنَ اللهُ تعالى إلى المسلمينَ وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ فَضَّلَهُمْ عَلَى الْأُمَمِ
كُلِّهَا، وبالتالي فإنَّ هذا التَّكْرِيمَ يَقْتَضِي أَنْ يَبْذُلَ الْمُسْلِمُ كُلٌّ مَا فِي وَسْعِهِ لِرِفْعَةِ

الحقَّ ونُصْرَتَه، وأن لا يألُو جُهدًا في سَبِيل ذلك. فما المرادُ بالجهاد؟ وما هي أقسامُه؟ لمزيدٍ من التفصيل راجع التعريف بسورة التوبة (٩).

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

٧٩ - أحكام الإسلام جميعُها سهلةٌ ميسرةٌ قابلةٌ للتنفيذ، وليس فيها حُكْمٌ صعبٌ لا يستطيعُه الإنسان؛ لأنَّ الله تعالى لا يُكَلِّفُ نفسًا إلا وُسْعَها: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿قَلَّةٌ أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾

٨٠ - بما أنَّ العربَ والنبيَّ الكريمَ ﷺ من نسلِ سيِّدنا إسماعيلَ عليه السَّلام، لهذا فإنَّ سيِّدنا إبراهيمَ عليه السَّلام هو جدُّهم جميعًا، كما أنَّ سيِّدنا إبراهيمَ عليه السَّلام أيضًا جدُّ سيِّدنا يعقوبَ وسيِّدنا موسى وسيِّدنا عيسى وغيرهم من الأنبياء عليهم جميعًا السَّلام، ولهذا يحترمه غيرُ العربِ احترامهم للأب، وهنا يُخبرُ الله تعالى العربَ أنَّ دينَ الإسلام الذي جاء به سيِّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ ليس دينًا جديدًا، وإنَّما هو دينُ أبيكم سيِّدنا إبراهيمَ عليه السَّلام، الذي لا مكانَ فيه لعبادةٍ غيرِ الله تعالى، وكان سيِّدنا إبراهيمُ عليه السَّلام أيضًا مسلمًا، ودعا لذرِّيَّتِهِ بالبقاءِ على الإسلامِ والتمسُّكِ به، وقد سَمَّاهُ اللهُ تعالى في الكُتُبِ السابقة وفي القرآنِ الكريمِ أيضًا المسلمينَ، والحقيقةُ أنَّ الأنبياءَ عليهم السَّلام جميعًا، وكذا المؤمنونَ بهم، كانوا من المسلمينَ، لكنَّ الله تعالى اختَصَّ بهذا اللَّقبِ أُمَّةَ سيِّدنا مُحَمَّدٍ ﷺ.

﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾

٨١ - يقولُ السيِّدُ محمود الألويسي: «وَرَدَ أَنَّهُ يُؤْتَى بِالْأُمَمِ وَأَنْبِيَائِهِمْ فَيَقَالُ لَأَنْبِيَائِهِمْ: هَلْ بَلَّغْتُمْ أُمَّمَكُمْ؟ فيقولون: نَعَمْ، بَلَّغْنَاهُمْ، فَيُنْكِرُونَ، فَيُؤْتَى بِهَذِهِ الْأُمَّةِ

المسلمة فيشهدون أنهم قد بلغوا، فتقول الأمم لهم: من أين عرفتم؟ فيقولون: عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق^(١).

ويقول سيّدنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: إنّ رسول الله ﷺ قال: «يُدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب. فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأُمّته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: مَنْ يشهد لك؟ فيقول: محمّد وأُمّته. فتشهدون أنّه قد بلغ». ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فذلك قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والوسط: العدل^(٢).

الفقيه إلى الله: محمّد إمداد حسين بيرزاده،
جامعة الكرم، إنجلترا
بعد صلاة الظهر من يوم السبت ٢١ يونيه
٢٠٠٨ م
الموافق ١٧ جمادى الآخرة ١٤٢٩ هـ.



(١) تفسير روح المعاني.

(٢) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة (٢): باب ١٣ برقم ٤٨٧.

فهرس المطالب التفصيلي

للمجلد الثالث

(من سورة يوسف إلى سورة الحج)

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الله تعالى				
ربُّ واحد هو الأفضل	١٢	٣٩	٣٥	٤٠
الخوف من غضب الله تعالى وسيلة النجاة	١٣	٢٨	٣٨	١٠٥
الله تعالى يغير القَدَر	١٣	٣٩	٤٨	١١٠
لماذا يُمَهِّلُ الله تعالى الظالمين	١٦	٦١	٣٩	١٩٢
كل شيء يسبح بحمد الله تعالى	١٧	٤٤	٤٢	٢٦٦
عقيدة التوحيد في الفطرة الإنسانية	١٧	٦٧	٦٧	٢٧٦
رؤية الله تعالى في الجنة	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
أسماء الله الحسنى التسعة والتسعون	٢٠	٨	٦	٤٠٣
المؤمن بإخلاص سيدخل الجنة	٢٠	٨	٦	٤٠٣
فضل كتابة الشهادتين	٢٠	٨	٦	٤٠٣
الدلائل العقلية فيما يتعلق بالله تعالى	٢١	٢٢	١٨	٤٦٠
الكتاب المقدس وتوحيد الباري تعالى	٢١	٢٥	٢١	٤٦٦
الخلق				
خلقنا من الماء كل حيٍّ	٢١	٣٠	٢٦	٤٧٠

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الذِّكْرُ وَالشُّكْرُ				
البكاء حال الذِّكْرِ في الخلوة	١٢	٣٣	٣٠	٣٦
الإيثار والشكر	١٣	٢٢	٣١	٩٩
بذكر الله تطمئن القلوب	١٣	٢٨	٣٨	١٠٥
فضل حلقات الذِّكْرِ	١٣	٢٨	٣٨	١٠٥
اذكروا الله كالْعُشَّاقِ	١٣	٢٨	٣٨	١٠٥
ذِكْرُ الله يُنْقِي القلوب	١٣	٢٨	٣٨	١٠٥
نِعْمَ الله لَا تُخْصَى	١٤	٣٤	٣١	١٣٦
الطعام أيضاً يسبح الله	١٧	٤٤	٤٢	٢٦٦
رفع الصوت وخفضه في ذِكْرِ الله	١٧	١١٠	١٠٧	٢٩٨
وَرَدُّ لِإِبْعَادِ المصائب	١٨	٣٩	٣٤	٣٢٢
الدعاء والذكر بصوت خفيض	١٩	٣	٣	٣٦٢
المحبة				
الله يبلي من يحبه	١٢	٨٥	٧٠	٦٢
الرحمة				
اليأس من رحمة الله كفر	١٢	٨٧	٧٢	٦٣
الأمل في رحمة الله والخوف من غضبه	١٣	٢٨	٣٨	١٠٥
أنهار جهنم تبرد بدمعة عين	١٧	١٠٩	١٠٥	٢٩٧
ثواب الحسنات لمن اعتاد فعلها مستمر أثناء مرضه	١٩	٧٦	٦٣	٣٨٧
الله تعالى هو أعظم الصابرين وأعظم الحكماء	١٩	٩٠	٧٣	٣٩٢

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
متفرقات				
كلمات الله تعالى غير محدودة	١٨	١٠٩	٨٣	٣٥٤
أسماء الله الحسنی التسعة والتسعون	٢٠	٨	٦	٤٠٣
الأرضون السبع والسموات ومن فيهن لا تعدل عند الله حبة خردل	٢١	١٠٤	٨٣	٥٠١
محمد رسول الله ﷺ				
رؤية النبي ﷺ في المنام	١٢	٤	٤	٢١
فيض الله تعالى يحصل بواسطة النبي ﷺ	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
النبوة والرسالة				
لماذا نزل الوحي باللغة العربية	١٤	٤	٤	١١٨
الوحي إلى النبي يكون بلغة قومه	١٤	٤	٤	١١٨
النبي ﷺ يعلم لغة كل البشر والجن والحيوانات والأشجار	١٤	٤	٤	١١٨
الجميع يعرف النبي ﷺ ما عدا الكفار من الجن والإنس	١٤	٤	٤	١١٨
نطقت الغزاة الشهادتين وأرضعت صغارها وعادت من حيث جاءت	١٤	٤	٤	١١٨
النبي ﷺ نبي البشر كافة	١٤	٥	٥	١٢٠
أعرف الحجر الذي كان يُسَلَّمُ على النبي ﷺ قبل إعلان النبوة	١٧	٤٤	٤٢	٢٦٦
كان سيدنا محمد ﷺ نبياً قبل خلق سيدنا آدم عليه السلام	١٩	١٢	١٠	٣٦٥

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
كل شيء يؤمن بالنبي الكريم ﷺ ما عدا الطغاة من الجن والبشر	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
طاعة النبي ﷺ والصلاة والسلام عليه				
أطاعت الغزاة والجمل والأشجار	١٤	٤	٤	١١٨
إذا دعاكم النبي ﷺ أثناء الصلاة فلبّوا	١٥	٨٧	٣٧	١٦٣
الجميل المتمرد أطاع النبي ﷺ	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
روضة الرسول ﷺ				
الدعاء لا يصعد إلى أعلى بغير الصلاة على النبي ﷺ	١٥	١٧	١٣	١٥١
عقاب عدم الصلاة على النبي ﷺ	١٧	٢٣	٢٣	٢٥٥
أفضل قبر على وجه الأرض	١٨	٢١	١٩	٣١٤
روضة الرسول ﷺ أفضل من العرش أيضًا	١٨	٢١	١٩	٣١٤
كان الصحابة الكرام يزورون قبره ﷺ ويسلمون عليه	١٨	٢١	١٩	٣١٤
من زار قبري وجبت له شفاعتي	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
علم النبي ﷺ				
خبر الغيب عن طريق الوحي	١٣	١٣	١٧	٩٢
علم الغيب	١٦	٧٧	٥٢	١٩٩
النبي ﷺ يعرف الحجر الذي يسلم عليه	١٧	٤٤	٤٢	٢٦٦
النبي ﷺ يعرف حقيقة الروح	١٧	٨٥	٨٧	٢٨٧
النبي ﷺ يستطيع أن يرى خلقه	١٧	٩٣	٩٢	٢٨٩

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
نسيان النبي ﷺ في الصلاة	١٨	٢٣	٢٢	٣١٧
علم النبي ﷺ للغيب	١٨	٦٥	٥٧	٣٣٨
يزيد فضل النبي ﷺ وعلمه كل وقت	٢٠	١١٤	٨٠	٤٣٨
علم الطفل في بطن أمه	٢٢	٥	٥	٥١٥
الحديث والسنة				
الحديث والسنة حجة	١٦	٤٤	٢٩	١٨٣
لا يخرج من لسان النبي ﷺ سوى الحق	١٦	٤٤	٢٩	١٨٤
تدوين الحديث في العهد النبوي	١٦	٤٤	٢٩	١٨٤
كان النبي ﷺ يُحِبُّ العسل والحلوى	١٦	٦٨	٤٥	١٩٥
اختيار النبي ﷺ				
تتحول وديان مكة إلى ذهب	١٣	٢٦	٣٥	٢٦٤
أحبَّ النبي ﷺ لنفسه الفقر والمسكنة	١٣	٢٦	٣٥	٢٦٤
الشفاعة				
الشفاعة في ميدان الحشر	١٤	٢٢	٢٠	١٢٩
الشفاعة الكبرى في ميدان الحشر	١٧	٧٩	٨١	٢٨٣
الشفاعة بفضل الدعاء بعد الأذان	١٧	٧٩	٨١	٢٨٣
سُتَقْبِلُ شفاعة الصالحين	١٩	٧١	٥٩	٣٨٥
أحاديث عن الشفاعة	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
لكل نبي الحق في دعاء خاص	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
أين نبحت عن النبي ﷺ في ميدان الحشر؟	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
الأنبياء والعلماء والشهداء سيشفعون	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
من زار قبري وجبت له شفاعتي	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
سيحصل الأنبياء والصالحون على تأييد الله تعالى من أجل الشفاعة	٢١	٤٣	٣٩	٤٧٥
تعظيم النبي ﷺ وتكريمه				
قمة التعظيم والتكريم	١٥	٧٢	٣١	١٦٠
استدعاء النبي ﷺ لأحد في الصلاة	١٥	٨٧	٣٧	١٦٣
تقبيل يد النبي ﷺ وقدمه	١٧	١٠١	٩٩	٢٩٣
شأن النبي ﷺ وعظمته				
أقسم الله تعالى بحياة النبي ﷺ	١٥	٧٢	٣١	١٦٠
النبي ﷺ مُكْرَّمٌ أكثر من كل المخلوقات	١٥	٧٢	٣١	١٦٠
الشفاعة الكبرى في المقام المحمود وميدان الحشر	١٧	٧٩	٨١	٢٨٣
الله تعالى سَيُجْلِسُ النبي ﷺ على العرش	١٧	٧٩	٨١	٢٨٣
الفضل العظيم على النبي ﷺ	١٧	٧٩	٨١	٢٨٣
قَبَّلَ يهوديان يد النبي ﷺ وقدمه	١٧	١٠١	٩٩	٢٩٣
الآثار المباركة والتوسل				
عاد البصر إلى سيدنا يعقوب عليه السلام بقميص سيدنا يوسف عليه السلام	١٢	٩٦	٧٨	٦٧
التوسل بأولياء الله للمدد	١٣	١٤	١٨	٩٣
التبرك برداء النبي ﷺ	١٧	٢٩	٢٨	٢٥٩
البحث عن الوسيلة سنة أهل الله	١٧	٥٧	٥٤	٢٧١

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
مزاح النبي ﷺ وأخلاقه				
انتظر النبي ﷺ ثلاثة أيام حسب الوعد	١٩	٥٤	٤٧	٣٢٩
سأعطيكم صغير الناقة لتركبوه (مزاح)	٢١	٦٣	٥٣	٤٨٠
لن تدخل الجنة عجوز (مزاح)	٢١	٦٣	٥٣	٤٨٠
زاهر بدوي من عندنا (مزاح)	٢١	٦٣	٥٣	٤٨٠
لم ينتقم النبي ﷺ لنفسه أبدًا	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
لم يقل النبي ﷺ لأحد: «لا» أبدًا	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
لم يضرب النبي ﷺ أحدًا في غير الجهاد، ولم يضرب طفلًا ولا امرأة	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
الذي يتعدى حدود الله ينتقم منه	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
بشرية النبي ﷺ ونورانيته				
السجود لنور محمد	١٥	٣٠	١٩	١٥٤
النبي ﷺ مخلوق من نور الله تعالى	١٧	١	١	٢٣٣
بشرية النبي ﷺ	١٨	١١٠	٨٤	٣٥٤
وصال الصوم - أنا لست مثلكم	١٨	١١٠	٨٤	٣٥٤
نورانية النبي ﷺ	١٨	١١٠	٨٤	٣٥٤
خُلِقَ قبل كل شيء من نور الله تعالى	١٨	١١٠	٨٤	٣٥٤
تراءت الإبرة من نور النبي ﷺ	١٨	١١٠	٨٤	٣٥٤
خُلِقَ نور النبي ﷺ قبل كل شيء	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
النبي الرحيم والكريم ﷺ				
الغزاة والجمل	١٤	٤	٤	١١٨

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
رحمة النبي ﷺ				
النبي ﷺ رحمة للعالمين	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
بُعِثْتُ رحمةً	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
رحمتي هدية للخلق من الله تعالى	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
المعجزات				
بعض معجزات النبي ﷺ المشهورة	١٣	٧	٩	٨٦
تسليم الأشجار والجبال عليه ﷺ	١٣	٧	٩	٨٦
شهادة بلح النخيل	١٣	٧	٩	٨٦
جريان عيون الماء من بين أصابعه الشريفة	١٣	٧	٩	٨٦
نزول المطر فوراً بدعاء النبي ﷺ	١٣	٧	٩	٨٦
بكاء جذع النخيل لفراقه ﷺ	١٣	٧	٩	٨٦
حَمَلٌ وألف ضيفٍ في دعوة جابر	١٣	٧	٩	٨٦
لماذا لم تُرْسَلْ الملائكة مع النبي ﷺ	١٥	٧	٩	٨٦
غَوْصُ فَرَسٍ سِراقَة في الأرض	١٦	٤٥	٣٠	١٨٤
الرسول ﷺ يعرف الحجر الذي سَلَّمَ عليه	١٧	٤٤	٤٢	٢٦٦
حيلولة المَلَكِ بين النبي ﷺ وزوجة أبي لهب	١٧	٤٥	٤٣	٢٦٧
سبب عدم الإتيان بمعجزات	١٧	٥٩	٥٦	٢٧٢
كان النبي ﷺ قادراً على الإتيان بمعجزات	١٧	٩٣	٩٢	٢٨٩
سبب عدم الإتيان بمعجزات	١٧	١٠١	٩٩	٢٩٣
هجرة النبي ﷺ				
هذا هو الشخص الذي كان يدلني على الطريق	٢١	٦٤	٥٣	٤٨٠

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
معراج النبي ﷺ				
واقعة المعراج	١٧	١	١	٢٣٣
تصديق سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه	١٧	١	١	٢٣٣
مشاهدة العقوبات	١٧	١	١	٢٣٣
دلائل المعراج الجسماني	١٧	١	١	٢٣٣
متفرقات				
من يحب النبي ﷺ سيكون معه	١٨	١٨	١٦	٣١١
نسيان النبي ﷺ في الصلاة	١٨	٢٣	٢٢	٣١٧
تزيين الأعمال لإسعاد النبي ﷺ	٢١	٧٩	٦٤	٤٨٨
الأنبياء الكرام عليهم السلام				
الأنبياء هم الأكثر ابتلاءً على الإطلاق	١٢	٨٥	٧٠	٦٢
سَمَّ سيدنا يعقوب عليه السلام ريح القميص	١٢	٩٤	٧٧	٦٦
الوحي ينزل على كل نبي بلغة قومه	١٤	٤	٤	١١٨
الشيطان يوسوس في قلوب الأنبياء أيضًا	١٦	٩٨	٧٢	٢١١
النبوة والرسالة				
العلماء ورثة الأنبياء	١٩	٥	٥	٣٦٣
تركة الأنبياء هي العلم	١٩	٥	٥	٣٦٣
مال ميراث الأنبياء صدقة	١٩	٥	٥	٣٦٣
النبي يكون معصومًا حتى قبل إعلان النبوة	١٩	١٢	١٠	٣٦٥
بُعِثَ سيدنا يحيى وسيدنا عيسى عليهما السلام في طفولتيهما	١٩	١٢	١٠	٣٦٥

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
عمر إعلان النبوة بصفة عامة هو سن الأربعين	١٩	١٢	١٠	٣٦٥
الفرق بين النبي والرسول	١٩	٥١	٤٤	٣٧٩
النبوة أمرٌ وهبيٌّ	٢٠	١٣	٩	٤٠٥
النبي يكون مؤمناً منذ ولادته	٢٠	١٣	٩	٤٠٥
النبوة تُعطى بعد سن الأربعين	٢٠	٤٠	٢٥	٤١٢
اللعبة سنة الأنبياء	٢٠	٩٢	٦٢	٤٢٨
الأنبياء أكثر الناس ابتلاءً	٢٠	١٢٤	٨٩	٤٤٢
كان الأنبياء عليهم السلام جميعاً رجالاً	٢١	٧	٧	٤٥٦
اتهم أي نبي بالظلم كفرٌ	٢١	٨٧	٧٢	٤٩٤
يجب تأويل أي لفظ تبدو فيه إهانة النبي	٢١	٨٧	٧٢	٤٩٤
سيدنا آدم عليه السلام				
أُعْطِيَ سيدنا آدم عليه السلام علم ألف حرفة	٢١	٨٠	٦٥	٤٨٩
سيدنا إبراهيم عليه السلام				
حطم سيدنا إبراهيم عليه السلام الأصنام يوم الاحتفال	٢١	٥٨	٥٠	٤٨٠
نسبة الكذب إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام	٢١	٦٣	٥٣	٤٨٠
عرض سيدنا جبريل عليه السلام على سيدنا إبراهيم عليه السلام في النار	٢١	٦٩	٥٦	٤٨٣
الراحة الأكثر كانت خلال الأيام السبعة في النار	٢١	٦٩	٥٦	٤٨٣
رأى النمروذ روضة في النار	٢١	٦٩	٥٦	٤٨٣
وجود روضة في النار معجزة عظيمة	٢١	٦٩	٥٦	٤٨٣

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
تعمير الكعبة	٢٢	٢٦	٢١	٥٢٤
سمعت الأرواح في الأرحام أيضًا إعلان الحج	٢٢	٢٧	٢٣	٥٢٥
سيدنا موسى عليه السلام				
معجزات سيدنا موسى عليه السلام	١٧	١٠١	٩٩	٢٩٣
واقعة سيدنا موسى وسيدنا الخضر عليهما السلام	١٨	٦٠	٥٢	٣٣١
مولد سيدنا موسى عليه السلام وإلقاؤه في النهر	٢٠	٣٨	٢١	٤١٠
تربية سيدنا موسى عليه السلام في قصور الفرعون	٢٠	٣٨	٢١	٤١٠
عاد سيدنا موسى عليه السلام إلى أمه لإرضاعه	٢٠	٤٠	٢٢	٤١١
بُعِثَ سيدنا موسى عليه السلام بعد الأربعين من عمره	٢٠	٤٠	٢٥	٤١٢
كانت عصا سيدنا موسى عليه السلام تحرسه	٢٠	٧٣	٤٧	٤٢٠
آمنت السيدة آسية عليها السلام بسيدنا موسى عليه السلام	٢٠	٧٣	٤٧	٤٢٠
جبريل الأمين عليه السلام هو الذي ربي السامري	٢٠	٨٥	٥٦	٤٢٤
صوتُ كصوت العجل	٢٠	٨٥	٥٨	٤٢٦
لماذا أمسك سيدنا موسى عليه السلام بلحية سيدنا هارون عليه السلام؟	٢٠	٩٢	٦٢	٤٢٨
اللحية سنة الأنبياء	٢٠	٩٢	٦٢	٤٢٨
بماذا أجاب سيدنا هارون عليه السلام سيدنا موسى عليه السلام	٢٠	٩٤	٦٣	٤٣٠
صوت كصوت العجل	٢٠	٩٦	٦٤	٤٣١

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
نهاية السامري	٢٠	٩٧	٦٥	٤٣١
كان سيدنا موسى عليه السلام يعلم بنهاية السامري	٢٠	٩٧	٦٥	٤٣١
سيدنا عيسى عليه السلام				
سيدنا يوسف عليه السلام هو أول أنبياء بني إسرائيل	١٢	١٠٠	٨٠	٦٩
سيدنا عيسى عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل	١٢	١٠٠	٨٠	٦٩
بُعِثَ سيدنا عيسى وسيدنا يحيى عليهما السلام في طفولتهما	١٩	١٢	١٠	٣٦٥
ولادة سيدنا عيسى عليه السلام من نفخة	١٢	٩١	٧٤	٦٤
الأنبياء الكرام الآخرون عليهم السلام				
قصة سيدنا يوسف عليه السلام	١٢	٣	٣	٢٠
بُعِثَ سيدنا يوسف عليه السلام وهو في البئر وكان عمره سبعة عشر عامًا	١٢	١٥	١٣	٢٧
جمال سيدنا يوسف عليه السلام وتقطيع النساء أيديهن	١٢	٣١	٢٨	٣٤
سيدنا يوسف عليه السلام لم يعتمد على نجابة عائلته	١٢	٣٨	٣٤	٣٩
لم يكن سيدنا يوسف عليه السلام يشبع في أيام القحط	١٢	٥٦	٤٨	٤٩
بكاء سيدنا يعقوب عليه السلام وذهاب بصره	١٢	٨٤	٦٩	٦١
كان سيدنا يعقوب عليه السلام يعلم أن سيدنا يوسف عليه السلام على قيد الحياة	١٢	٨٦	٧١	٦٣

الصفحة	الحاشية	الآية	السورة	المضمون
٦٣	٧٢	٨٧	١٢	كان سيدنا يعقوب عليه السلام يعلم أن سيدنا يوسف عليه السلام على قيد الحياة
٦٧	٧٨	٩٦	١٢	عاد البصر إلى سيدنا يعقوب عليه السلام بفضل قميص سيدنا يوسف عليه السلام
٦٩	٨٠	١٠٠	١٢	سيدنا يوسف عليه السلام أول أنبياء بني إسرائيل
٦٩	٨٠	١٠٠	١٢	أين قبر سيدنا يوسف عليه السلام؟
١٥٩	٢٧	٦١	١٥	قوم سيدنا لوط عليه السلام
١٦١	٣٢	٧٣	١٥	قوم سيدنا لوط عليه السلام
١٦١	٣٣	٧٨	١٥	قوم سيدنا شعيب عليه السلام
١٦٢	٣٥	٨٠	١٥	قوم سيدنا صالح عليه السلام
٣٣١	٥٢	٦٠	١٨	هل كان سيدنا الخضر عليه السلام نبياً أم ولياً؟
٣٣١	٥٢	٦٠	١٨	هل سيدنا الخضر عليه السلام لا يزال حياً؟
٣٣١	٥٢	٦٠	١٨	أين مجمع البحرين؟
٣٣١	٥٢	٦٠	١٨	واقعة سيدنا موسى وسيدنا الخضر عليهما السلام
٣٣٨	٥٧	٦٥	١٨	كان عند سيدنا الخضر عليه السلام العلم اللدني، أي علم الغيب
٣٥٢	٨١	١٠٧	١٨	دعا الأنبياء الكرام عليهم السلام بالجنة
٣٨٩	٦٩	٨٥	١٩	بعض الأنبياء الكرام عليهم السلام لن يكون لديهم من آمن بهم
٤٢٨	٦٢	٩٢	٢٠	اللعنة سنة الأنبياء عليهم السلام
٤٣٤	٧٤	١٠٩	٢٠	سيشفع الأنبياء والعلماء والشهداء
٤٨٧	٦٣	٧٨	٢١	اجتهاد سيدنا داود وسيدنا سليمان عليهما السلام

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
رجع سيدنا داود عليه السلام عن اجتهاده	٢١	٧٨	٦٣	٤٨٧
أثر صوت سيدنا داود عليه السلام	٢١	٧٨	٦٣	٤٨٧
كانت الطيور والجبال تسبح الله مع سيدنا داود عليه السلام	٢١	٧٨	٦٣	٤٨٧
كان الحديد يلين في يد سيدنا داود عليه السلام	٢١	٨٠	٦٥	٤٨٩
حرف الأنبياء الكرام عليهم السلام	٢١	٨٠	٦٥	٤٨٩
تحكم سيدنا سليمان عليه السلام في الريح	٢١	٨١	٦٦	٤٩١
مرض سيدنا أيوب عليه السلام	٢١	٨٤	٦٨	٤٩٢
دخول سيدنا يونس عليه السلام في بطن الحوت	٢١	٨٧	٧١	٤٩٣
خطأ اجتهاد سيدنا يونس عليه السلام	٢١	٨٧	٧١	٤٩٣
يصير الصعب سهلاً بدعاء سيدنا يونس عليه السلام	٢١	٨٧	٧١	٤٩٣
قال سيدنا يونس عليه السلام عن نفسه: إنه ظالمٌ، ولو قالها غيره عنه لكان هو الظالم	٢١	٨٧	٧٢	٤٩٤
مولد سيدنا يحيى عليه السلام لسيدنا زكريا عليه السلام في شيخوخته	٢١	٩٠	٧٣	٤٩٦
دين الإسلام				
قول كلمة الكفر جائز عند الاضطرار	١٦	١٠٦	٧٩	٢١٥
الإسلام والتوحيد موجودان في الفطرة	١٧	٦٧	٦٧	٢٧٦
قول: إن شاء الله	١٨	٢٣	٢٢	٣١٧
لا تَحِلُّ المصيبة بقول: ما شاء الله ولا قوة إلا بالله	١٨	٣٩	٣٤	٣٢٢
اللعبة سنة الأنبياء الكرام عليهم السلام	٢٠	٩٢	٦٢	٤٢٨

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
طالب الدنيا بوسيلة الدين في جهنم	٢١	٨٠	٦٢	٤٨٦
كان النبي ﷺ يختار الأيسر دائماً	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
الأمة المسلمة				
مغفرة ذنوب الأمة المسلمة في القبور	١٢	٩٧	٧٨	٦٧
سَتَقْبَلُ شَفَاعَةَ أَهْلِ الْإِيمَانِ	١٢	٩٧	٧٨	٦٧
الله لا يغير ما بقوم	١٣	١١	١٤	٩١
سيدخل الصابرون الجنة قبل الحساب	١٣	٢٤	٣٣	١٠١
الفقر والغنى ليسا علامة للحق والباطل	١٣	٢٦	٣٥	١٠٣
سَيُنَادَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَشْرِ بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ	١٧	٧١	٧١	٢٧٨
أخبر من تُحِبُّ عَنْ حَبِّكَ لَهُ	١٨	١٨	١٦	٣١١
ستكون صفوف الأمة المسلمة هي الأكثر يوم القيامة	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
اطلبوا جنة الفردوس	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
سيدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
ستكون أمة النبي الكريم ﷺ الأكثر يوم القيامة	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة	٢١	٩٣	٧٦	٤٩٧
ستكون الأمة المحمدية يوم القيامة شاهدة على الأنبياء جميعاً	٢٢	٧٨	٨١	٥٥٢
الأمم السابقة				
أولياء الله من بني إسرائيل - أهل الكهف	١٨	٩	٦	٣٠٥

الصفحة	الحاشية	الآية	السورة	المضمون
٣٨٩	٦٩	٨٥	١٩	بعض الأنبياء لن يكون لديهم يوم القيامة مؤمن واحد
٤٢٤	٥٦	٨٥	٢٠	سيدنا جبريل عليه السلام هو الذي ربي السامري
٤٢٦	٥٨	٨٨	٢٠	صوت كصوت العجل
٤٣١	٦٥	٩٧	٢٠	نهاية السامري
٤٣٧	٧٦	٩٣	٢١	كان بنو إسرائيل منقسمين إلى اثنتين وسبعين فرقة
أهل بيت النبي رضي الله عنهم				
٣٩	٣٤	٣٨	١٢	الاعتماد على نجابة العائلة
١٠٠	٣٢	٢٣	١٣	ستنقطع كل القرابات ما عدا نسبي
٢٢٤	٩١	١٢٥	١٦	عَلَّمَ «الْحَسَنَانِ» الكريمان أعرابياً الوضوء
٤٢٠	٤٧	٧٣	٢٠	أول من آمن بالنبي ﷺ كانت السيدة خديجة رضي الله عنها
٤٢٠	٤٧	٧٣	٢٠	ضحت السيدة خديجة رضي الله عنها بكل ثروتها من أجل الإسلام
الصحابة الكرام رضي الله عنهم				
١٧٨	٢٠	٣٢	١٦	اللحظات الأخيرة في حياة سيدنا بلال رضي الله عنه
٢٠٣	٦٤	٨٩	١٦	عليكم بسنتي وسنة صحابي
٢١٥	٧٩	١٠٦	١٦	السيدة سمية رضي الله عنها أول شهيدة في الإسلام
٢١٥	٧٩	١٠٦	١٦	سيدنا عبد الله بن حذيفة في إناء من المعدن يغلي
٢٣٣	١	١	١٧	تصديق سيدنا أبي بكر رضي الله عنه للمعراج

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يسمعون تسبيح الطعام	١٧	٤٤	٤٢	٢٦٦
تَصَرَّفُ سيدنا أبي بكر رضي الله عنه أمام زوجة أبي لهب	١٧	٤٥	٤٣	٢٦٧
واقعة إسلام سيدنا عمر رضي الله عنه	٢٠	التعارف		٣٩٥
إطلاق لقب الفاروق على سيدنا عمر رضي الله عنه	٢٠	التعارف		٣٩٥
سعد أهل السماء بإسلام سيدنا عمر رضي الله عنه	٢٠	التعارف		٣٩٥
لا يمكن بيان فضائل سيدنا عمر رضي الله عنه حتى في ٩٥٠ عامًا	٢٠	التعارف		٣٩٥
ليمتلئ صدر سيدنا عمر رضي الله عنه بالإيمان	٢٠	التعارف		٣٩٥
أول شهيدة في الإسلام هي السيدة سمية رضي الله عنها	٢٠	٧٣	٤٧	٤٢٠
سيشفع سيدنا عثمان رضي الله عنه	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
قال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: هذا هو الشخص الذي كان يدلني على الطريق	٢١	٦٣	٥٣	٤٨٠
أهل الجنة هم أولئك الذين يتبعون سنتي وسنة أصحابي	٢١	٩٣	٧٦	٤٩٧
بنو إسرائيل				
سيدنا يوسف عليه السلام هو أول أنبياء بني إسرائيل	١٢	١٠٠	٨٠	٦٩

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
سيدنا عيسى عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل	١٢	١٠٠	٨٠	٦٩
الجبرُّ والقَدَرُ				
التوازن بين التدبير والقَدَرِ	١٢	٦٧	٥٦	٥٣
الدعاء والأعمال الصالحة تغير القَدَرِ	١٣	٣٩	٤٨	١١٠
الإنسان وعظمة الإنسان				
النفس الإنسانية ثلاثة أقسام	١٢	٥٣	٤٦	٤٦
كلما زاد الابتلاء زاد الأجر	١٢	٨٥	٧٠	٦٢
أفضلكم أحسنكم أخلاقاً	١٥	٣	٤	١٤٦
الروح وتكريمها	١٥	٢٩	١٩	١٥٤
المسكنة عند الشدة ثم الجحود بعدها	١٦	٥٤	٣٤	١٨٧
عقيدة التوحيد موجودة في الفطرة الإنسانية	١٧	٦٧	٦٧	٢٧٦
الإنسان أشرف المخلوقات	١٧	٧٠	٧٠	٢٧٧
خُلِقَ الناس جميعاً من الطين	٢٠	٥٥	٣٥	٤١٦
خُلِقَ الناس جميعاً من الطين	٢٢	٥	٤	٥١٤
مراحل نمو الطفل في بطن أمه	٢٢	٥	٥	٥١٥
علم مستقبل الطفل في بطن أمه	٢٢	٥	٥	٥١٥
الجهاد والشهادة				
زيارة قبور شهداء أحد كل عام	١٣	٢٤	٣٣	١٠١
الشهيد سيشفع لسبعين من أقاربه	١٣	٢٤	٣٣	١٠١
حياة الشهداء وطيران سيدنا جعفر الطيار عليه السلام	١٣	٢٤	٣٣	١٠١

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
السيدة سمية هي أول الشهداء في الإسلام	١٦	١٠٦	٧٩	٢١٥
أول شهيدة في الإسلام السيدة سمية رضي الله عنها	٢٠	٧٣	٤٧	٤٢٠
سيشفع الأنبياء والعلماء والشهداء	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
لا تبقى أماكن العبادة لأي دين سالمة بغير الجهاد	٢٢	٤٠	٤٤	٥٣٧
الدعاء				
أفضل وقت للدعاء هو ليلة الجمعة ووقت السحر	١٢	٩٨	٧٨	٦٧
طلب الدعاء بالمغفرة من الصالحين	١٢	٩٨	٧٨	٦٧
طريقة الدعاء	١٢	١٠١	٨١	٧١
القدَّر يتغير بالدعاء	١٣	٣٩	٤٨	١١٠
لا يصعد الدعاء بغير الصلاة على النبي ﷺ	١٥	١٧	١٣	١٥١
رفع الصوت وخفضه في الدعاء	١٧	١١٠	١٠٧	٢٩٨
الدعاء والذكرُ بصوت خفيض	١٩	٣	٣	٣٦٢
النَّعْمُ كلها يمكن أن تُنال بدعاء أحباء الله تعالى	١٩	٥٣	٤٦	٣٨٠
الدعاء بالزيادة في العلم	٢٠	١١٤	٨٠	٤٣٨
الدعاء مخ العبادة	٢٠	١١٤	٨٠	٤٣٨
الدعاء أعظم عبادة	٢٠	١١٤	٨٠	٤٣٨
يصير الصعب سهلاً بدعاء سيدنا يونس عليه السلام	٢١	٨٧	٧١	٤٩٣
المساجد				
عُمَارُ المساجد في ظل العرش	١٢	٣٣	٣٠	٣٦
لا يخاف إمام المسجد يوم القيامة	٢١	١٠٣	٨٢	٥٠٠

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
بناء المسجد الحرام والمسجد الأقصى لأول مرة	٢٢	٢٦	٢١	٥٢٤
الحفاظ على المساجد نظيفة سنة الأنبياء عليهم السلام	٢٢	٢٦	٢٢	٥٢٥
الشيطان				
الشيطان في ميدان الحشر	١٤	٢٢	٢٠	١٢٩
وعد الشيطان	١٤	٢٢	٢٠	١٢٩
لا تلوّموا الشيطان ولوّموا أنفسكم	١٤	٢٢	٢١	١٣٠
لا يستطيع الشيطان أن يصعد أعلى من السماء	١٥	١٧	١٣	١٥١
توسل الشيطان لينجو من الموت	١٥	٣٨	٢٠	١٥٥
أقسم الشيطان أن يضل البشر	١٥	٣٩	٢١	١٥٦
الشيطان يوسوس في قلوب الأنبياء أيضًا	١٦	٩٨	٧٢	٢١١
الشيطان لا يُكرِه أحدًا على فعل السوء	١٦	٩٩	٧٣	٢١١
كان الشيطان من الجن	١٨	٥٠	٤٣	٣٢٧
الشيطان لا يجبر أحدًا على فعل السوء	١٩	٨٣	٦٧	٣٨٩
فُزِيَتْ الغرائق العلا وشفاعة الأصنام	٢٢	٥٢	٥٤	٥٤٢
الشباب				
الشباب العابد في ظل العرش	١٢	٣٣	٣٠	٣٦
نصيحة للشباب لتجنب الزنا	١٦	١٢٥	٩١	٢٢٤
تعليم الإمام الحسن والإمام الحسين رضي الله عنهما الوضوء لأعرابي	١٦	١٢٥	٩١	٢٢٤
نصيحة إبراهيم بن أدهم لتجنب الذنوب	١٦	١٢٥	٩١	٢٢٤
كرامة سبعة شباب	١٨	٩	٦	٣٠٥

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
كان أهل الكهف شبابًا	١٨	٩	٦	٣٠٥
دور الشباب في الثورة الإسلامية	١٨	٩	٦	٣٠٥
سيكون أهل الجنة شبابًا	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
خُذْ مِنْ شَبَابِكَ لَهُرَمَك	٢١	١	١	٤٥١
إذا أصبحت فلا تنتظر المساء	٢١	١	١	٤٥١
السياسة				
الحاكم العادل في ظل العرش	١٢	٣٣	٣٠	٣٦
قبول المنصب في الحكومة الكافرة	١٢	٥٥	٤٧	٤٧
دور الشباب في الثورة الإسلامية	١٨	٩	٦	٣٠٥
يمكن أن تقوم الدولة مع الشرك	٢١	١٠٥	٨٤	٥٠١
تسقط الدول بالظلم والفساد	٢١	١٠٥	٨٤	٥٠١
الكفر والكفار				
يجوز قبول المنصب في الحكومة الكافرة	١٢	٥٥	٤٧	٤٧
يتمنى الكافر يوم الحشر لو كان مسلمًا	١٥	٢	٣	١٧٠
الحكمة من المهلة الطويلة	١٥	٤	٥	١٧١
أحسنوا إلى الكافر والمسلم على السواء	١٦	٩٠	٦٥	٢٠٧
يجوز قول كلمة الكفر عند الاضطراب	١٦	١٠٦	٧٩	٢١٥
يوم القيامة سيحمد الكافر أيضًا الله تعالى	١٧	٥٢	٤٩	٢٦٩
سيكون الكافر أكثر عمى يوم القيامة	١٧	٧٢	٧٢	٢٧٩
حدُّ المرتد				
حدُّ المرتد وأسبابه	١٦	١٠٦	٧٩	٢١٥

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
عقاب المرتد في الكتاب المقدس	١٦	١٠٦	٧٩	٢١٥
الشرك والمشركون				
عقاب المشرك في الإنجيل الرجم	١٦	١٠٦	٧٩	٢١٥
يمكن أن تقوم الدولة مع الشرك	٢١	١٠٥	٨٤	٥٠١
فرية الغرائيق العلا وشفاعة الأصنام	٢٢	٥٢	٥٤	٥٤٢
العبادة والعابدون				
السجود التعظيمي كان جائزاً في الشرائع السابقة	١٢	١٠٠	٨٠	٦٩
الاستعانة بأولياء الله الصالحين جائز	١٣	١٤	١٨	٩٣
فلسفة العبادة والتضحية	٢٢	٣٧	٤٠	٥٣٥
العلم وأهل العلم				
الركون إلى النجاة الأسرية	١٢	٣٨	٣٤	٣٩
عملية التلقيح	١٣	٣	٥	٨١
طريقة التبليغ والدعوة	١٦	١٢٥	٩١	٢٢٤
الحكمة وبعض النصائح الممتازة	١٦	١٢٥	٩١	٢٢٤
عَلَّمَ الإمامَ الحسن والإمامَ الحسين طريقة الوضوء	١٦	١٢٥	٩١	٢٢٤
الأميون سيستطيعون القراءة يوم القيامة	١٧	١٤	١٣	٢٥١
ستكون اللغة العربية لغة الجميع يوم القيامة	١٧	٧١	٧١	٢٧٨
سيتمكن كل شخص من القراءة يوم القيامة	١٧	٧١	٧١	٢٧٨
السفر لطلب العلم وزيارة العلماء سنة الأنبياء عليهم السلام	١٨	٦٠	٥٢	٣٣١

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
تعريف العلم اللدني	١٨	٦٥	٥٧	٣٣٨
المراد بالعلم اللدني علم الغيب	١٨	٦٥	٥٧	٣٣٨
احترام أهل العلم والأستاذ	١٨	٦٦	٥٨	٣٤٠
أدب أولاد هارون الرشيد	١٨	٦٦	٥٨	٣٤٠
العلماء ورثة الأنبياء	١٩	٥	٥	٣٦٣
تركة الأنبياء هي العلم	١٩	٥	٥	٣٦٣
سيدخل طالب العلم الجنة بغير حساب	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
سيشفع الأنبياء والعلماء والشهداء	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
أكثر الناس ابتلاءً بعد الأنبياء هم العلماء	٢٠	١٢٤	٨٩	٤٤٢
قول الشعر وسماعه	٢١	٥	٥	٤٥٥
لن يخاف الإمام يوم القيامة	٢١	١٠٣	٨٢	٥٠٠
حين لا يستمع الناس إلى دعوتك فاهتم بأمر نفسك	٢٢	٦٨	٧١	٥٤٨
لا تناظر المتعصين والمجادلين	٢٢	٦٨	٧١	٥٤٨
التقوى وأهل التقوى				
الرافض لمن دعت امرأه إلى نفسها في ظل العرش	١٢	٣٣	٣٠	٣٦
اتقوا موضع الشبهات	١٢	٥٠	٤٣	٤٤
قال النبي ﷺ: إنها زوجي تقف معي	١٢	٥٠	٤٣	٤٤
النفس اللوامة	١٢	٥٣	٤٦	٤٦
عند الموت يُسَلَّمُ الله تعالى وملك الموت	١٦	٣٢	٢٠	١٧٨

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
نصيحة لشابٍ بترك الزنا	١٦	١٢٥	٩١	٢٢٤
نصيحة إبراهيم بن أدهم للبعد عن الذنوب	١٦	١٢٥	٩١	٢٢٤
البكاء من خشية الله	١٧	١٠٩	١٠٥	٢٩٧
تبرد النار على العديد من أهل جهنم بفضل دمة	١٧	١٠٩	١٠٥	٢٩٧
كل الأعمال تُوزَنُ إلا الدموع	١٧	١٠٩	١٠٥	٢٩٧
التباكي عند قراءة القرآن أو سماعه	١٩	٥٨	٥٠	٣٨١
من بكى فلا يمسخ دموعه	١٩	٥٨	٥٠	٣٨١
سيكون المتقون ضيوفاً على الله تعالى يوم القيامة	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
سيكون المتقون يوم القيامة ممتطين المطايا	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
الليل والنهار ينادون كل يوم أن اعملوا صالحاً	٢١	١	١	٤٥١
إنما الأعمال بالنيات	٢٢	٣٧	٤٠	٥٣٥
إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم	٢٢	٣٧	٤٠	٥٣٥
الإيمان وأهل الإيمان - أولياء الله				
زار جلال الدين السيوطي النبي ﷺ في القنطرة	١٢	٤	٤	٢١
المتحابون في الله	١٢	٣٣	٣٠	٣٦
الركون إلى النجاة الأسرية	١٢	٣٨	٣٤	٣٩
النفس المطمئنة	١٢	٥٣	٤٦	٤٦
الصالحون أكثر الناس ابتلاءً	١٢	٨٥	٧٠	٦٢
سَتُقْبَلُ شفاعة أهل الإيمان	١٢	٩٧	٧٨	٦٧
الاستعانة بأولياء الله جائزة	١٣	١٤	١٨	٩٣
فائدة قرابة أهل الإيمان وصدقتهم	١٣	٢٣	٣٢	١٠٠

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
سَيُفِيدُ أَهْلَ الْإِيمَانِ أَقَارِبَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَزْوَاجَهُمْ	١٣	٢٣	٣٢	١٠٠
الذهاب إلى الأضرحة والموالد	١٣	٢٤	٣٣	١٠١
الأمل في رحمة الله تعالى والخوف من غضبه	١٣	٢٨	٣٨	١٠٥
الكلمة الطيبة ومثال المؤمن	١٤	٢٤	٢٤	١٣١
المؤمن نافع في كل حال	١٤	٢٤	٢٤	١٣١
أفضل المؤمنين أحسنهم أخلاقًا	١٥	٣	٤	١٤٦
لن يكون في قلب المؤمن حقد في الجنة	١٥	٤٧	٢٤	١٥٧
عند الموت يُسَلَّمُ ملك الموت والله تعالى	١٦	٣٢	٢٠	١٧٨
وفاة سيدنا بلال رضي الله عنه، واطرباه	١٦	٣٢	٢٠	١٧٨
كرامة أولياء بني إسرائيل	١٨	٩	٦	٣٠٥
قصة أصحاب الكهف	١٨	٩	٦	٣٠٥
كلب أصحاب الكهف	١٨	١٨	١٦	٣١١
حب أهل الله	١٨	١٨	١٦	٣١١
الحب لله	١٨	١٨	١٦	٣١١
بناء المساجد بالقرب من الأضرحة	١٨	٢١	١٩	٣١٤
البناء على الأضرحة	١٨	٢١	١٩	٣١٤
كم كان عدد أصحاب الكهف	١٨	٢٢	٢٠	٣١٦
تعريف العلم اللدني	١٨	٦٥	٥٧	٣٣٨
المراد بالعلم اللدني علم الغيب	١٨	٦٥	٥٧	٣٣٨
قصة ذي القرنين	١٨	٨٣	٦٨	٣٤٦
سيشفع الصالحون يوم القيامة	١٩	٧١	٥٩	٣٨٥

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
يظل ثواب الصالحات التي كان يعملها المريض حال صحته قائماً	١٩	٧٦	٦٣	٣٨٧
تولد في قلوب عامة الناس محبة الولي	١٩	٩٦	٧٧	٣٩٣
سيدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
سيكون يوم القيامة بالنسبة لأهل الإيمان بمثابة لحظات قليلة	٢٢	٤٧	٥٠	٥٤٠
الجنة والنار				
ستكون العربية لغة أهل الجنة	١٢	٢	٢	١٩
سيزول حقد الدنيا من قلوب أهل الجنة	١٥	٤٧	٢٤	١٥٧
لن يدخل الجنة متكبر	١٦	٢٢	١٤	١٧٤
ستكون لغة القبر والحشر والجنة هي اللغة العربية	١٨	٤٩	٤٢	٣٢٦
دعا الأنبياء عليهم السلام أيضاً بالجنة	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
أعمار أهل الجنة	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
صفوف أهل الجنة	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
الأكثر تكريماً بين أهل الجنة	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
جنة الفردوس	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
اطلبوا جنة الفردوس	١٨	١٠٧	٨١	٣٥٢
الصراط فوق جهنم	١٩	٧١	٥٩	٣٨٥
سيمر كل فرد فوق الصراط	١٩	٧١	٥٩	٣٨٥
سيدخل سبعون ألفاً الجنة بغير حساب	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
كل واحد من السبعين ألفاً معه سبعون ألفاً	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
سيدخل طالب العلم والزوجة المطيعة والأولاد البارون الجنة بغير حساب	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
رأت السيدة آسية زوجة فرعون قصرها في الجنة	٢٠	٧٣	٤٧	٤٢٠
سيدخل سبعون ألفاً الجنة بغير حساب	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
الحسنة والذنب				
الحسد يأكل الحسنات	١٢	٨	٧	٢٤
النفس الأماره	١٢	٥٣	٤٦	٤٦
أتبع السيئة بالحسنة تمحها	١٣	٢٢	٣١	٩٩
القدر يتغير بصالح الأعمال	١٣	٣٩	٤٨	١١٠
الدعوة إلى الحسنة وإلى السيئة	١٦	٢٥	١٥	١٧٤
الشیطان لا يُكْرِهُ أحداً على فعل السوء	١٦	٩٩	٧٣	٢١١
نصيحة لإبعاد شاب عن الزنا	١٦	١٢٥	٩١	٢٢٤
نصيحة إبراهيم بن أدهم لتجنب الذنب	١٦	١٢٥	٩١	٢٢٤
صحيفة الأعمال والملائكة الكتبة	١٧	١٣	١١	٢٥٠
صحبة الأخيار والأشرار	١٨	٢٨	٢٧	٣١٩
سيظل ثواب المريض على الصالحات التي عملها حال صحته	١٩	٧٦	٦٣	٣٨٧
سيستقبل العمل الصالح صاحبه يوم القيامة في شكل جميل	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
سيكون العمل الصالح لصاحبه يوم القيامة بمثابة المطية	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
سيستقبل العمل السيئ صاحبه يوم القيامة في أسوأ صورة	١٩	٨٦	٧٠	٣٩١
الله تعالى لا ينظر إلى الأشكال وإنما ينظر إلى القلوب	٢٢	٣٧	٤٠	٥٣٥
إنما الأعمال بالنيات	٢٢	٣٧	٤٠	٥٣٥
القيامة				
ستكون أرض جديدة وسماء جديدة يوم القيامة	١٤	٤٨	٣٩	١٤١
ضرورة القيامة	١٦	٣٨	٢٥	١٨١
كل شخص سيقراً يوم القيامة	١٧	١٤	١٣	٢٥١
كل شخص سيقراً يوم القيامة	١٧	٧١	٧١	٢٧٨
ستكون اللغة العربية لغة الجميع يوم القيامة	١٧	٧١	٧١	٢٧٨
سيكون الكافر أكثر عمى يوم القيامة	١٧	٧٢	٧٢	٢٧٩
نموذج رائع للبعث بعد الموت	١٨	٢١	١٨	٣١٤
ستكون لغة القبر والحشر والجنة هي اللغة العربية	١٨	٤٩	٤٢	٣٢٦
سيستطيع كل شخص أن يقرأ يوم القيامة	١٨	٤٩	٤٢	٣٢٦
ستكون صداقة الصالحين مفيدة يوم القيامة أيضاً	١٩	٧١	٥٩	٣٨٥
سيستقبل العمل الصالح صاحبه يوم القيامة في أحسن صورة	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
سيكون العمل الصالح يوم القيامة بمثابة المطية لصاحبه	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
سيكون المتقون يوم القيامة ممتطين المطايا	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
سيكون المتقون ضيوفاً على الله يوم القيامة	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
بعض الأنبياء لن يكون معهم أحد من المؤمنين بهم يوم القيامة	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
ستكون أمة سيدنا محمد ﷺ هي الأكثر يوم القيامة	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
سيستقبل العمل السيئ صاحبه يوم القيامة في أسوأ صورة	١٩	٨٦	٧٠	٣٩١
الورقة المكتوب عليها الشهادتان ستكون أثقل من سجل الذنوب	٢٠	٨	٦	٤٠٣
لماذا أُخْفِيَ وقت قيام الساعة؟	٢٠	١٥	١١	٤٠٦
أُعْطِيَ كُلُّ نَبِيٍّ الحق في دعاء خاص	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
أين نجد سيدنا محمداً ﷺ يوم القيامة	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
سيشفع الأنبياء والعلماء والشهداء يوم القيامة	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
سيشفع سيدنا عثمان رضي الله عنه يوم القيامة	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
سيدخل سبعون ألفاً الجنة بغير حساب	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
ليس للأعمال جسم فكيف تُوزَن؟	٢١	٤٧	٤٣	٤٧٦
مثال للبعث بعد الموت	٢٢	٥	٥	٥١٥
مثال للبعث بعد الموت	٢٢	٥	٧	٥١٦
كم سيكون يوم القيامة طويلاً؟	٢٢	٤٧	٥٠	٥٤٠
سيكون يوم القيامة بمثابة لحظات قليلة لأهل الإيمان	٢٢	٤٧	٥٠	٥٤٠
ستكون الأمة المسلمة شاهدة على الأنبياء جميعاً يوم القيامة	٢٢	٧٨	٨١	٥٥٢

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
التوبة والموت والقبر				
فائدة إيصال الثواب في القبر	١٢	٩٧	٧٨	٦٧
لا يجوز تمنى الموت	١٢	١٠١	٨١	٧١
ثلاثة أسئلة في القبر	١٤	٢٧	٢٦	١٣٣
أكثركم حكمة أكثركم ذكرًا للموت	١٥	٣	٤	١٤٦
ما المراد بالروح؟	١٥	٢٩	١٩	١٥٤
طلب المغفرة والعفو	١٥	٣٩	٢١	١٥٦
ملك الموت والله تعالى يُسَلِّمَانِ على المتقين عند الموت	١٦	٣٢	٢٠	١٧٨
يجوز تجهيز القبر والكفن قبل الموت	١٧	٢٩	٢٨	٢٥٩
ما الروح؟	١٧	٨٥	٨٧	٢٨٧
بناء المساجد بالقرب من الأضرحة	١٨	٢١	١٩	٣١٤
البناء فوق الأضرحة	١٨	٢١	١٩	٣١٤
ستكون لغة القبر والحشر والجنة هي اللغة العربية	١٨	٤٩	٤٢	٣٢٦
كان النبي ﷺ يستعيز من عذاب القبر	٢١	١	١	٤٥١
القبر ينادي كل يوم	٢١	١	١	٤٥١
دليل عذاب القبر	٢١	١	١	٤٥١
استفيدوا من الحياة قبل الموت	٢١	١	١	٤٥١
الليل والنهار أيضًا يناديان كل يوم	٢١	١	١	٤٥١
تظل روح الصالحين فرحة مسرورة في أعالي السماء	٢٢	٣١	٣٢	٥٣٠

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
تظل روح السيئين قلقة خائفة في قعر الأرض	٢٢	٣١	٣٢	٥٣٠
القرآن المجيد				
فضل اللغة العربية	١٢	٢	٢	١٩
النظرة الحاسدة وعلاجها	١٢	٦٧	٥٦	٥٣
الله تعهد بحفظ القرآن الكريم	١٥	٩	٧	١٤٨
فضل حفظ القرآن الكريم	١٥	٩	٧	١٤٨
فضل القرآن على اللغة العربية	١٥	٩	٧	١٤٨
فضل سورة الفاتحة	١٥	٨٧	٣٧	١٦٣
الظلم في حق القرآن الكريم	١٥	٨٨	٣٨	١٦٤
الحديث الشريف أول وسيلة لتفسير القرآن الكريم	١٦	٤٤	٢٩	١٨٣
في القرآن علم كل شيء	١٦	٨٩	٦٤	٢٠٣
علوم الكتب السماوية كلها مجموعة في القرآن الكريم	١٦	٨٩	٦٤	٢٠٣
البحث حتى عن خطام الجمل في القرآن	١٦	٨٩	٦٤	٢٠٣
حكم السنة والإجماع والقياس	١٦	٨٩	٦٤	٢٠٣
الإمام الشافعي والإمام الشعراوي: في القرآن بيان لكل شيء	١٦	٨٩	٦٤	٢٠٣
في القرآن بيان لكل شيء	١٦	٩٠	٦٥	٢٠٧
القرآن ليس من كلام البشر	١٦	٩٠	٦٥	٢٠٧
قراءة الاستعاذة قبل التلاوة سنة	١٦	٩٨	٧٢	٢١١

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
حكمة الناسخ والمنسوخ	١٦	١٠١	٧٤	٢١٢
القرآن كلام الله	١٦	١٠٣	٧٦	٢١٣
كانت التوراة لهداية بني إسرائيل فقط	١٧	٢	٢	٢٤٦
طريق القرآن أكثر استقامة	١٧	٩	٨	٢٤٩
حاول مسيلمة الكذاب تأليف قرآن	١٧	٨٨	٩٠	٢٨٨
حكمة نزول القرآن في ٢٣ عامًا	١٧	١٠٦	١٠٣	٢٩٦
حكمة نزول القرآن في سورٍ مختلفة	١٧	١٠٦	١٠٣	٢٩٦
رفع الصوت وخفضه في التلاوة	١٧	١١٠	١٠٧	٢٩٨
التلاوة بصوت متوسط حتى لا يسيء إليه غير المسلم	١٧	١١٠	١٠٧	٢٩٨
التبكي عند قراءة القرآن أو سماعه	١٩	٥٨	٥٠	٣٨١
القرآن الكريم سيشفع	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
فرية الغرائق العلا وشفاعة الأصنام	٢٢	٥٢	٥٤	٥٤٢
مكانة المرأة وحقوق وواجبات الزوجين				
ليس كل النساء ماكرات	١٢	٢٨	٢٥	٣٣
لم تُبعث امرأة نبيًا	١٢	١٠٩	٨٨	٧٤
أمر المرأة بالسجود لزوجها	١٤	٤	٤	١١٨
وَأَدِّبْنَ	١٦	٥٨	٣٧	١٨٨
فضل الابنة	١٦	٥٨	٣٧	١٨٨
تعليم البنت	١٦	٥٨	٣٧	١٨٨
المرأة المباركة يولد لها ابنة أولاً	١٦	٥٨	٣٧	١٨٨

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
لتسعدوا كثيرًا بمولد البنات	١٦	٥٨	٣٧	١٨٨
حكاية ابن وابنة	١٦	٥٨	٣٧	١٨٨
لا فرق بين الرجل والمرأة باعتبار الأجر	١٦	٩٧	٧١	٢١٠
الزوجة المطيعة ستدخل الجنة بغير حساب	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
آمنت السيدة آسية زوجة فرعون	٢٠	٧٣	٤٧	٤٢٠
رأت السيدة آسية أثناء حياتها قصرها في الجنة	٢٠	٧٣	٤٧	٤٢٠
السيدة خديجة رضي الله عنها هي أول من آمن	٢٠	٧٣	٤٧	٤٢٠
السيدة سمية رضي الله عنها هي أول شهيدة	٢٠	٧٣	٤٧	٤٢٠
لم يضرب النبي ﷺ امرأة أو خادماً أبداً	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
المراحل المختلفة للجنين في بطن أمه	٢٢	٥	٥	٥١٥
علم مستقبل الطفل في بطن أمه	٢٢	٥	٥	٥١٥
الرزق الحلال				
طلب الرزق الحلال	٢١	٨٠	٦٥	٤٨٩
حقوق وواجبات كل من الوالدين والأولاد				
الأولاد المطيعون سيدخلون الجنة بغير حساب	١٩	٨٥	٦٩	٣٨٩
ترتفع درجات الوالدين في الجنة باستغفار ابنهما لهما	١٩	٩٧	٧٨	٣٩٣
الأطفال سيشفعون	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
من يكسب الرزق من أجل الأولاد والوالدين هو في سبيل الله	٢١	٨٠	٦٥	٤٨٩
الصلاة				
سجدة التعظيم كانت جائزة في الشرائع السابقة	١٢	١٠٠	٨٠	٦٩

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الوساوس أثناء الصلاة	١٤	٣١	٢٨	١٣٤
عَلَّمَ «الحَسَنَانِ» الكريمان أعرابياً الوضوء	١٦	١٢٥	٩١	٢٢٤
اجتماع الملائكة في صلاة الفجر والعصر	١٧	٧٨	٧٩	٢٨٢
سؤال الشفاعة في الدعاء بعد الأذان	١٧	٧٩	٨١	٢٨٣
رَفَعُ سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما الصوت في الصلاة وخفضه	١٧	١١٠	١٠٧	٢٩٨
نسيان النبي ﷺ في الصلاة	١٨	٢٣	٢٢	٣١٧
فرضية الصلاة	١٩	٥٩	٥١	٣٨٢
الصلاة مفتاح الجنة	١٩	٥٩	٥١	٣٨٢
يمكن تكميل الفرائض بالنوافل	١٩	٥٩	٥١	٣٨٢
لص الصلاة	١٩	٥٩	٥١	٣٨٢
ذَكَرُ الله تعالى يتجدد دائماً بالصلاة	٢٠	١٤	١٠	٤٠٦
الله تعالى يذكر المصلي	٢٠	١٤	١٠	٤٠٦
أوقات الصلوات الخمس	٢٠	١٣٠	٩٤	٤٤٥
أمر أهل البيت بالصلاة	٢٠	١٣٢	٩٦	٤٤٦
لا يخاف الإمام يوم القيامة	٢١	١٠٣	٨٢	٥٠٠
لا يخاف المؤذن يوم القيامة	٢١	١٠٣	٨٢	٥٠٠
الحج والصوم				
سيشفع الصوم	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
الأرواح في الأرحام سمعت إعلان الحج	٢٢	٢٧	٢٣	٥٢٥
فضل الحج	٢٢	٢٨	٢٤	٥٢٦

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
فوائد الحج الدينية والدنيوية	٢٢	٢٨	٢٤	٥٢٦
أيام التضحية	٢٢	٢٨	٢٥	٥٢٦
حيوان الأضاحي	٢٢	٢٨	٢٥	٥٢٦
حكم الأضحية	٢٢	٢٨	٢٥	٥٢٦
فضل الأضحية	٢٢	٢٨	٢٥	٥٢٦
لحوم الأضاحي	٢٢	٢٨	٢٥	٥٢٦
الاستفادة من الهدي جائزة	٢٢	٣٣	٣٤	٥٣٢
فلسفة التضحية	٢٢	٣٧	٤٠	٥٣٥
الزكوات والصدقات				
المتصدق خفية في ظل العرش	١٢	٣٣	٣٠	٣٦
القرب الإلهي بفضل مساعدة الفقراء	١٣	٢٦	٣٥	١٠٣
لا خير في الإسراف	١٧	٢٧	٢٦	٢٥٨
لا إسراف في الخير	١٧	٢٧	٢٦	٢٥٨
الكرم والبخل	١٧	٢٩	٢٨	٢٥٩
لا تُقْتَرُوا في الإنفاق	١٧	٢٩	٢٨	٢٥٩
عاقبة الكريم والبخل	١٧	١٠٠	٩٨	٢٩٢
أنفقت السيدة خديجة رضي الله عنها وسيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه كل أموالهما على الإسلام	٢٠	٧٣	٤٧	٤٢٠
السلام				
السلام على الكفار	١٩	٤٧	٤٠	٣٧٧
الصدق والكذب				
سيكون التاجر الصدوق مع النبيين يوم القيامة	١٧	٣٥	٣٤	٢٦٣

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الملائكة				
كيف يقوم الملائكة الحفظة بمهمتهم	١٣	١١	١٣	١٢٦
خُلِقَ الْجِنُّ قَبْلَ الْبَشَرِ	١٥	٢٧	١٨	١٢٨
الملائكة التي تكتب السيئات والصالحات وصحيفة الأعمال	١٧	١٣	١١	٢٥٠
لم تستطع زوجة أبي لهب رؤية النبي ﷺ	١٧	٤٥	٤٣	٢٦٧
الإنسان أفضل من الملائكة	١٧	٧٠	٧٠	٢٧٧
كيف تحفظ الملائكة الإنسان؟	١٧	٧٨	٧٩	٢٨٢
لو كانت الملائكة تسكن الأرض لكان الرسل من الملائكة أيضاً	١٧	٩٥	٩٣	٢٩٠
الملائكة معصومون	٢١	٢٧	٢٢	٤٦٨
الملائكة أيضاً سيشفعون	٢١	٢٨	٢٣	٤٦٨
السحر				
أثر السحر ينتهي حال النوم	٢٠	٧٣	٤٧	٤٢٠
مقارنة بين السحر والمعجزة	٢٠	٧٣	٤٧	٤٢٠
الوالدان والأولاد والأقارب الآخرون				
واصل الرحم الحقيقي	١٣	٢١	٢٧	٩٧
سيفيد الوالدان أولادهم يوم القيامة	١٣	٢٣	٣٢	١٠٠
الإحسان إلى الوالدين يغير القَدَر	١٣	٣٩	٤٨	١١٠
سعة الرزق بفضل صلة الرحم	١٣	٣٩	٤٨	١١٠
خدمة الوالدين تجلب الحظ السعيد	١٣	٣٩	٤٨	١١٠

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
حقوق الوالدين وفضلهما	١٧	٢٣	٢٣	٢٥٥
ولا تقل لهما أفّ	١٧	٢٣	٢٣	٢٥٥
لا تَسِرْ أُمَام والدك	١٧	٢٣	٢٣	٢٥٥
اليتم				
أكل أموال اليتامى بالباطل	١٧	٣٤	٣٣	٢٦٢
التوكل				
الكافر والاستعانة بالأسباب الظاهرية	١٢	٤٢	٣٨	٤١
التوازن بين التدبير والتقدير	١٢	٦٧	٥٦	٥٣
زيارة القبور وإيصال الثواب				
العفو عن ذنوب الأمة المسلمة في القبر	١٢	٩٦	٧٨	٦٧
فائدة إيصال الثواب في القبر	١٢	٩٦	٧٨	٦٧
إيصال الثواب بإطعام الطعام	٢٢	٣٧	٤٠	٥٣٥
الدنيا ومالها ومتاعها				
زيادة المال ونقصانه ليس دليلاً على الحق والباطل	١٣	٢٦	٣٥	١٠٣
سيدخل الفقراء والمساكين الجنة قبل غيرهم بخمسائة عام	١٣	٢٦	٣٥	١٠٣
الله تعالى يرضى بالعمل القليل في مقابل القناعة	١٤	٧	٨	١٢٤
قيمة اليد والقدم	١٤	٣٤	٣١	١٣٦
قيمة كوب من الماء المُلْكُ كله	١٤	٣٤	٣١	١٣٦
نِعَمُ الله لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى	١٤	٣٤	٣١	١٣٦
الأمل في العمر الطويل	١٥	٣	٤	١٤٦

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الحكمة وراء المهلة الطويلة	١٥	٤	٥	١٤٧
الرغبة في الدنيا ظلمٌ للقرآن	١٥	٨٨	٣٨	١٦٤
الطمع في المال لا ينتهي	١٧	١٠٠	٩٨	٢٩٢
عاقبة الكريم والبخل	١٧	١٠٠	٩٨	٢٩٢
قدر ومنزلة المال والثروة الدنيوية	١٨	٧	٤	٣٠٤
مزارع الدنيا والآخرة	١٨	٤٦	٣٩	٣٢٤
زيادة الثروة ونقصانها ليس معيارًا للحق والباطل	١٩	٧٤	٦١	٣٨٦
ما المراد بضيق الحياة في الدنيا	٢٠	١٢٤	٨٩	٤٤٢
شأن أهل الدنيا وعظمتهم	٢٠	١٣١	٩٥	٤٤٥
كن في الدنيا كأنك غابر سبيل	٢١	١	١	٤٥١
طالب الدنيا بوسيلة الدين في جهنم	٢١	٨٠	٦٥	٤٨٩
القياس والاجتهاد والإجماع				
السنة والإجماع والقياس أصل في حكم القرآن	١٦	٨٩	٦٤	٢٠٣
رجع سيدنا داود عليه السلام عن اجتهاده	٢١	٧٨	٦٣	٤٨٧
لو أخطأ المجتهد فله أجر	٢١	٧٨	٦٣	٤٨٧
الاجتهاد جائز في العصر الحاضر أيضًا	٢١	٧٨	٦٣	٤٨٧
التقليد				
الناس في كل زمان يقلدون	١٦	٤٣	٢٨	١٨٢
العهد والأمانة				
سيكون ناقض العهد ذليلاً يوم القيامة	١٦	٩١	٦٦	٢٠٨
الحيوان والحيوان الأخرس				
مساعد الغزالة والجمل	١٤	٤	٤	١١٨

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
أطاع الجمل المتمردُ النبي ﷺ	٢١	١٠٧	٨٦	٥٠٢
الظلم والعدوان				
لماذا يُمهِّلُ الله الظالمين؟	١٦	٦١	٣٩	١٩٢
الصبر والشكر				
الصبر والشكر عند الصوفية	١٣	٢٢	٣١	٩٩
سيدخل الصابرون الجنة قبل الحساب	١٣	٢٤	٣٣	١٠١
نصف الإيمان صبر ونصفه شكر	١٤	٥	٦	١٢١
أمر المؤمن في التعب والراحة خير	١٤	٥	٦	١٢١
فضل الصبر والشكر	١٤	٥	٦	١٢١
كيف تكون صابراً وشاكراً	١٤	٥	٦	١٢١
بعض الأحاديث عن الشكر	١٤	٧	٨	١٢٣
الإمام الرازي والزلال والجحود	١٦	٥٤	٣٤	١٨٧
مكة المكرمة والمدينة المنورة				
من زار قبري وجبت له شفاعتي	٢٠	١٠٩	٧٤	٤٣٤
متفرقات				
أحبوا العرب	١٢	٢	٢	١٩
من هم العرب؟	١٢	٢	٢	١٩
اللغة العربية فصيحة وواسعة	١٢	٢	٢	١٩
لغة أهل الجنة ستكون اللغة العربية	١٢	٢	٢	١٩
الرؤيا الصالحة والرؤيا السيئة	١٢	٤	٤	٢١
الفرق بين الحسد والغبطة	١٢	٨	٧	٢٤

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
الحسد يأكل الحسنات	١٢	٨	٧	٢٤
تجنبوا مواضع الشبهات	١٢	٥٠	٤٣	٤٤
نظرة الحسد وعلاجها	١٢	٦٧	٥٦	٥٣
البكاء بالعين والقلب رحمة	١٢	٨٤	٦٩	٦١
لا يجوز لطم الخدود ولا شق الجيوب	١٢	٨٤	٦٩	٦١
لا يجوز النواح على الميت مثل الجاهلية	١٢	٨٤	٦٩	٦١
الأرض كروية وليست مفلطحة	١٣	٣	٤	٨٠
في النباتات أيضاً الذكورة والأنوثة	١٣	٣	٥	٨١
عملية التلقيح	١٣	٣	٥	٨١
الأشياء النافعة تبقى	١٣	١٧	٢٣	٩٦
ذم التكبر	١٦	٢٢	١٤	١٧٤
العلاج سنة	١٦	٦٨	٤٥	١٩٥
العلاج بالدواء الحرام جائز	١٦	٦٨	٤٥	١٩٥
في العسل شفاء	١٦	٦٨	٤٥	١٩٥
الفرق بين العدل والإحسان	١٦	٩٠	٦٥	٢٠٧
عدة نصائح ممتازة	١٦	١٢٥	٩١	٢٢٤
الليل للراحة والنهار للعمل	١٧	١٢	١٠	٢٥٠
حسنات المغتاب ضائعة	١٧	١٤	١٢	٢٥١
ذم التكبر	١٧	٣٧	٣٦	٢٦٤
يزداد الإنسان رفعة بالتواضع	١٧	٣٧	٣٦	٢٦٤
سيكون كل شخص قارئاً يوم القيامة	١٧	٧١	٧١	٢٧٨

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
ستكون لغة كل شخص يوم القيامة هي اللغة العربية	١٧	٧١	٧١	٢٧٨
ستكون لغة القبر والحشر والجنة هي اللغة العربية	١٨	٤٩	٤٢	٣٢٦
سيستطيع كل شخص القراءة يوم القيامة	١٨	٤٩	٤٢	٣٢٦
قصة ذي القرنين	١٨	٨٣	٦٨	٣٤٦
يأجوج ومأجوج	١٨	٩٤	٧٥	٣٤٨
أخبر من تحب أنك تحبه	١٨	١٨	١٦	٣١١
الliche	٢٠	٩٢	٦٢	٤٢٨
اغتنموا خمسًا قبل خمسٍ	٢١	١	١	٤٥١
قول الشعر وسماعه	٢١	٥	٥	٤٥٥
خلقنا من الماء كل شيء حي	٢١	٣٠	٢٦	٤٧٠
الفرق بين الفلك والسماء	٢١	٣٣	٣٠	٤٧١
تزيين الأعمال لإسعاد النبي ﷺ ليس رياءً	٢١	٧٩	٦٤	٤٨٨
لا تُحَقِّرَنَّ مهنةً أو حرفةً	٢١	٨٠	٦٥	٤٨٩
لا خوف يوم القيامة على عامل يؤدي حقوق صاحب العمل	٢١	١٠٣	٨٢	٥٠٠
فرية الغرائق العلا وشفاعة الأصنام	٢٢	٥٢	٥٤	٥٤٢

المصادر والمراجع

أولاً: كتب التفاسير

- (١) تفسير ضياء القرآن: الشيخ محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٩٩٥م (٥ مجلدات).
- (٢) الدر المنثور: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م (٨ مجلدات).
- (٣) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
- (٤) التفسير الكبير: الإمام فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٦ مجلدًا).
- (٥) حاشية الصاوي على الجلالين: الشيخ أحمد الصاوي المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
- (٦) في ظلال القرآن: الشهيد سيد قطب، دار الشروق، مدينة نصر، القاهرة، مصر (٦ مجلدات).
- (٧) جامع البيان (تفسير الطبري) / تفسير ابن جرير: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٤م (١٥ مجلدًا).
- (٨) تفسير روح البيان: الإمام إسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
- (٩) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان ١٩٨١م (٣ مجلدات).
- (١٠) تفسير البيضاوي: الإمام ناصر الدين البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (مجلدان).
- (١١) تفسير فتح العزيز (تفسير عزيزي: أردو)، شاه عبد العزيز الدهلوي، مطبعة عليمي، دهلي، الهند.
- (١٢) تفسير ابن كثير: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار القلم، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
- (١٣) التفسير المظهر: القاضي محمد ثناء الله باني بتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (١٤) تفسير نعيم: المفتي أحمد يار خان نعيم، المكتبة الإسلامية، الكجرات، باكستان.

٥٩٨ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد الثالث)

(١٥) تفسير روح المعاني: الإمام شهاب الدين السيد محمود البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٨ م (١٠ مجلدات).

(١٦) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، مصر ١٩٩١ م (١٤ مجلدًا).

(١٧) تفسير الحسنات: العلامة أبو الحسنات القادري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان (٧ مجلدات).

(١٨) تفسير الخازن: الإمام علاء الدين البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩ م (٧ مجلدات).

(١٩) تنوير المقياس: عبد الله بن عباس، المكتبة الشعبية، القاهرة، مصر ١٩٧٢ م.

(٢٠) البحر المحيط: محمد بن يوسف الغرناطي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).

(٢١) مدارك التنزيل (تفسير النسفي): الإمام عبد الله بن أحمد النسفي، دار النفائس، بيروت، لبنان ١٩٩٦ م.

(٢٢) خزائن العرفان: سيد محمد نعيم الدين مرادآبادي، حفيظ بك ڈپو، الهند.

(٢٣) أحكام القرآن: الإمام أحمد بن علي الجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢٤) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

(٢٥) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٢٦) تفسير الكشاف: محمود بن عمر الزمخشري: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٨٧ م.

(٢٧) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٢٨) تفسير القرآن العظيم، حافظ بن أبي حاتم، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان (١٤ مجلدًا).

(٢٩) تفسير الجيلاني: محي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني، شركة التمام، بيروت، لبنان.

(٣٠) التفسير المنير: دكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام (١٧ مجلدًا).

(٣١) زاد المسير: عبد الرحمن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٨ مجلدات).

(٣٢) تفسير الماجدي: عبد الماجد دريا آبادي، تاج كمپني لميتد، لاهور، كراتشي، باكستان (مجلدان).

(٣٣) تفسير أحكام القرآن: أبو بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).

(٣٤) تفسير معارف القرآن: مفتي محمد شفيع، إدارة المعارف، كراتشي، باكستان (٨ مجلدات).

(٣٥) تفهيم القرآن: سيد أبو الأعلى المودودي، مركزي مكتبة إسلامي ببلشرز، نيو دلهي، الهند (٦ مجلدات).

(٣٦) تفسير عثمانى: شبير أحمد عثمانى، دار الإشاعت، أردو بازار، كراتشي، باكستان (مجلدان).

(٣٧) تفسير البغوي: الحسين بن مسعود البغوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، حاشية تفسير الخازن (٧ مجلدات).

(٣٨) تفسير تبيان القرآن: العلامة غلام رسول سعيدي، فريد بك ستال، اردو بازار، كراتشي، باكستان.

(٣٩) تفسير أبي السعود: القاضي محمد بن محمد، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٤٠) تفسير حقاني: العلامة عبد الحق حقاني، مير محمد كتب خانه، آرام باغ، كراتشي، باكستان.

(٤١) تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ثانياً: كتب الأحاديث

(٤٢) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٣) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، دار الدعاء، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٤) سنن الترمذي: محمد بن عيسى، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٥) سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٦) سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٧) سنن النسائي: أحمد بن شعيب، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٨) مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٤٩) الموطأ: الإمام مالك بن أنس، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١ م.

(٥٠) مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٥١) المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل، العراق ١٩٨٤ م (٢٥ مجلدًا).

(٥٢) المستدرک: الإمام الحاكم النيشابوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠ م (٤ مجلدات).

(٥٣) الجامع الصغير: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان ١٩٩٠ م (مجلدان).

٦٠٠ ————— إمداد الكرم في تفسير خير الكلم (المجلد الثالث)

(٥٤) رياض الصالحين: يحيى بن شرف النووي الشافعي، دار القلم، بيروت، لبنان ١٩٧٠م.
(٥٥) سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني، عالم الكتب، بيروت، لبنان ١٩٩٣م
(٤ مجلدات).

(٥٦) شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م.
(٥٧) الترغيب والترهيب: عبد العظيم المنذري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان
١٩٦٨م.

(٥٨) السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي، نشر السنة، الملتان، باكستان (١٠ مجلدات).
(٥٩) المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية
السعودية (١١ مجلدًا).

(٦٠) صحيح ابن حبان: دار الفكر، بيروت، لبنان (٦ مجلدات).
(٦١) سنن الدارمي: الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، دار الدعوة، استنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٦٢) مصنف عبد الرزاق: الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، بيروت،
لبنان (١١ مجلدًا).

(٦٣) مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٤) المعجم الصغير: الإمام الطبراني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٥) جمع الجوامع: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٦٦) الجامع الصغير: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

مراجع أخرى:

(٦٧) معجزات الرسول: محمد متولي الشعراوي، المكتبة الإسلامية الشعراوية، القاهرة، مصر.
(٦٨) الخصائص الكبرى: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
١٩٧٥م (مجلدان).

(٦٩) السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام، دار الجيل، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(٧٠) البداية والنهاية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (٧ مجلدات).
(٧١) المفردات: الإمام راغب الأصفهاني، مكتبة مصطفى البابي، مصر ١٩٦١م.
(٧٢) لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، مصر (٨ مجلدات).

- (٧٣) المنجد: دار المشرق، بيروت، لبنان ١٩٧٥ م.
- (٧٤) شرح المواهب اللدنية: الإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- (٧٥) دلائل النبوة: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢ م (٧ مجلدات).
- (٧٦) كتاب المبسوط: شمس الدين السرخسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٩٨٠ م (١٥ مجلدًا).
- (٧٧) الفتاوى العالمية: العلامة نظام الدين، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوچستان، باكستان ١٩٨٥ م (٦ مجلدات).
- (٧٨) فتاوى قاضي خان: حسن بن منصور الفرغاني الحنفي، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوچستان، باكستان ١٩٨٥ م (٦ مجلدات).
- (٧٩) رد المحتار: ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩ م (٨ مجلدات).
- (٨٠) حاشية الطحطاوي: الإمام أحمد الطحطاوي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
- (٨١) مراقي الفلاح: حسن بن عمار الحنفي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
- (٨٢) فتاوى أفريقيه: الإمام أحمد رضا القادري، مدينه پبلشنگ كمپني، كراتشي، باكستان.
- (٨٣) بهار شريعت: ربيع الشريعة: العلامة محمد أمجد علي، شيخ غلام علي ايند سنز، لاهور، باكستان.
- (٨٤) إمداد الفقه: محمد إمداد حسين بيرزاده، دار السلام، القاهرة، مصر ٢٠٠٣ م.
- (٨٥) اسلامي عقائد: العقائد الإسلامية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلي كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة ١٩٩٩ م.
- (٨٦) كنز العمال: العلامة علاء الدين البرهانپوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ١٩٨٥ م (١٦ مجلدًا).
- (٨٧) مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيتمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨ م (١٠ مجلدات).
- (٨٨) نزهة المجالس: عبد الرحمن الصفوري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (٨٩) نور الإيضاح: الشيخ حسن بن علي، كتب خانه مجيديه، ملتان، باكستان.
- (٩٠) قصيدة البردة: الإمام البوصيري، الترجمة الإنجليزية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلي كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة.

- (٩١) السيرة النبوية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- (٩٢) ضياء النبي: بير محمد كرم شاه الأزهرى، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٤١٥هـ (٧ مجلدات).
- (٩٣) الصراط المستقيم: شاه إسماعيل الدهلوي، اسلامي اكيدي، لاهور، باكستان.
- (٩٤) القول الجميل (أردو): شاه ولي الله، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
- (٩٥) سبل الهدى والرشاد: الإمام محمد بن يوسف الشامي، وزارة الأوقاف، القاهرة، مصر (١٢ مجلدًا).
- (٩٦) المنتظم في تواريخ الملوك والأمم: الإمام عبد الرحمن الجوزي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
- (٩٧) تاريخ الإسلام: المؤرخ شمس الدين الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (٥٢ مجلدًا).
- (٩٨) إمتاع الأسماع: تقي الدين المقرئ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٥ مجلدًا).
- (٩٩) حلية الأولياء: الإمام أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٢ مجلدًا).
- (١٠٠) الفقه الإسلامي وأدلته: وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام ١٩٨٩م (٨ مجلدات).
- (١٠١) الفقه الحنفي وأدلته: الشيخ صاغر جي، دار الكلم الطيب، دمشق، الشام ٢٠٠٠م (٣ مجلدات).
- (١٠٢) الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري، دار الفكر، بيروت، لبنان (٥ مجلدات).
- (١٠٣) لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م، (١٠ مجلدات).
- (١٠٤) الأدب المفرد: الإمام البخاري، مكتبة الآداب.
- (١٠٥) السيرة الحلبية: نور الدين الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
- (١٠٦) شرح الشفاء: القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
- (١٠٧) طبقات ابن سعد: مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ٢٠٠١م، (١١ مجلدًا).
- (١٠٨) بدائع الصنائع: علاء الدين الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٣م (١٠ مجلدات).
- (١٠٩) الموسوعة الإسلامية: الفيصل ناشران، اردو بازار، لاهور، باكستان (مجلدان).

(١١٠) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (١٠ مجلدات).
(١١١) الهداية: علي بن أبي بكر الفرغاني، مكتبة شركة علمية، خارج بوابة بوهر، الملتان، باكستان (مجلدان).

(١١٢) فقه السنة: السيد سابق، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (ثلاث مجلدات).
(١١٣) عمدة القاري، العلامة بدر الدين عيني، دار الفكر، بيروت، لبنان (٢٥ مجلدًا).
(١١٤) فتح الباري: الإمام ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(١١٥) الأحكام الفقهية: أحمد محمد عساف، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.
(١١٦) جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٠م.

(١١٧) المقاصد الحسنة: شمس الدين السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.
(١١٨) الفاروق: العلامة شبلي النعماني، مشتاق بك كارنر، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١١٩) المواهب اللدنية: الإمام أحمد القسطلاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٢٠) الحاوي للفتاوي: الإمام جلال الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٢١) الكواكب السائرة: الشيخ نجم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٢٢) الفوائد المجموعة: محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٣) حقوق الأولاد: محمد شريف الصواف، دار الفكر، دمشق، الشام.
(١٢٤) الإتيقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (٤ مجلدات).

(١٢٥) سيرة النبي: سيد سليمان الندوي، ناشران قرآن لميتد، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١٢٦) الخطبة العصرية: إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر.
(١٢٧) كتاب الخراج: الإمام أبو يوسف، مكتبة الأزهر للتراث، القاهرة، مصر.
(١٢٨) شرح شمائل الترمذي: سليمان بن عمر الأزهر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٩) البدر المنير: الإمام الشعراني، مكتبة عالم الفكر، القاهرة، مصر.
(١٣٠) الكامل لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
(١٣١) إرشاد العباد: عبد العزيز محمد سلمان، مطابع الخالد، الرياض، المملكة العربية السعودية.
(١٣٢) نسيم الرياض: شهاب الدين خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- (١٣٣) أسد الغابة: أبو الحسن الجزري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- (١٣٤) الإصابة: الحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- (١٣٥) جلاء الأفهام: ابن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة، مصر.
- (١٣٦) سيرة عمر بن الخطاب: أبو الفرج بن الجوزي، دار الدعوة الإسلامية، القاهرة، مصر.
- (١٣٧) الفاروق عمر: محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- (١٣٨) فيوض القرآن: سيد حامد حسن بلكرامي، فيروز سنز لميتيد، لاهور، باكستان.
- (١٣٩) نزهة القاري شرح البخاري: مفتي محمد شريف الحق أمجدي، دائرة البركات، كهوسي، اعظم كره، يوبي، الهند.
- (١٤٠) منهاج البخاري: محمد معراج الإسلام، عرفان القرآن، أعوان تاون، لاهور، باكستان.
- (١٤١) إرشاد الساري شرح البخاري: شهاب الدين قسطلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- (١٤٢) أيها الولد: الإمام الغزالي، Awakening Publications 200 UK Swansea.
- (١٤٣) دلائل النبوة: أبو نعيم الأصبهاني، دار ابن كثير، بيروت.

ثالثاً: المراجع الإنجليزية

- (144) Miracles of the Qur'an: Muhammad Mutawali ash-Sha'raawi, published by Daar-ul-Taqwa Ltd. London.
- (145) Encyclopedia Britannica: peter B. Norton, Joseph Espsito, USA, 1995.
- (146) Islam & the West: H.R.H. Charles Prince of Wales, printed by Uniskill Ltd. Eynsham, Oxford, UK.
- (147) Muhammad at Madinah: Montgomery Watts. Oxford University Press, 2006.
- (148) Oxford Encyclopedia Dictionary: published by Oxford University Press, USA, 1991.
- (149) Shari'ah the Islamic Law: Abdur Rahman Doi (Zia-un-Nabi).
- (150) The Holy Bible: published by Collins, London, 1954.
- (151) The Living Bible: British Edition, 1975.
- (152) The Hutchinson Encyclopedia: 1999 Edition.

- (153) The New Universal Encyclopedia: Caxton publishing Co, Ltd, London.
- (154) The English Pig: published by The Hambledon Press, London 1998.
- (155) American Government: Lowi & Ginsberg. Published by W.W. Norton Publication 1998.
- (156) Fream's Agriculture: printed by Butler & Tanner Ltd, London. 16th Edition 1983.
- (157) Oxford Advanced Learner's Dictionary: 4th Edition 1989.
- (158) The Hans Wehr Dictionary of Modern Written Arabic: Edited by J. M. Cowan, 3rd Edition.
- (159) The 100: Michael H. Hart, Citadel Press, 1987, New Jersey, USA.
- (160) The Bible, the Qur'an and Science: Maurice, 1979, North America, Trust Publication, USA.





